الساقية

الرّحيل

عبد المنعم الصاوى

الساقية

قصة الإنسان والأرض والحياة،
فى أجيال تعاقبت تواجه المشكلات فى
صمت أعلى من هتافات التمرد ،وصبر
أقوى من أندفاعات العصيان .
قصة الإرادة الصلبة ، تختفى وراء
ابتسامة رضى وقناعة
(تصدر فى خمسة كتب طويلة)
صدر منها :

● الضحية (١٩٦٢)
(٢٠٠٥)

ليرسم لوحة ناطقة لاستغلال
الإنسان للإنسان
وتسخير الأرض وما فى الأرض من
خير ، للأهواء والمصالح والشهوات
واعتبار الأرض ومن على الأرض
متاعاً خاصاً يسد ثغرات النفوس

وتتابع الساقية دوراتها ليصدر عنها
اليوم الكتاب الثانى :
● الرحيل

٢٠ جنيه

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر: شركة عالمية للنشر والإعلان
محمد عبد المنعم الصاوى وشركاه
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧ فاكس : ٧٣٨٠٠٢٥
بريد إلكترونى : sawy@alamia.net
طبعة عام ٢٠٠٥

رقم القيد بدار الكتب المصرية : ٦٨٩٣٠

الرحيل

عبد المنعم الصاوى

الساقية

السقيفة

الرحيل

عبدالمنعم الصاوى

الناشر
شركة عالمية للنشر والإعلان

الإهـــداء

مرة ثانية ...إليهما

"أبو المكارم" وسيدى "أحمد الذكيرى"

روح الحياة...وبركة الخلود

أقدم :

الكتاب الثانى...من:

الساقية

مقدمة

عندما انتهيت من الكتاب الأول. من الساقية، شعرت أن دمعة كبيرة قد استقرت على خدى، وأن لوعة هائلة قد نفذت إلى قلبى.

ولم أدر ماذا يكون مصيرى مع هؤلاء الناس، أو مصير هؤلاء الناس معى.

وأشفقت على نفسى معهم، أو الصحيح أنى أشفقت على نفسى منهم.

فإنى لأحيا معهم يوماً بيوم، وحدثاً بحدث.

أتنفس معهم جو القرية الصافى، واتسمع معهم إلى صوت الساقية وهى تدور، دوراتها المنتظمة الدءوب.

وأجد لزاماً على أن أصبر معهم، على قسوة الأيام، ومحنة الزمن.

منتظراً معهم يوماً، قد يشرق ذات صباح بالأمل، ويومض بالرجاء.

وأغمض عينى على أمواج تتلاحق، لتخنق أنفاس عروس بريئة، شاء لها قدرها، أن تكون ضحية أنانى عجوز قادر.

وعلى صوت مخنوق كالعواء، يبكيها فى حسرة ...

وعلى ضحكات بريئة، يطلقها رضيع لا يدرى أين أمه، وماذا حدث لها ! ولا أى مصير ينتظره فى هذه الدنيا الزاخرة..بعدها.

..وعلى ساحة من الطبيعة، تتسع للدمع والألم والصبر والأمل جميعاً. وعلى حقول خضر مبسوطة كامتداد البصر.

وشجرة صفصاف، عجوز، تلتف حول نفسها فى استحياء، وتوسع من نفسها، ومن أغصانها، مكاناً حنوناً، لفتى أخرس، يبثها لوعته الصامتة.

وضريح "سيدى الذكيرى" يملأ هذا الفراغ، بالقناعة والتقوى.

والساقية تدور...تحمل مع دوراتها ماء يتدفق بالحياة...لا يهمها لمن، أو من أجل من. وإنما هذه طبيعتها.

وأكاد أقف عند هذا، حتى لا تتمزق نفسى.

بل ربما، حتى لا يعجز قلمى عن مواجهة هذه الأحداث المتلاحقة.

على أن القصة لم تنته. ولا يزال هناك أمام هذا القلم شوط طويل.

وأتوكل على الله لأبدأ هذا الكتاب، فإذا انتهيت منه فسيكون على أن أستأنف المسير، فى طريق طويل، أرجو أن يمتد بى العمر، لأصل منه إلى الغاية.

..هكذا ...كالساقية!!

عبد المنعم الصاوى

١

ـ هل كانوا يهتمون بى هذا الاهتمام لو لم أكن هنا؟

إن هذه الدنيا غريبة، وأغرب منها أحكام الناس ومقاييسهم، والموازين التى يزنون بها حتى العواطف والمشاعر والانفعالات !!

لقد كنت دائماً فى نظرهم نسياً منسياً. لم يكن يحفل أحد بى. أعود وقتما أشاء، وأخرج وقتما أريد، وطعامى- كطعام الكلاب أو القطط أو العصافير ـ موضوع دائماً على أريكة صغيرة كالحة فى ركن من أركان حجرتى. آكله وقتما أحضر، وأنام دون أن يتنبه أحد لوجودى، أو يحفل حتى بالسؤال عنى أو الاطمئنان على.

فلما أتوا بى إلى هنا...

وضحك الاثنان ضحكاً متواصلا، لم يقطعه إلا دخول الحارس، الذى أقبل فى نوبة تفتيشية لم تخل ـ مع هذا ـ من بعض المداعبات.

قال "جلال":

ـ لا تخف.. لم يهرب أحد. كلنا هنا. بالعكس لقد زاد محصول اليوم بقادم جديد ! أم ترانى هربت؟

وهز الحارس رأسه وهو يقول:

ـ ليتهم كلهم مثلك يا "جلال" أنت معتقل مثالى.

ـ وضحك "جلال" ساخراً وهو يقول:

ـ الآنى جبان لم أحاول الهرب يا حضرة الحارس؟ سأهرب حتى لا تتهمنى بأنى مثالى !

قال الحارس:

ـ اهرب أنت، وأسجن أنا ! هل هذا يرضيك؟ هل هذه هى مبادئك؟

قال "جلال":

ـحتى لا أستمر مثالياً فى نظرك. من هو المعتقل المثالى؟ الجبان !!

وهز الحارس رأسه وهو يقول:

ـ أنت أنت لن تتغير يا عفريت ! ولكنك مع هذا ... أنت تعرف.

وخرج الحارس، وخلت الغرفة إلا من "جلال" وزميله، وضحكات صاخبة، تهز مكان المعتقل هزاً، فى هذا الوقت البديع من أوقات النهار.

ونظر "جلال" من النافذة، وامتد بصره إلى بعيد، فتجاوز جدران المعتقل الرهيبة، والأسلاك الشائكة، وأكشاك الحراسة المنثورة هنا وهناك، ثم استقر نظره على قرص الشمس البديع، وهو يتدلى قليلا قليلا، بين سحب وردية، تتوهج بحياء مكتوم، يخفى لوعة المحروم أو المحموم.

والدنيا كلها صامتة، ولا شئ فى الوجود الذى يراه إلا منظر المغيب، وسط بساط لا ينتهى من الرمال.

وزفر زفرة طويلة عميقة، واستند إلى الحائط كسكران يخاف ألا تحمله قدماه، وظهر فى عينيه أسى غريب.

وبدأ منظره مؤثراً، وهو فى هذا الشرود.

وأخذ يتمتم لنفسه، فى شبه عبادة أو مناجاة:

ها هى ذى راحلة ...إنها راحلة. كل يوم ترحل، فى هذا الوقت من النهار، ورحيلها هو دائماً إيذان بليل جديد، بظلام، بغلالة كثيفة سوداء، تخفى كل شئ حتى الحقيقة ! بشئ

ثقيل طويل ممل، تكثر فيه الهواجس والأوهام، ويسود أمثالنا خوف من شئ مجهول ! راحلة. هى راحلة ! ولماذا الرحيل يا غالية؟ يا نور الدنيا، وشعاع الأمل؟ لماذا الرحيل؟.. ألا بد من الرحيل؟ ألا بد من أن ترحل الأشياء والمعانى؟.. ألا بد من أن يرحل الناس كذلك؟ هل لابد من أن يذهبوا؟

وتحدرت دمعة على خده المتورد الجميل.

وتعثرت فى حلقه الكلمات، ولكنه مع هذا، ظل متعلقاً بمنظر المغيب... بالراحلة الغالية، يذكر فيها كل رحيل وكل راحل.

فما إن اختفت تحت طيات السحب، وأخذت آثارها الوردية، تتلاشى رويداً رويداً فى السحاب المحيط بها، حتى اعتدل فى وقفته، كمن استفاق من نوم طويل، وإذا زميله يتطلع إليه فى دهشة، لا يدرى ماذا يقول.

لقد عقد المنظر لسانه، فلم يعد قادراً على الكلام.

لكن "جلال" حطم هذا الصمت، بضحكة عالية عاتبة، جعلت زميله يزداد حيرة وارتباكاً.

ما هذا؟ ألم يكن من لحظات قصار، كأنه فى محراب؟ ما هذا التغير المفاجئ الغريب؟

ولم يدع له "جلال" فرصة لتفكير. فقد قال له:

- هل يا ترى تعرف كيف تشعل النور هنا؟ أوقد المصباح. أم تراك تفضل الظلام كالخفافيش؟

ولم يقل صاحبه شيئاً، ولكنه مضى، فأوقد المصباح، فى حين تمدد "جلال" على سريره فى ركن الغرفة، وأخذ يتطلع إليه، وعلى شفتيه ابتسامة طيبة.

قال "جلال":

- ماذا تفضل أن تفعل فى ليلتك هذه الأولى فى المعتقل. إذا كنت تريد القرءاة، فاقرأ كما تشاء. وإن كنت تفضل الكلام، فأنا رهن إشارتك، انت تختار، أنت ضيفنا الليلة

وعلينا أن نكرمك. قلت لى إن اسمك "ممدوح" أليس كذلك؟ قل لى يا "ممدوح" ماذا تريد أن تفعل الليلة؟ ربما تفضل أن تنام، خاصة بعد زيارة أهلك لك. وما عسى أن تكون قد تركته فى نفسك من انفعالات.

قال "ممدوح":

ـانفعالات؟ إنى أعجب لهذا الاهتمام ! لماذا لم يكونوا يهتمون بى من قبل. لقد كنت معهم طيلة عمرى، فلماذا لم يشعروا بى إلا عندما أتوا بى إلى هنا.

قال "جلال":

ـألا يشغل بالك إلا هذا؟ أنت مسكين ! وما عيب هذا يا "ممدوح"؟ بالعكس، إنها ظاهرة تحمل على الارتياح، فهى تدل دلالة قاطعة على أن ارتباط الناس بنا يزداد ونحن هنا، وأن المعتقل ليس معناه عزلنا عن المجتمع، ولكنه تأكيد لارتباطنا بالمجتمع على عكس ما أراد الذين قرروا اعتقالنا، وأنت كما ترى، خير دليل على أن البلد بخير. كنت كمية مهملة فى بيتك، ثم أصبحت شيئاً هاماً بعد اعتقالك.

إن اهتمام الناس بنا يزداد هنا، إن التفاتهم إلينا ونحن هنا، يؤكد أنهم معنا، وأنهم يحبوننا، وأنهم يثقون بنا، ألا ترى؟ احمد ربنا إذن أنك اعتقلت، لتزداد علاقة أهلك بك، ولتتأكد عندهم المعانى والأهداف التى من أجلها اعتقلوك. لماذا تسخر من أهلك؟ على العكس يجب أن تحترمهم، وتحاول أن تدرس هذه الظاهرة التى تبدو عليهم، لتقيس عليها حياة البلد كله واتصاله بالذين يضعونهم هنا، فى هذه العزلة النائية، متوهمين، أن مصيرهم أن ينساهم الناس. ينسون ماذا؟ لا أدرى. ينسون الأفكار التى يمثلونها؟ ينسون الكلام الذين يقولونه؟ إنهم بهذا يضربون رءوسهم فى الصخر، فالكلمة شىء لا يعتقل، والفكرة لا تسجن. أما نحن وسوانا فمصيرنا إلى رحيل مهما طالت أعمارنا. أما ما نقوله، ونذيعه ونعتقل من أجله، فباق يا "ممدوح"، خالد، لن يرحل ابداً. لن يرحل...لن يرحل، كما رحلت الشمس التى رأيتها ترحل منذ قليل.

وعاد إلى "جلال" صمته، وهو يستعيد هذا الرحيل.

قال "ممدوح":

لكن قل يا أخى. لماذا تتأثر بمنظر المغيب إلى الحد المفزع الذى بدا عليك منذ قليل؟

قال "جلال":

ـكل مغيب له فى نفسى هذا الأثر. كل رحيل. كل شىء مفقود. الا بد من أن يرحل الناس، وترحل الأشياء؟ ألم يكن الله قادراً على أن يخلقنا لنخلد ولا نذهب أبداً؟ إنى أتصور الرحيل عادة كأنه انتزاع شىء من موضعه ومن مكانه. أراه شيئاً قاسياً ووحشياً ورهيباً. لا تقل عنى إنى ملحد أو كافر. أبداً ستعيش معى هنا، وسترانى أؤدى فروض الله إيماناً به وولاء له. ولكن الرحيل يا "ممدوح" شئ يهز كيانى هزاً. إنه حرمان. إنه نوع من سيطرة الغالب على المغلوب. ولك أن تتصور فقيراً جائعاً. هل تحتمل المنظر، وهو يئن من قسوة الحاجة والحرمان؟ بل لماذا أنت هنا؟ لماذا أتوا بك إلى هذا المعتقل؟ ألم يكن ذلك من أجل شىء شبيه بالرحيل؟ ستقول حقوق البلد وحريتها؟ أعلم هذا مقدماً.

وضحك "جلال" وهو يقول مداعباً:

ـ ما لم تكن بوليساً سياسياً، أتوا بك لتعرف نوايانا وخططنا، وترشد عنا؟ وانتفض "ممدوح" كالطير الذبيح، وهو يصيح:

ـأنا؟ ..يا نهار أسود ! أنا بوليس سياسى يا "جلال". يا شيخ حرام عليك.

قال " جلال":

ـيا أخى. ألا تقبل الدعابة؟ أية حياة تكون حياتنا هنا، لو لم يتخللها قليل من الدعابة؟ فيم كنا نتحدث من قبل؟

قال "ممدوح":

ـ فى الرحيل ...

قال "جلال":

ـ نعم.. ذكرت الآن. فيم كان مجيئك إلى هنا؟ من أجل شىء شبيه بالرحيل يا بنى. ألم يرحل استقلال بلدك؟ وكذلك حريتها.

قال "ممدوح" كتلميذ فرغ من مذاكرة دروسه :

ـ لا ...بل اغتصب. لم يرحل.

قال " جلال" وهو يضحك:

ـالله يجزيك يا "ممدوح"، وما الرحيل الذى نتحدث عنه؟

قال "ممدوح":

ـالرحيل يتم اختياراً وبإرادة الراحل.

قال "جلال" وقد عبس عبوساً حزيناً:

ـالميت مثلا يرحل اختياراً؟!

قال "ممدوح":

ـ المسافر يقوم برحلته عن اختيار.

قال "جلال":

ـلنتفق على المعانى أولا، حتى يسهل بيننا بعد ذلك التفاهم. إن الرحيل الذى أعنيه لا يتم اختياراً أو بإرادة صاحبه، ولكنه يتم قسراً وظلماً وانتزاعاً.

قال "ممدوح":

ـ ومغيب الشمس. من أى نوع هو؟

قال "جلال":

حتمية الطبيعة ...ولا اختيار للشمس فى هذه الحتمية، فهو إذن رحيل من النوع الذى أعنيه. دع لى هذا التفسير يا "ممدوح" فإنها لحظات من أقدس اللحظات إلى نفسى، أخفف فيها ما فى نفسى من كراهية للرحيل، للذهاب، للحرمان، للغدر والقسوة والوحشية والجبروت.

وسكت "ممدوح"، وهو يكاد يرى دمعة تراود جفنى هذا الزميل.

●●●

وبعد لحظة صمت لم يدر "جلال" أو "ممدوح" كم طالت، بدأ يستأنفان الحديث.

قال "جلال":

ـ اعتدنا هنا أن نسأل ضيوفنا، فى ليلتهم الأولى، كيف أتوا بهم إلينا، ليزداد تعرف كل منا للآخر، وتتحدد كذلك طبيعة علاقته بالأخر. وأنت ضيف جديد قادم إلينا. هل أقول أولا أهلا وسهلا. شرفتنا؟ أو أسألك السؤال التقليدى الذى نسأله عادة:

ـ كيف أتيت؟ كيف اعتقلوك؟ ولماذا اعتقلوك؟

قال "ممدوح":

ـلن تصدق. لقد جئت إلى هنا، من أجل عينيها.

ورفع "جلال" قامته وهو يسأله:

ـعينى من؟ هل بلاغة هذه؟ عينى مصر؟

قال "ممدوح":

ـ بل من أجل عينى "مديحة".

وجلس "جلال" على سريره، وأطال النظر إليه، ليتأكد من أنه هو الذى يتكلم وعاد يسأل:

ـ ماذا تقول؟ ما الذى أتى بك إلى هنا؟

قال "ممدوح"، وهو يبتسم:

ـ قلت لك إن عينى "مديحة" هما اللتان أتتا بى إلى هنا.

قال "جلال" فى تعجب:

ـ عينى "مديحة" تقول؟!

قال "ممدوح":

ـ نعم يا صديقى، عينى "مديحة". هل تعجب منى؟ لو رأيتهما يا "جلال" لهان عليك أن تدخل من أجل عينيها جهنم!

وفجأة أرسل "جلال" ضحكة طويلة متصلة وهو يطلب إليه أن يروى له قصته:

لعلى الآن أرضيتك يا "مديحة"، ولعلك تفكرين الآن فى، كما فكرت فى "سالم". لن أنسى ذلك اليوم أبداً، وأنت تتحدثين عن "سالم" حديثاً يملؤه الإعجاب والافتتان... وكنت تشردين بعينيك وأنت تتحدثين، كأنما تحلمين.

ولكم حاولت يا "مديحة" أن أثير انتباهك إلى كما اعتدت دائماً، فلم تعيرينى هذه المرة نظرة. نظرة واحدة من عينيك !

ما كان أقسى عينيك يومها ! بل ما كان أقسى قلبك !

وكيف كان يمكن أن تعيرنى لفتة ..نظرة.. وهأنذا كما ترانى ! ماذا أقول؟ أنت ترى أنى أعرج، لكنها كانت برغم هذا شديدة التعلق بى. وفى هذه المرة لم ترنى إلا أعرج ! على أنى - أقسم بالله - مخلص جداً، ووفى جداً، وقلبى طيب إلى أقصى حدود الطيبة. وأنا - مع ذلك كله - أحبها يا أخى أنا إنسان، ولى قلب يخفق بين ضلوعى. هل قلبى هو الآخر أعرج؟ أبداً. قلبى سليم، ملئ بالنبض الحى، والخفق، والحب. ولم أحب إلا "مديحة". "مديحة" وحدها، بعينيها الساحرتين الفاتنتين.

لا أرى إلا "مديحة". حتى أمى كنت أرى فى عينيها عينى "مديحة".

كنت أسمع فى صوتها، صوت "مديحة". كنت أحس وأنا أتحدث إليها، أنى أتحدث إلى مديحة. أخواتى جميعاً، كن عندى "مديحة". بل كتبى التى أقرؤها. دروسى التى أستذكرها. كلها تحوى صورة "مديحة". كل شىء.

شجرة التوت التى فى بيتنا. مجلس أبى بين أصدقائه. النوافذ التى تطل علينا.

الجيران جميعاً. زملائى فى الدراسة. كل هؤلاء كانوا عندى "مديحة".

أراها فيهم. أراها فى كل مكان. فى كل ركن فى الأرض. الهواء أشمه، فأشم رائحتها. الصور تتلاحق، وهى جميعها صورتها. الأصوات تتداخل، ولكنها تنتهى بصوتها وحدها.

ولولا "مديحة" ما تحملت عاهتى. كنت أريد أن أعوض كل ذلك بشىء أبقى، وأهم لديها. فكنت لا أبدد وقتى فى شىء إلا المذاكرة والقراءة، لأكون أفضل من يحيطون بها. لتنظر إلى بعينيها العميقتين الرائعتين.

ولو حكيت لك عن عينيها، لتعبت أنت من الاستماع، وما تعبت أنا من الحديث. هل تعرف البئر، عندما تطل منه، فتحس رهبة تسرى فى ضلوعك، وتشعر أن شعر رأسك يقف من الهول؟.. هل تعرف النار، عندما تقترب منها بوجهك، فتلسعك لسعاً حاراً، حتى لتعود إلى وراء، خشية أن تحرقك؟.. هل تعرف الشطة تضعها على الفول المدمس، فيجعل له طعماً لذيذاً، ولكنه مع ذلك يكوى لسانك، فلا تستطيع أن تكثر منه وإلا فقدت حلقك؟ هل تعرف طاقة القدر وما يقولون عن نورها الوهاج، وكيف تفلت من الناس فرصة الحصول على كنوز الدنيا، لأن عيونهم تتكسر أمام حدة هذا الوهج. كل هذه يا صديقى.. عيناها ! بل فى عينيها رحمة وشفقة ولين وطراوة. فيهما حنان، فيهما أمل. وفيهما كذلك حزن عميق لا أدرى مصدره. كذلك فيهما شقاوة وجموح، ورغبة تروضها فى قدرة فائقة. وباختصار يا أخى إن عينى "مديحة" هما الدنيا بكل ما فيها من عناصر. هما الحياة. هما النعيم. هما الشقاء. هما كل ذلك جميعاً.

●●●

هل تذكرين يا "مديحة" أيام طفولتنا، ونحن نعيش فى ذلك البيت الكبير الواسع، ذى الفناء القديم فى الدرب الأحمر؟

كنت أهيم من يومها، وكنا لا نزال ـ أنت وأنا ـ ننطق الألفاظ ملتوية، أو منقوصة، أو محرفة. ولكنا، أو أنا على الأقل، عرفت الحب من ذلك اليوم. وكم كنت أفرح عندما كنت تقبلين أن نلعب لعبة العريس والعروس، والأولاد يزفوننا ويرقصون أمامنا ويودعوننا حتى باب قديم متداع، لغرفة مهدمة، كانت فيما مضى غرفة بواب يحرس هذا الربع القديم، عندما كان يملكه وجهاء أو أعيان. ولكم كنت أتمنى فى كل مرة، تصل فيها الزفة إلى هذا الباب، أن تصبح اللعبة حقيقة، وأن يغلق علينا الباب، فلا يفتح بعد ذلك أبداً. على أن الحلم يبقى مع ذلك حلماً. لم يصبح أبداً حقيقة. فما هى إلا لحظات، ثم يفتح الأولاد الباب، ليصيحوا صيحات مفزعة، تحطم الحلم الذى عشته للحظات.

على أنى أراهنك. أنت أيضاً كنت تحبيننى. أنت أيضاً كنت تختاريننى من بين كل صبيان الحى، لألعب دور العريس. كانوا يتنافسون عليك يا "مديحة"، فلم تكونى تسمحى

لأحد بأن يأخذ منك هذا الدور الجميل، إلا أنا. وكنت مع هذا أعرج ! لم أكن كالآخرين، قادراً على أن أقفز كفرسان العصور الوسطى. لم أكن أستطيع أن أجاريهم فى ألعابهم الشقية، ولكنى كنت أحاول على أى حال، والأولاد يسخرون منى، ويضحكون ويمزحون. وكنت أحس أن مزاحهم هذا كطعنات السكين تخترق ضلوعى ولكنى كنت أصبر. فقد كنت أعرف مقدماً، أن لديك الدواء. كنت تسرعين إلى، وتأخذين بيدى، وتمنحيننى ابتسامة من ابتسامات الجنة، التى تدخرينها بين شفتيك.

بل كنت تتطلعين إلى، وفى عينيك حنو عطوف، أكثر فعلا فى نفسى من تعويذات أمى وصديقاتها من عجائز الحى، وأقوى مفعولا من دعوات المشايخ الذين كانت تستقدمهم من أجلى.

كنت يا "مديحة" أكره هذه التعاويذ والدعوات، كما كنت أكره الوصفات المختلفة التى كانت توصف لى. فقد كان ذلك كله يذكرنى بعجزى.

يؤكد لى عجزى. ولكن دموع أمى، كانت كفيلة بأن تجعلنى أقبلها على كل حال. أما الشىء الذى كنت أحبه وانتظره، فهو ابتساماتك أنت، ونظراتك أنت. كانت شيئاً آخر. كان حباً يا "مديحة"، والحب أقدر على تحقيق المعجزات من أى دواء، أو تعويذة، أو دعاء.

ولقد كان حبك يزداد فى قلبى عمقاً، كلما كانت الحياة تزداد على قسوة.

أنا لم أقل لك ماذا كنت أعانيه من كل الأولاد، حتى إخوتى وأخوانى، طول النهار... وما كنت أعانيه طيلة ليالى من أبى وأمى.

فبعد أن كان النهار ينقضى بكل ما فيه من سخرية، كنت آوى إلى فراشى لأنام. لقد كنا نسكن بضع حجرات من الربع، أمام الحجرات التى كنتم تسكنونها. وقد شاءت أمى أن يكون منامى معها فى حجرة والدى. وكان أبى يسألها، وهو يظن أننى نائم: لماذا... لماذا ينام هذا معنا؟

فكانت تقول له: أعرج مسكين !..ربنا أراد له هذا.

وكان أبى يتحسر على قليلا، ثم يقول هو الآخر مازحاً، لابد أنه ميراث منك، فأنا كما ترينني، سليم معافى، ولم يعرف عن أحد من جدودى أنه كان أعرج.

ويتشاحنان على. هى تؤكد أن الولد لأبيه، وهو يصر على أن الولد أحياناً لخاله. وتطول مشاحناتهما على عرجى، حتى لأكاد أفزع من نومى، وأصرخ فيهما أن اتركانى. أنا راض بما قسمه الله. لقد عوضنى بك يا "مديحة" فاسكتا...اسكتا عنى.

ولكنهما كان يسكتان قبل أن أصيح صيحات احتجاج عليهما. كان يلفهما الظلام، فينسيان فى الظلام، الأعرج المغلوب، الملقى فى ركن قصى يتسمع ما يكون بينهما من النجوى.

هذا لم أقله لك "يا مديحة" أبداً فقد كنت أستحى أن أقوله، ولكنى أرويه الآن لصديق معتقل، لن يجد طريقه إلى أن يبوح به لأحد.

على أنك يا حبيبة قلب كواه النار، كنت تطفئين هذه النار. نظراتك الوديعة كانت تصب على هذه النار ماء بارداً نقياً.

●●●

هل تذكرين يا "مديحة"، أول يوم أرسلونى فيه إلى المدرسة.

يومها بحت لك بما لم أبح به من قبل. أتذكرين ما كان بيننا من حديث ونحن جالسان تحت الشجرة العتيقة فى الفناء؟ أنا لن أنسى ذلك ما حييت، فقد كان هذا الحديث، هو الأمل الذى عشت عليه زمناً طويلاً من حياتى. أكاد أسترجع هذا الحديث بألفاظه يا "مديحة".

- إنى خائف من المدرسة يا "مديحة".

- لماذا يا "ممدوح"؟ المدرسة شىء جميل وستكون فيها موفقاً بإذن الله.

- ألا ترين حالتى. سيضحك منى الأولاد كما يضحكون منى هنا.

- أولاد المدرسة غير أولاد هذا الربع، وغير أولاد هذا الحى كله.

- أليسوا أولاداً من مثل هذه الربوع والأحياء؟ أنت فقط تهدئيننى.

- لكن المدرسة تعلمهم الأدب. وهناك معلمون لا يسمحون لهم بهذا.

- إذن يضحكون منى عندما يخلون إلى أنفسهم، أو يضمنون أن أحداً من المدرسين لا يراقبهم.

- يا "ممدوح" أنت أحسن منهم جميعاً.

- صحيح يا "مديحة"؟ هل هذا هو رأيك فى؟

- وتستطيع فى المدرسة أن تكون شيئاً آخر.

- قولى لى كيف يمكن هذا؟

- بالمذاكرة، والتفوق.

- وهذا يجعلنى أحسن منهم جميعاً؟

- أنت تحس أنهم أحسن منك الآن. فيم؟ فى اللعب، والجرى، والقفز...أليس كذلك؟

- نعم. هم أقوى منى. هم أقدر منى على فعل أشياء أعجز أنا عن فعلها.

- إذن تتفوق عليهم أنت فى الدراسة، وفى المذاكرة، فتصبح أحسن منهم جميعاً. تصبح أقدر على عمل أشياء لا يستطيعونها هم، بالجرى واللعب.

- هل هذا صحيح؟

- هل يلعبون طول عمرهم؟ إن أبى يقول أن للعب سناً معينة، أما العلم فيرافق الإنسان حياته كلها. ضع هذا فى ذهنك، وسترى أنك ستصبح أحسن منهم، إذا أنت تفوقت عليهم فى الدراسة.

- فإن فعلت يا مديحة...فهل...؟

- هل..هل ماذا يا "ممدوح"؟

ـ هل تستمرين تحبينني؟

ـ ذاكر وسترى.

●●●

ولقد كان هذا يا مديحتى، هو الأمل الذى ذهبت به إلى المدرسة.

من أول يوم لى فى المدرسة، وضعت أمام عقلى وضميرى كلماتك هذه البديعة.

مـر الصبـاح. صبـاح اليـوم الأول، والأولاد يتـغـامـزون علىّ، ولكنـى من الدرس الأول استطعت أن أحول هـذا المزاح إلى شىء من الدهشـة والعجب، ثم إلـى احتـرام لازمنى فى المدرسة طيلة عهدى بالدراسة.

لقـد ركـزت فى المعلم نظـرى، وعقلى، وأعصـابى جميـعـاً. تعلقت به كالغـريق يحاول النجاة. فلما وجه أول سؤال له للتلاميذ عجزوا جميعاً عن الإجابة. فقد كانوا مشغولين عنه، بالنظر إلى مـلابسـهم الجديدة الزاهيـة، وطرابيشـهم الطويلة العـالية، وأحذيتـهم اللامعة البراقة.

ولم يستطع واحد منهم أن يجيب إلا أنا. أنا فقط وقفت أدارى عرجى، وأخذت أكرر له الإجابة بألفاظه هو، وكنت ـ كما قال المعلم بعد ذلك ـ رائعاً وذكياً ومتفوقاً. وكان هذا أول درس لقنته للذين سخروا منى فى الصباح.

ومن يومـهـا، تحـولت عـاهتـى إلى ميـزة من ميـزاتى. كنت ملجـأ التـلاميـذ يأتون إلى ليدركوا ما فاتهم من شروح المعلمين.

وأقبلت إليك يا فاتنة، يوم ظهرت أول نتيجة لى فى المدرسة، لأقول لك:

ـ انظرى. أول الفصـل أمـامك وبين يديك. على أنى أحب أن أوضح لك أن الفـرق بين الأول هذا المتواضع الواقف أمامك، والثانى بعده، فرق بعيـد جداً. وأن ناظر المدرسة لم يعبأ بإعـلان أية نتيجـة إلا هـذه النتيجة، ولو سـمـعته وهو يقـول عنى كلامـاً غـريباً جداً، لأدركت أننى نفذت طلبك. فهل نفذت أنت طلبى؟

يومها يا "مديحة". يومها، وللمرة الأولى فى حياتنا، أخذتنى بين ذراعيك وضممتنى إلى صدرك، وأنت فرحة مسرورة، كنت رائعة يا "مديحة" قلبى. أما عيناك، فقد نطقتا بكلام أفصح من كل كلام قلته، وأكثر جمالا وفتنة من الضمة الأولى إلى صدرك وهى شىء أحس ـ حتى هذه اللحظة ـ لهيبه الدافئ الجميل.

●●●

ويسكت "ممدوح" لحظة، وهو يأخذ نفساً طويلا.

ثم ينظر إلى زميله فى المعتقل، ويقول:

ـ هل ترانى أثقل عليك بهذه الروايات السخيفة؟

ويجيبه "جلال" فى حب وحنان:

ـ أبداً يا "ممدوح" ...أحك لى كل شىء. أنا أشاركك عاطفتك تماماً. أنا أقدر حبك تقديراً كبيراً. لا تظن أنى حجر. أبداً. إن الذى أتى بنا إلى هنا كلنا، هو الحب. كلنا نحب، وإلا ما أتينا إلى هنا. لو أن قلوبنا قد قدت من صخر، ما أحببنا. ما شعرنا بمتاعب أحد، ما قدرنا أن هناك شيئاً جميلا فى الحياة، يستحق التضحية، إلى هذا الحد. تكلم يا "ممدوح" اترك لقلبك العنان، فإن قلبى مفتوح لك يا صديقى. لا تكتم عنى شيئاً، فليس عندنا هنا ما نكتمه. نحن بين هذه الجدران الغليظة أكثر حرية من أولئك الذين يمرحون فى الهواء الطلق، ولكن تقيدهم السلاسل والأغلال، من الوهم والخوف والقلق. إنهم يفزعون من خيالاتهم. أما هنا، فأجسامنا فقط هى المحبوسة، أما عقولنا، أما ضمائرنا، أما مشاعرنا، فطليقة كالهواء. إن الحرية ليست أن تعيش بلا حراس. الحراس الحقيقيون فى النفوس. فى الأوهام. فى الهواجس. وما أشدهم وأثقلهم هؤلاء الحراس ! تكلم يا "ممدوح" يا صديق المعتقل.

وارتاحت نفس "ممدوح" وهو يسمع هذا الكلام، وأخذ نفساً آخر طويلا، ثم عاد فاستأنف الحديث، كأنما يرويه لنفسه، فيما بينه وبين نفسه

●●●

لقد مضت حياتى بعد ذلك يا "جلال" باسمة رائعة.

أخرج فى الصباح إلى مدرستى، أكاد أقفز من فرط ما أحسه من السعادة والرضى، ومن فرط ما أشعر به من الثقة والاطمئنان. كانت المدرسة لى هى المكان الذى أمارس فيه تفوقى وأعوض فيه عن نفسى، ما أشعر به من نقص. هناك فى الفصل كنت أنبرى، فى كل درس، وأمام كل معلم، أجيب عن أى سؤال بلا تردد.

وكان التلاميذ يتطلعون نحوى كأنى أسطورة.

والذين حاولوا منهم أن ينافسونى، تقطعت أنفاسهم فى منتصف الطريق، وعادوا حيارى خائبين.

وذاع صيتى فى المدرسة وبين المعلمين.

وكنت أعود كل يوم من المدرسة منفوشاً كالطاووس. كنت أتثنى بقدمى هذه القصيرة كأنما هى ميزة ميزنى بها الله، لا عاهة من غضب الله. كنت أشعر أنى مارد بين أقزام.

وفى فناء الربع الذى كنا نقيم فيه، كنت ألقاها، "مديحة" الرائعة الفاتنة. كنت معها كل يوم على ميعاد. كانت تنتظرنى، لتسمع منى القصص والحكايات.

وأصبح أبى كثير الحديث عنى، وأصبحت أمى كثيرة الدعاء لى. لطالما أطلقت البخور لتحمينى من عيون الحساد. كانت تتذرع بالدعوات، الأوراد، والأحجبة، لتدرأ عنى الجارات، ممن يتعثر أولادهن فى الدراسة، ولا يستذكرون دروسهم إلا بالشتائم والإهانات، وألوان كثيرة من التقريع.

حتى إخوتى، حتى الذين يسبقوننى بسنوات، كانوا يلجأون إلى يسألوننى مساعدتهم فى بعض الدروس.

وأحسست أن شهيتى قد فتحت لمزيد، فأخذت أسبق سنى، وأسبق سنوات عمرى فأستذكر دروس إخوتى الكبار. أقرأ كتبهم، وأستوعب دروسهم، وأسبقهم فى المذاكرة والتحصيل.

وكانت "مديحة" تتفاخر بى. كانت تراهن أى ولد منهم بى. إذا عاكسها أحدهم عيرته بى، وتحدته أن تناديني لمباراة فى الدروس، فكان يتوارى خجلاً ويخاف أن ينكشف أمره أمامى.

على أنى لم أكتف بالدروس. لقد قلت لك إن شهيتى قد فتحت. كنت أذهب إلى دار الكتب، ألتهم ما تقع عليه يداى. أقرأ، وأستوعب، وأحفظ كثيراً من النصوص. ثم أخذت أتردد على دروس إضافية فى اللغات، فتفوقت فيها جميعاً، وبدأت أقرأ فى دار الكتب، كتباً باللغة الإنجليزية. الأشعار. الفسلفة. التاريخ. وأنا بعد تلميذ يستعد لدخول امتحان الشهادة الابتدائية.

كم كان حديثاً يا "جلال" يوم ظهرت نتيجة الشهادة الابتدائية.

عشرون ألفاً أو يزيد دخلوا الامتحان، وكنت أولهم يا "جلال". ونشرت صورتى فى صدر الصحف اليومية، لا لأنى أول الشهادة الابتدائية، ولكن لأنى حصلت على أكبر مجموع منذ أجريت امتحانات هذه الشهادة. ستعجب منى إذا قلت لك إنى كنت أعرف هذا، وكنت واثقاً منه. وقلت "لمديحة" إنى سأكون أول الشهادة. قالت إن شاء الله، ولم تكن تدرى أنى أعنى ما أقول. كانت تظننى أزهو أمامها. ولما ظهرت النتيجة، كانت هى أول من جرى نحوى. وأمام أهلى جميعاً هجمت على تبارك لى هذا التفوق العظيم، وحظيت منها بضمة أخرى، لا تزال تلهب صدرى وتؤججه. أما نظراتها يومها، فلا تسألنى عنها يا "جلال". شىء تقتحم من أجله أسوار اللهب، أو تدخل فى سبيله جهنم، وأنت راض سعيد.

وقضيت يا "جلال" إجازة رائعة.

لقد ضمن لى التفوق، السمعة والاحترام والثقة، فلم يعد أحد يشك فى تصرف من تصرفاتى. حتى أهل "مديحة" وثقوا بى ثقة عمياء. تركونا معاً نفعل ما نريد.

واتفق أهلى وأهلها على أن يكون كل منا للآخر، وكان غريباً منهم أن يتركونا أحراراً أكثر مما كنا نتوقع، تقديراً للتفوق الكبير الذى حققته بمساعدتها.

ولقد وجدت هذه الثقة مكانها من نفسي، فاحترمت ما كان بيني وبين "مديحة" من علاقة، بل قدست هذه العلاقة تقديساً. لقد كانت "مديحة" هي مسجدي. هي صلواتي. هي عبادتي. هي التسبيحة المباركة التي أتقرب بها إلى الله سبحانه. لقد كنت أحبها أكثر من نفسي، ولا أزال.

وكان هذا الحب الرائع هو السياج المنيع الذي يحميها من أية نزوة أو هفوة.

وأنا كذلك حريص عليها حرصي على نفسي. وإني لأوثرها على الدنيا جميعاً.

هل تعرف يا "جلال"، أن الحرية التي تركنا فيها أهلنا، أهلها وأهلي، هذه الحرية، زادت شعوري بالمسئولية عنها. وحاولت أن أحملها على أن تشاركني جمال ما أعرف وما أقرأ، وما أسمع من موسيقى ومحاضرات، وما أرى من معارض، وما أحاول أن أتبينه في متاحف القاهرة، من أسرار الفنون المختلفة ...

وكانت إجازة صيف رائعة. درت بها في دار الكتب، والمعارض، والمتاحف. وأخذتها معي إلى المحاضرات. اخترت لها الكتب التي تقرؤها، وساعدتها على فهم مسائل كثيرة جداً. حتى أخذت هي الأخرى تشعر أن الدنيا أوسع من الربع الذي كنا نعيش فيه، ومن الحي الذي كنا نلعب في طرقاته، ومن أحاديث أمي وأمها، ومن روايات والدي ووالدها وأن المعرفة هي الحرية الحقيقية. وأن العقل والعاطفة هما أجل ما خلقه الله للناس إذا تحركا في دأب، فتلك هي الحرية. إن الجمال خط شائع في كل شئ، حتى القبح له جماله. وهذه حرية أخرى. أن تتحرك المشاعر نحو الجمال.

وسكت "ممدوح" قليلا، ثم قال:

عندك حق يا "جلال" الحرية أيضاً هنا. لا يهم أننا في معتقل، ومن منا ليس في معتقل. نحن نعتقل في أجسامنا. أليس كذلك؟ ألا تفرض علينا أجسامنا، مطالب مادية معينة، فنسعى في سبيل الحصول عليها، وقد نقتتل من أجلها؟ أليس هذا اعتقالا؟! ونحن نعتقل في المجتمع الذي نحيا فيه. أليس كذلك؟ ألا يفرض علينا المجتمع قيوداً معينة، نحاول أن نرتبط بها وألا نتجاوزها بحال، وإلا اتهمنا بالخروج على هذا المجتمع؟

أو ليس هذا اعتقالا؟ الحرية يا "جلال" قد تكون هنا. حرية العقل. حرية العاطفة. حرية الضمير. حرية الجمال. هذه الحرية لا تعتقل أبداً. هل من يجرؤ على اعتقال قلبى؟ أبداً. هل يستطيع هذا الحارس أو أى حارس آخر، أن يمنعنى من أن أحب. أشرد إلى من أحب. يخفق قلبى حناناً وحنواً وهياماً فيمن أحب. هل يستطيع؟ أنا الآن، بل وأنا أساق إلى هذا المكان، كنت شارداً فيها. كنت حراً فى التفكير فيها، فهل نجحت هذه الأسوار الشاهقة فى أن تمنعنى من حبى؟ أو من معارفى؟ أنا حر، وسأعيش حراً.. هنا أو فى أى مكان.

●●●

على أى حال... لقد كان لتفوقى أثره فى حياتى.

لم يعد أحد ينظر على أنى أعرج. بل ربما تمنى كثيرون أن يكونوا مثلى، على أن يصلوا إلى مستواى.

غريبة هذه الدنيا !! غريبة مقاييس الناس !!

عندما كنت طفلا صغيراً لا يدرى أحد ماذا يكون مصيرى، كان أهم ما يميزنى أنى أعرج. حتى أمى. حتى أبى. كان يشفقان على، ولهذا استبقانى فى حجرتهما ليحميانى من طيش إخواتى ونزقهم. فلما حققت هذا النجاح، صار عرجى موضة، يحاولون أن يحتذوها، حتى يصبحوا مثلى كفاية وتفوقاً.

هكذا ترى يا "جلال" أن هناك معتقلا آخر، يعتقل الناس فيه أنفسهم.

هذه المقاييس التى يقيسون بها الأشياء. هم معتقلون فيها، سجناء وما أسرع ما يغيرونها إذا تغيرت ظروف أصحابها من ذوى العاهات. عندئذ يصبح العرج هو مقياس الجمال.

آه لو آمن الناس بالحرية الحقيقية ! بحرية المعرفة. بحرية الجمال ! المعرفة حرية يا "جلال". الجمال أيضاً حرية. ولكن أين الحرية والناس، وهم معتقلون أسرى فى إطار

خـاص، لا يخـرجـون عليـه، إلا إذا هبت عليهم قـدرة عـاتيـة حطمت هـذا القـفص الذى يسجنون نفوسهم فيه، كالعصافير فى حدائق الحيوان؟

●●●

ومضيت يا "جلال" أحقق نجاحاً تلو نجاح.

...فى حريتى، وفى حبى.

إن عقلى أخذ يتحرك حركة دؤوباً لا تمل، نحو الاكتمال. كذلك وجدانى.

و "مديحة" إلى جانبى تغذى عقلى وقلبى جميعاً.

والدنيا كلها تبتسم لى، وتفتح ذراعيها لاستقبالى.

ولم أكن أنسى أن فضل ذلك كله راجع إليها. إلى "مديحة" التى دفعتنى منذ اللحظة الأولى إلى مجال التفوق، لأتغلب على ضعفى، بقوة عاتية لا تقاوم.

على أن الأيام تفاجئنا ذات يوم بأحداث هائلة، هزت حياتنا هزاً عنيفاً.

لست أدرى ماذا أقوله لك، ولا كيف أبدأ الحديث عن هذه الأحداث.

إنها سلسلة حلقاتها متداخلة تداخلا يجعلنى حائراً: كيف أبدأ، وكيف أصوغ الرواية والحديث.

●●●

لقد كان والد "مديحة" عاملا من عمال العنابر.. وكان رجلا صالحاً مستقيماً شهماً. كـان كريمـاً. كـان حـراً يا "جـلال" والحـر لا يمـكن إلا أن يكون هـكذا. الحـرية فـضـيلة لا تتناقض فى جزئياتها أبداً.

مـا علينا، المهم أن الأسطى "عبد الغفار" كان رجلا فاضلا جداً. كان مستوراً وكانت له مكانة فى الربع، وفى الحى، وفى العنابر كذلك. فقد كان رجلا ودوداً، لا تفوته المجاملة أبداً. كان يصلى فى إيمان وتقوى. كان يصحو مع الفجر وأسمع أنا دعواته الصالحة، وأنا بين

النائم واليقظان. ولكم ربت على كتفى، ولكم مسح على رأسى، ولكم أمسك بكفى وهو يقول: هذه كف رجل، من ظهر أبيه. سيكون لك شأن يا "ممدوح". وكثيراً ما كان الرجل يداعبنى وهو يقول فى براءة حكيمة: سترعى "مديحة" إذا زوجتك إياها. سترعاها وتسترها؟ يا "ممدوح" يا ابنى، مديحة فى عينى. ليس لى ابنة سواها. وكنت أرد عليه قائلا: البركة فى نفسك يا عمى. فكان يقول: يا ابنى يا "ممدوح" إننا جيل راحل. البركة فيكم أنتم.

وفى يوم من الأيام، جاء الأسطى "عبد الغفار"، الرجل الهادئ الوادع المستقيم، الرجل الذى لا تراه إلا وهو مبتسم سعيد قانع راض، الرجل الذى لم يغضب أبداً ـ جاء هذا اليوم، وقد امتقع وجهه، وأصبحت عيناه فى لون الدم.

كان يصيح: إننا لسنا غنماً. لسنا آمة من النعاج. أبداً. إننا رجال. إننا أحرار.

والتف حوله رجال الحى جميعاً يستفسرون منه عما حدث.

قال الأسطى "عبد الغفار":

ـ أنا أقسم بالله العظيم، إن هذه حكومة أتى بها الإنجليز. عينها الإنجليز. والمرسوم الذى وقعه الملك فؤاد، هو فى الواقع مرسوم أصدره المندوب السامى. تعرفون من هو المندوب السامى؟ إنه الملك الحقيقى فى هذه البلاد. إنها حكومة إنجليز. والذين يجلسون على كراسيها إنجليز بالفعل، وإن حملوا أسماء مصرية. أسماء مزيفة. وهم يظنون أننا كلاب مسعورة، يسكت نباحها إذا رأت العصا فى يد الجلاد. أبداً. لا بد من أن نثبت لهم أننا رجال. أننا أحرار. أننا أصحاب هذه البلاد. أننا نملك كل شىء فيها. إن حكامها يجب أن يكونوا منا، بإرادتنا لا بقوة الحديد والنار. أنا الأسطى "عبد الغفار" الضعيف الحليم أقول بأعلى صوتى لا. هذا لن يكون.

ولم يكن الرجال يفهمون سبباً لهذه الثورة التى احتدمت فى قلب الرجل.

ولكنهم كانوا يحترمون آراءه، ويعرفون أنه لا يقول إلا الحق، فلابد إذن أن لهذه الثورة سبباً وجيهاً جداً. صحيح أن البلد كلها ثائرة ضد الحكومة. الجامعة فى إضراب مستمر، والعمال يتظاهرون كلما وجدوا فرصة للتظاهر. والكتاب الأحرار فى السجون.

ولكن الأسطى "عبد الغفار" ثائر ثوره لا حد لها. إنه كالمجنون. إن الثورة تجاوزت فى نفسه ما كان يقدر الرجال.

وكان كل أبناء الحى حريصين على أن يعرفوا ماذا حدث. لماذا يندفع الأسطى "عبد الغفار" هذا الاندفاع، وهو رجل متزن وقور، يتحرك بمقدار، وله فى نفوس أبناء الحى مكانة خاصة؟

ولما هدأت ثائرته، أخذ يحكى للرجال والنساء والأطفال. لجمع كبير التف حوله فى الربع القديم:

إن الذى حدث اليوم فى العنابر أقسى من أى تصور يصل إليه الخيال. لقد بدأنا نجتمع فى الورش. ثم قررنا أن نستأنف الإضراب. أنتم تعلمون أننا فى إضراب مستمر منذ أيام احتجاجاً على إلغاء الدستور. وبينما نحن فى إضرابنا، السلمى. نخطب، ونناقش الأوضاع ونقترح قرارات وننتخب وفداً منا يذهب بهذه القرارات إلى رجال الحكومة، إذا بنا نفاجأ بهجوم غريب من رجال البوليس. هجوم مسلح، يصوب نحونا الرصاص، فى المليان. وسقط منا شهداء. سقطوا أمام أعيننا. سقطوا والرصاص الغادر يخترق ظهورهم. لم يكونوا يتوقعون هذا الغدر. وتجمعنا لنواجه الخطر، وقررنا أن نوجه إليهم ما نملكه من سلاح. أن نطلق عليهم خراطيم المياه، وهى تغلى. وفروا بحياتهم بعد أن سقط منهم جرحى وقتلى لا أعرف عددهم على وجه التحديد. وخرجنا خلفهم. كانت دماء شهدائنا تطالبنا بالثأر لهم. وكانت خراطيم المياه المغلية تحمى مؤخرتنا منهم. ولكنهم قطعوا الماء عن حى السبتية كله. فلم نعد نملك شيئاً فى أيدينا. وكان رجال البوليس، الكونستبلات الإنجليز والضباط الإنجليز، ومن معهم من المصريين للأسف، يملكون الرصاص والهراوات القاتلة. ودخلوا علينا. اقتحموا العنابر، مشاة وعلى ظهور الخيل، كانوا يطلقون الرصاص كأنهم فى معركة حربية. وكانوا يضربون بالسونكى ظهور الرجال فيتساقطون كالدجاج، كالكلاب، وهم يصيحون، وهم يهتفون، وهم يستغيثون، وهم ينادون بحياة الوطن.

هل تعرفون "سليم"، و " عبد الودود"، و " النجار"، و "زخارى" وغيرهم وغيرهم، ذهبوا أمام عينى. قتلوا يا رجال كأنهم لصوص سفاكو دماء. كأنهم مهربو مخدارات يفرون من وجه القانون. قتلوا قتلوا. لم يعودوا لعيالهم. لزوجاتهم. لبيوتهم. ولكل منهم أطفال صغار، لا يملكون قوت يومهم. لا يعرفون ماذا سيفعلون غداً. والحكومة تحارب حتى هؤلاء الصغار ! وليتهم احترموا جثثهم. أبداً. لقد كانوا ينكلون بها تنكيلا لا يقره شرع ولا قانون، داسوا على هذه الجثث، على الوجوه. بل فقأوا لهم عيونهم وهم أموات. قطعوا أيديهم بالسنابك وهم جثث لا تتحرك. كانوا يخافونهم، حتى بعد أن لفظوا النفس الأخير. هل سمعتم بمثل هذا؟ هل رأيتم شيئاً كهذا؟ وتقولون لى مع هذا، لماذا أنا ثائر ! لأنى لا أقبل لواحد من أبناء وطنى أن يعيش تحت رحمة هؤلاء أبداً. لسنا أمة من النعاج. لسنا قطيعاً من الغنم. إننا رجال. إننا أحرار. ولابد من أن يعرف هؤلاء أن مصير الخونة، هو القصاص. العين بالعين، والسن بالسن، والبادى أظلم. إن هذا كان يمكن أن يكون مصيرى. بل إنه سيكون مصيرى غداً، إن أنا سكت عليه. سيكون مصير كل واحد منكم. مصير كل مصرى طالما أننا ساكتون على الظلم، راضون بالهوان. لا. لن نرضى. لنمت جميعاً ميتة شريفة، قبل أن يعبثوا بكراماتنا، ويعصفوا بحياتنا، ويلوثوا تاريخنا، ويعرضونا وأولادنا للفضيحة والعار. هل نحن رجال؟ أو أننا كما يقولون أمة من النعاج؟ هل نحن أقوى، ونحن الملايين، أوهم، وهم أفراد قلائل، لا سند لهم من شرع أو قانون؟ إن كنا رجالا حقيقة، فهذا هو الأوان. لنثبت لهم هذه الحقيقة، ولنطلع العالم على أن هذه البلاد أعز مثالا، من أن ينكل كل أفاق أو مغامر أو مجنون.

●●●

وكنت يا "جلال" واقفاً مع "مديحة" قريباً من والدها، وهو يلقى علينا هذا الدرس العجيب.

وكانت "مديحة" تحب أباها وتعتز به.

وكانت تمسك بيدى بين يديها، وتضغط عليها فى انفعال شديد. وهمست فى أذنى أن أباها على حق، ولكنها تخاف عليه. إنه محموم. إنه يرتعد. قد يلقى بنفسه فى الهلاك.

وأخذت أطمئنها وأؤكد لها أن مثل هذا الإيمان لابد أن ينتصر.

وقالت "مديحة":

ـ ولكن للنصر ثمناً، وقد يكون أبى هو هذا الثمن.

ولم أستطع أن أجيب. لقد كنت أنا أيضاً أحبه واحترمه وأقدره. ولهذا لم أتصور أن يكون هو ثمناً لهذا النصر. هل يخلو منه الربع؟ هل يخلو منه الحى؟ وأغمضت عينى، حتى لا أرى هذا الفراغ الهائل الذى قد يتركه، لو أن شيئاً من هذا حدث.

●●●

وسرت موجة من الثورة فى الحى كله. كلهم يعرفون الذين ماتوا. الذين روى الأسطى "عبد الغفار" أسماءهم. تحدثوا معهم، واستمعوا إليهم، قضوا معهم ليالى جميلة سامرة ساهرة ممتعة. بل إنهم ليعرفون زوجاتهم، بل أراملهم ! فقد ذهبوا إلى غير رجعة ! ويعرفون كذلك أولادهم الصغار الأبرياء، الذين لا يدركون لهم مصيراً.

وتجمع الرجال حول الأسطى "عبد الغفار" يقولون له إنهم جميعاً معه، وإنهم جميعاً على استعداد لأن يخوضوا معركة وراء معركة مع الحكومة وأسيادها من الإنجليز، حتى يتم لهم النصر. وما الحياة بعد هذا؟ كيف يعيشون أذلاء تحت رحمة من لا يرحم. لا. هيا بنا يا أسطى "عبد الغفار". كلنا معك.

وقال الأسطى "عبد الغفار": بل ننتظر حتى غد. وسيكون لى معهم شأن آخر فى العنابر. لابد من معركة فاصلة نثأر فيها لشهدائنا الأبرار. لن يذهب دمك يا "سليم" يا "عبد الودود" يا "نجار" يا "زخارى". لن يذهب دمكم ودم إخوانكم عبثاً. أبداً. سنغرس فيه شجرة الحرية. وستزهر هذه الشجرة ثماراً لنا ولأبنائنا. لكل مصرى ذرف دمعة من أجل أبيه أو أخيه أو صديقه. لكل أرملة فقدت زوجها. لكل يتيم فقد أباه. لكل جريح لسعته آلام جرحه.لكل حر طالب بحريته. سنحقق لكم، ما ضحيتم من أجله بحياتكم أو حياة أحباء إليكم. وستذهب الحكومة إلى غير رجعة. سيذهب المندوب السامى. سيذهب الملك فؤاد. وسيبقى هذا الشعب، فى مصر، ولمصر.

ومضت سهرة الحى على هذا الحديث.

وكنت أسمعه وأنا خائف عليه معجب به. لم تفارق عيناى عينيه وهو يتحدث. كان عمى "الأسطى عبد الغفار" يمثل أمامى كل أبطال التاريخ الذين قرأت عنهم، وحفظت سيرهم. ولكم حسدته على هذه القوة الجبارة التى حركت قلوب أبناء الحى جميعاً.

وعندما تأخر الوقت بأبناء الحى، تفرقوا داعين للأسطى "عبد الغفار" بالتوفيق. ولكنهم لم ينسوا أن يذكروه بأن يحتاط لنفسه من الغدر، فإن هؤلاء الجبناء لا يخافون الله أبداً.

●●●

لابد أن الأسطى "عبد الغفار" لم ينم ليلتها.

إننا كلنا لم ننم، برغم أن كلا منا دخل إلى مسكنه.

لقد سرى فى هواجسنا جميعاً، أن شيئاً ما، غامضاً ورهيباً سيحدث.

ومع النسمات الأولى للصباح كان الأسطى "عبد الغفار" قد صحا، وخرج من حجرته، فى ملابس عمله وكان الربع كله قد صحا قبله، وتعلقت عيون الجميع به.

وبينما هو خارج، وزوجته تودعه وتدعو له، و "مديحة" بنته تقبله وعلى خدودها دموع، ونحن ـ أنا وأبى وأمى وكل الجيران ـ نوصيه أن يحذر من عدوه الغادر، وأن يفتح عينيه فلا يغمضهما أبداً ـ إذا بأحد جيراننا من الحى يقبل وبيده صحف الصباح، وهو يقول له: يا أسطى "عبد الغفار".. على أين؟

ويجيبه الأسطى "عبد الغفار": إلى العنابر. إلى عملى.

ويقول الرجل: الحكومة يا أسطى قررت إغلاق العنابر، بعد حوادث أمس... هنا سيطرت على الأسطى "عبد الغفار" حالة هياج شديد. وكان هياجه ذاك الصباح جليلا ورائعاً. لقد أخذ يصيح فى اندفاع التيار:

ما هذا؟ إننى ذاهب إلى عملى. إنه عملى. العنابر عملى. وأنا ذاهب إلى حيث أعمل منذ كنت طفلا وصبياً.

قال الرجل:

- ولكنهم أغلقوها، وإلى أجل غير مسمى، فإلى أين تذهب؟

- قال فى حدة وكبرياء:

- الحكومة أغلقت العنابر ! العنابر ملك للذين يعملون فيها. العنابر لعمالها. أى جنون هذا؟ وكيف تخول الحكومة لنفسها أن تقرر هذا؟ هل هذا هو عمل الحكومة؟ وعرقنا وسواعدنا وأنفاسنا، التى تتقطع أمام الآلات والأفران. كل هذا لا يدخل فى الاعتبار؟ إن العمل فى العنابر قائم علينا نحن، وبدوننا لا يكون عمل. أما بدون الحكومة، فالعمل قائم بل ربما كان أجدى علينا وعلى البلد. إننى ذاهب إلى عملى، فهو عملى. ذاهب إلى عملى ولن أطيع قرار الحكومة أبداً.

قال الجمع الحاشد حول الأسطى "عبد الغفار":

- لكنهم سيمنعونك.

قال هو فى صياح كالرعد:

- أدخل بالقوة. أدفع حياتى، دفاعاً عن عملى. إن العمل شرف، وهم يريدون أن يسلبونا حتى هذا الشرف. كفاهم الدم الذى سال. كفاهم اليتامى والأرامل، ودموع خلفوها فى العين، وجروح تركوها فى القلوب. كفاهم هذا. أما أن يحرمونا من العمل. من لقمة عيش شريفة طاهرة، فلا. أنا ذاهب يا رجال. سأقتحم باب العنابر، ولو حالوا بينى وبين ذلك، فلتكن النهاية. لن أعيش، وأنا أرى هذا الاستبداد. العنابر ملكى أنا. ففيها أفنيت عمرى.

قالوا جميعاً:

- البوليس؟ والبنادق؟ والرصاص؟

وقال وهو يشق الجمع كالسهم:

- اتركونى. إن الاعتداء على العنابر اعتداء على بيتى. على أهلى. اتركونى، فإن عدت فسأمضى فى كفاح مرير طويل، من أجل الحق والعدل والحرية، وإن لم أعد، فأوصيكم ببيتى.

ومضى كالسهم ....

وساد الربع صمت ثقيل.

هل يعود الأسطى "عبد الغفار"؟

هل يسمحون له بالدخول؟

فإن أصر على الدخول، فماذا تكون النتيجة؟

وأغمضنا عيوننا ونحن نتصور هذه النتيجة القاسية؟

●●●

لكنه كان بطلا يا "جلال". كان مارداً رائعاً. كان نقطة تحول كبيرة فى حياة زملائه وأحبائه وأصدقائه. كان خطاً جديداً فى تفكير أهل الربع، وأهل الحى جميعاً. لقد ذهب الأسطى "عبد الغفار" إلى العنابر، بكل ما وهبه الله من طاقة. واقتحم صفوف العساكر كأنه البركان، وهو يصيح صيحات من نار: افسحوا الطريق. افسحوا طريق العمل. افسحوا طريق الشرف للشرفاء.

ومشى خلفه عدد من الشجعان.

وكانت مفاجأة أذهلت الضباط والجنود. ولم يكونوا يتوقعون ابداً أن تصل الجسارة إلى حد اقتحام الحديد والنار.

هل تدرى ماذا فعلوا؟ أفسحوا له الطريق بالفعل، حتى دخل، وكان يصيح فى شبه زئير الأسود: لتحيا مصر. ليحيا العمال. العنابر لعمالها. للشهداء من أبنائها. للدم الذى روى أرضها.

على أن القوة التى أذهلتها المفاجأة، أبلغت عنها رجال الحكومة، فعج الوزراء ورئيس الوزراء ذلك أمراً خطيراً جداً، ورأوا فيه مظهراً للتمرد والعصيان، لا يمكن السكوت عليه، وصدرت الأوامر بحصارهم داخل العنابر، حتى يهلكوا جوعاً، وحتى يدرك العمال الذين هم خارج العنابر أى مصير ينتظر العصاة والمتمردين. لابد من درس قاس شديد،

حتى لا يتكرر مثل هذا أبداً . نكلوا بهم. أذلوا كبرياءهم.اقطعوا رقابهم إذا استطعتم. وإلا فالجوع حتى يموتوا داخل هذه الأسوار.

كانوا سبعة من الرجال يقودهم الأسطى "عبد الغفار".

ومع هذا فقد أذاقوا القوة التى تحاصرهم الويل.

قابلو الحرب بالحرب والحصار بدفاع مستميت مستبسل.

وصمدوا يا صديقى أسبوعاً، وتصيدوا من رجال القوة التى كانت تحيط بهم كل يوم عدداً . منهم من قتلوه، ومنهم من استدرجوه حتى دخل فاحتفظوا به رهينة.

وعاشت البلاد فى أسطورة الأسطى "عبد الغفار" أسبوعاً كاملا.

وكان عمال العنابر كل يوم، يتجمعون، فيحاولون أن يخترقوا الحصار، لينضموا إلى زملائهم داخل العنابر فإن فشلوا فإنهم يقضون اليوم يناوئون القوة ليخففوا بذلك من الضغط على السبعة الأبطال داخل الحصار.

وتحول أهل الريع وأهل الحى إلى خلايا حية نابضة، وانضم كل أولئك إلى صفوف عمال العنابر فى كفاحهم ضد القوة الغاشمة التى تحاصر الأسطى "عبد الغفار".

وكنت و "مديحة" نذهب معهم، نقضى اليوم كله فى مناورات لا تمل. كذلك كان يفعل النساء والأطفال. الحى كله يا "جلال" عاش مع الأسطى "عبد الغفار" فى حصاره يتجه نحوه بالأمل، ويحاول كل واحد أن يبذل ما فى جعبته، فى هذه المحنة التى يتعرض لها الأسد فى القفص الذى فرض عليه.

وكنت أشعر أن الأسطى عبد الغفار قد تحرر..قد استعاد حريته، برغم ما يعانيه من آلام وبرغم ما يتعرض له من أهوال. انتزع من نفسه الخوف. قتل القلق. تغلب على الهواجس والأوهام فعاش والحقيقة وجهاً لوجه. والحقيقة قد تكون مرة ولكنها مع ذلك لا يمكن إلا أن تكون هى الحرية وهى الجمال وهى الراحة الأبدية الخالدة.

وكنا نتصوره أحياناً يتضور من الجوع، وهو مع هذا يقاوم، ولا يسلم أبداً.

كنا نتخيله يعانى الحصار المسلح العنيد الغادر، وهو مع هذا يقاوم، ولا يسلم.

كنا نقول فى أنفسنا : قد يكون جريحاً يلعق دمه بلسانه، وهو مع هذا يقاوم، ولا يسلم.

وكانت هذه التصورات تجعلنا نثور، ونصيح ونهتف له، ومن أجله لم يكن فى مقدورنا إلا هذا.

وكانت "مديحة" تمسك بكفى بين يديها، وأراها فجأة تضغط على كفى بكفيها، ضغطة هائلة تثير فى الخوف. كنت أشعر أن هاجساً راودها. تسلل إلى نفسها. تصورت مثلا أن أباها أصيب فى المعركة. تصورت أنه يعانى مرضاً من الأمراض التى كانت تداهمه فى بعض الأحيان. وكنت أقابل هذا منها بضغطة شديدة على كفيها، أواسيها بها.

هكذا كانت أحاديثنا فى تلك الأيام، بالأكف وبالنظرات، وبصمت رائع جليل، يعبر عما فى قلبينا من قلق على الأسطى "عبد الغفار" ويترجم ما فى نفسينا من خوف عليه.

لا تظن يا "جلال" أن أيام المحنة هذه، خالية من الدعابات؟

إنها تبدو هكذا حزينة، ونحن نستعيدها لنرويها. ولكنها وقت حدوثها، تمتلئ بدعابات شتى طريفة. أنت طبعاً تعرف هذا. أنت تعرضت قطعاً لتجارب كثيرة من هذا النوع. على أنه لا بأس من أن أروى لك بعضاً مما كنا نراه ونحن حول العنابر نحاول أن نفك الحصار عن بطلنا الأسطى "عبد الغفار".

من ذلك مثلا، أن إحدى عجائز الحى، هجمت ذات صباح على قائد الحصار. كان ضابطاً شاباً قوى الجسم، فارع الطول.

وذهل الرجل من هذا الهجوم المفاجئ، واستعد لمقابلته.

وإذا العجوز الماكرة تخبط على صدرها وهى تقول:

- يا حبيبى ! ما هذا لماذا يا ابنى تعملها فى نفسك. هل هذا وجه ضابط؟ أستغفر الله العظيم ! هذا الوجه الأصفر الباهت وجه ضابط؟! لماذا يا ابنى؟ ماذا جرى لك؟ هل

جننت حتى تعملها فى نفسك بهذا الشكل؟ اذهب يا ابنى وابحث لك عن واحدة ترى لك بختك. على الأقل تعرف علتك. تعرف علاجاً لنفسك. هل تريد أن تفقد شبابك؟ تريد يا عين أمك أن تدفن نفسك، وأنت لم تبدأ الحياة بعد. أرينى يا بنى كفك.

- ومد الرجل لها كفه..فى استسلام مطيع.

وأخذت تقلب فيه وتفحصه، وتضرب على صدرها وهى تقول:

- يا عين أمك يا ابنى ! لماذا تعذب نفسك هذا العذاب؟ هل هى تستحقك؟ والله أنت خسارة فيها يا حبيبى. طلقتها أم ستطلقها؟ قال الضابط فى سذاجة:

- بل أرسلتها إلى بيت أبيها، وفى نيتى أن أطلقها.

- قالت العجوز:

- ارمى لها الأولاد أيضاً. إنها خطر عليك. كبيرة عليك يا عينى. إن كان الأمر أمر ما عندها من مال، فلا تصدق أنها ستعطيك منه شيئاً. إنه طعم لتمتص شبابك ثم تلقيك على حافة الطريق.

وعجب الضابط عجباً شديداً.

يظهر أن المصادفة أصابت حقيقة فى حياته، فقال لها فى استغاثة:

- أكملى والنبى يا خالتى. قالت:

- يا بنى أنا عندى وقت ! أنا أوصيك أن تذهب إلى أحد يرى بختك كما يجب. أنا جاهلة. قطع لسانى. لماذا قلت لك هذا؟

وتمسك الضابط بها. أمسك بتلابيبها، يرجوها ويطلب منها المزيد.

وأخذته إلى ركن بعيد، لتستأنف معه الحديث الذى ترويه. والقوة كلها تتطلع إليه وإليها، مشغولة به وبها. وساعتها تسلل صبى صغير، أخذ يتدحرج كالكرة الشراب، حتى وصل إلى داخل الحصار. وكانت معه مئونة طيبة للمحاصرين داخل العنابر. وأهم من

هذه المئونة رسالة كتبتها أنا للأسطى "عبد الغفار" تحمل حب "مديحة" وحبى، وحب أهل الربع وأهل الحى، وتأييد كل القلوب لبطولته النادرة، وتحذير الجميع له من أى غدر قد يدبر له.

وعاد الصبى الصغير برسالة منه.

كانت قصيرة، وبخط ردئ، وعلى ورق تشم منه رائحة العرق والدم وشرف الكفاح.

وكانت الرسالة تقول:

أشكركم جميعاً. ادعوا الله لنا، أن يعيننا على المقاومة أطول مدة نستطيع.

ادعوا الله للحق أن ينتصر. ادعوا الله ألا يجعل منا أبداً أمة من النعاج.

أما "مديحة" فإنها لم تعد ابنتى وحدى، لكنها صارت بنت كل مصرى، من اللحظة التى أعلنت فيها العصيان على الاستبداد الظالم الجبان. والله يرعاها ويصونها. والله يبارك فيك يا "ممدوح". إياك أن تنسى ما وعدتنى به. إخوانى هنا جميعاً بخير يسلمون عليكم، وهم أقوى منى، وأصلب، وأعز. هم خير رفيق، على أجمل طريق.

ولم يكن تحت الرسالة توقيع. على أنى عرفت خطه. كذلك عرفته "مديحة".

قالت "مديحة":

- يا حبيبى يا أبى. لم يوقع حتى لا تحمل الرسالة إدانة جديدة.

قالت:

- أبداً يا "مديحة". الإدانة قائمة. أبعد هذا العصيان العلنى إدانة.

إنما أبوك قد تجاوز حدود الشخص. حدود الفرد. أصبح يستوعب فى نفسه كفاح شعب كبير عريق. ألا تشعرين أنه لم يعد يعتبرك ابنته. وإنما أصبح يراك - وهو أبوك - ابنة كل مصرى؟ لهذا لم يعد الأمر محتاجاً إلى توقيع. توقيع من؟ الأسطى "عبد الغفار" ! ومن يكون؟ هل هو الرجل الذى نعرفه فى الربع، وفى الحى؟ لقد صار شيئاً آخر صار

روح كفاح نبيل لأبناء هذه الأمة، صار أملا نابضاً بالحياة والحرية. صار عملاقاً مارداً أو مادة خالدة، من مواد القصص والروايات. فأى توقيع يضع. إن جاز أن يضع هنا توقيعاً، فالتوقيع الوحيد هو مصر. مصر المظلومة يا "مديحة". مصر التى تعانى الخيانة من أبنائها. مصر التى قاومت البغى والاستبداد أجيالا طويلة متعاقبة من عمرها ولم تسلم أو تستسلم أبداً. إنها تقبل الهزيمة، ولا تقبل التسليم.

هل تدرى يا "جلال" أننا عن طريق هذه العجوز الماكرة، وعن طريق سواها من النساء، ومن الرجال، الذين مثلوا دور مشايخ على علم بالغيب، استطعنا أن نمد فى عمر المقاومة الباسلة أسبوعاً. بل لقد اكتشفنا حقيقة أخرى، أن هذه القوات كلها معنا بقلوبها. كلهم كانوا معنا، إلا نفر قليل من المغامرين العملاء. وإلا الضباط الكونستبلات الإنجليز بطبيعة الحال.

فى مرة انفردت أنا و "مديحة" بجندى شاب ودارت بيننا وبينه مناقشة دلتنا على كل شىء.

قلنا له:

- ماذا فعل هؤلاء حتى تحاصروهم.

قال:

- وهل تظنان أننى الذى أعطيت أمر الحصار؟

قلنا:

- ولو أنك أنت صاحب الأمر. ماذا كنت تفعل؟

قال:

- والله رجال. والله أبطال. لو كنت أنا صاحب الأمر، لمنحت كل واحد منهم نيشاناً للبطولة والجدارة والشرف.

قلنا:

- هذا غريب. ولكن فيم اشتراكك فى الحصار؟

قال:

- لأنه عملى. آكل عيشى وعيش أولادى. وليتنى أستطيع أن أجد مورداً آخر آكل منه.

قلنا:

- أنت تكره هذا العمل إذن؟

قال:

طبعاً . ماذا تظنانى؟ هل أنا خائن؟ هل أنا جبان؟ أنا وطنى شريف. لو أن الأمر بيدى، والله لشاركت عمال العنابر هذا النضال. ولكنها لقمة العيش. لقمة العيش التى أقدمها لأولادى.. وأنا أشعر أنها مغموسة فى دماء الأبرياء.

قلنا:

- ولماذا لا تساعدهم؟

قال:

- أتظنان أنى مغفل؟ أنا أراكم تتسللون واحداً واحداً، لتقدموا إليهم الطعام، ومع هذا فأنا أغمض عينى. بل لو أنى قادر على إرسال الطعام والشراب لهم ما تأخرت. كل زملائى مثلى، وإن كنا لا نتحدث عن ذلك أبداً. لا سراً ولا علانية.

قلنا:

ولكن....

قال:

- اطمئنا. لكن حذار أن ترويا هذا الكلام لأحد. أولادى فى ذمتكم.

قلنا:

- والضباط كذلك مثلك؟

- طبعاً مثلى. هذه العجوز التى ترى البخت لحضرة الضابط، أتظنان أنه لا يفهم قصدها؟ هو يعلم علم اليقين أن قصدها أن تبعده، حتى يخلو الجو لعمليات التهريب.

وهو يطاوعها بإرادته. فإنه يريد من قلبه أن تستمر حركة المقاومة هذه ناجحة وباسلة. أم تظنانه مغفلا هو الآخر؟!

قلنا:

هذا شئ غريب وغير معقول.

قال:

- يا أولادى أنتم صغار. البلد كلها مع السبعة الأبطال داخل العنابر. البلد كلها تقاوم. ولكن هؤلاء الحكام فجرة. إنهم يعرفون أن لقمة العيش غالية، وهم يحاربون البلد بها. لماذا أغلقوا العنابر؟ ليجوع العمال. ليركعوا على جباههم يلتمسون العفو والطعام. وآه لو اتحدنا. ولكن كيف نتحد، وكل واحد من كبرائنا له مطامعه الخاصة! كلهم يريدون أن يحكموا ليتحكموا. ليكونوا الثروات والضياع، ولو من دمائنا البريئة.

قلنا:

- أنت إن معنا.

قال:

- من قلبى. لكن فى السر. وعلى ألا يعرف ذلك عنى.

قلنا:

- ولماذا لا نتحد إذن، إذا كنا قد وصلنا كلنا إلى هذا الشعور؟

قال:

- كل شئ يا أولادى بميقات. من يدرى؟

... وهكذا يا "جلال" ظهرت لنا من هذه المناقشة، حقيقة باهرة، تعكس روح أبناء هذه الأمة. وآمنت أنا و "مديحة" أنه طالما أن هذه الروح قد وصلت إلى الحراس، فسينتصر الأسطى "عبد الغفار".

لكن الحكومة ارتاعت يا "جلال" أمام هذا المظهر الجديد، من مظاهر التمرد.

لم تطق صبراً على نفر قليل من المؤمنين المناضلين، اعتصموا بمكان عملهم يدافعون عن حقهم فيه، ويدفعون عن شرف العمل، عدوان الحكومة وظلمها.

وعندما ارتفعت الأصوات فى كل مكان بالتحية للأسطى "عبد الغفار" ورفاقه، أحست الحكومة أن نهايتها قريت، وأن اليوم الذى تسلم فيه أو تنزل فيه عن كراسيها قد بات قاب قوسين أو أدنى.

حينئذ رأيناها فجأة وبلا مقدمات، ترسل قوات لا قبل لنا بهم، وتحيط المكان بحصار ثقيل كثيف وتصدر أوامر صريحة لا تحتمل أى لبس أو غموض، بأن لا بد من القبض على هؤلاء السبعة أمواتاً أو أحياء. لابد من تصفية الموقف مهما يكن الثمن.

وكنا هناك ـ أنا و "مديحة" ـ ساعة بدأ الهجوم.

تحولت منطقة السبتية إلى ساحة حرب، وارتفع أزيز الرصاص في كل مكان، ومن كل اتجاه وفى كل شبر من المنطقة المحيطة بالعنابر.

وسقط جرحى ومات شهداء.

حتى الأطفال الذين أطلوا من النوافذ يتبينون الخبر، فقدوا حياتهم أمام الطيش المجنون.

كانت المصالح الدنيا هى التى تتحكم. كانت هى الشهوات. كان الحكام الذين أقبل بهم الإنجليز يدافعون عن وجودهم الثقيل ووجود الإنجليز معهم.

وقيل إن المندوب السامى غضب غضبه سب فيها رئيس الحكومة والوزراء.

وإن الملك هدد الحكومة بالطرد إذا هى فشلت فى التغلب على الأسطى "عبد الغفار".

الأسطى "عبد الغفار" !! تصور المندوب السامى، والملك، والحكومة بما لها من قوة وسلطان، تتجمع كلها من أجلك يا عمى الأسطى "عبد الغفار"؟ لكنك لم تكن يومها الرجل الطيب الشهم المستقيم الذى يسكن ربعاً من ربوع حى الدرب الأحمر. أبداً. لقد

كنت يومها كل مصرى يطالب بالكرامة. كل مصرى يبحث عن الحرية. كل مصرى يهتف بالحياة، والحق، وكبرياء الوطن. ولم تكن هذه العناصر لتبقى عليهم. إنما هى الخطر الذى يهدد مصالحهم. لهذا حاربوك. لهذا أعلنوها عليك حرباً لا ترحم. لهذا قالوا نريده حياً أو ميتاً.

ولكنك يا عمى قاومت فى بسالة. أغلقت كل منفذ. حصنت مواقعك بما لديك من أدوات بسيطة. أغلقت النوافذ والأبواب، ولم تترك إلا ثغرتين أو ثلاث ثغرات، تطل منها وبعض رفاقك الشجعان، لتلقى قطعة من الحديد فيذهب واحد من أفراد القوة. يذهب ولا يعود. أو حجراً. أو ماء مغلياً. أى شئ كنت تلقيه فى وجوههم، حتى لقد سرى الرعب فى أوصالهم.

كانوا يتقدمون نحوك، وكأنهم يتقدمون نحو الجحيم.

وكنت تضحك، وكنت تهتف. كنت تصيح: تعالوا يا نعاج. لسنا نحن النعاج. إننا رجال. إننا أحرار. وكنت تؤمن بما تفعله. كنت تعرف طريقك، وتعرف هدفك.

على أن الكثرة الباغية، ناورتك حيث كنت، فى حين كان عدد كثيف آخر يكسر الباب، من ظهرك.

وعندما تمكنوا من كسر الباب، علا صراخ الرجال والنساء. لقد كان صمودك أملا لكل رجل ولكل امرأة. لكل إنسان. فلما كسروا عليك الباب، تصدع هذا الأمل يا عماه.

حينئذ ولول النساء، وصاح الرجال يحذرونك.

وقالت مديحة:

كسروا الباب يا أبى عليك، من خلفك.

وتركت الثغرة التى كنت ترابط فيها، لتواجه الجند الكثيف الذى دخل عليك من خلف.

فأخذ عدد آخر يتسلل إليك من الثغرة المكشوفة التى أنستك المفاجأة أن توصدها.

وأصبحت ورجالك محاصرين من أمام ومن خلف.

ولقد رووا عنك يا عماه أنك، برغم هذا، لم تسلم، وأنك ظللت تقاومهم بكل ما فيك من شجاعة وإيمان، حتى أمسكوا بك حياً.

وسقطت القلعة الرائعة التى أقمتها أسبوعاً كاملا، تتحدى منها الحكومة والسلطان. تتحدى الإنجليز والملك، وحكومة الملك والإنجليز.

وعاشت السبتية بعد ذلك فى مأتم.

وعاش الدرب الأحمر كذلك فى مأتم.

بل عاشت مصر كلها فى مأتم.

وأذاعت الحكومة فى زهو وخيلاء، أنها نجحت فى القضاء على العصاة المتمردين، الذين اعتصموا بالعنابر، وأنها ستقدمهم إلى المحاكمة. ورددت البلاغات الكاذبة، التى غطت الحكومة بها وجهها، أن المتمردين كانوا عدداً غفيراً تسللوا تحت جنح الظلام، وساعدتهم قوى يهمها إسقاط الحكومة الوطنية ! الحكومة الوطنية يا "جلال" ! ساعدتهم هذه القوى على الوصول إلى أغراضهم، وأخذت تمدهم بالطعام والشراب طيلة أسبوع. لكن الحكومة ستحاكم الزعماء السبعة الذين دبروا هذه المؤامرة الخبيثة، أما بقية المضللين، فستتركهم حتى حين.

وكنت أقرأ هذه البلاغات يا "جلال" وأعجب وتعجب معى "مديحة"، ويعجب معى كل أبناء السبتية والدرب الأحمر.

ما هذه القوى التى تتحدث عنها هذه البلاغات؟

أطفال الحى ونساؤه؟

أنا و "مديحة" والعجوز التى كانت تمثل دور قارئة البخت؟

الجندى الوطنى الذى روى لى كيف كانت القوة تعرف كل شىء، وتغمض عينيها حتى تفسح الطريق للمقاومة، فتمضى وتستمر؟

ما هذه القوى؟

أليست هذه القوى هى روح مصر. إذن هى روح مصر، التى ساندت هؤلاء الأبطال طيلة أسبوع. فإن تكن هذه هى روح مصر، يهمها أن تتخلص من حكومة مصر. فلماذا تبقى؟

لكن أنت تعرف يا "جلال"، أنها لم تكن حكومة مصر؟

●●●

وذهب الأسطى "عبد الغفار" ورفاقه يا "جلال" إلى سجن مصر.

ولكم عذبوه، فما لان. ولكم ضربوه، فما شكا. لكم علقوه من خلاف، فما صاح.

كان كالحجر الصلب الذى لا يتأثر بشىء.

لم يكن يقول لهم إلا إننا رجال. إننا أبطال، لا كما تظن الحكومة قطيعاً من الغنم أو أمة من النعاج.

وحاولوا أن يعرفوا منه اسم أحد حرضه.

قال: إنه الدم الذى سفكتموه، دفعنى إلى هذا.

ولم يكن المحققون بقادرين على فهمه. أبداً. ظنوه ينكر، فزادوا فى عذابه، ولست أدرى كيف تحمل هذا العذاب. لكن عمى الأسطى "عبد الغفار" أثبت أنه فعلا بطل.

ولم يسمحوا لنا برؤيته.

كنت أذهب أنا و "مديحة" من الصباح إلى المساء، نجلس على باب السجن، نتنسم الأخبار. نستجدى الحراس. نتوسل بالدمع والرجاء. ولا مجيب. لم يتركونا نراه. أبداً. لم يتركونا نراه.

وكنا نستقبل على باب السجن رجال الحى ونساءه وأطفاله. كانوا يقبلون نحونا بالطعام، والشراب والعزاء. كأننا كنا امتداداً لعصيان الأسطى "عبد الغفار". كأننا كنا أطلال القلعة الحصينة التى أسقطها الغدر الآثم الجبان.

على أنهم سمحوا لنا أخيراً بزيارته.

ويا لهول ما رأيناه.

أقول لك إنه بدا شبحاً يا "جلال" !

أقول لك إنه ظهر لنا طيفاً يا صديقى !

ماذا أقول؟

على أنه برغم كل ما بدا عليه من شحوب ونحول، وآثار تعذيب وعدوان، كان رجلا. كان بطلا. كان إنساناً فارغاً رائعاً قوياً.

لم تغادر البسمة شفتيه قط.

كان يضحك فى تؤدة ووقار.

كانت الحرارة المؤمنة تطل من عينيه، والأمل الوضاء يشرق من نظراته.

وسأل عن أهل الحى جميعاً. وسأل على زملائه وأصدقائه.

ولما سألناه إن كان يريد شيئاً، قال: أن تتابعوا خطاى. أن تثبتوا لهم أننا رجال. أننا أبطال. خيبوا ظنهم فينا. لسنا أمة من النعاج. لسنا قطيعاً من الغنم. إن الحرية غالية يا أولاد. وعلينا أن ندفع ثمنها. وأى ثمن للحرية رخيص.

ودمعت عينا "مديحة" فقال لها:

لا يا بنتى. لا تبكى أبداً. قاومى. نحن فى حالة حرب حتى ننتصر.

والبكاء لن يكون أبداً سلاحنا ضد كل هؤلاء الخصوم.

قالت:

وبماذا تنصحنى يا أبتاه؟

قال:

ـ أنصحك ! ليس هناك نصح، ولا هذا أوانه. الطريق واضح ومعروف ولن يخطئه أحد، طريق التضحية والفداء... طريق الدم، طريق الثأر، طريق الشهداء.

قالت:

- وهل أمضى معهم فى هذا الطريق؟ هل تسمح لى؟ الا يضايقك أن أمضى مع الرجال؟

قال:

- الوطن يا بنتى ليس وطن الرجال. إنه وطن الرجال والنساء والأطفال والأشجار والطيور... بل زواحف الطريق. حتى حبات التراب... فلا فرق فى الوطن بينك وبين الرجال. سيرى معهم فى طريق كفاح شريف طويل، حتى يتم النصر للوطن. ونصيحتى أن تعرفى الطريق، وأن تختارى رفاق الطريق. عندئذ يزيدك الكفاح شرفاً وطهارة. وحذار من الانتهازيين وسماسرة الكفاح، فإن الخطر فى هؤلاء.

وسألته "مديحة":

الانتهازيون وسماسرة الكفاح ! هل للكفاح سماسرة يا أبى؟

قال:

نعم يا بنتى. كسماسرة القطن والذرة. كسماسرة البورصة.

قالت:

لكن كيف يا أبى؟ بل كيف عرفتهم؟

قال:

- يا بنتى إنهم قوم أشرار لكن أقوياء. بل هم ممثلون مهرة. لقد عرفتهم خلال الأسبوع الذى قضيته فى العنابر أكافح الطغيان. بل عرفتهم هنا فى السجن. أثناء التحقيق، وبعد التحقيق. عرفتهم وعرفت أسرارهم. كشفتهم ببركة سيدنا الحسين، ولأنى إنسان شريف مخلص، وربنا معى دائماً.

وأرادت "مديحة" أن يحدثها عنهم طويلا. وكنت على أحر من الجمر رغبة فى معرفة هؤلاء أنا الآخر.

ومضى عمى الأسطى "عبد الغفار" يصفهم فقال:

يبدون أبرياء، ويصطنعون الشرف والوطنية، ويمثلون أدوار المكافحين الأبطال، وهم فى حقيقتهم جبناء ملوثون، يعملون لمصالح قذرة ورخيصة، ويقبضون دائماً ثمن هذه السمسرة أموالا طائلة ومصالح ومناصب وأنواعاً مختلفة من الجاه والنفوذ.

قالت "مديحة":

ولكنك قلت إنك رأيتهم فى العنابر. العنابر يا أبى كانت محاصرة بقوات كثيفة من رجال البوليس، ولم يكن الدخول سهلا ولا هيناً.

قال:

يا "مديحة" أنا كنت مثلك ساذجاً وغراً قبل هذه التجربة. قلت لك إنهم أقوياء. أقوياء جداً. أقوى مما تظنين. إن لهم صلات بأجهزة الحكم. بالبوليس. لهم عيون وأعوان فى كل مكان. الشر يا بنتى هكذا تجدينه يبدو فى بعض الأحيان أقوى، وهم أشرار حقيقة. أشرار ملعونون. كان البوليس من أعوانهم يهربهم إلى فى السجن، فهل تعرفين ماذا كانوا يريدون منى؟

قالت فى لهفة:

ماذا يا أبتاه؟

قال:

بعضهم عرض على أن أعمل لحساب الإنجليز ! تصورى ! ووعدونى أن أحصل على العفو، بل وعدونى بغير ذلك. بالمال والسلطان. وعدونى بكل ما يطمع فيه إنسان.

قالت:

وماذا فعلت لهم يا أبى؟

قال:-بصقت فى وجوههم النكراء، وكدت أقتلهم لولا أنهم كانوا مسلحين.هل هؤلاء هم كل السماسرة؟ أبداً. للملك أيضاً سماسرة. للحكومة سماسرة. للأحزاب سماسرة،

للمعارضة سماسرة. ولقد توافدوا على فريقاً بعد فريق. فريق الملك يعدنى بكل شىء، على أن أصبح رجل الملك. وفريق الحكومة يعدنى بكل شىء، على أن أذكر لهم شركائى، وأنال عفواً خاصاً. وفريق الأحزاب يؤكد لى أن عمر الحكومة لن يطول، وأن كل حزب قادر على توكيل المحامين للدفاع عنى وتسخير الأقلام لمهاجمة الحكومة لو تعرضت لى بمكروه. وكلهم يسألون عن زوجتى وأولادى ليعولوهم حتى أخرج من هذه المحنة. وهم دائماً يبدءون بنغمة واحدة. إن الكفاح عن الوطن شىء مقدس يجب أن تبذل له المهج والأرواح. أنت بطل يا أسطى. نحن جميعاً وراءك. الأمة كلها وراءك. أما عملاء الإنجليز فيقولون إن المهم هو أن نحصل لبلادنا على حريتها. ويبدأون يناقشون وسيلة الحصول على الحرية. هل نحن فى قوة الإنجليز؟ هل لدينا جيوشهم وسلاحهم وأساطيلهم وأموالهم؟ سيغلبوننا لو وقفنا أمامهم وجهاً لوجه. لماذا لا نداريهم؟ لماذا لا نضحك عليهم؟ لماذا لا نصادقهم، حتى نصل عن طريق هذه الصداقة إلى ما نريد؟ وأما عملاء الملك فيتحدثون عن ضرورة الكفاح، وأهميته.. ولكنهم يتساءلون تحت أية قيادة نسير. أنت ترى يا أسطى كيف ينهش كل منا لحم أخيه. نريد قيادة فوق الأحزاب. نريد شخصية لا ترقى إليها الشبهات. نريد رأساً لا يدانيه رأس فى هذه البلاد. آه لو ورطنا الملك فى هذا الكفاح ! إذن لضمنا كل شئ. وعملاء الحكومة يقولون كلاماً آخر. وعملاء الأحزاب لهم منطقهم هم الآخرون. والغريب أنك تجدهم خليطاً من ذوى المصالح. إنهم ضباط بوليس. رجال إدارة. موظفون كبار محامون. أطباء مهندسون معلمون. طلبة. حتى العمال يا بنتى بينهم عملاء. وهم يتساندون. لا تظنى أبداً أنهم خصوم. إطلاقاً. لقد تبينت أنهم مترابطون. بينهم مصالح تجمعهم. والذين فى أيديهم القوة اليوم يساعدون الذين فقدوها، حتى إذا ما دارت عليهم الدوائر وجدوا من يقف إلى جوارهم ويحمى مصالحهم. على أن هذا كله زيف. انهيار. لا أخلاق. لا ضمير. كل شئ عندهم المصلحة، ولا غير. هؤلاء هم السماسرة، وهم أشد خطراً عليكم من السلطة الواضحة، ومن الاستبداد الظاهر الصريح غير المستحق أو غير المستور.

قالت "مديحة":

ـ وماذا كنت تقول لهم يا أبى؟

قال:

- والله يا بنتى كدت أخدع فيهم أول الأمر. رجل طيب لم يعرف من قبل إلا بيته وبيت الله وعمله. ولكن الله كشفهم لى.

قالت ك

- كيف كشفهم الله لك؟

قال:

رأيتهم يتهامسون على. يتضاحكون ويتغامزون، وهم يظنوننى غافلا عنهم. وفتحت عينى لأرى كيف يجيئون، فوجدتهم جميعاً يأتون تحت حماية البوليس، ورجال المباحث، وكبار المسئولين عن الأمن والنظام. بل راقبتهم وهم خارجون، فوجدت بينهم وبين هؤلاء وداً وصداقة.

ما معنى هذا؟ كيف هربوا إلى، وتجشموا من أجلى الأهوال؟ هى إذن لعبة قذرة يلعبونها على. الذين يتجشمون الخطر حقيقة هم أنتم. هم الأطفال الصغار، الذين كانوا يتسللون إلى بالطعام والشراب، وقبلات حارة من أبناء الحى جميعاً، هؤلاء البسطاء الشرفاء هم المكافحون الحقيقيون، بلا ثمن.

أما السماسرة، فإنهم يتاجرون فى قضايا الوطن. حتى هنا فى السجن يا بنتى.

وعندما بدأ التعذيب، كثروا حولى. كلهم يعدنى بأن يقف التعذيب فوراً إذا قبلت عرضه. ولقد جريت لأتأكد فوقف التعذيب، فلما أنكرت اتفاقى معهم، عاد التعذيب أشد مما كان !

قالت "مديحة":

- ولكنك قلت الأحزاب المعارضة. هل لها نفوذ هى الأخرى، وهى خارج الحكم؟

قال:

- مسكينة ساذجة بلهاء كأبيك، أو كما كان أبوك. نعم يا بنتى. قلت لك المصالح الشريرة تتنافس على المصلحة، ولكنها تتلاقى إذا تعرضت جميعاً لخطر. والخطر

الحقيقى عليهم جميعاً، هم نحن. الذين يعملون بلا ثمن. الذين يدفعون وأجرهم عند الله. الذين يضحون للوطن، لا لشئ سواه. هؤلاء هم خصوم كل هؤلاء الأشرار. كل هذه المصالح الدنسة. أفهمت يا "مديحة" يا بنتى؟

قالت:

- نعم فهمت يا أبى. وماذا كنت تقول لهم؟

قال:

- شئ واحد يا بنتى. أنا رجل بسيط وساذج. ولا أعرف السياسة، ولا اللف، ولا الدوران. الإنجليز أعداؤنا، وعلينا أن نحاربهم. أما أن نصادقهم لنكسبهم ونكسب منهم، فلا. أما أن نضحك عليهم، ونخدعهم، فهذا ليس هو القتال الشريف. إذا كنا نعتبرهم أعداءنا، فعلينا بحربهم حرباً واضحة غير مقنعة. هذا هو شرف القتال. أما الملك فهو والإنجليز شيء واحد. من الذى ينفذ مطالبهم؟ من الذى وضع هذه الحكومة على كراسيها ليرضيهم؟ إنه هو الملك. فكيف إذن نهادنه أو نلاينه، أو نتخذه قائداً لمعركة هو طرف فيها؟ هو الطرف الذى نحاربه فيها؟ أما غير هؤلاء فليقفوا معنا. هذه هى العنابر قد أغلقت ليتشرد آلاف العمال، ويركعوا على بطونهم من الجوع. هذا هو العمل الشريف يحرمونه على أصحابه. ليقف كل شريف معنا فى هذه المعركة. إن العنابر هى مصر. مصر كلها تعانى ما تعانيه العنابر.

فلماذا نسكت. هيا كافحوا معنا. لا تقولوا لنا تعالوا انضموا إلينا. لا. لماذا ننضم إليكم. لنسمع خطباً لنعقد اجتماعات؟ لنصدر قرارات؟ لنطبع صحفاً؟ أنا رجل بسيط وأفهم شيئاً واحداً. هذا الكفاح المقدس فى سبيل لقمة عيش شريفة طاهرة، أحملها كل مساء لأولادى. فتعالوا أنتم إلينا. أما أن ننضم نحن إليكم فهذا هو الكلام المعكوس. وسمعتهم يا بنتى يقولون عنى إننى عنيد، وإن المحاولة معى مستحيلة، وإن من الخير أن يقضوا على. ولكن - والله- أنا لم يعد يهمنى شيء. كفانى أنى كشفتهم هؤلاء السماسرة، وليفعل الله بى بعد ذلك ما يريد.

●●●

وكانت هذه هى الزيارة الوحيدة التى سمحوا لنا أن نراه فيها.

وبعدها لم نره يا "جلال" إلا فى المحكمة.

ولقد كان فى المحكمة كما كان فى المعركة، كما كان فى السجن بطلا.

كان رجلا. كان إنساناً تجاوز كل مراحل الخوف والجزع.

كان فى قفصه أكثر حرية منا جميعاً. عندك حق يا "جلال". إن الحرية فى كل مكان. فى السجن، أو فى المحكمة أو فى المعتقل، ومسكين من يتوهم أنه قادر على كبتها.

لقد تحول ميدان باب الخلق إلى ساحة قتال.

جنود المشاة مسلحون. وخيالة. وسيارات تتجول حول المكان. كل الأسلحة، بكل المعدات.

كل هذا ليحاكموا الأسطى "عبد الغفار" ورفاقه من عمال العنابر.

لكنهم كانوا يشعرون أنهم لا يحاكمون الأسطى "عبد الغفار"، وإنما كانوا يحاكمون مصر كلها، ولم تكن مصر متهمة يا "جلال". كانوا هم المتهمين.

وما كان أغربها محاكمة، أن يجرؤ المتهم على محاكمة البرئ. المعتدى يحاكم المعتدى عليه. الباغى الطاغية، يحاكم من تعرض لبغيه وطغيانه !

وأقبلوا بالمتهمين من السجن. وبرغم كل هذه الحراسة المفروضة. برغم الحديد والنار، فقد التهبت الأكف وهى تستقبلهم بالتصفيق، وبحت الحناجر، وهى تستقبلهم بالهاتف، لهم وللحرية.

وامتلأت قاعة المحكمة بالوطنيين الشرفاء، وبينهم من اندس بين الصفوف من رجال المباحث والعملاء.

ووقف الأسطى "عبد الغفار" فى قفص الاتهام، مارداً صلباً، تملؤه الثقة، وينضح وجهه بالكرامة والكبرياء. لم يؤثر عليه السجن. لم يؤثر فيه التعذيب. قط. لقد بدأ أكبر من كل هذا.

وأقبلنا عليه أنا , "مديحة"، فصافحنا وهو يبتسم. مد يده من بين القضبان الحديدية، ثم سحبها منا، عندما ارتفع صوت الحاجب يقول: محكمة.

وبدأت إجراءات المحاكمة. وكانت المحكمة قد ندبت له محامياً ليدافع عنه، فى حين وقف جمع كبير من المحامين يعلن تطوعه للدفاع عنه. لقد تباروا جميعاً يلتمسون شرف الدفاع عن البطل.

لكنه وقف فى عزة وثقة وقال:

يا حضرات القضاة. فيم الحاجة إلى محامين؟ أنا لا أشعر أنى متهم بشىء، يستحق دفاعاً . أنا رجل برىء. أنا مواطن أدى واجبه. فهل من يؤدى الواجب يصبح متهماً؟

وضجت القاعة بالتصفيق.

ودق القاضى على منبر القضاء، فلما سكت الناس قال فى حدة وغضب: التصفيق ممنوع. هذه محكمة. أرجو ألا أضطر إلى توقيع عقوبة على أى شخص يخل بالنظام فى هذه القاعة.

وعادت الإجراءات تأخذ مجراها.

قال القاضى:

ـ بل لا بد لك من محام يدافع عنك. هذه هى الإجراءات القانونية.

قال الأسطى "عبد الغفار":

ـ لسنا فى حاجة إلى محامين. إن المسألة لا تحتاج إلى محامين.

قال القاضى:

ـ ماذا تقول؟ هذه جناية. هنا محكمة الجنايات.

قال الأسطى "عبد الغفار":

ـ هل تسمح لى أن أسألك سؤالا يا حضرة القاضى؟

قال القاضى:

- نعم، ماذا تريد؟

قال الأسطى "عبد الغفار":

- لماذا ثرت ثورتك هذه، عندما ضجت قاعة المحكمة بالتصفيق؟

لأنك قاض ٍ، وأنت رئيس الجلسة، وعليك أن تحمى النظام فينا وتحافظ على القانون. هب سلطة أخرى اقتحمت عليك هذه القاعة الآن، وهددت نفوذك وسلطانك. هل تسمح لها بهذا؟ لا تثر يا سيدى الاقصى. أنا رجل بسيط وساذج. أنا أعلم تماماً، أنك لن تسمح لأية سلطة بهذا، لأنك تحترم منصبك، وتخدم عملك، وتتفانى فى سبيل الدفاع عنه. فإذا تجاوزت هذه السلطة حدودها، وتعدت عليك وعلى عملك. فماذا يكون موقفك منها؟ إن قبلت، فأنت لست أميناً على عملك، فإذا لم تقبل، فعليك أن تقابل هذه السلطة بما تستطيع من وسيلة. المنطق والإقناع، ثم القوة إذا لم يكن هناك بد من استعمال القوة. ماذا فعلنا نحن إلا هذا؟ ناس جاءوا فاعتدوا علينا، وهددوا أرزاقنا، ثم قطعوا هذه الأرزاق منا، وهى كل ما نملكه فى الحياة، بل هى أمانة فى أعناقنا، وحق عيالنا علينا. هل نسكت؟ هل نفرط فى حقوقنا؟ هل نسلم؟ أم نقاوم؟ وقاومنا بالعقل والحكمة فلم يجد عقل ولا حكمة.

وإذن كان لابد لنا من حماية عملنا بالقوة، فاستعملنا القوة، حتى غلبونا على أمرنا. أى اتهام إذن يوجه إلينا؟ إن كان هناك ذنب، فهو ذنب الذى اعتدى علينا. الذى قال عنا إننا أمه من النعاج، أو قطيع من الغنم. إنه ذنب الذى سفك دماء إخواننا. إنه ذنب الذى قطع عيشنا. إنه ذنب الذى...

وعادت القاعة تضج بالتصفيق والهتافات، حتى اضطر القاضى إلى رفع الجلسة.

●●●

على أن كل هذا لم يجد يا "جلال".

صدق الأسطى "عبد الغفار" عندما قال لهم فى جرأة لا يقدر عليها إلا بطل:

ـ إنى أعرف الحكم قبل أن تنطقوا به. عرفته فى السجن، وهم يساوموننى على حريتى. عرفته من ألوان التعذيب ليحملونى على الكذب والافتراء على الناس بالباطل. عرفته أثناء التحقيق، وهم يشيرون إلى إشارات خفية بما سيكون من أمرى إذا قلت هذا أمام المحكمة. عرفته من كل المظاهر التى أراها الآن هنا.

الحكم معروف سلفاً، ولولا أن المحكمة قد تغضب منى لتلوته الآن، قبل النطق به. ولكنى أقبله. أقبله لأنى عاجز عن رفضه. أقبله شرفاً أتوج به هامتى. وسأكون مظلوماً حتى لو برأتم ساحتى، لأن الحقيقة ستظل مختفية، والجريمة ستظل مستورة. العدل المطلق هو أن تأتوا بالمعتدى إلى هنا لتحاكموه.

حاكموا الذين أمروا بقتل زملائى وأصدقائى. حاكموا الذين يأمرون كل يوم بقتل الأبرياء. حاكموا هؤلاء، واحكموا عليهم بالإعدام من هذا المجتمع. حتى براءتى لم تعد تكفى يا حضرات القضاة.

ومع هذا أصدرت المحكمة حكمها: بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

على أنه لم يمض على هذا الحكم شهر، حتى جاءنا الناعى، ينعى إلينا وفاة الأسطى "عبد الغفار" فى السجن، ويخطرنا بأننا نستطيع أن نتسلم جثته، على ألا يتم دفنها فى احتفال أبداً.

لا أريد أن أطيل عليك، فأرى لك وقع هذه الفاجعة فى نفوسنا، فى الربع، وفى الحى.

كيف بكيت أنا حتى جفت مآقى.

كيف صرخت "مديحة"، وكادت ترمى بنفسها تحت عجلات الترام.

كيف بكاه أبناؤه... بل كل الرجال والنساء والأطفال فى حى الدرب الأحمر.

لا أريد أن أطيل عليك فى هذا الوصف يا "جلال". ولكن الذى أريد أن تعرفه، هو أن الأسطى "عبد الغفار" مات مقتولا ! لم يمت ميته طبيعية لقد أحست الحكومة أن هذا

الرجل خطر عليها. خطر لأنه مبرأ عن الغاية إلا الكفاح النبيل الشريف. خطر لأنه أعصى على الحكومة من قوتها كلها.

خطر لأنه قادر على الجوع، ولا تمتد يده إليها بسؤال. خطر لأنه شريف وطاهر.

قال "جلال":

- لكن كيف عرفتم هذا؟

قال "ممدوح":

- الحارس الذى كلف بحراسته جاءنا يبكى وقال لنا هذا.

قال "جلال" متعجباً:

- الحارس هو الذى قال هذا؟!

قال "ممدوح":

- نعم يا "جلال". وكان حزيناً عليه إلى أبعد حدود الحزن. أنت لم تعرف الأسطى "عبد الغفار" ولو عرفته قبل هذه التجربة لأحببته. كان إنساناً شهماً طيباً كريماً، وقد أضافت إليه هذه التجربة مزايا أخرى جديدة، لأنه معدن طيب. تعرف الذهب، تظهر حقيقته بالنار. تعرف المسك، تشم رائحته بالحريق. كذلك الأسطى "عبد الغفار" كان كالذهب والمسك، وعندما تعرض للشدة، زادته الشدة قوة وصلابة، كما زادته شهامة وكرماً. والذين كانوا يحرسونه كانوا يحبونه. حتى الذين عذبوه أحبوه.

قال "جلال":

- هذا غريب.

قال "ممدوح":

- وأغرب منه يا "جلال" أن يمنعوا العزاء فيه. الحكومة قتلته، ومع هذا خافت من ذكراه. خافت من ميت لا يملك حتى الهمس. على أن موته كان إيذاناً بحياة جديدة لم يكن لنا بها عهد من قبل.

●●●

"مديحة" يا "جلال" ...الفتاة الجميلة الوديعة الطيبة الخجول.

"مديحة" انقلبت فى لحظة إلى بركان.

قالت لى فى ثورة:

- هل سنسكت؟

قلت:

- لا. وهل هذا شئ يسكت عليه؟

قالت:

- تذكر ما قاله لنا أبى، ونحن نزوره فى سجنه؟ الطريق واضح ومعروف. وما علينا إلا أن نعرف كيف نسلكه. ومع من نسلكه.

قلت:

- نعم أذكر هذا ولن أنساه، ولقد عشت ليالى أحلم بكل حرف قاله.

قالت:

- ثم لابد لنا من ثأر. لابد لنا من أن نثأر له. هل يذهب دمه هدراً؟

قلت:

- إنه دمنا جميعاً. فإذا أهدر هذا الدم، فقد أهدرت دماؤنا كلنا.

قالت:

- إذن هيا إلى العمل. لنتبين الطريق. ولنختر رفقاء الطريق، إلى الهدف الذى مات من أجله. فإذا انتصرنا فقد ثأرنا له، وإلا فليتمم عملنا جيل يأتى بعدنا.

واتفقنا على العمل.

ولكن أى عمل؟ ماذا نعمل؟ ومن نحارب؟ ومع من؟

●●●

هل تعرف كيف بدأنا؟

نظمنا صفوفنا فى الحى، لننضم إلى كل مظاهرة، إلى كل حركة تعمل ضد الحكومة.

وكونا لجنة محدودة. كنا ثلاثة: "مديحة" و "سالم" وأنا.

وكانت مهمة هذه اللجنة أن تتحرى الأخبار. أن تقف على التطورات أولا بأول. أن تقوم بالاتصالات فى كل الجهات. فى الجامعة. فى أوساط العمال. بين طوائف الشباب الوطنى. حتى مع الأحزاب. وعن طريق هذه الاتصالات، كنا نقف على الترتيبات المختلفة، علنية كانت أو سرية.

وكانت "مديحة" رائعة. مثلت دور الفتاة البريئة الساذجة، ووزعت منشورات، ووزعت تعليمات، ونشرت أنباء الاجتماعات والمظاهرات فى أوسع دائرة تستطيع، ولكم نجحت فى اتصالات لم يكن أحد يظن أنها قادرة عليها.

رجال رسميون فى الحكومة اتصلت بهم، وأخذت منهم وثائق ومستندات تدين الحكومة. وكنا نرسل كل ذلك لصحف الأحزاب دون أن يعرفوا لها مصدراً.

كنا فقط نطلب من هذه الصحف أن تتأكد من هذه الوثائق والمستندات، ثم تذيعها على الرأى العام.

كنا ثلاثة يا "جلال" ولكنا كنا ثلاثة صادقين أمناء وشرفاء.

ولم يكن يعرف أحد عنا شيئاً.

كنا نعمل سراً، وفى تكتم شديد.

وكان صنفاً طاهراً ونظيفاً، وبعيداً عن المغريات.

ويوم سقطت الحكومة، رقصنا ثلاثتنا فرحين بالنصر.

لقد سقطت سقوطاً لم تتعرض له حكومة قبلها. سقطت والعار يتبعها فى كل مكان، والدنيا كلها تسخر من أيامها اللعينة.

وقلنا هذه بداية النصر ...

ومضينا نعمل. لم نسكت أبداً.

وقامت حكومة ثم سقطت. وتلتها حكومة ثم سقطت، وثالثة، ورابعة.

وكنا نتصور يا "جلال" - ربما غروراً - أننا نحن الذين نسقط الحكومات. نحن الثلاثة كنا نتوهم هذا، وكان هذا الوهم يرضى غرورنا ويزيدنا إقبالا على العمل. أظن أنك تعرف "مديحة" الآن، من خلال هذا الحديث.

هأنذا أمامك. لابد أنك تعرفنى كذلك. وأنا كما ترانى أعرج. بقى أن تعرف "سالم" فقد كان ثالثنا فى هذا التنظيم الصغير المحدود.

كان "سالم" من أبناء الحى، يسكن فى ربع قريب من ربعنا. وكان زميلا من زملائى فى الدراسة. ولم يكن فى دروسه ممتازاً ولا متفوقاً. لكنه كان بطلا من أبطال الرياضة. كان يلعب جميع الألعاب فى مقدرة. كان مشهوراً بقواه البدنية. وطاقته الفذة فى الرياضة. وكان يعرف كيف يتحكم فيما يمارس من ألعاب. وكان من أبناء حى الدرب الأحمر. ولقد كنت أساعده فى دروسه كثيراً. كان والده ووالدى صديقين، وكنت أشعر أنى مسئول عن نجاحه فى الدراسة.

وكان "سالم" برغم قواه البدنية، وتفوقه الرياضى، وشهرته فى ألعاب مختلفة وديعاً جداً، ومسالماً جداً، وطيباً جداً. كان رقيق العاطفة والشعور إلى أقصى حد. كانت دموعه تتساقط من عينيه إذا صادفه منظر فقير محتاج فى الطريق.

ولكنه مع هذا كان وحشاً كاسراً، إذا قوبل باستفزاز.

ولن أنسى يوم محاكمة الأسطى "عبد الغفار" بل قبل ذلك، وهو يقاوم داخل العنابر. كان "سالم" يا "جلال" حركة دائبة لا تنقطع. لكم اختفى فوق سطح منازل السبتية، وأخذ يقذف القوة بالحجارة، حتى يخفف ضغط هذه القوة على الأسطى "عبد الغفار". وأطلقوا عليه النار أكثر من مرة، ولكنه فى كل مرة كان يثب من سطح إلى سطح كالطائر، فيضللهم عن مكانه تضليلا عجيباً.

فعل ذلك بلا طلب. لم أطلب منه هذا أبداً. فعله لأنه ـ كأبناء الحى جميعاً ـ شعر أن هذا ظلم فادح، وأن المسألة لم تعد تحتمل السكوت على هذا الظلم.

كان يصيح فى رعونة: وماذا فعل عمى الأسطى "عبد الغفار"؟ ماذا يريدونه أن يفعل؟ رجل يرى زملاءه يتساقطون كالدجاج واحداً وراء واحد. يرى عمله يعتدى عليه وهو عمله، وهو صاحبه. يرى العنابر تغلق لتشتت الحكومة العمال. ليجوع كل عمال العنابر. يرى هذا كله، ويريدونه أن يطأطئ رأسه طاعة واستسلاماً !! إن هذا ظلم. هذا شئ لا يحتمل.

وفى يوم المحاكمة كان ينتفض. كنت أخاف، وأنا ألاحظه، أن يثب فجأة ليفتك بحراسه ويحاول أن يخلصه من هذا القفص. كان ينفخ ويخبط الأرض بقدميه. كان يقف تارة ثم يجلس ثم يعود فى عصبية ظاهرة. لقد أمسك بيد الأسطى "عبد الغفار" وقبلها، تقديراً لبطولته.

ولما حكموا عليه كان هو الصوت الوحيد الذى انطلق يهتف بحياة الأسطى "عبد الغفار" وكاد يتعرض للمكروه. لولا أن الزحام كان كثيفاً، وأنه تاه فى وسط هذا الزحام.

ولما قتلوا الأسطى "عبد الغفار" بكى يا "جلال" بكاء مزق القلوب.

فلما عرضنا عليه العمل معنا، بدت عليه السعادة كما لم تبد عليه قط.

وعمل معنا فى صمت ودأب، ولم يتخلف عن لقائنا يوماً.

وكان احترامه "لمديحة" كبيراً. وكان يمشى خلفها عندما تكلف بمهمة سرية كالكلب يحرسها فى أمانة.

●●●

هل تدرى كم سنة قضيناها فى هذا العمل المنتظم نحن الثلاثة؟

قرابة سبع سنوات، وربما أكثر.

ولكم قاومنا إغراء العملاء والأحزاب.

بل لقد كشفنا لعبة الإنجليز بحواسنا وشعورنا، يوم وقعوا المعاهدة. لم تخدعنا المعاهدة أبداً. كنا دائماً نسأل أنفسنا: هل خرجوا؟ وكلما وجدناهم لا يزالون بيننا، فى أراضينا يحتلون وطننا كنا نؤمن بأنها خدعة جديدة لجأوا إليها.

وكنا قد كبرنا. ذهبت أنا و "سالم" إلى الجامعة، والتحقنا بكلية واحدة لنكون متجاورين. لنستأنف كفاحنا جنباً إلى جنب.

وظلت "مديحة" فى الريف تنتظرنا كل يوم، لنضع خطة عملنا فى الطريق الواضح الطويل الذى اخترناه.

ورأينا أننا ندور فى حلقه مفرغة. ندور حول أنفسنا.

وقررنا أن نترك حرب الحكومات، وأن نحارب الإنجليز.

ولم نكن ـ نحن الثلاثة ـ جيشاً، حتى نحاربهم حرباً علنية واضحة.

كان لابد من حرب أخرى. قلنا نلقى الذعر فى نفوسهم. نتصيدهم فرادى، حتى يعم الذعر قلوب الآلاف الذين يحتلون بلادنا. لم نكن أول من فعل هذا سبقنا إليه كثيرون من الوطنيين. قلنا كانوا على حق. إذن ليكن هذا هو الطريق.

قال "سالم":

ـ أبدأ أنا.

ولم أرد. أنا كما ترانى أعرج، وقد تحول عاهتى بينى وبين العمل العنيف، والحركة السريعة.

واتفقنا.

وجاءنا سالم ليقول إنه قتل أول كلب منهم.

وكدنا لا نصدقه، ولكن الصحف نشرت بعد ذلك الخبر، فصدقناه.

ثم استأنف عمليات أخرى متكررة فى منطقة القلعة، حتى ضجت الحكومة والقوات البريطانية، وثارت ثائرة السفارة البريطانية.

كانوا يقولون إنها أصبحت سفارة يا "جلال" بدلا من دار المندوب السامى ولكنها فى الواقع لم تكن سفارة، وإنما كانت هى دار المندوب السامى القديمة، بكل ما كان لها من جاه ومن نفوذ ومن سلطان.

لقد قرروا أن يزيدوا الحراسة فى هذه المنطقة.

بل قرروا أخذ الأمر بالشدة والعنف، ونشرت صحف عملية من صحفهم أن الإمبراطورية البريطانية تواجه هذه الأيام أزمات دولية قد تؤدى إلى حرب عالمية.

وكانت تتصور أنها بعد كل ما فعلته لمصر، ولأهلها، وبعد أن وقعت معها معاهدة الشرف والاستقلال. كانت تتصور أن المصريين يحسنون معاملة جنودها، لا أن يهاجموها غدراً، وفى الظلام، وأن يتعقبوهم ليسفكوا دماءهم.

تصور يا "جلال" هذا المنطق الغريب !

تصور أننا نحن نغدر بجنودهم !

أما احتلال البلد، فعمل شريف !

أما التحكم فى البلد، وفى أرزاقها، فعمل شريف !

أما حوادث العتابر، فعمل شريف !

أما قتل الأسطى "عبد الغفار" فعمل شريف !

●●●

قلت "لسالم":

ـ عليك أن تغير مكانك. إن وقوع هذه الحوادث فى مكان بعينه قد يعرضك لخطر.

وقالت له "مديحة":

ـ صحيح يا "سالم". لقد أصبحت الحراسة شديدة جداً.

وقال "سالم":

ـ لا تخافا. أنا أعرف كيف أضللهم.

ومضى كالسهم إلى غايته. كان الوقت ليلا، والظلام شديداً، فاستحث الخطى نحو القلعة، ليتخير مكمنه، حتى ينقض منه على صيد جديد.

على أنه لم يعد إلينا بعد ذلك.

أخذنا ننتظره فى لهفة، ولكنه لم يعد.

وذهبت أستوضح الأمر، فسمعت الخبر على أفواه الناس. قالوه لى وهم حزانى على ما حدث.

لقد أمسكوا به، وأوسعوه ضرباً مبرحاً، بالسونكى، حتى خر أمامهم فاقد الوعى، والدماء تسيل من ظهره، ومن ذراعيه، ومن صدره. وحملوه فى سيارة إسعاف إلى معسكر القلعة.

ولم أستطع أن أعود إلى "مديحة" إلا فى الصباح.

وكيف كان يمكننى أن أحمل إليها هذا النبأ المروع.

لم أستطع يا "جلال".

وفى الصباح، عدت فوجدتها لم تزل تنتظر. وقبل أن أروى لها ما حدث روته هى لى فى حزن شديد.

قالت:

ـ عرفت كل شئ. ضبطوه. قبضوا عليه. ضربوه. حتى حطموا ضلوعه.

مزقوا جسده بأسلحتهم. يا ترى هل يعيش؟

ولم أستطع أن أرد. ماذا كنت أستطيع أن أقول؟

ومضت شاردة وهى تتحدث عنه:

ـ "سالم". مسكين يا "سالم". أنت بطل. أنت شجاع. إنك لا تهاب شيئاً. تماماً كأبى. ولكنهم غلبوك يا "سالم". عودك الفارع الجميل شوهوه برماحهم. جسمك القوى المشوق

حطموه ببنادقهم. دمك الطاهر البرىء أهدروه يا مسكين. ولكن ماذا نفعل؟ هذه أقدارنا. هذه بلادنا. هذه قسمتنا. علينا أن نتحمل، وأن نتجمل.

كان حزنها رهيباً. كان جليلا. كانت نظراتها شاردة. كانت تائهة. كانت تتحدث عنه، كأنما تتغزل فى مفاتنه.

لست أدرى يا "جلال" هل كان إثماً أن أغار. وممن؟ من بطل عاش كفاحنا سبع سنوات !

ولكنى إنسان يا "جلال". أنا إنسان. وأنا كما ترانى أعرج، عاجز وقد كان سالم بطلا، مكتمل الشباب. لم يكن مثلى على أى حال.

وكتمت مشاعرى فى قلبى، وأنا أراها شاردة عن كل شئ، إلا عنه:

"سالم" البطل الجبار.

لم تعد ترانى. لم تعد تنظر إلى. عيناها اللتان اعتدت أن أجد فيهما راحة عقلى وقلبى وضميرى، قد اتجهتا إلى بطل تحول إلى أشلاء كوموها فى القلعة.

وقررت أن أكون لها "سالم" آخر يا "جلال".

قررت أن أكون بطلا أنا الآخر.

من أجل عينيها. من أجل فتنتها. من أجل حب نما معى منذ نعومة أظفارى. من أجل ماضى. من أجل حاضرى. من أجل مستقبلى.

لقد شعرت أنى فقدتها، وأنا بدونها، بلا ماض، ولا حاضر، ولا مستقبل.

وقررت أن أسترجعها، لأسترجع معها حياتى كلها.

●●●

هل أترك هذا الحديث العام يا "جلال" قليلا، لأبين لك أننى أصبحت بدونها بلا مستقبل. بلا أمل. بلا رجاء. بلا حياة.

لعلى قلت لك إن أمى كانت تدعنى أنام فى حجرتها، حتى لا يعيرنى إخوتى بعاهتى. وحتى لا يضايقونى.

ولكن أمى يا "جلال" لم تعش بعد ذلك طويلا.

وهب "جلال" مرة أخرى يسأل:

ـ ماذا ..ماذا جرى لها؟ هل رحلت؟

قال "ممدوح":

ـ نعم يا "جلال" رحلت. رحلت إلى غير عودة.

قال "جلال" فى أسى:

ـ يا ربى كلهم يرحلون. كلهم يرحلون !

واستأنف "ممدوح" روايته:

وتزوج والدى زوجة أخرى. ولم يكن طبيعياً أن أستمر أنام فى حجرتها. أعدوا لى حجرة صغيرة خاصة، فى طرف بعيد من فناء الريع. ولقد وجدت فيها فرصة العمل الكبير، الذى أدبره مع "مديحة" و"سالم".

وبمرور الأيام، أصبحت فى عزلة تكاد تكون تامة. حتى طعامى كانوا يرسلونه إلى حجرتى، لآكله وقتما أحضر. لم أعد أرى أبى إلا مصادفة. لم أعد أرى كذلك إخوتى إلا نادراً. أصبحت حياتى هى التنظيم الصغير الذى كوناه. "مديحة" و"سالم" وأنا. والكتب والاستذكار، والعمل الدءوب فى سبيل الثأر للأسطى "عبد الغفار".

وأنا لا أستطيع أن أقول إن زوجة أبى آذتنى يوماً، لا بكلمة ولا بتصرف. على أن الحقيقة أننى صرت معزولا تماماً عن البيت كله. وكنت أسمع أن أبى يقول لزوجته ولإخوتى: دعوه فى حاله. إنه مشغول بمذاكرته. سيكون له شأن كبير إن شاء الله.

وكان هذا يسرنى، ولكنه مع ذلك كان يؤلمنى. كنت أحس أننى قد صرت كما مهملا فى هذا البيت. لم أكن أستمتع بعاطفة من أبى. وأمى قد ماتت. إخوتى يغارون منى

ويدارون تخلفهم فى الدراسة بتعبيرى بأنى أعرج. لم تعد لى إلا "مديحة" و "سالم". أما "سالم" فقد ذهب، ولم يعد. ثم ـ واسمح لى أن أستعمل تعبيرك ـ رحل بعد ذلك متأثراً بجراحه. مات.

وهب "جلال" يقول:

ـ سبحان الله. هو الآخر؟

وقال "ممدوح":

ـ نعم هو الآخر، مات. ولم أعد أعرف كيف أتحدث إلى "مديحة" كانت شاردة دائماً، واجمة دائماً، حزينة دائماً. حتى لقد كنت أصيح فيها : ما هذا؟ هل كنت تحبينه؟ هل كنتما تخدعانى؟ ولكنى كنت أشعر أن تضحية "سالم" أكبر من أن ألوثها بمثل هذا الكلام. على أنى لم أطق على هذه الحالة صبراً. وبرغم أنى كنت واثقاً من حبها لى، كنت أقول فيما بينى وبين نفسى : قد يكون حبها نحوى من نوع آخر. ربما أحبت عقلى وتفوقى. ولكنها فتاة. امرأة. ولابد لها من أن تحب أيضاً بحواسها وحيويتها تحب شاباً مكتملا قوياً. إذن أحبتنى وأحبت معى "سالم" وكنت أجن لهذه الأفكار.

وقلت فى نفسى: إذن أحاول مثلما حاول "سالم" فقد أسترجعها.

●●●

ولم أقل لها شيئاً، وانما أخذت أرسم خطتى.

أنا أيضاً سأقتل الإنجليز. سأتصيد كل يوم جندياً إنجليزياً أرديه قتيلا.

وستكتب الصحف عن الحوادث الغامضة المجهولة ضد الجنود البواسل الذين يحتلون أرضنا. وعندما تسألنى عمن ترى يقوم بهذه الأعمال، سأبتسم فى تواضع ولن أقول لها إننى أنا الذى أقوم بهذا. إذا كان "سالم" قد ذهب، فإننى أكثر شجاعة ولياقة من "سالم". إننى أعرج. ولكنى قادر على أن أقوم بما يقوم به الأبطال من أمثال "سالم" ومن قبله الأسطى "عبد الغفار".

وأخذت أحلم بما عساه يحدث.

ستأخذنى بين ذراعيها لتبارك هذه الشجاعة فى قلبى.

ستعود إلى عيناها، فاتنتين رائعتين.

سيعود إلى قلبها خفاقاً بحبى.

سيعود إلى الأمل فى مستقبل أعيش فيه إلى جوارها مرتاح النفس رضى البال.

●●●

قلت فى نفسى:

أين أبدأ؟ لو أنى بدأت فى القلعة، فلن أستطيع. القلعة مكان مزدحم، ولابد لى من القدرة على الوثوب هنا وهناك، والتخفى فى الظلمات والمنحنيات، وقد أحتاج إلى الصعود على أسطح بعض المنازل، والقفز من منزل إلى منزل.

وهذا شئ ليس فى مقدرتى.

إذن أين؟

وبعد جهد طويل، قررت أن أختار طريق المعادى، مكاناً لغزواتى.

فطريق المعادى خال من الناس، ومن الأبنية، وفيه زراعات وأشجار يمكن التخفى فيها فى سهولة ويسر، وبلا مجهود بدنى لا أستطيعه.

وتأهبت للعمل.

على أنى رأيت أن أبدأ باستكشاف المكان، حتى أطمئن إلى سلامة أعمالى.

وذهبت مرة ومرة ومرات. ولما اطمأنت نفسى تماماً، نويت أن أنفذ خطتى، وسأحمل بذلك "مديحة" على أن تعود إلى، أرق مما كانت.

وذهبت يا "جلال" أحمل سلاحى.

وقضيت ليلة كاملة مختبئاً بين أعواد الذرة، وسيارات الإنجليز تمر بى رائحة وغادية، وأصبعى على زناد مسدسى، والمسدس محشو بالرصاص. ولكنى لم أجد القدرة على أن أضغط على هذا الزناد.

ثم عدت مرة ثانية. ولم أستطع أيضاً أن أطلق الرصاص.

كنت أتصور نفسى عاجزاً عن الحركة، لا أستطيع الفرار منهم. أعرج. أنا أعرج يا "جلال". هل هذا ذنبى؟

●●●

على أنى أخيراً وأمام سحر عينى فاتنتى، أطلقت الرصاص على سيارة صغيرة من سياراتهم فأصابت الرصاصة الضابط الذى يجلس بجوار السائق.

ولم أتحرك من مكانى حتى الصباح، فى حين كان البحث جارياً على بعد أمتار منى.

ولو أنهم بحثوا جيداً، أو انصتوا جيداً، لسمعوا أنفاسى عالية كطلقات الرصاص التى أرسلتها.

على أن هذا ما حدث. إرادة الله يا "جلال" أنستهم مكانى.

وكانت المغامرة الأولى مشجعة لى على المضى فى هذا الطريق. لم أعد أخاف أن أضغط على الزناد. لم أعد أخاف أن يضبطونى.

وقتلت منهم ثلاثة أو أربعة. ولما علمت "مديحة" أخذت تنظر إلى معجبة فخورة، ثم أخذتنى بين ذراعيها تباركنى ونسيت كل أهوال المغامرة. على أنى فى المرة الأخيرة نسيت كتاباً من كتبى. إنه قدرى يا "جلال".

وعندما اكتشفوا هذا الكتاب، وعرفوا صاحبه، أتوا إلى الجامعة، حيث ساقونى إلى هذا المعتقل، فأسرع إلى أهلى كما ترى، ولم يكونوا يعبأون حتى بالسؤال عنى.

دعنا من هذا الآن. المهم هو أن الإنجليز فقدوا أعصابهم يا "جلال".

إنهم وقد أعلنت الحرب، يخافون من الهواجس. إنهم يعتقلون الناس بالشبهات.

ولم تكن هذه شبهة. وإنما كانت عنواناً ثابتاً فى مكان الحوادث التى أزعجتهم طويلا.

قال "جلال":

- وربما حاكموك.

قال "ممدوح":

- وقد يحكمون بإعدامى. ولكنى سأموت مرتاح الضمير، بعد أن استعدت "مديحة" الغالية الحبيبة.

قال "جلال":

- ماذا تقول؟ يحكمون بإعدامك !

قال "ممدوح":

- ومن يمنعهم عن هذا؟ أليسوا هم حكام البلاد؟

قال "جلال" فى فزع:

- وترحل أنت أيضاً. وترحل مع الراحلين؟ ! يا ربى... لماذا هذا الرحيل؟ أكلهم هكذا يرحلون؟ أكان لابد أن تخلق هذا الرحيل.

●●●

وارتفع صوت غريب فيه لكنة أجنبى، يعبث حتى بلغة البلاد !

قال فى غلظة:

- أما كفاكما كلاماً؟...

وفزع "جلال" وقد تبين صوت أحد الكونستبلات الإنجليز وأخذ يصيح:

- رباه. كان يسمعنا ! "ممدوح" لقد سمع اعترافاتك كلها، وربما كان يسجلها عليك.

وتعانق المعتقلان، يحتمى كل منهما بالآخر، من المجهول !

□□□

٢

"ممدوح" ذهب يا "مـديحة". أخـذوه. ليست أدرى إلى أين أخذوه أخذوه منـى ومنك أنت أيضاً يا "مديحة".

هل يرحل هو الآخر مع من رحلوا، ومن يرحلون؟ خسارة "ممدوح". ولد صـادق ومؤمن وشريف. ثم هو إلى جوار ذلك كله يحبك يا "مـديحة". لا يرى الدنيا إلا من خلالك. حتى الوطن لـم يره إلا من خـلالـك، وعن طريق عـينيك. أنت نافـذته إلى الـدنيـا، وإلى حـيـاة الكفـاح الشـريـف. أنت أمله أنت مناه. لـولاك يا "مديـحة" لما استطاع أن يحقق شيئاً. هو حكى لى عن كل شئ.

ليته مـا فعل. ليته أخـفى عنى كل شئ. لكنـه مسكين. كـان يريد أن ينفس عن نفسـه. كـان السـر مكتوماً فى صـدره، يقلق كيانه، وكـان مـحتـاجاً إلى واحـد يروى له هذا السـر. يطلقـه ـ هذا الطـائر السـجـين ـ ليتـحـرر !..يتـخلص منه كـمـا يتـخلص من رصـاص مـسـدسـه، فـيـصـيب مع كل رصـاصـة هدفـاً. لكنـه هذه المرة أخطـأ الهـدف، فـارتدت الرصـاصـة إلى صدره. لا. لا يا "مـديحة" "ممدوح" لم يخطئ الهـدف. أبداً. إنهـا المقـادير التـعسـة هى التى صـادفتـه فى الطريق. إنه الأسـلوب القـذر الذى يلجـأون إليـه هنا. إنه التسمع الدنئ من خلف الجدران. التلصص على الوطنيين، ليعرفـوا أسـراراً عجـزوا عن الوقوف عليها بطرقهم المختلفة، فلم تبق أمـامهم إلا طريقة واحدة، هى أن يمدوا آذانهم إلى نجوى النفوس، وهمس السرائر ! إن "ممدوح" ضحية الغدر الجبان.

قالت "مديحة":

- من يا "جلال" لم يذهب ضحية الغدر؟ من منهم ذهب فى معركة شريفة متكافئة؟ أبى ذهب ضحية الغدر. "سالم" ذهب مثلما ذهبوا. كلهم يذهبون هكذا ضحايا هذا الغدر.

قال "جلال":

- هذا صحيح. بل إننا من أجل هذا نكافح. كل ما نريده أن يدخلوا معنا فى معركة متكافئة. ولكن هل نصل إلى هذا؟

قالت "مديحة":

- قد نصل يوماً. فإن أجيالا أخرى ستتمم أعمالنا. ستصل إلى هذه المعركة المتكافئة. ويومها يا ويلهم منا. إنهم يغلبوننا الآن، بالتفوق غير الطبيعى، الذى اختلسوه منا. وهم حريصون على ألا نصل إلى هذا التكافؤ أبداً. أما يوم يتحقق هذا التكافؤ وندخل معهم معركة متكافئة، فسنرى يومها من يكون منا الغالب، ومن يكون المغلوب.

قال "جلال":

- لكن قولى لى كيف عرفتى. وماذا أتى بك إلى؟

قالت "مديحة":

- "ممدوح":

قال "جلال" فى دهشة:

- "ممدوح" ! غريب هذا؟ "ممدوح" أخذوه أمامى، وكانت تحيطه حراسة كثيفة !

قالت "مديحة":

- ومع هذا، فقد جاءتنى منه رسالة قصيرة جداً، لولا أنها بخطه لشككت فيها. ولم تكن تحوى إلا سطرين اثنين: أذهبى إلى المعتقل الذى أخذونى إليه. قابلى شخصاً اسمه "جلال" قولى إنك أخته حتى يسمحوا لك بمقابلته. ومنه ستعرفين كل شئ عنى أو كل ما يعرفه عنى. اعتمدى عليه يا "مديحة" فهو شخص يعتمد عليه. هذا كل ما تلقيته منه. أحضر الرسالة شخص لا أعرفه، وأصر على ألا أعرفه ! لم يعرفنى بنفسه أبداً.

أعطانى الرسالة وانصرف كالبرق وحاولت أن أعرف عنه شيئاً، أى شئ، فلم يقبل أن ينتظر . كأنما كان يخاف على نفسه من المراقبة أو منى.

قال "جلال":

- البلد بخير يا "مديحة". لابد أنه أحد حراسه. حتى الذين يعملون معهم لا يؤمنون بهم. البلد بخير يا "مديحة". ألا تشعرين معى بهذا؟

قالت "مديحة":

- ولكن قل لى كل شئ عن "ممدوح" ماذا قال لك؟ كيف أخذوه؟ لماذا أخذوه؟ وإلى أين ذهبوا به؟

قال "جلال":

- "ممدوح" ! إنه خسارة. فتى طيب ذكى رقيق، وهو يتفانى فيك يا "مديحة" وقد كان أول ما قاله لى عندما سألته، عما أتى به إلى هنا، إن عينيك هما اللتان أتتا به إلى هنا. عيناك هما اللتان قادتاه إلى هذا المعتقل.

قالت "مديحة" فى دهشة:

- إذن كان يعتبرنى السبب فى محنته !

قال "جلال" وهو يبتسم:

- بل السبب فى حريته.

قالت "مديحة":

- أية حرية؟ ...ماذا تعنى؟

قال "جلال":

- نعم هنا يا "مديحة". بل إن مكانها الحقيقى هو هنا. كل الذين هنا أحرار. كل الذين هنا شرفاء. صحيح قد يندس بينهم بعض العملاء، ولكنى أتحدث عن المعتقلين الحقيقيين، لا عن المعتقلين المزيفين. فكيف لا تكون الحرية هنا، وكل من هنا أحرار؟

قالت "مديحة":

- ولكن الأحرار هنا مقيدون بما هو أثقل من السلاسل والأغلال. الأحرار هنا محبوسون وراء هذه الجدران. معزولون عن العالم، وعن الأحداث، وعن العمل الإيجابى، من أجل القضايا، التى أتوا بهم إلى هنا من أجلها.

قال "جلال":

- لا. ليسوا معزولين. لو كانوا معزولين، ما وصلتك رسالة "ممدوح". إنهم مرتبطون بالمجتمع ارتباطاً شديداً. ربما أشد من ارتباطهم به وهم خارج هذا المعتقل. ثم إنهم النقط السوداء فى جبين الحكم. إنهم وصمة العار فى وجه النظام. إنهم دعوة المظلوم تتابع الظالم، فيرتجف منها، مع أنه يقيد ضحاياه بما هو أثقل من السلاسل والأغلال !! العزل الضعفاء يرهبون الأقوياء ! ناس بسطاء سذج لا يملكون إلا الكلمة الصادقة الأمينة، يخيفون بها الجيوش العاتية الجبارة ذات التاريخ الطويل فى المغامرة والقرصنة. هل هؤلاء معزولون؟ هل هؤلاء سلبيون؟ لا يا "مديحة"، هنا حرية، لأن هنا أحراراً، البلد كله أحرار، ولكنهم يبحثون، عن ظروف متكافئة، لتكون معركتهم مع خصومهم معركة شريفة وعادلة، ويومها سينتصر أصحاب الحق، إن الحق لا يغلب أبداً.

قالت "مديحة":

- هذا صحيح. لكن حدثنى عن "ممدوح"، لا تضيع الوقت، فقد يقبلون فى أى وقت، ليصرفونى قبل أن أسمع قصة "ممدوح" المسكين.

●●●

وأخذ "جلال" نفساً طويلا، وهو يحملق فى الفضاء... فى المجهول.

وبدأ يروى لها ما حدث، فى صوت هامس، كأنما كان يتحدث به إلى نفسه.

●●●

لقد أخذ يروى كل شئ. بدأ بطفولته الأولى، حيث كان يائساً من حياته، منزوياً عن الدنيا وعن الناس بما أصابه الله به من عاهة. ولكن الله بعثك إليه يا "مديحة" فغيرت حياته تلك إلى شىء مشرق جميل.

ثم حدثنى عن والدك، وبطولته وشجاعته، وموقفه الجرئ من حوادث المنابر، واعتصامه بمكانه من الآلات والماكينات يحميها بدمه. وحدثنى عن المحاكمة التى وقف فيها كالأسد، يسخر من سجانيه، ويهزأ بالنظام وبالحكام.

ثم حدثنى عن تنظيمكم الصغير المحدود، وكيف كنتم ثلاثة من الأبطال، برغم سنكم المبكرة.

وحدثنى عن "سالم" البطل، وكيف كان يتصيد أعداء البلاد فى بسالة ومهارة حتى ضبطوه أخيراً وفتكوا به، فرحل.

وأنت يا "مديحة" كنت تتحدثين عن "سالم" حديث المحب العاشق، وكنت تشردين كلما جاء ذكره بينكما.

و "ممدوح" كما تعرفين يحبك، ويغار عليك حتى من هذا الشرود. ولهذا قرر أن يكون منك، فى مكانه "سالم". لم يكن يطيق أن يكون فى نظرك دون "سالم" فتغلب مرة أخرى على عاهته، وقرر أن يحارب الإنجليز، بنفس الأسلوب الذى كان سالم يحاربهم به ولكنه نسى مرة كتابه، فاستدلوا من الكتاب على عنوانه، واعتقلوه وأتوا به إلى هنا، ليروى كل هذه الأحاديث، فى ليلته الأولى هنا. كان يرويها لى أنا، ونحن وحدنا فى حجرتنا من هذا المعتقل. كانوا يرتابون فيه، فأرسلوا إلينا من يتسمع عليه. لا تظنى أنهم أغبياء. كلا. لقد توقعوا أن "ممدوح" سيدخل المعتقل بكثير من الأسرار محبوسة فى صدره، وأنه سينتهز أول فرصة تسنح له ليرويها لمن يثق به. وهم يعرفون أن المعتقل يولد الثقة بين المعتقلين. لهذا فقد توقعوا أنه سيروى قصته من ليلته الأولى، لأنها أكبر من احتماله.

واختبأوا يتلصصون، ويتسمعون، ويتجسسون.

وعلموا من أمره ما أنكره عليهم سألوه قبل أن يحضروه إلى هنا.

وأدركوا أنه واحد ممن ذهب بأرواح عدد منهم، إلى جهنم الحمراء، حيث ينالون قصاص الله العادل.

مسكين يا "ممدوح" ليتنى لم أطلب إليك أن أعرف قصتك.

لكنى واثق من أنه كان سيرويهاه فى أول ليلة التقينا فيها، حتى لو لم أطلب ذلك منه فقد كان قلبه يطفح بها، يريد أن يتخلص منها بروايتها.

وعند الفجر يا "مديحة" وأشعة الصباح توشك أن تملأ الكائنات بالنور والأمل.

فى تلك اللحظات الرقيقة الناعمة الرطبة، صاح صوت من أصواتهم الكريهة: كفى كلاماً !

كان يريد أن يقول فى غير غموض: لقد عرفت كل شئ. لقد عرفت ما كنت أريد أن أعرف.

وأدركت من لحظتها أى مصير مجهول ينتظر "ممدوح" فقفزت إليه، أحاول أن أحمل عنه بعض هذا المصير. وارتمى بين ذراعى، يحتمى بى من حياة الرعب التى نحياها.

●●●

وأخذوه يا "مديحة" إلى حيث لا يدرى أحد.

على أنه كان بطلا. كان رجلا. كان أقوى على الباغى من بغيه. كان أعصى على الظالم من ظلمه.

لقد أتوا إليه فى اليوم التالى بثلاثة من المحققين.

أولاد صغار، من ذوى الوجوه الناعمة الملساء، والعقول الناعمة الملساء كذلك.

فتية فى أول العهد بالشباب البكر، تحمر وجوههم، حياء وخجلا.

أولاد صغار مضللون، انتزعوهم من حجور أمهاتهم، وساقوهم سوقاً إلى ميادين القتال، باسم المجد الإمبراطورى، وباسم كرامة الإمبراطورية العجوز !

وواجهوه باعتراف الجندى الذى كان يتسمع علينا.

وكان رائعاً وهو يقول لهم: إنه اعتراف باطل، فالاعتراف فى عرف القانون أن يدلى به صاحبه، وهو مدرك تماماً أنه اعتراف لا يسرق ولا يفرض ولا يختلس. ومن أدراكم

ربما كنت أتظاهر بالبطولة. ربما كنت أخيل خيالات أضفى بها على نفسى أعمالا لم أقم بها. ربما كنت أحلم بمسائل ليس لها وجود في الحقيقة. هل تأخذونني بهذا؟ هل تعتبرون هذا اعترافاً؟ إنكم تحملون القانون ما لا يحتمل!

قالوا له: من أين عرفت القانون؟

قال لهم: من الظلم والاستبداد والجبروت.

قالوا له: من الغدر الذى اعتدته، وعدوانك على الجنود الذين يحمون بلادك.

قال لهم: وكيف يجوز أن تقوموا أنتم بالتحقيق معى؟

قالوا له: نحن نحمى أرواح رجالنا.

قال لهم: ولكنى مصرى. أخضع لسلطان بلادى، ولقانون بلادى. ألم توقعوا معنا معاهده تعطينا هذا الحق؟ وتنص على أننا أمة حرة مستقلة ذات سيادة يا أصحاب السيادة؟

قالوا له: المهم أنك اعترفت ...

قال لهم: لن أجيب عن سؤال من أسئلتكم. أنا مصرى. أريد محققاً مصرياً. أنا لا أعترف بشرعية هذا التحقيق.

قالوا له: خير لك أن تجيب.

قال لهم: لن أجيب. افعلوا ما تشاءون.

قالوا له: هل تظن أننا مستعدون، ونحن نخوض حرب حياة أو موت، أن نسمع لمثل هذا الكلام؟

قال لهم: ماذا ستفعلون بى؟ تحاكمونني أمام محكمة عسكرية بريطانية؟ أيام دنشواى انتهت ولن تعود.

قالوا له: أنت تظن أننا عاجزون عن الانتقام منك؟!

قال لهم: لا ... ولكن يكفينى أنكم تصفونه بأنه انتقام! يكفينى أنكم تعترفون وأنتم رجال قانون وتحقيق، أنه سيكون انتقاماً! أعرف أيها السادة المحققون أنه فى

استطاعتكم أن تضربونى بالرصاص. أعرف أنه فى استطاعتكم أن ترتكبوا معى أية جريمة ينكرها القانون.

قالوا له: لا تنس أن الحرب تبيح كل الوسائل للوصول إلى الهدف، وتحقيق النصر. ولن يتم لنا النصر، وخلفنا طابور خامس من أمثالك.

قال لهم: أنا لست طابوراً خامساً أيها السادة. أنا طابور حر مجند لبلادى. أنا لست بريطانياً ولا ولاء لى لبريطانيا. أنا مصرى وولائى لمصر، ولن أقبل أن أوصف إلا منسوباً لبلادى. ولست طابوراً خامساً ضد بلادى، ولن أكون هذا الطابور. ثم أى نصر هذا الذى تنشدونه على أشلاء الضحايا، حريات الأمم؟ أى نصر هذا المصبوغ بالدم؟ أى نصر هذا الملوث بالعار؟ لماذا لا تذهبون أنتم إلى ساحات القتال؟ أنتم هنا تحققون مع الشرفاء الوطنيين وتجمعون من مستعمراتكم الوقود للنيران. للهب. للحريق. اذهبوا أنتم لنرى شجاعتكم فى القتال. أم أنكم أولا تستنزفون قوى خصومكم، حتى إذا لانت لكم الطرق. بدأتم أنتم تخوضون الحرب، لتضعوا بصماتكم على مواثيق النصر. يا سادة كفى خداعاً وتضليلا. لقد استفاق العالم اليوم، ولن تخدروه بعد ذلك أبداً.

قالوا له: إننا نحمى الحرية فى العالم. وواجبكم أن تشكرونا.

قال لهم: بالأوامر..شكراً أيها السادة. أما بالرضى، فنحن لا نريد حماية إلا منكم.

●●●

ومضت المناقشة يا "مديحة" على هذا النحو العجيب. "ممدوح" يكيل لهم الكيل كيلين. لا يترك لهم شيئاً إلا فنده وأجاب عنه، وحلله تحليلا دقيقاً بارعاً.

ولقد نظر إليهم آخر الأمر وقال لهم:

أنتم ... أترضون وأنتم جيل شاب جديد أن يعيش العالم فى هذه الأحقاد؟ أليس لكل منكم أب وأم وإخوة. واسمحوا لى أن أقول لكم أليس لكل منكم فتاة يحبها وتحبه؟ ألا تحلمون بلحظات ممتعة من سعادة لا يشوهها هذا الفزع؟ ولا يزعجها هذا الرعب؟ ألا

ترغبون فى حياة مستقرة هانئة، مع من تحبون،فى المدينة، أو فى الريف، تكونون أسراً سعيدة قانعة، تربون أطفالكم فى طمأنينة ورضى؟

وأخذ كل منهم نفساً طويلا، وهو ينظر لصاحبه.

لقد طرق الموضوع الإنسانى الذى تلين له القلوب، فخفقت له قلوبهم.

وشرد كل منهم بعيداً، يذكر ساعات رطبة رقيقة قضاها هنا أو هناك مع من يحب.

بل لقد وضع أحدهم يده فى جيبه، وأخرج من حافظة أوراقه صورة أخذ يتأملها.

وقال زميل له:

- إننى لم أكتب إليها منذ أسبوعين. أظنها مشغولة على الآن. تظننى قتلت.

وقال واحد منهم:

- لقد كتبت لى فى آخر خطاب تذكرنى بآخر ليلة قضيناها معاً فى إحدى فنادق لندن. رقصنا طويلا، وشربنا كثيراً، ثم عشنا... عشنا ساعات لا تنسى.

وقال واحد آخر:

- أما أنا فلا تصلنى إلا خطابات أمى. ترى كيف حالك الآن يا أماه، وليس لك من يرعاك. أبى فى الشرق الأقصى. وأنا هنا. وأخى الصغير فى أوربا. وأنت يا مسكينة وحدك. ماذا تفعلين أثناء الغارات؟

ونظر إليه أحدهم وقال له:

- وأنت ...هل لك صاحبة أنت أيضاً؟

قال لهم: نعم ...لى صاحبة وخطيبة. لى أجمل من خلق الله على وجه الأرض. لى أجمل عينين فيهما من السحر والفتنة، ما يسهل فى سبيلهما الموت.

قالوا له: وما عنوانها يا بطل؟

قال لهم فى غضب: وما شأنكم أنتم بعنوانها؟

قال واحد منهم: أنت تعرف يا فليسوف، أننا هنا وحدنا، نعانى غربة، ونعانى بعاداً عن بلادنا، وعن أهلنا، وعن صديقاتنا، فماذا يضرك لو أعطيتنا عنوانها، لنسليها لك حتى تخرج؟

ساحت "مديحة":

ـ الكلاب السفلة المجرمون. يسلوننى !!

قال "جلال":

ـ لقد ثار "ممدوح" فيهم ثورة مجنونة، وأخذ يصيح، كأنه مدفع أوتوماتيكى، يرسل طلقات متتالية لا تتوقف.

قال لهم: تسلونها لى حتى أخرج؟ من تقصدون؟ صاحبتى وخطيبتى؟ أى سلوك تسلكون؟ أى مبادئ تعتنقون؟ أهذه هى الحرية التى جئتم تدافعون عنها للعالم؟ أهذه هى الحرية التى أشعلتم الحرب من أجلها؟ أهذه هى الحرية التى تريدوننا أن نستمتع بها معكم؟ أهذه هى الحرية يا أحرار؟ إن كانت هذه هى الحرية، فخذوها معكم لتستمتعوا بها وحدكم. إن كانت هذه هى الحرية، فإننا نفضل عليها عيشة العبيد. يا كلاب. جئتم هنا كما ذهبتم إلى كل مكان آخر فى هذه الدنيا لتفسدوه. لتنشروا فيه هذه الحرية الدنيئة... حرية الكلاب، ونحن نريد حرية البشر، لا حرية الكلاب !! اشتريتم الضمائر، واصطنعتم العملاء، وسخرتم الذمم، وخلقتم طبقة من العملاء.

وبهذا أفسدتم الأخلاق. وتدعون أنكم تدافعون عن الحرية. أنتم تدافعون عن حرية العدوان ! أنتم تؤمنون حرية القرصنة والسرقة ! أنتم تؤكدون حرية شراء الذمم والضمائر ! هذه هى الحرية التى تفهمونها. ولكنا لا نريد هذه الحرية. نحن نريد حرية طيبة بسيطة متواضعة. حرية الإنسان، فى المكان الذى يعيش فيه. حرية لقمة العيش، قد يأكلها جافة خشنة، ولكن شريفة طاهرة. حرية الهواء نتنسمه طلقاً نظيفاً. حرية الأب يسعى من أجل الحياة بلا خوف. حرية الأم ترضع أولادها بلبن لا تختلط به آلام ومحن. حرية الطفل يحبو نحو المستقبل، فى أمل. هذه الحرية التى ننشدها. حرية

الكلمة نقولها صريحة واضحة، بلا غموض ولا إبهام. حرية القلب يخفق بلا فزع. حرية الضمير يؤمن بلا عائق. حريتى أنا مع خطيبتى، دون أن أجد أمثالكم من الحثالة يقطعون على هذه الحرية بالدنس الفاجر الخبيث. أفهمتم ما نريده من حرية شىء جديد عليكم، مختلف عما تفهمونه أنتم. شىء غريب عنكم. خدعوكم وهم يفسرون لكم الحرية. ضللوكم وهم يقولون لكم إن من الحرية أن تأتوا إلى هذه البلاد، لتستعبدوا أهلها. لتهتكوا ستر نسائها. لتقضوا أوقاتاً طيبة مع فتياتها. لتسلوا صاحبات المعتقلين من أبنائها. لا لا يا سادة. أنتم مخدوعون مضللون، وستجدون فى كل شبر من هذه البلاد عدواً يحاربكم. حتى الرمال فى الصحراء. ستبتلعكم.

●●●

ولم يستطع واحد منهم أن يجيب.

تبادلوا النظرات الحمراء، وهم ينوون فى أنفسهم شيئاً، وجمعوا أوراقهم وانصرفوا وهم يتبادلون فيما بينهم الهمس أن هذا ولد خطر، وأنه عنيد، ولن يجدى التحقيق معه شيئاً.

قال واحد منهم لزميله:

ـ على أنه محق. التحقيق يجب أن تمارسه السلطة المحلية.

ورد كبيرهم:

ـ صحيح، ولكن السلطة المحلية قد لا تقفنا على الحقيقة، لهذا كان لابد من هذا الإجراء المبدئى، حتى نتأكد من طبيعة المسألة التى نحققها.

قال واحد آخر:

ـ وماذا سنفعل فى هذه الحالة؟

قال كبير المحققين:

ـ إن لى رأياً سأبديه فى القيادة، وستعرفون بعد ذلك أننى سياسى كبير. لا تنسيا أن والدى من كبار رجال حزب المحافظين. لا تنسيا أننى من أكسفورد.

وضحكوا جميعاً، وهم ينهون هذا التحقيق، وأخذوا يختلسون النظر إلى "ممدوح" ولا يستطيعون أن يثبتوا عيونهم فى عينيه.

كانوا خجلين منه ! كانوا يرتعدون، أمام نظراته الحادة الموجهة إليهم كسهام من نار !

●●●

وذاعت تفصيلات التحقيق بين الزملاء هنا، بل بين الحراس، وأدرك الجميع أن "ممدوح" بطل، وأنه فتى شجاع جرىء القلب، طاهر الضمير. ورأى الجميع فى الفتى الأعرج. لا تؤاخذينى يا "مديحة" لقد رأوا أن عاهته ميزة من ميزاته، واحترموه، وقدروه، وأحبوه.

وأخذ الجميع يقبلون عليه هنا ليسألوه بعض التفصيلات. حتى الحراس كانوا يسترقون السمع، وعيونهم تبرق بالفرحة والبهجة بهذه الجرأة الجريئة، فى القلب الشجاع.

وبلا إذن، وبلا ترتيب، رأينا أنفسنا نتجمع حول "ممدوح" بعد العشاء، لنحتفل على طريقتنا بهذه الحادثة وببطلها الجرىء.

وأخذنا نغنى، وننشد الأناشيد الوطنية، ونتبادل المزاح والدعابات. وظهرت هنا مواهب غريبة فى الغناء والحداء والرقص. و"ممدوح" بيننا كالعريس. لم يكن ينقصه، ليكتمل الفرح به إلا أنت، يا عروسه الجميلة المحبوبة.

قالت "مديحة":

- ليتنى قادرة على إسعاده ! ما أقول؟ هل أنا التى دفعته إلى هذا التيار، وكان يمكن أن يكون تلميذاً ناجحاً مجتهداً بعيداً عن هذه التيارات؟! أو أنها أقدار. أقدار كل واحد من أبناء هذا الجيل، هى التى حددت لنا ! المصير؟ لا أدرى ! ليتنى استطعت أن أسعده.

قال "جلال":

- وما السعادة يا "مديحة"؟

قالت:

- أنها فى عرف الناس، أن يعيشوا عيشة بعيدة عن المشكلات، يسعون فى سبيل الرزق، ويكونون أسراً يرعونها، حتى يؤدوا دورهم الطبيعى الهادئ فى الحياة.

قال "جلال":

- هذه سعادة أبناء أمة استقرت، وتخلصت من مشكلاتها مع خصومها، وتحققت فيها حرية الوطن، فمضى الأفراد، يؤدى كل منهم دورة فى الحياة، وفقاً للتقسيم الاجتماعى، الذى تفرضه النظم وإمكانيات كل فرد وطاقته. أما قبل هذا، فالسعادة هى أن نعمل حتى نحقق لبلادنا حريتها، فى حرية للأفراد فى أمة مستعبدة، مقيدة الحركة، مكبلة بالحديد والنار.

قالت "مديحة":

- ولكن ربما كان يسعد "ممدوح"، أن يمضى فى طريق هادئ بعيد عن هذه التيارات العنيفة.

قال "جلال":

- العمل الوطنى رائع جميل. والذين يعيشون من أجل هدف عام، كالطير المحبوس، يطلقونه من قفصه، فيعرف طعم الحرية، وهنا يستحيل عليهم بعد ذلك أن يعيشوا فى أقفاص، ولو كانت من ذهب. وقد عرف "ممدوح" طعم هذا العمل العام الكبير. ومحال بعد ذلك أن يستسيغ طعماً آخر.

قالت "مديحة":

- على كل حال. قل لى. كيف أخذوه؟

وعاد جلال ينظر إلى بعيد، ثم قال:

- لقد كنا نتحدث عن الحفلة التى أقمناها "لممدوح"، بلا ترتيب سابق والذى أحب أن أضيفه إلى هذه الحفلة، أن الحراس شاركونا فيها من بعيد. بل أخذوا يحرسون الأبواب من تفتيش رجال البوليس الحربى الإنجليزى. كانت عيونهم مسلطة علينا تبارك جمعنا،

ومسلطة فى الوقت نفسه على الأبواب، لتنبهنا عند اللزوم، إذا أقبل الإنجليز كالكابوس. كساعة النحس. ألا تعطيك هذه الظاهرة فكرة عن الروح العامة التى سادت البلد كله؟

قالت "مديحة":

- أنا أعلم هذا من تجاربى، فطالما وجدت فى كثيرين من رجال الأمن والجيش والرسميين، روحاً وطنيه كالنار. وكم ساعدونى لتحقيق أهداف كبيرة، مع علمهم بمهمتى. أعرف هذا، ولكنى أعرف مع هذا أن هؤلاء لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً. إنهم مغلوبون على أمورهم، مثلنا.

قال "جلال":

- ولكن هذه بداية شىء رائع مقبل إن شاء الله.

وهزت "مديحة" رأسها وهى تقول:

- لكن متى؟ متى؟ إنى أتطلع إلى هذا الشىء، فى لهفة، وأسأل نفسى كثيراً: متى؟.. وهل يلحقنا هذا الشئ الرائع؟ هل ندركه نحن أبناء هذا الجيل؟

قال "جلال":

- وهل تندمين إذا فرشنا الأرض لجيل قادم؟ إذا مهدنا الطريق لأبنائنا؟

قالت "مديحة":

- لا يا "جلال" لن أندم، إن علينا أن نعمل، فإذا نجحت أعمالنا وأتت بثمراتها، كان بها، وإلا فإننا نكون قد مهدنا الطريق لأجيال قادمة بعدنا.

قال "جلال":

- "ممدوح" كان على حق حين أحبك، فأنت تمثلين روح مصر على حقيقتها يا "مديحة". على كل حال، لقد كنا نحكى عن الحفلة. لقد صدقت حاسة حراسنا المصريين، فقد أقبل رجال البوليس الحربى الإنجليزى فى منتصف الليل ليفتشوا على المعتقل.

وهرع إلينا الحراس، يطلبون إلينا أن نتفرق على الفور.

وتفرقنا فى حجراتنا، وغطسنا تحت أغطيتنا.

ولم يفعل الإنجليز شيئاً، إلا أنهم أقبلوا إلى حجرتى، حيث كان ينام "ممدوح" فى السرير المجاور لسريرى. وأضاءوا الحجرة ببطارياتهم، وتطلعوا فى الوجه الهادئ الشجاع المغمض العينين، الملتهب الفؤاد.

كانوا يفتشون على "ممدوح".

وتبادلوا كلمات سريعة مقتضبة:

- أهو نائم حقيقة؟

- أظن هذا.

- أم تراه يتظاهر بالنعاس؟

- لا أظن. إنه يستغرق فى نوم عميق.

- إذن نؤجل الأمر الآن.

وانصرفوا...

ولكنى قفزت من سريرى، فوجدت "ممدوح" قد قفز من سريره هو الآخر.

ولم تمض لحظات حتى كانت حجرتنا قد امتلأت بعدد كبير من الزملاء المعتقلين.

وأقبل حراسنا المصريون بدورهم، ليقولوا لنا إنهم لم يسألوا إلا عن "ممدوح" لابد أنهم يدبرون له أمراً. وكان على رأسهم ضابط شاب فقال:

- يا إخواننا كلنا مصريون، والدم لا يتحول أبداً إلى ماء. إن بيننا دماً واحداً هو الدم المصرى. وعلينا أن ندرس الأمر معاً، فإن كنتم أنتم معتقلين، فكلنا معتقلون معكم. البلد كله معتقل. وعلينا جميعاً أن نفكر فى الأمر. لقد كان السؤال الأول الذى تردد على شفاههم وهم يخطون عتبة المعتقل: أين المدعو "ممدوح". وأسرعوا إلى حجرته ليروه بأنفسهم.

وسألت الضابط:

ـ لكن ماذا تظنهم يدبرون؟

قال الضابط:

ـ لا أدرى ماذا يدبرون، ولكنهم يدبرون له شيئاً.

قلنا جميعاً:

ـ وماذا نعمل؟

ومرت لحظة صمت قطعها "ممدوح" ساخراً :

ـ لا تقلقوا على. من أكون أنا؟ واحد من ملايين المستعبدين المظلومين. المهم هو أن تتمسكوا أنتم بوحدتكم. المهم هو أن تمضوا فى كفاحكم ضدهم. لا تهادونوهم أبداً. لا تسالموهم. اقلبوا حياتهم فى أرضنا جحيماً. لقد خدعونا مرة أثناء الحرب الكبرى الأولى. قالوا إننا سنجلو عن بلادكم فوز انتهاء الحرب ولما انتهت الحرب زادوا قواتهم فى أرضنا. بل اعتقلوا أول صوت نادى بحقوقنا،ثم تعقبونا بالاضطهاد. بالرصاص. بكل الوان الأذى. ثم لجأوا إلى مخدرات يصرفوننا بها عن كفاحنا. اشتروا منا عملاء وأذناباً.. لوثوا الأخلاق. شوهوا الضمائر. أقاموا حكومات تستند إلى رماحهم المسمومة. واليوم قد يضللوننا مرة أخرى. قد يخدعوننا. فهل نلدغ من نفس الجحر مرتين؟ لا ...لا ينبغى أن نخدع مرة أخرى أو نضلل...وليذهب منا من يذهب. ليرحل من يرحل. المهم هو أن تبقى روح مصر قوية صلبة لا تلين.

على أن الضابط الشاب الذى كان يرأس قوة الحراسة قال فى اندفاع:

ـ لابد من أن أخفيك، ولو بين عينى. أنا مثلك يا "ممدوح". أنا ثائر مثلك، ولكن طبيعة عملى تفرض على قيوداً ثقيلة ليس من السهل أن أتخلص منها.

قال "ممدوح":

ـ لكن يا حضرة الضابط إن هذا قد يعرضك للخطر، وقد يطيح بك، ونحن محتاجون لأمثالك من الوطنيين فى مثل هذه المراكز.

قال الضابط :

ـ لقد ضقت ذرعاً بعملى. أنا سجان لبنى وطنى. وليتنى سجان للمجرمين. للصوص. لتجار المخدرات أو المتلاعبين فى السوق السوداء. إذن لعددت نفسى أؤدى واجباً وطنياً نحو بلادى. ولكنى سجان الأحرار الوطنيين. سجان الذين يحاولون أن يحطموا السجن الكبير الذى تعيش فيه هذه الأمة. فأى عمل هذا؟ لقد كنت تلميذاً أشترك فى المظاهرات الوطنية، وأهتف من قلبى بسقوط الظلم والحكام الخونه. طالما أطلقت صيحاتى وطالما هتفت بحياة مصر. فى نسيم بلادى: نموت وتحيا مصر. واليوم أصبح أنا سجان العاملين من أجل مصر؟ إنى لا أطيق هذا العمل ! لم أعد أستطيع أن أقوم به ! لم أعد أستطيع. لم أعد أستطيع !

وارتمى الضباط الشباب بيننا، وقد أصابه انهيار عصبى انزعجنا له جميعاً. فلما أفاق، بدا هو المشكلة التى نواجهها. خفنا عليه من الجنود الذين يعملون تحت رياسته، ولكن هؤلاء الجنود، كانوا يتطلعون إليه فى إعجاب. وخفنا عليه من حملة تفتيش إنجليزية أخرى. فتكون الطامة وبيلة إذا وجدوه بيننا، يتعامل معنا كأنه واحد منا.

وبدأنا نناقش مشكلته هو، وانتهينا إلى أنه من الضرورى أن يبقى فى مكانه، فقد يكون مفيداً للحركة القومية عندما تحين ساعة العمل.

ولكنه مع هذا أصر على أنه سيدرس أمر تهريب "ممدوح" إذا طلع الصباح، ليحول بينه وبين أى تدبير يكون الإنجليز قد أعدوه له.

ووافقناه، بشرط أن يتخذ كل الاحتياطات التى لا تكشفه هو لهؤلاء الأعداء.

ولم تنم يا "مديحة" ليلتها. انا كنت قلقاً على "ممدوح". الزملاء جميعاً كانوا قلقين عليه. والحراس كذلك كانوا يشاركوننا هذا القلق. اما هو فكان ثابتاً كالطود.

قرأ بعض القرآن، وصلى لله بضع ركعات.

وأخذ يروى لنا بعضاً من دراساته فى الأدب والفلسفة والفنون.

كان يتحدث كأنه بحر، كأنما كان يؤدى امتحاناً أمام لجنة من المتخصصين.

وكنت أعلم أنه يريد أن يبعد عن نفسه هواجس الغد.

●●●

وفوجئنا فى الصباح بأن المعسكر قد أحيط بعدد كبير من الحراس الإنجليز، أخذوا يروحون ويجيئون فى سيارتهم الجيب. كانوا يراقبون المعسكر، ويحصون كل حركة تبدو حوله أو بداخله.

وأخذ الضابط الشاب يشد شعره وهو يصيح:

- ليتنى سبقتهم إلى تنفيذ خطتى. ليتنى هربته ليلة أمس. ليتنى...ليتنى!

ولكن "ممدوح" وكان هو المقصود بكل هذه الحراسة المشددة الكثيفة، كان ينظر إلى هذه الحركات ساخراً. كان يقول للضباط:

- هذه أقدارنا يا حاضرة الضابط. لماذا تلوم نفسك؟ لا يا حضرة الضابط. إن الأمر أبسط مما تظن. إننا نواجه واقعاً يحتاج إلى تضحيات. بعضا لابد من أن يضحى، فهل نختارهم بالقرعة؟ لا. إن الاختيار يتم وفقاً للظروف. ومن يدرى؟ لعل هذا شيء يوقد الشعلة المقدسة فى نفوس الملايين. فنحن وقود. وكلما زاد الوقود اشتعلت النيران.

وكان يوماً عابساً صامتاً يا "مديحة".

القلق. الخوف على "ممدوح". نرقب ما سيحدث. كل هذه كانت سمات ذلك اليوم.

اختفت الابتسامات من على وجوهنا. لم نستطع حتى أن نبتلع طعامنا. لم نذق شيئاً طيلة يومنا، و "ممدوح" بيننا نتطلع إليه بين الحين والحين، ونكاد نتحسسه لنتأكد أنه لا يزال بيننا.

وكلما كان الوقت يتقدم بنا، كنا نزداد قلقاً وخوفاً.

وكلما كانت الشمس تزحف نحو المغيب، لتذهب هى الأخرى، فى رحيلها اليومى الحزين، كنا نزداد وجوماً مع الرحيل.

فلما غربت الشمس شهد هذا المعتقل، أدنأ جريمة تزوير يرتكبها الغدر الوقح.

أقبلت قوة إنجليزية، وطوقت المعتقل، ثم تقدم عدد منهم نحو الباب، ونحن نتطلع فى لهفة، ماذا يريدون؟ وماذا سيفعلون "بممدوح"؟

وتقدم الضابط الشاب قائد الحراسة متسائلا:

- ماذا تريدون؟

قالوا:

- "ممدوح".

قال الضابط:

- أهو تفتيش،؟ أم هو تحقيق؟ أم إنه تحر جديد؟

قالوا:

- أبداً، ولكنا نحييه. نحيى الروح الديمقراطية الرائعة التى بدت منه. إنه أحد القلائل الذين كتبوا يتطوعون فى صفوف الجيش البريطانى، فى هذه الحرب، دفاعاً عن الديمقراطية والحرية، ضد همجية النازى.

وسكت الضباط قليلا.

كان يعرف تماماً أن هذا كذب، وأنه افتراء. لكن كان عليه أن يصمت.

وكان صمته صراعاً بين ما يعلمه، وما يجب أن يعلمه.

ورفع إليهم رأسه وهو يقول:

- ومن أجل هذا جئتم تحيونه؟...

قالوا:

- نعم نحييه، ونبارك خطواته، ونأخذه معنا، لإعطائه فرصة القتال من أجل مبادىء الديمقراطية والحرية والكرامة والشرف.

قال الضابط:

- أما إذا أردتم أن تحيوه، فإنى أدعكم تفعلون ذلك. ولكن الأوامر التى عندى أن خروج أحد المعتقلين من هنا يجب أن تسبقه إجراءات، كما يجب أن تصدر إلى التعليمات من الجهة صاحبة الشأن.

قالوا:

- نعم نحن نعلم هذا. والإجراءات تتخذ الآن. وستصلك التعليمات التى تطلبها على الفور. لقد أعددنا كل شىء. نحن قوم نحترم قوانيين البلاد. أنت تعلم هذا.

وهز الضابط رأسه فى أسى.

وعاد الصمت يسود المكان، إلى أن قال قائد القوة الإنجليزية:

- هل تتكرم فتدعو لنا "ممدوح"؟

ولم يطاوع الضابط الشاب، قلبه، فتركهم وانصرف.

وجاء إلى "ممدوح " يقبله، ودموعه فى عينيه.

ولم يكن "ممدوح" يعلم حتى هذه اللحظة شيئاً. ولم نكن نعلم معه شيئاً، ولكن دموع صديقنا الضابط حملت إلينا كل احتمالات السوء.

وأمر الضابط أحد الجنود أن يصحب "ممدوح" إليهم.

لم يستطع هو أن يصحبه إليهم بنفسه، فقد كان فى حالة شديدة من التأثر والانفعال.

وتطلعنا جميعاً، ترى ماذا سيحدث "لممدوح".

فوجئ "ممدوح" بيد قائد القوة الإنجليزية تمتد إليه لتصافحه.

ولكن "ممدوح" البطل قال له:

- لا يا سيدى. نحن قوم شرفاء، ولا نصافح إلا من نسلمهم. وأنا لست على استعداد لمسالمتكم حتى تخرجوا من هذه البلاد.

قال قائد القوة الإنجليزية:

ـ نحن أصدقاء يا "ممدوح". إنك بطل من أبطال الحرية والديمقراطية.

قال "ممدوح":

ـ يسرنى أنك تعترف بأن محاربتكم بطولة.

قال القائد:

ـ وهل أكبر من بطولتك شيء نحن مواطنون، فرض علينا قانون بلادنا ودستورها ونظامها وأمنها أن نحارب. أما أنت فإنك تقدمت متطوعاً لتحارب معنا. هل أكبر من هذا شيء أنت مواطن عالمى تدرك أن سلام العالم وأمنه لن يتأتى إلا بانتصار الديمقراطيات.

وعجب "ممدوح" مما يسمع وقال:

ـ أنا تقدمت متطوعاً لأحارب معكم؟ إنها نكته ظريفة يا حضرة الضابط.

قال الضابط:

ـ لا. ليست نكته يا "ممدوح". إنه الحق. ونحن شعب يعترف بالحق.

قال "ممدوح":

ـ أى حق هذا أيها الرجل. أنا تطوعت لأحارب معكم؟! إن هذا كذب ! أنت كذاب !

قال الضابط:

ـ لا يا "ممدوح" وهذا طلب تطوعك معى بخطك.

قال "ممدوح":

ـ أرنى هذا الطلب، لأثبت لك كذبك.

ومد "ممدوح" يده إليه ليرى هذا الطلب، فضحك الضابط ضحكة دنيئة وهو يقول له:

ـ لا لا يا "ممدوح" هذه وثيقة، ولست مفوضاً أن أسلمها إليك، أو أطلعك عليها.

قال "ممدوح":

ـ ولكنى لم أكتب إطلاقاً شيئاً كهذا. هذه وثيقة مزورة.

قال الضابط:

- لا يا "ممدوح" الوثيقة صحيحة، ونحن قادمون لتحية بطولتك وتحقيق أملك.

قال "ممدوح" وهو يصيح فى قائد القوة:

- أى طلب؟ أى أمل؟ إن لـى أمـلا واحداً هو أن أقضى عليكم فى بلادى. أنتم تحتلون بلادى قسراً واغتصاباً . أنتم تنتهكون كل ذرة تراب من هذه الأرض الطيبة. أنتم تسممون كل نسمة هواء فى هذا الجـو المسالم. والأمل الوحيد الذى أحيـا من أجله ويحيا من أجله أبناء هذا الجيل جميعاً ، هو أن نقضى عليكم. فهيا دعونى أحقق هذا الأمل.

قال القائد:

- صحيح؟! إذن يا "ممدوح" فسيتحقق أملنا جميعاً فى سلام دائم، وفى حرية كاملة، يوم ننتصر بفضل المتطوعين الأبطال من أمثالك. كلنا سنحقق آمالنا.

قال "ممدوح" :

- يا مضللين، يا تجار الشعوب، يا قراصنة. أنتم سماسرة وعود.

قال القائد:

- لا يا "ممدوح". ما هكذا يجب أن يبدأ عملك معنا.

●●●

وكنا يا "مديحة" ننصت إلى هذا الحوار، ونحن فى ذهول.

ما هذه المسرحية المطبوخة، التى يدبرونها للفتى؟!

ما هذا الفجر الفاجر، الذى يرتكبونه علانية، بلا خجل؟!

لكنه حدث.

●●●

وما هى إلا لحظات، حتى أقبلت سيارة من سيارات البوليس، تحمل عدداً من ضباط المباحث، وكان معهم الضابط البريطانى، الذى قال إنه من أكسفورد وإنه ابن أحد أعضاء حزب المحافظين، وإنه يفكر فى شىء لممدوح، سيثبت أنه سياسى داهية.

وعند باب المعتقل وقفت السيارة، ونزل من فيها وانضموا إلى القوة المحيطة بـ"ممدوح" وتقدم أحدهم إلى "ممدوح" وهو يقول:

ـ من الآن يا بطل أنت فى الجيش البريطانى. أنت متطوع فى القوات البريطانية وهم أصحاب الولاية عليك. سيتسلمونك الآن، لتصريف أمرك.

قال "ممدوح" فى غضب وعصبية:

ـ تسلموننى لمن؟ للأنجليز؟! من أنت يا سيدى حتى تقرر مصيرى كيفما تشاء؟

قال الرجل:

ـ أنا المسؤل عن المعتقلات ومن فيها.

قال "ممدوح":

ـ لكن هل تبيح لك المسؤلية أن تسلمنى لهم؟

قال الرجل:

ـ بل أنت يا بنى الذى تقدمت طالباً التطوع فى صفوفهم.

قال "ممدوح":

ـ من قال لك هذا؟ من الذى أخبرك به؟

قال الرجل:

ـ الطلب الذى أرسلته إليهم.

قال "ممدوح":

ـ ففيم إذن كان اعتقالى؟ ألم تعتقلونى لأنى خصم لبريطانيا؟ ألم تعتبرونى خطراً يهدد خطوطهم الخلفية أثناء الحرب؟ فكيف يستقيم هذا مع الطلب الذى تتحدث عنه؟

قال الرجل:

ـ ولماذا كتبت الطلب؟

قال "ممدوح":

ـ أنا لم أكتب شيئاً. أنا لم أطلب أن أتطوع فى صفوفهم. هذه جريمة تزوير، وأنا أطالبك بالتحقيق فيها. أليس لديكم محققون؟ أليس لديكم خبراء فى الخطوط، ألستم قادرين على التعرف على خطى وعلى توقيعى؟ ثم كيف تسمح لك كرامتك الوطنية أن توافق على هذا التطوع الذى يتم قسراً وإرغاماً؟

قال الرجل:

ـ لقد تم كل شئ. اتخذت كل الإجراءات، وإذا كانت لك شكوى فتقدم بها.

قال "ممدوح":

ـ شكوى من ماذا؟ أشكو من؟ ولمن؟ أنا أجاهر لك الآن بأن هذا كذب، وأن هذا افتراء، وأن هذا تزوير. ألا تحمى مصرياً من هذه الجرائم البشعة الغادرة؟

ـ ليس هذا شأنى.

قال "ممدوح":

ـ وما شأنك إذن؟ ألم تقل إنك مسئول عن المعتقلات ومن فيها؟ إذن هو شأنك. إذن تتخذ الموقف الذى يمليه عليك واجبك. هل تصدق حقيقة أننى تطوعت لأحارب مع الإنجليز، وأنا المعتقل بتهمة محاربة الإنجليز؟ يا رجل قل كلمة حق واحدة، لأنجو من هذا الموقف. ألست مصرياً؟

على أن الرجل نظر إليه فى تعال وقح وقال:

ـ إنكم تطلقون كلمات لا تعرفون معناها. نعم يا سيدى البطل أنا مصرى، وأنا لا أقل وطنية عنك، ولكن الوطنية ليست هى هذا الاندفاع الطائش. تريدون أن تحرقوا البلد؟

تريدون أن تخربوا بيوتنا؟ تريدون أن تعرضونا للتهلكة؟ تريدون أن تجوعوا أبنائنا؟ أنتم شباب يملؤكم الغرور الكاذب. أنتم لستم وطنيين، فالوطنية تعقل. الوطنية تفاهم. الوطنية سياسية عليا، يجيدها أصحابها، ممن يستطيعون أن يحصلوا على حقوق البلد بالذوق والمعروف، لا بإراقة الدماء.

وصاح "ممدوح" صيحة مدوية هزت المعتقل هزاً :

- يا عميل، يا أجير، يا خائن. لقد كشفت نفسك بنفسك. يا متآمر يا جبان. لقد جئت معهم لتسلمنى إليهم. كم سيدفعون لك؟ ترقية؟ نفوذاً؟ سلطة؟ وتخون بلدك، وأبناء بلدك يا نذل.

قال الرجل ممعناً فى وقاحته:

- لا وقت أمامنا لمثل هذا الكلام الفارغ. أنا أعرف كيف أرد عليك لو شئت بأسلوب آخر، ولكنى سأتركك لهم.

قال "ممدوح":

- ترهبنى ! يا جبان ! لو أنك شجاع حقيقة لقابلتهم بما يستحقون، ولكنك منهم. أنت أحد أسباب بقائهم هنا. ولكن ستعرف غداً ماذا يكون مصير أمثالك.

وارتفعت أصوات مختلفة، بعضها يشتم "ممدوح"، وبعضها يطيب خاطر الرجل الجبان، المسئول عن المعتقلات ومن فيها من الأحرار.

وتبادل الرجل والضباط الإنجليزى الصغير بضع كلمات، ثم نادى ضابط المعتقل، وسلمه أوراقاً وقع عليها، ثم قال الرجل للقوة الإنجليزية:

- الآن خذوه. هو تحت تصرفكم.

●●●

على أن "ممدوح" يا "مديحة" لم يسلم.

الأعرج المسكين، استحال إلى قوة عاتية، فأخذ يضرب بيديه ورجليه كل من يتقدم نحوه، غير عابئ بشيء.

وجهوا إليه فوهات مسدساتهم فما سكت عن المقاومة.

وكنا نحن نتطلع إليه، والدم يغلى فى عروقنا.

كنا على وشك أن نقفز نحوه نقاوم معه.

ولكنا وجدنا المعتقل، قد أحيط بقوة إنجليزية، وجهت فوهات بنادقها نحونا لتطلق علينا الرصاص، فتحصدنا حصداً، إذا نحن اشتركنا فى هذه المعركة غير المتكافئة.

وأخيراً، وبعد مقاومة "ممدوح" الباسلة، تمكنت الكثرة الكثيفة من أن تمسك به، وتمنعه عن الحركة تماماً.

وحملوه حملا، إلى سيارة كانت تنتظره، وانطلقت به، فى حين استمرت القوة الإنجليزية تحيط بالمكان، ودوريات الحراسة تذهب وتجىء، لتقف أى تذمر قد يحدث فى المعتقل.

وهكذا ذهب "ممدوح"، وتركنا لدموعنا، لآهات نرسلها فى الهواء فى غير جدوى، زفرات مكتومة فى صدورنا، تكاد تعصف بوجودنا.

وكانت محنة المعتقل كله. حتى الضابط الشاب المسكين وعساكره، شاركونا هذه المحنة.

ووصلت رسالة "ممدوح" يا "مديحة". وها أنت ذى تسمعين ما حدث له.

لقد ذهب يا "مديحة". أخذوه. إلى أين؟ لست أدرى !

وكانت دموع "مديحة" قد ملأت عينيها بغشاوة، وملأت قلبها بجوى، وملأت جسمها رعشة، كرعشة المحموم.

ولما هدأت ثائرتها قليلا قالت:

- لكن إلى أين يا ترى تراهم أرسلوه؟

قال "جلال":

- إنهم قوم مجرمون. سيعتبرونه متطوعاً فى صفوفهم، وسيلبسونه زيهم الرسمى، وحينئذ يصبح عليه أن يخضع لقوانينهم، وأن يدين بالولاء لهم. وأنا أعرف وأنت تعرفين

أن "ممدوح" لن يشارك فى حرب معهم. لقد كان يحاربهم، فكيف يحارب فى صفوفهم. هم أيضاً يعلمون هذا. إنهم ليسوا أغبياء يا "مديحة".

قالت "مديحة":

ـ فإن رفض إطاعة أوامرهم، إذا أمروه بقتال؟

قال "جلال":

ـ هنا يصبح عاصياً. يحاكمونه أمام محكمة من محاكمهم، سراً، وبلا رقابة من أحد ويحكمون عليه حتى بالإعدام. ويكون تصرفهم قانونياً وسليماً.

قالت "مديحة":

ـ الجبناء السفلة.

قال "جلال":

ـ إن هذا أجبن من الجبن، وأسفل من السفالة.

قالت "مديحة":

ـ وماذا نستطيع أن نعمل؟ أليس هناك ما يمكننا عمله لإنقاذه؟

قال "جلال":

ـ يا مسكينة وماذا تستطيعين أن تعملى وحدك؟ لقد صرت وحيدة. قصوا جناحيك. "سالم" قتلوه. وهذا "ممدوح" أخذوه. كيف تستطيعين أن تعملى شيئاً؟ تحاربين جيوش بريطانيا العظمى وحدك؟

قالت "مديحة":

ـ وتنظيمات الأحرار. أين هى؟

قال "جلال":

ـ إياك أن تغامرى بشىء. إنك قد تقعين فى فخ. المسألة محتاجة إلى تدبير محكم، وإلا أعطيناهم ضحية جديدة، جميلة، فاتنة، يحبها بطل وطنى لا ندرى الآن أين يكون.

- قالت «مديحة»

- ولكن لابد من عمل شىء أى شىء.

قال "جلال":

- اسمعى إنى أفكر فى أمر، فإن نجحت فيه فسنعمل بكل طاقاتنا، للعثور على "ممدوح" ومحاولة إنقاذه.

قالت "مديحة" وقد لمعت عيناها بالأمل.

- وتعتقد أنك تستطيع؟

قال "جلال":

- سأحاول وسأدرس من اليوم كيف يمكننى تنفيذ ما اعتزمت.

قالت "مديحة":

- وما هذا الأمر؟ وكيف أقف عليه؟ متى؟

قال "جلال":

- لا أدرى.

●●●

وخرجت "مديحة" وراسها يدور. ماذا سيحدث "لممدوح".

وعادت إليها ذكريات رطبة ندية، ملأت قلبها بصور من الماضى لا تنسى...وإن تكن لن تعود.

ممدوح يا حبيبى... ما كان أتعسك، وأنت صبى يجرى فى فناء الريع، كمن يثب..كالغراب ! لقد كنت تعانى من عاهتك آلاماً تحز فى نفسك. لم تكن تحس أنك مثل الآخرين، فكنت تتجنب الآخرين. كان الأولاد يتجمعون ليلعبوا فى الفناء، فى حين كنت ترقبهم من بعيد. كنت وحدك، وكنت معهم فى الوقت نفسه.

وكنت أراك تبتسم لدعاباتهم، وتعبس مع عبوسهم، ولكنك مع ذلك كنت تتشاغل عنهم... تبعد عينيك عن عيونهم إذا اتجهوا ينظرون نحوك. كنت تحاول أن تتفادى دعاباتهم السخيفة وسخريتهم من عاهتك. ومع هذا كنت تربط نفسك بهم. ما كان أشقاك يا "ممدوح" وأنت تعانى هذه الآلام !

ولقد كنت أتلصص أرقبك، لأراك والألم يعتصر نشأتك.

وكنت أشفق عليك. كنت أشعر أن شيئاً يربطنى بك.

أنا كنت فى مثل حالك. لم يخلقنى الله برجل أقصر من الرجل الأخرى. لم أقفز عندما أعدو كالغراب لكن الله خلقنى شديدة الحساسية بما حولى من الناس والأشياء. الكلمة الندية الذكية كانت تطربنى. والعبوس العابر - وربما غير المقصود - كان يسبب شقائى. ولم تكن أمى تقدر فى هذه الحساسية بل ربما كانت هذه الحساسية تغطيها. كانت كما تعلم يا "ممدوح" امرأة قوية شديدة المراس، تؤمن بمنطق القوة والقسوة معاً. فكانت ترانى شديدة الحساسية فتسخر منى سخرية لاذعة، بل كانت تقسم، وأنا بعد طفلة، أننى لن أعمر فى بيت رجل. كانت تتهمنى بالميوعة. كانت تتعقبنى بالشتائم المتعاقبة، فكنت أترك لها المسكن إلى فناء الربع أبحث فى نسيمه عن متنفس. كنت أبغض الحجرات التى نسكنها. بل كنت أحاول أن أتخفى فى الفناء، حتى لا ترانى، فإنها لم تكن ترانى، إلا وتفقد أعصابها، ويفلت لسانها بكلام لاذع.

لهذا كنت مثلك يا "ممدوح". انت فى ركن قصى تتمنى أن تشارك الأولاد لعبهم ولكنك تخافهم.

وأنا فى ركن قصى آخر، أرقب الأولاد، أتمنى أن أشاركهم اللعب، ولكن أخاف أمى.

وارتبطت بك يا "ممدوح". أصبحت أشعر بمثل ما تشعر به، وأحس نفس الإحساس.

"ممدوح" يا حبيبى. هل تذكر أيام صبانا. وقد أخذنا نخلو إلى أنفسنا، لنتبادل وحدنا ألعابنا الخاصة؟ هل تذكر أحلامنا الصغيرة الساذجة، وهى تعكس ما كان فى قلبينا

الصغيرين من محنة تكاد تكون مشتركة؟ هل تذكر يا "ممدوح" الحصى الذى كنا نجمعه لنلعب معاً، ألعاباً لا ندرى عنها الآن، إلا حفراً عميقة لا تزال فى أعماق نفوسنا؟ وبقايا القراطيس التى كنا نشترى فيها اللب والفول السودانى، وكيف كنا نستعملها للرسم والكتابة والتعبير؟ والنظرات الحنون، التى كنا نتبادلها فى رقة وعذوبة وانطلاق؟ وسؤالك عنى، وسؤالى عنك، كلما خطر لواحد منا خاطر، أو هجس فى فؤاده هاجس؟ والأمل الحلو ينمو مع أجسامنا الصغيرة، يوماً بيوم، بل لحظة بلحظة؟

هل تذكر هذه الأيام يا "ممدوح"؟ هل يشرد فكرك الآن فيها، مثلما يشرد فكرى؟

لكن أين يا ترى؟

أما أنا فإنى أستعيد هذه الذكريات، وأنا جالسة على مقعد وثير فى سيارة الأتوبيس القادم من الزيتون. وأما أنت، فأين يا ترى أنت الآن، تشرد هذا الشرود اللذيذ الحالم؟ فى سجن من سجون الظلام فرضه قراصنة الظلام؟ فى مكان للتعذيب، حيث يسومونك سوء العذاب، وأنت مسكين عاجز عن الحركة الكاملة التى يتمتع بها الآخرون؟ أم تراهم أرسلوك إلى مكان بعيد ناء يطفئون بدمك أعدائهم فى هذه الحرب الضروس؟ "ممدوح.. ممدوح" ... أين تكون الآن، وفى هذه الساعة بالتحديد؟

وتمضى "مديحة" فى شرودها هذا الحلم ...

"ممدوح" ..وأيام دراستك الأولى. ألا تزال تذكرها؟

وتفوقك ... وابتساماتك العذبة، وأنت تروى قصص المدرسة والمدرسين. ألا تزال تذكرها؟

ومواهبك التى طفرت، فأصبحت موضع التقدير والاحترام. ألا تزال تذكرها؟

يا حبيبى يا "ممدوح" لقد كنت دائماً تروى لى هذه الحكايات، وتختمها بأن كل هذا من فضلى. لا يا "ممدوح" ...أبداً إنها مواهبك أنت. أنت الذى سيطرت عليها فأخضعتها لإرادتك.

وتجتر "مديحة" بعض ما كان يدور بينهما وبينه من أحاديث لا تنساها أبداً:

ـ "مديحة"، اليوم يا «مديحه» عرضوا مسألة فى الهندسة لم يكن من السهل حلها، وقال المدرس، إنه سيدفع ريالا، لأول تلميذ يحلها. وأضاف لإنه لم يبدأ حلها بعد. وسيعمل معنا فى حلها. ولم تمض على خمس دقائق، حتى كان حلها بين يدى، فلما قلت ذلك للمدرس، صاح فى " مستحيل. قلت هذا هو الحل. قال أرنى..هنا على السبورة، وسرت إلى السبورة فى خطوات متزنة ثابتة من قدرتها. والله يا "مديحة" ما أحسست ساعتها أنى ... ماذا أقول لك. أنت تعرفين أنى أعرج. على أنى أمام السبورة حللت المسألة قبل أن يحلها المدرس. ودفع هذا الريال. خذيه. هذا حقك. هذا فضلك.

ـ لا يا "ممدوح" أنا لم أحل المسألة، ولا أعرف الفرق بين الهندسة والجبر.

ـ بل هو لك، فلولاك يا "مديحة" لكنت الآن صبياً لمكوجى أو بقال. أنا كما ترينني أعرج لا أصلح لشيء. وقد كان أبى يتردد فى إرسالى إلى المدرسة. وكنت أخاف المدرسة، حتى لا يضحك الأولاد منى. ولكنك أنت يا أجمل من حملته هذه الأرض دفعتنى إلى المدرسة. بل دفعتنى إلى هذا التفوق..الريال من حقك.

ـ لا . بل من حقك.

ـ لا ، بل لك.

ـ أنت كلك لى..بما معك من ريال يا "ممدوح" . وهذه هى ثروتى.

ـ صحيح يا "مديحة"؟

ـ طبعاً.

ـ هل تعرفون ماذا يقولون؟ إنهم يتهامسون بأننا .سمعت هذا؟

ـ سمعت ماذا؟

ـ بأننا سنتزوج. يقولون إننا لائقان كل منا للآخر.

ـ لا ....إلا إذا ...

- إذا ...هل هناك إذا يا "مديحة"؟

- نعم هناك إذا، وإذا...

- اسمع إذا الأولى.

- إلا إذا ظللت تحبنى، ولم تغير رأيك.

- ماذا تقولين. أنا يا "مديحة"؟ إنى أحيا لحبك، وبحبك، ومن أجل حبك. إنه هدف إنه أملى. إنه حياتى. حبك يا "مديحة" هو حريتى. هو التعبير عن وجودى.هو المعنى الإنسانى الذى أشعر به وأحس به. حبك يا "مديحة" هو غذائى فكيف أعيش بلا حبك.

- صحيح يا "ممدوح"؟

- يا فاتنة يا ساحرة. يا روح "ممدوح".

- إذن أقول لك عن إذا الثانية.

- أرجوك ...

- وإلا إذا لم تتغير. أنا لا أحب الذين يتغيرون عندما يصبحون ...

- يصبحون ماذا؟ أنا يا "مديحة" أومن بالنمو والتطور والحركة. لكن لا أومن بأن هذا معناه التغير، والتنكر والالتواء. والذين يتغيرون أو يتنكرون لوجودهم، أو يلتوى بهم القصد فى الحياة. هؤلاء هم السطحيون الانتهازيون هؤلاء هم الذين يعيشون فى فراغ. فراغ فى عقولهم، وفى ضمائرهم. هؤلاء هم الذين يحيون فى ضياع، لا يعرفون لأنفسهم هدفاً، ولا يحددون لأنفسهم غاية. هم يحيون عائمين مع التيار... يسبحون مع المصلحة أينما تكن. تتعارض مع أفكارهم. مع اتجاهاتهم. مع أسلوب حياتهم. لا يهم. بل إنهم بلا أفكار وبلا مبادئ، وبلا اتجاهات، هم طلاب حياة رخيصة. عبيد. أما أنا فحر. والحرية شئ ينبض فى القلب قداسة، ويضفى على العقل اتزاناً. الحرية أن تتحرر النفس من الهوى، وأن يتحرر العقل من القيد، وأن يتحرر الضمير من التحكم. الحرية... الحرية إذا عرفنا قدسية هذا القطر. الحرية فى لقمة عيش ورداء، وإحساس بالقناعة والرضى.

وأنا راض بحياتى. بك يا "مديحة". سعيد. أكاد أزهو على العالم كله بالنعمة التى أنا فيها معك. وسنظل هكذا سننمو. ولكن لن نتغير. إننا لسنا كالثعابين، تغير جلدها. ولسنا كالحرياوات تتلون بلون المكان الذى تكون فيه. أبداً. نحن أحرار، ولن نكون عبيداً.

- إذن ..ماذا أقول يا "ممدوح"؟

- إذن لا شروط. أو هى شروط بلا أساس.

- سنحقق كلامهم إذن.

- وستأكل من طبخ يدى.

- سأعيش على سحر عينيك.

- لن يشبعك.

- بل يتخمنى.

- يا "ممدوح" !

- تصدقينى. إنى أراك يا "مديحة" على السبورة والمدرس يكتب الدرس. إنى أراك فى صفحات الكتب، وأنا أطالعها. إنى أراك فى كل مكان. فى كل لون، وكل ظل. إنى أراك فى كل حقيقة أصل إليها. أراك فى كل جمال أستمتع به. أراك فى كل نسمة أتنسمها. أراك فى يقظتى وصحوى. أراك إلى جوارى فتزداد ثقتى بنفسى. أراك وأتمنى أن أعيش أراك، حتى أغمض عينى عليك إلى الأبد.

- لا تقل هذا يا "ممدوح". أنا التى سأغمض عينى عليك إلى الأبد قبلك.

- بل أنا ...

- لا ...بل أنا. لن تتركنى وحدى.

- سيكون لنا أولاد كبار يرعونك.

- كم؟ ...

- ولدان وبنت، ساحرة جميلة فاتنة، مثلك.

- والولدان رائعان ذكيان. أحرار الفكر والقلب والضمير، مثلك.

- يا حبيبة "ممدوح".

- يا أمل "مديحة".

●●●

إن مديحة تجتر هذا الحديث وسواه، وهى فى الأوتوبيس عائدة إلى الدرب الأحمر.

وهى لا تنسى أنه قال لها ذات يوم:

- لو أن الموت فى عينيك، لعشقته. لقبلته.

وتعض على شفتها السفلى، وهى تكاد من عمق الأسى، تصرخ وتصيح.

وتهز رأسها فى عصبية، وهى تتساءل: أين يا ترى تكون الآن يا حبيبى؟ أين وضعوك؟ إلى أين أخذوك، هل أنا التى دفعتك إلى هذا الطريق؟ إنها مأساة أبى، التى حددت لك هذا المصير؟ ألم يكن؟

وتنظر من النافذة إلى السماء، وتناجى ربها فى عبادة صامته وهى تتمتم:

- يا رب يا خالق السماء والأرض. يا إله كل شىء، حتى الشياطين ! حتى الإنجليز ! ألم يكن بد من هذا القدر؟ ألم يكن بد من أن نعانى ما نعانيه فى هذه الحياه؟ لماذا لم تخلقنا بلا مشكلات تدفعنا إلى هذا الكفاح؟ ألم تكن قادراً على أن يلتزم عبادك حدود الحق وحقوق العدالة، فنعيش فى سلام دائم، لا تشوبه الشوائب والمصاعب والدماء والدموع؟

على أنها تعود إلى نفسها، وتقول لنفسها:

اللهم إننا راضون بقضائك وقدرك، فاقض بما تشاء. لكن لا تنس برحمتك "ممدوح" فى محنته. كن معه، فليس له إلا أنت يا رب.

●●●

وبينما كانت "مديحة" شاردة في هذه الذكريات الحلوة، والواقع المر، تعانى هذا الصراع الرهيب فى نفسها. كان "جلال" قد عاد إلى حجرته فى المعتقل. وشرد بذهنه هو الآخر في "ممدوح".

يا ترى أين أنت الآن يا "ممدوح"؟ يا ترى إلى أين أخذوك؟

هل تكون الآن فى سجن غليظ الجدران، كثيف الظلام، تعانى الوحدة وهواجس الظلام؟ أو أنك الآن أمام محققين قساة، غلاظ القلوب، يحاولون أن يستفزونك، ليستدرجوك إلى خطأ تنال عليه العقاب؟

يا "ممدوح" يا بطل. يا شجاع. يا جرىء القلب والفؤاد.

كم كنت رائعاً، وأنت تناقشهم وتحلل كلامهم !

كم كنت رائعاً، وأنت ترفض أن يحقق معك إلا صاحب ولاية عليك، من عرقك، من دمك !

كم كنت رائعاً، وأنت تواجه خصومك أعزل بلا سلاح، وهم مسلحون بالسلاح، والنفوذ والسلطان !

كم كنت رائعاً، وأنت تدفع عن "مديحة" كلمة أساءت إليها، وأخذت تكيل لهم الصاع صاعين !

كم كنت رائعاً، وأنت تواجه العميل الأجير، الذى استقدموه ليتمم إجراءات تسليمك إليهم !

هل تراك الآن فى نفس الروعة التى ظهرت بها هنا فى المعتقل؟

يا مسكين ! لقد أقبلت وذهبت كالطيف. كالحلم. كسحابة صيف عارضة، لم تمكث طويلا، ثم اختفت !

ليتك ما جئت، وليتنى ما عرفتك.

إن صورتك لم تبرح جفنى. إن صوتك لن يختفى من أذنى. إن ثورتك العنيفة على الظلم والاستبداد، لن تفارق وجدانى. لقد هززتنى يا "ممدوح" هزة لا أدرى متى أستفيق منها.

وكانت الشمس قد آذنت بمغيب.

فوقف "جلال" إلى جوار النافذة، واستند إلى الحائط، وأخذ يرقب نزولها رويداً رويداً إلى حيث تختفى من رحلتها اليومية الأبدية.

وأخذ نفساً طويلا، وزفر زفرته التى يرسلها كل مساء، وهو يتمم لنفسه: الرحيل ! ساعة الرحيل. إنها راحلة. راحلة. ألا بد من هذا الرحيل؟أيرحلون جميعاً؟ كل الذين نحبهم فى الحياة؟ ما أتعس الأحياء من الرحيل، والراحلين !

وما إن اختفت الشمس، حتى أحس "جلال" كما يحس كل يوم، أنه قد بذل من نفسه جهداً مضنياً، فارتمى على سريره مرة أخرى، مضنى النفس والقلب والوجدان.

وسقطت من عينيه الدموع.

إنه يشعر اليوم، كما لم يشعر أبداً أنه محتاج إلى هذه الدموع.

إنه يريد أن يغسل نفسه مما أصابها من آلام.

إنه شعر أن فى حلقه غصة، وأن فى أذنيه وقراً، وأن فى قلبه كابوساً ثقيلا، لا يعرف كيف يتخلص منه، إلا بأوهن وسيلة يستطيعها : دموع تجرى على خديه، كالاستغاثة !

وانكفأ على وسادته الخشنة، يبكى...

ولم يدرك كم من الوقت مضى عليه، وهو فى هذه الحالة المضنية القاسية.

ولما أحس بيد تهزه، ليستفيق، كان الشئ الثقيل الذى ملأ وجدانه، قد خف عنه قليلا.

ونظر بين عشاوة دمعه، فوجده أمامه.

الضابط الشاب الذى كان يريد أن يهرب "ممدوح".

وكانت بينهما مناقشة هامسة، كالنجوى.

- ماذا "يا جلال"؟ تبكى؟

- وهل نملك سوى الدموع؟

- لا يا "جلال" أنت رجل. أنت بطل. وجهدك فى الكفاح معروف.

- وهل تتنافى الرجولة يا أخى، مع ما نتعرض له من ضعف. إنى أشعر الآن أنى ضعيف. وحيد. حزين.

- ولكن حذار أن تظل على هذه الحال. فإن الشوط لا يزال بعيداً.

- وهل على وحدى أن أقطعه؟ لقد أديت من الواجب أكثر مما أطيق، وعلى الآخرين أن يتابعون السير فى نفس الطريق. كفانى. إن إحساساً عميقاً يراود نفسى، بأن دورى قد انتهى. لا أدرى كيف انتهى، أو كيف ينتهى، ولكن هذا هو ما أشعر به الآن.

- يئست يا "جلال" !!

- ومن الذى لا ييأس بعد ما حدث "لممدوح"؟

- ألم تكن تتوقع هذا؟

- فى الحقيقة لا. كنت أتوقع أن يطول اعتقاله. أن يراقب. أن يعامل فى المعتقل معاملة سيئة. أما أن يصل به الأمر إلى هذا الحد. لم أكن أتوقع أن تهوى مقاييس الأشياء إلى هذا الحد المزرى ! كيف؟ تزوير علنى، ضد شخص حى، ينكر هذا الإنكار ومع هذا يفرضون عليه التطوع فى صفوف أعدائه؟! ويجدون منا من يمهد لهم هذا الطريق !!

- وكيف حكمونا هذا الزمن الطويل. ألم يفعلوا ذلك عن طريق قوم منا؟

- نعم ...هذا صحيح. ولكن بهذه الخسة !

- وما الفرق بين خسة وخسة؟ الخسة واحدة يا "جلال" ككل رذيلة. كلها تتلاقى، أيا تكن مستوياتها. أم أنك ترى الرذائل تتميز واحدة عن الأخرى. الكذب مثلا أفضل من

السرقة؟ أم أن السرقة أفضل من القتل؟ كلا يا صديقى، كلها رذائل. وهل هناك كذاب وكذاب جداً ..يكفى قدر من رذيلة، ليستوعب معنى الرذيلة على أنها رذيلة. وهذا يكفى.

ـ أنت فليسوف يا حضرة الضابط. سامحنى، أنا لم أتعلم فى المدارس. أنا تعلمت بطريقة اجتهادية.

ـ وماذا فعله المتعلمون؟ العميل الأجير السافل الذى جاء ليسلم "ممدوح" إلى أعداء الوطن متعلم. دخل المدرسة، وتدرج فى فصول الدراسة، حتى نال ليسانس الحقوق ومع هذا فإن التعليم لم يحمه من خسته، بل ربما مهد له مزيداً من فرص الانزلاق إلى ما هو أدنى ! بل إنه كذلك من بيت كبير ثرى. ومع هذا لم يرفعه استغناؤه عن الناس، بما وهبه الله من ثروة وجاه، إلى درجة الاستغناء عن الانحناء، من أجل مصالح دنيا حقيرة. التعليم يا "جلال" ليس هو كل شىء. المال يا "جلال" ليس هو كل شىء. هناك شىء أهم من هذا كله " الأخلاق.

ـ ولكن على قدر علمى. الأخلاق نتيجة للظروف، والبيئة. فالمحتاج لا يمكن مثلا أن يكون أميناً. والجاهل لا يمكن كذلك أن يكون منزهاً عن الانزلاق. ولكل منهما عذرة إذا غدر أو هوى. أما المتعلمون المكتفون بما وهبهم الله، فكيف تنحدر أخلاقهم؟ كيف يخونون؟

ـ إنى أخالفك الرأى يا "جلال"، فمن المحتاجين من هم أعز على أنفسهم من الأغنياء. ومن الجهلة من هم أصلب عوداً من المتعلمين. ولكنى مع هذا معك فى أن الأخلاق نتيجة طبيعية للظروف وللبيئة. وكم من بيئة فقيرة، ولكنها عفيفة قانعة. وكم من بيئة غنية، ولكنها شرهة دنيئة.

●●●

وكادت المناقشة بينهما أن تنتهى، واستعد الضابط الشاب لمغادرة غرفة "جلال" وهو مطمئن إلى أنه أعاد السكينة إلى نفسه الثائرة اليائسة.

ولكن "جلال" استوقفه، ثم أمسك بيده، ووضعها فى حنان بين كفيه.

وعجب الضابط وزاده عجباً أن وجده ملتهباً كالمحموم.

- ماذا؟ أنت دافئ يا "جلال". هل أنت مريض؟

- نعم أنا مريض. وسيزداد مرضى إذا لم تجد طريقاً لشفائى.

- عجيبة... مم تشكو يا "جلال"؟

- من الكتمان. من سر رهيب سيقتلنى.

- سر !.. رهيب ! ماذا بك؟

- أنا يا حضرة الضابط، أصارحك أنى كنت أنوى أن أخونك أنت.

- تخوننى ! ماذا تقول يا "جلال".

- كنت أفكر أن أستغل طيبتك، ووطنيتك، وأسبب لك الأذى.

- لكن قل لى.. ماذا كنت تنوى أن تفعل؟

- أن أهرب... أخدعك وأهرب.

- ثم؟..

- ثم تيقظ ضميرى، عندما رأيتك تتصرف فى وداعة الحمامة المسالمة الجميلة. وفكرت فى شبابك هذا المبكر. فى أحلامك. فى آمالك. فى أم قد تكون اعتادت انتظارك كل مساء. وهنا انهارت قواى، فقررت أن أبوح لك بالسر. إنى أفضل أن أعتقل طول حياتى، ولا أدع أمك المسكينة تنتظرك، فيجيئها رسول يخبرها بأنك أصبحت سجيناً، من أجلى.

وعاد الضابط فجلس على طرف السرير، ووضع وجهه بين كفيه، وأغمض جفنيه كمن يخفى سراً، أو يحاول أن يتخلص من كارثة.

واقترب منه "جلال" يربت على كتفه فى مودة وأسى.

ولكن الضابط الشاب، ظل مع هذا مخفياً وجهه بين كفيه، شارداً عن الدنيا جميعاً.

فلما طالت غيبته عن كل ما حوله، هزه "جلال" فارتفع نحيبه كصوت المزمار الحزين يئن متقطعاً لاهث الأنفاس !

قال "جلال":

- ماذا يا حضرة الضابط، تبكى؟

ولم يرد الضابط الشاب، ولكنه نظر طويلا إلى "جلال"، وشد أنفاسه بصعوبة ثم قال:

- إن يكن التردد من أجل أمى. إن يكن إشفاقك على أم تنتظر ابنها، فاعلم أن أمى قد ماتت.

وصاح "جلال" فى شهقة، خرجت من أعماقه:

- أنت أيضاً يا حضرة الضابط؟ أمك أيضاً يا صديقى ماتت. ذهبت رحلت. ما أقسى هذا الرحيل...

وسكت الضابط قليلا، ثم قال:

- نعم ذهبت. ماتت. رحلت. وأنا بعد طفل أحبو. لم أتذوق طعم الأمومة يا "جلال" وقد جعلنى هذا الحرمان أشد فهماً لهذا المعنى، وأشد شعوراً بالحرمان منه. أنا مسكين يا "جلال" إنى أحيا فى خيالات ورؤى لا أعرف كيف تلح على إلحاحاً قاسياً. أتصورها دائماً معى. أراها يا "جلال" رأى العين وأناديها. وأكاد أسمع صوتها ترد على. ولكنها لا تدعنى أقترب منها أبداً. إن حاولت أن أقبل يديها، أو حاولت أن أرتمى على صدرها، أو حاولت أن أتحسس وجهها الجميل السمح، لم أجد كل ذلك إلا وهماً. أنا أحيا فى خيال محروم يا "جلال". فإن يكن هذا هو ما منعك فلا تلق له بالا، لأنك بنيت ترددك على وهم لا وجود له.

قال "جلال":

- لا يا صديقى. أبداً. لقد أصبحت أقرب إلى من ذى قبل. ولن أخونك أبداً.

قال الضابط:

ـ اسمع يا "جلال" إن كان ما تنوى أن تفعله، فى مصلحة بلدك، فلا تتردد.

قال "جلال":

ـ ومصلحتك أنت يا بنى؟ لا تؤاخذنى فالأحداث التى مرت بى جعلتنى أشعر أنى شيخ، وأن كل من أصادفهم أبنائى.

قال الضابط:

ـ ليتك كنت أبى.

ـ يا حضرة الضابط لا تقل هذا. أنا رجل بسيط، وغير متعلم. أنا من عامة الشعب، فقير ومحتاج.

ـ ولكنك خير من أبى. أنت شريف طاهر، ووطنى. أما هو. فليته هو الذى مات بدلا من أمى المسكينة، التى ماتت قبل أن تعيش.

ـ أنت تسرف يا حضرة الضابط، ربما لأن أباك قد تزوج واحدة قست عليك.

ـ لم يتزوج حتى هذه اللحظة. شغلته مصالحه. شغلته شهواته. هو إلى الحضيض وارتمى تحت أقدام الحكام، يتلون كالحرباء. يغير جلده، مع تغير الحكومات.

ـ غير معقول أن تكون من صلب رجل كهذا. أنت وطنى. أنت شريف.

ـ لأن هناك أشخاصاً لا تؤثر البيئة على أخلاقهم أبداً.

ـ ولكن لابد أن أباك غنى.

ـ غنى جداً يا "جلال". ومعدم جداً كذلك.

ـ غريب ! ...

ـ لا غرابة فى هذا، فالغنى ليس مالا يملأ الخزائن، ولا ثروة، ولا نفوذاً ولا جاهاً ... بل الغنى أن تستغنى عن كل ذلك، بما فى قلبك من طهارة وقناعة وإيمان. الغنى فى الشرف يا "جلال".

ـ هذا صحيح.

ـ لنعد إلى موضوعك. أتهرب لأن حياة المعتقل لا تروقك، أم لأن لك خطة أخرى.

ـ وماذا تظن واحداً مثلى؟ يهرب إلى السينما مثلاً؟ سأهرب لأستأنف كفاحاً ستعرفه يوماً ما. من يدرى قد نلتقى. قد نتقابل.

ـ إذن دعنى أنا أدبر الأمر.

ـ أنت يا حضرة الضابط تدبر أمر هربى؟! غير معقول هذا.

ـ بل معقول. أنا لست سجاناً يا "جلال". أنا لست خائناً. أنا لست متآمراً على الوطنيين. أنا معكم بقلبى وبكل ما أملك.

ـ لكن كيف ...كيف ستفعل هذا؟

ـ بطريقتى الخاصة.

ـ على أنى سأرفض عرضك إذا كان فيه ما يؤذيك.

ـ وهب أنه يؤذينى. هب أن الأمر يحتاج إلى بعض التضحية. ألم تضح أنت؟ ألم تكن معرضاً للموت وأنت تقوم بعملياتك الرهيبة، فى ظروف غير متكافئة؟ ألم يضح "ممدوح"؟ ألم يضح قبلكم شباب بعضهم قتل، وبعضهم عذب، وبعضهم جرح، وبعضهم صدرت ضده أحكام قاسية؟ لا تخف على. إن ضحيت بمنصبى أو عملى، فسأجد عملا آخر. سيلحقنى الرجل اللعوب المتلون الخائن ـ لا تؤاخذنى فهو أبى ـ بأى عمل آخر، وسأستأنف من خلاله أيضاً الكفاح معكم، بالأسلوب الذى يتناسب مع العمل الجديد. إن واجبى أن أدبر أمر هربك، طالما أنك ستكون حرباً على أعدائنا، وعلى الأذناب من رجالنا.

ـ حتى هذا ...أرفضه.

ـ ترفض باباً يفتح لك، لتستأنف منه كفاحك.

ـ نعم. فأنا لا أضحى بك. ليس لدينا كثيرون مثلك فى مناصب **كهذه. يجب أن تبقى** فى منصبك فإن فى بقائك حماية للأحرار الشرفاء، الذين يضعونهم **تحت سلطانك.**

ـ لكن ...

ـ لا ...لن أقبل أبداً. فكر فى طريقة أخرى.

ـ إذن تمرض.

ـ أمرض...أنا فى كامل قواى.

ـ ومع هذا لابد من أن تمرض.

ـ بالعافية يا ابنى؟

ـ نعم بأى شكل.

ـ تعنى أتمارض.

ـ ليكن ..ثم ماذا؟

ـ ثم أدبر أنا الأمور.

●●●

ها أنت ذا يا ولد !..فى حجرة صغيرة بيضاء. حتى سريرها أبيض. أوانيها مفارشها الزجاجات المتناثرة فيها إلى جوار السرير .... كل ذلك أبيض، كأنك لبن حليب. والرجال الذين يدخلون، والنساء اللائى يترددن ..كلهم فى ثياب بيض...كأنهم ملائكة !

هل أنت يا "جلال" قد ذهبت أيضاً. رحلت أنت الآخر؟

وهل هذه هى الجنة التى يتحدثون عنها؟

حتى العسكرى الذى يقف لك كالديدبان خارج الباب، يرتدى فى هذا الوقت من العام بدلة بيضاء. سلاحه كذلك الذى يشهره، يطل منه رمح براق أبيض.

هل أنت كذلك مثل كل ذلك أبيض؟

هذه المرآة أمامك. لا يا ولد إنك لم تعد فى بياض القشدة، كما كنت يوم ولدتك أمك. إن هجير المعتقل لفح بشرتك. إنك اليوم أسمر، ولكنها سمرة معقولة على أى حال يا "جلال"؟

ما أجمل هذه الراحة يا شريد المقادير.

أكل منتظم يحملونه إليك، ويكادون أن يأكلوه عنك، حتى لا يتعبوا معدتك بعمل، أى عمل؟

وجرس إلى جوارك، تضغطه فتأتيك واحدة، مرة رفيعة كالغزال، ومرة محشوة ككيس القطن، ولكنها بيضاء، على كل حال. تطلب ماء، فتحضر الماء. تطلب ماذا. دواء؟ وهل أنت مريض يا "جلال" بحق؟ ... آه. طبعاً. لابد أن تكون مريضاً. وإلا ففيم قدومك هنا. أنت مريض جداً. أنت مهدد بالموت. ما لم يكشفوا عليك بالأشعة ويحللوا لك دمك وأمعاءك. ويعرفوا كل شئ عنك. طبعاً مريض. إياك أن تفكر يوماً فى أنك ... ما أعجب هذا !

آه لو لم تكن هاتان العينان تبرقان إليك، وهما تتطلعان فى شك وارتياب. آه لو لم يكن هذا العسكرى، ينظر إليك كالثعبان ! آه لو تركوك هكذا وحدك !..ماذا تكون حياتك هنا، لو أنهم تركوك؟ شئ جميل ومريح..يخدر الأعصاب !

المعتقل هل تذكره يا ولد؟ تذكر حجرتك العفنة هناك؟ لا لا يا "جلال" لا تكن ظالماً فالحجرة لم تكن عفنة تماماً. كانت الشمس تدخلها، والعيب فيها أنها كانت تدخلها بغير استئذان، فلم يكن للحجرة شيش من خشب... كسروه ليجاملوا الشمس !..أو ليسطلوا على من فيها النور؟ ربما !.. من يدرى ! والحجرة كذلك كانت ترحب بتيار الهواء. ولم لا؟ أليس تيار الهواء مخلوقاً من صنع الله مثلنا؟ ولم لا يكون له مكان حتى فى المعتقل؟ مسكين يا تيار الهواء ! إنك تأتى باختيارك. لم يقضوا عليك ! لم يأخذوك محروساً بأسلحة متأهبة للانطلاق ..ولكنهم خدعوك، تركوا شروخاً من زجاج النافذة،

ليستدرجوك إلى حجرة فى معتقل؟ ما ذنبك يا مسكين؟ ولكنه قدرك، أن تزور المعتقل وبالرغم عنك ! على كل حال فيك الخير. لم تتسنا حتى هناك.

ما أعرب الإنسان؟ لماذا تحس نحو تلك الحجرة الكريهة بحنان؟ لماذا تذكرها فى شىء من الشوق والضعف؟ هل تريد أن تعود إليها؟ هل تتبطر على نعمة الله؟ لا لا. إنها العادة تستعبد الإنسان، والعشرة لا تهون إلا على ابن الحرام.

لكن لماذا تفكر اليوم فى أولاد الحرام يا "جلال". أما كفاك !

ما عليك ...عد إلى حجرتك من معتقل الزيتون.

هل تذكر الممر الطويل المظلم الذى يؤدى بك إليها، والحراس عن يمين وشمال، يطويهم ظلام المكان فيبدون كالأشباح؟ أعوذ بالله. لطالما ارتجت أطرافك، وأنت لا ترى شيئاً، ولكنك تحس أنفاساً تتردد كالفحيح ! وقد يسعل واحد منهم، فتقفز كأنما قنبلة قد انفجرت تحت أقدامك فجأة فى غير توقع أو انتظار.

وحجرات الزملاء تتناثر هنا وهناك. حتى تجد نفسك أخيراً فى فناء...ثم حراس. بنادق. أسلاك شائكة. عيون تتطلع فى تساؤل مريب. جو مخنوق فى هذا الفضاء الفسيح.

هذا جناح ...وذاك جناح ...وجناح ثالث...ورابع...تجاوزت كلها فى استقامة، كأنها جثث رصوها متجاورة، فى مقبرة.

رائحة النحس تفوح من كل ركن فى المكان.

ولا صوت ولا حديث، إلا همساً، وعلى أطراف اللسان !

ويوم كانوا يسمحون بتجمع. ففى مناسبات، وبعد إجراءات، وتحت حراسة تقبض الأنفاس.

ويوم كنت أنت وزملاؤك تتمردون، فتتجمعون، وقد تخطبون، وقد تتصايحون، كان ذلك يتم كأنما هى لوثة طائشة، يتركونها لتمر فى سلام، وإن كانوا يحيطونها باليقظة والانتباه والتأهب لإطلاق النار فى المليان.

وفعلوها اللئام مرة فيما تذكر يا "جلال".

أتنسى يومها؟ وكيف تساقط ضحايا وجرحى؟ وأفلت أنت بأعجوبة؟ هل كنت جباناً يا ولد؟ أخطأتك النيران، لأنها لا تصيب إلا الشجعان؟ وأحياناً المغفلين؟

طبعاً أنت لو تكن مغفلا...لهذا لم يصيبوك !

ما أكثر ما يفترى الإنسان !

الخطأ يصبح صواباً ....لأنك تفعله !

والخير يصبح شراً... لأنه من صنع سواك !

والعقل قادر دائماً على أن يلون الأشياء بألوان تتفق والعمل الذى يمارسه الإنسان. آه لو أن هذا العقل يعقل ! إذن لارتاحت الدنيا كلها وارتاح الناس. هو السبب... عقل الإنسان هذا ! فطالما هو قادر على التبرير، والتحليل فالأبيض يمكن أن يكون أسود، والسواد يمكن أن يتحول إلى بياض.

لو أن هذا العقل شجاع، لأصبح أمنياً.

لقال الحق، ولو على نفسه. إذا أخطأ قال أخطأت، وإذا التوى اعترف بالالتواء. ولكن الناس عندئذ لا يصبحون ناساً. يصبحون ماذا؟ ملائكة يا "جلال" كهؤلاء الذين يحيطون بك. وهل هؤلاء أيضاً ملائكة لأنهم يلبسون البياض؟ لا تسرف ولا تخدع نفسك. أنت أيضاً يلتوى عقلك حتى فى تصور الأشياء، وتطالب الناس بأن يستقيم منهم العقل، لتستقيم بعد ذلك أمور الكون؟! هؤلاء ليسوا ملائكة. إنهم يمثلون دور الملائكة. إبليس أيضاً كان ملاكاً. ألم تسمع عنهم روايات وروايات؟ ألم تسمع أنهم يخفون الدواء، ويتاجرون فى جروح الناس؟ لكن لماذا تظلمهم هكذا يا "جلال" وهم يطعمونك، ويحشون بطنك بأكواب اللبن الحليب الجيد؟ هل أخفوا عنك دواء يا مفتر ؟ لكن من قال إنك مريض؟! أنت تلعب لعبة خطرة يا لعوب. أنت هنا تتحين الفرصة للإفلات.

●●●

آه لو يعلم آه لو يعلم هؤلاء الناس؟

آه لو يعلمون أنى هنا، لأضللهم؟

آه لو يعلمون أنه سيقبض عليهم بسببى، ومن يدرى كم يطول القبض عليهم، وكيف يعاملون؟

ومن منهم يا ترى سيكون الضحية؟

هذه الرشيقة كالغزال؟ أم تلك المكبوسة ككيس القطن؟ أم لا هذه ولا تلك،ولكن واحدة أخرى ممن يتمخطرن، فى ملابس محبوكة، وإن تكن بيضاء ! ليثرن انتباه الأطباء الشبان.

يا مستشفى ! الله يشفيك يا مستشفى ! أنت والله الذى يحتاج لعلاج ! يا ولد ستجن... لماذا لا تشرد إلا فى هذه المتناقضات؟ دع الخلق للخالق. ماذا إذن أقبل وجود الإنجليز، ولا أحاربهم؟! إذاً الملك مطاع، وحكوماته عادلة؟ لماذا يا مغفل إذن دخلت هذه التجارب، وانتهيت إلى المعتقل؟ لماذا عشت مشرداً بين البقاع. لا يستقر لك قرار؟

لا يا مستشفى ...إنك مستمرض لا مستشفى !

ومثلك أنت ممن أدخلوا هنا بحتمية الأقدار، صحيحاً، وسليماً، معافى، هو الذى يستطيع أن يحكم على هذا المكان. لست مريضاً يعجزك المرض عن ملاحظة ما يدور. لست مغفلا. لست مغمض العينين. ولكنك ترى وتسمع.. ما عليك. هذه على كل حال مسائل بسيطة.

لا يا "جلال" ليست بسيطة. لكنها بسيطة، لأنها ضرورة الوضع الذى نحن فيه. هل تعنى أن ذلك الفساد يمكن تأجيله، حتى تتحقق أولا الغاية الكبرى من الكفاح. نعم يا "جلال"، وبعدها يأتى جيل يقوم هذا الفساد. حتى هنا إنجليز؟ بل إنجليزيات يا ولد ! هل رأيتهن، وعلى وجوههن غلالة من الجد والرزانة والرقة كذلك؟ لا تخدع نفسك. لا تضلك الحماسة عن الحقيقة. إنهن يؤدين واجبهن تماماً. قد يكون لهن مغامرات. وما لك أنت؟ إن لك عملهن. احكم عليهن بأعمالهن.

لكنهن متعجرفات مع هذا، والأطباء لا يخافون الأساتذة الكبار، كما يخافون منهن، طبعاً وراءهن نفوذ كبير، وبعضهن إلى جوار ذلك فاتنات، والله جميل يحب الجمال. لكن والله يا ولد إنهن كالسيوف فى أداء الواجب نحو المرضى. يا أخى لا تقلق نفسك. هل تقبل احتلال البلد، لأن فى القصر العينى عدداً من الممرضات يؤدين الواجب على ما يرام. بل إننا من أجل هذا يا غبى نحاربهم. لماذا لا نصل إلى مستوياتهم؟ لماذا يخلط ممرضاتنا بين الهزل والجد؟ لماذا يعشن فى لون أحمر الشفاه، والمرايا تعكس بسماتهن استعداداً لاستقبال الرجال؟ ألسن مخلوقات كالأخريات؟ لكنه التخلف الذى وصلنا إليه عن طريق الاحتلال. لو لم يكن بلدنا محتلا هذا الزمن الطويل، لأصبح عندنا ممرضات يؤدين أعمالهن فى حكمة ورزانة ورقة. يسرعن إلى المريض، ليضعن بسماتهن وجهودهن فى خدمة المريض. فإن تكن لهن بعد ذلك حياة خاصة، فهى لا تؤثر على عملهن بحال. لكنا احتللنا. استعبدنا. تخلفنا.

●●●

نسيت "ممدوح" يا "جلال". فكرت فى كل شىء إلا فى "ممدوح". لكن كيف؟ أنت هنا من أجله. هل تجده؟ هل تستطيع أن تنتزعه من بين قبضاتهم؟ فإذا لم تتمكن فكيف يكون حال البنت المسكينة "مديحة"؟ كانت ليلة غريبة، ليلة حكى لى روايته. ليته نزل مع معتقل آخر. لماذا أتوا به إلى أنا؟ لأن قدرى يتابعنى، ولن أستريح. يا جبان يا "جلال". تندم على أنك عرفته ! كنت تتمنى ألا تعرفه ! بل هل كنت تتمنى ألا تولد فى هذا الجيل، وربما فى هذه البلاد؟ طبعاً لتهرب من مواجهة المسئوليات، وتدعى أنك بطل، ويعرف الناس أنك بطل !

كان سيأتى آخرون سواك ليواجهوا هذه المسئولية. هب أنك خلقت فى بلد بعيد..كندا مثلاً؟ لا. بعيدة كندا هذه ! يقولون الدانمرك أجمل. وفيها نساء فاتنات. أو باريس، وهى باريس وكفى. كنت تبعد عن هذا الجو الكريه. لماذا أبناء هذه البلاد الآن فى طمأنينة وراحة بال، وأنت فى القصر العينى الآن تنتظر لحظة معينة، لتقوم بمغامرة

قد تحررك، وقد تكتب نهايتك ! لكن أنت جبان وأنانى يا ولد. الآخرون الذين كانوا سيقومون بهذه المهمة، ما ذنبهم؟ تريد أن تفلت بجلدك ويكون بعد ذلك ما يكون، لا يهمك إلا نفسك !

تريد أن تهرب من مصيرك؟!.. لكن مصيرك وراءك يا بطل. لن تهرب. أبداً. سيتعقبك هذا المصير، حتى لو هربت منه !

ما هذا الجنون؟ ما هذه الأفكار التى تراودك فى إلحاح وتناقض؟ إن دماغك سينفجر يا "جلال".

ربما تمرض بحق، ويصبح وجودك هنا ضرورة.

يا نهار أسود. وفى هذه الحالة يصبح الهزل جداً.

تتأوه مثلا فى ألم وتصاب بصداع وصراع !

يا عالم ...هلا تقوم وتصلى ركعتين لله، وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقرأ الفاتحة لسيدى "احمد الذكيرى"، فقد يخف عنك هذا الكابوس.

ما هذا؟... تقوم تتوضأ وتصلى. وأنت مريض، يا مريض !! إذن تحمل مسئولياتك. تحمل نظرات الريبة والشك فى أمرك.

تحمل عينى الحارس الذى يقف بالباب.

عد إلى جحرك يا فأر المعتقل ! أنت كالصراصير يا "جلال" بك !! يضعونك فى الصالونات، فتزحف إلى الزوايا العفنة والشقوق. طبعاً مكانك الطبيعى. هل هذا غريب؟

بل لا يا "جلال". إن عليك واجباً هاماً.

ألست رجلا؟ ألم تتعهد بأن تساعد المسكينة الوحيدة فى محنتها؟

لسانك يستحق القطع. أنت هكذا ضحية شهامة مصطنعة ! أما كنت تسكت يا أخى ولا تتورط فى وعود، وعهود؟!

آه أنا تعبت. أنا مرضت فعلا.

خذونى إلى العباسية. هذا ليس مكانى، وإنما مكانى الطبيعى، هو مستشفى المجاذيب. حيث لا عقل ولا تفكير، وإنما دنيا ..دنيا فسيحة واسعة، كلها تخريف لذيذ. تستطيع أن تكون أى شىء ملكاً مثلا. كندياً إذا أردت. دانمركياً إذا شئت. من جيل سبق. من أجيال قادمة أعفاها زمانها من مسئوليات الكفاح. ولا مسئولية. ستكون مجنوناً، والجنون فنون.

أين أنت يا حضرة الضابط؟ أين الطبيب الذى اتفقنا معه على هذه التمثيلية؟

إما أن تعيدونى إلى المعتقل، أو تهيئوا لى فرصة المغامرة، أو تضربونى بالرصاص. إنى هنا سأجن..مخى يحترق.

لكن ماذا سيحدث. هل تحررنى المغامرة؟

سأظل أهرب من ظلى. ستملأ الأشباح حياتى.

الحرية الحقيقية يا "جلال" هى فى الموت. تتحرر من مسئوليات الحياة، وتتحرر كذلك من احتياجات جسمك.

لا والله يا ولد. حتى الموت لن يحل المشكلة. سيحاسبونك ليشووا جلدك، أو ليرسلوك إلى الجنة. ومن يدريك ماذا يكون مصيرك؟!

هل تكفر بكل حرية؟

أين هذه الحرية؟

أين الإنسان الحر؟

حتى فى كندا، أو الدانمرك، أو باريس، هل هناك حرية؟ وفى أى جيل، هل هناك حرية؟! هل تتحرر مثلا من احتياجك إلى طعام، أو شراب، أو نساء، أو دواء؟ هل تتحرر من حاجاتك ومسئولياتك؟ أين هذا وكيف؟

يا "جلال" ستفكر بكل حرية.

نعم تكفر، إذا كانت هذه هى الحقيقة.

كلنا معتقلون فى شىء واحد. أجسامنا معتقل لأرواحنا. احتياجاتنا معتقل لمطامعنا. تقاليدنا معتقل لخواطرنا. القوانين نفسها معتقل لتصرفاتنا.

إذن يا ولد لماذا أتعبت نفسك، وواجهت ما واجهته من محن؟

ألتكون معتقلا كالآخرين !..حتى لا تشذ عن المجموع؟

يا عالم !..إن رأسك يدور يا "جلال".

خير لك أن تنام، لتحلم باليوم الذى جاءك فيه الضابط الشاب، ومعه طبيب شاب مثله وأخذا يملآن لك أوراقاً واستمارات، ثم صحباك إلى هنا، لتمثل دور المريض المهدد بالموت ما لم يكشفوا عليك بالأشعة، ويحللوا لك الدم والنفس وحتى خلجات الضمير.

لقد كان يوماً عجيباً، وأنت تنظر إليهما كالأبلة، والضابط الشاب يبتسم لك فى خبث ليوصيك أن تمثل دورك بنجاح.

ولم تكن تستطيع أن تناقشه. لقد فاجأك مفاجأة لم تكن تتوقعها.

أقبل إليك فى ظلام الليل البهيم بعد أن نام المعتقل كله، ومعه هذا الطبيب، وحولهما حراس.

ولم تدر ماذا تقول !

أسلمت نفسك كأى معتوه للطبيب، يقيس ضغطك، ويضع سماعته على صدرك، ليتسمع دقات قلبك، ثم ليطلب إليك أن تنام على جنبك. على ظهرك. على وجهك. هكذا..تشمر ذراعك مرة، وتكشف عن صدرك مرة، وتتنفس مرة، وتسعل مرة..ثم ينتهى بك الأمر إلى أنك مريض يا "جلال". مريض جداً. مرضك خطير ويهدد حياتك. بل إنه قد يعدى كل من فى المعتقل. ولابد لك من كشف بأجهزة مختلفة لا تتوافر فى المعتقل، وتحليلات معينة مكانها هذا القصر العينى.

وكنت تعلم أنهما كذابان..يكذبان على السلطان، لينقلاك إلى هنا . كنت تعلم أنهما يفسحان لك الطريق، لتأخذ طريقك إلى الحرية.

مخدوعان وأنت مخدوع معهما !..أين الحرية؟

هل تذكر وأنت تركب سيارة الإسعاف. لقد كان الطبيب خفيف الدم، وهو يوصى رجال الإسعاف أن يعنوا بك لأنك مريض متعب.

لقد تسللا بك فى الظلام، كأنك قطعة من الأفيون !

ولما صرت يا ولد والضابط وحدكما فى سيارة الإسعاف. وخلفكما سيارة حراسة مدججة بالسلاح، ضحك لك ضحكة صامتة، وقال فى سخرية: كيف حالك الآن يا "جلال" إن شاء الله تجد علاجك فى القصر العينى متوافراً . إن شاء الله.

وجاوبته يا شيطان، وأخذت تدعو الله أن يشفيك !

وها أنت ذا يا أستاذ..هنا فى المستشفى، وقد مضى عليك يوم كامل، تنتظر العلاج ! متى يأتى هذا العلاج؟ ألا يسرعون به لأنتهى إلى إحدى الراحتين؟ الأمل أو اليأس.

على كل حال، النوم الآن هو خير وسيلة للانتظار.

●●●

ولم يستيقظ "جلال" إلا على صوت الطبيب وهو يناديه.

لم يدر كم مضى عليه فى نومه هذا الطويل. وخيل إليه أنه واحد من أهل الكهف، صحا من بعد بعيد جداً عن هذا الجو الذى يراه حوله.

وأخذ الطبيب بعيد الكشف عليه.

وكاد يصيح فيه أين حضرة الضابط.

ولكنه أدرك أن ذلك ليس من شأنه، وأن أية إشارة إلى حضرة الضابط وعدد من الممرضات يحيط بالطبيب قد يكون لها أثرها السئ عليهما معاً.

وسكت. رضخ للأمر الواقع. أسلم نفسه للطبيب يقلبه كما يريد، ويفعل به ما يشاء.

وأخذ الطبيب يروح يجيء، وقد قطب جبينه وبدا منظره مهموماً حزيناً. فى حين أخذت الممرضات يراقبنه، لتلتقط كل منهن نظرة إعجاب.

وأمر الطبيب بأن تجهز حجرة الأشعة ليذهب إليها المريض.

●●●

وخلت الحجرة...إلا من الطبيب الشاب، وممرضة صغيرة سمراء، رقيقة، كالملائكة. الجميع خرجوا إلى حيث يعدون معدات نقله، ويجهزون كذلك حجرة الأشعة.

وأحسست ساعتها أننى على وشك أن أواجه مغامرة، لا أعرف كيف تدبر، ولا كيف تنتهى. وخيل إلى أننى قد أتعرض لخطر قد يودى بحياتى. ولم أعرف كيف أسرى عن نفسى. كيف أبعد هذه الخواطر السوداء عن مخيلتى. مع من أتحدث؟ وماذا أقول؟

على أن الشىء الذى فعلته، وكان منطقياً مع حالتى، هو أننى أخذت أصرخ وأتلوى.

ألست مريضاً؟ ألست مهدداً بالموت؟ ألست أنتظر الفاجعة؟ ألست فى القصر العينى، فى حجرة بيضاء، وهذا طبيعى وهذه ممرضة سمراء، فى زى أبيض؟ وأنهما لينتظران تجهيز حجرة الأشعة وإحضار معدات نقلى لأكون موضع الاختبار والكشف والتحليل؟

إذن فالصباح أمر طبيعى ومنطقى مع حالتى!

إذن فليس غريباً أن أتلوى على هذا النحو، أنا المهدد بالموت!

وأخذ الطبيب يطيل النظر إلى، وهو بين العجب والابتسام فى آن واحد. كأنما كان يريد أن يقول لى يا شيطان! يا ممثل! حتى معى أنا!

على أنه اكتفى بهذه النظرات ينقلها بينى وبين ممرضته السمراء.

ثم أخذ يذهب ويجىء فى الحجرة، كأنما يشغله شىء هام.

وأطلت عينا الحارس من خارج الباب، فلما رآنى أتلوى وأصرخ وأصيح، هز المسكين رأسه فى أسى، ثم توارى عن عينى. لم يحتمل الموقف الأليم الذى أواجهه. لم يستطع

الصبر على هذا المنظر. مريض تأكله المحنة والأوجاع. وهززت رأسى وهو يخرج وأنا بين الإعجاب به والرثاء له.

السجانون كذلك لهم قلوب. إن منظرى مزق شعوره. المسكين يتألم من أجلى.

على أن السجين بلا قلب. بينما يرق قلب السجان، يقسو قلب السجين، ويتجاوز القسوة إلى الوحشية.

هل يصبح هذا السجان المسكين، ضحية من ضحاياى؟

إن عينيه هاتين، وقد لمعتا بالعطف على، قد تذبلان غداً، من فرط ما سيبكى من الخوف والفزع، وأسئلة طويلة متلاحقة يوجهها إليه المحققون، واتهامات شتى متنوعة، يلحقها به أصحاب السلطان. وهو مسكين ساذج مخدوع.

ما أغرب علاقة الإنسان بالإنسان.

هذا سجانى وأنا سجينه. على أن خيطاً رقيقاً من الحنان يربطنى به.

أنا لا أدرى حقيقة حياته. أولاده مثلا، وهل له زوجة وأولاد؟

الا ينتظرون عودته، بعد فراغه من عمله؟ الا يعقودن عليه الآمال؟

وهو البرىء الساذج..فيم تراه يفكر وماذا يجول بفكره، وهو واقف وقفته هذه الطويلة بالباب، وفى يده سلاح، وعلى قيد خطوات منه، سجين أسلموه إليه؟ أتراه واقفاً طول الوقت، لا يفكر إلا فى المهمة الموكولة إليه، أم يشرد بخياله إلى أحلام ومنى؟ أولا ترتسم على وجهه أحياناً بسمة بسيطة هادئة؟ أولا تمر بوجهه أحياناً أخرى موجات عُبوس؟ إنه بشر مثلى. ومثل كل الناس..مثل هذا الطبيب. مثل حضرة الضابط. مثل "مديحة"، مثل "ممدوح"، بل مثل الأسطى "عبد الغفار" و "سالم"، وجميع من رحلوا ويرحلون !

ما ذنبك يا مسكين؟

وكدت أصيح فى الطبيب الشاب الذى يخفض عينيه إلى أرض الغرفة، وهو يروح ويجىء والممرضة السمراء الرقيقة كالنسيم واقفة فى ركن قصى تتلفت ذات شمال وذات يمين...اتركنى وحالى. لست أنوى أن أزيد رصيدى من الآلام.

أنا بشر أنا إنسان. وكفى ما أديته لبلادى. ابحثوا عن سواى، إن تكن هناك أمور أخرى يجب أن تتم.

ولكنى لم استطع.

انحبس الصوت فى حلقى. فإنه ـ هذا الطبيب ـ لم يفعل ذلك كله من أجلى، ولكن من أجل قضية أكبر منى ومنه. من أجل مصر. من أجل تحرير الإنسان من الذل والفاقة والاستعباد.

وعدت أتلوى وأصيح وأصرخ.

كان لابد من هذا، وإلا صحت به هو بما يدور فى خلدى من مشاعر مختلطة. متضاربة.

وعادت العينان البريئتان تطلان من جديد، ثم تعقبها هزة من رأس المسكين ثم يختفى. لم يكن يبدو لى أنه رجل مدجج بالسلاح، ولكنه إنسان متوج بقلب كبير، يعطف حتى على من أودعوه فى قبضته، ليحرسه بالحديد والنار، فلا يهرب أو يفر.

على أن الطبيب لم يعبأ بصراخى، لم يحاول حتى أن ينظر إلى مرة أخرى.

وهو يخفى ابتسامة ساخرة منى. ومضى يذرع أرض الحجرة، تشغله عنى أفكاره الثقيلة المبهمة.

على أنه رفع عينيه عن أرض الحجرة، وأخذ يتطلع إلى ما فيها ونظر نظرة فاحصة طويلة إلى الباب، ثم التفت إلى الممرضة الحسناء وقال لها فى صوت منخفض كأنما يناجيها:

ـ هل أعد كل شئ؟

ـ تماماً يا دكتور.

ـ النافذة معدة؟..

ـ كما طلبت.

- والفناء الذى تطل عليه؟

- سيخلو تماماً.

- والطريق الخارجى؟

- الخطة مرتبة، وسيكونون عند أول الكوبرى يرقبون.

- والسيارة؟..

- فى منتصف الليل تماماً ...بالثانية.

- إذن ترين ماذا فعلوا؟ لماذا لم تجهز حجرة الأشعة؟ لماذا لم يحضروا؟ لم يبق وقت طويل. كم الساعة الآن؟

- إلا ربعاً.

- وموعد حضور المختصين بالأشعة.

- سيتأخرون وسيتم كل شئ، قبل أن يحضروا.

- إذن نبدأ الآن، فقد نفاجأ بشئ.

●●●

ما هذا الذى تسمعه يا "جلال"؟

هل أنت مغفل؟ هل سمعت؟

نافذة ...وفناء...والطريق الخارجى...والسيارة...فى منتصف الليل...والمختصون بحجرة الأشعة سيتأخرون !

هل تسأله بعض تفصيلات إخرى؟

لكن ماذا يكون الفرق بينك وبين فتى صغير لم يدرب بعد على مثل هذه الأمور؟

هل أنت غر؟ هل أنت أبله؟

وتاريخك الطويل العريق فى هذه الألوان من المغامرة. ألا تفهم؟

لقد أعدوا كل شىء.

نافذة فى حجرة الأشعة، تطل على فناء خارجى. أخلوه تماماً من الحراسة، ثم هذا السور تثب من فوقه، لتجد نفسك فى الطريق، أو تجد سيارة تنتظرك. ثم يتم كل شىء ببساطة.

والحارس المسكين واقف بالباب مدجج السلاح.

وسيتشاغل الطبيب بطبيعة الحال بحالة أخرى من آلاف الحالات التى هنا.

سيتركوننى وحدى فى الأغلب، حتى يحضر المختصون فى الأشعة، ليتم كل شىء فى منتصف الليل تماماً. أليس هذا هو التدبير؟

يا ولد "يا"جلال" ! كم أنت ذكى ! تفهمها وهى طائرة !

●●●

لكن هذه السمراء الرقيقة الصغيرة. هل هى الأخرى منهم؟

لابد أن تكون منهم، وإلا ما اتفق معها الطبيب على هذا.

البلد بخير يا ولد. البلد بخير فيه "مديحة"، وفيه هذه السمراء. ومن يدرى كم فيه من مثيلات "مديحة" وهذه السمراء ممن لا تعرف.

وتحاول يا أستاذ يا خيبة، أن تتردد !

لا ... فإن يكن هذا الطبيب، وهو شاب صغير حديث، له آمال، وله أحلام، وله مستقبل كبير ينتظره يغامر هذه المغامرة. وإن تكن هذه السمراء الرقيقة، ولها أمان عذاب تراود خيالاتها، تقبل على هذا العمل الخطير، بل إن الضابط الشاب، وهو فى مركز محترم ومستقر، يرتب هذا كله، وهو يعلم مدى ما يعرضه له من خطر، لو عرف عنه أى شىء، أو حتى أحيط مسلكه بارتياب. وكل هؤلاء مرتاحون، ناعمون، ليست بهم

حاجة، ولم تدفعهم إلى ذلك دوافع العوز والاضطهاد. بل ربما كانوا موضع تملق السلطان. بل الأكثر من هذا أن الإنجليز مستعدون لأن يتخذوا منهم الصنائع إلى مراكز القوة والنفوذ، ليكونوا جلادين للشعب، وفى مقابل ذلك يتمتعون بكل ما تشتهى نفوسهم من مال ونفوذ، ومناصب ونساء باهرات. ولكنهم - برغم ذلك - يقامرون ويغامرون، فكيف بك أنت يا صعلوك تتردد، وأنت أول من سيستفيد من هذا الكفاح، فإن الحرية لك معناها حرية لقمة العيش حرية الكفاف. حرية الضرورات. وكل هذه مكفولة لهم، بل عندهم ما هو أكثر منها. كيف بك وأنت الأحوج إلى هذه الحرية، لتؤمن بها مصيرك، ومصير المحتاجين من أمثالك، تتردد هذا التردد المخجل الجبان.

هل يهمك الحارس الساذج الواقف بالباب؟

لا بد أنهم دبروا كل شىء بحكمة، بحيث لا يضار هذا الحارس أبداً.

كل ما فى الأمر أن يقضى فترة تحت التحقيق. ليكن...ألسنا مطالبين جميعاً بالتضحية؟ فليكن هذا هو نصيبه من التضحية التى نبذلها، والثمن الذى يساهم به فى الهدف الكبير.

لا يا "جلال" بك !! توكل على الله.

البلد يا ولد ...بخير...بخير.

●●●

وتمر لحظات قصار. ولكن "جلال" يحس أن كل لحظة منها بعمره كله.

لماذا يتأخرون هكذا؟ أنسوا أن مصير المغامرة كلها مرتبط بكل ثانية تمر؟ وقد يكون لثانية واحدة تضيع ثمنها، وما أغلاه ! أرواح شريفة طاهرة تعمل فى دأب من أجل الحياة.

وأخذ "جلال" يتململ فى سريره. كان يريد أن يسبق الزمن. كان يريد أن يثب.

وأحس الطبيب قلقه، فربت على كتفه وهو يقول له:

- ستكون مريضاً مطيعاً . إن شفاء المريض يتوقف على طاعته لأوامر أطبائه.

- فإن تأخرت هذه الأوامر. فإنها ستكون مصيبة على المريض..والطبيب معاً !

- لا تخف. لكل شىء ميعاد. المهم أن تطيع الأوامر بلا مناقشة بلا كلمة. بلا تردد. بلا استفسار.

- على أن تكون أوامر محكمة.

- لا تكن فيلسوفاً . أنت مريض. أنت مهدد بالموت. إذا لم تطع الأوامر، فستموت. أتفهم؟ ستموت. سيقتلك الداء. ستكون معك هذه الممرضة السمراء. تنقل إليك أوامرى، وحذار أن تناقشها أو تضيع ثانية واحدة فى فلسفتك هذه أمفهوم؟

- إذن هيا ..وإلا كنتم أنتم الذين تضيعون الوقت.

- يا مسكين. ربنا يشفيك.

●●●

وعاد الطبيب يروح ويجىء، وهو يفكر.

وأخذ "جلال" يرقب السمراء الرقيقة التى كادت تلتصق بالجدار.

أما هى فقد نظرت إليه فى ابتسامة هادئة، كأنما تدفعه إلى أن يثق بها.

وكان كل شىء، قد أصبح مفهوماً تماماً.

●●●

وأقبل اثنان من الممرضين الرجال، ومعهم ممرضه بدينة، ومعهم كذلك سرير متنقل على عجلات من المطاط، وقد غطى بمفرش أبيض.

كل شىء أبيض، حتى القلوب تحوى أحلاماً بيضاء !

وأقبل الرجلان يسندانه، والممرضة البدينة، تمسك بالسرير حتى لا يتحرك.

ومثل دور المريض المجهد المتعب المكدود تمثيلا بارعاً.

كانوا يمسكونه من جانب، فيتأوه ويتلوى.

فإن لمسوا جانباً آخر، صاح وصرخ.

والطبيب الشاب يرقب الموقف، ويرقب مع ذلك الوقت تماماً.

والسمراء الرقيقة، تبادل الطبيب نظرات لها معناها.

ولما تم كل شيء وأصبح "جلال" متمدداً على السرير المتحرك، ذى العجلات المطاط، سار الموكب. الرجلان يدفعان السرير، والممرضة البدنية خلفهما، يترجرج جسدها كالبالوظة. والسمراء الرقيقة ترقب نقل المريض.والطبيب الشاب يدخن سيجارة، وهو يتطلع من بعيد إلى هذا الموكب، وقد وقف على باب الحجرة ينظر فى ساعته. سيلحق بهم، بعد أن يهيئوا كل شيء.

والحارس خلف السرير، يهز رأسه فى أسى، وقد وضع بندقيته إلى جانبه، فلم يعد به إليها حاجة، والمعتقل الذى يحرسه، ملقى فى إعياء شديد على سرير المرض.

ومضى الموكب إلى اليمين فى ممر طويل. ثم عرج على اليسار. ثم انحنى إلى اليمين. ثم فتح باب مصعد كبير، اتسع لهذا الجمع الكبير. ونزل المصعد إلى الطابق الأول.

وخرج موكب المعتقل المريض من المصعد، ليمر فى ممرات مستقيمة ومنحنية، حتى يصل إلى حجرة الأشعة.

ولكن الحجرة خالية، ليس بها أحد.

قال أحد الرجال:

- الله !! ما هذا؟ ليس هنا أحد !

قالت الممرضة السمراء:

- عجيب ! لقد أبلغناهم أن يستعدوا، فالحالة لا تحتمل التأخير.

قال أحد الرجال:

ـ لكن ما العمل؟ نعود حتى يحضروا؟

قالت الممرضة البدينة:

ـ ما هذا العذاب؟ نصعد وننزل !! هل نحن متفرغون له؟ إن لدينا أعمالا اخرى ومرضى آخرين.

قالت الممرضة السمراء الرقيقة:

ـ إن يكن لديك عمل، فأذهبى إليه أنت. إنى أنتظر معه. المهم يدخل المريض الحجرة وتتصلان أنتما بالمعاون، ليتعجل وصولهم. الدكتور على وشك الحضور، والمهم أن يجد كل شئ جاهزاً

ـ وكان "جلال" يسمع هذا، ويتابعه، وهو يخاف أن يضيع الوقت. إنه يعرف كم هو عزيز هذا الوقت فى مثل هذه الظروف.

قال الحارس فى غضب:

ـ هؤلاء ناس مستهترون ! أينسون مهمتهم؟ حتى المرضى يا ناس ! ألا يخافون الله؟ لو أنهم هم المرضى، هل كانوا يقبلون هذا الاستهتار؟! أنا أذهب معكم إلى المعاون.

الرجل متعب. ألا ترون وجهه؟

وعاد قلب "جلال" يخفق بالعاطفة نحو هذا المسكين.

اسمع ما يقوله يا "جلال"، وقارن بينه وبين نفسك. إنه يشفق عليك، وأنت تخونه ! يا نذل !

لكن هل هذه خيانة؟ هذه مسألة انتهت. أنت لا تخونه، وأنت تعمل من أجل مصلحة البلد. أليس واحداً من أبناء البلد؟ إنك تعمل من أجله، فأين الخيانة يا "جلال".

قالت الممرضة السمراء:

ـ أدخلوه فى الحجرة، وليذهب اثنان منكما للمعاون لاستعجال رجال الأشعة. أما أنت يا شاويش، فلتبق أنت بالباب. إن مهمتك حراسته.

قال الحارس:

ـ حراسة من يا بنتى. إنه جثة أنا أذهب معهم.

قالت وهم يدخلون المريض فى حجرة الأشعة :

ـ الأمر لك على كل حال. أنت رجل طيب يا شاويش.

وكاد جلال يضحك، وهو ينصت لهذا الحديث

كاد يقول لها: يا عفريتة: تقتلين القتيل، وتمشين فى جنازته !

●●●

ولما خرج الرجل، لاستعجال المختصين بالأشعة، وأصبحت هى وهو وحدهما فى الحجرة نظرت إليه، ثم إلى ساعتها، وابتسمت ابتسامة خفيفة، لتطمئنه إلى أن كل شىء يسير فى طريقه المرسوم.

أما هو فقد فتح عينيه، ودار ببصره فى الحجرة، فلم يتبين مما فيها شيئاً.

كان يهمه أن يعرف فقط هل الباب مغلق أو أنه مفتوح؟ أين الحارس؟

ما هذه النافذة التى كان الطبيب يتحدث عنها معها؟ هل فى الحجرة أحد سواهما؟

ووجد الإجابة عن كل هذه الأسئلة.

على أنه بدا قلقاً، وهو ينظر إليها فى صمت.

ومرت لحظات تساوى أجيالا .

وعاد يتطلع إليها مستفسراً، فلم تقل شيئاً.

وهمس فى أذنها يقول:

ـ أين هذه الأوامر؟ لا وقت يا صبية.

ـ لا يزال أمامك دقيقة واحدة.

ـ فإن عاد الرجال.

ـ لن يعودوا قبل خمس دقائق على الأقل. إن كل شئ محسوب يا حضرة.

ـ وقد يخطئ الحساب.

ـ إن شاء الله يسير كل شيء كما وضعناه.

●●●

وفجأة قالت له:

ـ الآن قم.

وقفز من سريره، واتجه نحو النافذة.

قالت له:

ـ النافذة مفتوحة. عليك فقط أن تدفع الشيش بيديك، ثم تقفز ارتفاعاً قدره متران. ستجد نفسك فى ممر ضيق مظلم، وأمامك سور ارتفاعه متران. فى مواجهة النافذة تماماً، أعدت حفرة فى جدار السور، على ارتفاع متر واحد تسند قدمك فى هذه الحفرة وتقفز السور إلى الخارج، وستجد سيارة حمراء صغيرة فى انتظارك. لا تسأل أحداً عن شيء اركب وامض مع السائق إلى حيث يأخذك. امفهوم هذا؟ تنفذه حرفياً. لا تحاول أن تتفلسف كما هى عادتك.

على أنه بدأ يمرق نحو النافذة كالسهم.

وصاحت فيه:

ـ كدت أنسى أهم شئ فى الموضوع. عليك أن تعتدى على. بسرعة. مثل دورك. أنا أمنعك، وأنت تعتدى على. لابد من عدوان حقيقى، فالمسألة ليست مزاحاً. سيعقبها تحقيق وكشف من الطبيب الشرعى، وكل هذه إجراءات. لا ترفق بى. لا تعاملنى

كصديقة. أبداً أنا عدو لك يحاول أن يبقيك وأنت تحاول الهروب. اضربنى بأقصى ما تستطيع. الو عنقى. ألو عنقى مزق ملابسى. حاول أن تترك آثار عدوان حقيقى فى جسدى، وإلا التقينا جميعاً فى السجن. إن أمامنا دقيقة ونصف تماماً، مدة هذه الحركة. هيا. مثل دورك.

قال فى همس:

ـ قلبى لا يطاوعنى.

قالت فى حدة:

ـ يا مجنون هيا.

قال:

ـ يا رب لماذا كتبت علينا كل هذا.

قالت وهى تكاد تصيح من الفزع.

ستفسد كل شىء لا أدرى كيف تقتل أعدائك يا جبان. أبعد كل هذا تضعف وتخور؟

●●●

ولم تتركه فى هذا التردد. أرادت أن تستثيره وتستفزه. صفعته على وجهه صفعة أثارت كبرياءه فدفعها من أمامه.

قاومته.

لوى ذراعها فى وحشية واعتدى عليها بالضرب فى غير رفق، ومزق ملابسها، وهددته بالصياح فكتم أنفاسها حتى كاد يخنقها، ودفعها دفعة قوية ألقت بها ممزقة الثياب على أرض الحجرة.

أما هو، فقد نسى أن ذلك كله تمثيل، ومرت به لحظات نقلته إلى معركة حقيقية. كان أمامه باب الحرية، على قيد خطوة منه، وهذه العنيدة تريد أن تعيده إلى المعتقل.

ولم يكن يريد أن يعود إلى المعتقل.

ولم يضع "جلال" وقتاً.

تركها ملقاة على أرض الحجرة، أنفاسها متقطعة من قسوة الصراع، وجرى نحو النافذة فدفعها ووثب منها إلى الممر الخارجي.

وسكن حيث هو لحظة.

لقد مر بتجارب عديدة سابقة علمته أشياء كثيرة. وكان يعرف أن عليه أن يتبين خطاه، قبل كل خطوة يخطوها.

وبدا له كل شيء صامتاً ساكناً، في هدوء الليل الوادع.

ليس هنا حراس. ليست هنا عيون. وتطلع إلى أعلى، ليضمن أن أحداً لا يراقبه من النوافذ العليا.

ولما اطمأن إلى كل شيء، وقف وذرع المسافة بين جدار المستشفى والسور في خطوة أو خطوتين.

ولم ينس حكاية الحفرة.

رفع ساقه إلى أعلى متراً.

ووجد قدمه في هذه الحفرة تماماً، فاستند إليها وتمكن من الوقوف عليها، ممسكاً بأعلى سور المستشفى.

●●●

وكما فعل في المرة الأولى، كان عليه أن يفعل هذه المرة.

سكن قليلا، ليتبين مكانه قبل أن يخطو الخطوة التالية.

ووجد القاهرة مظلمه ظلاماً حالكاً في هذا الوقت من الليل، منتصف الليل.

فرضوا عليها هذا الظلام. لفوها في هذه الغلالة السوداء. إنهم هكذا لا يعيشون إلا في الظلام ! النور يفضحهم ويكشف نواياهم. ولكن هل يستطيعون أن يفرضوا هذا

الظلام فى الصباح؟ ستطلع الشمس بالرغم عنهم. ستحطم هذا الظلام. ستبدد هذه الهالة من الخوف والهواجس وأسرار الليل.

أين أنت يا "جلال"؟

هذا كوبرى قصر العينى. وعن يمين حى جاردن سيتى. كبار القوم يعيشون هنا حول سفارة الإنجليز، مقر الحكم الحقيقى. يحتضنوها حتى يشعروا دائماً بحرارتها ودفئها. اللئام. الكلاب. يتمتعون بلذة رائعة. فى بيوتهم نور يتوهج، تعزله عن الطرقات ستائر كثيفة تحجبهم عن كل شىء عن هذا الظلام. عن الحقد فى قلوب الرجال والنساء. عن احتقار الملايين لما هم فيه من لذة ومتاع. الآن يلعبون الورق. يقامرون ! كما يقامرون بحرية الأحرار ! كما يقامرون بحياة الشعوب ! الحرب مشتعلة، وهم الذين يديرونها ليتاجروا فى مصاير الناس ! تجار الدموع والدم ! ومع هذا فهم فى متاع. يأكلون ويشربون ويراقصون نساء عاريات الصدور !...كلاب !

لقد بدأت تتبين كل شىء يا ولد. أليست هذه سراى المنيل؟ قصر المنيل؟ إنها تبدو واسعة من هنا. كل هذا القصر، وكل هذه الحدائق، من أجل ذقن الباشا !! ولى العهد!! أى عهد أسود ! ألا تستحون يا فجرة؟! مئذنة الجامع ترتفع فى استعلاء إلى السماء، لتدارى ما فى القصر من عورات ! يالبراعة المضللين !

وهذه هى السيارة الحمراء.

إذن كل شىء حق.

●●●

ودار مرة أخيرة بعينيه هنا وهناك، فلما لم يجد أحداً يرقبه اعتلى السور، وقفز إلى الطريق.

ومرة ثالثة سكن فى مكانه لحظات، يرقب الطريق.

هكذا هو. علمته المحنة أن يحذر كل شىء لابد من هذا، فإن له من التجارب ما يحمله على هذا الحذر.

ومرت لحظات، فتبين سائق السيارة وسط الظلام.

وتبين كذلك أنه ينظر إليه بعين ملهوفة، كأنما يستحثه على الإسراع.

ومرق وسط الظلام إلى السيارة فأدار سائقها مفتاحها.

وقبل أن يمضى بها بعيداً، إلى مصير لا يعرفه.

وقبل أن تتحرك من مكانها، سمع صراخاً.

ووصلت إلى سمعه عبارات استغاثة خافتة أول الأمر، ثم ارتفعت هذه العبارات حتى أصبحت كطلقات النذير.

وكانت هذه العبارات مخنوقة بالنحيب والأنين.

وعرف صوتها.

الممرضة السمراء الرقيقة، التى خلفها وراءه، ملقاة على أرض الغرفة.

ونظر إلى جاره فى السيارة، فوجده يبتسم له فى ترحيب.

وانطلقت بهما السيارة، فى الظلام، تتابعها الصيحات البكر، ونشيج البكاء، والصراخ..كأجراس كنيسة مريم العذراء، وهى تدعو الناس للطهارة، والعبادة، والاعتراف بآثامهم أمام المحراب.

□□□

٣

ـ من؟..مستحيل ! أهو..أنت؟

ـ بل المستحيل الا أكون...أنا.

ـ غير معقول...كيف؟ كيف تركوك؟

ـ ومن قال إنهم تركونى؟ أنا الذى تركتهم.

ـ وكيف تمكنت من هذا؟ ...يا.. يا شيطان ! كيف جرؤت؟

ـ هل أردد ما كان يقوله "ممدوح"؟...

ـ ماذا؟ ماذا كان يردد؟

ـ عيناك...من أجل عينيك.

ـ مسكين "ممدوح" ! يا ترى كيف حالك، وأين أنت الآن؟

ـ سنرى.. سنعمل معاً من أجله، وربنا معنا.يرعانا.

ـ كنت تقول ...ماذا كنت تقول؟ هل كنت تردد كلمات "ممدوح"؟

ـ ...عن عينيك !

ـ وأطرقت فى خجل، وقد هزتها مشاعر الأنثى، ومضى هو يقول:

ـ ليتنى أستطيع. أنا لا أستطيع. أنت لى حرم. أنت "لممدوح" والذين يحافظون على شرف الوطن، ويضحون فى سبيل كرامته، لا يمكن أن يخونوا... أنا لن أخون "ممدوح".ولولا هذا...يا ربى ماذا أقول؟

ـ أعرف ما تريد أن تقول. لا داعى لأن تقوله.

ـ لأنه حق "ممدوح" صديقى، وأخى. "ممدوح" الإنسان، والبطل.

ـ لكن حدثنى ...كيف تمكنت من هذا؟

ـ لا ترفعى صوتك...إنى أسمع وقع أقدام.

ـ لا تخف من شيء أنت هنا فى أمان. ليس هنا خائن ولا جاسوس.

كل هؤلاء السذج البسطاء معنا. كلهم وطنيون.

●●●

إنها حكاية طويلة، ولم أكن بطلها على كل حال.

على أنها انتهت بى إلى هنا، حيث وجدتك، لأضع يدى فى يدك، ولنبدأ عملنا معاً، فى سبيل الوصول إلى "ممدوح"، ومحاولة إنقاذه بأية وسيلة.

وانا أعلم تمام العلم أن الدنيا الآن مقلوبة، تبحث عنى. إن فرارى بالصورة التى تمت ستثير السلطات التى لا هم لها إلا أن تحبس كل صوت حر، وتصادر كل حركة، وتتابع حتى الهمس ! تخاف من الهواجس، وتقلقها حتى الأحلام !

تذكرى ماذا فعلوه مع "سالم" تذكرى ماذا فعلوه مع "ممدوح". بل أين أبوك؟ أين ذهب كل هؤلاء؟ أين ذهب سواهم من الأحرار؟ قالوا عصاة ! بل قالوا خونة !! وأقاموا من انفسهم عليهم سجانين وقضاة، وجروهم جراً إلى مصير مجهول غامض. أصدروا عليهم الحكم، وهم يظنون أنهم بهذا يتخلصون من العصيان والخيانة ! وما كانوا يتخلصون إلا من أوهام أكلت صدورهم. وملأت نفوسهم بالرعب !

مساكين ! إنهم يا "مديحة" مساكين !

على كل حال، لقد دبرت الأمر، ورسمت طريقى.

انظرى ...هذه هى أسلحتى الجديدة.

لا تضحكى. لا لا. إن أحداً قد يندس بين أبناء هذا الحى، ويتنبه إلى وجودى هنا.

المسألة جد يا "مديحة". أنا أرجوك ألا تضحكى. وماذا يضحك فى هذا؟ أنا كنت أظنك قد تدربت على فنون الكفاح. تستطعين أن تضبطى أعصابك، وألا تستبد بك الخفة إلى هذا الحد ! لا "مديحة" ! كفى. وإلا والله أطلقت ساقى للريح وهربت. لكنى أحذرك. إنهم سيقبضون على، ويعيدونى إلى المعتقل. على أنى سأواجه هذه المرة، الهول. "مديحة"..."مديحة" !!

هل تعرفين يا "مديحة" أنك أبدع من حملته الأرض، وأنت تضحكين؟ اضحكى... إياك أن تكفى عن الضحك. إن التمتع بهذا الجمال، يساوى أى هول ينتظرنى. المعتقل هين، إلى جوار هذا الجمال، وهذه الفتنة.

إذن سكت ! عدت إلى شرودك الحزين.

أنا أعلم لماذا. لكن اعذرينى. لم يكن قصدى أبداً، أن أهيج شجونك،فإن هذا الجمال ليس من حق أحد إلا "ممدوح". لكنى لم أجد طريقة أسكتك بها، إلا هذه. سامحينى. اعذرينى.

لنعد إلى أسلحتى الجديدة، التى سأواجه بها كل السلطات.

هذه العمامة الخضراء، والجبة، والقفطان، واللحية المرسلة البيضاء، والمسبحة الطويلة، وعلبة النشوق.

هذه هى الأسلحة التى لن تقاوم.

سأدخل فى هذا الزى الآن، وأخرج من هنا كبيراً. ولياً من أولياء الله الصالحين. هادياً من هداة الله، وداعياً إلى طاعته ومرضاته. صدقينى إن أحداً لن يشك فى أمرى وسترين بنفسك.

وهذا زيك أنت. طرحة بيضاء ومسبحة ومبخرة، وعيون مسبلة فى تقوى وورع، وتمتمة خافتة لا تنقطع، بألفاظ غامضة مبهمة لا يتبين منها أحد شيئاً، ورقبة متحركة

دائماً كالدمية تتحرك بالزنبلك ذات اليمين وذات الشمال، فى نشوة الوصال بالله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام.

عدت إلى الضحك ! ..يا بنتى لا تضحكى ! قلت لا تضحكى !

أو فأضحكى يا بنتى. اضحكى يا "مديحة" يا أجمل ابتسامة على وجه الأرض.

كشفت اللعبة ! أليس كذلك؟ لم تعودى تعبئين بهذا الغزل.

لا يهمنى. سيريح قلبى أن أقول ما فى قلبى. ولن يهمنى أن تكشفى اللعبة أولا تكشفيها.

اضحكى يا "مديحة" يا أبدع مخلوق. ضحكاته أصوات البلابل، وتغريد العصافير.

اضحكى يا "مديحة" يا أروع لوحة تفنن فى إبداعها رسام.

اضحكى يا "مديحة" يا أمتع لحن عزفته آلة مرهفة حساسة.

اضحكى يا "مديحة" يا معنى الوجود فى شعور الإنسان.

اضحكى يا "مديحة" يا رقة الدنيا، وبسمة الأمل.

سكت مرة أخرى.

ومرة أخرى. أعذرينى. سامحينى.

هل نعود إلى موضوعنا يا شيخة "مديحة"؟

أنا من الآن سأصبح الشيخ "أبو عوف" وأنت الشيخة "مديحة" إلا أذا أذنت لى أن أغير اسمك.

- لكن أى اسم هذا؟

- وتقبلينه؟

- إذا أعجبنى.

- إذن لن أقوله.

ـ لماذا؟

ـ لأنه إذا لم يعجبك، فسأصاب أنا بصدمة تعصف بوجودى كله، وسيكون هذا فراق ما بينى وبينك.

ـ على هذا الحد يصل بك الأمر معها؟!

ـ إلى حد لا ينتهى...

ـ إذن قله، وسأقبله من أجلك.

ـ إنه "تفيدة".

ـ "تفيدة" الشيخة "تفيدة" ! هل تعلم أنه اسم جميل.

ـ إن كلمة جميل لا تكفى. إنها تتجاوز الجمال إلى شىء لم يخلق بعد يا "مديحة".

ـ عجيب !! و "أبو عوف" لماذا اخترته لنفسك؟

ـ لنفس الأسباب، التى اخترت لك من أجلها اسم "تفيدة".

ـ وطبيعى ليس من حقى أن أعرف هذه الأسباب.

ـ على كل حال...هى فى بساطة، أنهما اسمان يعمقان فى وجودى إلى حد بعيد. مظلومان يا "مديحة"، ذهبا ضحيتين بريئتين، لغير ما سبب، إلا أنهما عجزا عن المقاومة. ابتلعتهما فجوة فى الحياة، لا يتدحرج إليها إلا مظلوم، وكلنا مظلوم يا "مديحة".

ـ وهل تعرفهما؟

ـ كما أعرف نفسى. إنهما هنا، فى دمى، وقلبى، وشعورى.

●●●

وكانت لهما وقفة. عيناه فى الأرض، وقد اغرورقتا بالدموع. وعيناها فيه تحاول أن تنفذ إلى أعمق أعماق نفسه لتستشف ما فيها من أسرار.

ولم يدر فيما يفكر ! فيمن ! بأيهم يبدأ !

مسكين يا جدى. يا عجوز. يا مغلوب على أمرك. لقد مررت بالحياة، كالنسمة الرقيقة الهادئة، شموك حتى ملأوا منك صدورهم، ثم زفروك من صدور مسمومة مريضة، فكانت نهايتك.

ولم تفتح فمك يا مسكين، لم تقل حرفاً. لم تنطق ! وقابلت حتفك، كما عشت حياتك راضياً، قانعاً، حتى بالمأساة !

فيم كنت تفكر وأنت فى محنتك، بين جدران غليظة كالحة؟

وهل كنت يوماً يا جدى، فى غير محنة؟ وهل كانت حياتك يوماً، إلا بين جدران غليظة كالحة سوداء؟

لقد كان حتفك، خير حل لمشكلتك يا "أبو عوف" يا مسكين. ونهايتك الصامتة. ما كان أروعها !

أن رحيلك يا جدى، كان امتداداً لوجودك. لحياتك. فأنت عشت كالضمير مختفياً بعيداً عن الناس، وعن الحياة. ثم رحلت كالسر، مخيفاً أيضاً، حيث لم يشهد موتك إلا نفر قليل، هزوا رءوسهم احتراماً لرحيلك، ثم مضوا إلى ما كانوا فيه.

يا "أبو عوف" أنت لم تمت. إنك رحلت. غيرت جلدك. استبدلت حلة بحلة، وشكلا بشكل. من يدرى يا جدى؟ ربما كان هذا أكثر راحة لك ! ولعله يعفيك اليوم من الشوك الذى دسوه لك فى جلدك القديم ليمزقك. ومن النار التى أشعلوا بها حلتك القديمة لتحرقك. ومن الضغط الذى جعلوا به شكلك القديم، مسخاً مشوهاً غير مستقيم.

وأنت حى يا جدى الآن، برغم رحيلك الصامت الوقور. أنا شاعر أنك حى. أنا أراك الآن وأسمع منك. لكنك يا جدى لا تتحدث إلى كثيراً. أنت تكتفى كما اعتدت بابتسامة قانعة، تضىء من بين ظلمة النفوس، وظلم اللئام. وأنت تكتفى بنظرة حانية، عاجزة عن أن تكون كما تريد، قبلة من شفتيك المحرومتين، لحفيدك المظلوم مثلك. لقد كنت أحس

يا جدى أنك تكاد تمد شفتيك إلى خدى مثلا. وأن تمد يديك إلى شعرى. كنت تبدو كمن يتمنى هذا. ولكنك لم تكن لتستطيع، فكنت تمد شفتيك إلى فراغ وتمد يديك إلى حرمان، وتتركز كل مشاعرك يا مسكين فى عينيك.

الومض الرائع يا جدى، كان يضئ ظلمات قلبى.

البريق السحرى يا مسكين، كان يمكننى من الرؤيا، ببصيرة أحد من البصر.

هل تذكر يا جدى، كم كلمة تبادلتها معى؟ كلمات معدودات، ولكنها فى مقياس الحقائق، أخلد من معاجم الدنيا جميعاً. استوعبت كل معنى. شملت كل إحساس. احتضنت كل مشاعر البشر. ارتفعت عن كل ما فى الإنسان من غدر. تجاوزت كل ما فى النفس من ضعف.

إنى لأكاد أذكر هذه الكلمات كلمة كلمة.

إنها قاموسى الذى أرجع إليه فى كل معنى، يضيق به لفظى، أو ينوء به خاطرى.

أتذكر يا جدى أول مرة رأيتنى فيها؟

كانت مفاجأة أذهلتك، فأخرست لسانك .!.ولكنك كنت بليغاً ومؤثراً وانت أبكم لا تستطيع أن تتكلم !...

تقلصات وجهك السمح الطيب الكريم.

انفعالاتك الرائعة.

ومض عينيك النفاذ.

خلجات قلبك على شفتيك.

لحيتك المرسلة فى غير عناية، وكيف شاركت فى الانفعال.

أصابع يديك، وهى تدور حول نفسها، تفرك شيئاً فى قلبك تخفيه.

قدماك، وهما ترتفعان تارة، وتدبان حيث هما تارة أخرى.

ثم... الدمعة التى ترجمت كل ذلك فى تعبير صامت أبكم مذهل.

وقبل أن ينتهى الوقت المحدد للقائنا، انفكت عقدة لسانك.

وما هى إلا كلمة يا مسكين، ثم كان علينا أن ننصرف. أنت تعود إلى جدرانك الغليظة الكالحة السوداء، ونحن إلى مصيرنا الغامض المجهول.

أتذكر يا جدى ماذا كانت الكلمة؟...

"جلال"!! "جلال"!!..."جلال" !.. "جلال" !..ثم افترقنا يا جدى.

بل لم نفترق يا جدى. أبداً. لقد ظللت متصلا بك بعد ذلك، ولم أفترق عنك أبداً. ظللت بين جفنى، نائماً أو يقظان. ظللت بين جوانحى، وعقلى، وطفولتى وصباى وشبابى.

أنت حيث أنت، وأنا حيث أكون.

حتى الموت يا جدى لم يفرق ما بينى وبينك.

إنه رحيل لا أكثر من رحيل. ولا شك أنك تحررت بهذا الرحيل، وتخففت به من أثقالك.

تصور يوم أخذونى لك. لقد قالوا لى إننا ذاهبون لنراه. لنرى جدك. ولم أكن قد رأيتك. كنت سمعت عنك. ولم تكن فى ذهنى وخيالى، أكثر من رجل عجوز أشيب، يمنع الأطفال من اللعب، وينصحهم بالتعقل والحكمة. بل ربما تضرب وتقسو فى بعض الأحيان.

ولكن يا جدى رأيتك على صورة أخرى غير ما تخيلته عنك، وعن كل الحدود.

أنت شىء آخر. لقد وجدتك شيئاً آخر.

وجدتك روحاً، تفصح عما فيها فى صمت.

وجدتك قلباً، يخفق بكل مشاعر البشر.

وجدتك ...وجدتك جدى أنا. رباطاً وثيقاً يشدنى إلى الحياة. قسماً مقدساً من صنع الله. حقيقة ناصعة تتحرك فى نفسها بعظمة السكون، وما فى السكون من أسرار وأغوار ونظائر ومتناقضات وأشباه.

وأحسست على الفور، أن حياتى تبدأ منك، ولابد أن تدور حول المعانى الرائعة التى يحتويها وجودك الكبير.

وتغيرت نظرتى إلى الدنيا. وإلى الناس.

لم تعد الحياة لعبة نلهو بها، ولا متعة نحظى بها. لا إنما هى حقيقة يجب أن ندركها فإن أدركناها تشكلت حياتنا بشكل يختلف عما ألفه الناس.

آه لو فكر الناس يا جدى.

آه لو أدركوا مثلما أدركت بعد لقائك، أن الجوع قد يكون أعز - بل هو أعز - من لقمة عيش ننتزعها من فم محروم ! وأن العطش قد يكون أكرم - بل هو أكرم - من شربة ماء نمنعها عن ظمآن ضعيف ! وأن العرى قد يكون أفضل - بل هو أفضل - من قطعة قماش نسلبها من مريض يفتك به البرد والهجير !

آه يا جدى لو أدركوا أن فى الحياة أشياء أخرى ممتعة، غير الطعام والشراب والملبس، وادخار الأموال والجرى وراء الجاه والنفوذ !

آه لو أدركوا أن كل ما يسعون إلى أن يحققوه لأنفسهم من مكانة بين الناس ليس إلا زيفاً، وكل ما يتصارعون ليصلوا إليه من سلطان، ليس إلا سراباً ! لكنهم إلا زيفاً، وكل ما يتصارعون ليصلوا إليه من سلطان، ليس إلا سراباً !

لكنهم يا جدى لا يعرفون. لا يدركون. وإلا عاش الناس فى حقائق أجمل وأرحب مما فى نفوسهم من ضيق.

●●●

وفى المرة الثانية التى لقيتك فيها يا جدى، والتى عشت لها ومن أجلها،أعد لها، الأيام والليالى...فى تلك المرة، وجدتك متطلعاً شغوفاً، كأنما كنت مثلى تعد للقائى ما عددته للقائك.

على أنك عدت إلى الانفعال نفسه، والتأثر البالغ، ولم تقل أكثر من كلمات:

"جلال" ..."جلال" ...كيف حالك يا "جلال"؟

وسكت يا جدى يا مسكين..وعدت إلى انفعالك العميق مرة أخرى. قلت لجدتى المسكينة، وخالتى المهدمة:

يا "أم الهنا" ضعيه فى عينيك. إنه الذكرى الحبيبة، لابنتنا "تفيدة" وأنت يا "مفيدة" هذا عزاؤك عن أختك، الله يرحمها. أختك "تفيدة" يا "مفيدة" لن تنسيها أبداً. أنا أعلم هذا. أنا واثق من هذا. "جلال" ابنها يا "مفيدة".

وسكت يا جدى.

سكت أنت، لأبدأ أنا الأحاديث مع نفسى، ولأدير فيما بينى وبين نفسى مناقشات كالنار. كالسهام. كالعاصفة. تكاد تقتلعنى من مكانى فى هذه الدنيا اقتلاعاً.

وفى مرة أخرى يا جدى وكنا قد بدأنا نتقارب، ونتآلف. لم أعد غريباً عنك، ولم تعد غريباً عنى. لم يعد ذهابى إليك مفاجأة تذهلك، ولم يعد منظرك حيث كنت، مفاجأة تخيفنى.

حينذاك ابتسمت لى وأنت تنظر إلى.

ما كان أحلاها ابتسامتك! كانت أيضاً صامتة كشعورك!

ومرة بعد هذا ظهرت مكتئباً حزيناً. ماذا كنت تعانى يا جدى؟ أتذكر أنك اكتفيت يومها بأن قلت لى إن أمى ماتت مظلومة أمام عينيك. خطفوها منك. دفعوها إلى الماء أمامك. وإن آخر ألفاظها كانت نداءات باسمك لتنقذها، ولم تكن تستطيع أن تنقذ حتى نفسك!

اتذكر يا جدى؟ أتذكر أنك هززت وجهك وأنت تؤكد لى أنها ماتت طاهرة، كما عاشت طاهرة، وأنهم قد ظلموها. لوثوها. لطخوها، ليبرروا جرمهم. وحذرتنى أن أصدق أى كلام يقولونه.

كانت كمريم العذراء يا "جلال".

ولم يزدها زواجها من أبيك، إلا عذرية على عذريتها. صدقنى يا "جلال". صدقنى فأنا الشاهد الوحيد الذى حضر المؤامرة وقبلها. استسلم لها. وليتنى كنت قادراً على أن أدفع حياتى لتعيش أمك. ولكن حياتى لم تكن تساوى شيئاً. حتى الآن حياتى لا تساوى شيئاً.

البركة فيك أنت يا "جلال" لقد عشت من أجلك. كنت أنوى أن أرمى بنفسى فى الماء لولا صيحاتك الرضيعة، فأدركت أن هناك نداء خفياً ينادينى لأعيش...أو لأموت موتاً بطيئاً متثائباً !

فى تلك المرة يا جدى، ظهرت كما لم تظهر لى أبداً.

كان وجهك شاحباً، ولكنه كان مضيئاً. كان يبدو وحوله هالة من النور والصفاء.

وكان النور حول وجهك أخاذاً يا جدى، حتى لم أستطع أن أتبين ملامح وجهك. لقد ظهر لى وجهك كالمعنى الرصين. كالحقيقة.

ثم لم نلتق بعدها أبداً. أعنى لم تلتق أجسامنا بعدها، وإن لم تفترق أرواحنا أبداً.

●●●

أنت لا تدرى بعد هذا ما حدث. أنا أرويه لك، كما رويته لك من قبل مئات المرات كلما خلوت إلى نفسى.

لقد خرجنا ثلاثتنا من السجن. وكف من كفى فى يد جدتى، والكف الأخرى فى يد خالتى.

أحاطتانى بما كانت تملكان: نفسيهما.

وما أن خطونا إلى الخارج، حتى صاحت جدتى وهى تمسح دموعها:

ـ سمعت يا "مفيدة" سمعت أباك؟

ـ نعم يا أمى سمعته.

ـ ولماذا لم يقل هذا فى التحقيق وفى المحكمة؟ لماذا ظل صامتاً لا يتكلم، وهم يتهمونه بأنه هو الذى قتلها، دون أن يرد. بل لماذا اعترف بجريمة لم يقترفها؟

ـ كان يا أمى خائفاً منهم.

ـ وبعد السجن خوف يا "مفيدة"؟ ما بعد روحى روح !

ـ يمكن خاف علينا نحن.

ـ خاف علينا !! ويدفع هو هذا الثمن يا بنتى ! ألا ترينه؟ ألا ترين شحوب وجهه؟ ألا ترين نظراته الغائرة؟ الرجل مريض. الرجل مرهق. مسكين يا زوجى يا حبيبى. ليتنى أستطيع أن أفديك. ليتهم يضعوننى أنا فى السجن، وتخرج أنت تشم نفسك، ولو قليلا، حتى تستعيد قواك. طول عمره يا "مفيدة"، هكذا لم يعرف يا عينى الراحة يوماً. جرى حتى كل وراء لقمة العيش، ليوفرها لنا، ثم كان نصيبه هذا السجن. لا يا "مفيدة". وحياة رأسك يا "أبو عوف" لن أسكت.

ـ وماذا نستطيع أن نفعل يا أماه؟

ـ نفعل كل ما نستطيع يا "مفيدة" أى شىء كل شىء لقد بذل لنا حياته. لقد دفع لنا عمره، وهو اليوم يدفع لنا حريته. المسكين رفض أن يتكلم. آه لو تكلم من يومها ! آه لو علمت بهذا يومها ! والله يا بنتى أنا كنت أحس هذا. كان فى قلبى شىء يحدثنى أن هناك سراً يخفيه عن الدنيا كلها. أخفاه ليحمينا. ليحمينى ويحميك. إنه يعرف ماذا كان يصيبنا لو أنه تكلم. لكن لابد من عمل أى شىء من أجله.

ـ وتظنين يا أمى أن من الممكن أن ...

ـ ليت يا بنتى. يا نهار أبيض، يوم أن يخرج حراً بريئاً ليعيش معنا يا "مفيدة" !

ـ لكن ...كيف؟..كيف يمكن هذا؟ هل يمكن هذا؟

ـ ربنا موجود يا "مفيدة" نحاول. نعمل كل شىء أى شىء.

ـ نعمل ماذا يا أماه؟

ـ نذهب إلى مأمور السجن نقول له إنه برىء وإنه كان يدارى سراً لم يقله لنا إلا اليوم.

ـ ويخرجه المأمور يا أمى؟

ـ لا أدرى يا "مفيدة".

ـ إذن نذهب إليه الآن...الآن..نعود الآن إليه.

ـ ويقابلنا تظنين؟

ـ يمكن يكون فى قلبه رحمة ويقابلنا.

●●●

وسحبتانى يا جدى ...وعدنا جميعاً ـ ثلاثتنا ـ إلى السجن. كفى فى يد جدتى، وكفى الأخرى فى يد خالتى.

وعلى الباب استوقفنا الحارس يا جدى، ولم تهز عبارات جدتى فيه شعرة.

ـ والنبى يا شاويش. المسألة مهمة وخطيرة. هنا مظلوم فى السجن، والمأمور لا يرضى أن يبقى فى سجنه مظلوم. هنا رجل تعس، أنكر الحقيقة فثبتت عليه التهمة. هنا إنسان يتعذب ولا يتكلم. هنا رجل ..هنا ... هنا زوجى.

ـ وما شأن حضرة المأمور بهذا؟ هل جننت؟

ـ حضرة المأمور هو حضرة المأمور. هو المسئول عن السجن. عن كل واحد فى السجن.

ـ اذهبى إلى المحكمة أو النيابة. أما هنا فلا شأن لحضرة المأمور ولا لأحد بهذا.

ـ المحكمة ! النيابة ! يقول المحكمة يا "مفيدة" !

ـ نذهب إلى المحكمة يا أماه.

- يا مغفلة المحكمة تحتاج إلى مصاريف.

- أية مصاريف يا أمي؟

- المحامي..من أين لنا أجر المحامي؟

- نذهب بلا محام.

- هل جننت يا بنت؟ نذهب إلى المحكمة بلا محام؟

- وماذا فى هذا يا أماه. نحن قوم فقراء ومساكين. ألابد من محامي؟

- نحن لا نعرف باب المحكمة. نحن لا نستطيع مقابلة حضرة المأمور. وتريدنا أن نذهب إلى المحكمة بلا محام؟ أنت مجنونة.

- نجرب يا أماه. نجرب. أبى مسكين يا أماه. يا ترى يا أبى ماذا يفعلون بك عندما تشتد عليك حالة الربو، أو عندما تصاب ببرد. أنا أعرفك يا أبى لا تتحمل آلام المرض، وقد كنا كلنا حولك نحاول أن نخفف عنك. أما فى سجنك يا أبى، فمن الذى يرعاك؟ مسكين يا أبى. أبى يستحق كل شيء يا أماه. والنبى نجرب. نذهب إلى المحكمة ولعل الله أراد بنا خيراً. يخرج أبى ليعيش معنا. أنا أصوم يا أمى وهو يأكل. أربط بطنى بحزام، وهو يأكل أماه. والنبى يا أماه.

وأخذت جدتى وخالتى تبكيان يا جدى، فى صمت. تنحدر من عيونهما الدموع فى أسى مر. ولم أملك نفسى يومها. بكيت معهما، أحسست أنك محتاج إلى كل دمعة تذرف. إلى كل آهة. إلى كل زفرة. شعرت أن ذلك يؤنس وحشة نفسك، ويضيء ظلام سجنك.

●●●

مسكينة جدتى كانت تعمل فى أحد البيوت، من الصباح إلى المساء، وإلى وقت متأخر جداً من الليل فى كثير من الأحيان. كذلك كانت خالتى. وكانتا تتركانى وحدى فى رعاية جارة عجوز، لا ترى ولا تسمع. سلبها الزمن البصر والسمع جميعاً، ولكن لم يسلبها

الحنو والعطف والاهتمام بأمور الجيران، حتى الجار السابع، كما أوصى بذلك النبى عليه الصلاة والسلام. وكنا نسكن حجرة صغيرة جداً، فى أحد البيوت. فى بدروم مظلم، لا تدخله شمس ولا هواء.

وكنت أحس أنى محتاج إلى بعض الشمس وبعض الهواء، والحرية. وكنت أغافل الجارة العجوز وأخرج إلى الطريق، أرى الناس، والطرقات، والسيارات، والزحام، وباعة ترتفع حناجرهم بصياح، وأفندية يتراصون على المقاهى، وبنات يحزمن أجسامهن فى فساتين ضيقة، ويبتسمن لعبارات الغزل.

على أنى كنت أخاف على العجوز التى تطوعت برعايتى، فسرعان ما كنت أعود، لتطمئن إلى أن وديعتها لم يمسها سوء. فإذا غلبنى النعاس، نمت فى حجرها. ولكم كانت إنسانة هذه الجارة العجوز وهى تضمنى إليها، والله يعلم أنها ما ضاقت بى يوماً. كانت تجلس الساعات فى مكانها هذا المظلم، حتى لا توقظنى من نومى.

وعندما كانت تعود جدتى من العمل، أو خالتى، كنت أقفز من فرحتى، فقد كانتا هما حياتى. من كان لى يا جدى سواهما؟ ولقد كانتا تحرصان على أن تحضرا لى كل مساء شيئاً آكله. على أن هذا لم يكن سبب فرحتى بقدومهما، أو قدوم واحدة منهما. الله يعلم يا جدى أننى كنت أشعر بفراغ ثقيل وهما عنى بعيدتان.

ولقد كنا نجلس فى الحجرة الصغيرة الضيقة، نضيئها بمصباح الغاز.

وكانت جدتى تقول:

- تماماً كما كنا أيام الهنا. كان أبوك يا "مفيدة" يجلس بيننا هكذا.

كأن "جلال" هو أبوك.

وكانتا تحكيان ما حدث لهما فى يومها الطويل.

●●●

مسكينة جدتى. لقد رايتها من قبل مرات عديدة، تتكفىء على وجهها، على أرض الغرفة وترسل دموعها صامتة محمومة. كانت تظن أنى نائم، ولكنى لم أكن أشعرها بأنى يقظان، لأترك لها فرصة البكاء. البكاء يا جدى حرية.نعم نوع من الحرية. إنه تعبير عما فى النفس من ألم. الدموع كلام. غناء. لا أدرى لماذا كنت أحس هذا. ولكنى ولدت فى مأساة.

ماذا كنت أرويه لك يا جدى؟ ... نعم جدتى ودموعها الصامته المحمومة، وشهقات منتجة تقطع بكاءها بين الحين والحين. لقد تغيرت جدتى. لم تعد تبكى. لم تعد تتكفئ على أرض الغرفة لتبكى. لم تعد تشهق شهقاتها المتقطعة وهى تبكى. لقد بدأت تجوع جوعاً حقيقياً. لم تكن تأكل إلا كسرة جافة من الخبز كل صباح وفى كفها بعض من الملح. لم تعد تشترى شيئاً قط. وأخذت تطيل السهر، بعد أن تعود، لتغسل كل يوم كوماً من الملابس تحضره معها.

وأخذت أعجب مما أراه من هذا التطور. إنى أعلم أن المسكينة تعمل طول النهار وقد يمتد بها العمل إلى وقت متأخر من الليل. ثم هى تعود لتستأنف العمل بلا انقطاع. وكنت أظن أول الأمر أن هذه الملابس من البيت الذى تعمل. فيه، وأنها لم تسطع إنجاز واجباتها فأحضرتها معها. ولكن تكرار سهرها أقلقنى لا يمكن أن يكون هذا إتماماً لواجباتها هناك.

وعلمت يا جدى من كلامها مع خالتى، أنها ملابس زبائن آخرين. لقد اتفقت مع الكواء القريب، على أن تمر به ليعطيها ما يكون لديه. هذه الملابس التى يرسلها إليه زبائنه. تقوم جدتى بغسلها، حتى إذا ما أصبح الصباح أعادتها إليه نظيفة. ويدفع الكواء لها نظير هذا الكد المتواصل خمسة قروش كل يوم تشترى منها صابونة بقرش أو قرشين وبهذا تضيف إلى دخل الأسرة جنيهاً كل شهر. أما الجوع الذى التزمته، فذلك كان سراً كتمته حتى عن خالتى، حتى لا تقلدها وهى تؤثر أن تقاسى هذا الهلاك وحدها.

وكانت خالتى تساعدها فى بعض الليالى، ولكنها كانت تنام فوق الغسيل، فتهب جدتى لتربت على كتفها فى حنان، وتمسح شعرها، كما تلعق القطة أولادها، وتمددها فى مكانها فى الحجرة، وتكمل هى المهمة، ولو اقتضتها السهر حتى مطلع الفجر.

جدتى يا مسكينة !... يا جدتى نامى يا جدتى ! يا جدتى أريحى جسدك، يا جدتى إنك تهلكين قواك ! نامى قليلا. فإنك تعتصرين الحياة من فرط ما تبذلين من جهد.

ولكنها لم تكن تنام. ومن خلال بصيص ضئيل من نور المصباح، كنت أراها كالخيال، تعلو وتهبط أمام طشت الغسيل، لا تتوقف إلا لتستأنف العمل. وكثيراً ما كان يطلع عليها الفجر، قبل أن تتمدد إلى جوارنا، فسيخة هامدة ! وكثيراً ما كان يخبو ضوء المصباح ولا تخبو هى، مع هذا الضوء المجهد ! وكثيراً ما كانت قطعة الصابون تتضاءل بين أصابعها، ولكنها هى تزداد إصراراً - برغم هذا - على إنهاء ما بين يديها من قطع الغسيل !

وكنت أشاركها هذا الضنى يا جدى، وأنا بين النائم واليقظان، وأدرك بغريزتى أنها تعمل ذلك كله من أجلك. لتحررك من محنتك. لتستردك من بين الجدران الغليظة التى تطبق على أنفاسك كالكابوس. لتنتزعك من بين الأنياب المتوحشة التى تنهش فى قواك.

المحكمة تتطلب مصروفات. المحامى يريد أجراً. لا وسيلة إليك حيث أنت، إلا عن طريق المحكمة والمحامى، والمصروفات الباهظة التى تحتاج إليها القضية. إن الأمل العزيز يا جدى لا يأتى مصادفة إنه يحتاج إلى جهد عزيز مثله. والذين لا يستطيعون أن يبذلوا هذا الجهد، من الخير لهم ألا يتطلعوا إلى هذا الأمل.

على أنى بدأت أراك يا جدى من نافذة أخرى.

بدأت أراك من خلال العرق، الذى كان يتساقط من وجه جدتى، كما تتساقط رقائق الشمعة على جنباتها، من لسع النار.

بدأت أراك من بصيص النور الخافت الذى كانت ترى من خلاله أملا رائعاً يتراقص بين عينيها وهى تعكف على عملها.

بدأت أراك تتطلع إلينا وترقب سلوكنا وفى عينيك حسرة وألم.

بل بدأت أسمعك تقولها معى لجدتى:

نامى يا "أم الهنا". لا تتعبى نفسك من أجلى. إنك تضربين رأسك فى الصخر. خير لك أن تنصرفى عنى إلى ما هو أفيد لك ولحياة الأسرة المنكوبة.

ولكنها لم تسمع. لم تصدق. لم ترد يا جدى أن تسمع أو أن تصدق.

وخطر لى وأنا بعد طفل صغير، أن أقول لها ما كان يتردد فى خيالى عنك وعن رغباتك، وكيف أنى أسمع فى يقظتى ومنامى هاتفاً يهتف بى أن قل لها تكف، وأن هذا الهاتف هو أنت. ولكنى كنت أخاف عليها أن تتحطم حياتها لو تحطم الأمل الباقى بين عينيها وفى وجدانها. وهدتنى غريزتى الصغيرة إلى أنه خير لها أن تذوب على مهل من كثرة ما تدفعه من ثمن على أن تتناثر دفعة واحدة من هول الانفجار.

مسكينة جدتى ! لم تطق صبراً على الانتظار.

سحبتنى يوماً من يدى، وذهبت إلى مكتب محام. وأخذ عقلى يصور لى هذا المحامى، ونحن فى الطريق إليه، صوراً مختلفة.

ما هذا المحامى؟ كيف يكون شكله؟

رجل مثل كل الرجال الذين نراهم فى الطريق؟

لكن لابد أنه مارد جبار ! إنه سيخرج جدى من السجن ! سيحطم أبواب السجن، ليخرج جدى برغم القيود والسلاسل والأغلال، وبرغم أنف كل السجانين !

إن الجنى لا يقدر على هذا، ولكنه سيقدر ! هكذا تقول جدتى ! ولكن هذا المحامى سيمتص حياة جدتى !

إنه لن يفعل هذا المعروف لوجه الله. إنه سيأخذ أجراً كبيراً. إنه هو الذى جعلها تتفق مع الكواء المجاور على أن يرسل لها الغسيل، لتعكف عليه كل ليلة حتى توفر للمحامى أجره. بل إنه هو الذى دفعها إلى أن تجوع، لتوفر أجره من قوت يومها. من الكفاف الذى يبعد عنها شبح الموت.

وأخذت أدير عنه الصور، فأحبه حينما أعرف أنه وحده الذى يستطيع إنقاذ جدى، وأكرهه حينما أعرف أنه هو أيضاً الذى يفتك بجدتى.

وبدأت أسال نفسى:

هل لدى المحامى قوة كبيرة، يقتحم بها السجن، ليخرج جدى؟ هل لديه ضابط وعساكر وسلاح؟ هل هو شىء كالزناتى خليفة مثلاً؟ وهل يغلب كل هؤلاء الحراس؟ لابد أنه ضخم قوى فز ! لابد أنه سيأخذ هذا الأجر كله ! الليالى التى تسهرها جدتى، سيبتلعها كلها ! الثلاثة القروش، أو أكثر أو أقل، التى توفرها كل ليلة، ستذهب كلها إلى فمه ! لكن لابد له من هذا، وإلا فكيف ينتصر على الحكومة؟ كيف يغلب كل هؤلاء الحراس؟ كيف يخرج جدى من السجن؟ فإن ماتت جدتى قبل أن يشبع، فماذا يكون الحال؟ ستكون أنت فى السجن يا جدى، وستذهب هى إلى "سيدى الذكيرى". لكن هل هنا أيضاً سيدى ذكيرى؟ الله !! لابد أن يكون هنا سيدى ذكيرى ! الناس لا يدفنون إلا عند سيدى الذكيرى ! أين يدفنونهم إن لم يكن عند سيدى الذكيرى؟!

آه يا جدتى !.. لا. لا تموتى يا جدتى. إياك أن تموتى !

إنى لا أعرف إلى أين أذهب إذا مت؟

وخالتى "مفيدة" ماذا تفعل إذا مت؟

لا يا جدتى...حرام عليك يا جدتى... عودى بى إلى البيت يا جدتى. دعى المحامى، الذى قد يقتلك يا جدتى. أما جدى فقد أدركنا مصيره. واما أنت، فأبقى لنا أنت يا جدتى. لا تتعلقى بأمل قد يذهب بك بعيداً عنا يا جدتى.

على أنى أمسكت لسانى، وأمسكت كذلك دموعى، واكتفيت بأن أخذت أضغط على كفها فى حرص عليها، وتمسك بها. لم أكن أملك إلا هذه الوسيلة، للتعبير عما يسكن قلبى كالجنين ! وما يتعلق على لسانى كالحجر! وما يترجرج بين جفنى كشواظ النار !

●●●

لكن هل هذا كله مكان المحامى؟

هذا البناء الضخم، من أبنية دمنهور...كله له؟

إنه أعلى من السجن !

لابد أن المحامى إذن أقوى من مأمور السجن !

بل لابد أنه سيغلب مأمور السجن، ويخرج جدى إلينا !

هذا الباب واسع جداً، لا ندخل إليه، بعد أن تحنى جدتى قامتها، كما تفعل كلما أرادت أن تدخل حجرتنا الصغيرة. كذلك تحنى خالتى قامتها، وإلا اصطدمت بأعلى الباب.

أنت فقط يا ولد، الذى تدخله رافع الرأس، تلاحظ الآخرين يطأطئون رءوسهم وتتمنى أن تكبر. لكن هل تطأطىء رأسك يومها مثلما يفعلون؟!

وتحنى قامتك؟!

إن لم يكن غير هذا سبيلا إلى الدخول فلم لا؟

إن لم يكن غير هذا دليلا على أنك كبرت، وأصبحت مثل الكبار، عليك أن تتحنى... ! فلم لا؟..

بل لا. لا يا "جلال"، وما حالك هذا الذى أنت فيه، إلا لأنك لم تتحنى..بل لا تريد أن ينحنى آخرون سواك.

لكن لماذا تقفز هكذا؟ لقد كنا على باب المحامى. الباب الواسع جداً، العالى جداً، الذى يتسع لدخول كل الناس فى وقت واحد، رافعى الرءوس.

مقدمة لا بأس بها للمحامى، وتقديم بديع له.

إن الباب العالى الواسع، يقودنا إلى دهليز أبيض مضىء، وأرضه ليست كأرض منزلنا مترية، نرشها كل حين وحين بالماء، لينام عنا التراب ويستريح. ولكنها أرض ملساء، مقسمة تقسيما جميلا متناسقاً وملوناً. هذا مربع أبيض، وذاك أحمر، والثالث أصفر.

آه لو أن الأرض عندنا هكذا، فى فناء البيت، أو فى الحجرة. إذن لفرحت بها فرحاً شديداً، ولفكرت كثيراً فى استعمالها طول النهار لألعاب لا أعرفها. ولأعفيت والله جارتنا العجوز من البحث عنى، والانزعاج على، لأنى حينئذ لن أبرح الحجرة أبداً. سأعد

طول النهار القطع البيضاء، ثم الحمراء، ثم الصفراء، وأجمع كل هذه القطع، ولن يضايقنى أن أكرر هذا مرة ومرة ومرات.

لقد كدت أفلت من يد جدتى، لأفعل هذا أول مرة دخلت فيها دهليز المحامى.

ثم سأحاول شيئاً آخر. أن أسير قدماً بقدم، على كل واحدة منها، حتى لا أفقد لذة مصافحتها جميعاً بقدمى.

كيف سيكون منظرى ساعتها؟!

لكن هذه درجات واسعة بيضاء.

إنه سلم جميل جداً، وله حاجز من حديد، تعلوه طبقة من خشب ناعم. لو أكمل الله علينا نعمته، فأعطانا هذه الأرض، وهذا السلم أيضاً ! هنا يتم كل شيء كما أريد ! أقفز مرة درجات السلم، وأتدحرج مرة ثانية على هذا الحاجز. ولن أتثاءب طول النهار، أو أتسلل إلى الطريق، لأرى زحام المارة، والعربات الكارو، والباعة يصيحون بأصواتهم العالية على بضاعتهم، أو أرتمى فى حجر الجارة الطيبة، حتى تعود جدتى من عملها، أو خالتى، أيهما أسبق.

لماذا يا جدتى تشدينى هكذا.

اتركينى أتطلع إلى هذه المفاتن الجميلة.

اتركينى أرى هذه الأشياء الغريبة.

لماذا لا تتركينى وحدى هنا، ثم تعودين بعد ذلك لتأخذينى إلى حيث تشائين؟

لقد ارتفعنا عن الأرض، وما زلنا نرتفع. هل نظل نصعد ونصعد هكذا؟ أين الأرض الآن؟ لابد أنها منخفضة جداً ! لابد أن رأس الإنسان تدور لو أنه نظر إليها ! هل سنصعد هكذا حتى نصل إلى السماء؟ ألا تقولين لى يا جدتى؟ هى ذى تتوقف ... هى ذى تقف تتطلع ذات يمين وذات يسار...هى ذى ترى أضواء تنبعث من باب مفتوح، وتسمع أصواتاً مختلطة عالية، تتردد ..هى ذى تدخل من هذا الباب.

ماذا يا جدتى؟ أهنا المحامى؟

إنه صقر يا جدتى، لا يعيش إلا فى القمم، يتطلع إلى الأرض فى توثب، وينتظر الوقت المناسب للانقضاض !

هل ينقض من هنا على السجن ليخرج جدى؟ ليخلصه من همه، ومن مرضه، ومن الظلام الذى يعيش فيه؟ هل ينقض على المأمور والعساكر، فيغلبهم جميعاً، من أجل جدى؟

والله يستحق هذا السهر الطويل ! يستحق أن نجوع كلنا، لتمكينه من هذا الانقضاض!

هيا ...انقض عليهم الآن يا محام ! يا صقر العلا ! انقض عليهم قبل أن يستعدوا لك!

لكن ليس هنا محام ! المكان خال إلا من بضعة مقاعد خشبية متناثرة هنا وهناك، فى قاعة فسيحة، أرضها كأرض الدهليز ناعمة ملساء، مقسمة أقساماً جميلة ملونة.

آه..ها هو ذا قادم ! من؟ هل هذا العجوز هو المحامى؟

لا يا جدتى. أنت أخطأت الطريق بلا شك.

المحامى يرتدى جلباباً مثلنا؟

المحامى طربوشه هكذا كالح مطبق؟

المحامى يرتدى هذا الحذاء المريض المتعب المرقع؟

المحامى يدخن أعقاب السجائر كأولاد الشوارع الذين أراهم يتسكعون هنا وهناك؟

يا جدتى عودى بنا !! هذا خطأ. أنت طيبة، ولا أريد أن أقولها. أنت مغفلة. عودى بنا.

أتسمعين الرجل وكيف يسعل من حذائه المرقع، فتصدر عنه أصوات مرقعة كحذائه؟!

أترين وجهه الشاحب المجعد كالأرض المشققة أيام التحاريق؟!

أترين عينيه الباهتتين كبعض قطع الغسيل المهلهلة التى تسهرين عليها لياليك؟!

يا جدتى عودى بنا !!

إنه ينظر إليك فى غير مبالاة أو اهتمام ! كأنك جزء من هواء المكان لا يلفت وجودك نظره على الإطلاق ! كأنك - وأنا معك - جزء من فراغ المكان !

لكنك تسألينه عما إذا كان هذا هو مكتب المحامى، فيرد عليك فى جفاف.

- نعم إنه مكتبه.

- إنى أريده. أريد أن أقابله.

- مرة واحدة !

- ألا يقابل الناس؟

- نعم يقابل الناس..!!

- يا رجل قل لى بلا لف أو دوران. اريد أن أقابله.

- لماذا؟ هل لك قضية؟

- نعم عندى قضية هامة جداً.

- قتلت زوجك؟

- أعوذ بالله. كلامك كالطوب النىء.

- ضبطوك تهربين حشيشاً؟

- يا نهار أسود ! أنت رجل نحس، لا تستحى.

- سرقت شيئاً من البيت الذى تخدمين فيه؟

- عيب يا رجل ! أنا أضيف إلى من أعمل عنده، لا أنقص.

- أذهبى يا امرأة إلى محام صغير، تحت التمرين.

- ماذا تعنى؟ إن قضيتى هامة جداً.

- ولكن الأستاذ يا بنت خالى، أتعابه غالية جداً. إنه شئ آخر.

- كم مثلاً؟

- بكم تعملين فى الشهر؟

- بجنيه فى الشهر، غير أكلى وشربى.

- اضربى ما تكسبينه كل سنة فى عشرة على الأقل، هل تعرفين الحسبة؟

- يعنى كم؟

- يعنى عشر سنوات من عمرك. من عرقك. من عملك. من دخلك. عشر سنوات.

- عشر سنوات؟!!

- إذا ترفق بك.

- فإذا لم يترفق؟!

- قولى عشرين. ثلاثين. إن عشت!

- لكن لماذا؟

- لأن هذا قدره. اكبر محام فى البلد. ماذا تظنين؟

- ولكن القضية هامة جداً.

- لا يهم هذا. المهم أن تكون الأتعاب عالية جداً.

- لكنه محام. ألا يهمه أن يثبت الحق؟

- كله بثمنه..

- حتى الحق!!

- كل شئ بثمنه حتى الحق!

ـ والباطل أيضاً ـ هل بثمنه؟

ـ ماذا تعنين يا امرأة؟

ـ إذا دفع الباطل أتعاباً أكثر، فماذا يكون الحال؟

ـ يصبح الباطل حينئذ هو الحق !..

ـ هكذا يا رجل يا عبيط !

ـ أنا عبيط ! أنت مغفلة !

ـ هل يعمل المحامى بهذه الطريقة؟

ـ كلهم يعملون هكذا . أرينى واحداً يعمل على غير هذا الأساس؟

ـ ولماذا تعمل عنده؟

ـ لأعيش يا عروسة !

ـ وتعيش من الباطل؟!

ـ أنا الباطل نفسه. أنا الدليل على هذا الباطل.

ـ كيف هذا؟

ـ كم تعطيننى من السنين؟

ـ ستين؟

ـ بل ثمانين. أعطنى ثمانين وأنت مطمئنة. منها أربعون عاماً قضيتها هنا. نصف عمرى يا بنتى. علمته فيها كل شىء. جلبت له الحظ والسمعة والصيت.

عرفته كيف يكسب ويغتنى. فهل زاد مرتبى قرشاً؟ أبداً. هل رفعنى بالقدر الذى رفعته أنا؟ أبداً. بل على العكس أتى بغيرى ليصبح رئيساً على. ليتحكم فى. ليأمرنى وينهانى كأنى لست أنا "أبو المعاطى" الذى فتح له هذا المكتب وهيأ له هذا النجاح، بل والله أنا الذى اخترت له امرأته، ولولاى لوقع فى شر أعماله ولم يجد من يأخذ بيده.

ـ ولكن قضيتى شىء آخر. إنها قضية زوجى المسكين.

ـ كلهم مساكين. لست وحدك يا عروسة، التى تعتقد أن زوجها مسكين. كل زوجة تفعل هذا، حتى زوجات القتلة والسفاكين.

ـ ولكن زوجى لم يقتل.

ـ أعلم هذا. سمعته مليون مرة، ولكنى سئمت هذه القصص، ولم أعد أهتم بها.

ـ أذكر لك أن زوجى لم يقتل. هل هناك من يقتل ابنته؟

ـ كثيرون. أنا شهدت منهم مئات طوال عمرى. لا تحاولى أن تضحكى علىّ، فأنا رجل مجرب.

ـ أنا لا أضحك عليك. والله إن الذى أقوله لك هو الحق.

ـ وما لى أنا وهذا الموال؟ هل أنا الأستاذ؟ عندما توفرين الأتعاب تعالى واحكى له هو، وسيتظاهر بأنه يصدقك، ليأخذ منك ما يستطيع أخذه.

ـ والله العظيم أنا أقول الحق. "أبو عوف" زوجى لم يقتل.

ـ إذن كان يجرب سن السكين !! كان يتدرب على الرماية !! كان يمزح بالنار !!

ـ يا رجل يا عجوز حرام عليك.

ـ حرام على القاتل، وأنا هنا فى حالى، لا أعرف القتل، ولا أصدق الأيمان مهما تكن مغلظة. انتهى الزمن الذى كنت أسمع فيه هذه الروايات والقصص، فيقف شعر رأسى من الهول ! كبرنا يا بنتى كبرنا.

●●●

يا جدتى عودى بنا !

إنك تضيعين وقتك مع هؤلاء الناس.

هذه قسمتنا، ولن نأخذ قسمة سوانا. لنرض بها، وأمرنا إلى الله. ولكنك يا جدتى لا تسمعين. تتعلقين بالأمل، وتتمسكين به. مسكينة ستجن جدتى !!

لماذا تسمحين لهذا الرجل العجوز أن يناقشك ويشك فى كلامك؟ "أبو المعاطى" بل إنه "أبو المآخذ" !

المهم هو أن تعودى يا جدتى.

ولكنك تسحبيننى من كفى، وتتركين الرجل العجوز، وتمضين بى فى هذا الممر الضيق تبحثين عن أحد سوى "أبو المعاطى" هذا تحدثينه بأمرك.

الممر طويل جداً، والأبواب على جانبيه كثيرة، والضوء خافت، ولكن الأصوات المختلطة لا تزال ترتفع، وقد تداخلت حتى لا تبين تفصيلاتها.

هذه أول حجرة عن يمين.

إنك تطلين فيها، وتقدمين رجلا وتؤخرين أخرى، فقد هالك أن تجدى فيها عدداً كثيراً من الناس، بين الواقف والجالس وكلهم يتصايح بكلام:

تأخذون البراءة ولا تدفعون بقية الأتعاب ! هل حضر المحامى إلا جلسة واحدة؟ الأستاذ أعد مذكرات كثيرة، فالمسألة ليست مسألة جلسات. لكن نحن فقراء، ولا نملك إلا هذا. تذبحوننا إذن، لتأخذوا جثثنا بدلا من الباقى؟! يا عالم الدنيا ليست نهباً. إذا كان رجال الحقوق لا يحصلون على حقوقهم، فأية فوضى هذه؟ وحقوقنا نحن تداس بالنعال؟! أليس من حقنا أن تظهر الحقيقة أمام المحكمة؟! هذا حقنا، وأنتم تستغلون حاجتنا !! إنى لا أسمح لكم بهذا. أنا الذى تعهدت للأستاذ بهذا. إذا كان يسركم أن أفضل وأطرد ويجوع أولادى، فكلوا بقية الأتعاب. لا لا والله يا "محمود أفندى". رقابنا فداؤك.

ووقفت يا جدتى تتطلعين وتتسمعين، وقد فجعتك المناقشة.

هل صدقت ما قاله لك "أبو المعاطى"؟

عودى بنا يا جدتى. عودى بنا.

على أنك لا تعودين. أنت عنيدة يا جدتى.

ولكنى خائف يا جدتى.

لا أدرى أى هاجس هذا الذى يخيفنى !!

وأنت تنتظرين حتى يفرغوا من هذه القضية الصاخبة، ويتفقوا على دفع مبلغ من بقية الأتعاب، فما إن يخرج هذا الجمع، حتى يتنهد "محمود أفندى" وهو يسب ويلعن آباءهم جميعاً، فى حين يدس المبلغ الذى قبضة منهم فى حافظة نقوده.

ويتبين لك الموقف بعد خروج هذا الجمع.

إن بالغرفة ثلاثة مكاتب، يجلس على كل منها واحد. وكلهم، وفيهم "محمود أفندى" هذا، يرتدون البدل والطرابيش، وأمام كل منهم عدد من الأوراق والملفات، ومحبرة وقلم، وورق أبيض مسطور.

وفى الحجرة عدد من المقاعد الخشبية منثورة هنا وهناك، ودولاب قديم مقشور كالح، يعج بالكتب القديمة البالية.

وقد ظهر لك أن "محمود أفندى" هو رئيس هذه الحجرة، فإن أمام مكتبه وحده، كرسياً من الجلد الممزق، ولكنه العلامة الأولى التى تميزه هو وحده بين الآخرين العاكفين على نسخ الأوراق فى بلادة وكسل. فإذا مضى عليك وقت آخر فى هذه الحجرة، فإنك ستطيلين النظر إلى التليفون الذى يستقر على مكتبه، علامة أخرى تؤكد أنه الرئيس هنا ولا رئيس هنا سواه.

لماذا تتقدمين إليه هكذا يا جدتى؟ ألم يكفك ما سمعته من "أبو المعاطى"؟ ألا تخشين أن يتهكم هو الآخر، وأن يسخر، وأن يحطم آمالك جميعاً؟

ـ قل لى و النبى يا ابنى. هل هذا هو مكتب المحامى؟

ـ لا ...عيادة الطبيب ! دكان الترزى ! وماذا أتى بك، إذا لم تكونى تعرفين أنه مكتب المحامى؟

ـ لا تؤاخذنى يا "محمود أفندى".

ـ والله عجيبة هذه ! وتعرفين اسمى ! هل نحن أصهار؟ أقارب؟ أصدقاء؟ تزوجتك فى السر؟

يا جدتى عودى بنا !... عودى بنا يا جدتى !

على أنك لا تسمعين، ولا تترددين.

ـ اسم البنى حارسك يا ابنى. ربنا يزيدك ويبارك فيك. كل البلد تعرف اسمك وقدرك.

ـ نعم ...باختصار. ماذا تريدين؟

ـ عندى قضية كبيرة وهامة، أريد أن أقابل الأستاذ من أجلها.

ـ قضية كبيرة وهامة ! ما هى؟

ـ ألا أقابل الأستاذ أولاً؟

ـ بل تحكين لى أولا، ثم نتفق على الأتعاب، ثم ترين وكيل الأستاذ.

ـ والأستاذ لا أراه؟

ـ فيما بعد. لا تتعجلى. الأستاذ رجل كبير جداً. أنت لا تعرفين الأستاذ. إنه نائب كبير من نواب الأمة.

ـ كبير !! كبير على عمله يا ابنى؟!

ـ وماذا نعمل نحن هنا؟

ـ لا أدرى، ولكنى قادمة للمحامى.

ـ يظهر أنك ستتعبيننى، إن للمكتب نظاماً، فإما أن تسمعى الكلام أو تتصرفى.

ـ لا يا ابنى. لا تغضب منى. أنا جاهلة ومظلومة. كلنا مظلومين يا "محمود أفندى" ماذا تريدنى أن أفعل؟

ـ قولى لى حكايتك أولا . ما قضيتك؟

ـ زوجى يا ابنى فى السجن، وهو لم يقتل والله. لم يقتل أبداً . هل يقتل الأب ابنته؟

ـ وهل ضبطوه متلبساً؟

ـ متلبساً؟! ما معنى هذا؟ ماذا تعنى متلبساً هذه؟ طبعاً كان متلبساً ..كانت ملابسه عليه.

ـ لا تضحكينى يا خالة. متلبساً يعنى أنه ضبط وهو يرتكب الجريمة.

ـ لا أعرف. لقد شهدوا عليه، ولم يتكلم هو أبداً.

ـ وما دليلك على براءته؟

ـ والله العظيم هو لم يقتل. أنا أعلم أنه لم يقتل. "أبو عوف" يقتل "تفيدة"؟ لقد كان يحبها من قلبه. طالما بكى عليها ومن أجلها. ويوم أخذوها منه، فقد عقله. هل من يحب ابنته إلى هذا الحد يقتلها؟ ولماذا يقتلها؟ المجرمون الأشقياء شهدوا عليه واتهموه زوراً ولم يتكلم المسكين كلمة واحدة. كان يعرف أنه لو تكلم، لجاء دورنا، وهو يحبنا ويخاف علينا، فضحى بنفسه من أجلنا.

ـ وهل حققوا معه؟

ـ من زمن طويل.

ـ ومتى قضيته؟

ـ انتهت من زمن طويل أيضاً، من ست سنوات أو سبع أو ثمان، والله يا ابنى لا أدرى من يومها، وأنا كما ترانى محطمة مهدودة القوى.

وأين هو؟

فى السجن يا عينى. مظلوم. والله العظيم مظلوم. وحياة "جلال" هذا، وهو أغلى ما نملكه، هو مظلوم.

ـ وتريدين اليوم، بعد أن صدر عليه الحكم، ونفذ بالفعل، أن تعيدى محاكمته؟

ـ مظلوم ولم يتكلم إلا أخيراً. قال الحقيقة لأول مرة، وهو يحدث "جلال" ابن ابنته التى اتهموه بقتلها.

ـ يا خالة أنت تضحكين على نفسك. المسألة أصبحت مستحيلة. مضى الوقت وانتهى.

ـ لماذا؟ ألا تبحثون عن الحق؟

ـ هناك استئناف له مدة محدودة، وللنقض أيضاً مدة محدودة. المسالة ليست فوضى.

ـ مدة...إنه حق. هل الحق أيضاً له مدة؟

ـ نعم يا خالة له مدة.

ـ لماذا يا ابنى. هل هو زراعة له موسم.

ـ نعم يا خالة له موسم.

ـ لكن هذا عجيب.

ـ لماذا عجيب.

ـ لأنه حق. وأنا يا جاهلة أعرف شيئاً واحداً أن البحث عن الحق، يجب ألا يكون فى موسم معين، كالبرسيم، أو القطن، أو الذرة العويجة.

ـ إذن يتركوا المسألة فوضى.

ـ فوضى !!

ـ وأين كنت هذه السنوات الطويلة؟

ـ لم يتكلم الرجل المسكين إلا أخيراً. صعبت عليه نفسه فتكلم لابن بنته. ليبرئ سمعة بنته أمام ابنها الوحيد. خاف أن يضحكوا عليه عندما يكبر، ويؤكدوا له أن جده قتل أمه، لأنها انحرفت عن الطريق المستقيم، فقال الحقيقة.

ـ ولماذا لم يقلها وهم يحاكمونه؟

ـ خاف علينا، ألم أقل لك إنه خاف علينا من شرورهم؟ ثم لماذا يهمك هذا؟ لقد قال الحق فى أى وقت، وسيكشف هذا عن القتلة الحقيقيين. ألا يهمكم هذا الحق؟ أو أنه لا يهمكم طالما أنه لم يقله فى موسمه؟

ـ يا خالة القانون قانون. هذا هو القانون لقد مضت المدة التى كان يمكن أن يقال فيها هذا الكلام، ولم تعد هناك وسيلة ابداً لإنقاذه.

ـ يا ابنى قل كلاماً آخر.

ـ أضحك عليك؟ أنا أستطيع أن أضحك عليك، وأجعلك تدفعين ما لديك من أموال ثم لا تصلين إلى شىء ! لكن مكتبنا ليس كالمكاتب الأخرى. هذا مكتب أكبر محام فى الناحية ومكتب نائب كبير من نواب الأمة، ولا يجوز أن نضحك فيه على الناس.

ـ ويظل الرجل المسكين سجيناً، وهو برئ؟!

ـ وما الحيلة يا خالة؟

ـ لابد أن تكون هناك وسيلة.

ـ قولى عليها ونحن ننفذها.

ـ أنا لست محامية. أنا امرأة جاهلة. أنا فقط أعرف الحق، وأريد أن أظهر هذا الحق.

ـ هل هذا هو الحق الوحيد الضائع؟ صلى على النبى.

ـ هذا هو الحق الذى أعرفه.

ـ كل حق ضائع يا خالة، ما لم يكن وراءه أناس أقوياء.

ـ وحقوق الضعفاء المساكين من أمثالنا؟

ـ ضائعة يا خالة، إذا أردت أن تعرفى الحقيقة.

- وما الحل. أليس هناك حل؟

- عند الله سبحانه وتعالى. اتركى أمرك إلى الله.

- "وأبو عوف" المسكين. إنه يعانى المر، ويقاسى الكثير، وأنا أشعر أنه مريض. مريض جداً. وقد دخل السجن ليدفع ثمن جريمة سواه. ألا تكفى السنوات الطويلة التى قضاها بين الجدران الغليظة القاسية؟ والنبى يا ابنى حاول أن تجد حلا.

●●●

إن "محمود أفندى" يهز رأسه يا جدتى. إنه يائس. أنه لا يعرف وسيلة لتحقيق آمالك. إنها آمالنا معك. ولكن يظهر أن الطريق إليها محفوف بالخطر. يظهر أن يد القدر تدبر أمراً آخر غير ما نحلم به نحن.

إنى خائف يا جدتى. عودى بنا يا جدتى!

لكنك يا جدتى تصرين على أن تقابلى وكيل المكتب.

- لابد أن أقابله.

- ستسمعين منه نفس هذا الكلام.

- ومع هذا لابد أن أقابله.

- هل لديك الأتعاب؟

- كم هذه الأتعاب. إياك أن تقول إنها عشر سنوات من عمرى.

- إنها مائتان من الجنيهات.

- مائتان ...مائتان...مائتان!! لا لا.

- طبعاً مائتان ألم أقل لك؟

- ما..ئتا..ن... ما..ئتا..ن!!

- هل عرفت الآن؟ إنه مبلغ كبير، لكن الأستاذ لا يقبل مبلغاً دون هذا.

ـ كم معك من هذا المبلغ؟

ـ خمسة جنيهات أو ستة...

ـ هل هى قضية تفقة يا خالة؟ إنها جناية ! إنها حرية سجين تطلبين تحقيقها ! هل يتحرك بطوله وعرضه، وصوته المدوى، والروب الأسود يتموج على أكتافه، من أجل خمسة جنيهات؟

ـ أدفع الباقى بالتقسيط.

ـ ياترى من يعيش حتى يصل منك الباقى؟

ـ وماذا أفعل؟

ـ تتركين أمرك لله.

ـ وأترك زوجى مظلوماً؟

ـ هذا هو الموقف.

ـ ومع هذا، فدعنى أرى الرجل الذى قلت عنه، وكيل المكتب...هل هذا اسمه؟

ـ بل وظيفته، أما اسمه فإنه "عبد الغفار أفندى".

ـ دعنى أراه. دعنى أقابله.

●●●

مسكينة يا جدتى، لقد بدأ صوتك يتهدج ! بدأت تلهثين كأنك ساهرة طول الليل أمام الغسيل ! إنى أشعر أن كفك التى تقبضين بها على، بدأت تتقبض انقباضات عصبية. والبرودة بدأت تسرى فى كفك.

يا جدتى عودى بنا. إن الدموع بدأت تخترق قلبك، إلى عينيك ! إنك تتمزقين يا جدتى. إنك محمومة يا جدتى. عودى بنا يا جدتى !

ولكنك مع هذا تصرين على أن ترى "عبد الغفار أفندى".

كالمحكوم عليه بالإعدام، يتعجل تنفيذ الحكم !

كالمريض الذى طالت عليه العلة، يرجو أن يجد نهاية لحياته البائسة ! إن "محمود أفندى" يختفى لحظات، ثم يعود ليجرك جراً إلى حجرة وكيل المكتب. كنت شبه عمياء، تحتاجين إلى من يجرك. وكنت تجريننى معك ! وتستسلمين شبه مسحورة.. شبه مخدرة.. وتمضين خلفه فى الممر الطويل، فتمرين بأبواب مفتوحة أو مغلقة أو بين المفتوحة والمغلقة، فلا تتبينين من هذا كله شيئاً. وتخرج من هذه الأبواب أصوات مختلفة، فلا تثير هذه الأصوات انتباهك.

كنت غافلة عن كل شئ، إلا شيئاً واحداً: جدى المسكين، الذى حطمته المحنة، ومزقه الظلم. وهل تستطعين أن تنقذيه.

أما أنا يا جدتى، فكنت أود لم تسمعين أطراف هذه الأصوات، لتعودى بنا يا جدتى. لا داعى أبداً لهذا الجهد. إن الناس هنا لا يبحثون عن حق، ولا يهتمون بمصلحة الناس. مصالحهم فقط هى التى توجه خطواتهم.

آه لو سمعت يا جدتى:

ـ لقد دفعت خمسين جنيهاً. والولد لم يحصل بعد على وظيفة، هل تضحكون على ذقوننا؟

ـ بل المسألة محتاجة إلى وقت. ألا تصبر قليلا؟

ـ أصبر؟! صبرت سنة يا حضرة. سنة وهو جالس فى المنزل كالعذراء تنتظر العريس!

ـ أنت تعرف الأزمة التى نمر بها. ثم إن ابنك ليس هو الوحيد الذى ينتظر. كل مصالح الدائرة هنا. بل دوائر أخرى كثيرة تلجأ إلينا. ماذا نفعل؟ الأستاذ بشر، وقدرته محدودة.

ـ ولماذا يتعرض لمصالح الناس إذا لم يكن قادراً عليها؟

ـ عيب يا رجل. لقد وعده معالى الوزير.

وعده !..ومن أجل هذا الوعد تأخذون خمسين جنيهاً؟! اعتبروها قضية يا أخى !

ـ إياك أن تطيل لسانك. تظن أننا أخذنا نقودك لنضعها فى البنك؟ لنشترى بها عزبة؟ لنكون بها ثروة؟ ما هذه الخمسون جنيهاً؟ إنها لا تكفى دعوة واحدة يوجهها الأستاذ إلى أحد أصحاب المعالى الوزراء. لو دعا المدير لكلفه هذا فوق الخمسين جنيهاً أتظن أن نقودك هذه شىء كبير؟ إنها لا شىء !

ـ ولكنى اقترضها بالفايظ، فهى عندى شىء كبير.

ـ أما بالنسبه لنا، فلا شىء.

ـ تعيرنى بفقرى؟! أطال الله عمرك !

ـ اصبر قليلا. مر على بعد شهر.

ـ ماذا أقول؟ أمرك يا سيدى ! أمرك !

●●●

ـ وأنا يا حضرة. متى يخرج الولد من السجن؟

ـ قريباً إن شاء الله.

ـ يا أخى لقد مضى عليه شهر. ألا يكفى هذا؟ ماذا فعل؟

ـ قلت قريباً إن شاء الله.

ـ متى؟ لابد أن أعرف. إن مصالحى معطلة. ليس لدى ولد سواه، وهو ذراعى اليمنى، وقد دفعت العشرة جنيهات التى طلبتها.

ـ سيدعو الأستاذ سعادة المدير على الغداء، هذا الأسبوع، من أجل عينيك.

ـ يا رجل ...كل الناس فى بلدنا لديهم سلاح غير مرخص. وكل الناس شاركوا فى الفرح بطلقات مختلفة من أسلحتهم، تحية للعروسين. ألم يجدوا إلا ابنى؟ هو فقط المجرم الذى يوضع فى السجن؟

ـ حظه ...حظه هكذا.

ـ ودفعنا ! أخرجوه إذن.

ـ قلت قريباً إن شاء الله. ألا تسمع؟

ـ قلت مصالحى معطلة؟

ـ اصبر قليلا. أهذا أحسن، أم يصدر عليه حكم؟

ـ والله إن الحكم واضح ومعروف. مدته محددة. أما أن تتركونا هكذا فى الظلام، فإنه أمر لا يرضى الله.

ـ ومن الذى أتى بك إلينا؟ جررناك من ساقيك؟

ـ الله يسامحهم الذين أرشدونى إليكم ! قالوا إنها كلمة من الأستاذ ويخرج.

ـ قلت لك اصبر. ومر على بعد أسبوع.

ـ ماذا أقول لك. أمرك. أمرك. أحضر بعد أسبوع. أعطل مصالحى، وآتى إلى دمنهور وأبيت ليلة هنا وأمرى إلى الله. أنت لا تدرى كم أتكلف فى كل مرة أحضر فيها. لكن ماذا أقول؟

●●●

ـ أنا لم أنقل بعد يا أستاذ.

ـ كلكم مستعجلون. أنسيتم كلمة الصبر. إن الصبر مفتاح الفرج.

ـ يا أخى أنا بلدى هنا، وأعمل فى الصعيد، وأترك زوجى وأولادى فى بلدى، لأفتح بيتين انفق عليهما دم قلبى، وقد مضى على نصف عام. كل الذين سعوا من زملائى نقلوا. لماذا تتركونى هكذا؟ لو قلتم لى صراحة إن نقلى مستحيل، لوجدت وسيلة أخرى. لو أنى وزعت هذا المبلغ على الديوان العام، لنقلت من زمن طويل. لكنى اعتمدت عليكم، وهذه غلطتى.

ـ قلت لك الصبر. اصبر. ألا تستطيع أن تصبر، لتستريح؟

ـ أصبر حتى متى؟

ـ حتى يفرجها الله. والله الأستاذ يريد أن يخدمك.

ـ لكن متى. أولادى يكبرون، وليس هناك من يرعاهم.

ـ اصبر...اصبر...وسأذكر الأستاذ ....المسألة محتاجة على أمر من معالى الوزير.

ـ إنه يقابل معالى الوزير فى كل جلسة من جلسات المجلس. لماذا لا يقدم له طلباً بنقلى؟

ـ لأن المسألة محتاجة إلى تمهيد.

ـ والله هذا كلام. تعرف لو كنت أنا مكان الأستاذ، لقدمت استجواباً إلى الحكومة لترتعد، وأساوم على هذا الاستجواب، فأقضى كل مصالحى. كل النواب الأقوياء يفعلون هذا. والأستاذ لا تنقصه البلاغة، ولا البراعة، ولا اللسان اللاذع. لماذا لا يفعل هذا؟

ـ آه ....والله فكرة ! على كل حال اصبر.

ـ سأصبر يا أستاذ، ولكن والله إذا لم أنقل قبل أول العام الدراسى القادم، فإنى سأشن عليكم حملة لا تعرف حدوداً ! أتفهمنى؟ أنا رجل له عصبية. أنا ورائى آلاف الأصوات، والانتخابات ستأتى يوماً. لن يدوم هذا الكرسى ! إياكم أن تبكوا وتتباكوا إذا أقبلت انتخابات قريبة وسمعتم أننى مع خصومكم. واضح هذا يا أستاذ؟

ـ بلا تهديد من فضلك. سترى عما قريب.

●●●

لقد سد اليأس أذنيك يا جدتى، فلم تصل إليهما هذه الأصوات، من خلال الأبواب فى هذا الممر الطويل. وليتك سمعت هذا كله كما سمعته أنا يا جدتى. إذن لعدت بنا يا جدتى. الناس هنا يا مسكينة لا يفكرون فى شىء لله. لا يفعلون شيئاً لوجه الله. كل

واحد له مصلحة، ولا تهمه مصلحة الآخرين. الناس هنا عبيد مصالحهم، ولا شيء إلا مصالحهم.

الحق عندهم بثمن يا جدتى.

قال لك هذا عمى "أبو المعاطى" فلم تصدقيه.

وقال لك هذا "محمود أفندى" فلم تستمعى إليه.

وتصرين - برغم هذا - على أن تقابلى وكيل المكتب، وأن تقصى عليه قصتك:

مظلومة وزوجى مظلوم. سجنوه ليداروا جريمة سواه. لم يتحدث طوال محاكمته. صمت كالحجر، ولما شعر أن اسم ابنته قد يتعرض لجريمة أخرى يدبرونها، قال أخيراً الحق، ليؤكد لى أن أمى بريئة. وأنها طاهرة، وأن التهمة التى أشاعوها عنها من صنعهم، وإن الجريمة التى ألصقوها به هو، من تدبيرهم الآثم الغادر الجبان. أنت تقولين هذا وهم يسمعون هذا، ولكن جيوبهم فاغرة أفواهها تريد مالا. تريد اتعاباً. تنادى كالجحيم هل من مزيد ! فماذا لديك أنت يا مسكينة؟ الخمسة جنيهات؟ من أجل كلمة واحدة. توصية بسيطة يطلقون بها سراح حائز على سلاح بلا ترخيص. من أجل هذه الكلمة قبضوا عشرة جنيهات، فماذا يقبضون من أجل محكوم عليه بالسجن المؤبد، ليطلقوا سراحه بعد هذه السنوات الطوال؟ وماذا تملكين أنت؟ ثم هم يقولون إن القانون لا يبيح. قولى أنت الحق لا موسم له، ولكن الحقيقة غير هذا يا جدتى.

يا جدتى عودى بنا يا جدتى ! لا تضيعى وقتك وجهدك وأعصابك، وعشر سنوات من عمرك ! لا تموتى أنت أيضاً يا جدتى. عيشى من أجل خالتى، ومن أجلى.

لكنك مع هذا عنيدة يا جدتى.

تدخلين حجرة "عبد الغفار أفندى" مذهولة شاردة، فى عينيك دموع حبسها العجز، وفى جسمك حمى أشعلها اليأس، وفى كفك انقباض حركه ما يعانيه جدى المسكين.

●●●

هل هذا كله " عبد الغفار أفندى".

لا يمكن. إنه " عبد الغفار بك" !!

الا ترين يا جدتى؟

هذه مقاعد من جلد يلمع، كأنهم دهنوه بالزيت الحار ! وأرض هذه الغرفة تزداد جمالا بغطائها البراق. لابد أنها سجادة كتلك السجاجيد التى حدثتنى عنها طويلا فى بيت التاجر الذى تعملين فيه يا جدتى. بل هناك كذلك ستائر على النوافذ وتليفون على المكتب، ودواليب مختلفة، خشبها بنى جميل. والمصباح الكهربائى على المكتب، يشع نوراً يبدو لأول وهلة أنه أخضر. وفى السقف مصباح كبير. لابد أنها نجفة. أنت قلت لى هذا يا جدتى، كما قلت لى أشياء كثيرة عن السجاجيد، وعن الستائر، وعن التليفون. أنت وصفت لى كل هذه الأشياء، ولم أكن أستطيع أن أتصور حقائقها، حتى رأيتها هنا فى هذا المكتب.

قلت لك إنه لابد أن يكون " عبد الغفار بك". انظرى إليه. إن ملابسه جديدة، وطربوشه طويل، وهو يعوجه إلى اليمين، ويترك زره يتحرك فى وقار، مع اهتزازات رقبته وهو يتكلم كلمات قليلة، ولكنها متعالية متكبرة.

وهذه سلسلة ذهبية تتدلى على صدره المنفوخ، وإنه ليعبث بها بين الحين والحين، ليلفت النظر إلى كرشه، وإلى الذهب الذى يزيد هذا الكرش انتفاخاً.

وأصابعه. ألا ترين الخواتم الذهب بفصوصها الملونة؟ إنه يرفعها فى أعيننا لتخطف أبصارنا.

"عبد الغفار بك" قلت لك !

وهذا كله وكيل المكتب؟!

إذن ماذا يكون الأستاذ نفسه؟

لابد انه شىء آخر. لابد أنه عملاق، ترتفع هامته إلى السماء، ويملأ كرشه جو الغرفة كلها. ولابد أن كراسى مكتبه من ذهب !

إن " عبد الغفار بك" ينظر إليك يا جدتى ليعرف قصتك.

إنه لا يتحدث. تكفى من مثل هذا الرجل نظرة، لتكون تصريحاً بالكلام !

إنه رجل متواضع، فلو أن واحداً آخر سواه، ما سمح لك يا جدتى بالدخول، وأنت حافية، تجرين وراءك ولداً حافياً. إن السجاد الجميل يحتاج إلى أقدام كهذه الأقدام محشوة فى جوارب جميلة، وأحذية جديدة.

لكنه رجل متواضع، وقد سمح لنا بالدخول.

ماذا ستقولين له يا جدتى؟ ألا تخافينه؟

أعرف ماذا ستقولين. لقد قلته يا جدتى. ونظر إليك الرجل طويلا ثم قال إنها ليست قضية على الإطلاق، فقد مضى الزمن الذى يسمح باستئناف أو نقض.

على أن دموعك جعلته يعقب على ما قاله بأن الشىء الوحيد الممكن، هو التماس إعادة نظر القضية على أن يتدخل الأستاذ شخصياً مع معالى الوزير فقد يكون له رأى آخر. على أن هذا سيكلفك تكاليف كبيرة. إن هذه الأمور تتكلف، ويمكنك أن تتفقى على هذه التكاليف مع "محمود أفندى" وسأحاول أنا أن أقنع الأستاذ بأن يتكلم مع معالى الوزير، وليته يقبل، فإن الأمر صعب. صعب جداً.

ولقد أدركت بعقلى الصغير يا جدتى أن المسألة ستتحول إلى شىء شبيه بما سمعته من أصوات لم تسمعيها أنت يا جدتى، وأنت تسيرين كالمشدودة إلى حتفك !

ولو أنك سمعت ما سمعته، لعدت بنا يا جدتى. عودى بنا يا جدتى.

ولكنى أعلم أنك لن تعودى. أنت تحتاجين إلى أن تتحدثى عن مأساتك.

- ولكن زوجى مظلوم يا سعادة البك. إنه لم يقتل، برغم أنه اعترف. لقد قال الحقيقة أخيراً، سيجزيك الله من عنده، لو أنك فعلت من أجله شيئاً.

- اتفقى مع "محمود أفندى".

ـ أنا امرأة جاهلة وفقيرة، ولا مال عندى. أتفق معه وليس معى إلا..

ـ هذا ليس من شأنى.. إنه أمر يقرره "محمود أفندى".

ـ أوصه بى خيراً. أوصه ألا يرهقنى بطلبات لا أقدر عليها.

ـ سيفعل إن شاء الله.

وبكيت يا جدتى، وتقدمت إليه تحاولين أن تقبلى يديه. أو تقبلى خواتم أصابعه. لكنه سحب يديه من فوق شفتيك. هذا شرف لا ترتفعين إليه يا جدتى. إن خواتمه غالية على شفتيك !!

ولكنك مضيت تبكين، وأنا أحبس دموعى إشفاقاً عليك.

والرجل حيث هو، جامد لا يتحرك، بأكثر من كلمات غامضة غير مفهومة، ونظرات إلى "محمود أفندى" تجعله يحاول أن يسحبك من الغرفة، ويذهب بك إلى حجرته هو، ليبدأ مساومتك.

ولكنك تصرين.

و "محمود أفندى" يصر على أن تخرجى.

وأنا تائه بينك وبين "محمود أفندى".

ويصيح " عبد الغفار بك" إن هذا يكفى: اذهبى يا امرأة.

ولكنك تصرين على ألا تخرجى إلا إذا وعدك خيراً.

ويكاد الأمر أن يصبح كالمعركة.

●●●

هل أحسست يا جدتى لحظتها، كيف فتح الباب، ودخل شاب طويل القامة، نحيف العود حاد النظرات.

لقد فوجئ هذا الشاب بمنظرك.

على أنه صاح فى دهشة:

ـ من... خالتى "أم الهنا" !

ونظرت إليه مستطلعة، وسمعتك تقولين بدورك:

ـ سيدى "رءوف بك". لقد أرسلك الله من السماء، فى الوقت المناسب.

●●●

وبدأت تحكين له قصتك، وتقولين له إن زوجك مظلوم، وإنك جئت إلى هنا، لتجدى وسيلة ترفعين بها عنه هذا الظلم.

وقال لك "رءوف بك" هذا "

ـ ولماذا لم تقولى لى؟ ألا تعرفين أننى أصبحت محامياً، وأننى أتمرن هنا فى مكتب الأستاذ.

ـ وقلت له فى سذاجة:

ـ لم أكن أعرف أنك هنا فى مكتب الأستاذ. لقد صرت محامياً، ولكنى ربيتك على يدى، أنت تعلم. أنت لى "سيدى رءوف" الشقى الذى يقيم الدنيا ويقعدها، ليحصل على مصروف أكبر مما يعطونه له. سامحنى لم أدرك أنك كبرت، وأنك أصبحت قادراً على إخراج زوجى من السجن. على كل حال ربنا أرسلك إلى. ربنا كريم دائماً، وهو لا ينسى المساكين الفقراء من عبيده.

●●●

وأخذ "رءوف" يا جدتى يناقش "عبد الغفار" فى الموضوع.

هل فهمت؟ طبعاً كنت شاردة عن كل شىء.

أما أنا فقد تأكدت منهما أن المسألة أصبحت مستحيلة، إلا بالطريقة التى تحدث عنها " عبد الغفار" بعد أن يقتنع بها الأستاذ.

قال رءوف:

- إذن أتحدث أنا إلى الأستاذ. سأقنعه.

قال " عبد الغفار" فى كبرياء:

- لكن حذار. المسألة قد تكون لها من الملابسات ما يمنع أى تصرف.

قال "رءوف" كتلميذ صغير، أمام أستاذ عركته الحياة:

- لكن أية ملابسات، إذا كانت المسألة كما سمعناها.

قال " عبد الغفار" وهو يغمز بعينه اليسرى فى تخابث:

- لا أحد يدرى. لا أنا ولا أنت. قد يكون الأمر متعلقاً بعصبية سياسية، أو مرتبطاً بناس أقوياء يهم الحاكمون أن يكسبوهم.

قال "رءوف" فى انفعال:

- إذن ألجأ إلى المعارضة، لنثير الموضوع بشكل ما.

قال " عبد الغفار" فى تخابث أعمق:

- المعارضة !! إنكم مخدعون يا شباب اليوم. المعارضة هى والحكومة شىء واحد. إنهم يحرصون على تبادل المصالح يا ابنى. هل تظن أن ليس للمعارضة أيضاً مصالح؟ ومن الذى يحميها لهم؟ الحكومة. أليس كذلك؟ والذى يقدم الغداء، يجد من يقدم له العشاء. يا ابنى حاول أن تدرك الحقائق.

قال "رءوف" وقد امتقع وجهه:

- ألجأ إلى الصحف المعارضة، لتقيم الدنيا وتقعدها.

قال " عبد الغفار" فى فتور:

- كأنما هذه الصحف دول مستقلة !! إن الذى يملك الصحف هم أصحاب المصالح يا ابنى ! وللصحف أيضاً مصالح ! إن أغلب محرريها أعضاء فى البرلمان. إنهم أكثر حرصاً على مصالحهم من الرجل السجين الفقير المسكين.

وهز "رءوف" رأسه فى حركة يائسة:

ـ لكن ما هذه المقالات التى نقرؤها.

وضرب " عبد الغفار" بخاتم من خواتمه على حافة مكتبه:

ـ متفق عليها يا ابنى. متفق عليها. ألا تفهم؟

على أن المناقشة بينهما انتهت بأن قال لك "رءوف":

ـ عودى أنت يا خالتى "أم الهنا" واتركينى أتصرف.

●●●

ورأيتك يا جدتى، وقد أخذ وجهك يطفح بالبشر. لم تعرفى هل تذرفين ما فى عينيك من دموع وتستريحى، أو تذرفى هذه الدموع فى إطار من الابتسام. وظهرت لى يا جدتى وأنت بين البكاء والابتسام، تتقلص عضلات وجهك فى انفعال، كما رأيت جدى من قبل. وشعرت بكفك تمسك بيدى، فى عصبية، وفى رضا كذلك.

على أنك لم تكونى فاهمة تماماً ما يدور. لم تدركى تماماً ماذا ينوى "رءوف" أن يفعل ! أنا أيضاً لم أدرك لسنوات معنى ما كان يقال، ولكنى أحسسته بعاطفتى وغريزتى.

كل الذى اراحك فى هذا الموضوع، إنهم قالوا لك إنهم سيتصرفون.

وفهمت يا مسكينة أنهم سيتصرفون كما تحلمين. سيطلقون سراح الرجل المسكين المظلوم.

سيعود إليك زوجك الغائب وراء الجدران الغلاظ لتسهرى عليه. لتطعميه ولو لحم كتفيك ! لتسقيه ولو ماء وجهك ! لتدثريه كما فعلت "خديجة" بالنبى صلى الله عليه وسلم.

وعشت يا جدتى فى هذا الحلم الجميل البديع لا تتحدثين عن شىء إلا عنه.

وطالما سمعتك تقولين لخالتى "مفيدة" كلاماً غريباً، صدقته أملا فى أن يتحقق، واستبعدته بعد أن سمعت ما سمعت، فى مكتب الأستاذ الكبير.

- والنبى يا "مفيدة" ادعى. ادعى الله، فإنه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه. ادعى الله أن يخرج أبوك من سجنه ويعود إلينا لنعيش كما كنا.

- والله لو خرج أبى لأملأن الدنيا زغاريد. يا ليته يخرج. يا أبى يا مسكين ليت الله يستجيب دعواتى.

- أنا أشعر أنه سيخرج. سيدى "رءوف بك" مهتم بأمره إلى أقصى حد.

- ويعود إلينا يا أماه؟

- إن شاء الله يا "مفيدة" ربنا كريم.

- ويرى "جلال" عن قريب يا أماه؟ يلمسه ويربت على كتفيه، ويمسح شعره؟

- ويخرج به للنزهة ليربيه كما يشاء. أبوك رجل طيب يا "مفيدة".

- ربنا يطيل عمره، ويخرجه إلينا.

- هل ترى سينسى أبوك "تفيدة".

- "تفيدة" الله يرحمها. وهل فينا من يستطيع أن ينساها؟

- هل ينساها "بجلال"؟

- لا يا أماه. "تفيدة" لا تنسى أبداً. صحيح "جلال" ابنها، وهو فى عيوننا جميعاً، ولكن "تفيدة" ذهبت ولن تعود، ولن يملأ مكانها أحد. نحن نحب رائحتها فى "جلال"، ولكن الوردة قد ذبلت يا أمى، وسقطت من على عنقها.

- بل لقد انتزعها مجرمون سفلة أشقياء.

- الله يرحمها. أنا لا أنساها أبداً يا أماه. هل تصدقين؟ والله إنى أصحو فى بعض الليالى لأبكيها بدموع من نار. كانت تنام إلى جوارى، ونظل نتهامس حتى وقت طويل، لا يسمعنا أحد. طول عمرنا هكذا، وإذا بى أتطلع حولى فأجدها قد غرقت، وأجد أبى فى السجن. نحن مساكين يا أماه. ماذا فعلناه يا ربى حتى يكون هذا هو مصيرنا؟ أبى وأنت

لم تقطعا الصلاة أبداً. ونحن فى حالنا. عشنا طول عمرنا فى حالنا، فماذا جنينا حتى تلحق بنا هذه العقوبة؟

ما كان أقسى دمعك يا جدتى بعد كل حديث !!

كنت ترتجين كإناء يغلى. كنت تئنين من الهول. كنت تصيحين بعبارات تقطع القلب. كنت تنتحبين. كنت تندبين.

ونفاجأ بك يا جدتى، وقد عدت قبل الغروب.

كانت خالتى مريضة.

وكانت عودتك قبل موعدك مفاجأة أذهلتنا.

لقد خشينا أن يكون قد حدث لك شىء.

ولكن شيئاً سيئاً لم يكن قد حدث. بالعكس، لقد جئت تزفين إلينا بشرى طيبة. ولم تكونى تملكين نفسك من الفرحة.

وبدوت لى يا جدتى، كمن نقص عمرها عشرات السنين !

وأخذت تروين وتتحدثين كما لم تفعلى أبداً.

- أبوك يا "مفيدة"، جدك يا "جلال". الدنيا كلها تتحدث عنه.

- لكن كيف هذا يا أماه؟

- سيدى "رءوف بك" كتب عنه فى الجرائد. قال كل شىء عنه، طالب الحكومة بالإفراج عنه حالا، لأنه مظلوم.

- فى الجرائد يا أمى ! وهل الجرائد تستطيع إخراجه؟

- سيدى "رءوف بك" قال هذا. أكد لى هذا، أقسم لى أن الحكومة ستجد نفسها فى حرج شديد، ولن ينقذها من هذا الموقف، إلا أن تفرج عن "أبو عوف". بل لقد سألنى عن

صورة له، ليرسلها إلى الجرائد أيضاً. وقلت له يا ابنى نحن قوم بسطاء وفقراء، و؟أبو عوف" لم يعرف يوماً إلا الخص الذى عاش فيه. وتريد صورة لمثل هذا الرجل؟!

- وهل يعلم بذلك أبى؟

- من يا بنتى أخبره؟ لكن ربما يخبرونه فى السجن. "رءوف بك" يقول إن المقالات قلبت الدنيا كلها. الحكومة مقلوبة، والمديرية مقلوبة، وكل المحامين والقضاة لا حديث لهم إلا "أبو عوف" وكيف وصل به الظلم إلى هذا الحد.

- ربنا كريم يا أماه. ومتى يخرجونه.

- يا رب يا "مفيدة" يا بنتى، نراه بيننا الآن. يحضرونه لنا بلا انتظار. آه لو يفعلون. يارب. أين أنت؟

●●●

على أنى يا جدتى شاركتك الفرحة من أجل جدى، ولكنى فى الوقت نفسه استعدت كلام " عبد الغفار أفندى"، فإذا الخوف يطرق قلبى.

لم أدر لماذا خفت. على أننى خفت بالفعل.

كنت أرتعد من الخوف. كنت أهتز من الرعب.

خيل إلى أن شيئاً ما سيحدث.

وأشد ما كان خوفى عليك أنت يا جدتى.

●●●

تذكرين يا جدتى يوم ذهبنا بعد ذلك إلى زيارة جدى؟

لقد كان البشر يطفح فى وجهك ومن عينيك، ولم يكن قد مضى على ما نشرته الجرائد إلا بضعة أيام. وكنت تريدين أن تقولى له كل شئ. كنت تحملين معك الجرائد التى كتبت عنه. كنت تتوقعين منه أن يفرح، وأن يتوقع أن يفرجوا عنه.

ما كان أقسى هذا المنظر الكريه !

عند الباب يا جدتى. عند باب السجن، وكان علينا أن نمر على أحد العساكر لنملى أسماءنا واسم السجين الذى أقبلنا لزيارته. عند هذا الباب تحطمت كل آمالك.

إن العسكرى لم يزد على أن قال لك: لا زيارة لـ "أبو عوف".

ولعلك سمعت العكس، فجررتنى من يدى إلى حيث نزور جدى.

وعاد العسكرى يقول:

- إلى أين يا خالة؟

- نحن زوار "أبو عوف".

- قلت لا زيارة له.

- لا زيارة له. ما هذا؟

- هكذا. لا زيارة له. هل كلامى واضح.

- لماذا؟ نحن نزوره كل مرة. أنا زوجته، وهذه ابنته، وهذا ابن ابنته.

- لا زيارة له. ليس عندى تصريح بزيارتكم له.

- نحن نحضر لزيارته منذ سنين.

- نعم أعلم هذا، ولكن الزيارة ألغيت، ألغوا الزيارات له.

- لأى سبب؟

- لا تسألينى أنا. اسألى الجرائد.

- الجرائد. ما دخل الجرائد فى الزيارة؟

- والله أنا عسكرى بسيط. أنا أتلقى أوامر، ولست أنا الذى يصدر الأوامر.

- من الذى أصدر هذا الأمر؟

- الذى يملك أن يصدره يا خالة.

●●●

وعدت يا جدتى ما كنت ! شبحاً يتحرك فى ظلام موحش ! ودمعة تتدحرج من عين مقروحة ! وأنة كبتها طاغ فى صدر مكتوم ! وزفرة، وصرخة، وحطاماً !

كذلك صارت خالتى. وكذلك أنا.

الا تدرين ماذا حدث لى؟ أنا لم أتكلم يا جدتى. ولكنى أحسست أنى رجل عجوز. أنى لعنة من لعنات الله. قبل أن أجئ إليكم، كنتم تعيشون حياة ما أياً تكن هذه الحياة، ولكنى كأمى جلبت لكم النحس !

وفكرت يا جدتى فى أن أهرب. ولكنى خفت حتى من الهرب.

وخفت عليك أنت خاصة.

لقد قضيت ليالى بطولها، منكفئاً على ذراعى، أبكى على أرض الغرفة. لم أنم أبداً، وشعرت أن هذا هو أول طابور النحس، وأن الدور عليك أنت يا جدتى !

لم أعرف على وجه التحديد أى دور يكون !

ماذا سيكون هذا الدور الذى يخبئه لك القدر؟

لم أكن أدرى ! ولكنى كنت أشعر شعوراً قوياً بأن شيئاً ما مخيفاً سيحدث لك يا جدتى. وسرى فى إحساس حزين، أن جدى قد انتهى. وأنه أصبح تاريخاً عزيزاً. ماضياً حلواً. حلماً. ولكنه لم يعد حياً مثلنا.

●●●

لقد كانت فاجعة قاسية عليك يا جدتى. وقعت صريعة، ولم تعودى تصلحين لشىء. أصبحت شاردة دائماً تحدثين نفسك. تتكلمين مع الخيالات والأشباح. تعيشين مسلوبة الإرادة، مخدرة الشعور. تضحكين فى جنون، وفجأة تبكين وتصرخين. ولطالما وضعنا أمامك الطعام فأصابك الذعر والهلع. وكنت تصيحين فى صراخ كالعويل: لا أبعدوه عنى. إنه دمها. دمها. هذا دمها.

ثم تضحكين فى وحشية، وأنت تقولين : بل هاتوه لأشربه هذا الدم، إنه هو وحده الذى سيطفئ غليلى. هاتوا هذا الدم لأروى به ظمئى.

لطالما انتحيت أنا وخالتى "مفيدة" نبكيك. ننظر إليك طويلا، ثم ينظر كل منا للآخر ويبكى فى صمت وحسرة. يا حسرتى عليك يا جدتى !! لقد فقدت عقلك. لقد جننت.

وكانت خالتى "مفيدة" تخرج إلى عملها فى الصباح، ولكنها قبل أن تخرج كانت تضمنى إلى صدرها فى حنان وهى تقول: أوصيك بها فهى جدتك. ليس لها رجل سواك يا "جلال". لكن والنبى لا تعرض نفسك لأذاها فقد تؤذيك، وهى تحبك. إنها لن تقصد إيذاءك طبعاً، ولكنك ترى حالتها يا "جلال". "جلال" إنى خائفة عليك وعليها، ولو أن أمرى بيدى لبقيت إلى جوراكما، ولكن أنت تعرف أنى مضطرة إلى الذهاب، لنأكل لقمة العيش الجافة التى لم يعد لها طعم. "جلال" إذا خفت من شىء فاذهب إلى جارتنا العجوز، وابق عندها حتى أعود. لكن إياك أن تترك الباب مفتوحاً. أنا لا أدرى ماذا سيحدث لها. ربنا يجازى من كان السبب. ربنا يجازيه على أفعاله !

وكنت أجلس معك طول اليوم يا جدتى.

ولكم حدثتنى حديثاً طلياً عن أيام الهنا، يا "أم الهنا". ثم فجأة كنت تضحكين ضحكات مجنونة، بلا سبب، ثم تهدئين فتقبليننى من كل جزء فى وجهى، وتقولين لى فى حب صادق وحقيقى: أنت يا "جلال" ابنها. ربنا يطيل عمرك يا "جلال"، لتثأر لها، ولكل المظلومين مثلها.

ولكنك يا جدتى كنت تخرجين إلى فناء الدار، فأعدو وراءك خوفاً عليك. ولم تكونى تفعلين شيئاً غريباً. كنت تسلمين على جاراتك، وبخاصة الجارة العجوز الطيبة، ثم تعودين فى هدوء وسلام.

هل تذكرين أنك كنت أيضاً تغنين؟

هل تذكرين أنك كنت أحياناً ترقصين، وتحملييننى على أن أصفق لك؟

ما كان أغربك يا جدتى ! وما كان أشقانى وأنا أرقب أحوالك !

ولما طالت غيبتك عن البيت الذى تعملين فيه، جاءك "رءوف"، أو سيدى "رءوف بك"، كما كنت تسمينه، ولم تعرفيه، ولم يبد عليك أنك قابلته يوماً.

ولقد فوجئ هو بهذا المنظر الغريب، وجلس إلى جوارى يبكى. كانت دموعه صادقة، وكان شعوره عميقاً.

وأخذ المحامى الشاب يتحدث إلى نفسه حديثاً دامعاً:

أنا السبب. أنا السبب. ليتنى صدقتك يا " عبد الغفار أفندى". هذه هى نتيجة أعمالى. رجل سجين ساقوه الذل حتى مات، والله وحده يدرى كيف مات ...ربما عذبوه حتى مات. بل ربما خنقوه. إنهم مجرمون سفاحون.

وهززته يا جدتى هزاً عنيفاً وأنا أصيح فيه:

من الذى مات؟ جدى مات؟ جدى مات؟ قل لى من الذى مات؟

قال "رءوف" فى صوت مضطرب:

- نعم يا ابنى مات. هل هو جدك؟

قلت:

- نعم هو جدى "أبو عوف". جدى الذى أحبه من كل قلبى. جدى المسكين المظلوم الذى لم يقترف إثماً. جدى الذى دفع حريته خائفاً من طغيان الطغاة، ثم دفع حياته كما ترى.

قال:

- البقية فى حياتك يا ابنى. البركة فيك أنت.

وعاد إلى حديثه مع نفسه، فأخذ يردد كلمات غريبة، ولكنها صادقة: الرجل مات واستراح، أما هذه السيدة التى جنت، فماذا يكون مصيرها؟ كيف تعيش؟ من الذى يرعاها؟ لقد كانت تعمل حتى تأكل بعرقها، فإذا حل بها هذا الجنون، فمن يعمل بدلا عنها؟ يا ربى

!.. أهكذا يقدر لنا هذا المصير؟ إنه ليس مصيرك وحدك ياخالتى "أم الهنا". كلنا مثلك يا مسكينة. كل البلد مثلك. أنت فقط تتقدمين صفوف الأشقياء والمعذبين. أما من وراءك من صفوف، فنحن جميعاً يا مظلومة، باختلاف درجات الظلم والشعور به.

بل إنك نجوت مما نتعرض له كل حين. أنت فقدت عقلك. أنت تحررت من عقلك، فتساوت أمامك الأشياء، أما نحن فلا نزال بعقولنا. لا نزال أسرى ومقيدين. لا نزال فى أغلال من تفكيرنا. آه لو فقدنا نحن كذلك عقولنا، لاسترحنا وأرحنا.

لماذا نعيش يا ربى هذه الحياة؟ لماذا نعيش فى مجتمع قائم على التضليل؟

أين الحقيقة يا ربى؟ أين تكون؟ أهى فى دور القضاء؟ دور القضاء التى حكمت بالموت على مظلوم، فى حين يمرح الظالم كيف يشاء ! أهى فى البرلمان؟ البرلمان الذى رفض عضو بارز فيه أن يتدخل لإنصاف "أبو عوف" خوفاً من غضب عصبة وعصبية لها شأنها فى مواسم الانتخابات، ولها وزنها فى التأثير على زبائن المكتب وقضاياه !

أين الحقيقة؟ أهى فى الحكومة الدستورية الشرعية؟ الحكومة التى أمرت بإساءة معاملة سجين، حتى مات ! أهذه حكومة لا تعرف كيف تجرب نفوذها إلا فى سجين ! أهى فى قوة الرأى العام؟ الرأى العام الذى تقوده صحف، لم تفكر إلا فى زيادة كميات ما تبيع، فتنشر قصة السجين المظلوم لتروج، ولكنها لا تتابع الموضوع وهى تعلم أن مصيره القبر قبل الأوان، كالقتل والذبح وسفك الدماء !

أين هذه الحقيقة؟ أين تكون؟

ومن يدافع عنها؟ من يتبناها، وقد ولدت فى هذا المجتمع الظالم، سفاحاً؟ نحن الشباب..هل هذا دورنا؟ هل هذا هو واجبنا؟ نعم، ولكن الطريق طويل وشاق، وخصومنا أقوياء، والأمر محتاج إلى تضحيات، فهل نستطيع أن نمضى فى هذه التضحيات، فلا نتوقف حتى يتطهر البلد من كل ما فيه من داء؟ وما الضمان أننا فاعلون؟ ما الضمان إلا نيأس؟ ما الضمان ألا ننحرف؟ إن الانحراف جميل، وطريقه مفروش بالورود. أنواره ساطعة تخطف الأبصار. مغرياته كثيرة وجميلة تلين الحديد.

وأخذ "رءوف" يمسك رأسه بيديه، وهو يبكى تارة، ويحاول أن يذكرك يا جدتى بنفسه تارة أخرى. وكم أخذ يربت على كتفك، ويناديك بأوصاف رقيقة، محاولا إعادتك على حالتك الأولى.

كم قال لك:

أنت "الهنا" و "أم الهنا". أنت روح الحياة فى بيتنا. أنت التى شببت على يديها. أنت التى علمتنى الصدق والأمانة والاستقامة. يا سيدتى أنت إنك أنت أمى. أجيبى ابنك "رءوف". هل نسيت "رءوف"؟

ولكنك يا جدتى بقيت كما أنت.

ولم يتركنى "رءوف" وحدى، فقد بدأ يشعر أنه مسئول عما حدث لك.

وكان يدرك أنى سأقول لخالتى فور عودتها، وأشفق على خالتى عندما تتلقى هذا النبأ نبأين: موت جدى، وحالتك يا جدتى؟

أقول لك الحق يا جدتى. لقد بدأت أحب "رءوف" حباً كثيراً. شعرت أنه قريب منى، وأنى قريب منه. أحسست أنه كان صادقاً فيما حاول، وأنه أراد أن يخدم الحق، ولكن تيار الباطل كان أقوى منه ومنا جميعاً. لقد تجمعت قوى الشر كلها، وتدخلت عند الذين فى يدهم القوة والجاه والسلطان، فمنعنا نحن من زيارة جدى، ومنع جدى من رؤيتنا إلى الأبد.

إن "رءوف" يا جدتى قريب منا قرباً شديداً، برغم أنه ابن تاجر غنى.

لقد أحببته من خلال دموعى يا جدتى، بل أنست إليه وخشيت أن يتركنى. كنت محتاجاً إليه وإلى معونته، ولو أنه حاول أن يتركنى وحدى، لتشبثت به ليبقى.

وعندما أقبلت خالتى بعد الغروب يا جدتى، فوجئت به جالساً إلى جوارك على أرض الغرفة، وكنت أنا بعيداً أرقبهما وأراقب خالتى.

.. من أنت؟ من تكون؟

- أنا "رءوف" أسمى "رءوف" المحامى.

- أنت الذى ...

- نعم أنا الذى حاول أن يخرج أباك من السجن، فلما فشلت كل محاولة، كتبت للجرائد، فنشرت القصة كاملة، ولكنها لم تهتم بأكثر من أن تنشر، فكانت النتيجة أن ثارت الحكومة أو لعل أحداً تدخل، فقررت منع زيارة السجين المظلوم.

- ولكن ما الذى أتى بك؟

- خالتى "أم الهنا". غيابها أقلقن .

- إنها كما ترى، لم تعد صالحة للعمل.

- نعم. لقد فقدت عقلها. ولكن من منا لا يفقد عقله أمام ما نراه كل يوم.

- ولكنا فقراء ومساكين. نحن لا يهمنا إلا أن نعيش مستورين كما ترى. ما لنا نحن والحكومة ورجال الحك ؟

- إذا لم يكن لكم بالحكومة شأن، فإن لها هى هذا الشأن.

- [illegible] تنسبه الحكومة منا؟

- [illegible] بكم مثلا لكل من تحدثه نفسه بالخروج على طاعتها أو طاعة أنصارها.

- أمرنا إلى الله يا سيدى.

- وامرنا كلنا إلى الله.

- وأنت ما ذنبك؟ ربنا يزيد عليك نعمته. هل أنت مثلنا؟

- كلنا متساوون. لا تظنى أن فينا من هو أفضل من الآخر، إلا بالانزلاق إلى الشر والإثم والانحراف. تصورى كيف نعيش. أصحاب الحظوظ هم الأدنياء الأشقياء. أما الشرفاء فلا حياة لهم فى هذا البلد. لابد من تعقبهم حتى يتوبوا عن الشرف ! فإذا لم يتوبوا، فمصيرهم مصير والدك ووالدتك. هذا مصيرنا كلنا.

ـ أبى. لا تذكر أبى. دعه فى حاله يعانى ما يعانيه.

ـ الا تريدين له أن يستريح؟

ـ أبى أفديه بروحى. أضعه فى عينى إن لم تكن له راحة إلا فيهما.

ـ فإن استحال ذلك، فكيف يستريح؟

ـ يخرجونه من السجن لنسهر على راحته كلنا.

ـ فإذا استمر فى سجنه. أترضين له أن يعيش فى السجن، وأن يعانى مع السجن المرض والعلة؟

ـ لا أرضى له هذا أبداً. مسكين يا أبى.

ـ فما الحل؟ قولى ما الحل؟

ـ لا أدرى.

ـ ألا تظنين أن الموت راحة له؟

ـ حرام عليك يا سيدى. حرام عليك. أليس لك قلب؟ أليس لك أب تحبه؟

ـ أحبه، ولكن هذا الحب لا يمنعنى من أن أفكر فى راحته، فإذا لم تكن هناك راحة له إلا فى الموت، فكيف أرفض أن يموت. هل أطيل عذابه وآلامه؟

ـ لكن الموت صعب.

ـ فإذا لم يكن هناك إلا الموت.

ـ والنبى يا سيدى اسكت. كفانا ما نحن فيه.

ـ إن أباك متعب فعلاً. هل تستطعين أن تريحيه؟ هل تستطيعين أن تزوريه؟ هل تستطيعين أن تخففى عنه؟ أليس هذا موتاً؟

ـ لكن نفسه فى الدنيا. من يدرى؟

- إن نفسه قد تقطع من الذل والاضطهاد والمرض. حرام عليك أن تطلبى له الحياة ليقاسى أيامه ولياليه.

- إياك...إ...يا...ك !!

- نعم...ن...ع...م !!

- نعم ماذا؟ مات ! أبى مات؟

- البقية فى حياتك. البركة فيك.

●●●

أنت لا تذكرين يا جدتى كل هذا. لقد كنت غائبة الوعى عن كل شىء.

على أنك أحسست الفاجعة. لم تعودى تضحكين. لم تعودى تغنين.

لم تعودى ترقصين. بل أصبحت حياتك إما دموعاً، أو شروداً كالدموع.

وأخذت حالتك تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

قال لى "رءوف" ذات يوم.

- إنى أخاف عليها. هل نذهب بها إلى المستشفى؟

ولم أرد بطبيعة الحال، فقد كنت طفلا لا أزال.

وعاد هو يحدثنى، أو يحدث نفسه:

- ولكن مستشفى دمنهور لا يصلح لها. لابد من إرسالها إلى الخانكة ولم أعرف ماذا يقصد بهذا الكلام.

ثم أخذ يحدث نفسه هذه المرة:

- على أن هذا قد يضاعف حالتها سوءاً و "مفيدة" ماذا تعمل؟ إن حالتها هى الأخرى تسوء. فمنذ مات والدها، وهى شاحبة واجمة، كمن ضيعته الحياة. ما ذنبها هى أن

تقطع عن والديها جميعاً؟ لا... لتبقى خالتى "أم الهنا" هنا، وها نحن أولاء نخفف عنها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

- كانت لهجة "رءوف" يا جدتى حزينة. وكان يشعر أنه منا. واحد منا. مسئولياتنا هى مسئولياته كذلك.

بل كان يتحدث عن خالتى "مفيدة"، وقد استبد به حنان رقيق حلو.

لقد أحبها يا جدتى. أحبها حباً شديداً. كان كثير التفكير فيها وفى أحوالها.

كان ينتظرها الساعات الطويلة، فإذا حضرت، نسى الزمن، ونسى كل شىء، فيمضى هو معنا ساعات أطول. وكان ينظر إليها فى إشفاق وإعجاب معاً، ويسألها أن تطلب أى شىء أى شىء تكون فى حاجة إليه. إنه مستعد لتلبية أية رغبة من رغباتها.

ولكن خالتى "مفيدة" كانت حيية وعصية معاً.

كانت تتقبل مجاملاته وهى خافضة رأسها شاكرة. وكان الحياء يستبد بها، حتى ليطفح الدم إلى وجناتها الحلوة. ولكنها لم تكن تطلب منه شيئاً. كانت دائماً تقول له إن لديها كل شىء. ولم يكن لديها شئ يا جدتى. كانت محتاجة إلى كل شىء.

ويظهر أن خالتى أحبته هى الأخرى، أحبته حباً صامتاً مكتوماً، ولكنه كان حباً صادقاً وشريفاً.

كانت تخفض عينيها حياء من نظراته، فما إن كانت نظراته تتجه اتجاهاً آخر، حتى تلاحقه بعينيها. وكانت عيناها ناعستين كأنما هى دائماً فى حلم جميل.

وكنت أرقبهما لأرى انفعالات كل منهما.

وكم كنت على وشك أن أملأ الحجرة ضحكاً يا جدتى، برغم المأساة التى كنا نعيشها.

كانت نظرات كل منهما إلى الآخر، كلعبة القط والفأر. هو يوجه إليها نظرات من قلب يكتوى بالنار، فتبدو مستجدية.. فتهرب هى من نظراته إلى أى شىء آخر. تنظر إليك مثلا، أو تتشاغل بعمل تافه، فإذا ما أبعد هو نظراته، كما يغمد الجندى سيفه، لاحقته

هى بنظرات والهة، تخرج من قلب أشد اكتواء بهذه النار. وقد كانت تهز رأسها فى بعض الأحيان تدلهاً بحبه، وإعجاباً به. فإن عاد ينظر إليها تشاغلت عنه.

كالقط والفأر والله يا جدتى.

ولم يكونا يتعبان من هذه اللعبة، كما لم أكن أتعب من مراقبتهما.

وكان على أن أحرص على مشاعرهما، فقد بدا لى أنهما يحرصان على مشاعرى. كان "رءوف" يخفض بصره حياء منى، وأنا الطفل الصغير، إذا لاحظ أنى ارقب نظراته. كذلك كانت خالتى. ولم أكن أريد أن أفسد حبهما. لقد كنت أحب هذا الحب. لأنى أحب خالتى، وأحب "رءوف".

وفى يوم من الأيام تظاهرت بالنوم، لأترك لهما فرصة التعبير عما فى نفسيهما.

ولم يقولا شيئاً. لم يتحدث هو إلا فيما اعتاد أن يتحدث فيه. ماذا تريدين؟ اطلبى أى شىء أى شىء والله. لماذا تترددين؟ هل ترينني غريباً عنكم؟ اعتبرنى واحداً منكم. أما هى فإنها تشكره فى حياء وخجل، وقد أدارت عينيها عن عينيه.

ثم يلعبان لعبة القط والفأر.

وامتد بقاء "رءوف" مع خالتى، أطول مما اعتاد كل ليلة. وظهر لى فى ضوء المصباح، وقد احمر وجهه واحمرت عيناه، وبدا كالملاكم يستعد لدخول حلبة الصراع. كان يستجمع كل قواه. كان يستعد لشىء كبير.

وكانت هى جالسة فى هذا الضوء الخافت إلى جوارك يا جدتى. وكنت نائمة تئنين من المرض الذى أصبح يهددك بالهلاك.

واقترب "رءوف" من خالتى "مفيدة"، ونظر إليها طويلا، فلم تنظر إليه. هكذا، كما تفعل دائماً. وكنت واثقاً أنها تراه، وتشعر بنظراته، وإن تعمدت أن تتظاهر بالتشاغل عنه.

وحاول "رءوف" أن يلفت نظرها إليه.

فلما طال انتظاره قال فى همس:

- "مفيدة" اسمعينى يا "مفيدة".

ونظرت إليه خالتى بزاوية عينيها. فقال لها:

- أنا أحبك يا "مفيدة" أنا أحبك.

قالت كمن فوجئت مفاجأة لم تكن تتوقعها:

- انت "يا رءوف بك" تحبنى؟

قال فى رقة وانفعال:

-نعم يا "مفيدة"، إنى أحبك من أعمق أعماق قلبى.

وشعرت يا جدتى أن خالتى "مفيدة" قد اسعدها أن تسمع منه هذا الكلام الجميل.

لقد كانت هى أيضاً تحبه. وقد ظهر لى وجهها ممتقعاً من فرط الانفعال. كان كل خد من خديها كطماطمة استوت على شجرتها. كانت كل شفة من شفتيها، كورقة ورد، أينعت على غصنها. وكانت كل عين من عينيها، كبئر فيها عمق وفيها كذلك صفاء.

لكنها نظرت إليه وقالت:

- دعنى يا "رءوف بك" فى حالى.

- ولكنى أحبك يا "مفيدة". هل تعرفين ما معنى هذا؟ إنى أؤكد لك أنى أحبك.

- أنا فقيرة ومسكينة. عليك بواحدة من طبقتك أو مستواك.

- وحبى ألا يشفع لى عندك؟

- كفى ما حدث لأختى "تفيدة". إنها ذهبت ضحية شىء كهذا. بل كل ما أصابنا من الذل، جاءنا نتيجة لهذا.

- ولكن الظروف مختلفة يا "مفيدة".

ـ والنبى دعنى أعيش لأطعم أمى المريضة، و"جلال" الطفل الصغير. أنا أعرف قسمتى. هذه قسمتى يا سيدى !

ـ أنت مخطئة. القسمة شىء والحب شىء آخر.

ـ وما أخرة هذا الحب؟ ستقول الزواج، كما تزوج "الحاج سلطان" أختى "تفيدة" !

ـ الله يرحمك يا "تفيدة" الله يجازى من كان سبباً فيما حدث لك، ولنا. يا سيدى هل تريد أن تقضى علينا؟ اتركنى ...اتركنى..اتركنى فى حالى.

●●●

وكان على "رءوف" أن يترك خالتى فى حالها، فقد جدت من عناصر المأساة، ما كان أقوى من الحب.

إنك لم تمكثى معنا طويلا يا جدتى.

جدى رحل. وأنت رحلت وراءه.

كأنما كنتما على ميعاد.

وسامحينى إن أنا قلت لك إننى كدت ارحل وراءك، فقد تركت فى قلبى فراغاً هائلا.

إنى لن أنسى لحظات رحيلك يا جدتى.

بدوت شاحبة، كأنك ظل أو صورة.

وضعف صوتك، أو بقايا صوتك، فى الحظات الأخيرة التى سبقت هذا الرحيل.

الله يرحمك يا جدتى.

كنا حولك أنا وخالتى و "رءوف".

كان صوتك ضعيفاً يتهدج، وأنت تقولين :

ـ إننى سألحق بـ"أبو عوف" ما أحلى هذا اللقاء، بعد هذه السنوات الطوال ! سأحكى له كل ما حدث يا "مفيدة". سأقابل هناك أختك "تفيدة". كم أنا مشتاقة إليها. كم أنا

سعيدة بلقائها. سأصف لها ابنها "جلال" وجماله الذى أخذه عنها. على أنى أريد أن أطمئن عليكما دائماً.

ونظرت إلى "رءوف" وقلت له:

- والنبى يا ابنى لا تتركهما وحدهما.

قال وهو يبكى:

- لن أتركهما أبداً يا خالتى "أم الهنا"؟

قلت:

- الآن ارحل مستريحة.

●●●

وغصت يا جدتى فى بحر الأبدية.

رحلت إلى الأبد.

أغمضت عينيك فى سلام.

ولم يقلق راحتك بعد ذلك شىء، حتى النحيب !

●●●

ومضينا بعد ذلك يا جدتى فى ركب الحياة.

إن "رءوف" بر بوعده لك، فظل يرعانا كأنه مسئول عنا. أما خالتى فقد طغت فاجعتها فيك على العاطفة العميقة التى كانت قد بدأت تدب فى قلبها.

وكانت فجيعتها فيك، وفى جدى، أكبر من حبها.

ولقد آثرت ألا تكرر ما حدث لأمى، ونزل "رءوف" على إرادتها، لكنه ظل - مع ذلك - واحداً منا.

كان شهماً، كان إنساناً كبير القلب. لقد وضعنى ووضع خالتى بين جفنيه.

لم أشعر يوماً أنه غريب عنا. بالعكس كانت صلته بنا تقوى يوماً بعد يوم.حتى صرنا جميعاً إخوة، وأصدقاء.

كل الذى كان يؤلمنى أننا كنا قصة من القصص التى يرويها الجيران. كانوا يتطلعون إلى خالتى، ويطيلون النظر إلى وجهها، كمن يحاولون أن يتبينوا سر هذه الخادمة التى استولت على قلب محام من أغنياء دمنهور، كما كانوا يرددون.

ولم يكونوا يدركون أنها المأساة هى التى جمعتنا.

لم يكونوا يريدون أن يدركوا. كنت أسمع ما أسمع، فيؤلمنى ظلم الناس للناس.

وفى أكثر من مرة، حاولت أن أروى ما أسمعه لخالتى "مفيدة" وأن أبكى.

ولكنى كنت أتذكر "رءوف" وتضحياته من أجلنا، وبره بوعده لك يا جدتى.

كذلك كنت أذكر وصيتك الأخيرة، وكيف قلت إنك ترحلين مطمئنة علينا، بعد أن عرفت أن "رءوف" لن يتركنا وحدنا.

وكنت كذلك شديد الحب "لرءوف" ولخالتى.

●●●

ومضت حياتى بعد ذلك.

مضت فى طريق شاق وصعب.

مضت تتعثر هنا وهناك.

ولكن أشياء كثيرة كانت تضىء لى الطريق.

أنت يا جدتى. رحيلك المؤثر وكلماتك الأخيرة البطيئة الضعيفة.

جدى وانفعالاته، والظلم الذى أحاط به بلا سبب أو مبرر.

"رءوف" الإنسان الكبير القلب، الطاهر الوجدان.

خالتى "مفيدة" وصبرها الرائع، على المأساة، والحب، والحرمان.

وأخيراً جسد استقر بين الأمواج فى الظلام فحدد مصيرى بين الأنواء والعواصف والدموع:

أمى المسكينة، لقد كانت أول الراحلين.

●●●

وما إن ينتهى "جلال" عند هذا الحد، حتى يزفر زفرة عميقة، كمن يخرج من قلبه هماً تجمع فيه.

وتفضحه عيناه، فإن همه قد احتاج أيضاً إلى دمعة كبيرة ملأت عينيه جميعاً، فلم يعد يرى من "مديحة" إلا أنها لا تزال واقفة تتطلع إليه فى رقة، وحنو، وحنان.

ويمد "جلال" يده فى الهواء، كأعمى يخاف أن تضطرب خطاه فيقع فى حفرة الزمن!

وتمد "مديحة" يدها إليه، لتسنده فلا يسقط منها على الطريق !

وتظل أيديهما متعانقة فى صمت.

وتظل الدمعة الكبيرة تملأ عينيه.

ويبدوان فى إغفاءة طويلة حالمة، قبل رحلة قد تطول، إلى مصير رهيب مجهول !

□□□

٤

انظرى يا "مديحة" هذه الساحة.

ألا تحسين شيئاً؟ ألا تشمين هنا رائحة خاصة؟ ألا يتضوع الجو هنا بالشذى، كأنه عروس فى ليلة زفاف؟

وهذا الصوت يا "مديحة"، ألا يملأ قلبك بالنشوة؟ ألا يملأ وجدانك بالطمأنينة؟

وتلك القبة الصغيرة البيضاء، فى ضوء القمر الفضى، وحولها أشجار السنط والجميز، ألا تشعرين أنها شىء جليل؟

هذه حياة ..هنا حياة يا "مديحة".

ما أغبى الناس !

إنهم يقبلون هنا، ليسيروا فى موكب الموتى، ولو عرفوا الحقيقة، لأدركوا أن هنا نداء الحياة !

يا "سيدى يا ذكيرى"، يا "أبو أحمد" كما يهتفون بك.

لا شك يا سيدى أنك تسخر من كل الدموع التى تراق هنا قرب ضريحك.

لا شك يا سيدى أنك تستخف بكل هذه الزفرات التى تنبعث هنا حول قبتك.

لأنك وأنت فى خلودك هذا الرائع، تمثل حقيقة الفرق بين الحياة والموت.

كل شىء حولك حى.

أنت حى.

أنت حى، حتى عند الذين يعتبرونك رمز الموت.

ألست ولياً من أولياء الله، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

ألست حارساً للموتى الراحلين، فى هذه الساحة الجليلة من الأرض الطيبة؟

أنت إذن حى، وإلا فكيف تستطيع أن تحرس موتاهم؟

بل أنت حى، كلما ناداك مكروب، لتزيل كربه، بما لك من مكانة عند الله.

وأنت كذلك حى، كلما اقتربت منك أفواه تهمس إليك بحاجاتها، لتقضى لها هذه الحاجات، يا ولياً من أولياء الله. أو كلما لمستك شفاه تتقرب إليك، لتشفع لها فيما عسى أن تكون فيه من محنة وعذاب.

والذين حولك أحياء.

ألا يزورهم الناس ود وأسى؟

ألا يقفون عند قبورهم يبكون، ويحكون، ويتلمسون العزاء؟

ألا يقبلون إليهم بأطيب الطعام وأطيب الشراب، فى الموالد، والأعياد، والمواسم، كأنما هذه المأكولات والمشروبات هى أنصبتهم من طيبات الحياة؟

ألا يعيشون معهم، بقلوبهم وعواطفهم، وهواجسهم، وأحلامهم؟

بل هذا الشجر حولك حى.

هذا الحصى أيضاً حى.

كل شئ هنا حى يا "مديحة".

والذين يتوهمون أن شيئاً ما بلا حياة، يخطئون حقيقة الحياة.

الحياة فى كل شىء حولنا هنا.

النسيم البديع الرطب، كله حياة.

الهجير الملتهب القاسى كله حياة.

الحجر الأصم الصلب، كله حياة.

الصوت الدءوب الذى ينبعث من الساقية، ويصل إلى أسماعنا هنا، كله حياة.

أشعة الشمس، ضوء القمر، ومض النجوم، كله حياة.

حتى الصمت. حتى السكون، كله حياة.

ولكنا مع هذا نظن أن الحياة أن نأكل، وأن نشرب، وأن نتحرك، وأن نتناجى، بل أن نتصارع فى سبيل الأطماع والأهواء والشهوات !

فإن خلت من ذلك كله لم تعد حياة، ولكنها صارت هى الموت.

ولو أننا تأملنا كل الكائنات، لوجدناها كلها بلا استثناء، تأكل وتشرب، وتتحرك، وتتحدث وتتناجى، وتتصارع أيضاً صراعاً لا نعرفه، ولا نتبينه، لأننا قاصرون عن أن نفهم طبيعته، أو أن نقف على مداه.

إننا ندرك ما نلمسه ونراه ونحسه، فإن عجزنا عن أن نلمس شيئاً وأن نراه وأن نحسه، فإننا نداري عجزنا، نختصر الطريق على إدراكنا، فنزعم أن كل ما عدا ما نلمسه ونراه ونحسه ميت !

فى حين أن كل شىء ينمو على طريقته الخاصة، ويتفاهم بأسلوبه الخاص، وله وسائله الخاصة فى التعبير عن وجوده.

حتى الذين يموتون هنا، ونراهم بأعيننا، وقد شحبت وجوههم، وغامت عيونهم، وبردت أطرافهم. حتى الذين يموتون منا، وندفنهم بأيدينا. نضعهم فى القبور، ونغطى أحداثهم بالتراب. حتى هؤلاء لا يموتون. أنهم يرحلون ... إنهم يغادروننا إلى عالم آخر أرحب من عالمنا، ودنيا أخرى أوسع من دنيانا، وحياة أخرى، فيها الصفاء والسلام والبساطة والعدل والحرية.

حياة لا تلوثها الأطماع، ولا تفسدها الشهوات، ولا تحطمها أحقاد البشر.

رحمك الله يا "رءوف" فقد طالما حدثتنى فى هذا، فعلمتنى معنى الزهد، وأذقتنى طعم القناعة، ودللتنى على طريق الحق.

"مديحة" اقرئى معى الفاتحة على روحه. لقد كان إنساناً كبير القلب، صافى النفس طاهر الوجدان.

●●●

وبينما أخذت شفاههما تتحرك بفاتحة الكتاب، غاب هو عن نفسه، وعن "مديحة" وعن الدنيا جميعاً، وهو يتذكر "رءوف"، وحياته التى مضت سريعة كالومض، خفاقة كالحب رقيقة كالحلم.

وإنه ليسترجع حياة "رءوف" من القمة ...

أيام أن كان فى مستشفى الحميات، ينتظر لحظة الرحيل، فيقول له كلاماً هامساً كالوحى شفافاً كالإلهام.

وإنه ليتذكر أحاديثه المبعثرة، فيحاول أن يلم شتاتها، ليكون منها وحدة تؤنسه وتنير له الطريق.

- "جلال" إنى راحل يا "جلال" راحل عن هذه الدنيا الغدارة، إلى عالم آخر بلا غدر. عالم كله صفاء وبساطة، وطمأنينة، ونعيم. ولست نادماً يا "جلال" على ما أصابنى. لست نادماً على الرحيل. بالعكس إنى سعيد بهذا الرحيل، فإنى سألقاها هناك تنتظرنى. وهناك لن يضطهدنا أحد. لن يتعقبنا أحد. لن ترفض الزواج منى خشية المصير، لأننا سنكون فى عالم تزول فيه الفوارق بين الناس. عالم الخلود يا "جلال". عالم تقوم طبقاته على أساس ما قدمت الأيدى من حسنات. على أساس التقوى والإيمان والعمل الصالح، لا على أساس المال والنفوذ والسلطان. كل هناك بقدر عمله. بقدر خيره. بقدر صلاحه. بقدر استقامته. لا بقدر أصله، أو حسبه، أو نسبه أو جاهه.

شيء واحد يا "جلال" يجعلنى أتلفت إلى هذه الدنيا، أتمنى لو يطول فيها بقائى. إنه أنت. إنى خائف عليك، فإنك ما زلت محتاجاً إلى الرعاية والعناية.

أنت ضحية يا "جلال"، وكلنا ضحايا مثلك، إلا إذا تحركنا فى دائرة ذوى المصالح والأهواء، وحينئذ نتحول من ضحايا إلى جلادين !! هذا مجتمع لا تستطيع أن تكون فيه إلا ضحية أو جلاداً !! ولا وسط !!

وما كان أرق ما ناجيتها به وأنت تطرق باب الأزلية.

- "مفيدة"، لقد أردت أن أعوضك بالحب العذرى الطاهر، عن قسوة الحياة التى عشتها.

ولم يكن حبى لك نوعاً من الصدقة أو الواجب حتى تهربى منه. ابداً لقد أحببتك فعلا. أحببت صبرك فى وجه الظلم. أحببت سكينتك أمام فواجع الزمن. أحببت فيك الرضى والقناعة والوفاء. أحببت الطهر والعفة. أحببت السذاجة البسيطة المستقيمة. وتوج كل صفاتك هذه، هالة من النور، صحبتك يا مسكينة فى رحيلك إلى العالم الآخر: التضحية.

وما كان أعدل ما وصفت به موقفها وموقفك:

- ما أقسى ظلم الناس للناس. لقد ظلموك يا "مفيدة"، تحدثوا عنى وعنك، حتى وصل كلام الناس إلى أهلى، ذهلوا لما سمعوا.

كانت آمالهم أن يزوجونى من أسرة كبيرة، فلما شعروا أن علاقتى بك قد تحول بينهم وبين هذه الآمال، ثارت ثائرتهم، علىّ وعليك.

سامحيهم يا "مفيدة". لقد كنت وحيدهما، ولم يكونوا يعرفونك.

وما كان أروع كلماتك الأخيرة عنها.

- لكن "مفيدة" رحلت يا "جلال" كما تعرف.

ماتت وهى تصارع المحنة والألم. وعشنا على ذكراها معاً، نتواصى بالصبر، ونتواصى بالمرحمة.

شىء واحد كتمته عنك يا "جلال" هو أن "مفيدة" ذهبت ضحية مجتمع ظالم، تنتفخ فيه بطون، على حساب بطون أخرى تجف من الجوع !

ماتت مصابة بفقر الدم وروماتيزم القلب.

ولم تكن تدرى هى أن شيئاً كهذا يستقر فى جسمها متخفياً كاللص.

ولم تكن تأكل إلا أقل القليل. لم تكن تتغذى إلا من تضحياتها. كانت تظن أنى أعانى من أجلكما ما لا أطيق، فأرادت أن تشاركنى المسئولية بأسلوبها، أو بالسلاح الذى تملكه: أن تجوع.

وانهارت مقاومتها، وساعدت بيديها كل ما تخفى فى جسمها من مرض على أن يفتك بها.

هكذا ماتت من الضعف والفقر والتضحية.

إن "مفيدة" يا "جلال" ماتت من الجوع، وإلى جوارها مئات يموتون من التخمة !

وتركتنى وتركتك، نطوى قلوبنا على الحسرة عليها، ونتكوى بنار فراقها حتى نلقاها. لا بل حتى ألقاها أنا، وسأطمئنها عليك يا "جلال".

●●●

ما كان أصرحك مع والدك عندما أراد أن يقطع دابر الشائعات عنك. بزواجك من إحدى بنات الأسر فى دمنهور.

وبرغم أن خالتى "مفيدة" كانت قد ماتت، إلا أنك مع هذا رفضت الزواج وقلت له يومها:

- إنى لم أعد أصلح للزواج يا أبى.

- أنت شاب متعلم. أنت محام ناجح. كيف لا تصلح للزواج؟

- لأنى لن أجد واحدة تصلح لى.

- غريبة ! وبنات الأسر الكريمة التى نعرفها. الا تصلح واحدة منهن زوجة لك؟

- لا يا والدى. قد تكون بينهن كثيرات صالحات، لكن لغيرى.

- إذن كان الناس على حق عندما تحدثوا عنك وعنها. أتكون قد تزوجتها يا ولد دون أن ندرى؟!

- ليتها قبلت يا والدى؟

- من؟..هل جننت حتى تقول هذا؟

- لو أنها قبلتنى، ما ترددت فى الزواج منها.

- شىء غريب. إذن لا بد أن تتزوج الآن وتستقر؟

- لا، لن أجد واحدة مثلها.

- وأمك يا بنى. ألا تريد أن تريحها وأنت وحيدها؟ إنها تود أن تراك عريساً جميلا لتفرح بك فرحة عمرها.

- أضرورى أن أكون عريساً حتى تفرح بى أمى؟

- وكلام الناس اللاذع؟ إن زواجك، سيقف هذا الكلام أيضاً.

- دع الناس يتكلمون. المهم هو أن نعمل، فإن العمل وحده هو الذى يرد على هذا الكلام.

- يا "رءوف" يا بنى إنى لا أفهمك.

- إنى أشعر يا أبى أن على واجباً نحوها بعد أن ماتت، وهو أن أعمل ما فى طاقتى لإسعاد البسطاء المحرومين، ممن لا يخطرون على بال أحد. إنى أراها فى كل وجه محتاج، وفى كل جسد محروم. وسأرى ماذا أستطيع أن أقدمه وفاء لذكراها.

- وأمك يا "رءوف"؟

- دعها لى يا أبى، إنها ستقدر موقفى. إنها أمى.

ـ والله يا ابنى إنى أسمع كلامك فأقتنع به، ولكنى أسمع كلام الناس، فأخاف عليك.

ـ الناس يا أبى يتكلمون، لأنهم لا يشغلون أنفسهم بشىء جميل ومفيد، ولو أنهم وجدوا شيئاً آخر يعملونه فى سبيل بناء هذا المجتمع على أسس سليمة، فلن يتكلموا هذا الكلام الذى يقلقك.

ـ إذن يا ابنى عليك بأمك.

وذهبت يا "رءوف" على أمك.

كانت غاضبة منك وثائرة عليك. لكنك استطعت أن تهدئ من ثائرتها.

بل لقد بلغ التأثر أنها بكت معك عليها، وقالت عنها إنها شهيدة، ومن خلال دموعها أوصتك بى خيراً عندما علمت أنى الأثر الوحيد الباقى منها، وأنى صرت فى هذه الدنيا وحيداً بلا أهل ولا صديق !

●●●

هل تذكر يا "رءوف" كيف مضينا بعد ذلك فى الحياة؟

هل تذكر الجمعيات الصغيرة التى كونتها؟ هل تذكر جمعية الثقافة؟

لقد ضحكوا عليك يوم دعوت إلى تكوينها. وكانوا يقولون: ثقافة !! ما هذه الثقافة التى تتحدث عنها؟ ولم يكن يجدى مع هؤلاء أن تبين لهم مدى حاجة المواطنين إلى الثقافة، لم يكن يجدى معهم أن تعدد لهم أدواء هذا الوطن، وكيف تعالجها الثقافة، لكنك لم تيأس قط. كنت تقول لى إن هذا من أجلها. إنى كلما قدمت خدمة إلى محتاج، كانت وفاء لذكراها، وكل هؤلاء محتاجون إلى الثقافة. ويوم ينالون حقهم منها، فلن يضحك عليهم أحد.

ونجحت الجمعية الثقافية، وخدمت عدداً كبيراً من المواطنين.

هل اذكر صديقنا القهوجى، الذى ما إن أتم تعلم القراءة والكتابة، حتى بدأ يقرأ كتب المنفلوطى والبشرى ومصطفى صادق الرافعى؟ ثم هو لم يكتف بهذا، ولكنه أصر على أن يشارك فى تعليم آخرين من زملائه ممن لا يقرءون ولا يكتبون؟

والمكوجى الذى أصبح من عشاق المسرح، فألف فرقة تمثيلية من زملائه، ولم يمض عليه وقت طويل حتى أخذ يؤلف الروايات للمسرح، ليمثلها بنفسه؟

هل تذكر الرواية التى كتبتها عن فساد الحكم؟

وهل تذكر التصفيق المدوى الذى قد قوبلت به هذه الرواية؟

وهل تذكر وجه سعادة المدير، وكيف امتقع، والناس يصفقون للنجاح الهائل فى التعبير عن واقع مؤلم يعيشونه؟ لقد اضطر هو الآخر غلى أن يصفق، وإنما فى فتور عجيب ! كان يساير المجتمع الذى حوله، وهو يدخر له بعد ذلك أمراً ! أما هذا الأمر، فهو أنه قرر على الفور عدم الترخيص بتمثيل الرواية مرة أخرى ! لقد خاف من الواقع. أزعجه أن يدرك الناس واقعهم، وأن يعبروا عنه هذا التعبير ! ولكنها كانت طلقة محكمة ومباشرة على كل حال.

وأروع ما كان يملأ نفسك بهجة وسعادة أن أعضاء الجمعية، كانوا يغيرون أسلوبهم فى الحياة. كانوا يقبلون على الحياة متفائلين.

كانوا يتعاملون مع الآخرين، بروح مختلفة ...

كانوا يشيعون فى الجو الذى يحيط بهم راحة وبهجة واملا.

وكانوا فى الوقت نفسه، يتمسكون بحقوقهم فى غير تعنت، ولا يفرطون فى هذه الحقوق أبداً.

كانوا يعرفون واجباتهم فيؤدونها، وحقوقهم فيتمسكون بها.

وقلت لى فى نشوة: هذا أول الطريق.

ولكن رجال الإدارة والمباحث والحكم، لم يكونوا يجهلون النتائج التى تترتب على تكوين هذه الجمعية، وانتشار أثرها بين الناس.

لقد أحس سعادة المدير نفسه، أن التصفيق الذى قوبلت به المسرحية طلقات موجهة ضده. ولما انتشر رجاله بعد ذلك يراقبون الجمعية ونشاطها، أدركوا الخطر الكامن فى هذه الجمعية الصغيرة فقرروا أن يتعقبوها حتى ينتهوا منها.

وكنا قد وصلنا على تسهيلات مختلفة.

المدارس كانت تفتح لنا أبوابها، لتعليم القراءة والكتابة فى فصول مسائية.

الجمعيات المختلفة كانت ترحب بنا.

النوادى كذلك كانت تعطى من التسهيلات ما تستطيع.

والمتطوعون كانوا يتكاثرون حول الجمعية، ليساهموا فى أغراضها.

وكان على رأس الذين يشجعون الجمعية سعادة مدير المديرية، ورجال الإدارة والمباحث.

ولعلهم ظنوا بذلك أن الجمعية ستخدم أهدافهم، وأنهم يستطيعون أن يسيطروا عليها لمصلحتهم.

وكم كنت رائعاً وأنت تسخر منهم:

واهمون، مخدوعون!

لم يدركوا أن الثقافة سلاح من أسلحة الحرية، وأن من المستحيل تسخيرها لشىء شاذ أو ملتو أو غير مشروع.

الثقافة هى حركة الفكر إلى الحرية، وحركة الوجدان إلى الاكتمال، وحركة الإرادة إلى العمل.

الثقافة خير وفضيلة وحرية وجمال.

الثقافة نور يملأ بالبهجة والتفاؤل.

الثقافة وجدان مرهف يظهر الحقائق فى وضوح وإيضاح.

الثقافة شعور عميق بالمسئولية نحو الجماعة ونحو الإنسان، كل إنسان.

الثقافة أمل لا يخبو، وأمنية لا تقف عند حد ولا تنتهى عند غاية.

الثقافة تتطلع دائماً نحو حياة أفضل.

الثقافة بصيرة شفافة نفاذة، تدرك الحقائق المستخفية وراء أشكالها.

الثقافة شئ فى الضمير، يرفع مستوى الفكر والوجدان والإدارة إلى كل ما هو رائع فى الحياة.

الثقافة تمسك بالقيم الفاضلة، والمثل العليا، وكل ما هو جميل وشريف وفاضل.

الثقافة وطنية. الثقافة تضحية. الثقافة قناعة. الثقافة رضى. الثقافة عمل. الثقافة تسام عن الدنايا. الثقافة ارتفاع عن الصغائر. الثقافة رحمة للصغير والعاجز والمحتاج.

بل الثقافة درع يحمى الناس من الرواسب الصغيرة فى النفوس، وهو كذلك نار تصهر ما عسى أن يكون فى الطباع من بقايا حياة الغاب.

والإنسان المثقف لا يمكن أن يقبل على عمل دنىء.

لا يمكن أن يعتدى. ولا يمكن كذلك أن يتساهل إذا اعتدى عليه.

أتذكر يا رءوف؟ لقد كانت هذه هى كلماتك. لكن رجال السلطة حاولوا أن يخمدوا الشعلة قبل أن يشع نورها على ما يحيط بها من حياة. وكانت معاكسات خبيثة، ولكنها كانت يائسة.

وكنت تقول:

إن الشعلة إذا أضيئت، فمن العبث أن تمتد إليها يد تحاول أن تخمدها.

إن ضوءها أقوى من هذه الأيدى. إنها تضىء حتى هذه الأيدى، فتكشفها، أو تفضحها.

لكنهم حاولوا ـ مع هذا ـ محاولاتهم.

اعتذرت المدارس بأن نشاطها وأعمالها لا تسمح بمنح التسهيلات اللازمة للجمعية، واعتذرت الجمعيات، واعتذرت النوادى!

بل اعتذر المعلمون الذين كنا نستعين بهم!

انسحب كثيرون ممن تطوعوا، تحت ضغط الحاجة !

لكن مقاهى دمنهور تحولت إلى أندية ثقافية، لتملأ هذا الفراغ؟ وبات الأمر ينذر بخطر على الجمعية وعلى أعضائها.

ما كان أعقلك يا "رءوف" عندما قررت أن تستعين على هؤلاء اللئام، بأسلوبهم فى المقاومة فقررت أن تصفى أعمال الجمعية بحجة نفاذ أموالها.

وبعد أيام ...

بدأت نشاطاً من نوع آخر.

انشأت جمعية الكتاب والسنة. جمعية صغيرة أخرى، ولكنها كانت شيئاً لا يقاوم. إنها تخدم الدين الحنيف، وتهدف إلى زيادة أثره فى النفوس.

ولم يستطع احد أن يقف ضد الفكرة.

كان معنى ذلك أنه يقف ضد الإسلام الحنيف، وأنه يتهاون فى حق الله ودينه.

ولكم ضحكت من قلبك وأنت تسخر من هؤلاء الناس.

المدير الذى ضاق بالتصفيق للمسرحية، حضر حفل افتتاح هذه الجمعية.

وأخذت تستعمل الدين فيما أنزله الله من أجله.

ألم يكن محمد صلى الله عليه وسلم مضطهداً بين قومه، والظالمين من أهل مكة؟

ألم يحاربوه، لأن دعوة الحق والفضيلة والعدل والحرية التى نادى بها، كانت تهدد مصالحهم؟

أو لم يعمل على تحرير العبيد من سيطرة السادة المتحكمين فى كل شىء حتى أنفاس الناس؟

أو لم يحررهم حتى من الأحجار البغيضة التى كانت تفرض عليهم، آلهة يعبدونها؟

أو لم يقاس المر حتى اضطر إلى أن يهاجر بدينه؟

وهذا كتاب الله جل جلاله. ألا يقرر صراحة أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة؟

ومن هذه الزوايا بدأت تنفذ إلى أغراض أخرى كبيرة، وأن تذيع بين الأعضاء آراء دعا إليها الدين الحنيف، وقامت عليها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين.

هل تذكر كيف استقبلت السلطات هذه الآراء؟ وكيف كانت طبيعة الصراع بين الآراء؟

لم تكن تستطيع أبداً أن تقول قفوا هذا النشاط ! إنه دين الله. ولم تكن تستطيع أن تمنع أية تسهيلات عن جمعية تحمل اسم الكتاب والسنة. ولكنها لجأت على طريقتها، إلى أسلوب خبيث فى المقاومة.

أغروا بعض رجال الدين، من المضللين، بأن يدخلوا الجمعية، وأن يتسللوا إلى مراكز القيادة فيها.

وجاء هؤلاء ودستورهم فى الجمعية شىء واحد لا يحيدون عنه: أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم. وأن الله لم يخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه.

وطالبوا أعضاء الجمعية بألا يكون لهم عمل إلا العبادة، وطاعة الله والرسول وأولى الأمر.

وبدأ جيل المثقفين يناقش هؤلاء فى طاعة الله والرسول.

الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى الحرية، وإلى الموت دونها.

الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى العدل، وإلى تحقيق العدل بين الناس.

الرسول صلى الله عليه وسلم حارب اضطهاد الإنسان للإنسان، وحارب ضعف النفوس، وما فيها من شراهة وأنانية.

الرسول ﷺ دعا إلى محاربه المنكر بالسيف، واللسان، والقلب.

وكان هؤلاء الأساتذة المضللين يسمعون المناقشات، فلا يقرون إلا شيئاً واحداً: العبادة البحتة. والطاعة الكاملة..ولا سواها.

●●●

هل تذكر كيف كانت الأسئلة المحرجة تفضحهم؟

ـ وما معنى العبادة يا مولانا؟

ـ أن تؤدى فرائض الدين. تصلى وتصوم، وتطيع الله والرسول وأولى الأمر.

ـ أو ليس من الكفر بالله. ألا تفعل ما أمرنا به الله؟

ـ طبعاً هذا كفر ولا شك.

ـ وهل دعانا الله إلى التسليم بالعبودية؟

ـ لا ...إطلاقاً.

ـ فإن كنا فى بلادنا عبيداً، ولا نحارب الاستعباد، فهل يكون هذا تواكلا فى تنفيذ أوامر الله، واستهتاراً بما وضع من أحكام؟

ـ أنتم تسرفون فى التأويل والتفسير. الحق يا ابنى بين والباطل بين.

ـ والاستعباد أليس كذلك بيناً؟

ـ أى استعباد؟

ـ الاحتلال الجاثم على بلادنا؟..والذين مكنوا الاحتلال من رقابنا؟ والخدم المخلصون للاحتلال، وأهدافهم البعيدة، فى قتل روح الأمة؟ أليس هذا استعباداً يا مولانا؟

ـ هذه مسائل سياسية عليا، يحسن ولى الأمر فينا تقديرها، فإذا شاركنا أولياء أمورنا أعمالهم،، فذلك خروج منا على طاعتهم، ومن يخرج على طاعة ولى الأمر، فقد خرج على طاعة الله.

ـ ومن يكون ولى الأمر يا مولانا؟ كيف يتم تولى ولى الأمر، الأمر؟

ـ بالمبايعة؟

ـ جميل جداً.. فهل بايعنا أولياء أمورنا؟

ـ ألم ننتخب برلمان، والبرلمان انتخب حكومة؟

ـ وهل يتم الانتخاب حقيقة، وفقاً لشريعة الله؟

ـ الانتخاب حر، لكل أن يدلى فيه بالرأى الذى يريد، وأن ينتخب من يشاء.

ـ يا مولانا.. وهل يتم الانتخاب بهذه الحرية حقيقة؟

●●●

وهكذا كان الصراع قائماً بين المضللين وبين الثقافة الدينية المستيرة. وغلبت الثقافة الدينية المستنيرة.

وحار أولياء الأمر فى دمنهور، ماذا يفعلون.

لم يكن أمامهم إلا أن يلجأوا إلى أسلوب آخر لمحاربة هذا التيار.

إثارة فتنة دينية تنقذهم من هذا الاندفاع نحو التقدم.

وحاولوا أن يحملوا أقباط دمنهور على أن يقفوا ضد الجمعية بحجة أنها تدعو إلى التعصب وتحمل المسلمين على كراهية الأقباط، وتعمل على تفريق صفوف الأمة.

ولكن الأقباط لم يكونوا من السذاجة بحيث يتخذون هذا الموقف، فأجابوا على هذا التحريض بأنهم لا يودون الدخول فى هذا الصراع، خاصة وهم يمارسون مثل هذا النشاط فى محاولة ترقية مستوى أبناء طائفتهم.

وكم كان رائعاً ذلك القسيس الذى قال:

ـ نحن نفتح مدارس لأبناء الطائفة. نحن نفتح مستشفيات. نحن نجمع تبرعات للمحتاجين. نحن ندرس لهم الإنجيل، والقيم الفاضلة التى دعا إليها المسيح، فكيف

يستقيم إذا أن نتهم الذين يفعلون مثلنا، فى نطاق دينهم، بأنهم متعصبون. ليس هذا تعصباً، ولكنه عمل فى سبيل الأخذ بيد المحتاج من أبناء الدين.

ولم تعدم دوائر المباحث والأمن وسيلة تتخلص بها من هذا التيار.

حرقوا إحدى الكنائس، واسرعوا إلى إطفاء الحريق، ثم أقاموا الدنيا وأقعدوها، متهمين هذه الجمعية بتدبير الحريق.

وكانت الإجراءات التى تعرفها يا "رءوف".

لقد قضوا على الجمعية، فوضعوها فى قبضة المضللين الوصوليين.

●●●

هل تذكر بعد ذلك ماذا حدث؟

لقد كنت تعتبر كل خطوة من هذه الخطوات انتصاراً جديداً، برغم ما تصاب به هذه التشكيلات الصغيرة المحدودة من فشل، وبرغم مقاومة السلطات لها. كنت تقول إن هذا الفشل فى ذاته دليل على انتصارها. هذه المقاومة دليل على حيويتها، فلولا أنها ذات شأن وذات أثر، لما أولتها السلطات هذا الاهتمام.

واجتاح البلاد تيار جديد، وساد الشعور بضرورة العمل على تحقيق الاستقلال الاقتصادى، بعد أن ترددت الصيحات بأن الاستقلال الاقتصادى هو السبيل ولا سبيل، إلى الاستقلال السياسى.

فى هذه الغمرة، وهذه الضجة، أنشأت جمعية "الاستقلال الاقتصادى".

ولم تكن تستطيع السلطات أن تحاربك والبلد كلها تتحدث عن الموضة الجديدة.

وبدأت بطريقة عملية، فأسست مغزلا صغيراً، واستقدمت له من العمال من تعرف فيهم الشرف والاستقامة والوطنية.

واتسع عمل المغزل فصار مصنعاً للغزل، وضم عدداً أكبر من العمال.

وطبقت فيه مبادئ جديدة، أولها أن يكون العمل والإنتاج وحدهما سبيل التقدم أمام العامل، بل أن يدير العمال أنفسهم هذا المصنع الوليد.

أتذكر كيف أصبح العمال حركة دائبة لا تتوقف؟ أتذكر البشر الذى طفح على وجوههم؟ أتذكر الرغبة الصادقة الملتهبة فى تقدم العمل وصيانة المغازل، والسهر على زيادة الإنتاج؟ بل هل تذكر، كيف كان العمال انفسهم هم أصحاب الاقتراح بتخفيض أسعار الإنتاج، وأنهم هم الذين نادوا بأن يكون الإنتاج فى خدمة المجتمع، فيعمل على أن يكون سعر البيع، فى طاقة أكبر عدد من أبناء الشعب؟

كانوا يأخذون حاجاتهم، وكانوا يقسمون الأرباح على أسس من العدل والكرامة. ولم يكونوا أنانيين ولا شرهين. أتقنوا إنتاجهم وعملوا على تقدمه وتطوره.

فقابل الناس ما ينتجون متحمسين فرحين سعداء. بل لقد باركوا هذه الروح الجديدة التى بدأت تسرى فى دمنهور، فتهدد أصحاب المصالح جميعاً.

وبقدر ما كانت بضاعتهم تروج، وكان الناس يقبلون على ما ينتجون بقدر ما كانوا يرضون عن أنفسهم، ويزدادون عملا وبذلا وتضحية.

على أنهم أقاموا لأنفسهم دراسات داخل المصنع الصغير.

وأقاموا لأنفسهم جمعيات لمختلف أنواع الخدمات.

ونظموا صفوفهم تنظيما يجعل من الصعب شل هذه الحركة التى بدأت.

وأحس أصحاب المصالح أن هذا التطور سيقضى عليهم، فثاروا ولجأوا إلى السلطات يناقشون الأمر الخطير الطارئ على حياتهم.

ولم تكن السلطات تعى من الأمر الشىء الكثير.

كان تقديرها أنهم جماعة من العمال، فيهم من النشاط والتضحية، ما جعلهم يدخلون السوق منافسين، فنجحوا فيما قاموا به، فتحسن الإنتاج ونزلت الأسعار.

ولكن أصحاب المصالح لم يكونوا ينظرون إلى الأمر هكذا.

كان إقبال العمال على هذه الأعمال معناه خراب رءوس الأموال

إن عمال جمعية "الاستقلال الاقتصادى" يدعون إلى رفع مستوى العامل. إلى أن يكون العامل موضع الرعاية والاهتمام. إلى توفير المسكن له. إلى تأمين علاجه. إلى توفير الأماكن اللازمة فى المدارس لتعليم أولاده.

بل إنهم يطبقون ذلك فعلا، حتى إن العمال فى المصانع الأخرى أخذوا يتمردون على أصحاب الأعمال، ليتساووا بأعضاء جمعية "الاستقلال الاقتصادى" أو يضربون عن العمل. وبدأ الاضطهاد هذه المرة رهيباً يا "رءوف". هل تذكر؟

هل تذكر كيف حملوا أصحاب المغازل الأخرى على أن يبيعوا إنتاجهم بسعر أقل من الأسعار التى تبيع بها الجمعية؟ ثم هم لا يكتفون بهذا. لقد اشتروا إنتاجاً مماثلا وأغرقوا به الأسواق، بأسعار دون أسعار التكلفة. وأخذوا يضاربون الجمعية، ويحاصرون إنتاجها بجميع أنواع الحصار.

وعرفت النتيجة من أول الأمر. وأدركت أن العمال لن يستطيعوا أن يقاوموا هذا الأسلوب فى هذا الصراع، على أنك رأيت أن تترك العمال يواجهون تجربة جديدة فى حياتهم، يدركون منها طبيعة خصومهم، ليستعدوا من الآن لمواجهتهم، عندما لا يكون هناك مفر من هذه المواجهة.

لقد كانت المفاجاة مذهلة لهم أول الأمر، فلم يعرفوا ماذا يفعلون.

ولكن الأسلحة غير المتكافئة التى استعملها خصومهم، دفعتهم إلى التمسك بإنتاجهم والتضحية من أجله.

قالوا ندخلها معركة حياة أو موت.

ونزلوا عن كل الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها.

قالوا لا خدمات، نوفر ذلك الآن، فنحن نواجه خصما عنيداً قوياً.

ثم زادوا على ذلك بأن خفضوا أجورهم إلى النصف، ثم إلى الربع.

ومع هذا فقد ظلت الأسعار المنافسة تنزل إلى ما دون ذلك.

وظلت الحرب دائرة بهذه الصورة البشعة، من صور عدم التكافؤ، حتى اضطرت الجمعية إلى أن تسلم بالأمر الواقع، وتستسلم فى نهاية الأمر.

وأدرك العمال أنهم لا يملكون إلا سلاحاً واحداً هو عملهم. هو إنتاجهم. هو وحدة صفوفهم. فى حين يملك خصومهم أسلحة كثيرة متعددة، النفوذ والمال والسلطان، والحكومة.

وكم كان مؤلماً وقاسياً أن يشرد العمال من أعضاء الجمعية، فلا يجدون عملا، ولا يجدون لأولادهم قوتاً !

لقد باعوا ما يملكون ...فاشتروا منهم أصحاب المصالح بأبخس الأثمان. على أنهم لم يشتروا جهدهم، ولا كد أيديهم. لم يعطوهم عملا فى مغازلهم حتى يعيشوا من هذا العمل. تركوهم هكذا مشردين جياعاً عبرة للآخرين، الذين سولت لهم نفوسهم ذات يوم أن يصبحوا أعضاء فى هذه الجمعية !

هل تذكر وجوههم الشاحبة يا "رءوف"؟

لقد كان الجوع يفتت أكبادهم، ومع هذا كانوا قادرين على التفكير فى مصاير بلادهم.

وجاءوك...ألست رئيساً للجمعية؟... وقالوا إنهم الآن يدركون اين يقفون. والدرس الذى افادوه من التجربة، سيكون ذخيرتهم عندما تحين الساعة للخلاص.

وحللوا الموقف تحليلا رائعاً وبارعاً، وأرجعوا كل شىء إلى نظام الحكم القائم، والعناصر غير الشرعية التى تحمى وجوده. وفهموا ببصيرتهم وبثقافتهم أن الأمر أعمق من أن يكون صراعاً بين جمعية صغيرة وعدد من أصحاب المغازل، ولكنه شىء آخر. إنه صراع بين الشعب ونظام الحكم الذى يتولى أمره. أنها قضية حرية البلد كلها.

ولقد انتهوا إلى أن محاولة فصل الاستقلال الاقتصادى، عن الاستقلال السياسى، محاولة غير مجدية.

هل تذكر هذه المناقشة العميقة؟

إنى لن أنساها يا صديقى، وسألقى الله، وهى لا تزال تتردد فى مسمعى، وسأرقب من العالم الآخر، كيف سيكون امتدادها فى ضمير العامل، وأسلوب العمل والإنتاج.

لقد تساءلوا فى استخفاف.

الاستقلال الاقتصادى !! ما هو؟

أهو هذه الأسهم والسندات التى يكونون بها البنوك والشركات؟

ومن الذى يملك هذه الأسهم وهذه السندات؟

أهم العمال؟ أهم طبقات الشعب؟ أهم الموظفون المساكين؟

إنهم هم أنفسهم، الأغنياء، وأصحاب الثروات !

يشترون آلاف الأسهم وآلاف السندات، ليكونوا البنوك والشركات، وليذيعوا فى آذان الدنيا أنهم يعملون فى سبيل تحقيق ما يسمونه استقلالا اقتصادياً. هو استقلال، طالما أن عائده راجع على جيوبهم !

وهو استقلال، طالما أن فائدته عائدة إلى خزانتهم !

وهو استقلال، طالما أن مزاياه لهم، ولأسرهم، ولأبنائهم !

ومن أجل هذا يطالبون الذين ثاروا من أجل الحرية والاستقلال. الذين اعتنقوا فكرة الكفاح حتى يتم جلاء الإنجليز عن أرض الوطن. يطالبون هؤلاء بالتريث قليلا، فإن التوقيت فى نظرهم محتاج إلى تعديل. اصبروا حتى نحقق لكم الاستقلال الاقتصادى، ثم ستجدون الاستقلال السياسى يتحقق من تلقاء نفسه، كما يطلع الفجر سهلا، وبلا مقاومة !

سبحان الله !!

والدم الذى سال. والأرواح التى ذهبت. والشهداء والضحايا. وآلاف التضحيات عبر الأجيال. كل ذلك يجب أن ينتظر، وهو يتطلع إليهم حتى يحققوا أولا معجزتهم هم، ثم يأتى الاستقلال !

وسيحققون هذه المعجزة، وهم يدخنون السيجار فى حفلات الاستقبال ! وهم يراقصون العرايا من الفاتنات البارعات ! وهم يقضون عطلات الإجازات على شواطئ الدنيا العامرة بموائد القمار ! وهم ينحنون فى استجداء أمام المحتلين الغزاة، الذين يقولون إن خروجهم من هذه البلاد هو هدفهم الأخير !! وهم يقدمون آلاف الأسهم والسندات هدايا لرجال الأحزاب مهما اختلفت أحزابهم !!

هذا هو الاستقلال الاقتصادى الذى يعملون على أن نؤمن به !

فإذا أردنا استقلالا حقيقياً، فانتظمنا نحن القوى العاملة فى هيئات ومصانع ندفع عجلة العمل إلى الأمام، ونوجه الإنتاج لمصلحة المجتمع، ونقضى بشكل مباشر على مصالح الاحتلال. إذا دخلنا هذه التجربة، فالويل لنا من هول ما نقابل به، فإننا نهدد وجودهم هم مع وجود الاحتلال !

لكنا نحن طيبون وسذج.

لقد أخذنا الدعوة مأخذاً جاداً، وربما كانت جادة كذلك فى ضمائر الذين بدءوها، ولكنها تطورت. التقطها الوصوليون ليجعلوها حيلة من حيل التخدير.

وها هو ذا مصيرنا. المصنع الصغير أغلقوه. أرزاقنا قطعوها. أسرنا جوعوها. ماذا تراهم يدبرون لنا بعد ذلك؟

وصاح واحد منهم:

- إنهم لن يتركونا. لقد ذهبت إلى مصنعى القديم، طالباً عملا، فقال لى رئيس العمال وهو صديق، إن لديه تعليمات ألا يقبلنى، وإنهم قد وزعوا أسماءنا على كل المصانع حتى لا يقبلوا منا أحداً.

وقال آخر:

- هذا صحيح، فإنه حدث معى، عندما أردت أن ألتحق بعمل، رئيسه قريب من أقربائى. إنهم ينوون لنا نية...لا أدرى...ينوون قتلنا من الجوع.

وارتفعت الصيحات من كل جانب:

ـ ولماذا نسكت عليهم. إذا كانوا ينوون أن يذلونا، فلنقض عليهم قبل أن يقضوا علينا.

وزاد سخط الجمع الصاخب الثائر:

ـ لنعلنها إذن ثورة جديدة. فيخرج من دمنهور صوت يجدد ثورة سنة ١٩١٩. صوت يكشف اللعبة الجديدة التى يلعبون بها علينا.

ـ كانت اللعبة الأولى الدستور. لقد نجحت اللعبة، فهدأت الثورة.

ـ وهذه لعبة جديدة. موضة الاستقلال الاقتصادى.

ـ بل هى أخطر، لأنها تؤدى إلى تمكين العملاء من النفوذ والثراء.

ـ بل هى تجمع الأطراف المتناقضة حول مصالح مشتركة.

ـ حتى الوطنيين المتطرفين.

ـ نعم حتى هؤلاء يغرونهم بالأسهم والسندات، لينحرفوا معهم إلى ما يريدون.

ـ يريدون ان يخلقوا طبقة لها مصالح خاصة.

ـ ويسيطرون بعد هذا على هذه الطبقة.

ـ وستكون طبقة خطيرة، لأنها قادرة على توجيه الرأى العام وتضليله.

ـ وستكون الصحف فى خدمتهم، لأنهم سيدفعون.

ـ وسيضحكون علينا باسم الاستقلال الاقتصادى.

ـ وغداً سنسمع أن لنا مصانع تنافس مصانع لفربول ومانشستر.

ـ وسنسمع من يروى لنا قصص عبقرية المهندسين والعمال، وتفوق إنتاجنا فى أسواق الدنيا.

ـ وسيكون هذا الكلام المعسول دشاً بارداً يصبونه على رءوسنا.

ـ لعبة محكمة التدبير.

●●●

ولم تستطع يا "رءوف" أن تسيطر على الموقف.

بل لقد غلا دمك فى عروقك، وشعرت أنك تكون مجرماً لو وقفت هذه العواطف الوطنية عن أن تنطلق.

وانطلقت. فوجئنا ذات يوم، بأن المعسكر البريطانى فى أطراف المدينة يحترق.

ولم نشك لحظة واحدة فى أنه واحد منا، أراد أن يطلق هذه الطلقة الأولى فى المعركة.

وبينما كان المعسكر يحترق. وبينما كان الجنود الإنجليز يحاولون إطفاء الحريق، بدأت عمليات اقتناص وقصاص من وجودهم الكريه.

وذهب منهم عدد قتلى، وعدد آخر جرحى، وعدد ثالث اختفى!

وهاجت الدنيا. وثارت الحكومة. واهتز الضمير الوطنى فى كل مكان.

وانبرت القوات الإنجليزية، واخذت تفرض على المدينة أحكاماً قاسية أقلها حظر التجول أغلب ساعات اليوم.

وبدأت عمليات تفتيشية رهيبة.

واعتقل كل العمال من أعضاء الجمعية. واعتقلت أنت كذلك رهن التحقيق.

وكنت خائفاً عليك يا "رءوف". ولكنى وجدتك صلباً قوياً. لم تهتم أبداً بهذا الاعتقال. ولم تخف، ولم ترتبك. اكتفيت بأن نظرت إلى نظرات كالدعوات.

وبقدر ما كنت حزيناً عليك، بقدر ما كنت فخوراً بك. واخذت أزورك كل يوم أحمل إليك الطعام والسجائر والحلوى.

وسألتنى:

- من أين لك ثمن كل هذا؟ وأنت بعد صبى صغير، لا تقدر على شىء!

وقلت لك فى ثقة وإيمان:

- الجمعية لم تمت. إن نشاطها زاد. كل البلد قد صارت جمعيتك. أنا لا أدفع شيئاً. أنا أتلقى كل ذلك دون أن أطلبه.

واطمأنت نفسك وأنت فى سجنك.

●●●

ما كان أطهرك فى سجنك يا "رءوف".

عرضوا عليك أرقى المراكز.

قالوا لك إذا أردت منصباً فى القضاء، فهو لك.

وإن أردت منصباً فى النيابة، فستناله.

وإن أدرت أن تمضى فى المحاماة، فإنا على استعداد لتدبير الأمر، بحيث تصبح محامياً وعضوا فى البرلمان. فى أول انتخابات قادمة.

والمال سيكون طوع بنانك. والنفوذ يسعى إليك. والسلطان والجاه، وكل ماتطمع فيه نفس شابة.

كل شىء معد لك.

ولقد دهشت لهذا السخاء، فأردت أن تزداد علماً بهذه الأسرار.

قلت لهم:

- ولكنى محام لم أصل بعد إلى سن الترشيح للبرلمان.

- وهل هذه عقبة تحول بينك وبين البرلمان؟

- نعم عقبة. عقبة مادية لايمكن التغلب عليها.

- بل يمكن التغلب عليها ببساطة.

ـ كيف هذا؟

ـ ألسنا نحن الذين نقبل أوراق الترشيح؟

ـ نعم.

ـ إذن تضيع شهادة ميلادك، ويقوم القومسيون الطبى بتقدير سنك، وسيقدر سنك بثلاثين عاماً، وهى سن الترشيح تماماً.

ـ لكن شهادتى الدراسية، فيها سنى بالتحديد.

ـ هذا شىء، وذلك شىء آخر.

ـ ولكنه تناقض يثير الشبهات، ويفتح باب الطعن واسعاً أمام خصومى.

ـ الطعن ستنظره لجنة الطعون بالمجلس. وطالما أنك ستقبل مانريده منك، فإن أحداً من لجنة الطعون لن يثير أية إشكالات. سترفض لجنة الطعون أى طعن، وتظل عضواً بالبرلمان. أتعرف مامعنى عضوية البرلمان. قضاياك يا ابنى تتكاثر، أجرك فى القضايا يرتفع. اسمك يلمع. مصالحك كلها تقضى. القضاة والحكام يرتعدون عندما تخطو الى قاعات المحاكم أو دواوين الحكومة. كلمة منك كافية لتحقيق المعجزات. الثروة والجاه والنفوذ، بل حياة المجتمع الراقى، ومافيه من لذه واستمتاع.

ـ لكن لابد من حزب يرشحنى.

ـ أهذه هى المعضلة. سيرشحك أقوى حزب. أى حزب تختار.

ـ فإذا لم يقبل الحزب.

ـ اسمع، لا داعى لهذه الأسئلة الساذجة. الأحزاب كلها تتلاقى حول مصالح بعينها، ونحن نعرف نقط الضعف فى كل حزب، وكيف نحقق أغراضنا عن طريق كل حزب. لنا فى كل حزب رجال. ولهؤلاء من القوة داخل الحزب، ما يمكننا من تحقيق أغراضنا.

ـ أليست الأحزاب مستقلة؟ ألا تحاربكم إذا كانت فى المعارضة مثلا.

ـ حرب الأصدقاء الأحبة. هل تعرف ماذا قال دزرائيلى؟

ـ عن ماذا؟!

ـ عن أصدقاء بريطانيا وخصومها؟

ـ آه... ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون، ولا أعداء دائمون، ولكن لها مصالح دائمة..أهذا ما تقصدون؟

ـ نعم..كذلك نحن. كذلك الحكومات المتعاقبة. كذلك الأحزاب. ليس لواحد منهم أصدقاء دائمون، ولا أعداء دائمون، ولكن مصالح دائمة.

ـ إذن أنتم تتعاونون مع الأحزاب.

ـ وهى كلها تتعاون معنا.

ـ ولكن الرأى العام لا يعرف هذا.

ـ ولا ينبغى له أن يعرف. هذا سر من أسرار الحكم.

ـ والمعارضة وقسوتها فى الهجوم على الحكومة وعليكم.

ـ شىء نعرفه، ولا نهتم به. وثق أن هذه المعارضة هى أخف علينا من الأم الرءوم يوم تدرك أن هذا الهجوم سيضر بنا ضرراً حقيقياً. إنها تدخرنا ليوم تحكم فيه. لهذا فهى حريصة علينا.

ـ وأنتم؟!

ـ نحن أيضاً حريصون على المعارضة وعلى رجالها. إنهم اليوم معارضة، وغداً حكومة.

ـ هذا كلام غريب.

ـ بل هو الحقيقة.

ـ إنه إذن "سيرك".

ـ قل ما تشاء. ولكنه الأمر الواقع.

ـ وتريدوننى أن أعمل فى هذا "السيرك"؟

ـ تستفيد يا ساذج. تنتقل إلى مرحلة أخرى من المتعة والجاه. تصور أنك ستحقق هذه الحياة فى هذه السن المبكرة. ستسعى الدنيا بين قدميك. ستعيش فى لذة لا تنتهى. ستتساقط النساء تحت قدميك. سيسعى إليك الرجال ساجدين. كل شىء سيكون تحت أمرك.

ـ لكنى لم أعتد حياة "السيرك". ليست حيواناً يدور فى حلقة والمدرب يعبث به كما يشاء.

ـ لا لا ...لا تقل هذا.

ـ بل هو هذا تماماً. سيتفرج على الناس. سيصفقون لى أحياناً كأنى بطل. وسيضحكون على أحياناً أخرى كأنى دمية. سيهللون مرة، وقد يبكون أخرى لمنظرى البائس. على أن ذلك لن يخرجنى عن انى حيوان تلاعبونه وتلعبون به ليلهو بذلك الناس. هل أقبل هذا؟ هل أقبل أن أكون لعبة بين أيديكم؟ هل أقبل أن أغدو دمية تحركونها كيف تشاءون؟ كيف أنام؟ كيف يغمض لى جفنان؟ لا يا سادة. ابحثوا عن لعبة أخرى سواى.

ـ ولكنك تلعب بالنار.

ـ أى نار؟ أنا أعيش حياة جادة واضحة مستقيمة. إذا خاصمت، فهى خصومة فعلية. وإذا هادنت فهى مهادنة حقيقية. وإذا صادقت، فهو صلح إنسانى دائم، قائم على أسس من الأخلاق والفضائل والمعاملات الواضحة بين البشر. أفهمتم؟

ـ لا لا. أنت لست جاداً. إنك ما زلت شاباً صغيراً وسيما، أمامك مستقبل كبير فلا تضيعه بهذه الخرافات. الناس الذين حولك لن ينفعوك. العمال والطلبة وصغار الموظفين كل هؤلاء ليسوا إلا مساكين، إذا أمرناهم أمراً نفذوه. لا تصدق هذه الحرارة الزائفة. لا تصدق هذه الحماسة المؤقتة. إن لكل من هؤلاء مصالح. لهم أرزاق. لهم أسر. لهم عيال.

ومحال أن يضحوا كل ذلك من أجل آرائك. إنهم يضللونك. إنهم يخدعونك. إنهم مسحورون سحراً مؤقتاً، سيزول إذا طلع النهار، وظهرت لهم حقائق الحياة. أتفهم؟

- لكن لماذا كل هذا؟ ماذا تريدون منى؟

- لا شىء. لا نريد منك أن تتنكر لشىء مما فعلته أبداً.

- تعنون أمضى فى الجمعيات التى أنشأتها؟

- طبعاً. لا بد. نحن لا نقبل لك أن تتراجع أمام قوم وثقوا فيك.

- لكن هذه الجمعيات أزعجتكم، برغم صغرها.

- وأنت تملك ألا تجعلها تزعجنا. تسير معنا. نتفق على الأسلوب الذى نسير فيه.

- أضلل العمال والطلبة والموظفين الصغار؟

- بل ستخدمهم، ولكن فى الخط الذى لا يعرض نشاطهم لخطر.

- ولكنهم سيكشفوننى.

- إطلاقاً. وسنبدأ بأن نجعل محاكمتك محاكمة بطل كبير. ستقول كل شىء ستعلن رأيك صريحاً وواضحاً فى الحكومة. ستسبنا إذا أردت ستدافع عن العمال والطلبة وصغار الموظفين. ستقابل بالتهليل والتصفيق، لتزداد صلتك بهم، وتأثيرك عليهم، ومكانتك لديهم. إننا حريصون على هذا، على أن يكون واضحاً أن أسلوب عملنا سيكون متفقاً عليه بيننا. بهذا تخدمهم وتخدم نفسك.

- بل بهذا أمثل دور الحيوان فى حلبة المبارزة مسألة كلها تمثيل ! كلها، كلها ضحك على الذقون. كلها خداع وتمويه وتضليل ! أما كفانا هذا؟ ألم يأت الأوان بعد لعمل جاد واضح مستقيم؟! ألستم مواطنين؟ ألا تشعرون بما عليكم من مسئوليات؟ ألا تخشون الله؟

- يا بنى أنت ما زلت مخدوعاً !

- بل أنتم المخدعون.

ـ إذن أنت ترفض النعمة. ترفض الكنز الذى يفتح أبوابه لك بالجاه والمال والنفوذ والعظمة والسلطان. ترفض الطريق إلى كرسى البرلمان، ثم من يدرى قد تصل إلى كرسى الوزارة عما قريب. قد تصبح عضواً بارزاً فى أحد الأحزاب. قد ترفع رأس دمنهور.

ـ لا ...لا ... إن هذا ضرب من الكذب. إن بلادى لا تحتمل هذا كله. أنا لست عميلا، ولن أكون. ابحثوا عن سواى. إن لقمة جافة تجرح حلقى، خير ألف مرة من طعام مسموم، لن أقتات من دماء الأبرياء. لن آكل لحم مواطنى. أنا مصرى فلاح، من طينة هذه الأرض ولن أخون هذا الطين. أبداً. أبداً. اذهبوا عنى.

●●●

على أنهم لم يذهبوا، إلا ليعودوا.

وعادوا هذه المرة بأبيك مكبلا فى الحديد.

رجل عجوز مسن، يجر قيوداً ثقيلة لا تحتملها يداه.

وقالوا لك:

ـ هذا أبوك. هل يعجبك أن ترى أباك هكذا؟

ولم تجب يا بطل، ولم تبك، ولم تلن لهم مع هذا.

على أن أباك كان رجلا، وكان شجاعاً، ولقد أعفاك من أى كلام.

لقد نظر إليهم فى تحد وثقة وقال فى صوت يتهدج كأنه الإلهام:

ـ أمن أجل هذا أتيتم بى؟ لتذلوه ! لتحملوه على التسليم ! لا يا سادة.

ـ أنا لست الوالد الذى يستغل لينهار ابنه. أنا رجل عجوز ومريض، ولكنى أستطيع أن أقاومكم. إنى تاجر وليست بى حاجة، حتى للحياة ! اسمع يا ولدى: إن كنت مؤمناً بشىء، فحذار أن تتأثر بهذا المنظر. لا. إياك أن تشفق على أبيك، فتسلم لهم بما يريدون. إن

الله يا ابنى فوق كل هذه التصرفات، ولئن مت، فسأموت شهيداً، وحسبك أن تكون ابن شهيد. وامض أنت فى طريقك. إياك أن تضعف لهم أو تحنى رأسك، والله معك يا "رءوف".

وعجبت لهذا الموقف الرائع الجليل، من رجل لم يهتم يوماً بالسياسة وأحوالها.

عجبت لوالدك التاجر الفنى، وكيف أصبح هكذا بطلا.

وكانت كلماته هى الزاد الذى تزودت به فى تلك الأيام العصيبة.

لقد اهانوه أمامك، فما صاح.

لقد عذبوه، فما بكا.

لقد هددوه، فما ضعف.

كان يكتفى بأن يقول: أنت شاهد عليهم يارب. اللهم اثأر من كل ظالم.

●●●

وأطلقوا سراح أبيك، ولكن بعد أن عذبوه تعذيباً، لم يقو بعده على الحياة.

رحل المسكين. مات.

وحملوا إليك نعيه وأنت سجين، ليضعفوك ويساوموك، وما علموا أن موت أبيك زادك قوة وعناداً.

لكنك قلت لى يا "رءوف" كيف بكيت أباك بعد ذلك كما لم تبك قبل ذلك أبداً:

"ذكرته وهو يلاعبنى وهو يداعبنى. ذكرته وهو يقرأ أوراده بعد الصلاة.

ذكرته وهو يدعو لى بالتوفيق. ذكرته وهو ينتظر نتيجة امتحانى كل عام.

"وكان تقديرى أنه تاجر مسالم، وأنه لا يعرف معنى الكفاح.

"على أنى ذكرته وهو فى السجن، وكيف كان بطلا لا يلين.

" وكنت أذرف دمعة مع كل وقفة عند كل ذكرى من هذه الذكريات.

"رحم الله أبى. لقد ذهب بطلا وشهيداً.

"لقد أضاف إلى ما فى قلبى من ذخيرة، أن جعلنى ابناً لشهيد".

●●●

وتمضى يا "رءوف" تقول لى:

- والعجب يا "جلال" أن والدى لم يكن يدرى الفرق بين السياسة وسواها من المسائل.

رجل بسيط ساذج، نشأ نشأة ريفية متواضعة، وعمل بالتجارة فى استقامة وشرف، فكون ثروته عن طريق الثقة التى كسبها من معاملاته.

وكان فخوراً بأنه يسير فى طريق النبى صلى الله عليه وسلم.

كان دائماً يحدثنى فيقول أنه أيضاً رعى الغنم فى صباه، وإنه تعلم من هذا كيف يرعى المخلوقات البسيطة المحدودة. كيف يعاملها. ولكم كان يصف لى غنمه فى حب وحنان. كان يقول إن الغنم تقدر راعيها. إنها تطيع الراعى الودود الشريف، وتعصى الراعى الغليظ القلب الجاف الطباع. لقد علمته الغنم كيف يكون رفيقاً بالخلق. وكيف يكون شريفاً، وكيف يسير فى خط مستقيم.

فلما كبر، وضاقت القرية بالرزق، وضاق الحقل بالأولاد، رحل إلى دمنهور.

وبدأ صبياً صغيراً فى محل متواضع.

وكسب ثقة صاحب المحل، فزادت مكانته عنده.

وتمكن من توفير رأس مال متواضع، بدأ به تجارته.

وراجت التجارة بالثقة والشرف والاستقامة، وحسن التعامل مع الناس. أو كما كان يقول لى بروح الراعى القديم، يحرص على كل فرد من رعيته حرصه على نفسه.

ولم يكن والدى يعرف إلا متجره وبيته، والمسجد يؤدى فيه الصلوات.

وعاش قنوعاً صبوراً متواضعاً.

لم يفكر فى السياسة يوماً. لم يعرف الفرق بين هذا الحزب وذاك. لم يشغل نفسه إلا فيما بين يديه من بضائع، وما فى بيته من زوج وولد، وبعض قضايا الجيران والأهل والأصدقاء.

هكذا فى بساطة وبلا تعقيد.

ولكنه مع ذلك، تغير هذا التغير الفجائى، وأصبح كما وصفت لك بطلاً يقابل التحدى بالتحدى والاستفزاز بالاستفزاز، ولم يسلم بالاضطهاد، أو يقبل منى أن أسلم لأعفيه من هذا العناء.

وتحمل الاضطهاد. تحمل العذاب، حتى مات، أو حتى رحل فقد انتقل إلى حياة أبقى من هذه الحياة التى نحن فيها، وأرحب، وأوسع وأخلد.

ولما أخذت أفكر فى الرجل البسيط الساذج، وكيف تطور هذا التطور، ظهرت لى حقائق لم أكن أعرفها من قبل، عن كل البسطاء السذج من أمثاله.

إنهم جميعاً وطنيون. جميعاً أبطال.

لا يهم أنهم يعرفون ما هى السياسة أو ما هى الأحزاب، فهم يعرفون ما هو الوطن.

وهم كلهم على أتم استعداد، لأداء دورهم فى هذا السبيل، عندما يحين الحين أو عندما يأتى دورهم فى الكفاح.

إن أبى لم يكن شاذاً ولكنه واحد من ملايين البسطاء السذج.

إن موقف أبى يزيد من أمل كل وطنى يعمل لإنقاذ البلاد مما هى فيه !

إن الأمل كبير يا صديقى.

رحمك الله يا أبى. رحمك الله.

لقد كنت خائفاً منك. حسبتك من ذوى المصالح والأطماع.

حسبتك ممن أعمت الثروة أبصارهم، ولكنى وجدتك وطنياً مثل كل الوطنيين، لأن ثروتك لم تكن إلا ثروة استقامتك فى التعامل مع الناس.

لابد أن لك نظائر يا أبى.

إن الأمل كبير. الأمل كبير يا "جلال".

●●●

هل وضع موت أبيك نهاية لهذه المساومات؟

أبداً لقد قلت لى والأسى يملأ قلبك:

- أسمع يا "جلال" ما لم أردك من قبل أن سمعه.

الأنذال المجرمون السفلة. إنهم لم يقفوا عند حد من نذالتهم أو إجرامهم أو سفالتهم.

تصور يا "جلال". ماذا أقول لك؟ إن الذى حدث فوق تصور البشر. إنه شىء لا يصدقه عقل، ولكنه هو الذى حدث للأسف الشديد.

إنى أشفق عليك. لا أريد أن أروى لك ما حدث. لكن لابد لك من أن تعرف، حتى تكون على بينة من أمرك. من يدرى قد تتعرض لمثل هذا. لا. بل لن تتعرض لهذا، فليست لك أم. أمك رحلت. أما أمى أنا فقد أتوا بها مكبلة فى الأغلال.

أتوا بها وهى موثوقة، تئن وتصيح.

قالوا: هذه أمك. هل ترضى لها هذا؟

ولم أستطع أن أقول شيئاً. لم أستطع أن أرد. لم أستطع أن أجيب. وماذا كان يمكننى أن أقول، وأنا مثلها مكبل سجين، لا أستطيع الحركة، ولست بقادر حتى على إنقاذ نفسى.

وأحسست أنى عدت طفلا، وأن هذه التى تقف أمامى ذليلة مهيضة الجناح، هى التى أرضعتنى من ثديها. هى التى حملتنى فى بطنها. هى التى دللتنى. هى التى ربتنى. وها هى ذى الآن أمامى، لا تملك أن ترفع عينيها فى عينى.

أرملة هى. رحل زوجها، وتركها وحيدة، ليس لها إلا واحد يرعاها لكن هذا الواحد قد أتى بها إلى هنا مكبلة موثوقة الأطراف

وكدت أصيح فيهم. كدت أفقد أعصابي فأسبهم سباً يليق بهذه الدناءة الخسيسة.

لكنى خفت على أمى. إنهم يملكون اليوم أن يفعلوا بها ما يشاءون. ولن أكون إلا شاهداً على ما يفعلون

وفى صوت رفيع مختنق قالت أمى:

ـ "رءوف" ..هل أنت بخير يا "رءوف"؟

وكدت أقع من طولى. إنها لا تزال أمى. لم تذكر محنتها هذه وما تعانيه. ذكرت أنها أمى، وأنى سجين. لم تفكر فى نفسها، قبل أن تفكر فى ابنها "رءوف".

قلت لها فى حب وحنان:

ـ أماه. أماه. ماذا فعلوا بك يا أماه؟

قالت:

ـ المهم هو أنت. هل أنت بخير يا ابنى؟

قلت:

ـ وكيف حالك أنت بعد أبى؟

قالت:

ـ رحمة الله. لقد ذهب، وهو يدعو لك. ذهب، وهو يردد اسمك، ويلعن الظالمين.

ولم أطق صبراً ..فثرت فى المجرمين السفلة:

ـ أنتم !! أنتم سفلة ومجرمون. ما ذنبها حتى تأتوا بها على هذه الصورة؟ ماذا فعلت؟ هل وصلت بكم الدناءة والخسة إلى حد أن تقبضوا على سيدة عجوز مريضة مثلها، لتحملونى على التسليم لكم بما تريدون؟ أهذه هى وسائلكم؟ أهكذا تحكمون؟

قال وقح منهم:

- وماذا تريد؟ تريد أن تجدد ثورة الإسكندرية. لقد أخمدناها وانتهينا منها، فهل تريد أن تصبح دمنهور كالإسكندرية.

وعدت أذكر ثورة الإسكندرية هذه. والله يا "جلال" ما كنت أفكر فى ذلك من قبل. وهل سبق أن حدثتك عن ثورة الإسكندرية التى أخمدوها؟ الثورة التى قالوا إنها ثورة بلشفية؟ وإنها كانت تهدف إلى أن تسود البلاد مبادئ البلشفيك.

أنا نفسى قرأت أنباء هذه الثورة، ولم تعلق بذاكرتى منها، إلا أن الحكومة غضبت، وأخمدت الثورة بالقوة. أرسلت الجيش فأخمد الثورة، وقالوا إنها خيانة للوطن. ولم تنل هذه الثورة السريعة المباغتة كثيراً من الانتباه. لقد مرت كالطيف، ولم تعلق بذاكرة أحد. لكنهم من الرعب من تكرارها ظنوا أن التنظيمات التى قمنا بها، كانت تخفى نفس المبادئ ونفس الاتجاهات، فزاد غضبهم وفقدوا أعصابهم، وقرروا ان يقضوا على قضاءهم المبرم. ولابد انهم فعلوا ذلك نفسه، مع زملائى من العمال والطلبة والموظفين الصغار الذين انضموا على هذه التنظيمات.

لكنى لم أكن لأتصور أن الغضب يصل بهم إلى هذا الحد. ما كان يخطر ببالى هذا قط. لم يكن يخطر ببالى أن يحاربونى بأمى الأرملة العجوز المريضة الوحيدة. لكنهم فعلوا ذلك، فإن ثورة الإسكندرية عندما قامت، أثارت العمال إثارة غريبة، حتى لقد قيل يومها إن العمال كادوا يستقلون بالإسكندرية، ويشعلون منها ثورة بلشفية على غرار الثورة الروسية ولم يكن قد مضى على الثورة الروسية أكثر من سبع سنوات، وكان الإنجليز يرتعدون من نجاح الثورة الروسية فكان لا بد من أن تنتقل القشعريرة إلى عملائهم، وأن تحمل لهم الحمى، وما هو أشد من الحمى.

وعدت أقول للرجل الذى قال لى هذا الكلام:

- ثورة الإسكندرية، وما دخلى أنا بثورة الإسكندرية؟ بل ما دخلى بالثورة على الإطلاق؟

قال وهو يتظاهر بذكاء غبى:

ـ دعك من هذا التظاهر بالبراءة. أنت منهم. أنت من البلشفيك.

ـ أنا من البلشفيك؟

ـ نعم. هل تستطيع أن تنكر؟ أنت تتخذ أسلوباً آخر. هم اتخذوا أسلوب الثورة وأنت تتسلل بصورة أخرى. جمعية الاستقلال الاقتصادى !! ما شاء الله ! والعمال يملكون المغازل، ويديرونها !! ويقيمون من أرباحها مدارس ومساكن ومستشفيات !! العمل لمن ينتج !! أتذكر كلامك؟ أم تراك نسيت؟

ـ والله أنا لم يخطر ببالى حتى كلمة البلشفية هذه. أنا أردت أن أساعد الطبقات الفقيرة المحتاجة. أردت أن أساهم فى رفع مستوى أهلى ومواطنى. هذا كل ما قصدت إليه. أنا رجل وطنى. أنا مصرى. أنا لا أعرف الإنجليز ولا البلشفيك. أنا أعرف بلادى وحدها.

ـ كلهم يقولون هذا. كلهم ممثلون. لكنا نعرفهم. ونعرف كيف نتعامل معهم.

ـ لكن ما ذنب أمى؟

ـ لك أن تختار. لك أن تختار. إما أن تقبل ما سيصيبها أو تسلم لنا بما نريده منك.

ـ لكنكم تريدون أن تجعلوا منى حيواناً فى "سيرك"، وانا لا أصلح لهذا.

ـ نستطيع أن نتفاهم على اى حال.

●●●

..وما كان أبأسك وأنت تقول لى بعدها :

هل تعرف يا "جلال" كم أحتقر نفسى الآن !! إنى حقير ! إنى ضعيف !! إنى متخاذل!!

لقد ضعفت يا "جلال". وبكيت وصرخت واستغثت. وتوسلت إليهم أن يتركوا أمى. ألا يعذبوها. ألا يسوموها الذل والعار. لم أكن أستطيع أن أسمع صوتها يخرج مقطعاً يمزق القلوب. لم أكن أستطيع أن أتصور السيدة التى أرضعتنى تتأوه بسببى.

أنت تعرف هذا يا "جلال". أنت الوحيد الذى تعرف هذا، فإن فجيعتك فى أمك، تجعلك تقدر هذا الشعور.

وقلت لهم فى استسلام يائس:

- اتركونى، ولكم على وعد الرجل الحر الشريف، ألا أمارس بعد هذا أى نشاط. اتركونى مع أمى أرعاها، وأسهر عليها، وأحاول أن أخفف عنها، فما إخالها إلا أنها ميتة من الذل والغم والكمد.

على أنهم أصروا - الكلاب المسعورة - على أن أكون عميلا من عملائهم.

وصرخت فى وجوههم:

- لا أريد المال، ولا النفوذ، ولا السلطان. لا أريد عضوية مجلس النواب. لا أريد شيئاً أبداً. اتركونى. اشطبوا هذه المرحلة من تاريخى. انسوا أنه كان لى نشاط فى يوم من الأيام. لقد حطمتمونى. أتركونى. أعدكم ألا أعمل شيئاً أبداً.

- ولكنا نريد أن نستفيد منك ومن مستقبلك .

- لن تكون لى شعبية. لقد صرت حطاماً. اتركونى.

- ألست وطنياً؟

- سأكون وطنياً سلبياً. فى نفسى. فى قلبى. فى ضميرى.

- بل نحن نريدك وطنياً لك جهد وعمل وإنتاج. ألا تريد أن تقوى حكومة بلادك، ليستقر الأمن ويسود النظام؟ أليست هذه وطنية؟

- يا سادة. اعتبرونى مريضاً. أيمكن أن تفيدوا شيئاً من مريض؟ اعتبرونى معتوهاً. أيمكن ن تصلوا إلى شىء من معتوه؟ اعتبرونى أى شىء، واتركونى.

ولم يردوا على هذا الضعف المخزى يا "جلال". لم يردوا قط.

تصور؟ ألم أقل لك؟ هذا مجتمع لا تستطيع أن تكون فيه إلا أحد اثنين: إما ضحية أو جلاداً، ولا وسط.

إن الذين كانوا يطلبون منى أن أقبل المراكز والمناصب، لم يقبلوا منى أن أعيش فى حالى بعيداً عن كل شىء، ولا علاقة لى بشىء على الإطلاق.

إما عضو فى مجلس النواب، أو هذا الإذلال الذى لا يطاق !!

إما المال والنفوذ والجاه والسلطان، أو الاضطهاد والتعقب بكل أنواع التنكيل !!

على أنهم أمام إصرارى على موقفى. وأمام ما وصلت إليه حالة أمى من تدهور، وأمام بوادر الجنون التى بدأت تظهر على.أمام كل هذه العناصر وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أن يطلقوا سراحى.

فخرجت يا "جلال" إلى البيت الذى نشأت فيه. خرجت لأرعى أمى. لم يكن فى نيتى بعد الذى رأيته أن أمارس أى نشاط.

وكنت خائفاً من أن ترفض أمى أن تعيش أنت معنا فى بيتنا. لكنى فوجئت، بها تسأل عنك وتلح فى أن تكون حياتنا متصلة كما كانت.

لقد صهرتها التجربة، فصرت كذلك كل الرواسب فى نفسها.

وعشنا معاً حياة صامتة، لا أنا قادر على أن أتكلم، ولا أنت قادر على أن تسأل، ولا أمى قادرة على أن تتذكر. كلنا كنا صامتين. كلنا كنا نختزن فى نفوسنا أشياء ثقيلة، ترهق قلوبنا وضمائرنا.

●●●

..وما كان أشجعك يا "رءوف"، وأنا تعترف لى اعترافك الأخير:

سامحنى يا "جلال" سامحنى. لقد انحرفت إلى الرذيلة. جرفنى تيار خبيث. فأدمنت المخدر !

أنا يا "جلال" الداعى إلى الخير والحق والفضيلة والحرية !

أنا الذى دعا إلى دراسة الكتاب والسنة، دراسة فيها عمق وفيها كذلك وعى وفيها بصر وفيها اجتهاد !

أنا الذى نظم صفوف العمال ليمضوا فى تيار الاستقلال الاقتصادى !

أنا يا "جلال" صرت مدمن مخدرات !!

وماذا كنت أستطيع أن أفعل غير هذا؟!

المواطن الحر، أصبح عبداً أسيراً، لا يستطيع أن يتحرك، ولا أن يتنفس، بغير هذا الداء الخبيث المسموم، الذى يسلبه القدرة على التفكير، والقدرة على التصرف، ويدفعه إلى خيالات ورؤى وأحلام، كلها أوهام.

لكنه كان وهماً لذيذاً على كل حال.

"جلال" ! أنا خجلان منك، ولكن لابد من أن أعترف لك.

لقد أخفيت عنك أول الأمر، أنى انزلقت إلى هذا الطريق. على أنى كنت أشعر أنك تعرف كل شىء، ولكنك كنت تطوى ذلك فى صدرك، فلا ترويه لأحد، ولا تفاتحنى فيه.

ولكم كان يخيل على أن الوقت الذى أقضيه فى دخان المخدر، يمر مرور السحاب، هادئاً متمهلا رقيقاً، يحملنى إلى آفاق بعيدة جداً، وباهرة كذلك..ولكن كل ذلك لم يكن إلا وهماً.

كنت أضحك ملء فمى، من أية حركة، وأية كلمة. أقهقة حتى ليخيل إلى أنى سأسقط على قفاى. ولم تكن الروايات التى تروى تحمل على الضحك، ولم يكن فيها طرافة كذلك، ولكن رءوسنا ـ نحن المخدرين- كانت خاوية خالية، كالمكان المهجور، تسكنه الجنيات، وتتراقص فيه الأشباح !

●●●

ولقد تعرفت بقوم ما كان يخطر على بالى، أن يصادفونى فى الحياة.

"أبو سكرة". الولد "أبو سكرة" كما كانوا يطلقون عليه. نحيف كعود الذرة ! شاحب الشمام المعطوب اغائر العينين كالأشباح ! ممدود الشفتين، كأنما شدوه منهما شداً !

الولد "أبو سكرة" كان دائماً صامتاً. لا يقول شيئاً إلا أنه يرتب كل شىء. يوقد النار، ويستحضر الأصناف. يسمونها مرة دقن الباشا. ومرة قطار الإكسبريس. ومرة الدستور. ومرة الشهداء ! هكذا بلا احترام لمعنى ولو كانت فيه قداسة، أو كان للناس فيه أمل. فإذا أعد كل شئ، وأدار الجوزة على الجالسين، لم ينس نفسه أبداً. كان هو الذواقة الذى يستطعم الأصناف قبل تمريرها بالدور على المتراصين فى نهم أول الأمر ثم فى كسل وخمول آخر الأمر.

ولم يكن "أبو سكرة" هذا يتكلم أبداً. لم يكن يشارك إلا فى الضحك، حتى على نفسه. وكانت ضحكاته تخرج جافة عميقة، لا تعنى حتى أنه سعيد أو مسرور !!

ولم يكن للجماعة ملهاة إلا "أبو سكرة".

"أبو سكرة" اليوم مر !...

ويرتفع ضحك طويل أبله !

"أبو سكرة" أذاب "سكره" فأصبح "أبو"، بلا "سكرة" !

ويرتفع ضحك عقيم ساذج !

يا "أبو سكرة"، هل تزوجنى "سكرة"؟

ويرتفع ضحك مجنون صاخب.

كل هذا و "أبو سكرة" يشارك فى الضحك، ولا يقول شيئاً. إن مهمته محصورة فى استحضار الأصناف، بمسمياتها الكثيرة المنوعة. وإعداد الجلسة وإشعال النار، وإدارة الجوزة على الحلقة المسممة، والضحك بلا سبب، ولا مبرر.

وتتثاقل العيون، وتتثاقل معها العقول، فتسمع كلاماً عجباً، لا يرتبط بشىء. ولا علاقة له بشىء:

الذرة سيطرح هذه السنة بطيخاً !

وتهتز أجساد المخدرين فى قهقهة طويلة، كأنهم يتراقصون ! ثم ترتفع أصوات تقول: الل....ه ! فى مد منغم.

ويعقب صوت:

وسيكون البطيخ عويجة !

وتعود الأجسام تهتز فى صخب.

وبعد أن تهدأ الضجة، يرتفع صوت كأنه حلم تترنم به شفاه نائمة.

ماذا تقولون؟ بطيخ !! لا لا. المشكلة فى الخيار النباتى !

وتعود الضحكة من جديد.

ويرد واحد:

كل شىء صار بناتياً يامعتوه. نحن أيضاً بناتى ! تحسس نفسك. أنت مشفى. لا عظام!

وفى وسط الضجيج الأبله، ينطلق صوت آخر:

حتى "أبو القمصان" أصبح بناتياً !

و "أبو القمصان" هذا شخصية أخرى من لوازم الجلسات.

فتى أسمر وسيم، يروى حكايات ونوادر، يضج لها الحاضرون بالضحك. وحكاياته دائماً على امرأته، يصفها وصفاً ممتعاً شهياً، ويبتلع ريقه بين الحين والحين، كمن يمتص قطعة من السكر ! والجميع مشدودون إليه، تعلو صدورهم وتهبط فى انفعال مما يسمعون.

إنه يتحدث عن لونها الأبيض الناصع، وشعرها الأسود الفاحم، تلم بعضه فى ضفائر وتترك بعضه يتناثر على جبينها فى خصلات فيزيدها فتنة وإغراء. ورقبتها الطويلة كالعاج. وفمها وأنفها وضحكاتها الملتهبة كالشطة.

ثم صدرها الدافى، وجسمها البض.

ثم تعذيبها له، لتزيده هياماً وإقبالا.

وبينما الجمع صامت كأنهم يتعبدون. وبينما هو مسترسل فى وصف دقيق بارع، لكل مفاتن امرأته، إذا بالكلام لا يسعفه، والوصف لا يكفيه. فيرسل زفراته أغنيات، يصدح بها وهو مفتون.

وأغانى "أبو القمصان" دائماً من نظمه، ومن كلماته، وإن استعار بعض ما يتردد من أغانى ومواويل:

يا ترى نامت حبيبتى والا سهرانه ...

حرام جفونك حتورم وانت سهرانه...

يا ريت أموت ولا أشوفك سرحانه سهرانه...

نامى يا روحى دا النوم عوافى، ولا تستنى قلقانة سهرانة...

ويمد "أبو القمصان" آخر أغنيته مداً كالنداء...فيه رنين حزين مؤثر.فيردد الآخرون معه الكلمة الأخيرة من أغنيته، بنفس الرنين الحزين المؤثر، ثم يقولون فى نفس واحد طويل، كأنه آهة حارة دفينة:

آ....ه.

ولكن "أبو القمصان" لا يكتفى بهذا.

إن دموعه تسيل من عينيه، فى حين أن بسمة باهتة تراود شفتيه.

ويمضى فى نواحه هذا المؤثر.

يا بنت عشقك نار بتكوينى...

وهجرك يا قاسية فى عينى يبكينى...

وقربك يا روحى جنة تحوينى...

يا ريتك حتة من قلبى، لا تروحى ولا تجينى.

وتعود الأصوات المخدرة تردد معه هذا النواح وهى معجبة بصوته، مترنحة من فرط تأثره.

وغير "أبو القمصان" كثيرون.

جماعة متناقضة لا يربطها إلا هذا المخدر.

"عبد العال بك" موظف كبير بالمديرية، يحضر هذه الجلسات فى موعدها تماماً، لا يتأخر ثانية واحدة، أو ليلة واحدة.

وهو عندما يحضر يقول مازحاً:

- لا أظن أنى تأخرت عليكم.

فيجيبه الجمع كله:

- لا ...أنت أضبط من الساعة.

على أن الموقف لا يخلو من مزاح بينه وبين أى واحد من المجموعة الغريبة هناك. قد يجرى هذا المزاح بينه وبين بائع عرقسوس. أو بينه وبين تاجر جائل. أو بينه وبين أى فرد من الموجودين، بلا مراعاة لأن "عبد العال بك" موظف خطير كبير فى ديوان المديرية.

ديموقراطية العذاب يا "جلال".

ديموقراطية الشر يا ابنى لم تكن تعرف فرقاً بين هذا وذاك.

كان يحدث أن يتعرض له واحد بأى مزاح:

- لو كنت تذهب إلى الديوان فى مواعيدك تماماً، كما تفعل هنا يا بك !

فيرد "عبد العال بك":

- إذا انتقلتم إلى هناك بهذه الأصناف، فسترونى كالساعة.

ـ وما كان شىء من عملك يتأخر ثانية.

ـ ولا عشر ثانية يا مغفل.

ـ أنت رجل صاحب مزاج.

ـ وهل هناك ألذ من المزاج؟ ماذا سنأخذ من الديوان يا عبيط؟

ـ الديوان هو اسماس المزاج.

ـ بل هو المبدد لهذا المزاج !

ـ ومرتبك..ألست تصرف منه على مزاجك؟

ـ أنا أدين الحكومة بأكثر من مرتبى.

ـ من كثرة ما تعمل. ما شاء الله !

ـ أنا أعمل أضعاف المدير ...على الأقل أنا لا أوذى أحداً.

ـ ويدفعون لك مرتبك لأنك لا تؤذى أحداً؟!

ـ أليس هذا خيراً من الأذى؟

ـ إننا كلنا على استعداد ألا نؤذى أحداً. خذونا وظفونا، فى وظائف لا تؤذى أحداً.

ـ لو كنت أنا الحكومة لملأت الوظائف بكم.

ـ لماذا يا سعادة البيك؟

ـ لأنكم لن تجدوا وقتاً تعملون فيه شيئاً. لأنكم ستظلون مساطيل طول النهار، تضحكون وتملأون الجو مرحاً. أليس هذا أفضل من الضحك على الذقون، بأعمال لا تهم أحداً؟

ـ إذن لتكن أنت الحكومة يا عبد العال بك.

ـ أنا الحكومة ...سمعاً وطاعة..ماذا تريدون؟

ـ وظائف...لا تؤذى أحداً !

ـ اطلبوا الوظائف التى تروق لكم.

ـ لا ...أنت الحكومة. اختر لنا أنت الوظائف.

ـ أنت تصلح حماراً !!... يركبه الصراف !!

ويضج الجميع بالضحك، والجوزة تدور عليهم. ويستأنف "عبد العال بك" كلامه:

ـ وأنت تصلح حاجباً... لا حاجبين !

ويرد صوت من بعيد:

ـ يا عينى !! وأنت..ماذا تصلح له يا سعادة البيك؟ يكفيك أن تحشش على حسابنا !

ويضج الجميع بالضحك، بما فيهم "عبد العال بك" الموظف الخطير الكبير.

ومن هذه الجماعة واحد كانوا ينادونه المعلم "حندس". وكان المعلم "حندس" هذا شخصاً غريب الأطوار والتصرفات، ولكنه مع ذلك، كان خفيف الظل إلى حد بعيد.

كان شيئاً أقرب إلى كرة منفوخة. او بالونة من بالونات الأطفال. مع ضخامته،يكاد من خفته أن يطير. وكان مبتسماً دائماً، كأنما لا يمر على باله شيء على الإطلاق.

قالوا إنه تاجر له أهميته فى البلد..تاجر كبير جداً.

وحاولت يا "جلال" أن أعرف أى نوع من التجارة يعمل فيه هذا الرجل. فلم يكونوا يجيبونى بأكثر من أنه تاجر غرام. وفى غمرة الضحك والابتسام. والمزاح البليد، كانوا يديرون معه أحاديث غريبة. ولم يكن يخفى عن الجماعة شيئاً على الإطلاق. كان يروى أحاديثه فى سذاجة وبلاهة، حتى لو احتوت أدق الأسرار، بل أخطرها فى بعض الأحيان.

لطالما سمعت منه ما كان يقشعر له بدنى.

روى مرة أن الهوى استبد بقلب كبير، من كبراء المديرية. وأن هذا الهوى أخطأ الطريق فالتقى ببائعة يانصيب. وعزت على الكبير نفسه، فلم يسمح لنفسه أن ينزل عن كبريائه أمام هواه.

ويكاد المعلم "حندس" يستلقى على قفاه قبل أن يتم القصة، والجمع يتطلع إليه فى فضول، ثم يقول.

ـ هل تعرفون ماذا حدث منه، حتى يحقق هواه، ولا ينزل عن كبريائه؟ لقد أمر الحاجب الذى يقف ببابه أن يناديها، بل أن ينفس له عن هواه !! الحاجب هو الذى ينفس له عن هواه معها، وهو جالس يتطلع فى نهم وشراهة !

واتجه نحوه أكثر من سؤال:

ـ غير معقول يا "معلم حندس". إنك تضحك علينا.

ـ والله هذا هو ما حدث...أنا شاهد، والله يحاسبنى، على هذه الشهادة.

ـ لكن أى هوى هذا؟ أى مزاج؟

ـ مزاج البكوات الكبار يا صعاليك !

ـ لابد أن هناك سراً.

ـ الناس يا أولاد أسرار.

ـ هذا هو الكلام. المطلوب أن نعرف هذه الأسرار.

ـ اسألوا عنها زوجته.

ويضج الجميع بالضحك، حتى تدمع عيونهم.

ويستأنف المعلم "حندس" حديثه:

ـ زوجته أيضاً صاحبة كرامة وكبرياء.

ـ كيف؟ تستعمل هى الأخرى الحاجب مع...

ـ لا. بل لها مزاج آخر...إنها لا تحب الرجال..

ـ تحب ماذا؟..تحبك أنت يا "معلم" ! تحب الكرشة !!

ـ أنا يا ابنى متفرج..مشاهد..ليس غير.

ـ إذن...قل لنا.

ـ تحب الفتيات الجميلات.

ـ كيف تحبهن؟

ـ كما يحب الرجال النساء !

ـ يا نهار أسود !

ـ امرأة ذكر. تغار عليهن كما يغار الرجال. تحافظ عليهن بعينيها.

ـ لكن !!

ـ لكن ماذا...امرأة، ومعها فتيات صغيرات من بنات الموظفين. تحبهن ! هل من يخاف على الفتيات من النساء؟

ـ أبداً..بالعكس.

ـ إذاً....الطريق أمامها سهل وميسور ومستور.

ـ لابد أنها كرهت الرجال. ظننتهم كزوجها المسكين..طبعاً..ومن التى تطيق هذا؟

ـ يا أولاد إن مصائب الدنيا لا تعد ولا تحصى. آه لو تكلمت ...

ـ تكلم يا معلم.

ـ وهل تطيقون كلامى؟ إن بعضكم قد يضربنى بالرصاص !

ـ لا لا . نحن نضمن لك ألا يتعرض لك أحد بسوء.

ـ لا لا، أنا أدرى بما فى كرشى هذا من أسرار. أديروا الجوزة يا صعاليك ربنا.

وتعود الحلقة تضحك ملء أشداقها، وأنا فى غيبوبة مما أسمع. إن هذه النماذج من الناس تثرنى، ولكنها مع هذا تجذبنى. وعلى كل حال، فلم يكن أمامى سواها.

لقد كنت محتاجاً إلى أن انسى. أنسى كل شىء أنسى أى شىء أنسى المأساة التى تعرضت لها، أنسى "مفيدة" التى ذهبت ضحية سهلة للظلم. أنسى أبى الذى رحل بعد أن انهار وهو يرانى سجيناً لا أستطيع الحركة أو التصرف. أنسى أمى التى حطمها اليأس، وخنقتها المحنة.

وكنت أعلم يا "جلال" أننى أرتكب آثام الدنيا !

كنت أشعر بالخزى والعار !

كنت أحس أنى ملوث !

كنت أتوارى من الناس خجلا، فلا أظهر إلا عندما يخيم الظلام، كاللصوص !

كنت أخاف أن يلقانى أحد الذين احترمونى يوماً وصدقونى، وانضموا إلى الجمعيات الصغيرة التى نظمتها.

كنت أرتعد منك أنت يا "جلال"، وأنت تتطلع إلى فى رحمة.

كل هذا كان شيئاً قاسياً على نفسى، ولكن شعوراً خفياً كان يراودنى، هو أنك تقدر مأساتى، وتعطف على حالى، وتعذرنى.

ولم يعد يهمنى من الدنيا، إلا أن أظل إلى جوار أمى، حتى يفرق الله بينها وبينى وأن تكون أنت مقدراً للحالة التى أعانيها.

هل تذكرنى عندما كنت أعود أترنح؟

سامحنى يا "جلال". لقد كنت أقول كثيراً من الكلام الفارغ. كنت أهذى. لكنك كنت تفهم أننى أهذى. فكنت تقودنى إلى حجرتى حتى لا تتنبه أمى إلى وجودى، فيزيد همها ضغطاً على قلبها المثقل.

إن رحمة الله واسعة يا "جلال".

لقد وصلت إلى الحضيض، فشاءت إرادته سبحانه إلا أن أصاب بالمرض، وأن يشتد بى المرض، حتى إنه ليدفعنى دفعاً إلى حافة الموت.

وإنى لأعلم أنك أخفيت الأمر عن أمى، وقلت لها إننى فى القاهرة مشغول بإحدى القضايا الهامة.

وأنا فعلا مشغول بإحدى القضايا الهامة يا "جلال" ولكن هنا فى المستشفى، وأنا على وشك الرحيل.

ترى: ما مصير الكون؟

هل مصيره العدم؟ أو أنه باق؟

فإن يكن باقياً، لا يتغير فيه إلا شكله، أو صورته، فكل أجزاء الكون إذن باقية، تتغير أشكالها، وتتغير صورها، ولكنها فى جوهرها باقية.

لا موت. لا عدم.

نحن لا نموت. نحن لا نفنى. إن وجودنا على أى شكل وفى أية صورة يتنافى مع العدم. إننا نرحل. نأخذ صوراً أخرى، وأشكالا أخرى، لنحيا حياة أخرى، فيها الأمن، وفيها السلام، وفيها الحب، وفيها راحة البال.

هكذا الحياة. الحياة باقية. الحياة ممتدة فى كل شىء.

حتى هذا السرير، أراه حياً يتحرك بتاريخ طويل. وأسأله كم شهد من أجساد تمددت عليه ! كم أستمع إلى صرخات مكتومة أو صاخبة ! كم أحصى من دموع سالت هنا فى غير رفق ! كم رحل فوقة ناس، لبوا دعوة الله، إلى حياة أرحم وأفضل وأفسح؟

كل شىء حى.. وإن بدت الحياة فيه غافية، لا تأخذ شكل الحياة التى ألفناها، من حركة ونمو وصخب وتصارع رهيب عادر حقود.

وأنا سأرحل، ولكنى سأبقى مع ذلك حياً.

سأظل متصلا بالكون.

لست أدرى يا "جلال" صورة هذا الاتصال، كيف تكون .

لست أدرى يا صديقى. كنه هذه الحياة، كيف تبدو.

هل سأشعربها بعد الرحيل؟

هل تشعر بها أنت؟

هل تشعر بها أمى؟

ما طبيعة العلاقة التى ستسرى بيننا نحن الراحلين، وبينكم أنتم الذين لا تزالون تنتظرون الرحيل؟

كل هذه الأفكار تراودنى الآن، وتلح على إلحاحاً شديداً، وتدعونى إلى أن أفكر فى أشياء تبدو عميقة وتبدو كذلك ساذجة، ولكنها هى الأفكار الوحيدة التى أحيا فيها هذه الأيام.

كيف سأتصل بك؟

هل ستكون هذه الصلة، عن طريق الأحلام والرؤى؟ أو سيكون لها شكل مادى على أية صورة تكون المادة، فأراك وترانى، ولو بغير عيون. وأسمعك وتسمعنى، ولو بغير آذان. وأشعر بك وتشعر بى، ولو بغير وجدان؟

كل هذا لا أدريه، لأنى لم أرحل بعد.

على أنى يا صديقى، آخذ المسائل بالقياس.

أنا حتى هذه اللحظات، لم أرحل بعد. وأبى رحل. "مفيدة" رحلت.

لكن هلى تدرى يا "جلال" أن الصلة بينى وبين أبى قائمة، وأن هناك شيئاً لا يزال يربطنى "بمفيدة"، ولا أظنه ينقطع، حتى نتلاقى من جديد، فى العالم الآخر؟

إنى أرى أبى. أراه هنا إلى جوار سريرى، يربت على خدى، وعلى كتفى، ويمسح بكفه شعرى كأنما أنا الطفل الوديع الهادئ، الذى كان دائم العطف عليه، والعناية به.أراه هنا يدللنى، ويداعبنى، فى ود رقيق حان.

أراه يدعو الله لى أن أخرج من محنتى هذه سليم القلب، سليم الوجدان.

بل أرى بسمته الطيبة، كأنما يرحب بى فى دنياه الجديدة. ويفتح قلبه للقائى.

وأكاد يا "جلال" أسمعه ...

أسمعه. أباً عطوفاً، يسألنى عن درجاتى فى الامتحانات. وشهيداً جليلا، يجلجل صوته بين جدران السجن، مؤكدا أقدس معانى الإباء والشهامة والحرية.

ولكم تدور بينى وبينه أحاديث، بلا كلمات.

أحاديث لا يزيفها منطق، ولا تلوثها ألفاظ.

أحاديث سهلة وبسيطة ومنطلقة من كل القيود والضوابط والأحكام.

...ولعلها ـ هذه الأحاديث فى بساطتها وتجردها ـ أبلغ من كل الأحاديث التى ألفناها، واصفى من كل ما سجله الزمن بيننا من ألفاظ.

ما أجمل أن أسمعه اليوم يقول كلاماً غير ما ألفته منه.

إن أبى لم يعد هو ذلك التاجر الغنى الذى يعارض فى زواجى من "مفيدة".

إن الحياة الأخرى جردته من أمواله، ومن أثقال ما ادخره، فأصبح فى تجرده هذا بعيداً عن كل القيود، وكل الحدود، وكل ما تعارفنا عليه فى هذه الحياة.

إنه يحبنى. إنه يحب "مفيدة" ويحترمها. فقد سوت بينهما الساحة الجديدة، بعد أن تجردا من كل شيء والتقيا هناك بلا فروق.

إن لكل منهما من الأرض، بقدر ما كان له فى الحياة الدنيا من جسد. ولا شيء أبعد من حدود هذا الجسد. فإن امتدت بهما الروح إلى حياة أخرى.

ومتاع آخر، فإن كل ذلك رهين بمقدار ما عمل، وما أحسن، وما قدم.

هكذا فى تجرد لا يعرف الأثقال، وفى انطلاق لا يعرف القيود، وفى نور لا يشوبه الظلام.

لكم حدثنى أبى بعد رحيله عن "مفيدة" حديثاً أرضانى.

و"مفيدة" بدورها يا "جلال". إنى اراها وأسمعها، وتدور بينى وبينها أحاديث شهية. لم تنقطع عنى يوماً، منذ الرحيل. لم تتركنى أبداً وحدى.

لقد كانت زميلة سجنى وزميلة محنتى.

ولكم نظرت على فى عطف جليل، وأنا أعانى أزمات حياتى، وكم كانت هذه النظرات الوديعة الهادئة، تزيل ما فى قلبى من محن، ومن شجن ومن آلام.

وكانت تبدو لى حتى فى حلقات المخدرين، وجهاً صبوراً جميلا، يبدد عتمة المكان ويضىء ظلمات نفسى.

فى كل جلسة. فى كل ليلة، كانت تأتى إلى هناك.

كانت تحرسنى من نفسى.

وبينما كان المخدرون يضجون بالضحك التافه البذىء، كنت أعيش أنا معها، ساعات من اجمل ساعات عمرى.

كانت مجردة، إلا من روحها الشفافة الناصعة.

وكان المخدر، ينقلنى نقلة بعيدة إلى خيال خصب ممتع.

وكان جسمى يخف، حتى لأشعر أننى أستطيع أن أطير بلا أجنحة.

وفى كل مرة كنا نتلاقى فيها هناك، كانت تدور بينى وبينها أحاديث مختلفة. لكن هذه الأحاديث جميعاً كانت تتلاقى فى مقدماتها. كانت هذه المقدمات، تكاد تكون واحدة.

- سامحينى يا "مفيدة"...

- مسكين يا "جلال".

- إنى أعترف لك إننى قد انزلقت إلى مستوى...

- لا تقسو على نفسك إلى هذا الحد.

- انى لا اقسو على نفسى، ولكنى أعرف حقيقتى.

ـ لا دخل لحقيقتك بما أنت فيه.

ـ بل إن ما أنا فيه هو حقيقتى.

ـ لا يا "جلال" هذا شكل لا حقيقة.

ـ تخففين عنى؟..هذا شأنك دائماً معى. كريمة رحبة الصدر.

ـ بل هذا هو الحق...لإن حقيقتك لم تتغير.

ـ كيف تقولين هذا، وأنت تريننى فى بؤرة الإثم، أوغل فى الخطايا؟

ـ هذا شكل من أشكالك لا غير.

ـ لكنه الشكل الذى يعكس الحقيقة.

ـ أبداً هذا ظنك. هذا وهمك.

ـ وما الحقيقة إذن؟ أين حقيقتى؟

ـ لا تتعجل أمرك هكذا ! إننا لو وقفنا على حقائقنا، لانتهينا..وهل بعد الحقيقة شىء؟

ـ وكيف ننتهى لو وقفنا على الحقيقة؟

ـ لأن هذه هى الغاية، فلو وصلنا إليها، ما أصبح للكون معنى.

ـ ونعيش هكذا فى أحاج وألغاز؟

ـ بل ربما طلاسم وأسرار.

ـ لكن هذا عذاب.

ـ إن استمرار الكون، واضطراد الوجود، فى سعيه إلى معرفة الحقيقة. ولن يعرفها حتى يكسب الوجود معناه.

ـ هذا عجيب !

ـ وأعجب منه، أننا قد نتخيل أحياناً أننا وصلنا إلى الحقيقة. قد يتخيل ذلك أفراد منا. قد تتخيل ذلك أجيال منا. ولكن سرعان ما يظهر لنا أن ما ظنناه حقيقة، ليس إلا مرحلة من مراحل البحث عن هذه الحقيقة. وكثيراً ما تبعد بنا هذه المرحلة عن الحقيقة، فيزداد حرصنا على الوصول إليها، ويزداد بالتالى نشاطنا فى الوجود، لنصل إلى تحقيق هذه الغاية.

ـ لكن الحقيقة قد تختفى فى بعض هذه المراحل. قد تكمن فيها، وإن كنا لا نراها.

ـ المسألة نسبية، وهى خاضعة لظروف مختلفة، ودرجات مختلفة من التهيؤ النفسى فى أفراد أو جماعة أو أجيال؛ لاستقبال هذه الحقيقة واستيعابها. لكنها دائماً أسبق من هذه الظروف والدرجات، فلا يلحق بها إدراكنا ابداً.

نحن محدودون، والحقيقة بلا حدود. نحن مقيدون، والحقيقة بلا قيود. نحن سجناء فى مادة ثقيلة، والحقيقة لا تعرف المادة ابداً. إنها شىء فوق المادة.

إنها شىء وراء المادة. إنها شىء حول المادة، ولكنها على كل حال ليست هى المادة.

ـ لكن ما هى إذاً؟

ـ هذا هو السر الألى...ما هى؟ آه لو عرفنا ما هى ! إذاً لاقتربنا منها، ومن يدرى قد نتمكن بعد ذلك من الوصول إليها.

ـ لكن لا يمكن أن تكون الحقيقة غامضة إلى هذا الحد، وموضع خلاف إلى هذا الحد.

ـ إنها ليست فى ذاتها غامضة، ولا موضع خلاف. ولكن الغموض والخلاف فينا نحن ولهذا لا نعرفها، ولا نصل إليها.

ـ يا "مفيدة" أريحينى. أنا أريد لن أصل إلى الحقيقة.

ـ خير لك ألا تصل إليها.

ـ هذا كلام غريب.

ـ بل هو الطبيعى يا "جلال" فإنك لو وصلت إلى الحقيقة، فقد تصاب بالخبل أو الجنون. والمحقق أنك ستحيا فى حالة انقسام رهيبة. فى حالة تناقض مزعج، بين الحقيقة والواقع، قد تتمزق ! قد تهوى إلى قاع عميق مخيف ولن تعرف بعدها كيف تطفو مرة أخرى على سطح الحياة !

ـ على الأقل أدرك حقيقتى.

ـ أو ليست حقيقتك، جزء من الحقيقة الكبرى؟ ألست جزءاً من هذا الوجود، أم أنك مستقل عن هذا الوجود؟

ـ هل أحيا وأموت، بلا حقيقة؟

ـ حتى لا تنفصل عن عقل الجماعة، وشعورها، وإرادتها.

ـ لكنى أوثر هذا الانفصال. إذا عرفت حقيقتى.

ـ سيأتى هذا اليوم يا "جلال".

ـ لكن متى؟..

ـ يوم يتقرر رحيلك عن الحياة التى تحياها.

ـ عندئذ أقف على الحقيقة؟

ـ بل تصبح أنت الحقيقة. جزءاً من الحقيقة الكبرى.

ـ وقبل هذا؟

ـ من مصلحتك ألا تقف على هذه الحقيقة، حتى لا تفقد نفسك، ويفقدك الناس.

ـ وهذا الانزلاق فى الآثام والخطايا؟

ـ ليس حقيقتك.

ـ وأنت يا "مفيدة" تعرفين هذا؟

ـ كما أعرفك.

ـ وتصفحين عنى؟

ـ لا داعى للصفح، فلست تدور إلا فى فلكك أنت.

ـ لكنى أقبل عليه بنفسى.

ـ تدفع إليه دفعاً. تدفعك المحنة.

ـ وترين ألا ذنب لى؟

ـ كلنا عبيد أقدارنا.

ـ أو ظروف مجتمعنا.

ـ قل ما تشاء. لا تهتم الألفاظ. المهم أنك مغلوب على أمرك. المهم أنك مسكين لا تقوى على شيء.

ـ المجرمون السفلة قضوا على.

ـ اصبر، وسيأتى فى يوم خلاصك.

ـ متى؟

ـ عندما يبدأ رحيلك.

ـ إليك؟

ـ إلى الحقيقة التى لا تنتهى.

ـ وأنت؟

ـ لست إلا جزءاً منها.

ـ ولكنى لا أريد منها، إلا الحيز الذى يحددك أنت.

ـ لأنك لا تعرفها.

●●●

وما كان أبدع حديثك وأنت تلقى إلى بآخر ما فى رصيدك من كلمات:

ـ هكذا يا "جلال" كانت تدور المناقشات بينى وبينها. وهكذا كانت تقوم بينى وبينها صلة لا تنتهى، ولقد عشت فى هذه الصلات، مع "مفيدة" ومع أبى منذ رحلا عن هذه الحياة.

ولست أشك فى أن هذه الصلات كانت تخفف عنى أعباء الحياة ومحنة العمر.

بل إنهما هما اللذان يخففان عنى الآن وطأة المرض، وقسوة العلة.

الأطباء ! المرضون ! الدواء ! كل ذلك لم يكن ليخفف عنى شيئاً لولاهما.

لولا أنهما دائماً هنا إلى جوارى، يجلسان منى مجلسك هذا، ويسهران على فيومض الليل الحالك الرهيب، ببريق من الأمل والرجاء. ولولا هذا لما استطعت أن أحتمل أيامى هذه القاسية.

ويوم أرحل يا "جلال" فستقوم بينى وبينك مثل هذه الصلات.

سأكون إلى جوارك يا صديقى.

سأفعل معك مثلما فعلت "مفيدة" معى.

سأخفف عنك. لأنير لك طريقك. سأبصرك بمواقع أقدامك، فى صراعك الطويل الرهيب الذى ينتظرك. سأحمل إليك ومض الحقيقة من عالم الحقيقة.

"جلال". لن تكون وحدك يا "جلال" سأقف معك أنا الميت الحى.

●●●

وأخيراً ما كان أسرعك وأنت ترحل ...

"رءوف" ! ماذا جرى لك يا "رءوف".

"رءوف" ! أجبنى يا "رءوف".

"رءوف" ! أنى أتحدث إليك يا "رءوف".

"رءوف" ! ألا تسمعنى يا "رءوف".

ما هذا؟ إن رأسك يميل على صدرى. إن عينيك تغمضان فى سلام. إن جفنيك يتراخيان فى استسلام. إن حديثك يقف فلا يمتد.

"رءوف" ! أطرافك هذه. كفاك جبهتك... قد سرى فيها جميعاً برد قارس.

ما هذا؟ أنفاسك تتقطع. إن حشرجة رهيبة تملأ الغرفة البيضاء.

وهذه الانتفاضات فى يديك ورجليك.

وهذه التقلصات فى عضلات وجهك.

عروقك هذه. إنها تنطفئ كالذبالة، فى أطراف ليل بهيم.

"رءوف". "رءوف". أنت ترحل يا "رءوف".

"رءوف"..ومن يبقى لى بعدك يا "رءوف"؟

هل مت يا "رءوف"؟!

أجب تكلم. انطلق بشىء أى شىء.

...لا ...لقد انتهيت يا "رءوف".

لقد رحلت عن الدنيا. لقد مت، على صدرى.

أين ملاك الموت هذا؟ أين عزرائيل؟

كيف جاء؟ وكيف لم أره، لأدفعه عنه؟!

إنها لحظة، بلا عمر، ولا بعد، ثم يكون الانتقال من دنيا إلى دنيا، ويتم الرحيل سريعاً مفاجئاً، فإذا كل شىء قد انتهى.

لا... هذا ليس "رءوف" أبداً ليس هو.

وجهه لم يكن هكذا. شكله لم يكن هكذا. لقد تغير كل شىء فيه. هل هذه ضرورات الرحيل؟

وإنى لأصرخ من الهزل.

وتتحدر دموعى على خدى.

لكن لا الصراخ ولا الصياح ولا العويل ولا الدموع، أنقذتنى مما كنت أعانيه.

●●●

وأصبحت وحدك يا ولد !

جدك رحل، ولا تدرى كيف رحل. هل عذبوه؟ هل قتلوه؟ هل هو الذى استبد به اليأس فرحل؟ لقد رحل على كل حال.

جدتك رحلت هى الأخرى. رحل عنها عقلها. رحل عنها وجدانها. رحل عنها إدراكها. ثم كان لابد من رحيل الجسد الذى أصبح بلا عقل ولا وجدان ولا إدراك.

خالتك رحلت، من هول الصراع الرهيب، مع الحياة والحرمان والعذاب.

وهذا "رءوف" يرحل، ليلحق بكل هؤلاء، وبوالده الذى سبقه إلى الرحيل.

وتبقى أنت وحدك يا مسكين. تواجه الدنيا، بلا سلاح، ولا سند.

من لك؟ أم "رءوف" المريضة المهددة هى الأخرى بالرحيل فى أية لحظة من لحظاتها؟

ومن تكون لك؟ ومن تكون أنت لها؟

لقد رحل الذى كان يربطك بها. أتبقى إلى جوارها، فى بيتها؟ أم لابد من أن تتركها؟

لكن ماذا ستفعل هى ! وهى أمه. أم "رءوف" الذى رعاك هذه السنوات. علمك، ورباك، وصقل بصيرتك. فكيف تتركها قبل أن تدبر أمورها؟

هل أنت نذل إلى هذا الحد يا "جلال".

لا... إن عليك أن تطمئن عليها، ثم يكون بعد ذلك قرارك. والدنيا واسعة على كل حال. الحياة تتسع حتى للثعابين. الحياة فى كل شىء، حتى الحجر. لا تخف من شىء ستحيا برغم كل شىء ستحيا، حتى لو رحلت مع الراحلين.

●●●

هذه هى ...المرأة العجوز الصامتة، التى سلبتها المحنة، حتى القدرة على الكلام.

ماذا تقول لها؟

هل تقول لها إن وحيدها قد مات؟

وتقتلها يا "جلال"؟! تصبح سفاحاً، تفتك ببريئة، حتى لو كانت هذه العجوز المحطمة؟

وهل هذا جزاؤها منك؟

لا يا "جلال" إن صمتها رهيب. إن نظراتها شاردة.

هل تراها أحست بالمأساة، من داخل نفسها؟

هل ترى "رءوف" قد جاءها بالنبأ؟ ألم يقل لك إنه سيظل على صلة بالحياة؟ ألم يقل إنه سيرحل، لكنه لن يتركك؟ ألم يرو لك ماذا يدور بينه وبين "مفيدة" من أحاديث؟ من يدرى؟ ربما أنبأها بنفسه !

ولماذا تنظر إليك هكذا فى تساؤل؟ أم تراها نظرات اتهام؟!

لكن ماذا فعلته أنا؟ هل أنا عزرائيل؟ هل قلته؟ أم لأنى لم أقل لها ولم أخبرها بما حدث؟

إنى أكاد أجن. إن رأسى ينفجر !

هل أنفس عن نفسى بالصياح والعويل والنحيب والبكاء.

وهل أتقى بهذا الصياح والعويل والنحيب والبكاء المأساة نفسها، و"رءوف" يميل على صدرى راحلا عن الدنيا، ذاهباً إلى بعيد، فى رحلة غامضة، لا يعرف أحد مداها؟

لا يا ولد...إنه سلاح العجز، وقد يزيد الموقف سوءاً.

إن خير ما تفعله الآن، هو أن تذهب إلى قريتها...حيث أهلها وإخوتها، لتحمل إليهم النبأ وتخبرهم أنك لم تعد تستطيع البقاء فى هذا البيت، وأن عليهم أن يتحملوا مسئولياتها.

هذا هو الحل، ولا حل سواه.

أليسوا أهلها؟ أليسوا دمها ولحمها؟

فإن طلبوا منك البقاء، ماذا سيكون قرارك؟

هل تبقى تحت ضغط المرحمة والرجاء؟

لكن "رءوف" مات. ففيم بقاؤك؟ وماذا يقوله الناس عنك؟

لا...لا تبقى يا "جلال" فقد انقطع ما بينك وبين هذا البيت من صلات. إياك أن تبقى.

ولماذا لا تذهب الآن إلى القرية؟ إنها غير بعيدة من هنا.

هيا ..لماذا لا تجرى؟ لماذا لا تعدو؟ لماذا لا تقطع أنفاسك؟ هل تخاف؟ ألم تتقطع أنفاس "رءوف" قبلك، أم تراك أعز على هذه الدنيا منه.

هيا...إلى هناك.

●●●

ما أتعس الناعى ! وما أشق مهمته !

إنه رسول الموت إلى الأحياء، أو غراب البين كما يقولون.

بومة تحمل معنى الخراب والدمار.

لكنه قدرى. هذا هو قدرى. أنا خرجت من المحنة، فليس عجيباً، أن أحيا فى المحنة ! وهل أحارب قدرى؟ وهل أغلبه إذا حاربته، أو هو الذى يغلبنى؟

لقد كانت كلمة، ثم ارتفع صياح النساء واهتز جو القرية بنحيب الرجال.

حتى الأطفال أخذوا يبكون "رءوف".

ولقد قلت كلمتى، وأذعت سرى، وتركت مسئولية العجوز الصامتة إلى أهلها وذويها، وخيل إلى أننى أرضيت بذلك ضميرى وأرحت قلبى.

إن الأصوات المفجوعة ترن فى أذنى.

ولكنى اجرى، كما جئت أجرى.

اجرى بأسرع ما تطيقه قدرتى.

اجرى بلا تمهل ولا إبطاء، ولا تهمنى أنفاسى التى تتقطع، ولا العرق الذى يغرقنى بل كان على أن أجرى.

أجرى من نفسى. من الأشباح التى تتعقبنى. من الخيالات والأوهام التى تكاد تفتك بى.

لابد من أن أجرى.

إن السير البطىء المتمهل لم يعد يسعفنى.

انا هارب ...هارب من نفسى.

وصيحات النساء تملأ نفسى، ونحيب الرجال يهد كيانى.

وانا اجرى فى طريق شائك، إلى مصير مجهول.

●●●

ويحس "جلال" أنها كانت رحلة طويلة من طيات الزمن.

وإنه لينظر إلى "مديحة" ويقول لها فى صوت تخنقه عبرات مكتومة:

ـ هل قرأت الفاتحة؟ هل قرأت الفاتحة على روحه؟ لقد كان "رءوف" إنساناً كبير القلب، صافى النفس، طاهر الوجدان.

قالت "مديحة" وهى تطيل النظر إليه:

ـ بل قرأتها مرة، ومرة، ومرات. وكنت كلما فرغت من قراءتها مرة تطلعت إليك، لتعود فتتحدث إلى بما فى نفسك، فأجدك فى رحلة بعيدة نائية مع نفسك. لا ترانى وعينك فى عينى، ولا تسمعنى، وأذناك قرب شفتى، ولا تشعر بوجودى، وأنت منى قريب.

قال "جلال"، وقد أخذ يهز رأسه، هزات متتالية، كأنما يريد أن يفرغها مما يملؤها من أفكار:

ـ بل أنا هنا يا "مديحة" لم تأخذنى الرحلة منك. أبداً لم تأخذنى. بل ربما كان وجودك إلى جانبى، هو الذى يغرينى بهذه الرحلات، أذكر بها ما مر من أيامى، فيتأكد فى كيانى، ما يطفح به حاضرى من السعادة وما يفيض به يومى من النعيم.

انظرى يا "مديحة" حولك فى هذه الساحة البسيطة الجليلة.

ألا ترين الطبيعة السمحة الخضراء، وقد كساها ضوء القمر رداء فضياً شفافاً رائعاً؟ وهذا الجسر الذى يحاول أن يحدد معالمها، فتستوعبه حتى ليصبح الجسر، والرياح جزءاً منها، تحيط به من أمام ومن وراء، إحاطة رائعة حانية، كالأم تحيط طفلا من أبنائها بذراعيها. ألا ترين؟ إنها الطبيعة يا "مديحة". إنها دائماً هكذا تستوعب حتى العناصر الغريبة عنها، الدخيلة عليها، فتحيلها إلى جزء منها، بل إنها لترعاها وتحنو عليها، فتحيط بها كما تحيط الأم أبناءها بالرعاية والحنان.

ما أجمل هذه الطبيعة الخضراء، وما أوسع صدرها !! إنها لا تضيق بشىء ولا تطرد من ساحتها شيئاً. إنها توحد بين العناصر الدخيلة عليها، مهما اختلفت أنواعها فإذا هى كلها أجزاء فيها.

وهذه "الساقية" ومكانها من جسر الترعة.

ألا ترينها؟...إن النظر حينما يمتد إليها، يتكسر بين الأشجار التى تحيط بها، ولكن العين مع هذا تتصل بأجزاء منها، وهى فى مكانها العالى من الحقول المنبسطة الخضراء. مكانها العالى كالمنبر فى مسجد القرية. نعم كالمنبر. من فوق المنبر ينطلق النصح، ليصلح أحوال المصلين، ومن الساقية ينطلق الماء، ليروى ظمأ الأرض فتنبت نبتها الطيب. هى المنبر هنا يا "مديحة". والصوت الدءوب الذى يصدر عنها، فى نغم متصل، كالآذان للصلاة. اسمعى يا "مديحة" اسمعى صوتها. اسمعى هذا الصوت الدءوب

المتصل. هل تسمعينه نغماً واحداً لا يختلف؟ هل هو صوت متكرر لا يتميز بشيء؟ إن تكراره لا يعنى أنه هو هو نفس الصوت، فلكل صوت حدوده، وإن لنا أنه مكرر أو معاد.

أنصتى. إن له لحظات سكون رائعة. ولكن قوة السكون هنا، أنه جزء من الصوت الذى تسمعينه. إنه لا يفصل بقدر ما يربط أجزاءه. ثم ألا تشعرين أنه يرتفع تارة وينخفض أخرى؟ ألا يسرع الآن كأنما شىء يستحثه؟ أى شىء هذا؟ إن الطبيعة وحدة متكاملة يا "مديحة". "الساقية" والزرع والجسر، والصوت ونور النهار، وضوء القمر. كل ذلك وغيره هو الطبيعة. وكل ذلك وسواه شىء يكمل بعضه بعضاً.

اسمعى. لقد تراخى الصوت، كالمجهد المكدود. ربما كان مرور هذه السحابه وما حجبته من ضوء القمر، هو ما أدى به إلى هذا التراخى.

يا "مديحة" يا جميلة يا فاتنة. أنت يا ساقيتى. أنت وهذه الساقية وعمى "أبو المكارم"، وسيدى "أحمد الذكيرى"، وجسر الرياح، وشجرة الصفصاف تنحنى على الترعة كالحسناء تبلل شعرها بالماء.

أنت يا "مديحة" وعمى " عبد الغفار" أبوك، و "ممدوح" و "سالم". و"رءوف"، وأبوه، وأمه، و"مفيدة" خالتى التعسة.

بل جدى وجدتى ومن قبلهم أمى التى فتحت لهم طريق الرحيل. وآخرون لم يرحلوا.

أنا وأنت، وضوء القمر فوقنا، وقبة "سيدى الذكيرى" تحرس آمالنا.

أنت وأنا، وهذا السكون حولنا، وعمى "أبو المكارم" قريب منا، تكاد أنفاسه تلامس أنفاسنا.

أنا وأنت، والسر الغامض الحائر بيننا.

أنت وأنا والماضى الرهيب خلفنا.

أنا وأنت والحاضر الخائف حولنا.

أنت وأنا والمستقبل القلق أمامنا.

●●●

أنا وأنت والشيء العزيز الغالى يحرك خطونا..ويحرك كذلك شفاهنا ...ويحرك أيضاً الدعوات الصالحات على شفاهنا.

أنت وأنا: ألسنا أماً وأباً تهمنا ـ قبل نفوسنا ـ فلذات أكبادنا؟

□□□

٥

كانت الرحلة طويلة وشاقة.

إن "جلال" و "مديحة" لم يصلا إلى هنا، إلا بعد أن اجتازا الأخطار والمشاق والمصاعب.

ويوم بدأ هذه الرحلة الطويلة، لم يكن فى تقديرهما أن هذه القطعة من الأرض الطيبة هى وجهتهما.

لقد خرجا، وهما لا يدريان إلى أين يذهبان.

كانا يبحثان عن "ممدوح". إلى أين أخذوه؟ إلى أين ذهبوا به، أين استقر به المصير؟ هل يعذبونه؟ بل أهو حى حتى يعذبوه؟ أم أنهم تخلصوا منه بالقتل والغدر والتعذيب؟

وكان لابد لهما من أن يتخذا كل الوسائل ليصلا إلى ما يريدان.

ولقد استقرا أول الأمر فى بيت قديم من بيوت المنيرة.

لم يكن البيت بيتاً بالمعنى المعروف، ولكنه كان أطلالا قديمة تحيطها أسوار متعرجة محطمة، كأسنان عجوز فى الثمانين، تناثرت داخله حجرات لا تقل عنه قدماً، مفرقة مبعثرة فى غير نظام، يتقارب بعضها، ويتباعد بعضها الآخر، وتتصل ببعضها جدران ناقصة، كانت يوماً حجرات، ولكنه الزمن أتى عليها كما يأتى على كثير مثلها.

وفى زاوية من زوايا الفناء المهمل وقفت بقايا حجرات، تحولت بحكم الضرورة إلى ما يمكن أن يسمى تجاوزاً دورة مياه.

وفى الفناء تراب كثير، يعفر الوجوه، ويثور كالدخان كلما لعب فيه الأولاد، لعبة العساكر والحرامية.

إنه المكان المفضل لأبناء الحى من الصغار، فهو كالتكايا لا صاحب لها.

والمؤكد أن له أصحاباً، ولكنهم لا يعنون به أية عناية، لأنه قد بلغ من القدم، ما لا يشجع على العناية أو يغرى بالاهتمام.

وهو بعيد عن العيون، والأولاد الصغار أذكياء، فهم يحاولون أن يجدوا مثل هذا المكان، مهرباً من عيون أمهاتهم، حتى لا يزعجنهم بصياح دائم ودءوب، يحذرنهم به من عربات الحنطور، والسيارات المسرعات، وجنود الحلفاء المخمورين.

ومرافق البيت القديم صالحة لألعاب كثيرة شتى.

برغم التراب، فالفناء يصلح ملاعب لأكثر من لعبة. الكرة الشراب، أو الكرة الكاوتشوك، أو العساكر والحرامية، أو العريس والعروس.

وبرغم الشقوق التى يروون عنها الروايات المخيفة، وكيف تختفى فيها الثعابين، فإنهم يجدون فى الجدران الكالحة المحطمة التى تمتلئ بهذه الشقوق مخابئ ينزوون فيها عن العيون، كلما بحثوا عن مكان تنتهى إليه زفة العروس والعريس.

وفى ضوء القمر، تتحول رواياتهم عن الجنيات التى تختفى بين هذه الجدران المهجورة إلى متعة لذيذة، تسلب خيالاتهم، وتملأ لياليهم بالأحلام.

يقولون إن بين هذه الخفايا المظلمة، تعيش جنية، يسمونها النداهة، وهى كالنسيم لا ترى ولا تسمع، ولا يشعر بوجودها أحد. ولكنها مع هذا ترقب كل من تريد من الناس. تعرف تصرفاتهم، وتدرك أعمالهم، وتحصى عليهم أخطاءهم. إنها معهم إذا ساروا. معهم إذا عملوا. معهم إذا ناموا. والجنية تتجسد فى أى جسد تشاء، كيفما تشاء. قد يحلو لها أن تتجسد فى هيئة قطة، فتغدو قطة وديعة ساكنة، تنظر فى تطلع وهدوء. وقد تفضل أن تتجسد فى هيئة كلب، فتنبح نباحاً عالياً متصلا، وتهز ذيلها فى

استجداء. وقد تؤثر أن تتجسد فى هيئة امرأة، فتصبح نداهة. وهنا تصبح الرواية مثيرة تلهب الخيال بالصور وتحرك فى النفوس، كثيراً من الأوهام.

إن النداهة تتخير أوقات الليل المتأخرة. فى السحر، أو قبل أن يطلع على الناس الفجر، وترتدى ثياباً تختلف باختلاف الظروف، فهى مرة فى ثياب نظيفة مرتبة، وهى مرة فى أردية بالية ممزقة. ومرة تبكى وتنتحب. ومرة ثانية تصطنع الهدوء والثبات.

وهى تذهب إلى البيوت تنادى الرجال فى صوتها المؤثر العميق. ويصحو الرجال من نومهم فزعين. وكثيراً ما تتجسد فى هيئة نساء يعرفونهن. نساء لرجال آخرين. زوجات طيبات ساذجات. وعندما يصحو الرجال ويجدونها فى هذا المنظر المثير، فى هذا الوقت المتأخر من الليل، فإنهم لا يشكون لحظة فى أن ضرورة ملحة أتت بها إليهم. ويسرعون إليها لتلبية النداء. وتدعى النداهة أن زوجها أو ابنها أو أخاها يعانى سكرات الموت، أو أنه يواجه حاجة، أو أنه فى أزمة وضيق، ويندفع الرجال وراءها ليفوا لأصدقائهم أو أقاربهم بحقوقهم عليهم. لكنهم يذهبون إلى المجهول. إلى بئر عميقة بلا قرار. إلى حيث يختفون عن بيوتهم أياماً، لا يدرى أحد عنهم شيئاً، ولا يعرف أحد لهم مكاناً. وعندما يتبين الناس أن الأسباب التى من أجلها فزع الرجال، ليس لها نصيب من الصحة، يتصايحون: النداهة. إنها النداهة ! وكثيراً ما يعود الذين اختفوا عن الأنظار إلى حياتهم العادية، وإلى بيوتهم، وإلى أسرهم، إلى أصدقائهم. لكنهم يعودون كمن صحوا من نوم عميق طويل، لا يذكرون من أيامهم الضائعة شيئاً كثيراً أو قليلا، ولا يتحدثون عن شيء مما حدث. حتى النداهة لا يذكرونها. وينصتون على حديث الناس عنها فى شيء من العجب، وكثير من الإنكار.

لكن ماذا تفعل النداهة بهم، وأى سحر يصيب هؤلاء بعد ذلك؟ هذا مالا يعرفه الأطفال، ولكنهم يفكرون فيه افكاراً خافتة كالهمس.

لماذا ينسون الأيام التى يقضونها هناك؟ أترى النداهة تغرقهم فى بحر عميق؟

ماذا تفعل بهم؟ وفيم حاجتها إليهم؟

وماذا تفعل بالنساء عندما تنادى النساء، وتصحبهن إلى حيث لا يدرى أحد؟

وماذا تفعل بالأطفال عندما تغريهم بصحبة غامضة مبهمة؟

ما هذه النداهة، وما عساه أن يكون سرها؟ بل أين تختفى بين هذه الجدران والشقوق؟

ويلتفت الأطفال، وتمس أجسامهم قشعريرة كالكهرباء، كأنهم يخشون أن تكون النداهة منهم غير بعيد تتسمع رواياتهم، وتدبر لهم رحلة من رحلاتها الغامضة.

على أن واحداً من الرواة لا يستطيع أن يحدد واحداً بعينيه، أخذته النداهة ذات يوم إلى حيث اختفى دون أن يعرف أحد عنه شيئاً.

لكن مثل هذه الروايات لا تحتاج عادة إلى إثبات. إنها تسرى على الأفواه كالأساطير يتوارثها جيل عن جيل، دون أن يعبأ واحد بإثباتها أو بنفيها، فالإثبات لن يؤكدها والنفى لن يبعدها عن أن تأخذ مكانها على أطراف الألسن، وفى خيال الناس.

وأياً كان وجهه الحق أو الباطل فيما يقال، فقد استقرت الروايات على أن هذه الخرابة من خرابات المنيرة، هى المكان الذى تختفى فيه النداهة، حتى تتجسد فى الهيئة التى تختار.

على أن هذا لم يمنع الأطفال من أن يتخذوا من خرابة النداهة ملاعب صباهم الأثيرة لديهم، ومهرب شقاوتهم من رقابة الأمهات.

ولقد أغراهم بهذا المكان، إلى جوار عزلته وسعته، أن سكانه جميعاً من صنف خاص، كأنه بلا سكان.

إن أغلب هذه الحجرات المهدمة خالية، إلا عدداً قليلا منها لا يتجاوز ثلاث حجرات، يسكنها باعة جائلون، يقضون أيامهم ولياليهم يبيعون ما يحملون للناس، وقد يترددون على هذه الحجرات، ولكن فى سرعة خاطفة، فإنها لا تغرى أحداً بالبقاء، كما أن مطالب الحياة تدفعهم فى غير رحمة إلى أن يسرعوا الخطى فى الطرقات، ينادون على ما يحملون من خضر أو فاكهة، قبل أن يدركها الجفاف أو العطب، فلا يحفل أحد بشرائها.

وأحدهم كان يبيع الصحف. يصحو مع الفجر، فلا يراه أحد، ويخرج فلا يعود إلا بعد أن ينتصف الليل، يهجع ساعات، يفزع بعدها إلى رحلة يوم جديد، وعلى طرف لسانه نداءات بأسماء صحف لا يدرى ما فيها، ولا يحفل بما فيها، وكل ما يهمه منها، أن يشتريها الناس.

على أنه الوحيد بين السكان الذى يتردد على الخرابة فى بعض ساعات النهار، بين صحف الصباح وصحف المساء. وقد يتردد فى بعض الأمسيات، ومعه بعض صحف ملفوفة فى ورق سميك.

وكانوا ينادونه المعلم، وقليلون جداً من أبناء الحى، كانوا يعرفون أن اسمه "مبروك". وأقل من هؤلاء، كانوا يعرفون أن اسمه الكامل هو "مبروك الحنطور"، ولولا أنه يعيش على الشكك. يأخذ الخبز، والفول، والجبن والزيتون فى بعض الأحيان، والسمك أو اللحم فى المواسم والأعياد. لولا أنه يأخذ كل ذلك من دكاكين الحى بالشكك. ولولا أن أصحاب هذه الدكاكين، يبدون له بعض التردد، عندما يزيد عليه الحساب، فيضطر اضطراراً إلى أن يقول لهم إن هذا التردد عيب، فإنه "مبروك". "المعلم مبروك". "مبروك الحنطور" على سن ورمح. لولا هذا ما عرف أحد له اسماً إلا أنه المعلم، الذى يسكن إحدى حجرات الخرابة، ويبيع الصحف للناس.

على أن "مبروك الحنطور"، كان طرازاً فريداً بين أبناء الخرابة. إنه المثقف الوحيد بينهم. إنه يبيع الصحف، وفى الصحف أخبار، ومقالات، وصور. ولكم بح صوته بالنداء على ما فى الصحف من أنباء. وفى بعض هذه الأنباء أشياء لا تغادر ذاكراته أبداً. إنها منه كأعز الذكريات.

وكلما كان "ميروك الحنطور" يخلو على نفسه كانت تعاوده ذكرياته، أو نداءاته.

●●●

إن ذلك شىء لا ينساه

قالوا له: ناد بأعلى صوتك، الوزارة سقطت. سقوط الوزارة. وخرج كالصاروخ يعدو فى الشوارع والميادين، وعلى سلالم الترام يصيح بأعلى صوته: الوزارة سقطت. سقوط

الوزارة. وأسرع إليه الناس يتخاطفون ما لديه من صحف. وزادت حركة البيع نشوته بالنداء، فزاد صوته ارتفاعاً، وزادت نداءاته إلحاحاً على الأسماع.

وفجأة، وبغير أن يتوقع الغدر من خلف، إذا بعدد من الشبان يهجمون عليه، وينهالون عليه ضرباً. وتحولت نداءاته إلى صيحات استغاثة، وما من مغيث. حتى عسكرى البوليس رفض أن يغيثه، عندما قال له الشبان الذين هاجموه إنه يهين الحكومة. ينادى على أخبار كاذبة، ويزعج المارة بالضلال.ويزداد عجبه عندما ينضم إلى هؤلاء الشبان عدد من الذين اشتروا الصحف التى كانت معه. كلهم صاحوا فى وجهه: يا كذاب. يا غشاش. أين هذه الحكومة التى سقطت؟ من قال لك إنها سقطت.

ولم يستطع أن يجيب إلا أنه أقسم أن هذا ما قاله له المتعهد، وأنه لا يعرف القراءة أو الكتابة.

ولقد استطاع بشق النفس أن ينجو من هذا الفخ الذى وقع فيه.

●●●

وشىء آخر لا ينساه.

السيدة التى شقت بطن زوجها، ثم أطفأت ظمأها إلى الثأر منه، فشربت من دمه. كان هذا هو الحدث الكبير الذى أوصاه المعلم أن ينادى عليه بأعلى صوته. وأخذ يصيح، والناس يسرعون نحوه يتخطفون ما يحمل من صحف، والقروش تتزاحم فى قبضته وفى جيبه، وهو سعيد بهذا الرزق الذى ينسكب عليه مع قطرات الدم التى سالت من القتيل. وفى أحد الأزقة، ولم يكن معه من صحفه إلا أعداد ضئيلة قال فى نفسه: ولماذا لا أنادى نداء أو نداءين، فأعود فارغ اليدين، ملئ الجيب. المعلم سيفرح بى من غير شك، وسيعطينى عدداً أكبر من المجلات المصورة التى تنشر صور العاريات الفاتنات، مما يقبل الناس على شرائه، فضلا عن أن مكسبها أكثر من هذه الصحف اليومية التعسة.

وانطلق ينادى النداء الأول.

واختلطت نداءاته بأصوات عصبية تنطلق من أحد المنازل القديمة الفقيرة.

ولما توقف عن النداء، ليستطلع هذه الأصوات، وطرقت أذنيه مناقشات مخيفة:

ـ هل سمعت يا فاجرة. لابد أنها أختك أو واحدة من دمك.

ـ يا رجل يا نصاب. أختى أشرف منك. ودمى أطهر من دمك. من منا ترضى أن تلوث يديها بدماء رجل. وتشربه أيضاً ! إنه سم.

ـ هذا هو الرجل ينادى. هل أنا الذى طلبت إليه أن ينادى؟ الجريدة تقول هذا. الجريدة لا تكذب.

ـ رجل من هذا؟ إنهم جميعاً كذابون. هذا الرجل كذاب. والجريدة كذابة. لو أن الرجل هو الذى شق بطنها لكان هذا هو الصحيح. الرجال مجرمون. الرجال سفلة. الرجال سفاحون.

ـ والنساء ملائكة. النساء طاهرات ! يا أفجر جنس خلقه الله. تفعلنها، ثم تنسبنها إلينا نحن الذين نأويكن فى بيوتنا، لتشققن بطوننا. لتشربن من دمائنا.

ـ والله أنت كذاب، وهذا الرجل كذاب.

ـ طبعاً كذاب، لأنه يقول الحق.

ـ أى حق هذا؟ تعال. سأسأله أمامك. والويل له إن استغفلنى أنا الأخرى.

وأسرعت السيدة إليه ...كالمجنونة.

كان شعرها مبعثراً منثوراً كرأس العبد. وكانت عيناها حمراوين ممتقعتين، كأنهما الجمر وكان أنفها منتفخاً بزفير مخنوق، يحاول أن يجد طريقه إلى الفضاء، ولكن حقداً غليظاً يحبسه فى طيات صدرها، فلا يصل إلى أنفها إلا مندفعاً، حتى ليكاد أن يمزقه. وكان فمها مفتوحاً نطل منه أسنان كريهة، تفرقت بين شفتين غليظتين، كأنهما بقايا مشط قديم.

وخاف "مبروك" من المنظر الذى اندفع إليه كالوحش، فماتت نداءاته فى حلقه. ثم أخذ يتراجع ويتراجع حتى التصق بجدار قديم، وهو يتمتم بآية الكرسى.

على أن السهم الذى اندفع نحوه، لم يكن يستطيع أن يطيش.

وبرغم أن الرجل الذى كان يبادلها المناقشة، فى صياح أعلى من صياحها، قد أخذ يعدو وراءها، إلا أنها كانت كالقضاء، أسرع إليه.

وأمسكت به، وخنقته بيدين كالحديد، وانهالت عليه ضرباً ولكماً.

وهو ينادى، لا على حادث الزوجة التى شقت بطن زوجها، ولكن على حياته هو، التى أصبحت مهددة بالفناء. والرجل ـ ولابد أنه زوجها ـ يحاول أن يخلصه من بين يديها، دون جدوى، فينهال عليها بدوره ضرباً ولكماً.

وكانت يداها قد ماتتا حول رقبته. لم يكن يستطيع أن يخلصه منها.

ولم تمض دقائق، حتى كان جمع كبير قد التفت حواليه، وهو فى هذه الحالة التعسة. إنه يشعر أنه يواجه الموت. إنه يحس أصابعها فى حلقه. إن أظافرها تكاد تقطع عروق رقبته.

ولم يستفق إلا وهو فى قسم البوليس.

وأصبحت المسألة تحقيقاً، ومحضراً، وحجزاً ..ثم قضية !

●●●

ويضحك "مبروك الحنطور" من شدقيه، وهو يذكر تلاميذ المدارس الصغار أيام موسم النمر. إنه لا يعرف هذا الموسم إلا بأنه موسم النمر. فالامتحانات عنده لا تزيد عن كونها نمر تطبع فى الصحف، ونداءات يطلقها وهو يجرى: نمر التلامذة..ثم مئات النسخ يبيعها فى أقل من ساعة، ويعود ممتلئ الجيب إلى المعلم، ليفرغ كل ما جمعه فى صندوقه، ولا يبقى له بعد ذلك إلا ما يسد به بعض ما عليه من دين.

إنه لا ينسى ذلك الولد الشقى، الذى أخذ يجرى وراءه، وهو لا يدرى ماذا يريد، فلما لحق به أخذ يضربه فى ظهره، وهو يبكى ! ولما التفت إليه، وجده يصيح فيه غاضباً: أنا

أسقط فى الامتحان يا مجرم. أنا أسقط بعد كل الدروس الخصوصية التى أخذتها، وكل السهر الذى سهرته. أنا أسقط !!

ولم يدر "مبروك الحنطور"، ماذا يقول له. لقد أشفق فعلا عليه. إن دموعه تجرى على خديه كالمطر. إن المسكين ينتفض من التعاسة والبؤس.

وقال فى نفسه: لكن ما ذنبى أنا؟ أنا يا عالم بائع جرائد. أنا لم أضع هذه النمر. أنا أحملها ولا أدرى ما هى.

لكنه عاد فرأى منظر الغلام مؤلماً حقيقة.

وأخذ يحاول أن يخفف عنه، والولد ماض فى عصبية حادة، يضربه وهو يصيح: هذه النمر غير صحيحة. أنا ناجح. أنا ناجح. لابد أنى ناجح.

قال "مبروك":

ـ أنت ناجح. لابد أنك ناجح.

قال الغلام:

ـ لكن نمرتى ليست فى الجريدة.

قال "مبروك":

ـ لابد أن الجريدة نسيت.

قال الغلام فى انفعال:

ـ إذن كيف تحملها وتجرى بها كالمسعور. يا سافل يا مجرم. هل هذه أخلاق. هل هذه شهامة. تبيع لى جريدة تعرف أنها تنسى !

والتف حوله أولاد كثيرون، يبكى بعضهم مثل هذا الغلام، وأخذوا جميعاً يكيلون له السباب، وامتدت إليه بعض الأيدى بالقرص والضرب وهو لا يدرى ماذا يقول.

ولم يجد أخيراً بداً من أن يصيح فيهم فى عصبية:

ـ مالى أنا ونمركم؟ تلعبون طول السنة، ثم تسقطون، وتصبون غضبكم على الجريدة وعلى. بدلا من هذا ذاكروا. افهموا. اتعبوا لتنجحوا.

وأخذ يجرى وهم يجرون وراءه، حتى أنقذه منهم ترام قادم، فتسلق سلمه؛ باحثاً عن النجاة.

●●●

وحكايات "مبروك الحنطور"، مع هواة اليانصيب، لا تقل طرافة عن حكاياته مع نمر التلامذة. إنه ينادى على نمر يانصيب المواساة وهو يجرى.

طريقة من طرق الإغراء على شراء الصحف، علمتها له التجربة، وأثبتت صحتها الأيام.

وكم من مرة فاجأة أحد الزبائن مفاجأة لم يكن يتوقعها.

واحد يقول له: يا نحس النحس. ليتنى أخذت الجريدة من واحد سواك؟

ويهز "مبروك" رأسه ولا يرد، ويرد فى نفسه، أو يبتلع الرد حتى لا يصل إلى مسامع الزبون المنحوس.

ـ ما ذنبى أنا، إذا كنت أنت النحس؟

وواحد آخر يطوى الجريدة بعد أن تفلت منه فرصه المكسب ويرميها فى وجهه وهو يقول:

ـ يا ساتر يا رب. طبعاً. وهو معقول أن آخذ العشرة آلاف جنيه من وجهك هذا الأجرب؟

ويمسك "مبروك" لسانه حتى لا ينطلق فيه:

ـ وهل جنت العشرة آلاف جنيه حتى تلقى بنفسها فى يديك الكالحتين؟

ـ وواحدة تلوى شفتيها بعد أن تقرأ النمر الرابحة، ثم تنظر إليه قائلة، فى رشاقة مائعة:

ـ أنا كنت أعرف هذا، من وجهك.

ويكاد يصيح فيها:

ـ آه لولا أن شفتيك شهيتان، لقلت لك إننى أنا الذى كنت أعرف هذا من رقاعتك.

ويضحك "مبروك الحنطور" وهو يذكر كل هذا ..ويمضى يعيش فى ذكرياته هذه حتى يلتقى بذكريات أخرى تخطف الابتسامة من فوق شفتيه، لتضع مكانها تكشيرة ساهمة، تائهة فى نكد الدنيا وقسوة الأيام.

●●●

إن المعلم يعطيه أقل من مليم عن كل جريدة يبيعها.

إن الصيحات التى يطلقها، والنداءات التى يرددها. ماذا تساوى كل صيحة؟ وماذا يساوى كل نداء؟

كل خمس صيحات بمليم !..كل خمس نداءات بمليم !...

أهذه حياة؟ والمعلم الذى يجلس فى الظل، وينفخ كرشه فى استعلاء، ويأكل من كل شىء يمر به فى الطريق. يأخذ حصيلة هذه الصيحات وهذه النداءات، ليملأ بها جيبه وكرشه ويشترى العمارات، ويتزوج مثنى وثلاث ورباع !

لماذا؟...ألأنه المعلم؟ لقد كان هو الآخر بائعاً جوالاً مثلنا، ولكن الدنيا ضحكت له، فأصبح يتحكم فى كل نفس يتردد فى صدورنا، وفى كل عرق من عروق رقابنا. نبيع له نحن هذه الصحف. نجرى هنا وهناك، فى الشمس المحرقة، وعلى الأرصفة وفى الميادين. نلاحق الناس بالصياح والنداء. ونتعرض للضرب والشتم والإهانة. ثم نذهب إليه بحصيلة عرقنا، ليكدس كل ذلك فى جيبه وكرشه وأهوائه.

ويا ويلنا إذا تأخرنا فى السداد !

هل تنسى يا "مبروك"، عندما أقبل إليك فى سيارة التوزيع، فخلع عنك جلبابك، وتركك كالمسخ المشوه، بين ضحكات الناس وسخريتهم؟ لقد كان يوماً لا ينسى ! لقد

هتك سترك، وأظهرك أمام الناس كالقرد المشوه، فلما وجدت نفسك عارياً إلا من ملابسك الداخلية المهلهلة، أخذت تجرى كالمحموم، حتى تختفى فى هذه الخرابة من العار. ولم يعد إليك الجلباب الوحيد الذى تملكه إلا بعد أن تعهدت له ألا تعود إلى ذلك أبداً.

ـ لكن هكذا الدنيا !

ـ لا الدنيا عدل.

ـ يا مغفل ! ...عدل !! أين هذا العدل.

ـ ربنا يقرر العدل.

ـ تمحك بربنا لتخفى الحقيقة عن عينيك.

ـ بل العدل موجود وقائم.

ـ ويبيح العدل للمعلم أن يأخذ كل قواك...بملاليم.

ـ الحمد لله على كل حال...ألا تعيش.

ـ الدود يعيش. الزواحف تعيش.

ـ لا تكفر بنعمة الله. ألست خيراً من جيرانك هؤلاء.

ـ لا ...لست خيراً منهم. ليس لهم مثل المعلم الذى يذلنى.

ـ يا مجنون. من أدراك؟ إن لكل صنعه جلاديها.

ـ إذن اسكت، ولا داعى للكلام.

ـ ترضى بما قسمه لك الله...الرضا عبادة.

ـ إذن ...إذن أرضى. وهل أستطيع إلا أن أرضى؟

ويمضى "مبروك الحنطور" يدير حواراً آخر مع نفسه:

ـ وما ميزة هذا المعلم. هلا أستطيع أن أصبح معلماً مثله؟

ـ هل تعلم فى مدرسة؟

ـ أبداً ...إنه بهيم مثلى تماماً.

ـ لابد أنه ذكى.

ـ كالحمار لا يفقه شيئاً.

ـ ورث ميراثاً استغله فى عمله.

ـ نشأ على الحديدة، لا يملك إلا صوته ينادى به على الصحف.

ـ له عصبية استغلها فى السيطرة على الباعة.

ـ ولا هذا أيضاً. إنه صعلوك مقطوع من شجرة.

ـ محظوظ...

ـ آه...هو ذاك. محظوظ رزقه فى رجليه.

ـ لكن الحظ وحده لا يكفى...

ـ صحيح هو رجل شديد. قلبه من حديد. لا يهاب أبداً. يعرف كيف يخلص حقوقه بيديه. الجلباب الذى نزعه عنى ليهتك سترى ويربينى فلا أعود بعد ذلك إلى تأجيل الحساب. أليس هذا دليلا كافياً على مقدرته؟ إنه رجل قادر وشديد.

ـ وأصحاب الصحف لا يهمهم إلا هذا.

ـ لكنهم يكتبون عن العدل. ألا يعدلون؟ الا يعرفون أنه يسىء معاملتنا؟ الا يدركون أنه يستغلنا كأبشع ما يكون الاستغلال؟

ـ ويعطيهم ثمن صحفهم؟

ـ طبعاً ...إنه قادر..قادر تماماً على تحصيل ثمن هذه الصحف.

ـ وهذا هو ما يريدون.

ـ والعدل الذى ينادون به. وكرامة الإنسان. والحرية. أين كل ذلك؟

ـ إنه كلام..بضاعة يبيعونها، ويحصلون منها على ما يريدون.

ـ هذه حياة بشعة.

ـ يا أخى ...وما شأنك أنت؟ دع الخلق للخالق. هل أنت الذى ستصحح الكون؟

●●●

إن "مبروك الحنطور" يجد لذة كبيرة عندما يدير هذه المناقشات بينه وبين نفسه، فإنها تقوده عادة إلى خيال لذيذ يخدر أطرافه جميعاً.

النداهة...إنه يسمع قصصها وحكاياتها، وكيف تتشكل فى أى شكل تريد. إنها تنادى الرجال لتخفيهم فى مكان مجهول.

أين يا ترى تذهب بهم؟ وماذا تراها تفعل معهم؟ بل لماذا لم يخطر ببالها يوماً أن تأتى إليه لتناديه، ولتذهب به إلى ذلك المكان البعيد المجهول، فلا تعيده بعد ذلك أبداً؟

إنه مستعد أن يختفى معها إلى الأبد. لن يغضبها. لن يعصى لها أمراً. لن يتوانى عن إرضائها.

وفيم يعود، وهو العود المقطوع من شجرة، لا أهل له ولا ولد ولا صديق؟ إنه تحت أمرها. لن ينزعج عليه أحد، ولن يحفل بغيبته أحد.

لن يذرف عليه أحد دمعة، ولن يرسل وراءه أحد صيحة، ولن ينتظر له أحد أوبة.

يا نداهة ...تعالى يا حبيبتى وخذينى..خذينى إلى أى مكان من هذا الوجود، وسأغنيك عن كل شىء، ولن تحتاجى بعد ذلك إلى أن تكونى نداهة.

ـ لكن من أدراك يا ولد؟ قد تكون هذه النداهة قبيحة أو دميمة.

ـ يا مغفل. يقولون إنها تتشكل فى الشكل الذى تريد.

ـ وإن تشكلت مثلا فى صورة قرد؟

ـ لماذا؟ ألا تريد أن تكون محبوبة ومعشوقة؟

ـ ربما لا تريد.

ـ إذن لماذا تخطف الرجال؟...لتتفرج عليهم؟ لتستعرضهم؟ لابد أنها تخطف من تشتهيهم...من تتمناهم.

ـ إذن لن تخطفك.

ـ والله إنك جاهل. جاهل جداً.

ـ من تحسب نفسك؟ مبروك الحنطور بائع الصحف؟!

ـ لكن هذا ليس ذنبى. آه لو جربتنى. ستنسى كل الرجال.

ـ بل ربما اشتهت كل الرجال.

ـ أنت لا تعرفنى.

ـ ولماذا لا تصبح نداهاً وتنادى عليها أنت؟

ـ فكرة ....لو أنى نداه.... آه !.. إذن لناديت كل من تمنيت ذات يوم من النساء. زبيدة البطة ...أو ناعسة الحرامية...ثم وردة النقرزان، حيث ينتهى مطافى عندها. إنها الأمل. الذى أعيش له وعليه.

●●●

ويشرد "مبروك الحنطور" فى خيالات لذيذة مخدرة.

إن "زبيدة البطة"، امرأة طرية، تمد له ذراعيها البضتين، لتناوله رغيف الخبز، فلا يعبأ بالرغيف بقدر ما يعبأ بذراعيها.

وهى تمشى فى الطريق، وعلى رأسها خبز الصباح، فتتسمر فى جسمها الفتان، عيون الرجال.

"وناعسة الحرامية". كفى أنها حرامية. تسرق عقول الرجال. سموها حرامية من أجل هذا. وأى رجل لا يتحمل منها نظرة، ثم يسقط تحت قدميها، يلتقط الرحمة من بين

جفنيها. سرقت من رجال الحى عدداً يقولون إنه أربعة رجال أو خمسة..كانوا سعداء بين أسرهم فلما وجهت إليهم سهامها، أصابت منهم المقتل فخروا أمامها صرعى.

أما "وردة النقرزان"، فهى طراز فريد من نوعها. فيها أنوثة طاغية، وإن تظاهرت بأنها كالرجال. إنها صاحبة مقهى، تجلس فى مدخله على دكة مفروشة بقطعة من الحصير الملون، وأمامها النرجيلة، مبسمها لا يفارق شفتيها،تشد أنفاسها فى استمتاع شهى، كأنها رجل خبير. ويلتف حولها رجال الحى، فتداعبهم مداعبات مفتوحة، لا يهمها أى أثر تتركه هذه المداعبات فى نفوسهم. وهى تعقد معهم الصفقات، وتحافظ على حقوقها بيديها، كالرجال. ولكن أى نوع من الرجال. إن لها جسماً ينبض بالإغراء. فى عينيها سحر أخاذ. شفتاها متدليتان دائماً بالرغبة. وبرغم ما تحاوله من أن تظهر بمظهر الرجال، إلا إن ذلك يزيدها إمعاناً فى الأنوثة والإغراء. إنها أرمل، وعاقر. تعمل وتكسب وتشترى المصاغ، والثياب الجميلة، وبعض العقارات. وكثيراً ما تعين المحتاج، وتقرض المعسر، ولكنها لا تنسى ما لها أبداً، ولا تتنازل عن حق من حقوقها، ولو اقتضاها ذلك معركة تنتصر فيها دائماً، فهى امرأة مغرية، وكل فتوات المنيرة فى جيبها، يعشقون مجلسها، ويتنافسون على تملقها، فتأخذ كل ما تريد، ولا تعطى أحداً شيئاً.

إن "مبروك الحنطور" يعيش فى خيالاته هذه اللذيذة، ويستعيد بعض الذكريات.

مرة كان يشترى رغيفاً من الخبز، وكان الوقت مبكراً قبل أن تصحو العصافير. وكان الوقت ربيعاً والنسيم البديع، يملأ الدنيا رقة، ويملأ النفس أملا. ولم يكن عند "زبيدة البطة" أحد. فقط أرغفة الصباح الطازجة، وهو.

وأخذ ينظر إليها معجباً. كانت ترتدى ثوباً أزرق تتخلله خطوط بيضاء.

وكان الثوب محبوكاً عليها، يبدى كل قطعة من مفاتنها. وظهرت له كأنها عارية، فأخذ يطيل النظر في كل جزء من أجزاء جسمها، وهو مأخوذ.

ولما سألته عن الرغيف الذي يريد، قال لها في استجداء: كل ما تعطينه رضى ..فمدت له يدها بالرغيف، فأخذ يطيل النظر إلى زندها العارى، دون أن يعبأ بالرغيف.

قالت:

ـ هذا هو الرغيف.

قال:

ـ أريد هذا.

وأتت له برغيف آخر.

قال:

ـ قلت هذا.

وأتت له بثالث.

قال:

ـ لا لا ..بل هذا.

وسألته أن يمد يده هو ليأخذ ما يشاء.

ومد يده هو ليأخذ ما يشاء.

ومد يده، ليلمس زندها الأبيض العارى، فى حنان.

وضحكت "زبيدة البطة" من قلبها، وقالت له:

ـ لا يا حنطور..هذا لا يؤكل.

قال:

ـ أريد لقمة واحدة لأشبع بقية عمرى.

قالت وهى تنحنى عليه، حتى لتمر أنفاسها فوق شفتيه:

ـ ستقضى عمرك جائعاً يا حنطور !

●●●

ومرة كان يسير منكسراً مهموماً. كان المعلم قد قسا عليه، حينما رأى كمية المرتجع كبيرة. وبرغم ما أخذ يبرر به، بأنه آخر شهر، والناس لا يقبلون على شراء الصحف كثيراً فى آخر الشهر، إلا أن المعلم قد أخذ يكيل له الاهانات، لأنه أهمل، وتراخى فى النداء على الصحف، ولم يتحرك كما ينبغى هنا وهناك. ولقد كان تهديد المعلم له قاسياً حينما أنذره بأنه سيمنع عنه الصحف إذا تكرر هذا منه، وأن هذا معناه أن يجوع كالكلاب الضالة.

وكان يحمل بعض المجلات المصورة، وكانت تبدو منها واحدة، قد امتلأ غلافها بوجه ضحوك مشرق، ينضح إغراء.

وقابلها. كانت "ناعسة الحرامية" تخطر فى دلال، كأنما الأرض لا تحمل من مخلوقات الله أحداً سواها. وكانت الملاءة تلتف حول جسمها، وتتدلى من عند ذراعيها، فى عمد مغر يسيل اللعاب. وبين شدقيها كانت قطعة من اللادن هى المبرر الذى تعمد إليه، حتى تتلاعب بشفتيها، فتضعهما فى الوضع الذى تعرف إثارته للرجال، وتغيره من حين لحين حتى لا يجمد على وضع تمله الأنظار.

على أن "مبروك الحنطور" كان منطفئ النفس هذا المساء، فلم يحفل بها إلا للحظة، ثم طأطأ رأسه كمن يريد أن ينكفئ على الأرض ليبكى.

ولم يعجبها هذا بطبيعة الحال. إنها "ناعسة الحرامية"، ولقد اعتادت على أن تتعلق بها الأنظار، فلا تفارقها ابداً، ومع أنها لم تكن من طينة "مبروك"، ولم تكن تعبأ به، إلا أنها لم ترتح لإهماله لها على كل حال.

لهذا قررت أن تناوشه.

قالت فى استخفاف:

ـ اسمع...أنت..هل هذه صورة امرأتك.

ولم يرد..وكيف يرد، وهو فى هذه الحال؟

قالت:

ـ ماذا جرى لك..هل تركتك؟ مسكين !

ولم يرد ..ولم تكن به طاقة لكى يرد.

قالت:

ـ لماذا تبكى عليها هكذا...كنت تحبها؟

وبدأت نفسه تتفتح قليلا قليلا...كالوردة، بللتها قطرات الندى. نظر إليها طويلا، وأخذ نفساً..ثم قال:

ـ يا حرامية ...

قالت فى تحذير:

ـ إياك...أنا لم أسرق منك شيئاً.

قال وهو يتنهد.

ـ وقلبى يا ناعسة..من سرقه؟

قالت وهى تشير على غلاف المجلة:

ـ هذه.

قال:

ـ مكارة !..بل أنت.

قالت:

ـ متى..متى سرقته؟

قال:

ـ منذ رأيتك...اسرقينى معه.

قالت:

ـ لا فائدة منك.

قال:

ـ لأنك لا تعرفيننى.

قالت:

ـ ولا أريد أن أعرفك.

واقترب منها، متصنعاً إنه يريد أن يريها صور ما لديه من مجلات، فمدت يدها إليه، فأمسك بها وقبلها...لم تمانع..وإنما قالت له فى جرأة: مرة أخرى...وعاد يقبل يدها، واضعاً روحه بين شفتيه، وسكر..ولما نظر إليها، وجدها تنظر إلى ناحية أخرى، فتبع نظراتها، فوجد من بعيد، زوجها قادماً فى صحبة رجل آخر.

ولم يكن غبياً ولا مغفلاً، لقد أدرك أنها تريد أن تستعمله، لإثارة حنق الرجل الأخير فى قائمة من سرقت من الرجال، ليتركها، فتسرق واحداً جديداً، هيأته لهذه السرقة.

والقى بذراعها فى الهواء، كمن لذعته أفعى.

واطلق ساقيه للريح، حتى وصل إلى مكانه من الخرابة، فألقى بنفسه بين جدرانها القديمة، يسترد أنفاسه.

●●●

ويتنهد "مبروك الحنطور"، من أعمق أعماق قلبه، وهو يذكر "وردة النقرزان". إنها شيء آخر. فيها من الرجولة أضعاف ما لدى الرجال.

لقد كان "مبروك الحنطور" يخافها.

إن جلستها أمام المقهى، فى ردائها الأسمر البسيط الواسع..كالجلباب، تجعل لها هيبة خاصة. والنرجيلة التى لا تفارق ما بين ساقيها كالكلب المخلص الأمين، والدخان المتصاعد

أبداً من بين شفتيها، والمحلق أبداً فوق رأسها، يحيلها إلى شيء غامض كالنداهة. ووجهها الخالى من الأصباغ والألوان، يبدو صافياً كصباح الربيع، بلا سحب ولا غيوم. والمنديل الأسود الذى تعصب به رأسها، فلا يظهر من شعرها إلا بصيص أسود فاحم ناعم، يغرى بالتطلع إلى ما وراء المنديل، كالإطار يحيط باللوحة فيزيدها جمالا وفتنة.

وكان "مبروك الحنطور" يمر "بوردة النقرزان"، فيكتفى بالنظر إليها، ثم يشرد فيما تحمله من أسرار. أى صنف من النساء تكون؟ كيف تعيش؟ كيف تبدو هذه السيدة الغريبة، إذا خلت إلى نفسها، ولم تعد بين هذا الجمع من الرجال، تحدثهم وتسمع منهم، وتمزح مزاحاً عالياً جريئاً حاداً؟ أتراها تظل فى الرداء الأسود الواسع كالجلباب؟ أتراها تنام والنرجيلة بين ساقيها؟ أتراها لا تعرف أحلام النساء؟ ألا تثقلها الوحدة؟ ألا تقتلها الرغبة؟ ألا يفتك بها الظمأ؟

ولم يكن يجيب عن ذلك بشيء لم يكن يعبأ حتى بأن يجيب. كان يخرس هذه الأسئلة فى نفسه، فإن رهبة "وردة النقرزان " أقوى حتى من الخيال الصامت المكتوم.

وبينما هو سائر ذات يوم كالتائه، لا يدرى ماذا يفعل فى دنياه هذه، بعد أن اضطر، إلى دفع ما عليه لدكاكين الحى، فنفد كل ما جمع من قروش الصحف، ولم يعد يقوى على الذهاب إلى المعلم خاوى الوفاض. بينما هو لا يدرى ماذا يفعل، وكيف يتصرف إذا هبط عليه المعلم الآن كالسهم، يجرده من ثيابه. بينما هو يتصور المعلم هذا كالغول الذى طالما سمع عنه فى الحواديت، يأكل لحوم البشر، ولا يترك الناس إلا عظاماً جافة كالحة. بل إن المعلم أقسى من الغول، فقد كان الغول فى الحواديت يخجل إذا ما بادره واحد بسلام، فيرد عليه قائلا: لولا سلامك سبق كلامك، لكنت أكلت لحمك قبل عظامك، فى حين أن المعلم لا يرد بسلام ولا كلام ولا تحية. أبداً، إنه لا يفهم شيئاً واحداً: قروش الصحف تعود إليه، ويرد هو العمولة التافهة للبائع، كأنه صدقة. بينما هو كذلك يدير كل هذه المسائل فى ذهنه، حائراً لا يدرى ماذا يفعل، إذ المعلم أمامه وجهاً لوجه. ويتصادف ألا يلقاه إلا أمام قهوة وردة النقرزان.

وأصابت "مبروك الحنطور" حالة تعسة من الخجل.

حتى أمامها، سينال إهانة جارحة !

سيجرده المعلم من ملابسه، فيتركه فى بقايا خرق بالية، هاتكاً ستره !

سيكيل له الإهانات، وسيشبعه بالشتائم، وسينكل به تنكيلا رهيباً !

ألا بد أن يتم ذلك أمامها؟!

لكن لماذا هو مهتم هذا الاهتمام بملابسات الإهانة وتفصيلاتها؟

ماذا يهمه إذا تمت أمامها، أو من خلفها؟

وهل تنقص الإهانة إذا كانت بعيداً عنها؟ إنها إهانة فى كل الأحوال، فلماذا اهتمامه بهذه التفصيلات؟

ولم يدر كيف يجيب.

..ونزل المعلم من السيارة القديمة التى كانت تحمله، وتوجه إليه، فانكمش فى نفسه كالقنفذ، يحتمى بجلده من الخطر.

وإذا المعلم يتقدم نحوه فى خطوات مفترسة، ويمسك بتلابيبه ويقول له:

- ألم أحذرك من هذا من قبل؟ لماذا تعود إلى ما حذرتك منه؟ أين النقود؟ أين حقى؟ أين مالى؟ أترى أصحاب الصحف يتركون حقهم لدى؟ أتراهم يعذرون؟ إنهم لا يشفقون على حتى أشفق عليك؟

وصاح "مبروك الحنطور" مستنجداً:

- حرمت يا معلم. سامحني. والله لو علمت...

قال المعلم فى حدة:

- علمت ماذا يا لص؟ لعبت بالنقود قماراً؟ اشتريت قطعة أفيون؟ أين النقود؟

قال "مبروك الحنطور" هو يقسم بأغلظ الأيمان:

- والله ابداً . أنا دفعت النقود ثمناً لما أخذته من مأكولات بالشكك. ألا آكل يا معلم؟

قال المعلم:

- نفس الكلام. نفس النغمة. نفس الحجة. كلكم لصوص. تريدون أن تسرقونى؟ تريدون أن تخربوا بيتى؟ من أين تأكلون يا جياع، إذا أفلست أنا . إنكم تأكلون من بين يدى؟ ثم لا تدفعون؟ تعال.. وهم بأن يجرده من جلبابه.

- وأخذ "مبروك" يصيح مذعوراً محموماً خائفاً:

- يا معلم حرام عليك. هذا حرام عليك. تهتك سترى. اتركنى مستوراً حتى لا يكشف الله سترك. هذا حرام. هذا حرام.

ولكن صيحات مبروك الحنطور، لم تجد شيئاً.

مضى المعلم يخلع عنه جلبابه، "ومبروك" يصيح ويستغيث.

وفجأة، بغير توقع، إذا "بوردة النقرزان"، تثب إلى "مبروك" كالأسد تقف إلى جواره تحميه.

إن الأمر لم يكلفها إلا صيحة واحدة فى المعلم، فيتغير الموقف.

إنها تمسك بمبروك الحنطور، وتجره إلى حضنها كأنها أم تحمى طفلها، فيهرع يخفى جسده بين ذراعيها.

وتصيح "وردة النقرزان" فى المعلم:

- ماذا فعل؟ ماذا تريد منه؟

يقول لها:

- إنه صبى يعمل عندى، وقد أخذ نقودى ولم يردها إلى.

قالت فى صوت أعلى من صوته:

ـ لكل واحد عذر. هل عرفت عذره؟

قال لها فى استعطاف:

ـ تصدقين هذا الصنف من الناس؟ إنه صنف خسيس. إنهم يكذبون. إنهم يختلفون الأعذار، ليأكلوا حقوق الناس.

قالت فى عصبية:

ـ انت لا تعرفه. إنه رجل مسكين. إنه محتاج. حرام تظلمه.

ولم تنته المناقشة عند هذا. أخذ المعلم يروى لها أسرار هؤلاء الأولاد، وكيف يتلاعبون بحقوق الناس، وكيف يتسببون فى خراب البيوت، وكيف يلجأون على الكذب والخداع حتى يكسبوا عطف الناس.

وأخذت هى تروى له كيف أن الأمر يختلف مع الحنطور، وأن الحنطور ولد طيب. إنه مسكين وفى حاله، لا يعرف عنه أحد شيئاً. إنه بين الجرى وراء رزقه، وخرابة النداهة، وقلما نجده يمر بين الدكاكين. أنت تظلمه.

وبينما كانت المناقشة بينهما دائرة، كان "مبروك الحنطور"، مكوراً فى حضن "وردة النقرزان" يشعر بجسمها الدافئ الحنون ينتفض، وهى تدافع عنه، لتدفع عنه الأذى. كان صدرها يعلو ويهبط، مع كل جملة، وكل كلمة دفاع. كانت أنفاسها تلامس وجهه. كانت يداها تحنوان عليه، وتحيطان به فى حنو بالغ.

وتمنى أن تمضى هذه المناقشة فلا تنتهى.

لقد كان يخاف هذا اللقاء مع العلم، فأصبح يرجو أن يمتد هذا اللقاء بقية عمره، ليبقى حيث هو فى حضنها البديع. إنها امرأة جميلة. إنه يكاد يتحسس أجزاء جسمها، مرة برأسه، ومرة ثانية بكتفيه، ومرة ثالثة بظهره، وفى كل مرة بقلبه، وقد أخذ يخفق خفقاً متصلا لا ينقطع.

لكن الحلم يتبدد مع أشعة الصباح.

وكانت أشعة الصباح قاسية عليه هذه المرة، لقد بددت أحلى أحلام عمره.

قالت " وردة النقرزان":

- وماذا لك عنده؟

- تسعون قرشاً كاملة.

- لماذا؟ أعطيته تسعين جريدة.

- ستين جريدة، وخمسة عشر مجلة.

- أنا أدفعها لك، بشرط.

- أى شرط تريدين؟

- ألا تمنع عنه الصحف أبداً. والا تلجأ إلى أحد، إذا تكرر منه هذا إلا إلى أنا. اعتبرنى مسئولة عنه.

- لك هذا يا معلمة. بالعكس. هذا خير ضمان لمثلى.

- اتفقنا.

..وكانت هذه هى أشعة الصباح، فقد أبعدته فى رفق عن حضنها، لتعود إلى القهوة، وخلفها المعلم.

وتركوه وحده...فى عرض الطريق، أمام القهوة.

وشعر أنه عريان...أنه مجرد من ملابسه، بل من جلده كذلك.

إن المعلم لم ينجح فى نزع جلبابه عنه، ولكن "وردة النقرزان"، عندما أبعدته عن حضنها، جردته من كل حماية..من كل حنان...من الأمل الحلو..من الحلم الرقيق العميق الذى عاش فيه.

وارتعد من البرد، وهو ينظر إليهما.

وظل يرتعد بعد أن مضى المعلم، وقد استرد نقوده.

ولم تغادر القشعريرة جسمه، وهو واقف ينظر إلى " وردة النقرزان" صامتاً، يريد أن يقول لها اشياء كثيرة، ولا يستطيع مع هذا أن ينبس ببنت شفة، فى حين تنظر هى إليه فى ابتسامة طيبة، بغير أن تتبادل معه كلمة واحدة.

ولازم جسمه المحروم ما يشبه الحمى، وقد لفحه التيار الرطب، بعد أن تعرى من أجمل رداء عرفه فى الحياة.

•••

إن حياة "مبروك الحنطور" قد تغيرت بعد هذا الحادث.

أصبح يحب أن ينام، ليحلم.

وحلمه الواحد والوحيد هو هذه الذكرى العزيزة الغالية. " وردة النقرزان" تأويه فى حضنها الحنون لتحميه، وهو بين ذراعيها يتقلب ذات يمين وذات يسار، ليلمس كل ما يستطيع أن يلمسه من أجزاء جسمها. إنها امرأة رائعة، بعكس ما يبدو عليها من مظهر الرجال.

وهو كذلك يحب أن يصحو ليراها.

ولم يكن بينهما إلا ابتسامة رقيقة، كلما التقت عيناه بعينيها. على أنه أراد أن يظهر لها عرفانه بجميلها فأخذ يتمدد أمام القهوة، يضع نفسه بين عينيها. ليكون تحت تصرفها وقتما تريده. وعندما كان يأخذ مكانه من عينيها، كان يصاب بجمود عجيب. حتى أهدابه لم تكن تتحرك أبداً. إنه يثبت عينيه فى عينيها، ولا يتحرك بعد ذلك، مهما تكن دوافع الحركة، ومهما دهمه من أمر، ولو كان الخطر.

وعندما كان يعدو بصحفه تتطلق من حلقه النداءات بها. وعندما كان يتسلق سلالم عربات الترام، لم يكن يغيب عن خاطره وجهها الصبوح النضر. أبداً، ولا كان الشعور بيديها تتحسسان صدره يزول عن وجدانه.

وهكذا كان لهذا الحادث أثره فى حياته، فلم تعد فى غير خرابة النداهة، حيث ينام يحلم بها. أو أمام القهوة، حيث يتمدد يتطلع إليها، أو فى طرقات القاهرة، حيث يبيع

الصحف فى حماسة واجتهاد، ليوفر لها ما دفعته من أجله، ويوفى لها الدين الذى لها فى عنقه.

●●●

ـ الدين "يا مبروك" .هل الدين هو شاغلك؟

ـ نعم...لقد اشترت حياتى بجميلها.

ـ يا كذاب...أنت تعرف أنها فى غنى عن دينك. إنها وهى تدفع لك لم تأمل فى سداد.

ـ لكن واجبى أن أعمل، لأكسب وأسدد.

ـ لا ..بل لتنال فرصة أخرى، تتقرب بها إليها.

ـ لا لا ...إننى أريد سداد دينى.

ـ أنت كذاب. أنت تعرف أنها لن تأخذ هذا الدين. لن تسمح لك بسداده، لأنها تدرك حاجتك.

ـ لكن هذا شىء، والواجب شىء آخر.

ـ أو الرغبة...والحب..شىء آخر.

ـ لا تكن قليل الأدب.

ـ لا تكن أنت قليل الحياء، أنت تريد أن تذهب إليها، وفى يدك تسعون قرشاً، فتقف أمامها، وتمد يدك بالنقود إليها، فتدفعك، فتقترب منها، وتلح عليها فتعود لدفعك، فتصر على أن تقترب منها، تتنسم أنفاسها، وتلامس يديها، ومن يدرى فقد ترتمى بين أحضانها متأثراً بمجاملتها..قد تبكى من فرط التأثر، لتحيطك بيديها فى حنان. هذا هو ما تريده.

ـ وهبنى أريد هذا. ما عيب هذا؟!

- لا عيب، إلا أنك تنكر أن هذا هو هدفك.

- وإن يكن هذا هدفى، فهو هدف شريف وطاهر.

- ولكن هدف يائس...تعس.

- من يدرى؟...ربما !

- ربما ماذا يا مغفل؟

- ربما تكون قد أحبتنى.

- "وردة النقرزان" تكون قد أحبتك !

- وهل هذا كثير على الله ظ

- سبحانه وتعالى، لا يكثر عليه شىء.

- إذن، فقد تتحقق المعجزة.

- وتحبك وتتزوجك وتعيشان فى التبات والنبات وتنجبان الصبيان والبنات.

- لم لا؟..إننى أحبها. إننى أهيم بها. إننى لا أرى فى الدنيا سواها إننى أضع نفسى، وهى كل ما أملك، فداء لها.

- ولكنك تنسى أنها معلمة، وأنها صاحبة مقهى، وأن مكانتها فى الحى كبيرة.

- ولكنها تعذب نفسها بهذه الرجولة المصطنعة. إنها ليست من الرجولة فى شىء إنها امرأة مستوية وناضجة وكاملة، بل مثيرة.

- وما دخلك يا صعلوك بهذا؟

- أنا أحبها، وأريد أن أنقذها من هذا التمثيل الذى تعيش فيه.

- يا سيدى يا سيدى. أنت الذى تريد أن تنقذها. لقد دوخت رجال الحى. منذ مات زوجها وهى هكذا. أخذت مظهر الرجال، وأخذت تدير المقهى الذى ورثته عنه، كأنه لا

يزال حياً. وكم من رجل تمناها وتقرب إليها، وطلب يدها، فردتهم جميعاً، مفضلة هذه الحياة. هى تريد هذا. هى ترغب فى هذا. ما دخلك أنت بها؟

- يا ناس أنا لا أصدق أبداً هذا المظهر. أنا أعرف عن يقين نبضات قلبها. أنا أحسسته بنفسى. أنا شعرت بخلجات جسمها الفائر الثائر، تنتفض فى انفعال. أنا واثق مما أقوله.

- قل ما تقول. ولكن لا تعش فى أوهام.

- إنه على كل حال وهم لذيذ.

- لكنه وهم.

- وهل هناك شىء فى الدنيا ليس وهماً. كل شىء وهم.

- أنت وشأنك. عش كما تريد فى هذه الأوهام.

- وما أجمل الوهم. إنه حياة، طالما أننا قادرون على أن نحياه.

- يا فيلسوف زمانك.

- اتركنى فى وهمى.

●●●

وتنتهى مناقشة "مبروك الحنطور" لنفسه، ليبدأ مع مناقشة أخرى من جديد. على أن كل هذه المناقشات تؤدى به إلى أن يعمل فى إصرار وعناد، حتى يصبح أعز من لدى المعلم من باعة، فيعينه رئيساً على منطقة كبيرة من مناطق القاهرة، وهذا معناه أن يصبح معلماً صغيراً، أو معلماً من الباطن كما يقولون.

إن لكل معلم من متعهدى الصحف عدداً من هؤلاء المعلمين الصغار، يشرفون على عدد من الباعة، نظير عمولة خاصة يتقاضونها. إنهم يبيعون أنصبتهم من الصحف والمجلات، وينالون فوق عمولتهم عنها، جزءاً من عمولة أخرى، مقابل الإشراف على الباعة الذين يشرفون عليهم.

ولم يكن فى تقدير "مبروك الحنطور"، أن يصبح يوماً واحداً من هؤلاء، لكنه أصبح فى وقت قصير واحداً منهم. اصبح هو الآخر معلماً صغيراً.

وعندما جمع "مبروك الحنطور" الدين الذى فى عنقه "لوردة النقرزان" أخذ يديره بين يديه وهو يحدث نفسه بأمور أخرى كثيرة ستترتب على سداده لهذا الدين.

ماذا تراها ستقبله له؟

هل ستقبله منه؟ أو أنها سترده إليه؟

وكيف ستستقبله؟ وأى حديث سيدور بينهما؟

وعندما كان يهم بالذهاب بالدين الذى لها عنده، كان يشعر أن شيئاً ما يشده إلى الوراء، فلا يستطيع أن يتقدم إليها.

لكن الدافع كان يعود فيتجدد، فيهم مرة أخرى، ولكنه كان يخاف أن يتبدد وهمه اللذيذ، فيرتد عنها، مؤثراً أن تمضى حياته فى وهم عريض، على أن تصطدم بحقيقة أليمة.

لكنه لم يستطع على ذلك صبراً.

ذهب إليها يوماً، وقد كاد المقهى يخلو إلا منها.

وابتسمت له، فابتسم لها.

ولم تقل شيئاً، ولم يقل كذلك شيئاً.

كانت جالسة فى مدخل المقهى، على الدكة الخشبية التى اعتادت أن تجلس عليها، وبين ساقيها النرجيلة، وعلى جانب من الدكة كوب من الشاى.

وكانت وحدها. هى والنرجيلة وكوب الشاى.

وكان الوقت بين الظهر والعصر، فى موسم صيف، حيث هجع الناس، يحتمون بالنوم من الهجير.

وطالت وقفته، وطالت إليها نظراته.

وجمدت عيناه فى عينيها، فتكسرت أهدابها، ولوت عنقها تتلفت ذات يمين وذات يسار.

على أنه لم يتحرك. حتى عيناه لم تتحركا.

وكانت هذه اللحظات الصامتة، هى أحلى ذكرياته معها. لقد شعر أنه يصلى لله فى عينيها. لقد أحس أنه متجه إلى القبلة، وهو ينظر إليها.

ومد يده بالنقود إليها، وعيناه فى عينيها.

وتسمرت هى فى جلستها، فتراخت يداها، ولم تستطع أن تمد واحدة منهما إليه.

وبعد لحظات قصيرة فى عمر الزمن، أطول من أجيال فى النبض الدافق من قلوب عطشى. بعد هذه اللحظات، قال لها فيما يشبه الحشرجة:

- ربنا يطيل لى فى عمرك. هذا دينك. استغفر الله. إنه بعض دينك. أما الباقى، فإنى سأدفع عنه حياتى.

- ليس لى دين عندك.

- يا معلمة..ربنا يجبر خاطرك.

- صحيح. ليس لى دين ...أبداً.

- لكن أنت دفعته عنى.

- لا..لا فرق بيننا يا "مبروك".

وهاجت نفسه تود لو عرفت ماذا تريد، فصاح يقول لها:

- كيف هذا يا معلمة؟ هل صحيح لا فرق بينك وبينى؟ هل تقصدين أننا واحد؟ هل صحيح نحن - أنت وأنا - واحد؟

- نعم نحن واحد. ألسنا نكافح فى الحياة، كل منا فى طريق؟ ألسنا نعمل بالليل وبالنهار، فى سبيل لقمة عيش نظيفة؟ ما الفرق بينى وبينك إذن؟ إن المحنة التى تتعرض

لها، هى محنتى، فإن لم أتعرض لها اليوم، فقد تصادفنى ذات يوم، كلنا يا "مبروك" واحد.

وسكت "مبروك"، لم ينطق. لم يتحرك.

لقد كان يتمنى أن يسمع منها كلاماً آخر غير هذا الكلام، فلما سمعها تقول كلماتها هذه، ارتدت مشاعره كالسكين إلى قلبه. ابتلع زفراته فى حلقه، فاكتوى حلقه بالنار.

وظل واقفاً ويده ممدودة إليها بالنقود.

وظلت جالسة، لا تمد إليه يدها، لتسترد النقود.

وطال التقاؤهما فى نظرة طويلة صامتة غامضة.

ثم سقطت من عين "مبروك" دمعة واحدة، فى حرارة اللهب.

ثم أدار ظهره ومضى.

ولم تحتمل "وردة" أن تقاوم أطول مما قاومت، فأخفت وجهها بين كفيها، وأخذت تبكى لأول مرة ...نصيبها.

على أن الدمع لم يرد ظمأها.

ذهبت إليه، فوجدته قد انزوى فى أحد أركان الخرابة، يبكى كطفل رضيع.

وأحست "وردة" أن بكاءه يدمى قلبها، لكنها لم تدر كيف تتصرف.

واقتربت منه، وأخذت تربت على كتفه.

ولم يشعر بشىء.

وأمسكت برأسه بين كفيها، لترفع وجهه إليها.

ولما عادت نظراتهما تتلاقى، جاهد هو نفسه، ليكتم دموعه بين مآقيه، وجاهدت هى نفسها، حتى لا تنهار مقاومتها.

لكنها قالت له فى حنان:

ـ سامحنى يا "مبروك". لماذا تفعل هذا كله؟ هل من أجلى؟

وهز رأسه مرات إلى أسفل.

قالت:

ـ أنت تحبنى يا "مبروك"؟

وعاد يهز رأسه على أسفل، ودموعه تتدحرج على خديه.

قالت:

ـ لكنك لا تعرف ظروفى. آه لو عرفت ظروفى. أنا كالوقف يا "مبروك" كتب على هذا.

وتطلع إليها يطلب المزيد. إنه يريد أن يعرف كل شىء إنه يحبها إن هذا حقه عليها أن تحكى له كل شىء.

●●●

على أن "وردة النقرزان"، تكفى بأن تروى له قصتها فى بساطة، وبلا تفصيلات.

أنا يا "مبروك" مسكينة مثلك بل أنا أشد منك بؤساً. ربنا وحده هو عالم يا ناس. هل تظن أنى أريد أن أعيش هذا الحياة؟ هذا شىء مكتوب على.

كنت الزوجة الثانية للمعلم صاحب المقهى. وزوجته الأولى ماتت بالسل. وله منها بنت وولد، ورثا عن أمهما هذا الداء. إنهما نزيلان فى المصحة. هل تعرف؟ زوجى عندما تزوجنى وهبنى كل شىء. كتب كل شىء يملكه بأسمى. المقهى والبيت. وكل ما طلبه منى هو أن أرعى البنت والولد. لقد عاشا معنا فترة، حتى أصبح من الخطر علينا وعلى الحى كله أن يعيشا معنا، فأرسلناهما إلى المصحة. وقد قال لى زوجى قبل أن يموت إنه يخاف عليهما لو مات وتزوجت أنا، فأقسمت له اننى لن أتزوج بعده من أجلهما. ليس لهما أحد سواى يا "مبروك". ليس لهما أحد. أمهما ماتت. أبوهما مات. كل الأملاك بأسمى. هل أتركهما أنا الأخرى؟ إنهما مسكينان مثلى ومثلك إنهما بائسان. "مبروك"

أفهمنى. لقد أخذت شكل الرجال لأبعد الرجال من طريقى. وأنا أحترق "يا مبروك". أنا أعيش فى نار جهنم. أنت لا تدرى عنى شيئاً. والآن وقد عرفت، هل تقدر ظروفى؟

قال "مبروك":

ـ لكنى أحبك. وأنا مسكين مثلك، ومثل أولاد زوجك. وأنا أعاهدك على أن أعمل معك من أجلهما.

قالت "وردة النقرزان":

ـ "مبروك". لا يا "مبروك". إن كل رجال الحى حاولوا هذا معى. أقسموا لى كلهم على هذا، لكنى قررت أن أقف، موقفاً لا تردد فيه. قررت أن أعيش هكذا من أجلهما، وأنت لا ترضى أن تكشفنى أمام رجال المنيرة. لقد يئسوا منى، وأخذونى على أنى مثلهم، فهل أتراجع بعد هذه السنوات الطوال عن موقفى. هل ترضى لى هذا؟

ـ لكنى أحبك.

ـ وصدقنى يا "مبروك" أنى أنا الأخرى أحبك.

ـ إذن لماذا نعيش فى حرمان؟

ـ لأنه نصيبا يا "مبروك". لا. نصيبى أنا، أما أنت، فلا تربط مصيرك بمصيرى. أنا كالوقف يا "مبروك"، خراب. أما أنت، فأمامك الدنيا والعمر الطويل.

ـ لا...أبداً. إما أنت أو لا.

ـ لا يا "مبروك". دعنى فى حالى.

ـ إننى لن أحيا إلا لك.

ـ حرام أن يضيع شبابك على وقف خراب.

ـ بل على حياة نابضة بالأمل.

ـ أى أمل؟ لا أمل.

ـ من يدرى يا "وردة". ربما جبر الله بخاطرنا وشفى أبناء زوجك.

ـ آه لو رأيتهما. إننى أذهب إليهما فى المصحة، فأرى نظرات الحياة تطل من بين جثث الموتى. إنهما معلقان بين الحياة والموت. إننى أحبهما وأشفق عليهما، قد وهبت نفسى لهما. لا فائدة.

ـ فإن ...

ـ إياك. إياك أن تقولها. إياك، فسأكرهك. كل الذين تمنوا لهما هذا كرهتهم من قلبى. إنى أريدهما أن يعيشا. لابد من أن يعيشا. إن والدهما منحنى كل شيء منحنى نفسه، وأملاكه جميعاً. لم يقصر فى البيت أى مطلب من مطالبى. لقد عشت معه عزيزة مكرمة. ألا أكرمه فيهما. وبعد هذا فهما مسكينان ضعيفان مريضان يائسان. العلة تأكلهما أكلا. لا تتمنى لهما شيئاً إلا الصحة وطول العمر إذا أردت أن أحبك، فاحرص عليهما معى.

ـ لكن ... لكننى أريد أن أتزوجك.

ـ هل ضرورى أن يصبح الحب زواجاً؟

ـ الزواج نصف الدين.

ـ فإذا امتنع علينا، فنصف العمى ولا العمى كله.

ـ إننى أحبك يا "وردة".

ـ وأنا أحبك يا "مبروك". وأعرف أنك تحبنى. وعلينا أن نعيش فى هذا الحب، كما هو. هذا نصيبنا.

ـ أولا نحاول أن نغير هذا النصيب؟

ـ خير لنا ألا نفعل.

ـ ونعيش نحترق يا "وردة" !

ـ نعم نحترق ونتعذب، ولكنه حريق شهى، وعذاب لذيذ.

ـ عندى فكرة. نتزوج أمام الله، ونخفى ذلك عن الناس جميعاً.

ـ تعنى نهرب بحبنا يا "مبروك" ! كاللصوص !

ـ طالما أن هذا هو نصيبنا.

ـ ونكون كمن لم يفعل شيئاً.

ـ لماذا؟ ...أليس من حق المحبين أن يستمتعوا بالحب؟

ـ ولكن فى الحلال، وعلانية، وفى وضح النهار.

ـ فإذا حالت بينهم وبين ذلك الظروف؟

ـ صبروا على ما هم فيه، ولو أدى ذلك إلى عذاب طويل. إن العذاب فى هذه الحالة يصبح هو الاستمتاع الصحيح بنوع الحب الذى يواجهون. أما إذا هربوا هنا وهناك، فإنهم بهذا يفسدون كل شىء حتى معنى الحب نفسه.

ـ أنت غريبة يا "وردة". إننى اشك فى حبك لى.

ـ لا يا "مبروك". صدقنى. أنا أقول لك هذا وأنا أعانى المرارة وأكاد أسقط تحت ضربات الحرمان، لكنى أعود فأتماسك.

ـ أنت قوية يا "وردة". لكن هل تظلين تحبيننى؟

ـ نعم يا "مبروك"، فإنى لم أجد واحداً ممن أحبونى بعد وفاة زوجى، يحبنى بالصورة الصادقة الأمينة المخلصة التى أحببتنى أنت بها. أنا أعلم أنك تخلص لى الحب. وأعاهدك على أن أبادلك حبك يا "مبروك". حبك الصامت الأمين الصادق.

ـ لكنى بعد أن سمعت هذا منك، سأعجز عن ضبط نفسى معك.

ـ هذا مالا أريده منك. لابد من أن تلتزم نفس الحدود التى بيننا الآن، كأنما ليس بيننا شئ على الإطلاق.

ـ وتقدرين؟!

ـ بل لابد أن أقدر، وأن تقدر أنت كذلك. لابد. نصيبنا. ظروفنا. هل نتحدى النصيب؟ هل نخرج على حكم الظروف.

ـ وكيف نعبر عن حبنا؟

ـ بالشرف والصدق والأمانة. تكفينا النظرات الجامدة الصامتة، التى تنقل شعور كل منا للآخر. يكفينا الشعور بالحرمان الذى يقرب كلا منا من الآخر. أليس هذا زاداً للمحبين الصادقين؟

ـ لكنى لن أنام بعد ذلك، إلا معك.

ـ وأنا لن أنام، إلا وأنت بين جفنى.

ـ بين ذراعيك.

ـ ليكن. حذار أن يتخطى الحلم حدوده، فيصبح حقيقة.

ـ فإن اصبح حقيقة. هل تندمين؟

ـ ليته يصبح حقيقة. لكن هذا مستحيل.

ـ يا "وردة" افتحى ثغرة للأمل.

ـ فى اليأس أمل. بل ربما كان اليأس فى مثل حالتنا هو الأمل نفسه، لكن فى صورة جديدة، لا يعرفها إلا اليائسون.

ـ اليأس هو الأمل. والله تضحكين على نفسك وعلى.

ـ اليأس أمل. هذا حق. إنه يأس من الزواج، ولكنه أمل فى عاطفة قائمة، ودائمة ومستمرة. أم تراك ستزهد فى هذه العاطفة إلا إذا اقترنت بالزواج؟

ـ أنا ...أنا لن أزهد أبداً.

ـ كذلك أنا. سأحيا فى هذا الحب، بل لهذا الحب.

ـ يا "وردة" أنا أحبك.

ـ وأنا يا "مبروك" أحبك.

ـ إذن اتفقنا.

ـ على الوفاء والصبر، والحب المحروم.

●●●

كان "مبروك الحنطور" يدير هذه الذكريات فى رأسه، فيستعيد ذكرياته عمن تمنى من النساء: "زبيدة البطة"، و"ناعسة الحرامية"، و "وردة النقرزان". ولكنه ينتهى إلى وردة فتقف عندها ذكرياته.

إنه يحب "وردة" حباً شديداً. إنه لا يرى أحداً سواها.

إن "زبيدة البطة" مجرد جسم بض ملىء.

و "ناعسة الحرامية"، سارقة تخطف الرجال.

اما "وردة النقرزان"، فشىء آخر. إنها حياته وحرمانه. إنها صورة من نفسه. إنها قطعة من عمره. إنها ماضية وحاضرة ومستقبله.

آه لو صحا ووجد نفسه هو هذه النداهة!

إذن لما نادى أحداً سواها.

إذاً لأخذها معه ذات ليلة، ولا يعود بعد ذلك أبداً.

أين تعيش النداهة، تحت الأرض؟ فوق السماء؟

لا يهم. إن ذلك كله لا يهم، فطالما أنه سيكون معها، فإن الأرض والسماء تستوى جميعاً. بل إنها ستصبح جنة، تلك البقعة من الوجود.. التى سيستقر معها فيها. ولن تكون به حاجة لطعام أو لشراب أو لكساء. نظرة من عينيها تكفيه عن الزاد. لمسة من كفيها تغنيه عن الحاجة. همسة من شفتيها تصونه عن السؤال.

لكن كيف يصبح نداهة. بل لماذا لا يصبح هذه النداهة؟

وخطرت له فكرة أن يصطنع أنه نداهة ! يتخفى في خرق النداهة أو ملابسها، ويذهب إليها في جنح الليل، متخفياً كالسر. ويناديها، فإذا ظهرت له، أخذها إلى أى مكان فى الدنيا، فلا يعودان بعد ذلك ابداً.

ولن يقول الناس عنهما شيئاً.

سيقولون إن النداهة أخذتها.

سيثورون على النداهة، وسيلعنون النداهة، وسيعيشون بعض الليالى فى رعب من أن تفاجئهم النداهة، فتخطف واحداً منهم إلى حيث لا يعلمون. لكنهم لن يظنوا أبداً أنه هو النداهة، وأنه هرب بها من عمد.

لكنه يعود فيذكر كيف أنها تعيش من أجل أبناء زوجها. وهما مريضان محطمان، معرضان للخطر فى أى وقت.

ولن تكون سعيدة به أو معه، وهى تفكر فيهما، وكيف ينتظرانها كالأمل، فلا يجدان لها أثراً. إن زيارتها لهما بين الحين والحين، هى الخيط الوحيد الباقى، الذى يربطهما بالحياة.

إنه لا يريد، ولا يرضى أن يسبب لها ألماً.

إنه يحبها. إنه يريد أن يسعدها.

لكنها لن تسعد به إن أخذها. إن خطفها.

إذن ...لتبق... لتبقى حيث هى من المقهى، ومنه ومن أبناء زوجها.

وليصبر. ليتحمل. أليس ذلك دليل الصدق فى الحب؟

●●●

ويشرد "مبروك الحنطور" عن نفسه، وهو يحيا فى هذه الذكريات.

ويأخذ نفساً طويلا، وهو يتحرك نحو المقهى. ليستقر فى مكانه منها، يثبت عينيه فى عينيها، وهى جالسة على الدكة الخشبية، وبين ساقيها النرجيلة التى عرفت بها.

●●●

وعندما وصل "جلال" و "مديحة" إلى حى المنيرة، كان هو فى زيه الجديد...عمامته الخضراء تبدو جليلة مهيبة، وجبته الفضفاضة، تستوى فى استقامة طيبة، ومسبحته تتدلى بين أصابعه فى تبتل يثير الانتباه، ولحيته البيضاء تزيد وجهه نضارة وتقوى. وشفتاه لا تتوقفان عن الحركة، تسبحان الله وتذكران فضله..وهى كذلك كانت فى زيها الجديد...الطرحة البيضاء، والنظرة الساهمة المسبلة، والمسبحة الطويلة المدلاة وألفاظ الذكر والتسابيح على شفتيها.

وعرف حى المنيرة أن الشيخ "أبو العوف" والشيخة "تفيدة"، قد هبا على الحى بالبركة والرضى.

وشاع فى الحى أنهما ينويان إقامة حلقات الذكر لأهل الحى به وقد يرضيان عن أهل الحى، فيقيمان فيه بضع ليال، فى ذكر وتسابيح وصلوات، يدعوان الله كثيراً، ولا ينامان عن الذكر والصلاة، حتى بعد أن يهجع أهل الحى جميعاً.

وترددت على الألسنة روايات كثيرة عنهما.

الشيخ "أبو عوف"...الله أكبر ! إنه ولى كبير من أولياء الله. إن كراماته تهز المؤمنين. إنه رجل واصل. نور الله يملأ حياته، فيكشف عن بصره وبصيرته، ويجعله قادراً على أشياء كثيرة لا يستطيعان إلا أمثاله من الأولياء.

إنه شيخ كبير معروف. إننا نعرفه. من لا يعرف الشيخ "أبو عوف"؟

إنه أحد أركان الدين الحنيف. إنه عمود من أعمدة الإسلام. ربنا يديم رضاءه علينا.

وزوجته الشيخة "تفيدة". إنها هى الأخرى ولية من وليات الله الصالحات. إن نفسها طاهر. إنها ترى أشياء لا يراها سواها. إن الله معها، وهى مع الله.

وبينما كان الشيخ والشيخة جالسين فى ظل خرابة النداهة، يسبحان الله، كان أهل المنيرة يرشون أرض الخرابة، ليهدأ ترابها، وينظفون جدرانها القديمة، ويفرشون أرضها بالحصير، ويرتبون كل شىء لليلة المباركة.

وكان أنشطهم فى هذا "مبروك الحنطور".

إن سحر الولاية قد نفذ إلى قلبه المحروم، فتمنى على الله أن تكون زيارة الشيخ والشيخة للحى، واختيارهما للخرابة بالذات مكاناً لإقامة حلقة الذكر، بداية لمعجزة تتحقق بها أحلامه.

على أنهما لم يختارا مكاناً بعينه. لقد جلسا إلى جوار الحزابه مصادفة، ولكن المصادفات مع أولياء الله، ذات دلالات فى عقول الناس، وفى أخيلتهم الخصبة!

وشعر "مبروك الحنطور"، أن قدوم الشيخ إليه، نذير بأن حياته كلها ستتغير. لماذا جاء إلى هنا؟ بل لماذا اختار الخرابة بالذات لتكون مكانه الحبيب؟ لابد أن لله فى ذلك حكمة، فالرجل لا يتصرف إلا بنور الله، والله يعرف مأساته. الله وحده يدرك مدى ما فى قلبه من الضنى والحرمان.

قلب آخر كان يشارك "مبروك الحنطور" شعوره، ولكن فى صمت.

"وردة النقرزان" كانت هى الأخرى فرحة وسعيدة، بهذه المصادفات.

ولكنها لم تكن تدرى سبباً لهذه السعادة. هل ترى أن الله قد أذن لها بالخلاص مما تعانيه من حرمان؟..لكن كيف؟ هل تترك أولاد زوجها حيارى مساكين؟ أو أنهما سيشفيان مثلا؟ فإن شفيا، فهل تتركهما؟ وهل يسمحان لها بزواج جديد؟ إنها مشكلات متصلة ومعقدة، ولكنها مع ذلك عاشت فى فرحة غامضة، لا تعرف لها سبباً على التحديد.

وأهل الحى جميعاً. كلهم أقبلوا يساهمون فى تهيئة المكان لليلة المباركة.

بينما الشيخ "أبو عوف" جالس بجوار الخرابة، يسبح الله ويذكره، ويصيح بين الحين والحين، فى صوت عميق: يا حى...أنت الحى.

وعندما كان الشيخ يرسل هذه الصيحات، كانت أجسام الرجال والنساء تنتفض من الانفعال، فتردد ألسنتهم بعده: سبحان الله العظيم. لا إله إلا أنت يا رب.

والشيخة "تفيدة" إلى جواره تشاركه الصلوات والدعوات والتسابيح.

والطعام يوضع أمامهما دون أن يطلباه، والشراب يقدم إليهما دون أن يسألا عنه.

إن الله قد كفاهما بنعمته عن السؤال.

إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

●●●

وعندما يفرغ الناس من صلاة العشاء، ويتراصون فى خرابة النداهة، يدخل الشيخ "أبو عوف"، فى هيبته ووقاره، ليعقد حلقه الذكر.

وما إن تنتهى حلقة الذكر، حتى يبدأ درس عن الدين والتصوف وأولياء الله، والناس يسمعون كأنهم مخدرون. إن النشوة تملأ جوانحهم. بل إن النساء يتجمعن فى أماكن مستورة عن عيون الرجال، ليتابعن بدورهن كلام ولى الله. والشيخة "تفيدة" تجلس بينهن فى ركن بعيد من أركان الخرابة، تهز رأسها ذات يمين وذات شمال، وشفتاها لا تتوقفان أبداً عن العبادة والتراتيل.

وتفرغ حلقه الشيخ قبل الفجر، فينصرف الرجال بعد أن يقبلوا يديه، ويسألونه الدعوات، وينصرف النساء بعد أن يقبلن يدى الشيخة "تفيدة"، ويسألنها البقاء بينهن تؤنس وحشتهن، وتحرس بيوت الحى من الأذى.

ويكون "مبروك الحنطور" قد أعد الترتيبات لمبيت الشيخ فى إحدى حجرات الخرابة.

لقد نظفها، ورتبها، وفرشها، وأعدها على أحسن ما يرام، وملأها بكل ما استطاع من الطيبات، لتكون تحت أمر الشيخ والشيخة كلما شاءا. لم يستأذن أصحاب الخرابة ولم يرجع لهم. أليست خرابة؟ أليست كالتكايا بلا أصحاب؟ ثم أليس الشيخ شيخاً قادراً على كثير من الكرامات؟ ومن من أصحاب الخرابة، يمكن أن يعارض وجود الشيخ فيها؟ إنه شرف لهم على كل حال.

ولما عرف أهل الحى أن الشيخ سيبيت عندهم، وأنه سيستقر بينهم إلى حين أو حتى يأذن الله كما قال، امتلأت قلوبهم بشراً وأملا. لقد رضى الشيخ عنهم، ورضاء الشيخ من رضاء الله.

وأخذوا يدعون الله أن يطيل إقامة الشيخ فى حيهم، حرصاً على أن تحل بركة الله، بوجوده الطيب الكريم.

وعندما خلت الخرابة من الناس، دخل الشيخ والشيخة إلى حجرتهما الجديدة، وخلع كل منهما جلده، ثم نظر كل منهما إلى الآخر، وابتسما ابتسامة خافتة.

قال "جلال":

ـ كان يوماً شاقاً، ولكنا اجتزنا الخطر على كل حال.

قالت "مديحة":

ـ هل لاحظت نظرات ذلك الرجل الذى كاد يأكلنا بعينيه، ونحن فى شارع الخليج المصرى؟ لقد سقط قلبى من الهول. كنت واثقة من أنه عرفنا.

قال "جلال":

ـ لا تخافى. إننى أدرك بتجربتى أن الخوف هو الذى يكشف الخائف.

لا تتصرفى أبداً تصرف خائفة، وإلا انكشف أمرك. تصرفى تصرف ولية من وليات الله الصالحات. آمنى أنك كذلك. لا تترددى أبداً فى تصديق هذا عن نفسك. عندئذ يعجز أشد المخبرين مكراً عن معرفتك.

قالت "مديحة":

ـ لكنك غريب. لقد سقط قلبى بين رجلى عندما واجهته أنت بنظراتك.

لقد عجبت منك. ولكنك كنت رائعاً. لقد وضعت يدك على كتفه، وأخذت تربت عليه فى حنان وأنت تدعو له بالتوفيق.

قال "جلال":

ـ ذكرينى..ماذا قلت له؟

قالت "مديحة":

- لقد أخذت تقول له: "ربنا يا ابنى يضع نهاية لحيرتك. ربنا يقف كيد الذين يكيدون لك. ربنا يبصرك، فأنت صاحب قلب طيب شفاف". ساعتها تخاذل الرجل وقبل يديك، وتركنا.

قال "جلال":

- هل تعرفين يا مديحة؟ إن لكل منا حيرة يدور فيها. لا تظنى أن المخبرين مستثنون من هذا. إن حيرتهم قد تكون أشد. ودعوة مبهمة غامضة لرجل استبدت به الحيرة تهدئ نفسه، وتترك فى شعوره أثر البنج فى المريض، أو أثر المخدر فى المدمن.

قالت "مديحة":

- إنك مجرب مدهش. إنى أكتشف فيك كل يوم شيئاً جديداً. لا أدرى ماذا يكون مصيرى معك !

قال "جلال":

- ألم أقل لك إننا أجزاء فى كل كبير؟ ويوم تحل مشكلات الكل الكبير، فستحل مشكلاتنا جميعاً، من تلقاء نفسها.

وسكتا قليلا، وغاب كل منهما عن صاحبه، حتى نبهته هى بسؤال جديد:

- وماذا تنوى أن تفعل؟ وماذا سنفعل بعد ذلك؟

- نحن هنا يا "مديحة" فى مربط الفرس. أتعرفين على بعد خطوات من مقر القيادة البريطانية؟

- وما خطتك؟

- سأدرس الموقف فى هدوء وبطء. وسنرى ماذا نستطيع أن نفعله هنا.

- لا تنس أننا نبحث عن "ممدوح".

ـ "مديحة". إنك تتهميننى فيما أملكه من قيم. هل تظنين أننى أنسى "ممدوح" بهذه السهولة وهذا اليسر؟ لا يا "مديحة" إن "ممدوح" جزء من كفاحنا، والبحث عنه حلقة من حلقات العمل الوطنى الذى وهبنا له حياتنا. لا تخافى. إننى أعيش الآن على بعد خطوات من مقر القيادة، من أجل "ممدوح".

●●●

وعندما استيقظنا فى اليوم التالى، كان الوقت قد أكاد أن يكون ظهراً.

فدخل "جلال" فى ملابس الشيخ "أبو عوف"، ودخلت "مديحة" فى ملابس الشيخة "تفيدة"

ولما خرجا وجدا "مبروك الحنطور" مكوماً فى فناء الخرابة، كالكلب الأمين ينتظر صاحبه.

وأسرع "مبروك" إلى الشيخ يقبل يديه ويسأله الدعوات. وربت الشيخ على كتفه، ومسح رأسه، وهو يدعو له بالتوفيق والسداد.

ثم أمسك بوجهه بين يديه ونظر إليه طويلا، وأخذ نفساً عميقاً وقال:

ـ لكل شىء نهاية. لكل شىء نهاية. لا تتعجل يا ابنى. ستصل إلى غايتك إن شاء الله. ربنا لا يتخلى عن مؤمن.

واغرورقت عينا "مبروك" بالدموع وهو يسمع هذا الكلام، فعاد يقبل يدى الشيخ وهو يرى هذه النهاية، ويرى كيف أن الله سيحقق له أمله إذا صبر.

وظهر له وجه "وردة النقرزان" بين حبات الدمع، وعلى شفتيها ابتسامة خافتة حزينة.

●●●

وبعد أن مرت على الشيخ فى حى المنيرة أيام، وبدأ الناس يأنسون إليه ويحبونه، وبدأ هو يرتاح إليهم ويختار من يثق به منهم، أخذ ينفذ خطته المرسومة، بأسلوبه الحريص الحذر.

كان لابد له من أن يتخذ التلاميذ والمريدين، وكان "مبروك الحنطور" فى مقدمه هؤلاء.

وقالت له "مديحة" ذات يوم:

- حذار. قد يكون جاسوساً علينا.

قال لها:

- أنا أشم الجواسيس من بعد. ثقى أنه مخلص وساذج وأمين.

إن "مبروك" يعمل فى بيع الصحف، وقد أصبح مسئولا عن منطقة كبيرة من مناطق القاهرة، تقع فيها قيادة الحلفاء، فى شارع قصر العينى، ومنطقة جاردن سيتى.

وهو بهذه الصفة لا يمكن أن يكون موضع اشتباه، إذا كلف بمهمة، أو اضطر إلى التسكع هنا أو هناك، وتحت إبطه عدد من أعداد صحيفة تصدر باللغة الإنجليزية.

والسيطرة على "مبروك ميسورة"، لأنه واقع تحت تأثير هوى عميق، يملك عليه كل مشاعره، وتكفيه دعوة هامسة بأن الله لن يتخلى عنه، حتى يقوم بأى عمل يكلف به.

وفى خلوة من خلوات الشيخ مع "مبروك"، قال الشيخ:

- أنت تتعب كثيراً يا "مبروك" يا ابنى. لا تيأس، فإن الله لا يضيع أجر العاملين. ثق أنك ستصل يوماً إلى الراحة، وإلى الهناء.

قال "مبروك"، وهو يقبل يدى الشيخ:

- أنا لا يهمنى إلا رضاءك. ورضاؤك يا سيدى الشيخ من رضاء الله. وإنى أحمد الله سبحانه وتعالى أنه بعثك إلى. أنا رجل بلا أهل أو صديق أو ولد.

فلتكن أنت أهلى وصديقى وولدى.

قال الشيخ:

- بارك الله فيك يا بنى. إن قلبك هذا الطاهر، ذخيرة لك عند الله.

وصمت الشيخ قليلا وهو يفكر، وصمت "مبروك" وهو يتطلع إلى الشيخ، وعواطفه كلها متعلقة بشفتيه، ينتظر منه كلمه تداوى جراح قلبه.

ونظر الشيخ فى ثبات ثم قال:

ـ قل لى يا مبروك يا ابنى. هل لك زبائن من الإنجليز؟

قال "مبروك":

ـ كثيرون... كثيرون جداً يا مولانا.

قال الشيخ:

ـ وهل بين هؤلاء مسلمون؟

قال "مبروك":

ـ نعم يا سيدى بينهم مسلمون. إنهم لا يحيوننى إلا قائلين: السلام عليكم. لكنهم لا يزيدون على ذلك شيئاً. إذا تحدثت إليهم بالعربية، لم يفهموا شيئاً، ويكتفون عادة بالضحك. أنهم طيبون جداً. كثيراً ما أعطونى سجائر وحلوى.

وضحك الشيخ وهو يفكر تفكيراً عميقاً ثم قال:

ـ مساكين. إنهم يجهلون لغة القرآن الكريم.

وأسرع "مبروك" يقول:

ـ إنهم يعرفون بعض آيات القرآن الكريم باللغة العربية. يتلون هذه الآيات، ولكن بلهجة غريبة يصعب فهمها.

قال الشيخ:

ـ المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. إن هؤلاء مسلمون.

إنهم إخوتنا. إنهم منا يا "مبروك". إنى اوصيك بهم خيراً. يجب أن تعاملهم معاملة الآخ والصديق، فإنهم بعيدون عن أهلهم وديارهم وبيوتهم وأولادهم.

قال "مبروك":

- والله إنى أحبهم حباً شديداً . هم كذلك يحبوننى.

قال الشيخ:

- لا أدرى من أى بلاد هؤلاء؟

قال "مبروك":

- يقولون إنهم من الهند، والصومال، وبلاد أخرى لا أعرفها.

قال الشيخ:

- لا أدرى ماذا أقدم لهم؟ إن قلبى عليهم، يحن لهم.

قال "مبروك":

- يا سيدى الشيخ إن قلبك كبير. أنت قطب هذا الزمان. إنك لا تفكر فينا وحدنا، بل تفكر فى كل المسلمين، حتى لو كانوا يحاربون مع الإنجليز.

قال الشيخ:

- إنهم مساكين. لو أن الأمر بيدهم ما حاربوا إلا فى صفوف المسلمين.

اسمع يا "مبروك"، هل تستطيع أن تحضر بعضهم إلينا هنا؟ ينال عنهم ثواب الله، لو علمناهم دينهم على الوجه الصحيح. لو جعلناهم يذكرون الله ويسبحون بحمده.

قال "مبروك":

- ألم اقل يا سيدى الشيخ إن قلبك كبير؟ ألم أقل إنك قطب هذا الزمان؟

سأحضرهم لك.

قال الشيخ:

- لكن لا تظن المسألة سهلة. إن القيادة قد تغضب عليهم. إنهم قد يتعرضون للأذى. لهذا يجب أن تكون فى منتهى الحرص، وأن يتم ذلك بعيداً عن العيون والأنظار.

قال "مبروك":

ـ عندك حق يا سيدى. لكنى سأدبر الأمر. أرجو أن تثق بى.

●●●

وعندما خلا "جلال" بـ "تفيدة"، وروى لها ما دار بينه وبين "مبروك"، ارتاعت وقالت له:

ـ لكن كيف فعلت هذا؟ هل جننت؟ ألا تعرف أن عيون الوطنيين تتربص بكل من له صلة بالإنجليز؟ أنا أعرف هذا عن ثقة: "ممدوح" يعرف هذا. "سالم" كذلك كان يعرف هذا. بل إننا نحن كنا ممن يتعقبون هذا الفريق من الناس، وكنا نعتبرهم مارقين عملاء. ألم تتنبه لهذا؟

قال "جلال" وهو يضحك ملء قلبه:

ـ يا بنتى أنا "جلال"..أنا أعرف كل هذه التنظيمات، وأعرف كذلك أفرادها. على أنى لم أقدم على هذه الخطوة إلا باتفاق.

قالت فى فضول:

ـ اتفاق مع من؟

قال فى ثقة:

ـ هل تظنين أننى اخترت حى المنيرة مصادفة؟ لا تكونى ساذجة. كيف مارست العمل الوطنى فى هذه المرحلة الخطيرة، وأنت على هذه الدرجة من السذاجة؟ إننى هنا بعد دراسة مستفيضة يا بنتى. هل تعرفين الضابط الذى حدثتك عنه. ضابط المعتقل الشاب، الذى دبر خروجى من المعتقل. إنه الآن ضابط بوليس قسم السيدة زينب. تظنين هذا حدث مصادفة أم عن تدبير؟ والطبيب الشاب الذى دبر عملية الفرار من القصر العينى. إنه يحضر إلى حلقات الذكر التى تقام هنا فى هذه الخرابة. وبين النساء اللائى يحطن بك خلف هذه الجدران القديمة، تأتى الممرضة التى شاركت فى هذا التدبير.

وفغرت فاها . لم تكن تظن أن التنظيم قد وصل على هذا الحد . وتلعثمت وارتكبت، ثم قالت:

ـ وما دور هؤلاء جميعاً؟

قال "جلال":

ـ شرح ما أفعله لشباب المنيرة. للذين تخافين منهم. لمن قد يرتابون فينا، فسيعتبروننا خونة أو عملاء. إن هؤلاء يعرفون ماذا نفعل، ومهمتهم هى أن يلقوا علينا سحابة من دخان كثيف حتى لا يكشفنا أحد. أفهمت؟

قالت:

ـ وماذا يفعلون هم؟

قال:

ـ يؤدون دورهم المرسوم بعيداً عنا.

قالت:

ـ وهل بيننا وبينهم تعاون من أى نوع؟

قال:

ـ كل التعاون. إنهم مريدون طيبون، يحضرون حلقات الذكر، ويعرف البوليس عنهم أنهم مجاذيب.

قالت:

ـ بوليس الوطن. بوليس مصر. أليست مهمة البوليس أن يحمى مصر من اللصوص؟ إنهم يساعدون البوليس على أداء وظيفته. أليس من واجب البوليس إذن أن يحميهم من اللصوص؟

قالت:

ـ لكن كيف سنعرف مكان "ممدوح"؟

قال:

ـ عندما يتحول جنود الحلفاء إلى مجاذيب.

وضحكا حتى كادا يستلقين على ظهورهما.

وشهدت خرابة النداهة فى حى المنيرة عدداً من جنود الحلفاء، يقبلون على حلقات الشيخ "أبو عوف"، ويقبلون يديه، ويتبركون به، ويسألونه الدعوات، حتى ينجيهم الله من الخطر الذى دفعوا إليه دفعاً.

وتحمس أبناء المنيرة لمنظرهم وهم يقبلون، فلم يتمالكوا أنفسهم من الصياح:

الله أكبر. الله أكبر. هذه بركات الشيخ. حتى جنود الإنجليز يقبلون إليه ! أية كرامة؟ اللهم اجعلنا من بركاته. اللهم املأ قلبه عطفاً علينا.

وأراد الشيخ أن يضاعف من إكرامه للمسلمين المحاربين، فيجعل الدرس عنهم، وعن الثواب الذى ينتظرهم، وعن الشهداء منهم، ودعا المريدين إلى أن يقرأوا فاتحة الكتاب من أجلهم، لينجيهم الله من أى مكروه، ويعودوا إلى بلادهم، يخدمون الإسلام والمسلمين.

ثم استبقاهم ليختلى بهم.

وقد قام بين الشيخ وجنود الحلفاء تفاهم عميق.

قال مرة "لمديحة":

ـ مساكين. إنهم يحبون الحياة. لكنهم يعيشون مع الموت. إنهم يحسون النعش يحز فى أجسامهم. ويريدون أن يزيحوه عن أنفسهم. لهذا ترينهم يتهالكون على العبادة، ويقبلون على الصلاة. ربما يخافون أن يفعلوا ذلك فى معسكراتهم.

لكنهم هنا يجدون راحة النفس، ويستشعرون الأمل. إن نسمات الحياة تهب عليهم هنا. لهذا فهم حريصون على التردد على حلقاتنا.

قالت له:

ـ لكنك لم تحدثهم عن "ممدوح".

قال:

- بل حدثتهم. انت لم تسمعينى أطلب إلى المترجم أن يسألهم عن شاب مصرى مسلم مثلهم، تطوع أخيراً فى صفوف الحلفاء. لقد قلت لهم إنه أحد المريدين من أتباعى، وقد طالت غيبته عنى، وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه، وأريد أن أطمئن عليه. أريد أن أعرف أين هو، وماذا يفعل.

قالت فى لهفة "

- وماذا قالوا لك؟

قال:

- اطمئنى. لابد من أن تؤخذ المسائل بالهوادة واللين. إن السرعة ضارة فى مثل هذه الحالات.

قالت فى ضيق:

- لكن الوقت يمر، وقد يصيب "ممدوح" سوء، وواجبنا أن ننقذه.

قال:

- إنى أنتظر منهم رداً، وثقى انهم سيأتون لى برد.

●●●

ومضت الأيام وأصبح تردد جنود الحلفاء المسلمين على خرابة النداهة، وقهوة "وردة النقرزان" شيئاً مألوفاً. كذلك أصبح مألوفاً أن نراهم فى صحبة "مبروك الحنطور"، ورجال آخرين من أهل المنيرة، من مريدى الشيخ "أبو عوف".

وقد توطدت صلات هؤلاء الجنود بأهل الحى، حتى لقد أخذوا يزورونهم فى بيوتهم، ويلبون دعواتهم، ويأكلون على موائدهم، ويشاركونهم الأفراح والأتراح.

ومكن ذلك كله الشيخ "أبو عوف" من أن يسيطر على هؤلاء المسلمين المغتربين سيطرة تكاد تكون كاملة. لم يكونوا يفعلون شيئاً بغير أن يستشيروه. لم يكونوا يتحركون بغير أن يخطروه.

وتجمعت لدى الشيخ "أبو عوف" معلومات شتى عن تحركات الحلفاء، وعلى نواياهم، بل عن استعداداتهم فى كل مكان من البلاد. وكان بدوره ينقل هذا كله، إلى فريق من الوطنيين الشبان، ليؤدوا دورهم حيثما يتحرك الإنجليز.

لقد كانت مهمة هذا الفريق من الشبان أن يجعل الحياة فى مصر مرة المذاق فى أفواه الحلفاء. كان لابد من أن يعلموا أن وجودهم قد أصبح ثقيلا جداً، وأن أحداً لم يعد يطيق أن يراهم على أرض هذه البلاد.

وكان لابد من عمليات اقتناص دائمة ومستمرة.

بل كان لابد من أن يكون لهذه العمليات معناها.

إن انتخاب النماذج التى تجرب فيها هذه العمليات، محتاج دائماً إلى دراسة وفهم حتى يكون فى التخلص من هذا النموذج بالقتل أو إخفائه عن العيون والأسماع، على أسلوب النداهة، دلالة خاصة بين جنود الحلفاء.

وكانت معلومات الشيخ "أبو عوف" هامة جداً فى تحديد قيم الأشخاص الذين يختارون نماذج لهذه العمليات، وتحديد أماكنهم، وتحديد تحركاتهم بالساعة والدقيقة والثانية.

كان يعرف كل التفصيلات عن الضباط الكبار، ومستوياتهم، وأعمالهم، وأهمية كل منهم لدى قيادة الحلفاء. بل لقد كان يعرف أين ولدوا، وهل ينحدرون من أسر عريقة معروفة أو أنهم ينتمون إلى أسر بسيطة وعادية. كان يعرف من فيهم المتزوج صاحب الأسرة والأولاد، ومن منهم المنفصل عن زوجته، ومن منهم الأعزب. كان يعرف طبائع كل واحد فيهم، وأية نقطة من نقط الضعف تؤثر فيه. كان يعرف السكير منهم، والذى يطربه أن يدعى إلى الشراب، وزير النساء بينهم الذى يسيل لعابه من منظر امرأة تتدلل، والمقامر الذى يحب مائدة القمار أكثر مما يحب الإمبراطورية العجوز، كان يعرف لون بشرة كل ضابط كبير، وطول قامته، وطريقة مشيته.

وكان الشيخ ينقل كل هذه المعلومات إلى مريديه من الشبان الوطنيين.

بل كان يرسم العمليات التى يجب أن يقوموا بها، والأسلوب الذى يجب أن يتبعوه مع كل واحد، والمكان والزمان الذى يجب أن يختاروه للتنفيذ.

وكانت طريقته فى ذلك بارعة، لا يتطرق إليها شك.

وعندما كان هذا الفريق من الشبان ينطلق للتنفيذ، كانت تنتابه حالة شديدة من القلق والخوف عليهم. إن بينهم تلاميذ صغاراً، ولكنهم ممتلئون حماسة واندفاعاً. كان يخاف من الأخطاء الصغيرة التى قد تحدث لهم. ولطالما تصورهم أسرى أو شهداء، أو جرحى أو مصابين. عندئذ كان يهتز من الخوف عليهم، ويتصور أمهاتهم وهن يرينهم جثثاً هامدة، أو محطمة، أو جريحة.

وكانت عيناه تدمعان، ولكنه كان يسرع يخفى قلقه الدامع، بتسبيح الله وذكره. إن مريديه يعرفون ما بداخل نفسه. إنهم يتصورونه هائماً فى أوراده وأذكاره. إن بعضهم كان يلمح دموعه تتساقط على خديه، فيجاريه فى بكاء طويل. لقد كانوا يظنونه فى حالات التجلى، ولم يكن هو يستطيع أن يوضح الموقف لأحد منهم.

كان أقصى ما يستطيعه هو أن يختلى فى حجرته لحظات، ليبكى. وماذا عساه يفعل؟ لقد اعتاد أن يقوم بهذه العمليات بنفسه. ولكنه مضطر الآن ألا يشارك فيها. وفرق كبير بين العمل والانتظار. إن الذين يعملون لا يجدون لحظة من اللحظات لمثل هذا التفكير التعس الحزين. أن الخطر يحيط بهم من كل جانب، وعليهم أن يكونوا فى مستوى هذا الخطر. والخطأ مهما يكن صغيراً فى مثل هذه المواقف، قد يكشف خطة كبيرة، وقد يقضى على آمال كبار. أما الذين ينتظرون، فإنهم يعيشون فى قلق دائم ومستمر. ترى ماذا يكون لو حدث كذا؟ فإن لم يحدث، فكيف يتصرف هؤلاء الصغار؟ هل يكشفون أمرهم؟ هل يعذبونهم، ليعرفوا كل الأسرار التى وراءهم؟ وهل يا ترى سيتممون كل شئ، ويتحملون المسئولية وحدهم؟

ويعيش الشيخ فى هذه الأفكار والوساوس، حتى تصله أنباء العملية،وهكذا يقضى أيامه ولياليه، وجسمه هنا فى خرابة النداهة، وقلبه هناك مع العمليات المستمرة المتتالية.

وإنه ليذكر مع كل عملية، "سالم" و "ممدوح"، ويطيل النظر إلى "مديحة"، وهو شارد ساهم واجم، لا يعرف ماذا يقول. لابد أنها تفكر الآن فى "سالم". لابد أنها تفكر الآن فى "ممدوح"، وتتعجل الأيام، حتى تراه، أو تعرف على الأقل أين يكون.

ويدير الشيخ مع نفسه أحاديث صامته:

ـ أهكذا تغار؟ وممن؟ من "سالم" البطل الشهيد؟ أم من "ممدوح" المعجزة النادرة؟

ـ ولماذا تسمى هذه غيرة؟ إنه نوع من تداعى المعانى.

ـ الشىء بالشىء يذكر.

ـ يا خبيث ...لا إنها غيرة.

ـ كلا...ليست غيرة.

ـ بل غيرة.

ويسكت الشيخ وهو يطيل النظر إلى "مديحة". إنه يعلم أنها تفكر فى مثل ما يفكر هو فيه.

لكنه اعتاد ـ منذ تعاهدا على أن يسيرا معاً فى هذا الطريق الشاق الطويل ـ أن يحترم لحظات صمتها. إنه أيضاً يحب منها، أنها تحترم لحظات صمته. إنها كلحظات العبادة، يجب أن يخلو فيها الناس من كل شىء، وأن ينصرفوا بكل كيانهم وجوارحهم إلى أنفسهم فيتحدثوا إليها بما لا يتحدثون به إلى أحد، وبما لا يجرءون على أن يتحدثوا به إلى أحد.

حتى نظراته إليها، وهى فى تفكيرها هذا العميق، كانت تتكسر، إنه يشفق على لحظات صمتها حتى من عينيه.

ويحضر "مبروك الحنطور" ليضع حداً لهذا الشرود الصامت.

وإنه ليندفع إلى الشيخ اندفاعاً كأنه القنبلة، ويبدو خائفاً ملهوفاً.

والعرق البارد يتصبب على جبينه ويبلل جسمه كله، ويعلو صدره ويهبط كأنه البركان، وغصة محشورة فى حلقه تمنعه عن الكلام والتعبير.

ويلقاه الشيخ قلقاً، ويأخذه بين أحضانه، وقد ملأه الرعب المذعور.

ويحاول الشيخ أن يعرف منه القصة، ولكن "مبروك" العاجز عن النطق، لا يستطيع أن يطفئ لهفة الشيخ إلى معرفة ماذا حدث.

وتصبح اللحظات القصار فى شعور الشيخ الملهوف، دهراً طويلا لا آخر له.

وعندما يهدأ "مبروك"، يقول والغصة المحشورة فى حلقه لا تزال تمنعه عن الكلام، كما اعتاد أن يتكلم.

ويقول "مبروك" فى صعوبة:

ـ الدنيا يا مولانا. الدنيا هاجت يا مولانا. الإنجليز يا مولانا. لقد ملأوا البلد بالدبابات والسيارات المصفحة، ووضعوا المدافع فى الميادين وعند مفارق الطريق. إن البلد تبدو مخيفة رهيبة. شارع قصر العينى أصبح ميدان قتال. والناس خائفون مذعورون. إنهم يقولون إن الألمان لا يلقون قنابلهم إلا عليهم، وانتشارهم على هذه الصورة بين الناس، يعرض الأهالى للخطر كل ليلة، وكل يوم. يا مولانا إن منظرهم، وهم يروحون ويجيئون فى سياراتهم المسلحة، وفى عيونهم الشر والشر. منظرهم وهم يمرون على المقاهى يتطلعون إلى الوجوه فى استفزاز. منظرهم وخلفهم سيارات البوليس المصرى تحمل أفواجاً من الضباط والعساكر، ورجال المباحث. هذا المنظر رهيب يا مولانا. إنه يخلع القلوب حتى أنا، وكلهم يعرفوننى واعتادوا أن يشتروا منى كل صباح الصحف، ويداعبوننى مداعبات لطيفة. حتى أنا أبعدونى، ووجهوا إلى فوهات المدافع عندما أردت أن أعرض عليهم صحف الصباح. إن الدنيا هاجت يا مولانا. الدنيا لم تعد هى الدنيا التى عرفناها. لقد امتلأت البلد بالحركات العسكرية العصبية التى تنذر بالشر.

وسمع الشيخ هذه الكلمات، وهز رأسه هزات خفيفة طيبة، ثم قال:

ـ لكن لماذا يفعلون ذلك يا بنى؟ ماذا حدث؟ ماذا جد؟

قال "مبروك الحنطور"، فى صوته المخنوق:

ـ لا أدرى على وجه التحقيق ماذا حدث يا مولانا. لكن الناس يقولون إن عدة حوادث قد حدثت فى الأيام الأخيرة، وإن هذه الحوادث قد جعلتهم يفقدون أعصابهم.

قال الشيخ:

ـ أية حوادث يا "مبروك" يا ابنى؟ إن الدنيا هادئة، وكل شىء على ما يرام. ماذا حدث، وأية حوادث هذه التى ألجأتهم إلى هذه الإجراءات الاستثنائية؟ وهل هى إجراءات موجهة ضدنا؟ ضد الشعب المصرى؟ ولكن الشعب المصرى شعب طيب وكريم. .ماذا فعل هذا الشعب؟ قل لى، ماذا يقول الناس؟

قال "مبروك الحنطور":

ـ الناس يا مولانا يقولون إن عدداً من الضباط الإنجليز، وعدداً من العساكر قد خطفوا، والإنجليز ثائرون لأنهم لا يعلمون من الذى خطفهم. أول مرة، كانوا فى أحد بارات عماد الدين، وكان الوقت ليلا، فلما تأخروا، وتجاوز الوقت منتصف الليل، ولعبت الخمر برءوسهم، هجم عليهم عدد من الناس، وكانوا مسلحين ملثمين. ولم يعرف لهم أحد بعد ذلك طريقاً. يقولون قتلوهم. ويقولون أخفوهم فى مكان لا يعرفه أحد. ويقولون سلموهم للألمان والطليان. وثانى مرة، كانوا يمرون بسياراتهم عند حلوان، وفوجئوا بأن الطريق مغلق، فلما نزلوا ليكتشفوا الطريق. هجم عليهم الناس، واقتنصوهم. أخفوهم. أين ذهبوا بهم؟ لا يدرى أحد عن ذلك شيئاً. وثالث مرة خطفوهم من أحد النوادى فى عز الظهر. كانوا يجلسون يشربون، فدخل عدد من الناس، وخطفوهم. ويقولون كذلك إن القنابل تلقى على سيارتهم، فتصرع عدداً منهم، والرصاص ينطلق على أفراد منهم، فيسقطون قتلى. وقد بلغ الأمر بالقيادة أن فقدت أعصابها. إن الضباط والجنود يخافون الآن من الخروج إلى الطرقات. إنهم يسيرون مسلحين يتلفتون وراء ظهورهم. والقيادة قلقة من هذه الحالة، وهى دائمة البحث عمن احتفوا فلا تجد لهم أثراً. استعانت بالبوليس المصرى، فلم يسعفها. والذى يغيظ القيادة أن الذين يختفون لهم مراكز كبيرة فى القيادة. ضباط كبار أو جنود عندهم أسرار عسكرية هامة. واليوم خرجوا إلى

الطرقات والميادين، ليبحثوا بأنفسهم، بعد أن فقدوا الأمل فى أن المباحث المصرية والبوليس المصرى يستطيع العثور على أماكنهم.

وهز الشيخ رأسه، وهو يطيل النظر إلى الشيخة، ثم قال فى طيبة:

- لكن قل لى، هل جرى شىء لأحد من أولادنا المسلمين؟

قال "مبروك الحنطور":

- لا يا سيدى. إنهم بخير. رأيت عدداً منهم، وسألت عن الآخرين، فعلمت أنهم بخير.

قال الشيخ، وهو لا يزال يهز رأسه فى طيبة، ونظراته متجهة نحو الشيخة "تفيدة":

- ما لنا نحن والضباط الإنجليز؟ لماذا لا ندع الخلق للخالق؟ لماذا لا نطيع الله والرسول وأولى الأمر منا؟ هل نثيرها فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منا خاصة؟ والله إنى لأعجب للناس وتفكير الناس.

قال "مبروك"، وكأنه يستفسر عن شىء غامض عليه:

- إذن فأنت يا مولانا تعتبر هذا خطأ؟

قال الشيخ:

- طبعاً يا ابنى خطأ، إن هذا خطأ.

- لكن الشبان الذين أعرفهم يؤكدون أن هذا واجب وطنى. إنهم يصيحون فى عندما أسألهم قائلين: إن الإنجليز لن يتركوا هذه البلاد، إلا إذا طردوا منها. لن يتركوها فضلا ولا كرماً. أبداً. لابد من طردهم. إن أى مكان خرجوا منه، طردوا منه طرداً.

قال الشيخ:

- لكن لماذا لا يتركون ذلك لله. للإرادة العادلة التى لا تظلم أحداً، ولا تقبل الظلم لأحد؟ لماذا يتولون هم هذه المهمة، ولا يتركونها لله؟

قال "مبروك" كمن ارتاح لما يسمع:

ـ إى والله يا مولانا. لماذا لا يتركون هذا لله، فهو قادر على كل شىء؟ إن الإنسان يفترى فى بعض الأحيان. فلا يعرف حدوده من حدود الله.

لماذا نتعرض لهذا الخطر؟ لماذا نعيش على هذا الرعب والقلق؟ لماذا لا نعيش نفكر فى حياتنا، ونعمل على تحقيق آمالنا؟

قال الشيخ فى خبث:

ـ وتتزوج أنت "وردة النقرزان"، وتتعمان بالهدوء وراحة البال؟

قال "مبروك" فى لهفة:

ـ نعم، لم لا؟ لماذا لا يحدث هذا، بدلا من هذا الشغب الذى نعيش فيه؟

قال الشيخ:

ـ لكن يا "مبروك"، هناك شىء اسمه الجهاد فى سبيل الله. محمد صلى الله عليه وسلم خرج يجاهد فى سبيل الله، وفى سبيل العقيدة. ويوم هاجر إلى المدينة، لم يعبأ بالخطر، ولا بالموت. لكنه خرج هارباً بما فى قلبه من إيمان، ليحافظ على عهده، ولينشر رسالته. محمد عندما حارب الكفار والمنافقين، لم يقل إننى أفضل الهدوء وراحة البال، على المخاطر والأهوال. لا يا "مبروك" يا ابنى. هناك جهاد فى سبيل الله، يستحق منا أن نضحى فى سبيله، ولو إلى درجة الموت.

وسأل "مبروك":

ـ وهذا جهاد فى سبيل الله؟

قال الشيخ متلعثماً:

ـ أليست هذه أرض الله؟ أليست هذه بلاد المسلمين " إن الجهاد فى سبيل الله متنوع الأشكال يا "مبروك". الدفاع عن الكرامة، جهاد فى سبيل الله. الموت من أجل الحق، جهاد فى سبيل الله. ليس الجهاد فى سبيل الله مقصوراً على وقت بعينه، ولا على ظروف بعينها.

قال "مبروك":

- إذن هؤلاء محقون عندما يفعلون هذا.

قال الشيخ:

- والله يا ابنى أنا لم أفكر فى هذا قبل الآن، دعنى أستخير الله، فإن الكلام عن هذا الموضوع شائك خصوصاً فى هذه الظروف التى نمر بها.

إن الجهاد فى سبيل الله واجب. لكن من الواجب أيضاً ألا يلقى الناس بأنفسهم إلى التهلكة.

وربت الشيخ على كتف "مبروك"، وأخذ يمسح رأسه، يحاول أن يخفف ما به، ونظراته مثبتة فى الشيخة "تفيدة"، أو "مديحة"، يتأمل طرحتها البيضاء، ومسبحتها المدلاة بين أصابعها، وكلمات هامسة تتحرك بين شفتيها.

ولما مضى "مبروك"، أخذ "جلال" يفكر فى الأمر.

ماذا عسى أن يحدث؟

إن الإنجليز يبيتون النية على أن يتعقبوا الجمعيات الوطنية، للقضاء عليها.

إنهم سيلجأون إلى كل وسيلة وكل أسلوب.

إنهم فى حالة حرب طاحنة، لا تحتمل التساهل أو طول البال.

لكن إلى أى مدى يذهبون؟ وإلى أى مدى ينجحون؟

وهل يسلم لهم الشبان الوطنيون؟ هل يسكتون؟ هل يتراجعون؟

لقد مضى عليهم أيام، ولم يظهر هنا منهم أحد. هل كانوا مشغولين بالترتيب لهذه العمليات وتنفيذها، أو انهم اختفوا هم الآخرون عن الأنظار. خطفوا مثلاً؟ أو سجنوا؟ أو اعتقلوا؟

وما مصير العدد الذى خطفوه من الضباط والعساكر؟

هل يا ترى وصلوا معهم إلى شىء؟ استفادوا من خطفهم، او ان خطواتهم ارتكبت، فلم تعد المسألة أن تكون محاولة بطولية لا هدف لها؟

هل نفذوا ما اتفقنا عليه، أو أن هذه الحملات الإرهابية ستجعلهم يرجئون كل ترتيب؟

آه لو أجلوا هذه الترتيبات ! آه لو تباطئوا أو تخاذلوا !

لابد من أن يستغلوا هذا العدد من الأسرى. من الذين خطفوهم من الضباط والجنود، فى توجيه النداءات إلى زملائهم فى الجيش البريطانى فى مصر، وإلى أسرهم فى إنجلترا. وإلى الكتاب الأحرار فى جميع بلاد العالم. إلى الإذاعات والصحف إن كل شىء معد. إن معهم كل هذه الترتيبات.

إنى أكاد أحفظ كل نداء.

ها هم أولاء قد نجحوا فى خطفهم. لم يبق إلا أن يكتبوا هذه الخطابات والنداءات بخطهم، ويوقعوها، ويرسلوها إلى مختلف الأنحاء والجهات.

هل فعلوا هذا، أو أرهبتهم البنادق، وهزمتهم الدبابات؟

إن هذا هو وقت العمل، وهذه هى الفرصة الذهبية قد واتت، وقلما تعود.

بل إن عليهم أن يوجهوا نداءات خاصة إلى الزعماء المصريين. إلى الحكومة حتى إلى العملاء من رجال البوليس السياسى. إلى المعتقلين فى معتقلاتهم. إلى المسجونين فى سجونهم. إلى كل صاحب رأى أو إرادة. وعندما تصل هذه النداءات بخط المخطوفين وبتوقيعاتهم فإنها ستنفذ إلى قلوب المؤمنين، ليزدادوا إيماناً، وإلى أوهام العملاء، ليكفوا عن جبنهم الآثم.

إنى أتصور ذلك الضابط الجبان، الذى دبر مأساة "ممدوح"، وهو يتلقى فى البريد العادى خطاباً بالإنجليزية.

سيظنه شكراً من وزارة الخارجية البريطانية، بل من وزارة المستعمرات ! وقد يظنه تقديراً لخدماته الجليلة للحلفاء.

ومن يدرى، قد يتوهم أنه نيشان الجدارة والشرف ! من الإمبراطورية العجوز ! وسيحدث نفسه قبل أن يفتحه بآمال عريضة واسعة. سيرسم طريق الاتجار بهذا الخطاب. إنه سيلعب به على أعصاب الجبناء والعملاء والخائفين من الحاكمين.

وعندما يفتحه ! إننى أتصوره، وقد انقلب كل تقدير قدره، والتوى كل أمل حلم به !

هل ستحمل الصدمة عندما يقرأ ما فى الخطاب؟

عزيزى...

إنى أنا الكولونيل أو البريجادير أو آية رتبة تكون...أنا فلان، من القوات البريطانية فى القاهرة، أؤكد لك أننا نشارك فى هذه الحرب ونحن نكرهها.

إنهم يسمونها حرباً فى سبيل إقرار قواعد الديموقراطية والحرية والعدل. لكن الحقيقة هى أنها حرب للدفاع عن المصالح الإمبراطورية، والسيطرة، والتحكم فى مصاير الشعوب. إن كل الحروب التى سبقت هذه الحرب، وجدت فى قواميس الساسة أوصافاً جميلة تبرر قيامها، وتخدع الشعوب فى حقائقها. لكن كل هذه الحروب انتهت، فانتهت معها هذه الأوصاف، وأوغلنا نحن المنتصرين فى سلب حقوق الشعوب، والسيطرة على مواردها وأرزاقها.

لعلك ستظن أننى أخدعك بهذا الكلام. أبداً. إنى إنسان قبل أن أكون ضابطاً فى قوات صاحب الجلالة. إنى رب أسرة، ووالد صغار ينتظرون فى لهفة عودتى. وقد لا أعود. إن لى زوجة تنتظرنى على أحر من الجمر. إن لى أهلا، ولى أصدقاء. وإنى لأسأل نفسى: لماذا نحارب؟ ولماذا نحتل بلادكم هذه الجميلة؟ ألكى نحميكم من النازى؟ ألكى ندافع عن بلادكم وعن أرضكم؟ أبداً. وإنما لنقوى نفوذنا فى مناطق العالم المختلفة، ولنبعد أى خطر يهدد هذا النفوذ. هذه هى الحقيقة، ولهذا فإن العالم على هذه الصورة، لن يتخلص من هذه الشرور أبداً. ستنتهى الحرب، لتبدأ بعدها حرب جديدة، طالما أن نفوسنا أظلمت بالحقد، وامتلأت بالمصالح والأهواء.

وإنى لأسائل نفسى، بل أسألك. كيف تنتهى هذه الحماقات الدولية؟

والجواب الوحيد، هو أن نقف جميعاً صفاً واحداً. هو أن نشعر بواجبنا الإنسانى فتتطهر كل أرض من المصلحة، وتخلص حرة لأبنائها. عندئذ تزول أسباب هذا الصراع، ويقف الضمير العالمى يحاسب كل من ينحرف عن الطريق المستقيم.

لا شك أنك تعجب وأنت تقرأ هذا الكلام يصدر من ضابط بريطانى. لكنى كما قلت لك إنسان قبل أن أكون ضابطاً.

يا أخى إننا لن نخرج من بلادكم إلا إذا شعرنا أن وجودنا أصبح مستحيلا.

إنى أعرف سياسة بلادى. أعرف أسلوب الحكم البريطانى. أعرف العجرفة التى نشأنا عليها.

فإذا أدى كل مصرى واجبه نحو بلاده، فسنخرج من مصر.

سترتاحون، وسنرتاح نحن كذلك.

إننا مغلوبون على أمرنا مثلكم.

أنتم محكومون بقوى غير طبيعية تغل أيديكم عن الحركة.

ونحن كذلك محكومون بأصحاب المصالح وتجار الحروب، يشلون حركتنا.

إنهم يتركوننا نصيح فى البرلمان، وعلى صفحات الصحف، وفى حديقة هايدبارك، لكنهم يقررون أمراً، فإن كل هذا الصياح لا يساوى عندهم شيئاً.

الشىء الوحيد الذى سيساوى عندهم الكثير، هو أنتم.

فهيا أدى واجبك، لتحقق للعالم السلام.

●●●

وهؤلاء النسوة من الإنجليز. الزوجات والأمهات والصديقات.

ماذا يكون موقفهن وهن يقرأن من أزواجهن وأولادهن وأصدقائهن، أنهم قد ملوا هذه الحياة، وأنهم يريدون أن يعودوا إلى أرض الوطن، وأن هذه الحرب لا تخدم أحداً إلا الذين دبروها.

ماذا يكون موقفهن، وهن يقرأن هذه الخطابات الآتية من بعيد تبين لهن أنهم يكرهون الحرب، وأن المصريين لم يعودوا صغاراً يحتاجون إلى رعاية أحد. أبداً إنهم قد قرروا مصير بلادهم. إننا نضاعف هنا أحقادهم علينا. إنا نزيد سخطهم على شعبنا. ولا لوم على هؤلاء إذا فعلوا. لو أن بريطانيا محتلة بجنود أجانب عنها، ولو أن شعبها يسمع كل يوم سبباً مفتعلا ليطول بقاء الاحتلال لأراضيها، ما قبلنا ذلك أبداً، لفضلنا أن نموت، على أن نحيا هذه الحياة. فإن فعل غيرنا ما كنا نفعله نحن، لو أننا فى حالته، أفنلومه على ما يفعل؟ إنهم يكرهوننا، والهنود يكرهوننا وفى كل مستعمرة من مستعمراتنا وكل قطعة أرض لنا فيها جنود احتلال، نواجه خصمين عنيدين: قوات المحور، وأبناء هذه الشعوب. لهذا فالحالة لم تعد تحتمل. على أننا نحمد الله على أننا الآن مع المصريين. لقد خطفتنا جماعاتهم الوطنية. وإنا لنعيش فى مكان لا نعرفه ولا نخرج منه، ولا يدخل علينا فيه أحد، إلا عدد من الحراس المصريين. إنهم مهذبون أرقاء. إنهم يقدمون لنا كل ما نطلبه من مأكل ومشرب، لكنهم يحتفظون بنا فى هذا المكان المجهول، برغم وجود كل قواتنا، وبرغم وجود كل أسلحتنا فى أرض مصر. وهذا وحده دليل على أن القوة لم تعد تجدى. إن القوة لم تعد ترهب أحداً. فهل يفهم ساسة بلادنا هذه الحقائق، وهل يتعاملون مع الناس على أساس جديد؟ إنا نشك فى هذا، فإنا نعرف أننا عندهم لا نعدو أرقاماً فى قائمة أرباحهم وخسائرهم. ولعلهم لو حاربوا حرباً حقيقية. لو جربوا محنة الحرب، ومحنة الخوف، ومحنة الخطر. لو جربوا كيف تصبح الحياة كلها شيئاً مجهولا تحيطه الشكوك. لو جربوا هذا، لغيروا نظرتهم إلينا وإلى الناس.

إن الحياة ليست حكراً للنفوذ الإنجليزى، ولا ينبغى أن تكون حكراً لهذا النفوذ.

إننا لسنا سادة الناس، برغم إرادة كل الناس.

إننا لسنا طبقة فوق طبقة البشر.

ولكن مصالحنا تخطف أبصارنا، وتحول بيننا وبين رؤية الأشياء كما هى.

لكن سيأتى يوم يفهمون فيه كل شىء، ويدركون فيه الحقيقة.

ستطردنا الشعوب من كل مكان، وما أذل أن نعود إلى جزيرتنا منكسى الرءوس !

لكن هذا هو ما سيحدث، مهما طالت الأيام.

●●●

والشيخ يذكر هذا، ويسأل معه، ماذا سيكون موقف الحكام على جميع المستويات عندما يتلقون بدورهم خطابات من هذا النوع تقول لهم فى صراحة وجرأة إنكم جبناء. إنكم انتهازيون. فيم بقاؤكم فى مناصبكم؟ ألاتحكموا وأنتم تعلمون أنكم لا تحكمون، بل تحكمون؟ فيم بقاؤكم فى الحكم، وحراب الإنجليز هى التى تأتى بكم إلى مقاعدكم، وهى التى تخلعكم من مناصبكم؟ فيم بقاؤكم فى الحكم،ووجوهكم ترنو نحو الجزر البريطانية تتلقى منها الرضى، وآذانكم لتسمع ما يقوله ساسة بريطانيا، ليتأكد وجودكم البغيض؟ هل تظنون أننا نحبكم، لأننا نبقيكم فى مناصبكم؟ إننا نحتقركم، لأننا نعرفكم. أبناء بلادكم كذلك يكرهونكم، ويحتقرونكم. لكنكم مع هذا تقبلون البقاء. ألا تخجلون من أنفسكم؟ ألا تثور فى قلوبكم مرة نخوة الرجال، فتتمردون؟ إننا ونحن ضباط فى القوات البريطانية نصارحكم بأننا نستعملكم، كما يستعمل الطفل الدمى .!.يا دمى !

وهذه المناصب التى تغترون بها طبل أجوف لا وزن له ولا اعتبار. ولو أردتم أن تتعاملوا مع أنفسكم فى صدق وشرف، فاعلموا حقيقة موقفكم. إذن ستدركون أنكم تخونون بلادكم وتخونون أبناء شعبكم. إننا لن نخرج من بلادكم، طالما فيها أمثالكم. أما يوم تخلو البلاد منكم، ويصبح شعبكم وحدة واحدة، بلا انقسام فإننا سنخرج من هذه البلاد. ستطردوننا أنتم منها. إننا لا نريد أن نبقى فى بلادكم، نتعرض للسخط والحقد والكراهية، لكن أصحاب المصالح فى بلادنا من أبنائكم، هم الذين يرغموننا على البقاء. إننا من أبناء الشعب، والشعوب كلها طيبة، وراغبة فى حياة بسيطة سهلة هنيئة، ويوم أمسك بنا شبابكم الوطنى، وأخفونا فى هذا المكان حيث نكتب هذا لكم، تنفسنا الصعداء، فقد نجونا من الخوف والقلق وغموض المصير. فهل تفعلون مثلما فعل بنا هذا

الشباب الوطنى؟ هيا يا رجال. كونوا رجالا، واتحدوا من أجل بلادكم. أشعروا مرة فى حياتكم أن هذه بلادكم، وأنها أبقى لكم، من مصالحكم ومخاوف نفوسكم.

●●●

وهكذا أخذ الشيخ "أبو عوف"، يفكر فيما عساه أن يحدث عندما تصل هذه الرسائل إلى أصحابها.

كما أخذ يسأل نفسه عما إذا كان التنظيم الوطنى قد نفذ هذه الخطوات، أم أنه ينتظر حتى ينحسر الخطر.

وكانت نظرات "تفيدة" تلاحقه، ترصد عليه حركات نفسه.

ولم يكن يدرى لماذا تثبت فيه نظراتها كالسهام...

وخاف أن يسألها هذه المرة، عما يدور فى نفسها.

إنه يدرك تماماً أنها تعاتبه، ويكاد عتابها أن يصبح غضباً.

إنه سؤال واحد، يتردد دائماً على لسانها: أين "ممدوح"؟ هل ننسى "ممدوح" وسط زحمة الأحداث؟

ولم يكن يدرى كيف يجيب. لهذا فقد كان يؤثر الصمت، يحاول أن يتفادى به ما يدور فى نفسها.

●●●

وطرقت سمع الشيخ، وهو فى مكانه من الخرابة، أصوات متداخلة لا يتبين منها إلا أطرافاً حادة. لكن الشيخ عرف من هذه الأصوات صوت "مبروك الحنطور"، ومعه "وردة النقرزان"، وصوت فيه دلال وفيه إغراء هو صوت "ناعسة الحرامية". وصوت ملىء، وإن تكن فيه طراوة ندية هو صوت "زبيدة البطة". ومع هذه الأصوات أصوات أخرى من رجال الحى، وأصوات غريبة تتحدث بلغة تثير سرور أبناء الحى جميعاً.

وعجب الشيخ، ثم أصبح العجب قلقاً، ثم كاد القلق أن يصبح رعباً.

ماذا؟ ماذا يريدون؟ لماذا يقدمون؟

هل أنا مطلبهم؟ هل أنا هدفهم؟ إن معهم ضباطاً وعساكر من القوات الإنجليزية وقد فقدت هذه القوات رءوسها، فلم تعد تدرك ماذا تفعل.

لكنهم يضحكون. لكنهم يتعابثون.

إن "وردة النقرزان" تداعبهم على طريقتها، فلا يملكون أنفسهم من الضحك.

و "ناعسة الحرامية" تعبث معهم بأسلوبها، فيندفعون إليها مسرورين سعداء.

و "زبيدة البطة" تحادثهم فى لغة تظنهم يفهمونها، فلا يفهمون ولكن يتصايحون بألوان المزاح.

و "مبروك الحنطور" يحاول أن يدفع عنهم هؤلاء النسوة، فهم ليسوا قادمين لضياع الوقت مع أهل الحى كما اعتادوا، منذ عرفوا الطريق إلى الشيخ "أبو عوف"، وحلقاته ودروسه.

ويسمع الشيخ صوت "مبروك" وهو يقول : إنهم يريدون سيدنا الشيخ. إن سيدنا الشيخ يسأل عنهم.

وأدرك الشيخ من مكانه فى الخرابة أنهم مريدوه من المسلمين من قوات الحلفاء. وتنفس الصعداء وأخذ ينتظرهم، وعلى شفتيه ابتسامة رضى وارتياح.

وبعد أن سلموا عليه وقبلوا يديه، طلبوا أن يختلوا به، فأخذهم إلى خلوته وهو يتطلع إلى ما وراءهم من أخبار.

وأدرك الشيخ أنهم عثروا على "ممدوح"، المصرى المسلم الذى تطوع فى صفوف الحلفاء.

وصاح الشيخ: ورأيتموه بأعينكم؟

وأكدوا له أنهم رأوه بأعينهم، وحدثوه، وقضوا معه وقتاً جميلا طيباً.

وحرص الشيخ على أن يعرف أين كان، وأين هو الآن.

وقالوا له لقد قضى الفترة الماضية فى معسكر للتدريب، فى مكان ما بالصحراء، فلما أتم تدريبه وتهيأ للقتال، أحضروه إلى القيادة.

وقاطعهم الشيخ وهو يقول: القيادة ! أية قيادة؟ هنا فى جاردن سيتى؟ هل "ممدوح" هنا، على بعد خطوات منا؟ فى جاردن سيتى؟!!

قالوا له: نعم هنا. على بعد خطوات منك.

وأخذ يضرب كفاً بكف وهو يقول فى تأثر :

- لا حول ولا قوة إلا بالله. إنه على بعد خطوات منا، حتى تكاد أنفاسه تصافح وجوهنا ولا نستطيع أن نراه؟ لكن هل سيستقر به المقام هنا؟

قالوا: لا .. إنه سيغادر القيادة بعد غد، مع دفعته إلى ساحة من ساحات القتال، لا يعرفها بطبيعة الحال.

قال الشيخ فى انفعال: ماذا تقولون؟ سيذهب بعد غد ... تقولون بعد غد ..."ممدوح" سيذهب بعد غد إلى ساحة القتال. "ممدوح" ! ...ألم تروه؟ إنه لا يصلح للقتال. إنه فتى مسكين خلقه الله ...

ولم يتم جملته، فقد دخلت الشيخة "تفيدة"، وقد حبست فى عينيها الدموع، وحبست فى حلقها الكلمات، وحبست فى قلبها انفعالات أقوى من تفجيرات القنابل.

ونظر الشيخ، ونظرت الشيخة.

ونظر "مبروك الحنطور"، ونظر المريدون من أفراد قوات الحلفاء.

وصورة "ممدوح"، الذى أتم تدريبه وسيساق بعد غد إلى ساحة الموت، تتراقص أمام عينى الشيخ والشيخة، من بين غشاوة دموع حبيسة، يمنعها من الانطلاق، الخوف أو الحرص ... أو ربما..الكبرياء.

□□□

٦

العينان المسبلتان فى تقوى، أصبحتا كقطعتين من شرر النار، تلتهبان بالكراهية والحقد.

اللحية الوادعة المستقرة فى سكون، أصبحت تتحرك فى انفعال مخيف، يملؤه القلق.

المسبحة الطويلة المدلاة بين الأصابع الهادئة، أصبحت تدور فى حلقات محمومة، كأنما أصابها نوع من الفزع، لا تستطيع له دفعاً.

الشفتان المتحركتان فى تؤدة وروية، أصبحتا من سرعة الحركة، كالخيول المتسابقة تخشى أن تتمهل، فتضيع عليها فرصة السباق.

والشيخ الرزين كالحكمة، أصبح خفيفاً سريعاً كالعاصفة.

والشيخة الهادئة كالحلم، أصبحت ثائرة فائرة كالبركان.

والناس ينظرون، فيجدون أن التغيير الذى أصاب شيخهم وشيختهم، كأنه النذير.

ويسيطر على الجمع جو من الترقب والانتظار فيه خوف، وفيه كذلك غموض.

ماذا سيحل بهم؟ ماذا ينتظرهم؟

ما الخبر؟

لكنهم كانوا قد اعتادوا من الشيخ أشياء، لا يسألون عنها، وليس من الحكمة فى شىء أن يسألوا عنها.

ألا يتحرك الشيخ بإرادة الله؟

ألا يرى بنور الله؟

ألا يتحدث بإلهام من عند الله؟

أليس شيخاً قد كشف عن عينيه القناع، فأصبح يرى ما لا يراه الناس؟ إن الإيمان بالله ورسله وكتبه واليومَ الآخر، تجعلهم لا يسألون الشيخ عن شيء، إلا أن يقول لهم هو ما يريد.

لكن هذا لم يمنعهم من أن يستشعروا الخوف، وهم يلاحظون هذا التغيير السريع المفاجئ الذى طرأ على شيخهم، ونفذ عميقاً إلى مشاعرهم.

وأخذوا يرقبون هذا التغيير فى استسلام.

ولم يكن الوقت يسمح بأن تضيع دقيقة واحدة فى غير عمل.

لابد من عمل سريع... سريع جداً، حتى ننقذ "ممدوح".

لكن "تفيدة" لم تكن تستطيع أن ترد. لقد كانت المفاجأة أكبر منها. إن "ممدوح" يساق بعد غد إلى القتال.

و"ممدوح" أعرج. و"ممدوح" ثقيل الحركة. و"ممدوح" غير قادر على أساليب الحرب العنيفة السريعة القاسية. إنهم يريدون أن يقتلوه. إنهم ينوون أن يتخلصوا منه. سيلقونه طعماً للنيران، دون أن يستطيع أن يجد من هذه النيران فراراً.

وكيف يمكن أن ننقذه من أنياب الغيلان.

الدبابات والمصفحات والبنادق تملأ الشوارع والطرقات.

الجنود المسلحون يروحون ويجيئون فى استفزاز.

الحكومة كلها، تضع كل إمكانياتها، فى خدمة السعار الذى أصاب قوات الاحتلال.

لابد أنها النهاية، إن نهاية "ممدوح" أصبحت ترى رأى العين، وتسمع، وتشم، وتلمس.

وكادت الشيخة "تفيدة"، أو "مديحة"، أن تسقط من طولها، لولا أن الشيخ "أبو عوف" أو "جلال"، كان يشد من أزرها، ويؤكد لها أنه يحس الآن، ولأول مرة دخل المعتقل، أن شهيته مفتوحة للعمل.

هذا هو العمل الوطنى الذى يتوق إليه. هذه هى الفرصة سانحة لإعطاء الإنجليز درساً لا ينسونه، لقد كان "ممدوح" يحكى لى عن والدك الأسطى "عبد الغفار"، الروايات الطويلة وكيف كان يصيح وهو الأعزل: لسنا أمة من النعاج. ولقد أدى والدك دوره فى بطولة فكيف لا نقوم نحن بدور آخر كالدور الذى أداه.

قالت "مديحة":

- رحمك الله يا أبى. لقد ذهبت ضحية سهلة للخونة والعملاء.

قال "جلال":

- وهذه هى فرصتنا للثأر له، ولكل الذين ضحوا مثله. هل نتركها؟ إنه دم كل شهيد يستصرخنا اليوم أن نعمل.

قالت "مديحة":

- لكنك شيخ ...شيخ ! ألا تعرف ما معنى شيخ؟ أنت وأنا عاجزان عن العمل فى النهار، وإلا كانت النتيجة وبالا علينا جميعاً.

قال "جلال":

- وسترين. لكنى مع هذا، وبصفتى شيخاً وقوراً سأعمل..

●●●

وخرج الشيخ إلى مريديه، مسبلا عينيه، يتمتم بذكر الله. ولحيته تتدلى فى تقوى، ومسبحته تتحرك بين أصابعه على مهل.

لقد استعاد رباطة جأشه، واسترد هدوءه المعروف، وجلس فى حكمة واتزان، وقد أطبق جفنيه حتى لم يعد يرى إلا كما يرى الأعشى.

فى حين كان فى داخله يغلى كالمرجل، ويود لو قذف بملابسه هذه المستعارة، وانطلق كالمارد يتعقب المحتلين، ليؤرق لياليهم، ويريهم النجوم وقت الظهر.

وبدأ يرسل كلماته فتخرج كقطع النور، تضىء نفوس مريديه.

وبدأ يطلق صيحاته نصائح خافتة، فتنزل على قلوبهم كالندى على أوراق البرسيم.

قال الشيخ، والجمع حوله يسمعون، والرجال منهم قد تراصوا حوله، والنساء قد استرقن السمع إليه:

- إننى يا أولاد أحس شوقاً إلى رؤية مريدى جميعاً. لا أدرى ماذا أصابنى؟ لكن الذى أشعر به أننى مشتاق إليهم، أود لو أطمئن عليهم. إننى لم أنجب أولاداً. وأنتم جميعاً أولادى. فهلا ساعدتمونى على أن أراهم الآن.

وأخذ الشيخ يذكر أسماء مريديه مقترنة بالعناوين.

ثم استأنف كلامه قائلا:

- سيجازيكم الله خيراً. لو ذهبتم إليهم، وبحثتم عنهم، وأحضرتموهم لأراهم، لأطمئن عليهم، كما يطمئن الوالد على أولاده، فقد لا يمتد عمرى طويلا.

وصاح الرجال فى استغاثة:

- لا سيدنا الشيخ. إنك بركتنا ورائدنا إلى الله. إنك حياتنا ونور عيوننا. كيف تتركنا يتامى لا أب لنا؟

وصاحت النسوة فى هلع:

- ومن يصبح لنا بعدك يا سيدنا الشيخ؟ إن البركة قد حلت بيوتنا منذ أقبلت، وأقبلت معك الشيخة "تفيدة" ...يا سيدنا لا تقل هذا الكلام. إن الله يعرف أحوالنا، ولن يدعك ترحل عنا، أنت حياتنا.

وهز الشيخ ذقنه، وهو مسبل عينيه، وأخذ يصيح:

- الله...الله...يا حى. أنت الحى. اذهبوا يا أولادى ابحثوا لى عنهم، لكن حذار أن تسببوا لهم قلقاً أو ذعراً. حذار أن يفهموا عنكم أن فى الأمر شيئاً. اسألوا عنهم من بعيد،

ولا تزعجوا ذويهم أو أهلهم بأنى أسأل عنهم. أسروا طلبى فى آذان من تجدونه منهم، فإن لم تجدوا واحداً منهم، فلا تلحوا فى السؤال عنه. كونوا أذكياء، حتى لا تخرجوا على رغبتى. إن كنتم تريدون أن تكرمونى، فنفذوا ما أقوله لكم بالطريقة التى قلتها لكم.حذار أن تسببوا لأحد منهم هماً. إنى لا أطيق أن يصاب واحد من أبنائى بالقلق. وسأدخل خلوتى، لأسأل الله أن يوفقكم، فإذا حضر من أبنائى احد، فأخطرونى باسمه لألقاه.

وهب الشيخ من مجلسه، ودخل خلوته، وأصوات الرجال وأصوات النساء تصله من الفناء متداخلة لا يبين منها إلا أطرافها.

لقد سمع "مبروك الحنطور" يبكى وهو يقول: يتركنا. كيف يتركنا؟ يا رب يا حى. أبقه لنا، فليس لنا من يرعانا سواه. إننى ذاهب إلى إخواننا، أطلب منهم أن يحضروا. إننى ذاهب. ولن أعود إلا بهم.

وسمع صوت "زبيدة البطة" تصيح: لا والنبى. إن الشيخ كله بركة وحرام أن نفقد هذه البركة.

وهذه "ناعسة الحرامية". حتى "ناعسة الحرامية" ترفع صوتها المتدلل، لتعلن أنها لن تبقى فى المنيرة بعد الشيخ أبداً.

أما "وردة النقرزان"، فإنها تنادى على "مبروك الحنطور"، لتذهب معه إلى المريدين الذى طلبهم الشيخ، فإنها تريد أن تساهم بنصيب فى إرضاء الشيخ، فإن رضاءه من رضاء الله.

وأصوات أخرى كثيرة تداخلت، ووصلته منها أطراف، تؤكد حب أبناء المنيرة له، وتمسكهم به، وحرصهم عليه، ورغبتهم فى أن يستقر بينهم، فلا يغادرهم أبداً.

ويهز الشيخ رأسه، وهو ينظر إلى الشيخة، ثم يقول فى نذير حاسم:

ـ ليكن لدى الإنجليز كل سلاح. إن سلاحنا هو التضحية، وهو الموت. لنمت فى سبيل بلادنا. هل يستطيعون أن يغلبوا الموت؟ إنهم يحاربون فى سبيل البقاء، ليحتكروا هذا البقاء،

لكنا سنقدم لهم الموت. سنقدم لهم رءوسنا. سنقدم لهم نفوسنا. سنقدم لهم أرواحنا. سنرحل عن الدنيا ليتسلموا هذه البلاد بلا روح ولا حياة. من سيستغلون إذن؟ الذين عاشوا على الاستغلال، يبحثون عمن يستغلونه، فإذا رحل المستغلون؟ إننا سنواجههم بسلاح الموت، سلاح الرحيل. هذا أقوى سلاح نواجههم به. لتكم هذه هى طبيعة معركتنا معهم من أجل "ممدوح"، لنذهب إليهم ونحن ننوى ألا نعود، لماذا نعود؟ لهذا الذل، وهذا الهوان؟ لا. إن الرحيل أرحم بنا من هذا الوجود الكريه من هذا التخفى الذليل.

●●●

وبينما الشيخ فى ثورته هذه المتصلة، أقبل عليه بعض من طلب من المريدين.

كانوا فريقاً من الشباب، الذى انتظم فى الجمعيات الوطنية، أدخلوهم إليه واحداً بعد واحد، فلما اكتمل الجمع، وكانوا قد عرفوا منفردين، بقصة "ممدوح"، وأنه سيرحل بعد غد إلى جبهة من جبهات القتال، قال لهم:

- والآن علينا أن ندبر الأمر. إننا لن نسمح لهم بعملية خطف فاجرة، كتلك التى ارتكبوها. إننا جميعاً "ممدوح". إن "ممدوح" هو أى واحد فينا. قد يمكن أن يحدث هذا لأى واحد منا. فهل توافقون على هذا التلفيق الجرىء الوقح، ليلقوا بكم فى أتون معركة، لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟ هل تحاربون فى صفوف الذين يحاربونكم؟ هل تضيفون عنصراً من عناصر النصر إلى الذين يحتلون بلادكم بالباطل؟ قولوا ماذا أنتم فاعلون؟

قال ضابط البوليس الشاب الذى عرفه "جلال" فى المعتقل:

- إن المسألة تحتاج إلى تدبير محكم، وإلا أفلت منا جميعاً الزمام. إننا لن ندخر وسعاً فى مقاومتهم، ولكن علينا أن نتدبر كل شىء، فإنهم أقوياء، ومن السهل عليهم أن يحصدونا حصداً.

وقال الطبيب الشاب الذى ساعد "جلال" على الهرب من قصر العينى:

- لابد من رسم خطة واضحة. إن مثل هذه العملية تحتاج إلى أكثر من سبب نصطنعه. أنفكر مثلا فى حادثة تقتضى استدعاء الإسعاف، فى اللحظة التى تتحرك

فيها السيارة التى تحمل "ممدوح"، بحيث تعوق سيرها، فلا يكون أمامها إلا أن تنتظر. ثم نفكر فى تدبير اختطاف "ممدوح" أثناء ذلك، بعد معركة مصطنعة مع الجنود الذين يكونون فى السيارة.

وتحدث بعد ذلك عدد من الشباب، كل منهم أدلى برأيه فى الخطة وكيف تحكم إحكاماً يبعد عنها أى اشتباه.

وبعد أن فرغوا جميعاً من الإدلاء بآرائهم قال الشيخ:

ـ اسمعوا، إليكم الخطة كاملة. لقد استمعت إلى كل واحد منكم، وحاولت أن أستفيد من كل رأى، وأن أربط المقترحات بعضها بالبعض الآخر، لتخرج لنا خطة موحدة لهذه العملية الكبرى.

سأعلن الليلة أن مولد الشيخ العبيط بعد غد. هل تعرفون أين يقع مسجد الشيخ العبيط؟ فى جاردن سيتى، على بعد خطوات من نهاية شارع قصر العينى، حيث تقع قيادة الحلفاء، وحيث ستخرج السيارة التى تحمل "ممدوح"، فى طريقها إلى المطار أو محطة السكة الحديد، ليرسلوه إلى الجبهة.

ومن العار على شيخ مثلى ألا يحتفل بمولد الشيخ العبيط، وهو على بعد خطوات منه.

والترتيب هو أن يدبر موكب دينى كبير يتوجه من زاوية المنيرة، إلى مسجد الشيخ العبيط بحيث يكون أمام القيادة فى نفس الوقت المحدد لخروج سيارة "ممدوح" بعد غد مساء.

سنطلب بطبيعة الحال تصريحاً، وسنحمل كلوبات مضاءة تحية للمناسبة، وسيساعد هذا الأطراف الأخرى على تبين السيارة، بل على رؤية "ممدوح". ومهمتك أنت يا حضرة الضابط هى أن تسرع باستخراج التصريح، ثم تدبر لنفسك أن تكون مسئولا عن نظام الموكب، وملاحظة المريدين الذين يشتركون فيه، وبهذا ستكون قريباً من مكان الموكب تذهب وتروح فى سيارتك، أو سائراً على قدميك، أو فوق موتوسيكل، كما ترى.

على أن الموكب سيمر من يمين الطريق.

وستفصل بينه وبين يسار الطريق عربات الترام.

أنت يا مفتش الحركة بشركة الترام عليك مهمة أخرى هامة جداً. عليك أن تعمل على أن يزدحم شارع قصر العينى بأكبر عدد من عربات الترام، ذلك المساء. بل عليك أن تسبب ارتباكاً شديداً فى هذا الزحام، بحيث تضطرب حركة المرور تماماً، ويمتلئ الشارع بهذه العربات فى صورة من الفوضى ألفناها منكم فى كثير من الأحيان على كل حال.

وعلينا أن ندبر بهذه المناسبة، حادثة.

الترام يرتكب هذه الحوادث كل يوم، وكل ساعة، فتذهب أرواح كثيرة بريئة نتيجة لهذه الحوادث. على أننا محتاجون إلى حادثة ترام مساء غد كضرورة لنجاح العملية الكبرى.

ويجب أن تحدث الحادثة قبل مرور الموكب.

يجب أن تتم فى وقت يسمح بهياج الناس، وارتباك الحركة، وحضور سيارة الإسعاف فى الوقت المحدد لخروج سيارة "ممدوح".

وفى هذه الحالة، تكون أنت يا حضرة الطبيب فى سيارة الإسعاف.

ستحاول أن تسعف المصاب، لتسد بسيارة الإسعاف طريق السيارة التى تحمل "ممدوح". وسأنتقل أنا إلى الجهة اليسرى من الطريق لأطمئن على المصاب..

وأنا شيخ مهيب، لا أنتقل وحدى بطبيعة الحال. لابد أن يكون ورائى عدد كبير من المريدين.

وهنا تحدث الفوضى، والارتباك، وتتداخل الصفوف، فى يمين الطريق عن طريق الموكب، وفى وسطه عن طريق زحام عربات التراب، وعن يساره عن طريق الحادثة، ويختفى الشبان المسلحون فى كل هذه النواحى.

فإذا خرجت السيارة. السيارة الحربية التابعة للقوات البريطانية. السيارة الملهوفة المسرعة، التى تتجه إلى المطار أو المحطة، فإنها ستجد هذا الارتباك وهذا الزحام.

سقف السيارة مضطرة.

إذن نفتعل حادثة أخرى، وهى أن تدعى واحدة من بنات البلد، أن أحد الجنود الذين فى السيارة قد اعتدى عليها. عندئذ تدفع النخوة الرجال إلى الانتقام لها من الجندى الإنجليزى المخمور.

وتدور معركة. فى حين يعمل فريق على اختطاف "ممدوح".

هذه هى الخطة. توافقون عليها؟

وأخذ الجميع بهذا التدبير، وعجبوا للشيخ وقدرته على إحكام العملية، ووافقوا عليها بالإجماع.

وبدأ الشيخ على الفور يوزع المسئوليات عليهم، فلما فرغ منها، خرج إلى مريديه من أبناء المنيرة المجتمعين فى فناء الخرابة

●●●

وعندما استقر بالشيخ مجلسه بين مريديه، أسبل عينيه فى تقوى، ثم أخذ يتحدث إليهم حديثاً خافتاً، ولكنه كان يصل إلى أسماعهم جميعاً، فلا تضيع من واحد منه كلمة من كلماته.

إن سيطرته الروحية عليهم، كانت هى الموصل المحكم بينه وبينهم.

قال الشيخ على طريقته عندما يخاطب مريديه:

ـ كدنا يا أولادى ننسى ما علينا من واجب نحو ولى من أولياء الله سبحانه وتعالى. إنه جارنا، وبركاته رضوان الله سبحانه وتعالى عليه، تغرقنا جميعاً. إننا نشم نفحاته الطيبة ونحن هنا على بعد خطوات منه. ولقد جاءنى رضى الله سبحانه وتعالى عنه، وأنا بين النائم واليقظان. كان مشرق الوجه وضاء الجبين. كان النور يطفح من عينيه. أليس ولياً من أولياء الله الصالحين؟ وقال لى فى عتاب: لم تزرنا يا شيخ "أبو عوف". أولادك أيضاً لم يزرنا منهم أحد. إننا مشتاقون إليكم، نريد أن نتمتع بكم، أم إنكم

تجدون عنا السلوى؟ وقلت له فى أدب: أبداً يا سيدنا. إننا كلنا من المحسوبين عليك، الغارقين فى بحر كرمكم. قال: تأتون إلى، ليلة الجمعة القادمة. لهذا يا أولادى فقد أصبح من واجبنا أن نزوره زيارة تليق بمقامه. على أنى لا أدرى لماذا حدد ليلة الجمعة، وهى قريبة جداً. إنها ليلة بعد غد يا أولادى. هل منك من يعرف؟

قال أحد المريدين:

- يا سيدى لا تؤاخذنى. أنت يا سيدى تعرف لماذا حدد هذا الموعد بالذات.

قال الشيخ فى تواضع:

- أبداً يا ابنى لا أعرف.

قال المريد:

- إنها ليلة مولده، ومنذ سنوات لم يحتفل بهذا المولد أحد.

قال الشيخ فى تساؤل:

- ومن أين عرفت ذلك يا ابنى؟

قال المريد:

- كنا نحتفل بهذا المولد ونحن صغار، وقد حدثنا عنه آباؤنا أحاديث مختلفة.

- ولماذا وقفت احتفالاتكم به؟

قال المريد:

- حتى تحضر إلينا يا سيدى. فتحضر معك البركة.

وصمت الشيخ، وأخفى وجهه بين كفيه، وهو يتمتم بذكر الله.

وهب مريد آخر يقول:

- أنا يا سيدى أذكر ذلك. إن والدى كان يأخذنى إلى هذا الاحتفال كل عام. كلنا هنا فى حى المنيرة، الكبار منا خصوصاً يذكرون هذا.

وبعد لحظة صمت طويلة، قال الشيخ:

ـ الحمد لله الذى وفقنا إلى أن نتذكر. إن النسيان هو أسوأ ما يصيب الناس يا أولادى. الإنسان سمى إنساناً لأنه كثير النسيان. والذين يتغلبون على النسيان، قوم أحبهم الله، فجعلهم دائماً يتذكرون، ولا ينسون. يتذكرون الله ولا ينسوه، فيعيدوه. يتذكرون النبى صلى الله عليه وسلم ولا ينسوه، فيحبوه.

يتذكرون الناس ولا ينسوهم فيخلصوا لهم وتتوثق صلاتهم بهم. الحمد لله يا أولادى الذى هدانا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وهلل أهل الحى من المريدين، فرحين متفائلين، وعقدوا العزم على أن يجعلوا من هذا الاحتفال تعويضاً عن سنوات طويلة نسوا فيها واجباتهم نحو الله سبحانه وتعالى ونحو رسوله صلوات الله عليه ونحو أوليائه رضوان الله عليهم.

وبدأوا يدبرون أمرهم، ليكون احتفال بعد غد، احتفالا يعيشون عليه، فلا ينسونه أبداً.

وأخذ الشيخ يتطلع إلى مريديه، فى نظرة طويلة شاردة، ولاحظ أن "مبروك"، هو أنشط هؤلاء المريدين حركة وأكثرهم إقبالا، وأشدهم حماسة.

وطرأت عليه فكرة: لماذا لا يحاول أن يستغل هذه العناصر فيه، فقد تحقق أهدافه أو بعضها من المعركة؟

وناداه فملأ البشر وجهه كله، وسيطرت عليه حالة من الرضى، وأخذ يقبل يدى الشيخ فى خشوع شديد.

وبعد أن مسح الشيخ على رأسه ودعا له بالهداية والتوفيق، أخذه معه إلى خلوته.

وجلس الشيخ فى صدر الخلوة، وجلس "مبروك" أمامه، محنى الرأس، خاشع النظر، خافق القلب، معلق السمع بأذنى شيخه، الذى أخذ يتمتم بالدعوات والابتهالات، والتسابيح.

وبعد أن فرغ الشيخ من همساته المباركة التى يراها "مبروك" تتصاعد إلى السماء، نظر إلى الفتى طويلا وهو يداعب مسبحته حيناً، ويداعب شعر ذقنه المرسل حيناً آخر، ثم قال فى صوت يفيض رقة وعطفاً وحناناً :

- كيف حالك يا ابنى يا "مبروك"؟

قال "مبروك"، وهو يكاد ينكفى على وجهه من فرط ما طغى عليه من الرضى والسرور:

- إنى بخير يا سيدى، طالما أنى أحظى برضاك.

قال الشيخ:

- أنت تستحق كل خير يا "مبروك". إن قلبك الطيب، وروحك الطاهرة، هما زادك عند الله.

قال "مبروك":

- لكن هناك قبل هذا كله رضاك يا مولانا. بركتك. إننا جميعاً بدون رضاك وبركاتك يتامى.

قال الشيخ:

- بل قبل هذا كله يا "مبروك"، أن تجاهد فى سبيل الله.

قال "مبروك":

- هذا حق يا مولانا، إنى أؤدى فرائض الله على. أؤديها كلها، والفضل فضلك فقد اهتدينا بك.

قال الشيخ:

- وهذا لا يكفى يا "مبروك".

وذعر "مبروك" مما يسمع، وهاله أن كل صلواته وصيامه واستقامته لا تكفى.

على أن الشيخ لم يتركه فى هذا الارتباك الذى سيطر عليه، وأخذ يسأله:

- ماذا فعلت فى سبيل الله؟ ماذا قدمته لله سبحانه وتعالى من جهاد؟ أنت تصلى، أنت تصوم، أنت تطيع أوامر الله. هل هذا كل شىء؟ هذا حق الله عليك، ولو أنك قصرت أو تراخيت، لكان لذلك عقاب ينزله الله بك. لكن الجهاد فى سبيل الله، هل أديته؟ هل قمت بهذا الجهاد، كما أراده الله؟

قال "مبروك"، ولسانه يترنح بين شفتيه:

- أى جهاد يا سيدى؟ ما هو هذا الجهاد؟ إنى على استعداد لأى جهاد تطلبه منى، لكنى لا أعرف ماذا تطلبه يا سيدى.

قال الشيخ فى غضب:

- أنا لا أطلب منك شيئاً. إنه الله هو الذى يطلب هذا الجهاد فى سبيله. إنه حق الله على عباده، المؤمنين.

قال "مبروك" فى ذلة:

- غضبت منى يا سيدى؟! أرجوك لا تغضب على. انى أحيا برضاك.

وسكت الشيخ، وأغمض عينيه وأخذ يهمس بكلام لم يسمعه منه "مبروك" من قبل، كما لم يسمعه من أحد قبله.

وتعلقت آذانه بشفتى الشيخ حتى لقد كاد همس الشيخ أن يصبح فى أذنيه أعلى من دوى المدافع.

-...لا ....لا يمكن. مستحيل. كيف يجوز أن يحيا الإسلام فى كنف الكفار؟! كيف يجوز عندك يا ربى، أن يتحكم الكفار فى عبادك المؤمنين؟! لأنهم ضعاف، فاستضعفوا؟ وكيف لا يقوون بك؟ كيف لا يتغلبون عليهم، ويطهرون أرضهم من نجسهم؟ إن هذه أرضك، ولا يجوز أن ترتفع فيها كلمة غير كلمتك. إن هؤلاء عبادك، ولا يجوز أن يحكم فيهم إلا شرعك. الكفار اليوم يتصارعون على أرض يجب أن يذكر فيها اسمك، وترتفع فيها كلمتك

ويعز فيها عبيدك المؤمنون الأتقياء. إنها يتصارعون ليتقاسموا هذه الأرض. ويتحكموا فى هؤلاء المؤمنين. اللهم هل ترضى هذا لهم؟ لكن كيفما تكونوا يول عليكم، وأنت سبحانك لا تغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم. لا بد أن عبيدك قد ضلوا الطريق إليك، وأعماهم بريق الدنيا، عن نور هدايتك. لابد أنهم تاهوا عن طريقك، فى مجاهل شهواتهم.لابد أنهم أشركوا بك، برغم دعواهم، أنهم مؤمنون بوجودك، وبوحدانيتك. إن لهم آلهة أخرى سواك، والعياذ بالله. آلهة يعبدونها من دونك، ويقدسونها، ويقدمون لها الهدايا والقرابين. المال، الحصول على المال، ملء فراغ نفوسهم بالمال، إله آخر يعبدونه ! المرأة، الحصول على المرأة، ملء فراغ شهواتهم بالنساء الباهرات، إله آخر يطأطئون له الجباة ! القوة والنفوذ والسلطان، كل منها إله آخر يستعبد الناس ! هذه آلهة أخرى يعبدها خلقك - سبحانك- وفى سبيل الحصول عليها، يستبيحون كل شىء حتى الشرف ! ويستهينون بكل شىء، حتى حدود الله ! سبحانك. سبحانك. جل شأنك. هكذا يحفرون بأيديهم قبراً لشرفهم ! هكذا يضعون بانحرافاتهم نهاية لضميرهم !

●●●

كان الشيخ "أبو عوف" يتحدث هذا الحديث فى همس تارة وصياح تارة أخرى، وانفعال شديد فى كل الأحوال.

كان صوته يتهدج، كأنه الريح العاصفة. كانت عيناه تبرقان، كأنهما قطعتان من الوهج. كانت يداه ترتجفان كأنهما طيات قلب مكلوم.

فى حين كان "مبروك الحنطور" ينظر إليه فى خوف وحسرة وندم. عيناه قد بللتها الدموع، وقلبه قد أخذ يخفق خفقاً شديداً كأنه الهلع.

ماذا جرى؟ لماذا يبدو الشيخ على هذه الصورة الثائرة؟ لابد أن هذا نذير الشر. اللهم الطف يا لطيف. اللهم ارحمنا بفضلك، وفضل رسلك وأنبيائك وأوليائك.

ولم يتم "مبروك" ابتهالاته، فقد أمسك الشيخ بيديه، وأطال النظر إلى وجهه ثم صاح فيه:

ـ "مبروك" ...هل تؤدى حق الله عليك؟ هل تجاهد فى سبيله؟

وقال "مبروك" والدمع يتحدر على خديه :

ـ إنى رهن إشارتك يا مولانا. لا تغضب يا سيدنا فغضبك من غضب الله.

قال الشيخ فى حدة:

ـ إذن أنت على استعداد للقتال فى سبيل الله.

قال "مبروك" :

ـ وعلى استعداد للموت فى سبيل الله.

قال الشيخ:

ـ ولا نخاف يا "مبروك"، حتى لو تعرضت للهول؟

قال "مبروك" :

ـ لن أخاف إلا الواحد القهار.

قال الشيخ:

ـ حتى ولو واجهوك بالرصاص والنار، والدبابات؟

قال "مبروك" :

ـ حتى لو أتوا إلى بأساطيلهم البحرية والجوية جميعاً.

وافتر فم الشيخ عن ابتسامة عريضة، ولكنه سرعان ما ابتلعها، وأخذ يتمتم بكلماته الرطبة:

ـ بارك الله فيك يا ابنى. الخير لا يزال فى أمة محمد حتى يوم القيامة.

إنى مطمئن الآن إلى أن بين عباد الله رجالا مؤمنين مخلصين، لا يرهبهم خوف، ولايفت من إيمانهم نذير، ولو كان نذير الموت بعد غد، ونحن فى الطريق إلى ولى من

أوليائك، قد يتعرضون لنا بمكروه. أليسوا أعداء الله، وأعداء عباد الله؟ أليسوا لا يؤمنون بدين الله؟ لكن سيكون لنا من إيمان واحد مثل "مبروك"، ما يشد قوانا، وينصرنا عليهم بإذن الله.

والتفت الشيخ إلى "مبروك" وقال فى سرعة كالبرق الخاطف:

- ستكون صلباً يا "مبروك".

قال "مبروك":

- أصلب مما تتوقع يا مولانا.

قال الشيخ:

- فإن اعتدوا عليكم فاعتدوا عليهم بمثل ما اعتدوا عليكم به.

قال "مبروك":

- بل سنؤدبهم تأديباً.

قال الشيخ:

- لكن ماذا أنت فاعل وحدك. أنت محتاج إلى آخرين يعاونونك.

قال "مبروك":

- سيقف معى كل مريديك يا سيدى.

قال الشيخ:

- ومن الذى سينظم صفوفهم؟ من الذى سينبههم إلى الخطر؟ من الذى سيحثهم على الجهاد فى سبيل الله؟ قل لى من؟

قال "مبروك" فى سرعة:

- أنا يا مولانا.

قال الشيخ:

- على أنها تعليمات منى...أليس كذلك؟

قال "مبروك":

- نعم يا سيدى.

وضحك الشيخ ضحكة طويلة، ثم نظر إلى "مبروك" وهو يقول:

- ألا تدرى يا ابنى بعد أن الحرب مع الكفار خدعة؟ أتدرى كيف تكون الحرب خدعة؟ لو علم أحد بأن هذه هى أوامر الشيخ، فقد يتسرب النبأ، ولا يصرحون لنا بالموكب، وتفوت على المؤمنين من أمثالك فرصة الجهاد فى سبيل الله. لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعين على حرب الكفار بالخدعة، ولكن يظهر أنك تريد أن تكشف الأمر لأعدائنا.

وأصيب "مبروك" بالذعر، فأخذ يتكلم كلمات متقطعة، لا يدرى كيف يربط أجزاءها، فلما استعاد هدوء نفسه قال:

- ياسيدى. أمرك يا سيدى. أنا جاهل يا سيدى. لم أكن أدرى لك على أن أفعل كل شىء، وأن أهيئ كل شىء، دون أن يدرى أحد شيئاً.

قال الشيخ:

- لكن ماذا ستقول لهم؟

قال "مبروك":

- أقول ...أقول...أقول إن الجهاد فى سبيل الله ...

وصاح الشيخ:

- لا ...لا ...هذا كلام عام، لا مبرر له، ولن يقنع أحداً بعمل.

وسكت "مبروك" وهو لا يدرى ماذا يقول.

وأخذ الشيخ يقول فى صوت هادئ متزن:

ـ أنت يا "مبروك" معلم. أنت تبيع الصحف. أنت تبيع الصحف للإنجليز. أنت على صلة بالإنجليز. إذن قل لهم، إنك علمت من زبائنك أن الإنجليز ينوون الاعتداء على الموكب وعلى الشيخ.

وصاح "مبروك":

ـ ونحن كلنا يا سيدى فداء الشيخ. لن يسمح واحد من مريديك لأية قوة فى الأرض أن تعتدى عليك.

قال "الشيخ":

ـ عظيم. عظيم. هذا عظيم. وعلى هذا الأساس يا ابنى تنظم معهم كل شىء، من غير أن تثير فيهم اى شك، أو أية ريبة. هل هذا مفهوم؟

قال "مبروك":

ـ طبعاً مفهوم ...مفهوم يا سيدى.

قال "الشيخ":

ـ ولا تنس أن الحرب خدعة.

قال "مبروك":

ـ الحرب يا سيدى خدعة. خدعة.

وأخذ الشيخ يقول فى صوت منخفض هامس كلامه الذى ينفذ إلى قلبه كالسحر، ويرن فى أذنيه كأنه صوت مؤذن لصلاة:

ـ اللهم لا تجعلها رؤيا صادقة...اللهم أبعد عنا السوء. ماذا كان هذا الذى رأيته فى المنام بعد صلاة فجر اليوم؟ لقد رأيتهم يعتدون على واحدة مسلمة بالسوء. رأيتهم يعبثون بعرضها، ويحاولون أن يجرحوا كبرياءها. رأيتهم. المجرمين الأنذال وقد عبثت

الخمر بعقولهم، يعرونها من ثيابها، والموكب يسير، وأصوات المريدين تردد ذكر الله، والصلوات على نبيه الكريم.

رأيتهم يعبثون بشرف الدين وشرف الوطن. آه مما رأيته بعد ذلك ! لقد هاجت كرامات الرجال، وثارت كبرياؤهم، ودارت معركة بين المخمورين المسلحين، والطيبين المجردين من السلاح، وسألت نفسى وأنا فى الموكب: هل ذكر الله مقصود فى ذاته أو هو وسيلة للقربى منه سبحانه؟ وكيف تكون القربى منه، ما لم تنفذ أوامره، وقد أمرنا سبحانه بالجهاد فى سبيله؟ وما هذا الجهاد؟ ماذا يكون هذا الجهاد، إذا انتهك عرض الدين وعرض الوطن، دون أن تتحرك بغير الذكر والدعاء. ساعتها، تركت الموكب لأؤدى واجبى فى هذا الجهاد. آه !...لقد سقط شهداء، وترنح جرحى وارتفعت صيحات، ولكن النصر تم لنا ...كان الله معنا.

وصاح "مبروك" فى غير وعى:

- الله أكبر... الله أكبر... الله معنا، طالما أنت معنا يا مولانا.

وفتح الشيخ عينيه المطبقتين، كمن استفاق من نوم طويل، ونظر إلى "مبروك"، ثم أخذ يمسح على رأسه وعلى جبهته، وهو يقول:

- بارك الله فيك يا ابنى...اذهب أنت الآن لأمرك، والله معك.

وأخذ "مبروك" يقبل يدى الشيخ فى طاعة وامتثال، ثم اتجه نحو الباب.

وبينما كان على وشك الخروج قال الشيخ فى صوته الحنون:

- لا تنسى يا "مبروك" ...الحرب خدعة.

●●●

لقد خرج "مبروك الحنطور"، ولا يشغله شئ، إلا الجهاد فى سبيل الله، وكيف أن ذلك حق الله عند عباده، وأن الحرب خدعه، وأن عليه أن يدبر أموراً كثيرة جداً دون أن يبوح بشئ.

وأحس أنه خفيف كالطير، سريع كالقذيفة، حار كقبلات العشاق.

وخطر بذهنه أول مـا خطر، أن يذهب إلى "وردة النقـرزان". إن "وردة" هى أقرب الناس إليه، وآثرهم عنده. إنها الرائحة الطيبة التى تملأ حياته بالعطور والرياحين. إنها ظله الوارف، الذى يتفيأ تحته من وهج الحياة. إنها الأمل الحلو الرقيق الذى تكتنفه كل العوائق والصعاب، ومع هذا فهو أمل عزيز غال.

وهناك فى مدخل القهوة وجدها، صبيحة الوجه، مشرقة الجبين، وضاءة الوجنات، النرجيلة بين ساقيها، وكوب الشاى أمامها، وضحكاتها الصاخبة تملأ جو القهوة بالفكاهة والمرح.

لكنها عندما نظرت إليه، شعرت على التو أن فى صدره شيئاً يريد أن يفضى به إليها. ولم يكن من العسير على "وردة" أن تخلى الجو عندما تريد، لتختلى بمن تريد.

وقال "مبروك" فى صوت تخنقه العبرات:

ـ يا "وردة". إننا فى خطر. إن شيخنا فى خطر.

وضربت بيدها على صدرها وهى تستنكر ما تسمع، وتطلب منه أن يروى لها القصة.

وقال لها فى لهجة متقطعة:

علمت من زبائنى الإنجليز، إنهم سيقفون لنا بعد غد بالمرصاد. إنهم لا يريدون أن يتم هذا الموكب الكبير، فى هذه الظروف الحرجة. لكنهم لا يريدون أن يتدخلوا حتى لا يقال إنهم يحاربون الشيخ أو يحاربون الدين. وبعد غد عندما يبدأ الموكب سيره فى شارع قصر العينى، سيعتدون علينا. وعلى الشيخ. إنهم يكرهونه. إنهم يريدون حرماننا منه.

وصاحت "وردة" فى غضب:

ـ الله الله. حتى الشيخ الذى جاءنا بالبركة !! الله الله. وما دخلهم به؟ الرجل يصلى ويتعبد ويذكر الله، ويجمع الناس حوله من أجل الخير. ماذا فعل لهم؟ هل هو الذى

خطف رجالهم؟ هل هو الذى أخفى ضباطهم؟ والله لو أن واحداً اقترب منه، أو حاول إيذاءه، لسفكت أنا بيدى هاتين دمه. والله لو أنهم حاولوا أن يضروه بشىء، لافتديته بروحى. لكن اطمئن. الشيخ رجل ولى من أولياء الله الصالحين. الشيخ رجل مبروك. إن كراماته باتعة يا "مبروك". لا تخف. سيطيرون هم قبل أن يلحقوا به ضرراً. صدقنى الشيخ قادر بإذن الله عليهم جميعاً. لا تخف. ومع هذا فنحن جميعاً معه.

قال "مبروك":

- لكن حذار يا "وردة" أن يصل هذا إليهم. إنهم لو علموا بنوايانا، وأننا سنقف معه جميعاً هذا الموقف، لما مكنوه من تنظيم الموكب. إياك. أتفهمين؟

قالت:

- طبعاً أفهم. لكن نسكت؟لا... لن نسكت. لابد من تنظيم أنفسنا لأى شىء. لا تخف يا "مبروك"، إن رجالنا ونساءنا هنا، يعرفون كيف يخفون السر عن الجن نفسه لا عن الإنجليز، والبوليس وحده. اطمئن. اترك لى أنا تدبير الأمر.

●●●

وألقت "وردة" بالنرجيلة بعيداً، وهبت واقفة، وقد برقت عيناها كقطة تتحفز لمواجهة عدو كريه.

ودارت فى القهوة دورة سريعة تتفحص من فيها من الرجال، وتطيل النظر إليهم، كأنما تحاول أن تنفذ إلى أعماق ضمائرهم.

وبدأت عملها فى الاستعداد لمواجهة الخطر.

جلست مع جماعة عابثة. لا هم لها إلا لعب الورق، واحتساء أكواب الشاى، وتعلقت أنظار الجماعة بعينيها، يتصيد كل واحد منها نظرة حانية أو ابتسامة رطبة.

وأخذت تعبث معهم عبثها الصريح المعروف، فترتفع الضحكات من يمين ومن يسار، وهى ماضية لا تقف عند حد، حتى لقد امتلأت القهوة كلها بالضحك الصاخب المتصل.

وفجأة هبت واقفة وجرت واحداً من أفراد الجماعة من باقة جلبابه، كأنما تجره من قفاه !

ونظر الباقون، وهم يدارون الغيرة منه، بالضحك عليه.

وبينما أخذت تسحبه خلفها إلى مكانها فى مدخل القهوة، نظرت وراءها على الآخرين وهى تقول:

ـ واحد واحد. انتظروا. سيأتى دوركم.

وبدأت تتحدث معه فى همس. وهى تضرب بين الحين والحين صدرها بكفيها، أو تربت على كتفه، أو تمسح على رأسه، وعيون الزبائن تختلس النظر إليها.

وفرغت من واحد، فهبت واقفة ومضت تختار واحداً ثانياً، على طريقتها هذه. تشده من ياقة جلبابه، فيبدو المنظر كأنما تسحبه من قفاه.

وفى مكانها من صدر القهوة بدأت أحاديثها الهامسة معه، تتخللها بين الحين والحين صيحة، أو شهقة، أو ضربة كالصيحة أو كالشهقة، تعبر بها عما فى نفسها من كلام.

ثم قامت لتجر واحداً ثالثاً.

وهكذا أخذت تجر واحداً بعد واحد، حتى أتت على كل زبائن القهوة، فلم تترك منهم واحداً إلا جرته إليها، لتهمس إليه بما فى صدرها من السر الكبير.

ولم يكن واحد من هؤلاء يعود حيث كان من القهوة. لم يكن يعود إلى أصدقائه، يستأنف معهم جلسته أو لعبته. كلا، وإنما كانوا يخرجون إلى حيث لا يعلم أحد، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الجد والتفكير.

ولما فرغت "وردة" من مهمتها، وخلت عليها القهوة، إلا من أنفاسها تتردد، فلا يرتد إليها منها إلا الصدى. ولما ارتمت على مجلسها من صدر القهوة، تستعيد ما كان لها فى ليلتها هذه، وجدته أمامها، متكوماً ورأسه بين ركبتيه، وعيناه تحملقان فيها لا تتحولان عنها أبداً.

"مبروك". إنه "مبروك الحنطور"، جلس حيث كان يجلس كلما كان يفرغ لنفسه، يطيل النظر إليها، فلا يرى فى الدنيا سواها.

إنه "مبروك"، يتنفس فى صعوبة، كأنه يختنق، فيعبر بذلك أبلغ تعبير عن أقدس حرمان.

إنه "مبروك"، جمد كما يجمد الحجر، لكنه داخل نفسه يتحرك فى انفعال متصل، حراً من أى قيد، منطلقاً من أى رباط.

وكانت "وردة" قد تعبت، بلغ بها الجهد حداً مرهقاً. فهى من أول الليل فى حديث. وهى من أول الليل فى انفعال. وهى طول الليل تحسب لكل شىء حساباً، حتى لا ينقلب تدبيرها شراً وهلاكاً.

ولقد أحست أنها محطمة.

بل لقد أحست أنها محتاجة فى هذه اللحظات إلى يد صلبة تمتد إليها. إلى صدر قوى يضمها. على وجه خشن تمرغ فيه خديها وشفتيها. إلى أصابع جريئة تعبث بشعرها بعد أن تحرره من ضفائره المحكمة.

وقالت فى نفسها: ها هو ذا قلب يحيا على النداء بحبى، فهل ألقى بنفسى إليه؟ لكن ما أشقانى وما أشقاه ! ليته ما أحبنى، وما أحببته ! إذن كان يمكن أن نمر بنزوة طائشة نغسل فيها أوحالنا، ونفيق. نتحلل فيها من أثقالنا، ونستأنف المسير خفافاً كالعصافير. لكنه حب يربط بين قلبينا، ومثل هذا الطيش، إما أن يقدسه، وإما أن يدنسه. ويح نفسى ماذا أقول؟ إن زواجنا مستحيل، ونحن نعوض الزواج بهذا الحب المحروم، ولو أنه خرج عن حرمانه لفسد، وانتهى، وأنا لا أريده أن يفسد أو يزول. لا لن يفسد، لن يزول.

لكنها، وقد بدأ ضعفها يزيد إحساسها أنها أنثى، أخذت تقاوم نفسها الأمارة عليها بأن "مبروك" يرسل إليها سهاماً من نار، تخرج من قلبه، فتخترق عينيه. لابد أن النداء بحبى يشعل بدنه كله بالنار. ما أحلى النار ! لطالما طال انتظارى للهب، وللوهج، وللنار !

وتجد "وردة" أن الوسيلة الوحيدة، أن تتكفئ على مقعدها، مستغرقة فى نوم يصرفها عما هى فيه، فلا تستيقظ إلا مع صوت المؤذن بصلاة الفجر.

حينئذ لا تجد أحداً إلا مبروك، وقد تأهب للذهاب للصلاة.

وتبتسم، وتبتسم، بلا كلام.

وتحس "وردة" أن عليها أن تبكر بعمل دءوب متصل، وأنها فى سباق مع الزمن، وأنها لا تستطيع أن تتوانى عن أداء واجب مقدس، نحو الشيخ الذى جاء هذا الحى بالبركة والسلام.

وتذهب إلى "زبيدة البطة"، فتدركها وهى ترص أرغفة الخبز على مدخل الدكان. إنها تبدو كمن لا تزال فى حلم جميل، وأرغفة الخبز أمامها لا تزال ساخنة تتصاعد منها أبخرة الفران. ما أجمل الخبز فى هذا الوقت من الصباح.

وتعجب "زبيدة البطة" للزائرة المبكرة، فإن العهد "بوردة" ألا تستيقظ إلا مع الضحى، فهى لا تنام إلا بعد أن تودع آخر زبون فى القهوة. أهى حقاً، أم أنها لا تزال فى حلمها الجميل؟

لكن "وردة" تقبلها وتضمها إليها. هى إذن حقيقة لا حلم. إنها هى بلحمها وشحمها.

وتدور بينهما الأحاديث، ثم تتطور الأحاديث إلى همس، ثم يصبح الهمس جداً، ثم إذا هذا الجد ينعكس على نظراتهما، وشهقاتهما، وضربات العجب على صدريهما.

ويشهد دكان الخبز فى هذا الصباح منظراً لم يألفه من قبل. إن "زبيدة" البطة لا تبيع الخبز للزبائن على نفس الطريقة التى اعتادت أن تبيعه إليهم كل صباح. إنها لا تتخلص منهم بالسرعة التى اعتادت أن تتخلص بها منهم كل صباح. إنها لا تستنكر ألفاظ الإعجاب أو كلمات الغزل، مثلما اعتادت أن تفعل كل صباح. إنها هذا الصباح تستبقى الزبائن، لفترات قد تقصر وقد تطول. إنها تتحدث معهم أكثر مما تبيع لهم، وإن حديثها معهم ليدور همساً وفى شىء غير قليل من الحذر، ثم ينتهى بعبارات تؤكد أن هذا

مستحيل، وأننا سنحميه من أى خطر. يا نهار أسود. رجل كهذا جاءنا بالهداية والبركة، يذهب غدراً ! لا لا. كلنا نفتديه.

وفى طريقها إلى دكاكين الحى، تقابل "وردة النقرزان" "ناعسة الحرامية"، فتشدها إليها وهى تقول فى صوت كأصوات الرجال:

- يا بنت يا حرامية. ألا تريدين صيداً جديداً؟

وتقول "ناعسة" فى دلال:

- والله نسيت المصيدة يا ست.

فتصيح فيها فى لهجة حاسمة:

- تعالى يا بنت. أنا عندى لك مصيدة تعجبك.

وترد "ناعسة"، وهى تتثنى:

- آه لو كنت رجلا يا ست وردة ! كنت وقعت فى هواك من أول نظرة.

قالت "وردة" وهى تشدها إليها:

- ومن أدراك إننى لست رجلا؟ تتزوجيننى يا بنت؟

قالت "ناعسة" فى طراوة:

- من غير مهر. بلقمتى وحياة عيونك.

وضحكتا ضحكاً طويلا متصلا.

ومالت "وردة" على ناعسة تسر إليها بالنبأ فصاحت "ناعسة":

- يا نهار أسود. كيف يحدث هذا؟ والله لا أكون "ناعسة الحرامية"، إذا لم..

وسكتت وهى تميل على أذن "وردة"، وتسر إليها بكلام، تنطلقان على أثره، تضحكان ضحكاً صاخباً، حتى لتدمع عيونهما من كثرة الضحك.

وتفترقان وقد اتفقتا على خطة العمل.

وتدور "وردة" هنا وهناك، تقف قليلا عند البقال، ثم عند المكوجى، ثم عند الجزار ثم عند بائع الخردوات، ثم تعود بعد جولة طويلة إلى القهوة لتجلس حيث اعتادت أن تجلس والنرجيلة بين ساقيها، وأكواب الشاى تتوالى على شفتيها.

ويفد إليها الزبائن، واحداً وراء واحد. لكنهم فى هذه المرة لا يتناثرون على مقاعد القهوة، وإنما يقصدون إلى صاحبة القهوة، كل منهم يسر لها بسر. وهى تهز رأسها مسرورة مما تسمع. لقد أدى كل منهم واجباً كلفته به، وأتى ليؤكد لها أن كل شئ يسير على ما يرام.

ثم يأتى "مبروك الحنطور"، والعرق يتصبب من جبينه. إنه مثلها لم يذق للنوم طعماً، طيلة ليلة الأمس. لقد عاش على الأرق، والتطلع إليها، بلا كلام.

ولقد وزع نصيبه من الصحف، ومر على المنطقة التى يشرف عليها، وأدى كذلك واجباته فى الاستعداد لاحتمالات اليوم، وجاءها أخيراً، ليتزود منها بالزاد الذى لا غنى له عنه: النظرة الوادعة الحانية.

وإنها لتراه، فتحس أن متاعب ليلتها الطويلة قد زالت كلها.

وتطيل "وردة" النظر إليه، وتسأل نفسها وهى تبتسم فى شئ يشبه الدلال: ماذا أعجبها فيه؟ إنه ليس إلا بائع صحف مسكين، ليس فيه شئ يغرى.

لكنها تعود تقول لنفسها: لكنه يحبك يا "وردة". يحبك من أعماق قلبه حبا لم تعهديه من رجل قبله. أنسيت كيف كانوا يقبلون عليك، وفى عيونهم بريق مشتعل بالرغبة، فما إن كانوا يتبينون الحقيقة، وهى ألا أمل فيك، حتى كان بريق الرغبة يخفت، ويكاد أن يزول ! بل إن منهم يا وردة من ظهرت فى عيونهم بوادر الكراهية والحقد والغيظ، لأنهم ما كانوا يتصورون أن تقابل عروضهم بالرفض ! ما أعجب الدنيا ! جاءوا إليك، بين طامع فى القهوة والميراث، وبين طامع فى الهوى السريع، فلما وجدوا أن النوافذ مغلقة، وأن أبواب الأمل قد أوصدت، فتر ما أتوا به من حب وهوى. أما "مبروك الحنطور"، فإنه شئ آخر يختلف عن كل هؤلاء. إنه يحبنى، لا لأنى صاحبة هذه القهوة، ولا لأن لى

ميراثاً تركه لى زوجى الذى مات. ابداً هو يحبنى، لأنه يحبنى، وهذا يكفيه. إنه يعلم أن زواجه منى مستحيل. بل لقد بكى المسكين، وانا أروى له المأساة التى أحياها من أجل أبناء زوجى المساكين، ومن يومها، وهو يكتفى بحب بلا أمل. لا يا "وردة". إن الحب هو نفسه الأمل، بصرف النظر عن كل شىء يحيط به. و"مبروك" يشعر مثلك بهذا الشعور، ولهذا يتلاقى معك فى تقدير الحب، والحياة من أجل الحب.

وتطيل "وردة" النظر إلى "مبروك"، وهى تحدث نفسها هذه الأحاديث، فتتمعن قسمات وجهه، وتعبيرات نظراته، والشعور الهائل الذى يجرفه وهو يواجهها وينظر إليها. والنار المشتعلة أبداً فى قلبه، والأنفاس المضطربة أبداً، وهى تدخل إلى صدره وتخرج من أنفه أحر مما دخلت، واليدان المضطربتان تتقدمان إلى أمام فى أمل أن تلامس كفيها، وتتأخران تقديساً للحب المقدس المنطوى بين ضلوعه المتقدة، والعرق المتصبب على جبهته، والأحلام المخبوءة بين جفنيه.

إن "وردة" ترى ذلك كله، أو بعض ذلك كله، فتطبق عليه جفنيها، خشية أن يضيع.

إنها لتشعر أن نوعاً من المخدر يصيب أطرافها. ما أحلى أن يتسلل إليها هذا الخدر (إنه شىء جميل يخفف ما فى قلبها، وما فى نفسها من لهفة إليه.

وتسأله:

- سبع أم ضبع، يا "مبروك".

ويجيب:

- ماذا تنتظرين من "مبروك"؟

وتكاد تقول:

- رجلى الذى أحبه لا يمكن إلا أن يكون سبعاً.

لكنها تسكت قليلا وتبتسم، فيفهم ماذا تريد أن تقول.

ويمضى "مبروك" يعدد لها زياراته، وكيف ناقش بائع الطعمية، فنسى الرجل أقراصه فى الزيت، ونسى الزبائن المرصوصة، ونسى النداءات بالطلبات، وأخذ يسمع هذه

الأخبار المزعجة، وأقراص الطعمية تحترق. ثم ذهب إلى الترزى، فلما أخبره بهذه الروايات، كاد الرجل يقص ما كان بين يديه من قماش بنطلوناً بدلا من أن يعده جاكته ! ومبيض النحاس الذى أخذ يدور بقدمه داخل طشت قديم، دورات عصبية، كادت أن تخرق الطشت، فلا يصلح بعد ذلك لشىء.

كل هؤلاء قابلهم، وكل هؤلاء ذهلوا أمام هذه الأخبار. وكل هؤلاء عقدوا العزم على أن يجاهدوا فى سبيل الله، جهاداً يلقن الكفار درساً لا ينسونه.

لكنه عاد فسكت سكتة مريبة.

وانتظرت "وردة" منه أن يستأنف الحديث، لكنه ظل فى صمته لا يتحدث.

وصاحت فيه:

- ماذا يا "مبروك"؟ لماذا سكت؟ ماذا حدث؟

ونظر إليها طويلا، ثم تنهد، كمن يزيل عن صدره كابوساً ثقيلا، وفى لهجة أثقل من الكابوس، أخذ يقول لها:

- يا ست "وردة" ربنا ينجينا.

قالت:

- قل يا "مبروك". لماذا؟

قال:

- لقد بعت اليوم الصحف للإنجليز. ثم تعمدت أن أحشر نفسى بين صفوفهم. ثم أخذت أنادى على الصحف لهم، وهم فى سيارات مصفحة ودبابات. ولاحظت عليهم يا "وردة" أنهم اليوم عصبيون إلى درجة غير مألوفة. إن أرواحهم فى أنوفهم. إنهم لا يطيقون مناقشة ولا أسئلة. إنهم ضجرون قلقون. يبدو يا "وردة" أنهم يتوقعون شيئاً.

وصاحت "

- أى شىء؟ هل وصلهم نبأ؟

قال:

- لا أدرى. ربما.

قالت:

- يا نهار أسود. لكن ممن؟ إن رجالنا ونساءنا جميعاً وطنيون. كيف يصلهم نبأ عما ننوى أن نفعل؟ لابد أن يكون قد وصلهم من جهة أخرى.

وسكتت قليلا ثم صاحت فى غيظ:

- والله لو أن هذا وصلهم عن طريق واحد منا لأخنقنه بيدى، ولو كان هذا الواحد هو أنت يا "مبروك".

وفزع "مبروك" مما سمع وأخذ يصيح :

- أنا. أنا يا "وردة". أنا؟

قالت وهى تضرب كفاً بكف:

- أنا أقول. أقول حتى لو أنه أنت. لا تؤاخذنى يا "مبروك". فأنت تعرف مكانتك عندى، ولكنى فى غاية الضيق من هذا. إنى لا أطيق الخيانة أبداً. يا نهار أسود ! خيانة حتى هنا ! إننى لا أكون "وردة" لو مرت الخيانة من تحت ذقنى.

●●●

وبدأ يوم من الأيام التى لا ينساها تاريخ المنيرة أبداً.

تجمع المريدون منذ الصباح الباكر فى خرابة النداهة، وحولها، وفى الشوارع المحيطة بها والمؤدية إليها، وقد أشرقت وجوههم بالسماة، ونضجت وجناتهم بالسرور. إن المنيرة ترتب اليوم لاحتفال لم تشهده منذ سنوات،وكادت أن تنساه. مولد الشيخ العبيط الذى كانت تعيش له أسابيع، قبل أن يقبل، ترتب له، لتنال من بركاته ما حيا عليه طيلة العام.

أغنياء الحى كانوا يقيمون السرادقات، ويحضرون المنشدين، ويذبحون الذبائح.

وتجار الحى كانوا يملأون دكاكينهم بالحلوى والملابس الزاهية والمأكولات والبخور.

وعلماء الحى كانوا يتناثرون هنا وهناك فى المساجد والزوايا يحضون الناس على عبادة الله وطاعة رسوله. ورجال الطرق كانوا يقيمون حلقات الذكر، فتمتد بهم حتى مطلع الفجر.

والمغنون والمنشدون والمهرجون كانوا يفدون إلى الحة بأغانيهم وأناشيدهم وألعابهم فتمتلئ خيالات الناس بالنشوة والفرح والسرور.

لكنهم منذ سنوات، لم يحتفلوا بهذا المولد. شغلتهم شواغل الحياة، ثم كانت الحرب فزادتهم هموماً وقلقاً، فلم يعودوا يذكرون المولد الذى اعتادوا أن يحتفلوا به، حتى جائهم الشيخ "أبو عوف" بالبركة والأنس والخير، فذكرهم بمولد الشيخ العبيط، ونوى أن يحتفل به فى يوم وليلة، كأنما ذلك موعد مع قدر حبيب، لا يعرف تمهلا ولا إبطاء.

ما أكثر كراماتك يا سيدى يا "أبا عوف" !

ما أكثر ما تحيط هذا الحى بنفحاتك الطيبة الزكية !

إن هذه الحماسة البادية على الناس، وهذا الزحام الذى شهدته المنيرة.

حول خرابة النداهة، وفى طرقات الحى كله، أثر من آثار هذه النفحات، وظاهرة من ظواهر البركة الغامرة التى أقبل بها الشيخ على غير ميعاد.

لقد امتلأت طرقات الحى منذ الضحى بالمغنين والمنشدين والمداحين، فملأوا جو المنيرة بالبهجة والأمل. وتوافد على الحى عدد من أصحاب المراجيح، فنصبوا مراجيحهم فى أماكن متناثرة فى الحى تعلو وتهبط بالأطفال الصغار، وهم سعداء فرحون. بل إن شباب الحى أخذ يتبارى على أعلى ارتفاع تصل إليه كل مرجيحة، والفرحة تملأ وجوههم، والضحكة تملأ قلوبهم. والباعة الذين تخصصوا فى تزويد الموالد بأصناف معينة من المأكولات وفدوا بدورهم على عربات.

هؤلاء يبيعون الكسكسى فى أطباق صغيرة، وقد أخذت حباته تبرق تحت وهج الشمس، والأولاد الصغار والرجال والنساء يتجمعون حول العربة، فى فم كل منهم نداء

بالقيمة التى يريد أن يشترى بها بعضاً من الكسكسى، والبائع واقف خلف العربة، وقد شمر عن ساعديه وأخذ عرقه يتساقط فوق جبينه، وصوته لا ينقطع عن الرد الدائم المعروف: حاضر... من عينى... حاضر... صبرك بالله... صلى على النبى. شىء لله يا سيدى يا صاحب المولد... بركاتك يا سيدى يا "أبو عوف".

وهؤلاء يبيعون الكشرى، فى أطباق أخرى من الصاج، وحولهم عشرات من أبناء الحى والأحياء المجاورة يتطلعون إلى كل طبق يباع، وهم يزمون شفاههم حتى لا تنزلق ألسنتهم أو يسيل لعابهم. إن البائع يضع بعض الأرز مخلوطاً بالعدس أبو جبة فى الطبق، ثم يمسك بقبضة من البصل المحمر لينثرها فوقه، ثم يمد يده إلى زجاجة مملوءة بسائل أحمر، وفى فوهتها خرم صغير، ليرش منها على ذلك كله بعض الخل مخلوطاً بالثوم. وبين ثناياه بعض الشطة، لفتح الشهية والإغراء على مزيد.

إنه يفعل ذلك كله، وعشرات من العيون ترقبه لترى هذا التفنن البديع، وتنتظر طبقها فى صبر، فإنه مأكول يستحق أن يبذل من أجله الصبر الجميل. والبائع البدين يسبح طول وقته بحمد الله، ويصلى على النبى، ويسأل المحيطين به أن يقرءوا الفاتحة للشيخ العبيط صاحب المولد، والشيخ "أبو عوف"، رجل الكرامات التى لا ينكرها إلا جحود.

وهؤلاء يبيعون نوعاً آخر من المأكولات. إنها حلوى لا تتوافر إلا فى مثل هذه المناسبات حلاوة سد الحنك. والناس يقبلون عليها إقبالا شديداً. خاصة النساء. وهنا لا يمكث الزبائن طويلا، فإن هذا النوع من المأكولات يعد أسرع من سواه. إنه قطعة من عجين مسلوق سلقاً خفيفاً، مخلوط بالسمن والسكر المذاب، مكور أو بيضاوى، يشترى بالقطعة فيزدردها الزبائن ازدراداً، ثم يطلبون غيرها وغيرها، حتى يشبعوا. وحول هؤلاء الباعة يكثر المزاح والضحك. إن اسم النوع من المأكولات وحده يثير هذا المزاح بين الناس. وكثرة النساء حوله تضيف مادة جديدة إلى هذا المزاح. فمن قائل: واحدة أسد بها حنكى لومن قائلة: والنبى أعطنى واحدة، ربما أسكت بها عن الرجال! ومن قائلة: يا أختى خذى قطعة أخرى، لأن لسانك طويل. الرجل والنساء جميعاً يشتركون فى هذا

المزاح، ومن الرجال من يقول: طبيعى أن تتجمع هنا النسوة، فهن يعلمن أنهن ثرثارات كثيرات الكلام. ومنهم من يصيح : من يدرى، ربما تحل بنا بركة المشايخ، فتهدأ المنيرة من سد الحنك.

وهؤلاء يبيعون نوعاً آخر من الحلوى يعرف بنبوت الغفير، يقبل عليه الأطفال إقبالا شديداً، فهو شديد الحلاوة من ناحية وهو مستطيل كالنبوت من ناحية أخرى، وهو صلب أملس من ناحية ثالثة، والأطفال يلعبون بهذا النوع من الحلوى قبل أن يأكلوه، ويتصور كل منهم نفسه غفيراً، وفى يده نبوت، فيتصارعون بهذه النبابيت فيما بينهم، فإذا كسر نبوت أحدهم، فهو المغلوب. والضحكات الطفلة تملأ قلوبهم رضى وتملأ أجسادهم خفة وانطلاقاً.

وإلى جوار هؤلاء ينتشر باعة آخرون، لأصناف أخرى من المأكولات. باعة الطعمية والفاكهة الشعبية بأنواعها، ينادى كل منهم على بضاعته، بعد أن يسبق نداءاته بكلمات أقرب إلى الدعوات والابتهالات والتغنى بكرامات الشيخ العبيط وأولياء الله الآخرين، ونفحات سيدى "أبو عوف".

وتنضم إلى هذا الموكب الزاخر مجموعة أخرى من باعة الطواقى والطراطير ومجموعة ثانية من باعة الزمامير والشخاشيخ، ومجموعة ثالثة من باعة البالونات المستطيلة والمستديرة والمختلفة الأشكال والألوان.

ثم هؤلاء ممن يبيعون المشروبات التى لا تتوافر إلا فى مثل هذه المناسبات: العرق سوس والسوبية والتمر هندى، والخروب، وعصير القصب والليمون، وشربات الورد بلونه الأحمر الزاهى ومذاقه الحلو الجميل.

إن الحى يحتشد بهذا العدد من الباعة، وطبيعى أنهم عنصر منافس لدكاكين الحى القائمة فيه من زمن طويل. ولكن شيئاً من مرارة المنافسة لا يجد طريقه إلى القلوب. إنها كرامة أخرى لصاحب المولد الشيخ العبيط، والداعى إلى المولد الشيخ "أبو عوف". إن الناس يتحدثون بهذا، وهم يشهدون أصحاب الدكاكين من أهل الحى يرحبون

بالوافدين ويقدمون لهم كل ما يحتاجون إليه من تسهيلات. إذا احتاج أحدهم إلى الماء، أخذه من هنا أو من هناك، من دكاكين الحى. وإذا احتاج أحدهم إلى أوان أو أطباق سارع أهل الحى بتقديمها طواعية واختياراً. وإذا احتاج أحدهم إلى مقاعد أو مفارش، فإنه يجدها عند المنافسين من تجار الحى القدماء.

كرامة يتحدث عنها الناس. كما يتحدثون عن كرامات أخرى يلاحظونها فى رضى وسرور.

إن البركة قد حلت عليهم، وعلى حيهم، وعلى الدكاكين والتجار جميعاً الذين كانوا يشكون الكساد أخذوا يشكون من عدم القدرة على تلبية الرغبات.

والذين كانوا يرفعون أصواتهم بأن الحالة أصبحت تنذر بالخراب، جمعوا فى يومهم هذا ما يعوضهم عما فقدوه خلال أسابيع.

الدنيا كلها امتلأت بالخير، وامتلأت بالبركات.

ويتصايح الناس بالابتهالات والدعوات، وهم يتطلعون إلى المزيد.

لكن أحداً منهم لم يحاول أن يسأل نفسه هذا السؤال:

من أين كل هذه التجمعات والحشود فى ساعات؟

إنها عند أهل المنيرة كرامة من كرامات المشايخ الذين يتجمعون عادة فى كل مولد، بكل ما فى قلوبهم من حرارة، وما فى نفوسهم من بركات. ففى مولد الشيخ العبيط، ترفرف أرواح أخرى كثيرة: السيدة زينب. سيدنا الحسين. الإمام الشافعى. السلطان الحنفى. السيد أحمد البدوى. السد إبراهيم الدسوقى. كلهم يتجمعون فى المولد يباركون المولد وأهل المولد.

والخير دائماً فى ركابهم، والبركات دائماً معهم على ميعاد.

واحدة فقط كانت تجلس فى ركن من أركان الحى، بعيداً عن الأنظار، تملؤها البهجة بهذه الثمرات السريعة التى حققتها فى هذه الساعات القليلة من النهار.

ولم يكن يعرف سرها إلا واحد، يطوى قلبه على هوى مشبوب، يطل لهيبة من بين أهداب مثقلة، فتبدو عيناه كقطعتين من نار.

"وردة النقرزان"، و"مبروك الحنطور".

ولقد قالت تسأله:

كيف حال المولد يا "مبروك"؟

قال فى ثقة وفرح:

- البركة فيك يا "وردة". لقد دبرت كل شىء بسرعة وبإحكام.

قالت فى خجل وتواضع:

- البركة فيك أنت. ألم تبادر إلى كل هؤلاء لتأتى بهم إلينا؟

قال:

- لكن لولا رسالة منك إليهم، ما أنصت أحد إلى كلماتى. لقد أقبلوا جميعاً من أجلك. أنت زينة المنيرة وبهجتها. والله لولا أننى أعرفك، لامتلأت عليك غيرة منهم.

قالت فى دلال:

- تغار على يا "مبروك"؟

قال والزفرة الحامية تكاد تمزق ضلوعه :

- وعلى من أغار إذن، إن لم يكن عليك؟

قالت وهى تهز كتفيها متعاجبة:

- لكن أنا كبرت يا "مبروك"، ولا فائدة منى. أنت تعرف. لماذا لا تبحث لك عن واحدة تملأ قلبك، وتملأ حياتك.

قال فى حماسة:

- أنت كبرت؟ وهذا الجمال كله؟ وهذا الدلال كله؟ وهذا السحر الأخاذ الرائع؟ أنت يا "وردة" أجمل وأصبى من صادفت فى الحياة. ثم إنى لا أنظر إلى فائدة من وراء حبك.

إن حبك نفسه هو الفائدة التى أنظر إليها. إن هواك يملأ على دنياى. إنه متعتى يا "وردة"، وهل تظنين أن هناك واحدة أخرى تستطيع أن تملأ على حياتى؟ وهل حياتى فارغة تحتاج إلى من يملؤها؟ يا حياتى يا "وردة".

وأخذت "وردة النقرزان" تزم شفتيها، كأنما تخاف أن تبوحا ـ بالرغم عنها ـ بكلام.

ثم انطلقت عنها زفرة طويلة سريعة، ومدت يدها إلى "مبروك"، تتحسس خده.

ومال عليها "مبروك"، يحتضن الكف الطرية بين كتفه وخده، وأطبق جفنيه، يريد أن يطبع هذه اللقيا على صفحة قلبه، ويحتفظ بها للزمن، يجترها عندما يجوع.

ومضت لحظات سريعة، لكنها فيما تركته فى نفسيهما من أثر، أطول كثيراً من كثير من الأعمار الفارغة.

بعدها قالت "وردة"، وصوتها يتحشرج كأنها تصحو من نوم طويل:

ـ "مبروك". هل تظن حبنا هذا يدوم؟

قال والكلمات كسول على شفتيه:

ـ حتى نموت.

قالت:

ـ إنى خائفة. لا أدرى لماذا أنا خائفة. أشعر يا "مبروك" أن شيئاً ما سيحدث لنا. إنى أكاد أراه. إنه شىء كريه مزعج.

قال:

ـ يا شيخة صلى على النبى. إن الله موجود، والبركة فى الشيخ "أبو عوف". وقطعت "وردة" هذا الحديث الحزين، عندما هبت واقفة، وهى تقول لمبروك.

ـ لابد لى من تحية الناس. سأنسى نفسى معك، ولكن الواجب يا "مبروك".

وانطلقت كالغزال، وعيناه فى أثرها.

●●●

إن خرابة النداهة، قد تحولت هى الأخرى إلى شىء جديد لم تألفه من قبل فى حياتها.

الأتربة التى كانت تملأ ساحتها، وتهب كالدخان كلما جرى فيها الأطفال، قد هدأت وتداخلت، وقويت على الأقدام، فلم تعد تهب كالدخان أو كنتف القطن الأبيض، عندما يتطاير تحت ضربات المنجد.

بل إن أرض الخرابة قد اكتست بالحصير الملون المتنوع التقسيمات. وبعض أجزاء هذه الأرض، قد اكتست بما هو أغلى من الحصير. بالسجاد الأملس الناعم، الزاهى بألوانه وخطوطه.

وتلك الشقوق التى كانت تملأ بقايا جدران الخرابة، والتى كانت تثير خيالات الأطفال، بما يروى عنها من حكايات والأساطير، والتى كانت تهز قلوب الأطفال، بما كان يقال إنها تأوى الزواحف والحشرات. تلك الشقوق قد اختفت هى الأخرى وراء قماش مخطط جميل، مقسم إلى مربعات أو مستطيلات أو دوائر، مختلفة الألوان، يستعملونه فى إقامة السرادقات.

وأمام الخرابة عدد هائل من مواكب الطرق، وفدت لتشارك الشيخ "أبو عوف" فى الاحتفال بمولد "الشيخ" العبيط. وإنها لتكون أمام الخرابة حلقات للذكر والإنشاد، والتغنى بحب الله وحب رسوله وأنبيائه وأوليائه.

وعندما يرتفع بين هؤلاء صوت المنشد بنشيد رقيق عن مناقب الرسول أو الأولياء، ترتفع أصوات شتى من هنا ومن هناك، بالصلاة والسلام عليه، والحب لرسالته ولشخصه وللأولياء ورثة الأنبياء، ويستبد الانفعال ببعض المريدين، فيقومون بحركات عصبية لا يملكون فيها أنفسهم، ولا يسيطرون فيها على إرادتهم، فيتمرغون فى التراب، أو يقفزون فى الهواء، أو يتصايحون بكلام لا يفهمه أحد، ولا يهمه أن يفهمه.

وتسرى القشعريرة فى كل الأبدان التى تشهد المنظر، ويخيل إلى الناس أنها روح غريبة تحرك هذه الأجسام بهذه الحركات، وأنهم مجذوبون فى حب الله جذباً لا يستطيع أحد له دفعاً.

وتتردد على الشفاه ابتهالات خافتة، ويطل من العيون بريق. فى حين ترفرف أعلام الطرق فى الهواء، وتتحرك ذات اليمين وذات اليسار مع حركات حامليها وهم يشاركون فى ذكر أو إنشاد.

وبعض هؤلاء يلعبون بالسيوف، ويضربون هنا وهناك فلا تؤذى أحداً، ولا تسقط عنها قطرة واحدة من دماء.

وآخرون يلعبون بالنار، فتنزل النار فى حلوقهم برداً وسلاماً.

وآخرون يلعبون بالثعابين كأنها دمى، فلا تملك هذه الزواحف التى كانت تملأ قلوب الأطفال خوفاً وفزعاً، إلا أن تطيع.

وآخرون يأكلون الزجاج.

وآخرون ينامون على ألواح من الخشب تطل منها أطراف المسامير.

والناس ترى هذا وتعجب له، ولا تستطيع أمامه إلا أن تقرأ الفواتح لأولياء الله. وتسبح بنعمة الله. وتذكر لهؤلاء قدرات كسبوها ببركة أولياء الله.

وبين بريق السيوف اللامعة تحت أشعة الشمس، وحركات المجاذيب،وفحيح الثعابين وسحابات البخور، أخذت عيون أهل المنيرة تدور، فتدور معها رءوسهم، كالحيارى، أو كالسكارى.

وكان الشيخ "أبو عوف"، الولى الحى، هو موضع أحاديث الناس. إنه ليس صاحب المولد، ولكنه صاحب هذه الكرامة الكبرى، التى تحققت فى يوم وبعض يوم، فجمع هذا الحشد الهائل من الناس. يمرحون ويسمرون، ويأكلون ويشربون ويلعبون، ويذكرون وينشدون ويسبحون ويتمرغون ويقفزون ويتصايحون، وفى أجسامهم قشعريرة تخدر عقولهم، وتسكر عواطفهم، وتربت على إرادتهم كما تربت الحبيبة على خد العاشق المحروم.

●●●

وفى مثل هذه المناسبات ذات الزحام، يبدو لأول وهلة أن كل شىء هنا مكشوف.

الناس يتطلعون، كل منهم لأخيه، تحت وهج من النور، فلا يستطيع أحد أن يدارى شيئاً، أو يخفى عن الناس سراً. فى حين أن هذا الزحام فرصة مواتية، للأذكياء من المهربين، وكل المهربين أذكياء.

مهربوا الحشيش يندسون فى أشد مناطق الزحام كثافة، وأيديهم فى جيوبهم تمسك بأوراق صغيرة ملفوفة فى عناية وحذر.

وبينما الناس فى شغل شاغل بما هم فيه من مرح وفرح، وسعادة بهذه البركة السابغة تمتد أيديهم فى جيوبهم، لتخرج ورقة من هذه الأوراق، فتتسلمها يد ملهوفة، بعد أن تسلمها الثمن كريماً سخياً. هكذا فى سرعة كسرعة الحواة، وبلا مقدمات أو كلمات. تكفى الإشارات بابتسامات.

ومهربون آخرون. تخصصوا فى نوع آخر من المخدر، يدسونه للناس بهذه الطريقة أو بطريقة أخرى حسب الأحوال. إنهم مهربوا الأفيون.

وآخرون يهربون الهيروين.

ومن هؤلاء المهربين من يدارى هذه المصنوعات بلفها فى أوراق ناعمة براقة. كأنها حلوى.

ومنهم من يبيع حلوى حقيقية، وبين كل كمية منها لفة واحدة مميزة، يعرفها الزبون، تحوى حاجته.

وكما تكون هذه المناسبات فرصة مواتية للمهربين، فهى كذلك فرصة مواتية للنشالين.

يمدون أصابعهم فى خفة، ثم يعيدونها بحافظة نقود، دون أن يشعر أحد أو يتنبه إليهم أحد. وهم يشاركون الناس الفرجة على شىء فريد، وتعلو صيحاتهم أكثر مما تعلو صيحات الناس، وترتفع ضحكاتهم فتغطى على ضحكات الناس.

وفـريق آخـر من النشـالين، يتـخـصص فى نشل المجـوهرات من الأيدى، ومن حـول الرقـاب، وهم مـدربون على هذا حتى لا تشـعـر واحـدة ممن يقـعن فى حبائلهم بشىء. بل ربما ودعنهم بالبسمات والضحكات.

وفـريق غيـر هؤلاء وأولئك. يتخصص فى نشل ما فى حقائب السيدات من نقود أو مصوغات، وهؤلاء يعلمون فى أى جنب تكون حقائب كل صنف من النساء. اللائى يرتدين الملاية يمسكن الحقيبة بيد خاصة. وهؤلاء ممن تمردن إلى الفساتين، يمسكنها بيد. والبنات لهن طريقة والزوجات لهن طريقة. والريفيات لهن طريقة، وبنات البلد لهن طريقة. وهم يعرفون كل هذه الطرق والعادات، ويكيفون أنفسهم وفقاً للصيد الذى يقع تحت أيديهم.

صنف آخر من أصناف الخارجين على القانون، يجد فى الزحام - أى زحام - قصته. هؤلاء هم مروجو النقود المزيفة. تراهم هنا وهناك. يشترون من كل شىء، فيدفعون بالجنيهات أو الأوراق ذات الخمسة جنيهات. ليأخذوا الباقى فكة من النقود الحلال.

●●●

وللهوى أيضاً مكانه فى مناسبات الزحام.

مهربوه ونشالون ومروجوه.

ومـا كل هـوى بحـلال. والهـوى الحـلال لا يحتـاج إلى تهـريب أو نشل أو ترويج، إنما الهوى الحرام والمحروم، هو الذى يبحث عن فرص الزحام، ليجد وسيلته حام.

مهربوه ونشالون ومروجوه.

ومـا كل هـوى بحـلال. والهـوى الحـلال لا يحتـاج إلى تهـريب أو نشل أو ترويج، إنما الهوى الحرام والمحروم، هو الذى يبحث عن فرص الزحام، ليجد وسيلته إلى التعبير عن نفسه.

فتيات كثيرات، يمتنع عليهن الخروج الحر غير المقيد بمواعيد، إلا فى مثل هذه المناسبات.

الوالد القاسى، مهما تبلغ قسوته، يلين أمام الرغبة فى التبرك بالمولد الكريم، ويزداد لينه، عندما تأخذ زوجته فى إغرائه، بأن بركة الشيخ قد تصيبها، فيصل ابن حلال يستر عرضها.

وتخرج العذارى من الفتيات، غير مقيدات بالوقت أو المكان. إنهن ذاهبات إلى المولد، للزيارة والبركة ـ وهذا يكفى.

وهناك يلتقى المحروم بالمحروم، وتتلاقى النظرات فى لهفة، وتتعانق الأكف فى نشوة، وتتلامس الصدور. وقد تتلامس الشفاه فى سرعة كومض البرق.

وهناك يتناجى الفتى والفتاة، ويشكو هو من هجرها، وتشكو هى من عينيه الزائغتين فى بنت أخرى من بنات الحى، وتنتهى الشكوى بقسم غليظ أن يحيا كلاهما للآخر إلى الأبد.

وهناك يشترى العاشق المحروم لفتاته ذات الدلال، طبقاً من الكسكسى، أو كوباً من الخروب، أو يسد فمها بقطعة من سد الحنك.

وهناك قد يركبان المراجيح، أو يلعبان لعبة من لعب الحظ، ويتبادلان ضحكات ملؤها السعادة والبهجة والتفاؤل.

ولا خوف عليهما. الساحة كلها ناس، فإن جاءهما الرقيب، ولو كان هو والدها نفسه فإن من السهل عليهما أن يتظاهرا بالبراءة، وأن تلوى هى عنقها إلى بعيد، ويدير هو ظهره إليها، كأنما ليس بينهما كلام، ولا هيام.

ومن عشاق الزحام، من هم أكثر جرأة من هؤلاء. إنهم يبحثون عن مكان مظلم، بعيد عن الزحام، وهما واثقان أن كل الناس ممن يقصدون المولد. لا يعبأون بمثل هذا المكان. لا ينظرون إليه، ولا يلتفتون نحوه، ولا يعيرونه أى اهتمام. وهناك فى غفلة عن العيون وعن الأنظار يختليان، ليقول كل منهما للآخر كلاماً معاداً ومكرراً، ولكنه لا يفقد جماله أبداً كوجبات الطعام، تتكرر كل يوم، وتتكرر فى اليوم الواحد مرات، فيزداد أثرها فى حياة الناس.

وآخرون، أكثر جرأة من هؤلاء. إنهم يتركون هذه الأماكن كلها، ليذهبوا بصاحباتهم إلى حفلات السينما أو إلى حدائق بعيدة جداً عن هذا المكان، هاربين بهواهم من الزحام.

●●●

وكما أن للهوى مهربين، يجدون فرصتهم من هذا الزحام، فإن للهوى أيضاً نشالين دربوا على هذا النوع من الهوى المنشول، بدرجات.

وأغلب نشالى الهوى، ليسوا ممن يرتبطون بغرام بعينه، إنهم يخرجون إلى أماكن الزحام يتصيدون الهوى، من قلوب ساذجة نيئة، يبهرها الكلام المعسول، أو عيون أطفالها الحرمان، فأخذت تتطلع إلى فرصة تعيد البريق إلى مقلتيها، أو أعواد ملفوفة فى براعة يفوح منها الإغراء فيسيل اللعاب.

إنهم لا يعرفون التوحيد فى الحب، ويقولون فى تظرف إن التوحيد لله وحده. صاحب الجلال. والتوحيد فى الحب، نوع من الشرك بالله، فيما أمر أن يكون لذاته.

بل هم لا يعرفون الحب على إطلاق. أبداً، بل يقولون عن أنفسهم إن لكل واحد فى الناس شبيهاً من الحيوان، والذين يشبهون الحمار، يكتسبون طبيعة الحمار، وخلق الحمار، ولو أنهم نهقوا لما كان هناك فرق بين نهيقهم ونهيق الحمير. والذين يشبهون الجاموس، يأخذون أخلاق الجاموس، ويحذون فى سلوكهم مع الناس، سلوك الجاموس،والذين يشبهون الخنزير، لا يفترقون عن الخنازير فى كثير. أما هم، فإنهم طيور. عصافير أو حمام، يطيرون من فينة إلى فينة، ومن غصن إلى غصن، ومن زهرة إلى زهرة، بالألحان والتغريد. يستمتعون بكل جو، ويمتصون كل رحيق، ويصبحون فى الصباح على غير ما كانوا فيه فى المساء.

ولا يعترف هذا الفريق من الناس، أنهم نشالون أبداً. إنهم متحررون لا نشالون !

إنهم يكثرون فى هذا الزحام، وفى كل زحام.

وهم يعرفون مواسم الزحام، ويحفظونها عن ظهر قلب.

شم النسيم فى حديقة الحيوان، وعيد الفطر فى القناطر الخيرية، ووفاء النيل فى الجزيرة، واحتفال المحمل فى العباسية، والموالد المختلفة فى القاهرة والإسكندرية وطنطا ودسوق، ومناسبات أخرى يعرفونها هم، ولا ينسونها أبداً.

وهؤلاء يزعمون أنهم يعرفون ـ بمجرد النظرة السريعة ـ الصيد الذى ينصبون له الشباك. لا تهمهم مظاهر بعينها. لا يهمهم الملبس. قد تكون واحدة فى ملابس طويلة تجرجر أذيالها، ومع هذا يعرفونها، ويحيطون بها. ولا يهمهم المظهر. من يدرى؟ كم من واحدة تجردت من الزينة، وهى أطوع من التى تصبغ وجهها بالأصباغ ! ولا يهمهم السن. رب عجوز فى آخر أيام الشباب، أشد تمسكاً بزوات الشباب من الشابات !

والجولة عادة فى عمليات النشل هذه، تبدأ بنظرة سريعة يطلقها النشال، يدور بها هنا وهناك، محاولا أن يفحص بها الجو الذى يحيط به. إن عليه أن يتبين الأرض قبل أن تطأها قدماه، وإذا كان هدفه زهرة جميلة يانعة، فعلية أن يحسب حساب الشوك فلا يدمى قدميه، بل حساب زواحف الأرض، فلا تؤذى خطاه. لهذا لا يكتفى بنظرة إلى الحسان. لا إنما عليه أن يتطلع كذلك إلى غير الحسان، فقد تكون بينهن والدة أو قريبة أو مربية تفتك به فتكاً إذا اقترب من الحرم الحرام. وعليه كذلك أن يتطلع إلى الرجال ليرى مدى انشغالهم عنه بما فى الزحام من ألعاب ومغريات، فإن وجد واحداً يتطلع مثلما يتطلع هو، أو يتفرس فى الناس مثلما يفعل، فإنه واحد من اثنين: إما رجل يحرس حريماً له من عيون الرجال، أو نشالا مثله يبحث عن صيد يملأ به فراغ نفسه الولهى الشغوفة بمثل هذه الحياة.

فإذا أطمأن إلى الجو الذى يحيط به، أخذ يدير نظراته هنا وهناك، فى بحث عن عينين زائغتين مثل عينيه، أو ساذجتين تدخل عليهما وسائل الخداع.

●●●

كذلك تشهد فرص الزحام هذه نوعاً من ترويج العملة البشرية الزائفة.

رجال على شفاههم ابتسامات باهتة، تخصصوا فى ترويج هذه العملات.

إنهم يعرضون بضاعتهم على من يشتريها. وهم كذلك مجربون وأذكياء، لا يعرضون بضاعتهم إلا على من يعرفون أنه قابل للإغراء.

والبضاعة التى يعرضونها متنوعة الأشكال، والأحجام والنوع، ولكنها تلتقى فى صفة واحدة: أنها مزيفة.

تراهم هنا وهناك يبتسمون فى فجر خبيث، ويديرون مع الناس الأحاديث، فإذا ما اكتشفوا حاجتهم من الزبائن، عرضوا البضاعة، وأخذوا يحلونها بالكلام المعسول.

وأغلب من يتصيدون من الشباب. التلاميذ الصغار. الموظفين. عساكر الاحتلال. ممن تتفجر الرغبة من أجسامهم، وتكاد تعصف بكيانهم. ولا بأس من شيخ عجوز محروم، إذا كان مستعداً لدفع الحساب.

كذلك نجد بين مروجى هذه البضاعة المزيفة نساء، تختلف مظاهرهن باختلاف مستويات زبائنهن.

وهن قد يتخذن من الجفاف أسلوباً لعرض ما لديهن من عمله مزيفة. وعندما تحين الفرصة يتحول هذا الجفاف إلى طراوة سهلة، تعرض بضاعتها على من يريد.

وما أقسى أن تراهن، فى ابتذال مهين، يبحثن عن لقمة عيش جافة، من هذا الطريق الحرام.

وما أشق أن تلاحظهن وهن فى عدو ذليل، وراء رغبة مكبوتة تبحث عن فرصة للانفجار.

وهن يرتدين الثوب الوحيد الذى يمتلكنه، ويحافظن عليه من عاديات الزمن، لأنه بألوانه الزاهية، وحبكته على الجسم المتهالك، واجهة الدكان.

وهن يحتذين الحذاء الوحيد الذى يرتدينه ويحطنه بكل أنواع الترقيع، حتى يظل إحدى وسائلهن إلى تقديم أنفسهن إلى ثغرات الضمير.

وهن يشعلن سيجارة من السجائر، يحرق دخانها صدورهن فى غير رحمة، وتمزق أنفاسها أجوافهن الخاوية، حتى يعلن عن أنفسهن، عندما يحتجن إلى هذا الإعلان.

إن هذا الترويج للعملات البشرية الزائفة له أكثر من أسلوب.

فإن يكن عن طريق الرجال، فالأسلوب يختلف عنه إذا كان الترويج مباشراً بغير وسيط.

ولكنه على أى حال أحد عناصر الزحام.

●●●

ما أذكاها هذه الحرامية: "ناعسة الحرامية" !

إنها هناك فى أحد الأركان البعيدة عن الصخب، قد انسابت كالنبع الصافى، فى عواطف سخية مع واحد من رواد المولد.

أليست حرامية؟

إنها تتكىء بجسمها الفائر على جدار قديم، وتترك ملاءتها تتدلى حول خصرها البديع، وتتلوى فى نشوة ما تسمع من كلام، وشعرها يطل من منديل رأسها الأحمر المشغول، وفمها يتحرك باللادن، وابتسامة عذبة قد استقرت على شفتيها.

والرجل الذى وقع فى حبائلها مستند إلى الجدار بجوارها، يكاد من فرط إغرائها أن يأكلها أكلا. إنه يمضى معها فى حديث شهى هامس:

- وأنت من المنيرة. غير معقول. أنت من السماء.

- قمر أم نجمة؟

- قمر الأقمار، ونجمة النجوم.

- وربما النجمة أم ذيل؟

- النجمة أم ذيل، تضىء ضوءاً سريعاً ثم تنطفئ، وأنت نور دائم. أنت... د

- كلوب ! ...حتى الكلوبات تنطفئ يا حضرة.

- لكنك شىء آخر ...ما اسمك؟

ـ وماذا تريد من اسمى؟

ـ لأتشرف.

ـ ربنا يشرف مقدارك.

ـ والنبى قولى لى ما اسمك؟

ـ لماذا؟ تريد أن تتزوجنى؟

ـ يا ليت. هذه ساعة المنى.

ـ وأنت لم تتزوج؟

ـ ومهما كنت متزوجاً ...أنا أبيع الدنيا كلها لأتزوجك.

ـ اعقل يا رجل.

ـ والله أطلق زوجتى وأتزوجك، الآن، إذا أردت.

ـ هكذا وأنا على ذمة رجل!

ـ أنت متزوجة؟

ـ طبعاً. فتح عينيك. عرجاء؟ عرجاء؟ ناقصة أصبع؟ لماذا لا أتزوج؟ ألا أزال أرضع؟

ـ نعم لا تزالين ترضعين.

ـ اسم الله. أرضع ...أرضع ماذا؟

ـ قلبى ...حياتى...ارضعيها. من فضلك ارضعيها.

ـ هل صحيح تحبنى؟

ـ أحبك؟ أنا...

ـ إذن إياك أن تتركنى. اسمع لا تتحدث إلى، فقد يراك زوجى، لكن كن دائماً إلى جوارى. قد أحتاج إليك.

- رقبتى.

- إذن اتفقنا. إياك. تعال ورائى، ولا تختف عنى أبداً، خصوصاً عندما يتحرك الموكب.

●●●

حتى "زبيدة البطة" وجدت هى الأخرى مجالا لهواها.

إنها تقف فى ركن آخر، مع رجل يملأ سمعها بالغزل المكشوف.

والبطة تترنح من فرط ما تشعر به من الرضى عن نفسها وعن جمالها.

والرجل ماض فى حديث عن خفتها وكيف أن جسمها هذا البض هو فتنة الرجال.

وتضحك زبيدة فى سذاجة طيبة فيهتز جسمها البض كموجات متئدة قرب الشاطئ.

إنها تقول فى دلال:

- إن كل الرجال الآن يحبون النساء النحيفات. إنهم يفضلونها كعود الخيرزان. أما أنا فكما ترانى سمينة.. أنا اسمى البطة.

ويرد الرجل فى غزل مكشوف:

- وهل هناك ألذ من البط بين المأكولات؟ إن النحيفات كالعظام، يلقونها للقطط والكلاب. أما طعام الرجال، فشىء كهذا، تغوص فيه الأسنان فتنهشه نهشاً، وتلوكه الشفتان منه أبداً.

- يا شيخ أنت تبالغ. ألست رجلا ككل الرجال؟

- رجل ذواقة، أعرف مذاق النساء. أنا لا أريد واحدة لأذهب بها إلى السينما. أنا لست من هؤلاء الأفندية المحدثين. أنا أريد لنفسى لا للناس. وأنت المزاح الذى أحلم به ليل نهار.

- وهل هذا الكلام، يخرج من قلبك؟

- يا ستى من قلبى، ومن جسمى كله، ومن أعصابى.

ـ لكن لماذا لم تيأس منى عندما صددتك.

ـ لأنى أعلم أن قلبك الطيب، لن يظل مغلقاً فى وجه العاشق الولهان.

ـ لكنك أحرجتنى أمام أبناء المنيرة.

ـ أنا أحب المنيرة، ونساء المنيرة.

ـ ومن أين أنت؟

ـ كنت من الدرب الأحمر، ومنذ اليوم أنا على استعداد لأن أصبح من أبناء المنيرة.

ـ كيف هذا؟

ـ بحكم قلبى. بحكم روحى. بحكم هذا الجمال.

ـ يا خبيث. كم مرة قلت هذا الكلام؟ ولكم امرأة؟

ـ لم يرد من قبل على لسانى، لأنى لم ألتق بواحدة مثلك من قبل.

ـ والله كذاب. وقد قلته عشرات المرات وستقوله بعد ذلك عشرات المرات.

ـ أنا..أنا....أنت تشكين فى؟

ـ اسمع، هذه ليلة مفترجة، والصدقة فيها واجبة. وهذه صدقتى إليك.

ـ لكنها قليلة.

ـ ماذا تريد؟

ـ صدقة بالمعنى الصحيح. شيئاً يطفئ ما فى قلبى من نار.

ـ يا طماع.

ـ يا بخيلة.

ـ على كل حال. سنرى بعد الموكب. المهم ألا تبعد عن نظرى. لتكن دائماً قريباً منى.

ـ أنا عبدك المطيع يا ست الحسن والجمال.

●●●

هذه "وردة النقرزان"، تدور بين أجزاء المولد كالديدبان.

إنها القوة المدبرة التى جمعت هذا الحشد من الناس، وواجبها أن تكمل رسالتها.

وهى تمر على الباعة هنا وهناك، فترتفع صيحاتهم مرحبة بها، ويقسم كل بائع أن تذوق مما قملته يداه.

لا يا معلمة ...لا يجوز...لابد من أن تذوقى هذا.

وتتناول المعلمة طبق الكسكسى، وتبتلع منه ملعقة، ثم تناوله لمن حولها من المعجبين وهى تقول:

- سلمت أياديك يا معلم. أن شاء الله نجاملك فى الأفراح. ربنا يزيد المحبة بين الناس.

وتمضى إلى بائع آخر فترتفع الصيحة :

- لا يا معلمة ...لا يجوز..من يذوق هذا الكشرى، إذا لم تذوقيه أنت؟ وتمد يدها إلى طبق الكشرى، لتزدرد ملعقة، وتناوله بعد ذلك للذين حولها وهى تقول :

- شيء عظيم يا أسطى باشا. والله ما ذقت مثله طول حياتى. ربنا يبارك لنا فيك، وفى أياديك الذهب هذه. كل عام وأنت طيب. السنة القادمة نحضر زفاف العرسان إن شاء الله.

وتمضى إلى بائع ثالث.

وهى هنا تتناول كوباً من العرقسوس.

وهناك تشرب كوباً من التمر هندى.

ولا بأس أن تأخذ قطعة من غزل البنات، أو واحدة من حلاوة سد الحنك، أو نبوتاً من نبابيت الخفير.

وعند المراجيح تقف المعلمة، فيلتف حولها جمع غفير، وتأخذ فى مراقبة اللاعبين من الشباب وهى تشجع هذا وتدفع ذلك على أن ينافس زميله، والضحكات تملأ الوجوه، والسعادة تغمر قلوب رجال الحى ونسائه.

وتشارك المعلمة فى ألعاب الحظ، وتسخو فى العطاء للصبيان الذين يعملون فى هذه الألعاب، فيودعونها بالدعاء لها أن يطيل الله فى عمرها، لتنظم هذا المولد كل عام.

وعند الملاهى تتفرج على المغنين والمغنيات، والمنشدين والمنشدات، وتداعب الراقصين والراقصات مداعبات مكشوفة فى كثير من الأحيان، والرجال يتقربون إليها ويلتمسون دعابة من دعاباتها.

وتترك "وردة النقرزان" هذه الحشود، وتذهب إلى حيث يكون رجال الطرق قد نظموا الحلقات فتشهد ذكرهم، وتسمع إلى إنشادهم، وترقب الحركات والانفعالات، وهى تصلى على النبى.

وتهتم المعلمة بتأمين المولد والوافدين على المولد من أنحاء القاهرة.

إنها تعرف خيرات المولد، ولكنها تعرف كذلك أن ابن الحرام، لم يترك شيئاً لابن الحلال.

ويعز على المعلمة أن يحدث فى هذا المولد، ما يكدر الصفو أو يسىء إلى أحد.

وهى لهذا تتفحص الوجوه.

إن فيها ذكاء طبيعياً يمكنها من معرفة الناس من وجوههم ومن حركاتهم ومن نظراتهم، وهى تريد أن تمنع عن الناس الأذى. لا تريد أن يهرب فى المولد ممنوعات، أو ينشل الناس، أو يقع أحد فريسة مروجى العملات الزائفة.

إنها بوليس الآداب فى هذا المولد، وحولها عدد من رجال الحى، على استعداد لتنفيذ ما تطلبه فى الحال.

وتتوقف المعلمة عند مجموعة من مجموعات الزحام، وتغمر بعينيها لواحد من رجالها، ليتعقب واحداً تشير إليه. ولا تمضى دقائق حتى يرتفع صياح:

- أبداً ...أنا لم أفعل شيئاً، لا والله. لابد أنه كان شخصاً آخر.

وفى لمح البصر يختنق الصياح، بعد أن يكون صاحب الصياح فى طريقه إلى قهوة المعلمة مشدوداً من قفاه.

وعند مجموعة أخرى تشير إلى آخر، فيتكرر معه ما تكرر مع صاحبه، وهكذا تنظف المولد من الرجال الخطرين على أمنه، وأمن رواده الوافدين إليه.

وبينما هى فى الطريق إلى القهوة لتحاسب هؤلاء المهربين والنشالين ومروجى العملات الفاسدة، يقول لها الرجال:

ـ وهؤلاء يا معلمة ألا ترين الغرام على أشده.

وتجيب فى صوت حنون:

ـ لا...اتركوا هؤلاء. إنهم لا يؤذون أحداً. عشاق؟ أليس كذلك؟ الله جميل يحب الجمال.

وتضحك ويضحك الرجال حولها وهم يقولون:

ـ نحن نقول هذا، وننشد العشق، لكن العشق لا يريد.

ولا تتركهم يلقون إليها الكلام فى ألغاز، فترد عليهم:

ـ حينما يجد العشق فيكم رجلا واحداً. عندها يرضى ويلين.

ويهمهم الرجال فى أصوات متداخلة تظهر منها جمل وكلمات:

ـ الله ...لا...لا...الرجال موجودون ....والله موجودون. جربى يا معلمة.

وتمضى فى مقدمتهم غير عابئة بواحد منهم.

إن "وردة النقرزان" تقول هذا، وهى تغالط نفسها.

إنها تكاد تتأوه من فرط ما تعانى من حرمان.

إنها تود لو استطاعت فى هذه اللحظات أن تختلى بنفسها لتبكى.

●●●

هنا فى ساحة المولد، يختفى الهوى بين الزحام، أو يغطيه الزحام. وهؤلاء الذين يتلاقون بعيداً عن فضول الناس، ليتبادلوا كلمات سريعة، وتنهدات ولهى، كم انتظروا

حتى يتم هذا اللقاء؟! وكيف عاشوا أياماً وليالى ينتظرون هذا اللقاء على أحر من الجمر؟! كم سهروا والسهر يضنيهم؟! كم فزعوا بالليل والدنيا تنام؟! وماذا كان شعورهم وهم يعدون الزمن بالدقائق والثوانى يتعجلون بذلك لحظات اللقاء؟ لقد فاجأهم هذا المولد بفرصة جديدة سريعة، فهزت المفاجأة كل تقديراتهم. وهاهم أولاء يتقابلون ليطفئوا ما فى قلوبهم من سعير. كم هم سعداء، هؤلاء وهؤلاء؟

وهنا فى ساحة المولد، يلتقى أصحاب الهوى الطائش، ليرفهوا عن أنفسهم، ثم ينسون ما كان بينهم من مغامرات. ما أحلى اللحظات التى ينسون فيها أنفسهم.

وهنا كذلك هوى حرام..يباع لمن يشتريه. فماذا عمن لا يملك أن يشترى أو يبيع؟

آه يا "وردة" مما أنت فيه من ضيق. آه منك ! وآه لك ! لقد كتب عليك أن تعيشى هكذا كأراضى الأوقاف لا يتصرف فيك إلا الزمن، وبالإفساد والفساد والهلاك.

لكن متى تتحررين يا بنت من هذا الحرمان؟ وكيف؟

إن "مبروك الحنطور" يحبك وأنت تحبينه. هل يا ترى تتصرفان كما يتصرف هؤلاء العشاق؟ وماذا يكون المصير؟ لا يا بنت. لا...إن فى رقبتك أمانة من واجبك أن تحترميها. اهلكى يا "وردة" أو اذبلى، ولكن لا تقتلى نفسين آلت إليك مصايرهما فى هذه الحياة. إن "مبروك" يعرف هذه الظروف، وقد ضاق بها أول الأمر، وألح فى تحدى الظروف، فلما أدرك دقة ما تشعرين به احترم موقفك، وقبلك كما أنت. اكتفى بحبك الصامت المقهور. هل يا ترى تسيرين بهذا الحب نحو ..نحو ماذا يا "وردة"؟ هل جننت؟ هل طاش منك الصواب؟ لا لا ...لابد من أن يعيش هذا الحب نقياً طاهراً لا تلوثه السموم. آه لك منه لو انحرف ! آه لك منه لو دنسته الرغبات والشهوات ! هل تضمنين بعدها نفسك من الانزلاق؟ بل هل تضمنين بعدها "مبروك الحنطور"؟ اسكتى وليخرس هذا النداء الفاسد الشرير.

●●●

وتصل "وردة النقرزان" إلى القهوة، فتجد المشبوهين من المهربين والنشالين ومروجى العملات الزائفة مرصوصين فى مدخل القهوة.

وإنها لتصل مجهدة، من شدة ما قاست من انفعالات.

لكنها تشد عودها الفارع فى تحد واستعلاء، وتستعيد ما فيها من روح الاسترجال، فتعود كما كانت، وما ألفه أبناء الحى من "وردة النقرزان".

وتنظر إلى الطابور المرصوص فى تأمل ثم تقول ساخرة:

ـ ما شاء الله. لم تجدوا إلا مولد الشيخ العبيط وكراً لألاعيبكم. والله لا أكون "وردة"، المعلمة "وردة"، إن لم أقض عليكم جميعاً. أنا التى نظمن هذه الحشود. أنا التى دعوت كل هؤلاء الرجال. هل استدرجتهم إلى هنا لتسرقوهم؟ لتخدروهم؟ لتنشلوهم؟ لتضحكوا على ذقونهم؟ أنا مسئولة عن كل شىء يحدث هنا. كلمة واحدة، بعدها إما أنا أو أنتم. تسحبون صبيانكم حالا، وتغادرون المولد بلا رجعة، وإلا فبينى وبينكم الأيام. ولماذا الأيام؟ اليوم يا رجال. أنا "وردة". هل تعرفون من هى "وردة"؟ هيا. اتركوهم.

ـ وتركهم الرجال بعد أن أخذوا يقسمون إنهم ذاهبون، ولن يعودوا بعد ذلك ابداً.

إنهم يعرفون أن "وردة" تستطيع أن تدخلهم جميعاً السجون، وهم يفضلون أن يخسروا مكسب هذا المولد، ولا يخسرون إلى أمد طويل.

●●●

الشيخ فى خلوته. إنه يتعبد ويتهجد، ويسبح بذكر الله.

لابد أنه فى حالة روحية عالية. إن روحه شفافة، يرى عن طريقها بلا حجاب.

إن الرجل واصل إلى الله، وإلى النبى، وإلى الأولياء الصالحين.

إنه الآن فى حالة مناجاة لله ولرسوله. بل ربما عنده الآن المشايخ جميعاً.

خاصة الشيخ العبيط أيضاً. لابد أنه يزوره الآن ليبارك جهوده فى إحياء مولده بعد أن كاد الناس ينسونه، ولا يذكرون عنه شيئاً.

يا رب وفق الشيخ "أبو عوف"، وأجب دعواته لنا نحن مريديه.

ويا رب أطل بقاءه بيننا فقد كنا بدونه يتامى، لا يحنو علينا أحد.

ما أجمل وجه الشيخة "تفيدة". إنها قطعة نورانية من بركة الله.

إن شفتيها لا تسكتان أبداً عن التسبيح بحمد الله.

إنها هدية الله لولى الله.

اللهم اجعل لهما ذرية صالحة، لتحمل عنهما هذه الولاية وهذه الهداية إلى الناس.

لماذا تأخر الشيخ والشيخة؟ لقد طالت علينا غيبتهما.

ألم تسمع أنهما فى الخلوة يتعبدان؟

أليس معهما أحد من المريدين؟

بل معهما بعض المريدين. إن الشيخ رجل كبير القلب. إنه رجل رقيق حساس. إنه يعتبرنا جزءاً منه. أما المريدون الغرباء القادمون إلى المنيرة للمشاركة فى المولد، فإنه يقربهم إليه، ليزيدهم هداية وبركة. إنهم معه الآن.

ولكن الوقت يتقدم بنا. إننا قد صلينا المغرب، وعلينا أن نصلى العشاء فى جامع الشيخ العبيط.

وسيأخذ الموكب وقتنا.

ألا ترى هذه الحشود؟ ألا ترى خلفاء الطرق؟ ألا ترى هذه الحلقات؟ كل هؤلاء الناس قد استعدوا ليبدأ الموكب مسيره.

لقد تحول الليل إلى نهار. مدد يا سيدى يا "أبو عوف".

هل كان أحد يتصور أن تصل الكرامة إلى هذا الحد؟ لقد فرض الظلام على المدينة كلها، إلا هنا، فقد اشتعلت المنيرة اليوم بالكلوبات.

هذا نور الله.

نور ولى الله.

نور الإيمان ينبعث من قلوب مؤمنة، هداها الله.

وبينما كانت هذه الأحاديث تدور حول خرابة النداهة، كان الشيخ فى حجرته، مجتمعاً بعدد من أعضاء الجمعيات الوطنية.

لم تكن العمامة الضخمة الخضراء فوق رأسه.

لم تكن لحيته طويلة مرسلة.

لم تكن المسبحة تتدلى من بين أصابعه.

لا، ولم تكن عيناه مسبلتين فى تقوى وخشوع.

بل كان شاباً فتياً جميلا، تلمع عيناه ببريق من الحماسة والإيمان، وتنطلق كلماته من بين شفتيه تهتزان من دقة الموقف وشدة الانفعال.

كان واقفاً كالنمر، يروح ويجىء فى الحجرة، وهو يراجع الخطة النهائية، ويناقش كل الاحتمالات، ويحلل ما ذاع من أنباء.

وكانت "مديحة" جالسة فى ركن الحجرة تتابع هذه المناقشات، وعيناها هى الأخرى تلمعان بالأمل وبالرجاء فى أن يكون آخر هذا المطاف لقاء حنوناً مع حبيبها المسكين، بعد أن تنقذه هذه الإرادة من رحلة الموت.

لم تكن الطرحة البيضاء فوق رأسها، ولا الصمت الوقور يغطى وجهها، ولا المسبحة الطويلة تمتد إلى قدميها. بل كانت وضاءة كالنور، مشرقة كزهور الصباح، جميلة فاتنة، بعينيها الساحرتين الوادعتين. وكانت مع ذلك متدفقة كالسيل، متقدة كالوهج، مندفعة كالتيار.

كانت تناقش كل شىء، وتبدى ملاحظات ذكية منطوية على كثير من الخبرة والتجربة. وكان الجميع ينصتون إليها فى احترام.

إنهم يحترمون وطنيتها، وخبرتها، ويحترمون كذلك حبها لـ "ممدوح" البطل.

وهى بعد فتاة رشيقة، فى عينيها شىء لا يستطيع أن يقاومه الرجال.

إن واحداً لا يستطيع أن يطيل النظر إليها، فسرعان ما يخفض عينيه حتى لا يخر صريعاً لما فى عينيها من السحر والفتنة والإغراء.

وشباب كثيرون كانوا يتناثرون فى أركان الغرفة، أو الخلوة كما يقول المريدون. تفاوتت أعمارهم وأعمالهم، والتقت إرادتهم حول شىء واحد، أن يصونوا كرامة هذا الوطن، بالحديد، بالدم، بالتضحية، بالنار.

وبعد أن استقر الرأى حول الخطة النهائية، نظر "جلال" فى ساعته، ثم قال:

ـ الآن نبدأ على بركة الله. لاحظوا أن أى خطأ قد يحدث، سيجرنا جميعاً إلى مذبحة وسنكون نحن الخاسرين. لاحظوا أن اليقظة والانتباه هى أهم ما ينبغى أن يتميز به الفدائى وهو يواجه قوات ضخمة كهذه القوات، فى ظروف صعبة كهذه الظروف. لاحظوا أننا سنقوم بعمل جنونى. فسنخطف واحداً من بين أنياب الأسد البريطانى. إننا نريد أن نثبت لهذا الأسد المتهالك أننا لا نخاف، وأن واحداً منا أعز علينا من كل ما نبذل من أجله من تضحيات، وأننا على استعداد لأن نلوى ذيله، لنجعله سخرية الدنيا وضحكة يتندر بها الرجال والنساء والأطفال. ونحن قلة، ونحن ضعاف، وهذا السلاح المحدود الذى نخفيه بين طيات ملابسنا لا يساوى شيئاً أمام ما يملكون هم من العتاد. يا رجال يا أبطال هيا بنا، وعلى بركة الله.

ومد "جلال" يده، فسحب عمامته وجبته ومسبحته. ولبس لحيته البيضاء الطويلة.

على حين وضعت "مديحة" الطرحة فوق رأسها، وأخذت تداعب حبات المسبحة بأصابعها.

ثم التفت "جلال" إلى الشباب المتناثر فى الغرفة، وكانوا قد هبوا واقفين وقال مازحاً:

ـ هل تروننى شيخاً محترماً؟ سأحقق لكم اليوم كرامة يتحدث عنها الناس.

وضحك الأصدقاء.

ثم عاد ينظر إلى "مديحة" وهو يقول:

- هيا يا ستى، يا ست الشيخة "تفيدة". ربنا يجعلنا من بركاتك.

وفتح الباب، فكان هذا إيذاناً بخروج الشيخ.

وعلى الأثر، ارتفعت صيحات المريدين من كل جانب، فى انفعال محموم:

- مدد.. مدد.. يا سيدى "أبو عوف" مدد.. نظرة لله يا سيدى.. بركاتك يا سيدى.. مدد.. مدد.

وخطا الشيخ فى وقار، وعيناه مسبلتان فى تقوى، وشفتاه ترددان آيات من كتاب الله، وعبارات التسبيح لله العلى المتعال.

وخرجت الشيخة "تفيدة" فى استحياء، وعيناها فى قدميها، لا ترفعهما أبداً إلا خلسة وتلصصاً، والمسبحة الطويلة تكاد تقبل الأرض الطيبة.

وبدأ الموكب يسير، يتقدمه حملة الأعلام المختلفة الأشكال والألوان، ثم فرق الإنشاد تطلق حناجرها بالتغنى فى قدرة الله وجمال نبيه عليه صلوات الله فتهز الطرقات هزاً، وتهز قلوب الناس قبل أن تهز هذه الطرقات، ثم فريق من المريدين يحملون منافذ البخور، حيث تمتلئ بقطع الجمر، وفوقها بخور ينطلق فى دخان جميل متموج ومتعرج، وينفذ إلى الأنوف، فيخدر الأعصاب. ثم حلقات الذكر حيث تتماسك الأيدى، فتكون حلقة مستطيلة فى وسطها خليفة من الخلفاء يصفق للذاكرين وهو يقودهم إلى ذكر رتيب منتظم. وتتكرر هذه الحلقات واحدة وراء واحدة، لتنتهى بفريق آخر يحمل أعلاماً أخرى مختلفة الأشكال، ثم بعض المريدين يحملون منافذ أخرى للبخور، ثم حلقة الشيخ "أبو عوف"، وهى مكونة من المختارين من المريدين ذوى الوقار والجلال، يذكرون الله فى إيمان، وتتمايل أجسامهم بمقدار. والشيخ يحيط به عدد من أصفيائه يسير مسبلا عينيه، محركاً شفتيه، لا يتلفت ذات يمين أو ذات يسار، ثم حلقة صغيرة للشيخة "تفيدة" وحولها بعض المريدات، يتأخرون عن موكب الرجال، حتى لتحس أنهن متفرجات.

وحملة الكلوبات والمشاعل والقناديل والشموع، يحيطون بالموكب من كل جانب، ويتكاثرون حول حلقة الشيخ، حتى ليتحول هذا الظلام إلى وهج ساطع.

إنها كرامة جديدة للشيخ أن يتحول هذا الحى من القاهرة فى هذه الظروف إلى قطعة من نور.

إن سكان البيوت يطلون ليروا هذا الحدث الذى لم يألفوه من أمد طال، والسائرون فى الطرقات يتجمعون، وقد تطاولت أعناقهم يحاولون أن يعرفوا ما الخبر.

وتستبد الفرحة بالرجال، فينضم فريق منهم إلى الموكب يذكرون الله.

وتستبد النشوة بالنساء، فتنطلق أفواههن بالزغاريد تحيى هذا الموكب العظيم.

وتقف السيارت حتى يمر الموكب، وتقف عربات الترام فى شارع قصر العينى، ويزدحم الطريق زحاماً شديداً كأنه يوم الحشر.

و "وردة" و"مبروك" و"ناعسة" و "زبيدة" ورجال الحى يرشون الملح على الموكب، خاصة حلقة الشيخ ليبعدوا عنه عيون الحساد، فتندفع البيوت ترش بدورها هذا الملح مشاركة فى تحية الذاكرين .

وعندما يتجاوز الموكب تقاطع شارع قصر العينى بشارع المبتديان بلحظات، تكون الجماهير قد تجمعت ويكون الترام قد فصل يمين الطريق عن اليسار، وتكون السيارات وعربات الحنطور وعربات الباعة قد سدت كل مسلك وتتحول الدنيا إلى ما يشبه يوم الحشر.

عندئذ تنطلق أجراس قادمة من بعيد.

إنها أجراس سيارة الإسعاف. إن الحادثة قد نفذت بالفعل.

عن اللحظة تقترب. إن الانفجار على وشك الوقوع.

ويكون الاتفاق أن يرقب أحد الشبان الموقف، ليحدد الزمن تماماً.

ولقد أخذ الفتى الذى عن يسار الشيخ يطل على الجانب الآخر من الطريق، فلما استبطأ دعوة الشيخ لمباركة المصاب، اضطربت أعصابه، وخشى أن تفشل الخطة. ثم رأى سيارتين حربيتين إنجليزيتين تقفان فى الجانب الآخر من الطريق، فأدرك على الفور أنه "ممدوح" بين الجنود الذين حشروا فيهما، ليساقوا إلى حتف مرسوم.

عندئذ أمسك بذراع الشيخ لا يدرى كيف تبدأ المغامرة.

ومرت لحظة ثقيلة، ثم انطلق صوت عال يستغيث:

- يا مسلمين. يا مصريين. هذا العسكرى الإنجليزى السكران يعتدى على. إنه يحاول أن يغتصبنى؟ هل يرضيكم هذا؟ أنتم تذكرون الله وتطلقون حناجركم بالصلاة على النبى، وهذا واحد ينتهك أعراضكم. يا ناس. هذا حرام. أنتم رجال. انقذونى منه.

وتضطرب الصفوف. ويخرج بعض الرجال من حلقات الذكر، ليتبينوا الموقف.

ثم تتعالى بعد ذلك الأصوات.

إن المعركة قد بدأت. لقد غير الأبطال الذين نفذوها خطة العمل وفقاً للظروف.

وتنطفىء الأنوار. حملة الكلوبات يحطمونها وحملة الشموع يطفئونها، وحملة المشاعل يقذفون بها ذات اليمين وذات الشمال وعلى الرءوس، ليزداد اضطراب الصفوف.

وما إن تعود حالة الظلام دامسة كما كانت، حتى تتفرق حلقة الشيخ، بعد أن يكون كل من فيها قد مد يده إلى جيبه، ليخرج سلاحه.

ويخلع "جلال" ملابسه ويسلمها "لمديحة" ليبدو على حقيقته خفيف الحركة سريع التدبير.

وتبدأ المعركة بالأيدى، وبالرصاص.

و"مديحة" تعدو خلف "جلال" وقد حملت ثياب الشيخ وثيابها.

ويرتفع الصياح، وترتفع كذلك طلقات الرصاص، ويئن المصابون من الفريقين، وتتطلع "مديحة" ويتطلع معها "جلال" بحثاً عن "ممدوح".

ويريانه فيناديان عليه ليخطفاه.

ويثب "ممدوح" من السيارة برغم قدمه العرجاء.

لكنه ما إن يحاول أن يعدو ليلحق بهما ...

لكنهما ما إن يحاولا أن يتقدما نحوه ليشداه إليهما، حتى تخرج جماعة من حراس القيادة لنجدة العساكر الذين هوجموا على بغتة.

ويحول بينهما الرصاص.

لكن "ممدوح" يتقدم مع هذا، فى حين يكون "جلال" و "مديحة" قد اختفيا فى مدخل أحد الدكاكين.

ويصيح "جلال":

- لا ...لا يا "ممدوح". حاذر. إنهم يطلقون الرصاص.

وتصيح "مديحة":

- «ممدوح» ياحبيبى انتظر . انتظر فإنهم سيقتلونك.

- «وممدوح» لا يسمع لا لـ "جلال" ولا لـ "مديحة".

إنه يتقدم نحوهما وقد استبد به شعور أقوى من طلقات الرصاص، ومن الموت. أقوى من الخوف.

ويسقط "ممدوح" فى شارع قصر العينى.

لقد أصيب. قتلوه.

وتخفى "مديحة" عينيها فى كفيها وهى تصيح:

- "ممدوح" ...."ممدوح".

وتحاول أن تعدو نحوه، لكن "جلال" يمسك بها بكل قواه ويعدو نحو شارع المبتديان.

وهناك يجد سيارة الإسعاف فى الانتظار.

إن فيها طبيب المعسكر، جاء ليؤدى دوره فى المعركة.

لقد أسعف المصاب، ولم تكن إصابته خطيرة، ولم يتحرك واحد بدعوة الشيخ، على أنه على كل حال عطل مرور السيارات الإنجليزية من الجانب الآخر، حتى تتم الاستغاثة التى بدأت بها المعركة، ثم اعتقد أن الأمر قد يحتاج إلى وجوده، فانتظر على هذا الجانب ليلبى أى نداء.

وشد "جلال" يد "مديحة"، وهو يقول:

- علينا أن نقفز فى هذه السيارة حالا، لابد من الفرار.

ولكنه وجد من بعيد "وردة" و "مبروك"، وقد أمسك كل واحد منهما بذراع الآخر، وهما يبكيان الشيخ، فقد افتقداه، لم يجدا له أثراً فظنا أنه قتل بين شهداء المعركة.

ولم يتمالك "جلال" عواطفه نحوهما، فذهب إليهما بين طيات الظلام، وأمسك بهما، ولقد غفلا عنه أول الأمر، وارتفع نشيجهما بالبكاء المر، وهما يقولان:

- قتلوه. المجرمون الأنذال قتلوه. حتى الشيخ قد ذهب. الشيخ "أبو عوف" بركة أهل المنيرة وراعيهم وهاديهم ذهب.

- لا.. والله لن أتركهم بعد ذلك أبداً. والله لأتعقبنهم فى كل مكان إن الشيخ ولى من أولياء الله، وستكون بركته معنا فى كل شىء نفعله.

- من سيكون لنا بعده. ستعود المنيرة تحيا فى ظلام.

- وخرابة النداهة ستعود مأوى للبوم والغربان.

- وستعود النداهة تخطف الرجال.

- يا خسارة يا شيخ "أبو عوف". الله يرحمك يا شيخ "أبو عوف".

- وانت يا شيخة "مفيدة". ألف رحمة تنزل على جسدك الطاهر.

●●●

وتأثر "جلال" بما سمع. وامتلأ خوفاً عليهما، فإنه ليعرف أن الإنجليز سيحاولون بكل الطرق أن يتعقبوا الذين اشتركوا فى هذه المعركة لينكلوا بهم.

و"مبروك" ولد طيب.

و" وردة" امرأة فيها شهامة وكرم.

وهما عاشقان، يحيا كل منهما للآخر فى صمت وكتمان.

هل يتركهما بغير أن يحميهما من الخطر المحدق بهما.

لكن كيف يتحدث معهما، وهما يتصوران أنه ميت؟

بل كيف يتحدث معهما، وهو فى غير جلده المستعار؟

مهما يكن الأمر فعليك أن تنصحهما بما يجب أن يتبعاه. إن حمُايتهما واجب عليك. ألم يضحيا من أجلك؟

وقال "جلال":

ـ اسمعى يا "وردة". اسمع يا "مبروك". الشيخ "أبو عوف" لم يمت إنه حى.

ونظرا إليه فى رجاء أن يدلهما عليه.

قال:

ـ أنا الشيخ "أبو عوف". وهذه هى الشيخة "تفيدة".

قال "مبروك":

ـ لا. لا. مستحيل. الشيخ "أبو عوف" كان شيئاً آخر، فيه وقار الشيخ كان رجلا كبيراً، له لحية مرسلة.

وقالت "وردة":

ـ هل ترى العصفورة فى وجوهنا يا حضرة؟ إننا أولاد بلد، ولا يمكن أن يخدعنا واحد مثلك. أنت الشيخ "أبو عوف" ! اسم النبى حارسك. وهذه البنت التى تسير معك فى

الظلام بشعر منكوش، هى الشيخة تفيدة ! يا ابنى ابحث لك عن لعبة أخرى.

وعاد "جلال" يقسم لهما إنه هو نفسه الشيخ "أبو عوف"، وأن هذه البنت هى الشيخة "تفيدة".

وظهر الارتباك على "مبروك" وعلى "وردة"، وأخذا يتبادلان النظرات.

قال "جلال":

- اسمع يا "مبروك". اسمعى يا "وردة". عودا فى الحال إلى المنيرة، وافتحا القهوة، كأنكما لم تغادراها فى هذا الموكب أبداً. إن الإنجليز سيحاولون أن يعرفوا من الذى اشترك فى هذا الموكب لينكلوا به، وأنا أحبكما، ولهذا فإن وجودكما هناك الآن قبل أن يبدأ البحث والتحرى، سيثبت أنكما لم تكونا فى الموكب. اذهبا الآن وعلى الفور. أسرعا...أسرعا. إن قلبى معكما.

لكنهما قبل أن يمضيا قالا له:

- لكن من أين لك هذا الشباب، وهذا الجمال؟ ومن أين لك هذا العود المشوق، وهذه العيون النفاذة؟ ومن أين لزوجتك هاتان العينان الفاتنتان؟ قل من أين؟ إنك لم تكن هكذا حتى دقائق مضت، فقل لنا من أين؟

قال وهو يشد أنفاساً عميقة:

- من الله.

□□□

٧

لم يعد يستطيع أن يتكلم.

بل لم يعد يستطيع أن ينظر إليهما.

إن "مديحة" أصبحت شيئاً يتحرك فى غير وعى. يصحو كأنه لا يزال فى منام. وينام كأنه لا يزال فى صحو. وينظر نظرات زائفة لا هدف لها . وتهز الدنيا حوله فلا يتبين مما حوله شيئاً.

حتى "جلال" لم يعد يثير انتباهها.

وكان "جلال" يراها على هذه الحال، فيطوى همه فى قلبه ويتنهد.

ويعود "جلال" إلى ذكريات الليلة المنحوسة، فيجد نفسه قد تسبب فى قتل "ممدوح". ألم يكن هو مدبر العملية الانتقامية، فدفع ثمنها "ممدوح"؟

من يدرى، لعله لو ذهب إلى أقسى ساحات القتال، لعاد منها حياً لم يصبه أذى؟

لكنه تعجل الأمر فقضى عليه.

آه لنا وله، وهو ممدد يتلوى على قارعة الطريق، فى شارع قصر العينى !

آه لنا وله، وقد التقى بنهايته واسم "مديحة" على شفتيه !

آه لنا وله، وقد أخذ يصيح فى ألم، كأنما كان يستغيث، ولا مغيث !

مسكين يا "ممدوح" ! بل أنا المسكين الحقيقى يا "ممدوح" !

أنت استرحت. أنت تحررت من قيود الحياة. أنت خرجت من سجن الجسد هذا الثقيل، وتركتنى أعانى ما أعانية من أجلك.

لقد كانت "مديحة" تود الحاق بك. كانت تريد أن تلقى بنفسها عليك، تحميك من هذا المصير، فإن لم تستطع، فتلقى معك نفس المصير.

أنا الذى منعتها يا "ممدوح". أنا. نعم أنا.

لهذا فهى تكرهنى، إنها تكرهنى. إنها تكرهنى.

ولكنى يا "ممدوح" خفت عليها فجذبتها إلى. جذبتها بكل قواى، وحملتها على الصمت. حتى الصيحة الأخيرة فى وداعك خنقتها أنا فى صدرها، خوفاً عليها.

وعندما وجدت سيارة الإسعاف فى الانتظار، وفيها صديقنا الطبيب، قفزت إليها ومعى "مديحة".

كنت انوى أن أهرب. هكذا كان أول شعور فاجأنى.

على أن صاحبنا الطبيب قال لى:

- إلى أين تذهب يا "جلال"؟

- اهرب بى إلى أى مكان.

- وتنسى أنهم سيبحثون عنك.

- ولن يجدونى.

- وتعيش مختبئاً متخفياً؟

- ولم لا؟

- وترتكب جريمتين، الأولى فرارك من المعتقل، والثانية تدبيرك هذا الاعتداء؟

- يا أخى ليكن ما يكون.

- لا يا "جلال". فكر قليلا. إن أمنك واطمئنان السلطات إليك شىء هام.

- لم أعد أبالى.

- لم تعد تحترم مبادئك !

- ...إيه؟ ماذا تقول؟

- اسمع. هل تنفذ نصيحتى؟

- إذا كانت معقولة.

- ارتد الآن ملابس الشيخ "أبو عوف". عد كما كنت يا "جلال"، واذهب على الفور إلى قسم البوليس، وبلغ عن اعتداء البوليس على رجالك. لا تقل شيئاً عن القوات البريطانية. إنك كنت فى الموكب مع رجالك، وحدثت مع القوات البريطانية حادثة لا تعرف عنها شيئاً، فلما انتهت هجم رجال البوليس على الموكب واعتدوا على رجالك بلا ذنب. فإذا فعلت هذا فعد إلى الهرابة واقض بها ولو بضعة أيام إلى أن يطمئنوا إلى أنك لست مدبر هذه الحادثة.

- لكن من أين لى أن أعرف أن رجال البوليس تدخلوا؟

- أنا رأيتهم بنفسى قادمين على عجل للتدخل لحسم الموقف، وتدخلوا فعلا.

- لكن "وردة". "وردة" ماذا أقول لها؟ و"مبروك" كيف أواجهه؟

- أنت خبير قديم يا "جلال"، ولكنك تنسى فى بعض الأحيان أشياء لا ينبغى أن تنساها أبداً. أنت شيخ. أنت ولى. أنت صاحب كرامات وبركات. أنت تذهب إلى الخرابة كأن لم يحدث شىء، إلا أنك حزين على ما حدث، وعندما يفاجأون بك ويسألونك عن الشاب الذى نصحهم من حادث الاعتداء، تظاهر بأنك لا تدرى عن ذلك شيئاً. عندئذ يزداد قدرك فى نظرهم، ويفسرون الأمر على أنه كرامة أخرى من كراماتك. أسمعت؟

- معقول. هيا بنا يا "مديحة".

●●●

وعندما ذهب الشيخ "أبو عوف" إلى قسم البوليس، فوجئ وهو بعد فى الصالة الخارجية مفاجأة لم تكن له على بال.

لقد وجد نفسه وجهاً لوجه، والضابط الذى دبر أمر فراره من المعتقل. وكاد يشهق من شدة المفاجأة. لكنه تمالك نفسه ونظر إلى الضباط بزاوية من عينه، كأنما يقول له إياك. وبادره الضابط نظرة كنظراته تلك، فأدرك على الفور أنه فهم عنه كل شىء.

وأخذ الشيخ ينظر إلى الشيخة، وهما يعجبان.

ثم أخذ يتساءل فيما بينه وبين نفسه :

لكن كيف؟ هل استطاع أن يؤدى مهمته هناك، ثم يعود بهذه السرعة.

وبينما هو فى تساوله، اقترب منه الضباط الشاب ليقول له:

ـ ماذا تريد؟ أنت يا شيخ أنت.

وقبل أن يجيبه بشىء همس الضابط فى أذنه قائلا:

ـ اطمئن، لقد مضت المعركة على ما يرام؛ وإن لم تحقق الغرض الرئيسى منها ، على أنها أسفرت عن عدد من القتلى، وعدد من المصابين، ونجح الأولاد فى خطف اثنين من الضباط كذلك، خسارة أن "ممدوح" كان هو الثمن الذى دفعناه.

ثم أخذ الضابط يصيح قائلا:

ـ قلت لك ماذا تريد يا سى الشيخ.

وقال الشيخ فى صوت مخنوق:

ـ يا ابنى سامحنى. لقد كنا فى موكب للاحتفال بمولد الشيخ العبيط، وبينما كنا نمر فى شارع قصر العينى سمعنا جلبة على الجانب الآخر من الطريق، بعد أن اجتزنا تقاطع الشارع مع شارع المبتديان، بقليل. ثم جاء البوليس وهاجم الموكب فحطم أنواره، وأعتدى على المريدين المساكين الذين لا يعرفون شيئاً فى الدنيا إلا ذكر الله.

وأخفى الضابط ابتسامة خبيثة، ثم مال على أذن الشيخ يقول:

- لا والله تقتل القتيل وتمشى فى جنازته !

ثم رفع صوته سائلا:

- ومن أين خرج الموكب؟

قال الشيخ:

- من المنيرة يا سيدى.

قال الضابط:

- هل أنت تقيم فى المنيرة؟

قال:

- أنا أقيم فى أرض الله. كلها أرض الله. أنا لا مكان لى. أما الآن، فأنا أقيم مؤقتاً فى المنيرة. وقد اعتدت أن أمر بالمريدين حيثما يكونون.

قال الضابط:

- آه...فهمت. اسمع. يحسن أن تحرر محضراً بما حدث.

ونادى أحد الصولات وكلفه بكتابة محضر بأقوال الشيخ. وقال وهو يودعه لعمل آخر.

- ادع الله لنا يا سيدنا. ربنا يجعلنا من بركاتك.

وانصرف تاركاً الشيخ مذهولا. يكاد لا يصدق عينيه.

وفى حجرة الضابط النوبتجى جلس الصول وأمامه الشيخ والشيخة.

وأخذ الشيخ يروى له ما حدث بأسلوب طيب مؤثر، وهو يتمتم بين الحين والحين بتلاوة بعض آيات من الكتاب، أو الصلاة على الرسول، أو ترديد بعض فقرات من الأوراد.

وتأثر الصول من كلام الشيخ، فأخذ يهز رأسه، ويمصمص شفتيه، ويقول بين الحين والحين: لا حول ولا قوة إلا بالله. والله تسامحهم يا سيدنا. إن عساكر البوليس أولادك وربما كان منهم من مريديك كثيرون. إنهم لم يعرفوك. إنهم فوجئوا بأوامر سريعة صادرة إليهم، ليحسموا الموقف، ويقفوا المعركة قبل أن يستفحل الأمر، وقد يفقد الإنجليز أعصابهم، فيضربون كل من يقابلون بلا تفريق بين الذين هاجموهم وبين الأبرياء السذج. لكنك كريم وقلبك الطيب يتسع لهفوات الناس.

وأقفل الصول المحضر، وهو يكرر الاعتذار للشيخ وللشيخة، ويرجوهما أن يقبلاه زائراً لإحدى حلقاتهم المباركة، لينال الخير من هذه الحلقات.

ثم أبى أن يتركهما يخرجان وحدهما فى هذا الظلام، فنادى أحد العساكر وكلفه أن يرافقهما حتى خرابة النداهة، وأن يعود إليه يخبره أنهما وصلا فى أمان الله

ومشى الصول فى ركاب الشيخ حتى باب القسم، فلما مد الشيخ إليه يده مصافحاً، أبى إلا أن يقبل يديه، كلتيهما، وأن يسأله الدعوات.

ومضى الشيخ والشيخة، يحرسهما رجل البوليس.

وعندما وصلا إلى خرابة النداهة، دخلا والدنيا ظلام، والناس نيام، ورائحة من الخوف والقلق تسيطر على المكان.

وكان الجهد قد بلغ منهما كل مبلغ، فارتمى الشيخ فى ركن من الأركان، وأغمض جفنيه.

أما هى فقد تكومت قرب الباب، وأخفت رأسها بين ركبتيها، وأخذت تحبس زفراتها الحارة فلا تستطيع، فتنطلق منها هذه الزفرات حادة مخنوقة، وكأنها صوت زجاج مشروخ يتخلله تيار من ريح عنيد.

إنها تعض على شفتيها فى قسوة.

إنها تلطم وجهها بكفيها لطمات مكتومة، ولكنها قاسية.

إنها تشد شعرها، تريد أن تقتلع الأفكار من رأسها.

إنها تدب على الأرض بقدميها، كمن تحاول أن تحملها على أن تتفرج لتضم رفاتها إلى جوار رفات حبيبها.

وعاشت بعد ذلك، طيلة الأيام التالية بلا كلام. بلا طعام.

تنظر إلى "جلال" فتسيل دموعها على خديها، وهى غائبة عن وعيها، لا تعرف مما حولها شيئاً.

و "جلال" ينظر إليها فيبكى عليها وعلى "ممدوح" وعلى نفسه.

وعندما يفاجأ أهل المنيرة فى صباح اليوم التالى بالشيخ وقد عاد، يهرعون إليه، ليطمئنوا عليه ويتحامل الرجل على نفسه ويخرج إليهم، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

وإنه ليقول لهم فى لهجة حزينة.

ـ الحمد لله على كل حال. من يدرى. لو علم أحدكم بالغيب لاختار الواقع.

ويسأل عن المريدين من أتباعه، فيطمئنونه إلى أن أحداً منهم لم يصب بسوء. أما "وردة". أما "مبروك". فإنهما يصابان بذهول.

ـ من؟ ..من تقول؟ الشيخ؟ أى شيخ تعنى؟ الشيخ "أبو عوف" هنا..فى المنيرة؟ مستحيل.

ـ لقد رأيناه بأعيننا يا معلمة، فى مكانه المعتاد، فى خرابة النداهة.

ـ لا يمكن. هذا مستحيل. "مبروك". يا معلم "مبروك" ...أتسمع ماذا يقولون؟ الشيخ "أبو عوف"، والشيخة "تفيدة" فى الخرابة. هل تصدق؟

ـ إ..يه؟ لا بد أننا أصبنا بجنون. لقد رأيناه بأعيننا. رأيناه وكلمناه لقد كان شيئاً آخر. كان شاباً فتياً رشيقاً سريع الحركة مفتول العضلات. كذلك كانت الشيخة "تفيدة"، فتاة لطيفة جميلة. لقد قال لنا إن ذلك من الله، ونصحنا فنفذنا نصيحته. وأنتم الا

تذكرون أننا جمعناكم كلكم وروينا لكم القصة وعدنا بكم إلى القهوة؟ ألا تذكرون؟ وكم كانت النصيحة نفحة جديدة من نفحات الشيخ، فقد أقبل رجال المباحث بعد ذلك إلى المنيرة ليروا ماذا فيها، فوجدونا جميعاً فى الدكاكين وفى القهوة، فتصوروا أننا لم نكن فى الموكب على الإطلاق. ألا تذكرون هذا؟ إذن كيف رأيتموه؟

- رأيناه يا معلمة. رأيناه يا "مبروك".

- وأسرعت "وردة" وخلفها "مبروك"، وخلفهما عدد من أبناء الحى إلى الخرابة.

وهناك وجدت الشيخ "أبو عوف".

هذه عمامته. هذه جبته. هذه مسبحته. هذه لحيته بيضاء طويلة تتدلى حتى صدره.

إنه هو ..هو تماماً.

والآخر الذى قال لنا ما قال. من كان؟

هل كان هو أيضاً الشيخ "أبو عوف"

وأقبلت "وردة" عليه تقبل يديه.

وتبعها "مبروك"، فقبل يديه، ثم ارتمى عليه يقبله من وجهه.

وقالت "وردة":

- يا مولانا، ألم تكن انت الذى ظهرت لنا أمس، فى صورة شاب وسيم، ونصحتنا أن نعود على الفور، حتى لا نتعرض للريبة أو الشكوك؟

وهز الشيخ ذقنه، ثم نظر إليها طويلا وقال:

- أنا يا بنتى؟ ظهرت لك فى هيئة شاب وسيم؟ لا يا بنتى. أنا وجدت من واجبى بعد ما حدث أن أبلغ قسم البوليس، وأشكو للحكومة أن عساكرها اعتدوا على مريدى وأتباعى وأبنائى وأحبائى. وقد اعتذروا لى بأن المفاجأة قد أفقدتهم أعصابهم. وعدت بعد ذلك فصليت لله ودعوته ألا يكون أحدكم قد أصيب بأذى. وهأنذا ألقاكم وأحمد الله

على أنكم بخير. الحمد لله على كل حال. يا رب سامحنا إن كنا قد نسينا أو أخطأنا. أما أنت يا صاحب المولد، فقد احتفلنا بك على كل حال، ولك فى أعناقنا زيارة عن قريب.

وأخذت "وردة" تزغرد وهى تقول:

- تصوروا الكرامات. تصوروا النفحات. والله لقد رأيته بنفسى ورآه معى "مبروك الحنطور". كلمنا وكلمناه. ثم انظروا التواضع. إنه ينكر كل هذا. وتزغرد حتى تملأ الحى الحزين بهجة وفرحاً.

والشيخ مسبل عينيه، غارق فى خيالات متداخلة لا يعرف أين تبدأ وإلى أين تنتهى.

●●●

وتمضى الأيام فى خرابة النداهة، و"مديحة" فى صمتها لا تخرج عليه أبداً.

وقد حملها "جلال" حملا على أن تخرج للناس، حتى لا يبدو الموقف غريباً عليهم، فخرجت إلى النساء تصطنع ابتسامة باهتة، ولكنها سرعان ما اختفت فى بحر من الشرود.

واعتقد النسوة أنها علامات الولاية، فللأولياء طبيعة تختلف عن طبائع الناس.

ولكم سألوها الدعاء، فكانت تتمتم بكلمات لا يفهمونها. ولكم سألوها أن تربت على طفل مريض، فكانت تمد إليه يداً هزيلة تكاد تسقط من ثقلها فى الهواء.

والصمت هو ملاذها. والصيام هو ملجؤها. والدمع السيال عندما تختلى بنفسها، هو اللغة الوحيدة التى تتكلم بها.

و "جلال" يكاد يجن. إنه يقول لها فى رجاء:

- يا "مديحة" هذا حرام. لقد رحل أبوك يا "مديحة" كما رحل "ممدوح"، وكما يرحل كل شهيد. يا "مديحة" أشفقى على نفسك وعلى. إنى لا أريد أن أراك تهلكين. سأهلك بعدك بلا شك، وأنا أرى كل الأعزاء من حولى يرحلون، ويتركوننى كالعش الخاوى، لا يجد الطير الذى يملؤه حياة وبهجة. يا "مديحة"...أتسمعيننى؟

لكنها لا تجيب. إنها تعرف الآن فقط كيف تبكى.

وبهت لونها، وشحبت وجنتاها، وأصبحت عيناها كالفسيل الذى لا يجف ماؤه أبداً.

وأخذ "جلال" يفكر فيما بينه وبين نفسه فى الموقف العسير الدقيق الذى أخذ يواجهه.

هل يتركها هكذا؟

إنها تنتحر. إنها تقتل نفسها. لقد قررت أن تموت.

لكن هل يتركها تموت؟

لم يعد لها أحد يا "جلال" سواك. فهل تتخلى عن هذه الأمانة بهذا اليسر وهذه السهولة؟

ومن يا "جلال" يتولاها؟

لا ..بل لابد من إنقاذها أيا كانت النتائج.

وفى صبيحة يوم من الأيام، فتح عينيه فوجدها مكومة على نفسها قرب الباب، فقال لها:

ـ "مديحة". لم يعد أمامنا وقت للتفكير. إن البوليس لا شك سيبحث عنا. إن الذى فعلناه لم يكن أكثر من حقنة من حقن التخدير. أما أنهم أغبياء إلى هذا الحد، فإن غباءهم لن يطول. لقد قررت أن أمضى فى سلام، كما جئت إلى هنا فى سلام. هيا أعدى كل شىء لنذهب عن هذا المكان وبلاد الله واسعة.

ولأول مرة نطقت مديحة:

ـ اذهب وحدك. سأبقى هنا.

قال فى رقة وحنان:

ـ لكنى لن أتركك وحدك. ماذا يقول الناس؟

قالت:

ـ لم يعد يهمنى الناس. إننى أذهب كل يوم إلى حيث خر "ممدوح" صريعاً، ولا أستطيع أن أبعد عن هذا المكان. إن بينى وبينه دائماً هذا الموعد، كل يوم، حيث تكون أنت مشغولا بمريديك.

قال فى حزن وألم:

ـ لكن "ممدوح" لم يمت يا "مديحة". "ممدوح" شهيد، والشهداء كالأولياء أحياء عند ربهم يرزقون. فلماذا تظنينه قد مات؟

قالت كالمجنونة:

ـ صحيح؟ هل صحيح؟

قال:

ـ نعم صحيح. لقد قتلوا جسده. لكن روحه معنا فى كل وقت يا "مديحة".

قالت:

ـ لكن يحسن أن أبقى إلى جوار آخر مكان شهده حياً.

وبعد مناقشات، ورجاء، قبلت أن تمضى معه إلى بلاد أخرى من بلاد الله، على الأقل، إرضاء لروح "ممدوح".

ونظر إليها طويلا وهى تعد حاجتهما.

ـ على أننا سنمر أولا نقضى حاجة هامة تنقص حياتنا.

ونظرت إليه تستفسر عن هذه الحاجة.

قال "جلال":

ـ علينا أن نزور المأذون فقد آن الأوان لنصبح زوجين أمام الله، بعد أن صرنا زوجين أمام الناس.

ـ و "ممدوح"؟ ألم تقل إنه حى؟

قال:

ـ سأتزوجك أمام الله والناس. أما فيما بينى وبينك، فأنت قدس حرام. أنت زوجة أخى وصديقى البطل الشهيد "ممدوح".

وسالت من مقلتيها الدموع.

وأخذ يطيب خاطرها، ويشاطرها هذه الدموع.

وتمتزج دموعه ودموعها . قبل أن تمتزج حياتهما فى عقد القران.

●●●

وبعد أن فرغ المأذون من مراسم عقد القران. نظر "جلال" إلى مديحة، ولا تزال يمناه فى يمناها، ولم ينطق بحرف، ولم تنطق هى الأخرى بكلام.

لقد أحس وأحست، أن الموقف لا يحتاج إلى كلام. أنه رائع هكذا. جليل هكذا. مهيب هكذا. وأى كلام لن يرتفع إلى مستوى هذه الروعة، وهذا الجلال، وهذه الهيبة.

ولم تكن "مديحة" تنظر إليه. لم تكن تستطيع أن ترفع عينيها فى عينيه. كانت تشعر بالخجل من الموقف ومن نفسها، كأنما هى ترتكب خيانة لـ"ممدوح".

على أنها أخيراً رفعت عينيها فيه، ولم تستطع بعد ذلك أن ترفعهما عنه:

إن شيئاً مجهولا دفعها إليه وربطها به، فسمرت نظراتها فيه.

ودارت فى رأسها الخواطر:

أو تذكرين يا "مديحة"؟ أو تذكرين أيام الدرب الأحمر؟ أو تذكرين أباك الطيب المسكين. وكيف تحول ذات يوم إلى نمر هائج لا يستقر له قرار؟ أو تذكرين قصته فى معركة العنابر، ثم فى السجن ثم فى المحكمة؟ أو تذكرين كيف مات؟ أو تذكرين "ممدوح" و "سالم"، وأنتم الثلاثة تثأرون للدم الذكى الذى أهدروه؟ ثم موت "سالم" يا "مديحة". ثم

اعتقال "ممدوح" ثم قصة "ممدوح" الدامية التى انتهت به شهيداً فى عرض الطريق؟ لكن ألم يفعل "جلال" كل شىء استطاعه من أجل "ممدوح"؟ أكان ذلك من أجل "ممدوح" حقيقة أم من أجلك أنت يا "مديحة"؟ لئن كان ذلك من أجلك فهل كان لأنه أحبك؟ وإذا كان قد أحبك، فهل كان يسعى إلى أن يعيد إليك "ممدوح"، وهو يعلم أنه يحبك، وأنك أيضاً تحبينه، وأن ظهور "ممدوح" فى حياتك معناه اختفاؤه هو من هذه الحياة؟ إذن لم يكن يحبك. بل لقد كان يحبك. لا... لم يكن يحبك. لا تخدعى نفسك. إنه شاب وطنى كان يريد أن يثأر من الإنجليز وربما كان حريصاً بالفعل على خطف "ممدوح" ليتخلص منك. يا مجنونة أبداً. إنه يحبك أنت. ومن أجلك فعل كل هذا ليرضيك. ومن أجلك تعرض للموت وللخطر. ومن أجلك نظم كل هذه العملية الرهيبة ليحقق أملا من آمالك، حتى لو لم يكن هذا الأمل يؤدى بك إليه. لكن هذا إذن حب كبير.إنه حب يرتفع عن الهوى وعن الغاية. حب يحمل على التضحية حتى بمن يحب. أهو حقيقة يحبك يا بنت هذا الحب الرائع؟ أهو يتفانى فيك إلى هذا الحد؟ "جلال" ..."جلال"..."جلال"...ما أحلى حبك. إياك أن تزهدنى يا "جلال". إنك أنت الذى بقى لى فى هذه الدنيا. أنا يتيمة ووحيدة يا "جلال"، فكن لى الزوج والأب والأهل والصديق ...

ولأول مرة منذ أيام طوال، أطول من الزمن، تحركت شفتاها، بابتسامة راضية.

وكاد "جلال"، لولا هيبة المناسبة، أن يرد عليها هذه الابتسامة بأحسن منها.

لكنه اكتفى برد التحية بمثلها.

وعادت هى إلى خواطرها الصامتة:

إنه جميل. وجهه هذا المستقيم، كأنه السراط. وأنفه هذا المستطيل كأنه البيان. وشفتاه هاتان الغليظتان، كأنهما النداء. وعيناه هاتان العميقتان،كأنهما الحقيقة. ولونه هذا النحاسى، كأنه الخصب فى طمى النيل. وعوده هذا المشوق، كأنه الأمل الذى لا يغيض. وهذا الإيمان، وهذا التفانى. ما أجملك يا "جلال"! ما أجملك عندما تحب. وعندما تكره. ما أجملك عندما تمد يدك كما تمدها الآن بالحب والحنو والعاطفة أو

حينما تمدها بالمسدس، لتصيب مع كل طلقة واحداً من أعدائك وأعداء بلادك ! ما أجملك وأنت تتحمل من أجل حب كبير تدخره، واحدة مثلى أصابتك بالارتباك. لقد عشت معى فى حجرة واحدة، زوجاً لى أمام الناس، ولم يكن معنا ثالث. وقد كان باستطاعتك أن تشبع منى وأنت جائع إلى، ولكنك لم تفعل. ألم تكن ترانى عندما أصحو فى الصباح، أتثنى وأنا بين الصحو والمنام؟ أو لم تكن ترانى فى فترات مختلفة من النهار؟ أو لم تكن ترانى وأنا أهجع للنوم فى ركن الحجرة؟ ومع ذلك، فإنك لم تفقد سيطرتك على نفسك. يا مسكين. حتى عندما كنت أغير ملابسى، كنت تستدير إلى جدار الحجرة حتى لا تجرح عفتى بنظراتك. وكنت تحبنى يا "جلال". وكنت تشتهينى. لابد أنك كنت تشتهينى. ألم تصرح لى بذلك نظراتك عندما كنت تنسى نفسك؟ ألم تصرح لى بذلك عبارتك عندما كنت تفقد السيطرة على نفسك؟ ألم تصرح لى بذلك تصرفاتك، عندما كنت فى بعض الأحيان، تخرج على مقاومة نفسك؟ ألم تقلها مرات؟ لقد انطلقت من بين شفتيك دون أن تدرى.

حبيبتى. يا حبيبتى. "مديحة" يا حبيبتى. ألم تقل لى ذلك مرات؟ لقد كنت أطيل النظر إليك لأتجلى حقيقة نفسك. أنت كنت ساعتها تخجل وترتدى ملابسك المستعارة وتخرج إلى مريديك. أما أنا يا "جلال"، فقد كنت أجتر هذه الكلمات. هذه النداءات. كنت أحس أنك تحبنى فعلا. كنت أقدر أنك تقاسى الحرمان من أجلى. كنت أعض على شفتى فى غيظ منك، وغيظ من نفسى. كل شئ كان بين أيدينا. كل الفرص كانت أمامنا، ولكن جداراً سميكاً من الحرمان كان يحول بيننا وبين ما يتمناه كل شابين فى سننا. وها أنت يا "جلال" زوجى. ها أنت ذا قد عقدت قرانى. ها أنت ذا بين يدى. فهل نعوض ما عانيناه معاً.

لكنها تعود فتجد خواطر أخرى تقتحم عليها هذه السعادة ...

و "ممدوح"؟ الشهيد الذى مات ضحية لحبك؟ "ممدوح" التلميذ الذى فقد دروسه من أجلك؟ "ممدوح" الذى سار إلى المعتقل بقدميه ليرضيك؟ ثم "ممدوح" الذى فقد الحياة

كلها، ليرمى نفسه بين ذراعيك؟ "ممدوح" تنسينه يا جاحدة، فى لحظة صفاء مع "جلال"؟ "ممدوح" انتهى بمجرد أن وجدت رجلا يتزوجك؟ هل كان "ممدوح" يفعل هذا لو قابلته أجمل بنات حواء؟ لكن "ممدوح" مات. ألم أنتظر محرومة من كل شىء فى انتظار أن يعود، فلما رأيته ممدداً أمامى فى عرض الطريق، تزوجت بسواه، وتزوجت من؟ تزوجت واحداً من أقرب الناس إليه. تزوجت الذى فعل كل شىء لإنقاذه. هل أنا مجرمة؟ هل أنا جامدة؟ وكيف أمضى فى الحياة وحيدة بلا رفيق؟ وكيف أعيش؟ وهل أصاحب "جلال"، ونعيش وحدنا بلا ثالث، ويعرف عنا الناس أننا زوجان، ثم لا زواج؟ وما الضمان أن يستطيع "جلال"، أو أستطيع أنا مقاومة نفسينا؟ وهل يرضى "ممدوح" أن أخونه فى حرام؟ أم أنه من الوفاء لـ"ممدوح" ولذكرى "ممدوح" أن تمضى حياتى مع "جلال" فى هذا الوضع الحلال؟ إننى لست خائنة. إننى لست مجرمة. إننى لست جاحدة. أبداً بلب إننى وفية وفاء كريماً حلالاً.

وبعد أن كانت قد عاشت هذه اللحظات فى كآبة، عادت فافترت شفتاها عن ابتسامة.

وعندما انطلقا، ضميرين فى طريق مجهول قالت له:

- أتذكرهما؟ سيحزنان علينا غاية الحزن.

قال:

- "وردة" و "مبروك"؟

قالت:

- نعم ... لقد تعلقا بنا كل التعلق، وستكون المفاجأة لهما شديدة الوقع عليهما، عندما يذهبان إلينا، فيعرفان أننا حزمنا متاعنا واتكلنا على الله، بلا وداع.

قال:

- لأن الوداع لم يكن ممكناً. لقد خفت أن يكون ذلك ثقيلا عليك.

قالت:

- ألا نرسل لهما رسولا يطمئنهما علينا.

قال:

- سأفعل عندما نحط رجالنا فى مكان آمن.

قالت:

- وما هذا المكان الآمن.

قال:

- قلب رجل كبير، هو "أبو المكارم".

قالت:

- لكن. أتضمنه؟

قال:

- أضمنه؟ عمى "أبو المكارم"؟ يا "مديحة" إنه مثل أبى. بل هو أبى الروحى، الذى يحمينى بحياته عندما لا يجد شيئاً يحمينى به إلا هذه الحياة.

قالت:

وأين هو؟

- عند الساقية. عند أعز مكان. عند زجمل بقاع الدنيا. عند نهاية الحياة وبدايتها.

قالت:

- أنت تقول كلاماً لا أفهمه.

قال:

- ستفهمينه هناك، بلا شرح. المكان هناك فصيح وصريح يحكى كل شىء بلا مداراة.

●●●

وعندما وقف بهما القطار فى محطة السكة الحديد، ونزلت "مديحة" ونزل "جلال"، بدت الطبيعة جميلة رائعة.

وكان "جلال" قد تحول إلى طفل صغير، حتى ليبدو كمن يريد أن يرقص من فرط فرحته. ولولا عمامته الخضراء وقفطانه، ومسبحته، ولحيته المرسلة، لمضى يجرى من فرط ما استبدت به انفعالاته.

لقد أخذ يستنشق الهواء عميقاً، كأنه يستنشقه لأول مرة ولآخر مرة فى حياته.

وأخذ ينظر إلى الأرض، ويقول "لمديحة" فى نشوة:

- إنها هى. أكاد أميزها من كل أرض خلقها الله. إن لطينتها عبيراً خاصاً يملأ خياشيمى.

ويتأمل الزرع والشجر وهو يقول:

- وهذه الحقول فى خضرتها. إن لونها هنا شىء لا يتكرر فى حقول الأرض جميعاً. وأشجار الجميز والسنط والصفصاف. ما أطول أيام عمرى التى قضيتها هنا بين هذه الأشجار، انظرى أشجار التين الشوكى، ألا ترينها كالسور يحدد ملامح الطريق. إن للتين هنا حلاوة، لا يزول مذاقها من الفم أبداً.

ويمضى "جلال" يتغزل فى الطبيعة، وفى الزرع، وفى تراب الأرض، وفى الوجوه السمر المجهدة، وفى الطيور، وفى الحيوانات.

كل شىء هنا بديع يا "مديحة"، وسيزداد بدعاً بوجودك.

لكنه عندما يرى الرياح، وهو يتلوى بين الحقول، يعبس كما لم يعبس من قبل، ويبدو كمن يختنق.

وتسأله "مديحة" عما به، فيجيب والأسى يهز كلماته:

- فى هذا الرياح، ألقوا بها تحت الماء.

وتفزع من أجله، وهى تقول:

ـ من هى التى ألقوا بها؟

فيقول فى حزن بالغ، والدموع تتحدر على وجناته:

ـ أمى. أمى يا "مديحة"، ألقوا بها هنا لتموت، ليتخلصوا منها من أجلى. لقد كان اسمها "تفيدة". أعرفت لماذا اسميتك الشيخة "تفيدة"؟ أعرفت لماذا أعتز بهذا الاسم وأحبه؟ لأنه اسمها، الشهيدة التى لفظت أنفاسها تحت هذا الماء، وهى تستغيث بأبيها المسكين الفقير، الذى لم يستطع أن يدفع عنها الموت.

وأحست "مديحة" مأساة زوجها، فأخذت تخفف عنه وهى تقول:

ـ الله يرحمها. اذكرها بالخير. لا د لهذه الداعى موع.

قال:

ـ لا يا "مديحة". إن دموع الدنيا كلها لا تكفى للبكاء عليها. أنا لا أعرفها. أنا كنت وليداً لا أميز شيئاً . ليتهم تركوها حتى أراها. كانت جميلة فاتنة، وكانت ابنة ،جل فقير، يعمل خفيراً لحدائق سيد رهيب، فتزوجها ليروى عطشه منها، فلما امتصها رماها فى هذا التيار. دبروا الأمر كأنها مجرمة تستحق العقاب. وصوروا موقفها على أنها خائنة، وعلى أنى ثمرة الجريمة، السفلة الأنذال. قتلوها. حرمونى منها. ليتك يا أماه تزوجته هو، فإنه لا يزال مقيماً على حبك.

قالت "مديحة":

ـ ومن ذاك؟

قال "جلال":

ـ عمى "أبو المكارم". الرجل الذى نسير الآن إليه. كان يحبها وكانت تحبه. ولكن الحب الفقير. حب الفقير للفقير كحيلة الفقير لا يستطيع أن يحمى نفسه.

ومضيا صامتين، حتى اقتربا من الساقية.

وبدت لهما الطبيعة فى هذا المكان لوحة فنية بارعة.

لقد كبرت الأشجار التى تحيط بالساقية. شجرة الجميز امتدت فروعها، حتى كادت تغطيها. وشجرة الصفصاف تكاثرت غصونها، حتى غطست بجانب منها تحت الماء، وعبرت بالجانب الآخر الطريق على مكان الساقية. وأشجار السنط والنخيل، تناثرت هنا وهناك تكمل عناصر اللوحة البارعة. والقبة البيضاء الصغيرة، قبة سيدى أحمد الذكيرى تبدو بين المزارع كشيخ ينوى إقامة الصلاة.

قال "جلال":

- أرأيت؟ هذه هى الساقية. وهناك سنلقى عمى "أبو المكارم"، الرجل الذى كان يجب أن يكون أبى.

●●●

وعندما أخذ "جلال" و "مديحة" يقتربان من الساقية، سمعا من بعيد صياحاً متصلا وصوتاً لا يكف عن إطلاق ما يشبه أن يكون النداء، وهو ليس بالنداء.

وأمسكت "مديحة" بذراع زوجها، فقال لها :

- لا تخافى. لقد نسيت أن أقول لك إنه أخرس. عمى "أبو المكارم" أخرس، لكن قلبه وعقله ليسا أخرسين. إنهما فصيحان وبليغان. وهذا صوته. إنه عرفنى، وهو لا شك سعيد بمقدمى.

ومضى الصوت متصلا لا ينقطع، وبدا من حركة الصوت أن صاحبه يعدو نحوهما.

ولقد اطمأنت "مديحة" إلى الصوت وصاحب الصوت، فلم تعد تخشاه.

على العكس أخذت تتطلع لتراه. ولم يكن يظهر من بين أغصان الشجر.

لقد كانت الشمس تميل إلى المغيب، وخيوطها الحمراء تتخلل ما بين فروع الشجر، حتى لتأخذ بالعيون فلا ترى شيئاً سواها، و "جلال" شارد شروده المعتاد فى لحظات الرحيل.

وفجاة ظهر "أبو المكارم" فى ملابسه القديمة، ووجهه الضاحك الصبوح.

وفى صوت كالعواء، أخذ يرحب "بجلال". يعانقه ويقبله، ويربت على كتفيه، ويتحسس وجهه. أنه يكاد أن يلعقه، كما تفعل القطة بأولادها.

وبعد أن فرغ من الترحاب "بجلال"، نظر إلى "مديحة" فقال "جلال":

- إنها زوجتى "مديحة". لكن اسمها سيكون الشيخة "تفيدة".

وأخذها "أبو المكارم" بين ذراعيه، وأخذ يقبلها فى وجنتيها وجبينها، وهو يبكى، فيخرج بكاؤه رفيعاً حاداً؟ كالسوط.

قال "جلال" لـ"مديحة":

- إن عمى "أبو المكارم" يعرف الكلام ويميزه، لكنه لا يتكلم. لقد تأثر غاية التأثر عندما عرف أن اسمك هو نفس الاسم الذى لا يزال يعشقه حتى الآن.

قالت والعجب يملؤها:

- ويعيش هذا الحب حتى الآن؟!

قال "جلال":

- وسيعيش إلى الأبد.

ونظر إلى "أبو المكارم" وقال له:

- أين؟ أين هو؟

وأخذ "أبو المكارم" يضحك ويبكى فى آن واحد، وهو يجرى نحو شجرة الصفصاف، ليمد يده إلى جذعها، ويخرج منه فردة الشراب الأحمر.

قال "جلال":

- أرأيت؟ هذه هى رسالة الغرام الوحيدة التى أرسلتها إليه. انظرى إنه لا يزال يحتفظ بها، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تنتزعها منه.

قالت:

ـ أهذه رسالة غرام؟

قال:

ـ أقدس ما عرفه الغرام من رسالات. قال لى إنها وجدتها فى طريق المحطة، وكانت هى فرحتها ولعبتها وأعز شىء لديها، ولم تجد يوماً ما تعبر به عن شعورها نحوه إلا أن تعطيها له. ومن يومها وهى لديه أغلى ما عنده. إنها منها. أغلى ما تملكه أهدته إليه. راقبيه وهو يتأملها. راقبيه وهو يقبض عليها بين كفيه. ألا ترين أن صاحبتها حية فى قلبه لا تموت أبداً. قتلوها. أغرقوها فى الماء، لكنهم لن يستطيعوا أن يقتلوها فى هذا القلب الشريف الصادق، ولن يستطيعوا أن يفرقوها من بين عينيه.

وكان "أبو المكارم"، قد أخذ يتحسس فردة الشراب فى حنين شديد، ويقلبها بين كفيه. وينظر إلى الماء عند الصفصافة، حيث لقيت مصرعها، والدموع لا تفارق عينيه. لكنه يتلفت إلى وراء لينظر إلى "جلال"، يملأ منه عينيه، وهو فى عمامته هذه الخضراء، ويبتسم ودموعه على خديه.

قال "جلال":

ـ عمى "أبو المكارم"يبتسم وهو يرانى فى هذا الرداء. لقد تعب معى من كثرة ما رآنى فى ملابس مختلفة. إن لديه مخزناً سرياً للملابس المستعارة، إنه يعرف كل شىء عنى. إنه يحبنى. إنه يرانى متزوجاً. وممن؟ من أجمل من ما حملت هذه الأرض الطيبة.

ونظر "جلال" إلى "أبو المكارم" وقال:

ـ يا عمى "أبو المكارم"، إننى هذه المرة شيخ. أنا الشيخ "أبو عوف". ما رأيك فى هذا الاسم؟ الله يرحم صاحبه.

وهز "أبو المكارم" رأسه ودموعه لا تزال تجرى على خديه.

واستأنف "جلال" كلامه فقال:

ـ وهذه هى زوجتى الشيخة "تفيدة". تعرفها بطبيعة الحال.

وأخفى "أبو المكارم" رأسه بين كفيه، وأخذ يبلل الشراب الأحمر بدموع لا يقطعها إلا نشيج.

وعاد "جلال" يقول:

ـ وسنسكن سيدى الذكيرى. هذا هو أحسن مكان نأمن إليه. وسأقيم فى الضريح حضرة ذكر كل ليلة جمعة. أما بقية الأيام، فلا مانع عندى من أن ارى الناس. أستقبلهم، لأدعو لهم بالخير والبركة. ولموتاهم بالرحمة والغفران. سنقيم فى الضريح نخدم الشيخ، ونحتمى ببركته عن العيون. ما رأيك؟

وابتسم "أبو المكارم"، وهو يصيح صيحات تؤكد أنه يعرف أنه ذكى، وأنه يعرف كيف يدبر أمره.

ولم ينس "جلال" أن يقول له:

ـ أنا لست "جلال". أنا لست "جلال". أنا الشيخ "أبو عوف"، وهذه هى الشيخة "تفيدة". سمعت؟

وهز "أبو المكارم" رأسه، وهو يعيد فردة الشراب الأحمر حيث كانت من جذع الصفصافة.

ولما عاد أخذ يصيح صيحات لم تفهم منها "مديحة" شيئاً.

فلما بدأ "جلال" يتكلم فهمت ماذا كان يقول.

إن "جلال" يقول له إن أحسن شئ الا يقول هو نبأ وصوله لأحد. إن الناس سيفاجأون به فى الصباح، وهو فى ضريح سيدى الذكيرى، وسيدبر هو أموره. أما أنت، فلا تحضر إلا بعد أن يشيع نبأ وصولى فى البلد كلها.

وصحب "جلال" زوجته، إلى حيث ستكون إقامتها إلى جوار الضريح.

وبعد أن أعد المكان إعداداً سريعاً، قال لها :

- هذا بيتنا. نحن محتاجون إلى بيت؟ إنك أنت بيتى الذى تسكن إليه نفسى.

قالت:

- وأنا لا يهمنى إلا أن أكون بجوارك.

قال:

- تحبيننى يا "مديحة"؟

قالت:

- أحبك. أحبك. وسأظل أحبك حتى أموت.

ومضت ليلتهما الأولى فى هذا الخلاء الطرى الحنون، وعندما أشرق الصباح، كان "جلال" فى زيه المبارك، يسبح الله فى الضريح. وكانت "مديحة"، قد أعدت البخور، وملأت القلل الخاوية، ونظفت المكان، بعد أن تعرفت عليه وبدأت تشعر بالأمن والسكينة والحب جميعاً.

●●●

وارتفع صوت متصل، يعلو تارة ويخفت أخرى، ويصمت فى بعض الأحيان، ليعود يتصل من جديد.

قالت "مديحة":

- لابد أنه صوت الساقية يا "جلال". لقد بدأت تدور.

قال "جلال":

- نعم هو صوت الساقية يا "مديحة". لقد بدأت تشعرين بكل شىء هنا. إن عمى "أبو المكارم" يدور الآن خلفها، كما اعتاد أن يدور طيلة حياته. إن عينيه معلقتان بعيونها وهى تتدفق بالماء فى حين يخفق قلبه بحبه الكبير. اسمعى. موسيقى الحياة تتوقف الآن. لن يطول صمتها. أنها لحظة شرود عابرة. لابد أن عمى "أبو المكارم" يجفف الآن

عينيه خلالها، ثم يمضى بعصاه يستحث الثورين على الحركة، لتمضى الحياة فى مجراها. مسكين يا عمى. تعطى عمرك، ولا تأخذ شيئاً. إنك قانع بلقمة خبز جافه تملأ بها جوفك، ورداء مهلهل تخفى به عورتك. ومع هذا فأنت سعيد بهذه الحياة كأنك أنت الحياة. ولا تشكو يا مسكين، مهما قاسيت من الهول. ولا تطمع فى شىء أكثر من أن يتركوك إلى جوار الصفصافة حيث لقيت حبيبتك مصرعها، وأطلال الخص حيث عاشت صباها، تبادلك الهوى والأمل، قبل أن يخنقوا هذا الهوى وهذا الأمل من قلبيكما.

وسكت "جلال" لحظات، ووجهه بين كفيه. لقد كان يبكى.

قالت "مديحة":

- "جلال". ألم تكن أنت عزائى بعد مصرع "ممدوح"؟ فهلا أكون أنا عزاءك عن هذه اللوعة التى تعانيها؟

قال "جلال" "

- لأنت العزاء وأنت الرجاء. على أن لى رغبة يا "مديحة".

قالت فى حنان:

- أنت سيدى وآمرى. قل ما تشاء.

قال:

- إذا حل يوماً قضائى، فأبقى أنت هنا. عيشى هنا يا "مديحة"، إلى جوار عمى "أبو المكارم". وإلى جوار الساقية والصفصافة. واقرئى كل يوم الفاتحة لأمى، ولجدى "أبو عوف" ولجدتى "أم الهنا"، ولخالتى "مفيدة". لكل الضحايا الذين قتلهم ظلم الناس للناس. اذهبى كل يوم إلى حيث كانت نهايتها، ومن هناك انظرى على امتداد الساقية، حيث آخر الحديقة، فهناك كان الخص حيث ولدت وحيث كانت أمى تعيش.

قالت "مديحة":

- "جلال" ...إن يوم قضائك، هو آخر عمرى.

قال فى حدة:

ـ لا، بل تعيشين أنت. إننى أواجه الخطر، وقد يحل يومى فى أى وقت يا "مديحة"، أما أنت فعليك أن تستأنفى الحياة، لتتمتعى بالحياة.

قالت:

ـ بعدك يا "جلال"؟!

قال:

ـ أرجوك. حققى لى هذه الأمنية. أتقبلين؟

وأخذت تمسح بدورها دموعها، وتختلس النظر إليه.

وفجأة ظهر أولاد صغار يلعبون حول أشجار السنط التى تحيط بالضريح.

وبينما هم يلعبون الاستغماية التى يحبونها. يغمى أحدهم عينيه، حتى يختفى الآخرون فى أماكن متفرقة، فإذا فرغوا من ذلك، صاحوا عليه ليبدأ فى البحث عنهم ويكونون قد اتفقوا على مكان الأمان. وتبدأ عملية محاورة، بين الصبى الذى كان مغمضاً عينيه، وبين الآخرين الذين يظهرون من مخابئهم. هو يحاول أن يمسك بواحد منهم وكل منهم يحاول أن يصل إلى مكان الأمان قبل أن يمسك به، حتى لا يحل محله والضحكات السعيدة تملأ حياتهم بهجة، وملأ أجسامهم خفة. ويقسم الولد الذى يحاول أن يمسك بهم بسيدى الذكيرى إنه ممسك بهم قبل أن يصلوا إلى منطقة الأمان، ويقسم الآخرون بسيدى الذكيرى أيضاً إنه لن يمسك بهم.

ويجرى أحد الأولاد متلمساً مأمناً، فيلوذ بضريح الشيخ.

لكنه سرعان ما يتوقف.

إن الشيخ الجالس فى ركن الضريح، وعلى رأسه عمامة خضراء، وفى يده مسبحة طويلة، ولحيته البيضاء المرسلة تهتز مع شفتيه وهو يتمتم بكلام لا يسمعه أحد. هذا الشيخ قد استوقفه عن الجرى وعن البحث عن المأمن الذى يريد.

ولم يستطع الصبى الصغير أن يفسر الموقف، إلا بأن سيدى الذكيرى طلع من ضريحه يا أولاد.

سيدى الذكيرى صحا من نومته يا أولاد.

سيدى الذكيرى جالس داخل الضريح يا أولاد.

هكذا أخذ يصيح، فتجمع الأولاد يرقبون المنظر من باب الضريح، ولا يجسرون على أن يدخلوا أبداً.

وكانت "مديحة" عند شباك الضريح، فلم يرها منهم أحد.

وأصابت الصغار قشعريرة، وامتلأت أجسامهم خوفاً، وأسرعوا عائدين إلى أهليهم يخبرونهم بأنهم رأوا سيدى الذكيرى. رأوه رأى العين. رأوه جالساً فى الضريح، يتحرك، ويتكلم.

وقال الكبار لأولادهم إن هذه أوهام، وأسكتوهم وهم يقسمون إن ما رأوه حقيقة.

لكن أحداً لم يصدق مما قاله الصغار شيئاً.

واختلى الصبية بأمهاتهم وهم يرتعدون. وعادوا يقسمون بما رأوه، ويؤكدون أن سيدى الذكيرى قد صحا من نومته، وهب جالساً فى الضريح، يصلى كما يصلى الناس، ويتحرك كما يتحرك الناس.

وانتقلت الرواية من أفواه الصغار إلى ألسنة النساء، فكان هذا إيذاناً بأنها لن تسكت أبداً. إن ألسنة النساء أخذت تتحرك بهذه الرواية إلى أنفسهن، وإلى بعضهن البعض، وإلى أزواجهن، حتى وصلت إلى أسماع الكبار من أهل القرية.

●●●

وكان "أبو سريع" شيخ الخفر، أول من سمع بالرواية من الناس.

وأبو سريع رجل قد تقدمت به العمر، لكنه مع تقدم عمره، يزداد صلفاً وتجبراً، فلا يسمح لنفسه بأن يكون فريسه لمثل هذا النوع من الكلام.

إنه شيخ الخفر الرهيب، الذى يذل الرقاب.

إنه القوة التى تخر أمامها الجباه فى انحناء.

إنه صاحب كل شىء فى القرية.

الحكومة حكومته، والعمدة صغير يطيع ما يصدره له من أوامر، فهو صهره وصنيعته فى آن واحد.

أما هذه البلدة، فكل شىء فيها طوع أوامره، فإنه يملك فيها كل شىء. أرزاق الناس، وأعمالهم، وزراعاتهم، ومصايرهم كذلك.

بل لقد زادته الحرب قوة، فهو المتحكم فى التموين. احتكره صهره الثانى، ووضعه تحت إمرته يذل به من يشاء، ويعز به من يشاء.

بأقه واحدة من السكر، يشترى أعز من تتمنع عليه من النساء بزجاجة واحدة من الزيت، يبيع ويشترى فى كرامة من يشاء.

بصفيحة واحدة من الجاز، يدخل أى بيت ليفعل فيه ما يريد.

ولا يستطيع واحد أن يرفع فيه عينيه. إن الأيام تمر كدورات الساقية، فلا تزيده إلا قوة ونفوذاً، ولقد يئس الذين راودتهم يوماً الأحلام بأنهم يستطيعون أن يخرجوا على إرادته. دخل بعضهم السجون، وقتل بعضهم دون أن يعرف الفاعل، وحرقت زراعات بعضهم بلا أن يدان أحد. وانتهى أمر الناس فى هذه القرية إلى أن يأخذوا "أبو سريع" على علاته، وأن يقبلوا "أبو سريع" على أنه قضاء وقدر، عليهم أن يتحملوه، وأن يقنعوا به، وأمرهم بعد ذلك إلى الله.

وعندما بلغ النبأ "أبو سريع"، صاح فى الفلاحين صيحة من صيحاته ليكفوا عن هذا الهراء.

ولكن الفلاحين أكدوا له أن بعضهم رآه. إنهم لم يصدقوا أولادهم، ولم يأخذوا الأمر قضية مسلمة. بل إنهم لم يكونوا يفكرون حتى فى التأكد من الخبر، لولا إلحاح زوجاتهم

عليهم، فلما ذهبوا هالهم أن وجدوه جالساً فى الضريح، يصلى ويتعبد. إنه حى. إنه يتحرك مثلما نتحرك، وقد أكرمه الله فمن عليه بحورية من حوريات الجنة، فى حلاوة الشهد تخدمه، وتهيئ له المكان، وتشاركه كذلك الصلاة والعبادة والتسابيح وتلاوة الأوراد.

وبدأ عناد الرجل الحديدى يتزعزع.

لكنه مع ذلك لم يسلم بالأمر الواقع، واكتفى بالاستفسار عن الحورية الفاتنة التى تصحبه. أهى جميلة؟ ما لونها؟ ما طولها؟ ما شكلها أبضة هى تترجرج فى مشيتها كالمهلبية؟ أم فارعة ضامرة كالفرس؟

وتبادل الفلاحون النظر، والفلاحون أذكياء وخبثاء فى آن.

إن شيخ الخفر قد ترك الموضوع الأصلى، ولم يعبأ إلا بالحورية الفاتنة.

وقال فلاح عجوز:

- يا شيخ الخفر يا ابنى. إنها من أولياء الله. ما لك أنت وأولياء الله. دعها فى حالها يصلح الله حالك.

وصاح شيخ الخفر:

- اسكت أنت. ومن قال إننى أتدخل فى أمور الأولياء؟ إذا كانت ستقيم هنا فستكون مسئولة منى. أنا حاميكم جميعاً، وستدخل هى ضمن من يقعون تحت حمايتى، لهذا لابد لى من أن أسأل.

وعاد الرجل العجوز يقول:

- ربنا يهديك يا ابنى. المهم أن تحسب حساب كرامات هؤلاء، إن لهم كرامات يا شيخ الخفر لا نستطيع نحن أن نفهمها، ولا أن نفسرها.

قال شيخ الخفر:

- أنت الذى ستعلمنى يا جاهل؟ قلت لك اسكت.

وسكت الرجل، وسكت الجمع الذى أحاط بشيخ الخفر، وتحركت شفتا شيخ الخفر حركة نهمة، وهو يتخيل الحورية الفاتنة الحلوة التى تخدم الشيخ.

وقال شيخ الخفر للناس:

ـ هلموا بنا. سأرى بنفسى ما هناك.

وتحركت القرية كلها نحو ضريح سيدى الذكيرى، يتقدمها شيخ الخفر، وحوله خفيران مسلحان.

وأخذ الناس يعيشون فى تصورات ساذجة وغريبة، ويتهامسون فيما بينهم عما عسى أن يكون هذا الأمر.

ومن الناس من اعتبر يقظة سيدى الذكيرى فاتحة خير لهذه البلدة.

وآخرون منهم اعتبره نذير شؤم على القرية ومن فيها.

وبين الخيالات المتفائلة، والتصورات السوداء، كانت القرية تتحرك لترى بنفسها سيدى الذكيرى الذى عاشت أجيالها تزور ضريحة، ولا تعرف له شكلا.

وعندما وصلت جموع الفلاحين إلى المقابر، وقف شيخ الخفر أمام الضريح، ليأخذ أنفاسه. لقد بدأ يهاب الموقف.

ونظر إلى الخفيرين المحيطين به وقال لهما فى لهجة الأمر الذى لا يقبل جدلا ولا مناقشة:

ـ هيا. ادخلا لتريا بأعينكما.

واقترب الخفيران من باب الضريح، وقد كتمت القرية كلها أنفاسها، ثم أطلا من بعيد، وعادا مسرعين إلى شيخ الخفر، وهما يلهثان.

قال شيخ الخفر:

ـ ماذا وجدتما؟ انطقا.

قال أحدهما:

ـ رجل هناك، على رأسه عمامة خضراء.

قال شيخ الخفر:

ـ ما شكله؟ تكلما.

قال أحدهما:

ـ لا. لم نر له شكلا. إن ظهره للباب.

قال لهما وهو يكاد يغلى من الغيظ:

ـ اذهبا وادخلا إليه، تكلما معه.

وتردد الخفيران، وارتبك كل منهما حتى اصطكت أسنانهما فى خوف وهلع.

وعاد شيخ الخفر يصيح:

ـ اسمعا ونفذا وإلا فأنتما تعرفان مصيركما. هيا تحركا. استرجلا ولا تكونا كالنساء.

وظلا مع ذلك مسمرين فى مكانيهما.

●●●

وفجأة، تطلعت كل العيون نحو باب الضريح، لترى سيدى الذكيرى بنفسه واقفاً بالباب.

وارتفعت الصيحات تكبر الله، وتصلى على النبى، والرجل واقف على عتبة الضريح جليلا مهيباً، وعلى راسه عمامة خضراء فى لون البرسيم، وعلى فمه ابتسامه مشرقة، فى تفتح الزهور، وبين أصابعه مسبحة طويلة تتدلى حباتها فى بريق، كحبات النبق، ولحيته بيضاء طويلة مرسلة، كاللبن الحليب.

وهاج الناس أمام هذا الوقار، وشعروا نحوه بالحب والاطمئنان فصاحوا:

أنت سيدى الذكيرى. شيئاً لله يا سيدى أحمد الذكيرى.

لكن الرجل اكتفى بالنظر إليهم دون كلام.

واستقرت نظراته على شيخ الخفر، فأطال النظر إليه، حتى كادت عيناه أن تنفذا إلى قلبه، فى حين يمد شيخ الخفر يديه إلى ملابسه ليشدها مرة، وليتحسسها مرة أخرى، وهو يكاد أن يتلفت حواليه ليرى ماذا يقول عنه الناس،وماذا يرون فى موقف الشيخ منه، لكن الكبرياء تحول بينه وبين هذا فيظل حيث هو، مرتبكاً، لا يدرى ماذا هو صانع.

وبعد أن تهدأ الأصوات يتحدث الشيخ فى صوت متهدج متموج عميق، فتصل كلماته الهادئة الوقور إلى أعمق أعماق هذه النفوس :

ـ لا يا أولادى. أنا لست سيدى أحمد الذكيرى رضى الله عنه وأرضاه. بل إنى خادم من خدامه، ومن خدام الله وأوليائه جميعاً. ساقتنى إلى هنا كرامات أولياء الله، فلم أشأ أن أخرج على هذه الكرامات. وسأبقى هنا خادماً لله و لسيدى أحمد الذكيرى، حتى يأذن الله، لا تخافونى، فأنا واحد منكم. أنا خادمكم. إننا لسنا فى يوم البعث حتى تظنوا السيد أحمد الذكيرى قد بعثه الله على غير موعد. تعالوا زوروا الضريح المبارك، زوروا موتاكم، ولنقرأ جميعاً الفاتحة على هذه الأرواح الطاهرة. تعالوا يا أولادى. اقتربوا منى...اقتربوا...اقتربوا.

ومع نداءات الشيخ لهم بالاقتراب، أخذت أقدامهم تتحرك، مع كل نداء، كأنهم طابور من الجند يأتمرون بأمر قائدهم.

حتى "أبو سريع" ، شيخ الخفر الرهيب، أخذ يتحرك مع نداءات الشيخ مقترباً من الضريح.

لقد أحسوا أن قوة قاهرة تحركهم نحو هدف لا يعرفونه، ومع هذا فهم يلبون النداء إليه.

وعندما اقتربوا من الضريح، تسمرت أقدامهم فلم تعد تستطيع الحركة، وجمدت عيونهم فلم تعد تستطيع الطرف، ويبست خيالاتهم فلم تعد تستطيع التصور.

وقف كل ذلك يتطلع إلى هذه الحورية التى ظنوا من قبل أنها هبطت من الجنة لتكون فى خدمة سيدى الذكيرى.

الجمال الهادئ الرزين، يتموج على وجنتيها.

والبسمة الصامتة الحنون، تتحرك على شفتيها.

والطرحة البيضاء، كحمامة بيضاء، تزين هامتها، وتضفى من الوقار، قسطاً وافراً، عليها.

وحبات صغيرة تتحرك بين أناملها الرقيقة، كأنما هى قرط من البركة، تجمع فى يديها.

ونور ينبعث من هنا، وهالة هادئة تبدو هناك، وكمال هى هذه الغادة، ما أرق. ما أجمل. ما أهنأ النظر إليها !

وأراد الشيخ أن يقطع هذا الصمت المفاجئ فقال:

- هذه هى الشيخة زوجتى. الشيخة "تفيدة" بارك الله فيها. هى الخير هى النور. هى صلتى بالله العلى المتعال.

ولم تتكلم الشيخة "تفيدة".

واسترق الشيخ نظرة من نظراته نحو شيخ الخفر، فوجده قد اهتز عندما سمع اسمها، كأن قطعة من الجمر مست بدنه.

وبعد أن زالت المفاجأة، أخذ الشيخ يدور حول الضريح، وهو يقرأ القرآن، ويصلى على النبى، ويرتل بعض الدعوات، والجموع حوله تتدافع ليصيبها بعض من البركة.

ثم خرج والناس وراءه، فزار القبور، ووقف عند بعضها وهو يتلو فاتحة الكتاب الكريم. ثم عاد إلى حيث الضريح فدخله مطأطئ القامة فى أدب، وأخذ يتهجد لله، ويرتفع صوته فى تقوى، وهو يتلو آيات الكتاب.

وهكذا استقر الشيخ فى القرية، فى أرق مكان من خيالها.

وأخذ أهل القرية يترددون عليه كل يوم، يسألونه الدعاء، كما أخذوا يتوافدون عليه كل ليلة من ليالى الجمع، ليحضروا حضرته الكبيرة.

وكان الشيخ "مختار"، شيخ الجامع، قد كبر، ولكنه مع هذا كان محتفظاً بقواه. ربى لحيته هو الآخر، فبدا جليلا وقوراً.

ولقد أصبح الشيخ "مختار" من أحب أهل القرية إليه، يلقاه هاشاً باشاً مرحباً، ويسمع منه القصص والحكايات عن الشيخ "مرزوق"، وبركاته السابغة، ونهاية حياته فى المدينة المنورة قريباً من ضريح النبى صلوات الله عليه وسلامه.

كذلك أصبحت زوجته "راضية" ابنة الشيخ "مرزوق"، أقرب نساء القرية إلى قلب الشيخة "تفيدة"، تجتمعان ولا حديث لهما إلا عن حب الله وطاعة نبيه، وأداء الفرائض، طاعة لله وتلبية لأوامره.

وكان الشيخ "أبو عوف" يتظاهر دائماً أنه يسمع حكايات الشيخ "مختار" للمرة الأولى، فى حين يحفظها عن ظهر قلب.

لكنه مع هذا كان يبدى اهتماماً بالغاً بما يقوله الشيخ "مختار"، وهو شارد فى أفكاره لا يدرى ماذا سيكون مصيره، فى هذه التجربة الجديدة التى يخوضها مع هذه القرية.

●●●

أما ولادته هناك فى الخص، فهو لا يذكرها إلا من الروايات التى سمعها من "أبو المكارم" أول الأمر، ثم من جده وجدته وخالته بعد ذلك.

ولكم كان يحز فى نفسه، أن قد سبقت هذه الولادة التعسة روايات مختلفة عن نسبه وسلوك أمه، واتهامها بالخيانة مع أخويه "ناجى" و "سامى".

وكان كل ذلك يا "جلال"، من أجل بضعة فدادين، كان يمكن أن ترثها لو ترك الأمر طبيعياً بغير افتراء. لكنها النفوس الجشعة النهمة الجوعانة تبحث عن أى طعام، ولو اختطفته من بين شفاه الجياع المحرومين.

وبهذا لم تعد يا "جلال" ابن الحاج "سلطان" وإنما صرت نبتاً مجهول الأب، مجهول التربة كذلك، تتقاذفة الريح لتعبث به من كل جانب.

لم يكفهم أمك التى ألقوا بها بين مياه الرياح، ولا جدك الذى اتهموه بقتل ابنته، وهددوه بالفتك بجدتك وخالتك إن هو فاه بحرف من الحقيقة. لكنهم ألقوا بك خارج البيت لتحيا عند الساقية، فى رعاية الأخرس كما قالوا.

بارك الله لك يا عمى "أبو المكارم"، فقد كان حبك أهنأ من القلوب المتوحشة، وعطفك أجمل ما نعمت به فى طفولتى.

لقد بدأت حياتى، من حيث انتهت يا أماه.

عند الصفصافة التى شهدت مصرعك، وسمعت صيحات استغاثتك، كنت ألعب مع عمى أبو المكارم، وأداعبه والاعبه فلا يرد. وكنت أضحك ملء شدقى وأنا أسمعه يحاول الكلام فلا يستطيع، فيكتفى بالصيحات والإشارات، وكثيراً ما تعلمت عنه - برغم أنه أخرس- ما لم يكن فى استطاعة أحد من أهلى أن يعلمنى إياه.

تعلمت الحقد على هؤلاء الوحوش.

تعلمت الثورة على الظلم والغدر والكذب والافتراء.

تعلمت كيف أحب، وكيف اكره. فلم يعد فى استطاعة أحد أن يخلط بين ما يجب أن أحبه، وما يجب أن أكرهه.

تعلمت أن السعادة التى يحيا فيها عمى "أبو المكارم"، أعمق وأبقى، وأعصى على البغى من أن تزول. ماذا يزول منها، وكيف تزول؟ إنها داخل نفسه. إنها فى أعماقة إنها فى قناعته ورضاه. إنها فى ضميره. إنها مستكنة لديه هو، فعزت حتى على الحسود.

أما سعادة الآخرين، فهي مهددة أبداً، خائفة ابداً لأنها لا تقوم على شىء فى النفس أو فى القلب أو فى الضمير. إنها سعادة السلب والنهب وخطف الأرزاق من الأفواه، وخطف أمى من الخص الصغير الحقير، سعادة مهددة بالزوال، تخاف حتى من الهمس، وترتعد من الخطو المتردد الجبان.على أنى لحقت بجدتى فى دمنهور.

فلما امتد الحقد الأسود إلى جدى فى سجنه فمات.

ولما لحق النحس جدتى فرحلت.

ولما أسدل الستار على هذه الأسرة المنكوبة فذهبت خالتى إلى غير رجعة، لم يبق لى إلا "رءوف". لكنه هو الآخر مضى وتركنى بلا رفيق.

وأخذت أفكر فى أمرى، فقررت أن أعود إلى قريتى.

إننى صاحب حق هناك. إن لى فيها دماً أهدروه ظلما وتجبراً. إن هواءها هوائى. إن ترابها ترابى. إن نبتها الأخضر جزء من كيانى.

لأعد إلى هناك، ولأواجه العاصفة أياً كانت حدتها.

ولقد كنت سعيداً فرحاً لأننى سألقى عمى "أبو المكارم"، إننى أحبه، وأشعر بدفء عواطفه. إنه يتهلل فرحاً عندما يرانى. إنه يجوع ليطعمنى، ويتعرى ليغطينى، ويسهر الليالى ليرقبنى وأنا نائم، أتقلب فى أحلام لا أول لها ولا آخر.

وقدرت أن الزمن الطويل الذى مضى، لابد أن يكون قد ضمد الجراح.

لقد مات أبى. كنت أعلم أنه مات، بعد مرض، أذله إذلالا شديداً.

لكن كان لابد من أن يلقى هذا المصير. إن يديه ملوثتان بدماء أمى. لم يذكر يوم وشوا بها إليه، يوماً هانئاً قضاه معها. لم يذكر أنه اغتصبها من أسرتها الصغيرة الفقيرة. لم يذكر أنه سد بها جوع نفسه إلى الصبا وإلى الجمال. ولم يذكر أنه ملأ بها حياته المعتمة نوراً وأملا. أبداً لم يذكر كل ذلك، وصدق المخبول روايات السوء، فأغمض عينيه عن جريمة بشعة ذهبت ضحيتها زوجته الصغيرة الجميلة، وبقيت أنا ضحية حية أفلتت بالصدفة من الموت.

ولقد أصبح أخى عمدة البلد. أخى "غضبان" أصبح هو العمدة، خلفاً لحماه، بعد أن مات، ولم ينجب من صلبه من يصلح الكبير.

من يدرى؟ ربما يكون الزمن قد ضمد جراح النفوس، وأنا لا أريد شيئاً، ولست أطمع فى شىء. كل ما كنت أرغب فيه أن أجد مكانا آوى إليه،وأن أجد ناساً أعيش معهم فى

أمان. لم يكن يهمنى أن يتقرر لى ميراث. أبداً لم يكن هذا يهمنى. لكنى مع هذا كنت ألا أظل ساقط النسب مجهول الأب، مطعون الشرف.

وعندما وصلت إلى البلدة، كان طبيعياً أن أرى عمى "أبو المكارم"، فرحب بى ترحيباً شديداً، وكاد الفرح يعمى عينيه من فرط ما دمعت عيناه.

ولما أخبرته بنيتى فى أن أواجه أخى العمدة هز رأسه وصمت.

وذهبت إليه، ودخلت عليه، وقبلت يديه.

قلت له فى ود الأخ لأخيه:

- أنا "جلال" أخوك. أنا "جلال" يا حضرة العمدة.

وكاد أخى أن قلبه لى، لولا أن المارد الشيطان كان واقفاً والكرباج فى يده، لقد هب "أبو سريع" من بين الجالسين يصيح:

- أخرج من هنا حالاً يا ابن "تفيدة". لماذا أتيت إلينا؟ أما يكفينا ما آتت به أمك من التحس؟ مات الحاج سلطان وهو يلعنها ويلعنك. لقد حرمك من الميراث قبل أن يموت، كما حرم أولاد "قمر". تريدون أن تفرضوا وجودكم علينا. اذهب واخرج من هنا قبل أن أقتلك. حتى الرجل الذى مات تتحايلون على إرادته !! الحاج الله يرحمه مات بريئاً منك ومن أمك. اذهب إلى الوحل الذى خرجت منه يا نجس.

ولم يستطع العمدة أن يجيب. ولم أنطق أنا بحرف.

وتدخل رجل لم أعرفه يصيح فى شيخ الخفر:

- يا أخى حرام عليك. أليس هذا ابن الحاج "سلطان" ومن صلبه؟ ألم يقل الحاج "سلطان" ذلك فى التحقيق بعد أن غرقت أمه؟ ألم يتهم أباها بالجنون والخبل لأنه قتلها ظلماً، وهى شريفة طاهرة؟ لماذا حكم على الرجل المسكين "أبو عوف"؟ يا رجل كفاك ظلماً. هذا طفل صغيرا يلجأ إلى أخيه الأكبر عمدة هذه البلدة. فلماذا تتدخل بالأذى؟

وصاح شيخ الخفر فى الرجل:

- وما دخلك أنت يا "عباس"؟

قال الرجل:

- أنا صهره مثلما أنت صهره. أتظن أن بندقيتك هذه تخيفني؟ يا رجل عش بقية أيامك تكفر عن سيئاتك. ألا بد لك من أن تموت والدنيا كلها تلعنك؟!

وعاد شيخ الخفر يصيح:

- والله إنك بهيم لا تعرف شيئاً. إن هذا الولد ليس منا. إنه نحس كأمه، وقد حرمه الحاج رحمة الله من ميراثه، فهلا تحترم إرادة الميت يا نذل.

قال "عباس":

- وهل طالبكم هذا المسكين بميراث؟ اسألوه أولا ماذا يريد. كلنا نعلم أنه لم يبق له أحد، فهل نرمى لحمنا للكلاب؟

لكن شيخ الخفر لم يتردد فى أن يقسم بأغلظ الأيمان ألا يبيت هذا الولد فى هذه القرية وإلا قتله بيديه.

وأحس العمدة أن أزمة طاحنة تهدد بيته وأهله فنظر إلى "جلال" واغتصب من حلقه بضع كلمات لم تزد على أنه طلب منه أن يبحث له عن مكان آخر يعيش فيه.

وقال "لعباس" أن يعطيه ما يريد، ولا داعى للخلاف من أجل شىء تافه كهذا.

- إن تكن به حاجة إلى نقود فأعطه حاجته يا "عباس"، ثم يعود من حيث أتى. لا تختلف مع شيخ الخفر. إن الأمر تافه وبسيط.

تافه وبسيط. مستقبلى أمر تافه وبسيط. مصيرى أمر تافه وبسيط.

وابتلعت ريقى، وأنا أجر قدمى بعيداً عن هذا الجو الكريه.

وتبعنى "عباس" فمسح على رأسى وهو يسألنى عن أى شئ أريد.

لكنى قلت له والدموع فى عينى إننى لا أريد شيئاً. إن الله معى.

ومضيت إلى حيث كان الخص الذى ولدت فيه لا يزال قائماً.

هنا كان جدى وجدتى وخالتى وأمى يعيشون.

إن الخص مهجور، لكن رائحة طيبة كانت تفوح منه.

ولما اطمأننت، إلى أن أحداً لا يرانى ولا يراقبنى، دخلت هذا الخص. وأخذت أتمرغ على أرضه الطيبة. لا بد أن أمى كانت تنام هنا. لابد أنها كانت تلعب هنا. لابد أنها كانت تطل من هنا على هذه المساحة الخضراء الجميلة، لتملأ عينيها من جمال الطبيعة الحنون.

وأخذت أفكر فى أمرى.

هل أذهب لعمى "أبو المكارم".

لكن لا. إنهم لو رأونى عنده، فقد يؤذونه بسببى.

هل أعود من حيث أتيت؟

لكن لمن أعود؟ وكيف أعيش؟

هل رآنى أحد وأنا أدخل هذا الخص؟

لكن عباس هو الذى كلف بأمرى، وقد تركنى فى طريق القرية الآخر. وهو على ثقة من أنى ذاهب إلى محطة السكة الحديد.

وهب أن أحداً رآك. هل سيصيبك أكثر مما أصابك من الإذلال عند أخيك الضعيف الجبان؟

إذن لأبق هنا، حيث عاشت أمى، أتنسم رائحتها، وأشبع روحى من خيالاتى معها.

وبقيت هناك فى الخص المهجور.

ما كان أحلى الليل، ونقيق الضفادع يتردد بين سكتاته، وصوت الساقية يحمل إلى خطوات عمى "أبو المكارم" وهى تدور مع صوتها هذا المتصل.

لقد أحسست أن عمى "أبو المكارم" معى، وأن أنفاسه تلامس وجهى ونمت نوماً هادئاً أيقظنى نور القمر.

لكنى شعرت بالجوع، فتسللت فى جنح الليل إلى الحديقة التى أفنى فيها جدى عمره، وعدت بما وجدته من ثمرها، وسددت حاجتى إلى الطعام.

وفجأة أحسست عمق الإهانة التى لحقتنى.

أنا نجس !!

ومن الذى يقولها؟

النجس الحقيقى شيخ الخفر !

وإلى متى تظل ساكتاً على هؤلاء الكلاب؟

ألا تثأر؟ ألا تنتقم؟

أحرق زراعة "أبو سريع" نفسه، لأهز مكانته عند الناس. أنا أعرف حقله، وأعرف أنه يتركه بلا حراسة مكتفياً بأنه حقل "أبو سريع"، وهذا وحده حراسة كافية للحقل وما فى الحقل. إنه فى الناحية الأخرى من القرية، والمسافة بينى وبينه لا تعدو دقائق مشياً على الأقدام من بين الحقول.

لكن أين النار؟ أين الكبريت؟

وشعرت بخيبة أمل شديدة. لقد ضاع كل تدبيرى. لقد كنت أحلم بمنظره وهو ينفخ ويغلى، ويصيح ويسب كل من يلقاه بأقذع ألوان السباب. إنه سيجن، هو الذى يحرق حقول الناس، عندما يجد أنه أصبح فى متناول نيران الناس.

وفجأة قلت فى نفسى:

- عرفت. إن عمى "أبو المكارم" يحتفظ بعلبة كبريت فى جذع الصفصافة. أنا أذكر هذا عندما كان يغلى لى بعض اللبن وأنا طفل. إذن أبدأ بسرقتها من عمى أبو المكارم. وضحكت لذلك فيما بينى وبين نفسى.

●●●

وعندما ارتفعت النار فى حقل أبو سريع، شعرت بالرضى والاطمئنان، وأنا أعود مسرعاً إلى مكانى من الخص، فى الناحية الأخرى من البلدة.

وفى ركن من أركان الخص، أخذت أتسمع صيحات الاستغاثة تنطلق مع ألسنة اللهب، وهى تشوى جلد الطاغية الجبار.

ووصلت إلى سمعى هذه الصيحات من الرجال ومن النساء ومن الأطفال، وألسنة النار ترتفع ويصل نورها إلى القرية متقطعاً كأنه البرق.

ـ النار تشتعل فى الحقل.

ـ حقل من يا ترى؟

ـ فعلها "أبو سريع".

ـ إنها تأكل حقل "أبو سريع".

ـ غير معقول. حقل "أبو سريع" تصله النار؟

ـ والله إنها فى حقل "أبو سريع".

ـ هيا قبل أن تمتد إلى الحقول المجاورة.

وضحكت من قلبى، وأنا أسمع هذه الصيحات.

ومع ضوء النهار، سرت إلى جسمى قشعريرة من الخوف، فتركت الخص إلى الحقول، ولم أنس أن أملأ جيوبى من ثمار الفاكهة، لأحشو بها بطنى الخاوية.

وقضيت اليوم بين الحقول مختبئاً عن العيون.

وعندما أقبل المساء، أخذت طريقى على الخص لأنام حيث اعتادت أمى أن تنام.

لكنى شعرت وأنا فى الطريق إلى الخص، أننى محتاج إلى خبز. إن الفاكهة لم تعد تشبعنى. أنا أريد أن آكل خبزاً.

وعدت أقول:

ـ أسرقه منه. من عمى "أبو المكارم". إنه يحبنى، ولو أنه علم بحالتى لجاع من أجلى، ثم هو رجل لا يهتم بشىء. إنه راض بأى شىء، ولن يضنيه أن يفقد بالفعل كل شىء.

وانتهزت فرصة انشغاله فى الساقية، ومددت يدى إلى جذع الصفصافة، وأخذت حاجتى من الطعام، وتركت له ما يكفيه.

ولم أنس أن أطل عليه وهو يدور دوراته حول الساقية، لأملأ منه عينى.

وعندما استقر جسدى فى ركن الخص، وصلت إلى سمعى أصوات تقترب منى.

وخفت خوفاً شديداً.

هل هم قادمون من أجلى؟ هل عرف أحد مكانى؟ إن "أبو سريع" رجل لا يرحم. إنه إنسان غليظ القلب قاسى الفؤاد. ثم إن له عيوناً وآذاناً فى كل مكان.

وارتعدت مفاصلى، وأنا فى مكانى من الخص.

وأخذت الأصوات التى سمعتها تقترب منى رويداً رويداً، حتى كادت أن تصبح داخل الخص.

وسمعتهم يقولون:

ـ وما ذنبنا نحن إذا كان حقله قد حرق؟

ـ إنه يشك فى كل الناس. إنه يكاد يشك فى نفسه.

ـ لكن هذا الاضطهاد الشديد. ضرب الناس بالكرباج، وتعذيب الغفر وسب كل من يراه، وحرمان البلد من التموين، والقسم المستمر بأنه سيؤدبنا. لماذا كل هذا؟

ـ لأن الرجل لم يكن يتصور على الإطلاق، أن تمتد نار إلى حقله، وهو الذى اعتاد على أن يحرق أى حقل، لأى سبب يراه.

ـ أتعرف الأوامر الجديدة؟

ـ نعم يا سيدى علمت ودهشت.

ـ إنه أصدر أمراً إلى كل الرجال وكل النساء أن يتناوبوا حراسة زراعاته فى الحقول.

ـ وحقول العمدة والمشايخ والأعيان.

ـ شىء غريب. لابد أن نخرج كلنا إلى الحقول نحرسها له.

ـ ولا ننام فى بيوتنا !

ـ بعد الجهد الذى نبذله طوال اليوم، يريدنا أن نذهب لحراسة حقولهم !

ـ الأمر لله يا سيدى.

ـ وأولادنا الصغار الرضع، من يرعاهم؟

ـ هذه مشيئة "أبو سريع".

ـ استعد إذن للسهر حتى الفجر.

ـ وهل سيخرج معنا السادة الكبار وزوجاتهم؟

ـ هذه قلة حياء منك ! تجرؤ على هذا يا رجل؟

ـ نعم قلة حياء. لأنى تطاولت على أبناء الحسب والنسب !

ـ ما علينا. سيأتى يوم يفرجها الله.

ـ لكن متى؟ يأتى هذا اليوم؟ إن الرجل يطغى ويزداد كل يوم طغياناً. أما من نهاية؟

ـ انتظر. من يدرى؟

ثم مرت الأصوات، واختفت بين الرياح.

وأخذت أفكر. إن الذى حققته ليلة أمس أرضانى. بل فتح شهيتى لمزيد.

وسألت نفسى:

ـ ماذا تستطيع هذه الليلة أن تفعل؟

وعدت أرد على نفسى:

ـ لكن هل هذا عقلى؟ ألا تنتظر حتى تمر حادثة ليلة الأمس بسلام.

لكنى أخذت أذكر قولا كان يقوله "رءوف". "رءوف" كان يقول لى إن هناك مثلا يقوله الإنجليز هو: اضرب والحديد ساخن:

إذن أضرب. أمضى أضربه هذا الأفاق حتى أذله بين أهل قريته.

أجعله عبرة لمن يعتبر. إن هذا الطغيان وهم. الناس موهومون فى هذا المارد، وهو ليس إلا رجلا كبقية الرجال.

وأخذت أفكر بعقلى الصغير المحدود.

لكنى أخيراً وجدتها. وجدت فكرة أخرى تجعل "أبو سريع" يزداد جنوناً.

ستخرج القرية كلها إلى الحقول، ولا بد أن "أبو سريع" سيخرج معها. لابد أن يمر على الحقول كلها ليتأكد أن واحداً من أهل القرية لم يخالف أوامره.

إذن لن يكون فى القرية أحد من الرجال، إلا الأعيان، وسيكونون مشغولين بأنفسهم، وبأهوائهم.

إذن أستطيع أن أشعل النار فى بيت "أبو سريع".

وأخذت أتصور النار وهى تشتعل فى البيت الظالم. وزوجته "ست الناس" تولول وتصيح وتخرج عارية حافية القدمين إلى عرض الطريق، وهى تجر وراءها أولادها، "وأبو سريع"هناك فى الحقول، يمارس سلطانه، فما إن يسمع الخبر حتى يخر مغمى عليه.

وضحكت. لكنى عدت أفكر فى "ست الناس".

أليست أختى؟ أليس أولادها أولاد أختى؟ الست خالهم؟

وكدت أضعف، لولا أننى تذكرت ما قاله لى من أنى نجس. ولولا أنى تذكرت أنه ينكر نسبى للأسرة الكبيرة العريقة. لولا أنه يعتبرنى سبة فى شرفه وشرف عائلته.

وقررت أن أمضى فى طريقى.

لقد جئت هذه القرية ألتمس الأمن، فاستكثر على الأمن. استكثر على مكاناً ألجأ إليه، ولقمة آكلها، وناساً أعيش معهم. لا. إنه مجرم نذل، ولابد من تأديبه. ألم تسمع الناس؟ إنهم جميعاً يتوقون شوقاً إلى اليوم الذى يرونه فيه أمامهم راكعاً على قدميه.

لقد قال واحد منهم من يدرى. صحيح من يدرى. ربما كانت آخرته على يدى.

وأخذت أنتظر والوقت يمر بطيئاً. فما إن أوغل الليل فى ظلامه، حتى تحققت أن الساعة قد باتت مناسبة.

وخرجت من الخص أتحسس طريقى.

لم يكن فى القرية رجل. لم أحس حتى إن فيها نفساً يتردد.

وتسللت من حارة إلى حارة، ومن مكان إلى مكان، حتى أصبحت أمام المسجد. واستغفرت الله، وطلبت منه أن يسامحنى، وقلت له: يا ربى أنت تعلم أننى دفعت إلى هذا دفعاً. إننى لم أرد هذا، ولكنهم هم الذين أرادوه.

واستأنفت مسيرى حتى وجدت نفسى أخيراً أمام بيت "أبو سريع".

وتشاء المصادفات إلا أن يكون الباب مفتوحاً.

لكن لماذا ظننت أنها المصادفات؟ إن بيت "أبو سريع" قدس حرام. من الذى يجرؤ على الاقتراب منه؟ أنا سأدخله. أنا سأشعله بالنار. لا تزال معى بقية أعواد الكبريت. أنا سأحيله إلى رماد. يا صقر الغابة، يا صاحب أضخم شوارب فى القرية، إنى هنا.

وفى فناء الدار وجدت كوماً من الحطب.

كل شىء دبره القدر ليخدمنى. ليذل هذا العنق الكالح الذى طالما تطاول على كل الأعناق، بل أذل كل الأعناق.

وفى طرفة عين كنت قد أديت مهمتى، واطمأننت إلى أن النيران قد بدأت تأكل هذا الحطب، وأنها ستنتقل منه بعد ذلك إلى غرف الدار.

وفى طرفه عين كنت خارج البيت أمام الجامع، فى الطريق إلى الخص.

ولم أدر بشىء. فقدت الشعور حتى بوجودى. تحولت إلى قطعة باردة من الثلج. كل شىء فى آخذ يرتعد.

حاولت أن أختبئ فى الخص فلم أستطع. حاولت أن أجرى بين الحقول فلم أستطع. ووجدت أنى محتاج إلى قلب حنون. إلى أم تربت على كتفى وتمسح رأسى. إلى أب يحمينى من نفسى. من هواجسى.

ورأيت ألسنة اللهب ترتفع.

ووهض بريقها حتى وصل إلى وجهى، يريد أن يلفح خدى.

وجريت إلى عمى "أبو المكارم" فوجدته قد ترك الساقية تدور، وأخذ هو يطل على النيران، ويحاول أن يعرف أين هى من القرية تماماً.

وارتميت على صدره وأخذت أبكى وأصيح.

- إنها تأكل بيت "أبو سريع". أنا الذى أشعلتها. أنا الذى حرقت حقل "أبو سريع" ليلة أمس. هل أنا مجرم يا عمى؟ قل لى هل أنا مجرم؟

وأخذ يربت على كتفى، ويتحسس خدى، ويمسح شعرى بيديه الطاهرتين الصامتتين ويشاركنى دموعى.

وأحسست لحظتها أن لى فى هذا الدنيا قلباً يشعر بوجودى، ويحس آلامى، ويشاركنى الحقد على هؤلاء الكلاب الذين لوثوا أمى، وأنكروا نسبى، وتركونى ضائعاً بلا أهل ولا صديق.

وقال لى عمى "أبو المكارم" بإشاراته التى أعرفها عنه، وصوته المتهدج الحزين .

- أنا عرفت كل شىء. أدركت ليلة أمس أنك أنت الذى فعلتها. أنت لم تحضر إلى خفت أن أعرف عنك هذا. لكن ماذا تفعل يا ابنى بعد كل هذا؟

وسمعت وأنا مع عمى عند الساقية الصراخ والعويل وأصوات الاستغاثة.

ورأينا معاً كيف أخذ الرجال يهرعون إلى البلدة، لإطفاء النار.

وتخيلت الرجل الجبار، وقد انهارت أعصابه، فأخذ يقول كلاماً أقرب إلى الهذيان والناس شامتة فيه.

وخفت على عمى "أبو المكارم".

خفت أن يرونى معه، وأن يفتضح أمره.

لكنى خفت أيضاً أن أتركه.

وقلت له:

- بماذا تنصحنى يا عمى "أبو المكارم"؟

قال:

- لقد خرج الأمر عن النصيحة يا ابنى. اذهب تصحبك عناية الله. وأنت تعرف أنى هنا، وأنه يسعدنى أن أراك كلما تاقت نفسك إلى . مع السلامة يا ابنى.

●●●

وتركته، وتركت معه قلبى ومشاعرى.

وأخذت أسير فى الحقول، مختبئاً عن العيون، خائفاً حتى من صرير الريح.

ثم استهوانى منظر النار مرة أخرى، فوقفت أنظر إليها من بعيد، وهى تختفى رويداً رويداً . إنهم يطفئونها الآن. إن الرجال قد تكاثروا عليها لينقذوا البيوت الأخرى منها.

لست أدرى هل كنت إذ ذاك أستطيع أن أقول لنفسى:

- انظر. ها أنت صبى صغير لا حيلة لك. ها أنت ذا غلام لا تملك من دنياك حتى إلى أبيك. ها أنت ذا ضائع بلا أهل ولا صاحب. ومع هذا فقد استطعت أن تفقد الرجل الرهيب أعصابه. استطعت أن تهزه هزاً عنيفاً لا رفق فيه. وبماذا؟ بعود من الكبريت لا يساوى شيئاً. إنه الوهم يسيطر على أهل هذه القرية، ولو أنهم عرفوا كيف يعاملونه، لأذلوه. مساكين يا أبناء بلدى. متى نعرفون حقيقة هذا الطاغية؟

وبينما أنا فى وقفتى هذه بين أعواد الذرة، أحسست بيد فوق كتفى.

وشعرت أن حية رقطاء قد اعتلت جسدى، وأن النار التى أشعلتها، قد وصلت على لتحرقنى.

واهتز جسمى كالمحموم، والتفت خلفى فوجدته.

إنه "عباس"، عباس زوج أختى "درة زمانها". الرجل الذى حاول أن يدافع عنى فأسكته "أبو سريع" بصيحاته الرهيبة.

ولم أعرف ماذا أقول له. لابد أنه قادم ليقبض على.

وابتسم "عباس" وهو يقول:

- أنت؟

وهززت رأسى معترفاً بما حدث. لم يكن هناك داع للإنكار.

قال وابتسامته تملأ وجهه:

- كنت أعرف أنه أنت.

قلت:

- لم يكن قصدى...أنت تعرف. والله لقد جئت إلى هذه القرية لأعيش فيها آمناً ...لكنهم هم الذين ...

قال:

- لا . لا .لا تعتذر عن شىء. إن هذا هو ما كان يجب عليك أن تفعله.

قلت:

- وستأخذنى إلى "أبو سريع".

قال:

- عيب. أنا، يا "جلال" !

قلت:

- إذن ستأخذنى إلى العمدة؟

قال:

- عمدة ! أى عمدة؟ لا يا "جلال".

قلت:

- إلى نقطة البوليس إذن؟

قال:

- ولا هذا أيضاً. أبداً.

قلت:

- إذن ماذا تريد منى؟

قال:

- سأعمل معك.

قلت:

- نحرق مزارع "أبو سريع"؟ ونحرق بيته؟

قال:

- نحطم "أبو سريع" معاً.

قلت:

- لكنى غريب شريد هنا.

قال:

- سأدبر أنا أمرك.

قلت:

- وإن ضبطونى؟

قال:

- لا حلاوة بلا نار يا "جلال".

واتفقنا على موعد نلتقى فيه إذا ما كان الغد، بين حقول الذرة، لنرسم طريقة العمل معاً.

●●●

على أنى لم أطمئن تماماً إليه.

كان لابد لى من أن أذهب إلى عمى "أبو المكارم"، قبل أن يطلع النهار، لآخذ منه النصيحة التى يجب على أن أتبعها.

وهناك عند الساقية وجدته كأنما كان ينتظرنى.

ولما رويت له ما حدث، انفرج ثغره عن ابتسامة فاترة وروى لى كل شىء.

إن أبى قد قضى السنوات الأخيرة من عمره، وهو مريض. كان يئن من آلام قاسية فى ظهره وفى صدره، حتى إن ظهره قد تقوس، ولم يكن يستطيع الحركة إلا مستنداً إلى أحد. وطال به المرض، حتى أذله. ولم تجد معه وسائل العلاج، فكان يزداد ضعفاً على ضعفه.

وقالت القرية كلها إنه ذنب "تفيدة" و "أبو عوف"، و"أم الهنا" و"مفيدة"، والولد الصغير الذى حرموه من الميراث.

ورددت القرية إن الله يمهل، ولكنه لا يهمل.

وذكرت القرية موقف الست "قمر"، وكيف حاولت أن تدفع الظلم عن هذه الأسرة المنكوبة فكان مصيرها الطرد من رحمة الحاج "سلطان"، والحكم عليها بألا تدخل وأولادها، "سامى" و "ناجى" و "وردة" هذه البلدة أبداً بل ألا يكون فيها ميراث.

ووجد "أبو سريع" فى مرض الحاج سلطان فرصته، فتقرب إليه مستغلا مرضه وضعفه وهزاله وحاجته، حتى كسب عطفه وأصبح أحب إنسان لديه.

وأخذ "أبو سريع" يتلاعب بالرجل المريض، فأفهمه أن ابنه غضبان هو شيخ البلد، وهو زوج ابنة العمدة، وهو الذى سيخلف العمدة فى منصبه لأن ابنه صغير. لكنه مسكين سيكون فقيراً ومحتاجاً، ومنصب العمدة محتاج إلى مظهر معين . ووجاهة وأبهة.

وبعد أن اقتنع الحاج "سلطان" بهذه النظرية، وحسب الحسبة، ووجد أن الساقية ستكون من نصيب غضبان، لكنها ستفقده بعض ميراثه من الأرض. عندئذ وجد أن يؤمن ابنه "غضبان"، وأن يوفر له النصاب الذى يحتاج إليه المنصب الجديد.

- لكن كيف؟

- الأمر بسيط. احرم البنات من ميراثك، فتبقى الأرض للذكور، وينال "غضبان نصيباً أكبر.

- لكن هل يرضى الله؟

- لماذا لا يرضى؟ "درة زمانها" سترث الجرن. ألا يكفيها هذا؟

- و "ست الناس". زوجتك "ست الناس"؟

- الله الغنى يا حاج. ما دمنا نعمل لخير العائلة، فلا يهمنا شىء.

- لكن الخدمات التى أديتها لى يا "أبو سريع". أليس لها من ثمن؟

- ثمنها رضاؤك يا "حاج سلطان". صحتك التى ستعود إليك أحس مما كانت إن شاء الله.

- لكن لا...لا بد من أن أجازيك.

- إذن تبيع لى نصيب "ست الناس"، فلا يدخل هذا البيع فى الميراث.

- فكرة جميلة. أنت سبع الليل والله يا "أبو سريع".

وباع الحاج "سلطان" لـ "أبو سريع" ما كانت سترثه زوجته "ست الناس" من الأرض، ثم حرم البنات من الميراث.

ولم يكتشف أحد هذه اللعبة إلا بعد أن مات الرجل المتهالك المريض.

وكسب "أبو سريع" أرضا باسمه، لا موروثة من أحد، ولا ترتب لزوجته عليه جميلا تتطاول به عليه.

ومات العمدة بعد ذلك، وولده غلام، فكان كل شيء معداً لأن يتولى "غضبان" المنصب من بعده.

وكسب "أبو سريع" العمدة الجديد، بل وضعه فى جيبه.

وخرج "عباس" وزوجته "درة زمانها"، من هذا المولد، بلا حمص.

وكانت طعنه لـ"عباس"، ولأسرته أفقدته وعيه، فلجأ إلى المحاكم يطعن فى صحة البيع ولكن "أبو سريع" كان قد اتخذ للأمر عدته، فخسر "عباس" القضية كما خسر الميراث، وأصبح الجرن هو كل ما له فى القرية.

على أن "أبو سريع" قد أراد أن ينكل بـ"عباس" لأنه جسر يوماً على أن يشكوه إلى القضاء فمسخ هذا الجرن، حتى لم يعد مورداً حقيقياً لإيراد.

لقد كان للحاج "سلطان" من الوسائل ما جعل به هذا الجرن بيضة الديك كما يقال، وكانت سيطرته على الساقية، ثم سيطرة إخوته على زراعة القرية ومحاصيلها، تهيئ للجرن مكانته، وترغم أهل القرية على أن يدرسوا محصولاتهم فيه لم يكن الجرن وحده هو مصدر قوة الحاج «سلطان» فلما أصبح هذا الجرن وحيداً، هجره الفلاحون، ولم يعودوا مضطرين إلى درس محصولاتهم فيه.

وفقد "عباس" سيطرته على نفسه أول الأمر، فحاول أن يعادى "أبو سريع"، لكنه باء من هذه المعركة بالخسران.

وتدخل العمدة "غضبان" آخر الأمر فأصلح ما بينهما.

لكن نفس "عباس" انطوت على المرارة، وأخذ يتحين كل فرصة لتجريح "أبو سريع" والنيل منه.

●●●

ـ هل عرفت الآن يا ابنى لماذا يريد "عباس" أن يعمل معك؟

ـ نعم يا عمى "أبو المكارم".

ـ على أن تكون منه على حذر، فإنهم جميعاً كلاب، وقد يبيعك بشربة ماء، إذا وجد نفسه مضطراً إلى ذلك.

ـ سأكون على حذر منه. لا تخف على.

ـ واعلم يا ابنى أن لـ"عباس" عدداً من أصدقاء السوء، كلهم لصوص وسفاحون.

ـ وما شأنى بهؤلاء؟ إنى سأعمل معه هو.

ـ لا، بل سيجرون رجلك إلى الكمين، ليستعملوك.

ـ لكنى لا أريد أن أثأر من أحد، إلا الذين ألحقوا بى الأذى. ليس بينى وبين أحد عداوة إلا هذا الرجل الطاغى "أبو سريع".

ـ إن الذين يبدأون السير فى طريق، قد يعجزون أحياناً عن الوقوف.

ـ لكنى لا أريد أن أعيش لصاً ولا سفاحاً.

ـ جرب يا ابنى. الله يرعاك.

●●●

وكانت الشمس قد بدأت تتفتح كما تتفتح زهور الربيع.

إنها تصحو من نومها تتثاءب عن خيوط كالذهب، ترسلها على فروع الشجر، وتصل أطرافها إلى حيث كانا جالسين على جدار الساقية.

ووقف جلال، ليقبل عمه "أبو المكارم"، ثم يختفى من النور والفضول، وعيون الرقباء، بين الحقول.

□□□

٨

وكانت التجربة مثيرة

لم يكن "جلال" يتصور أن ما يحدث معه الآن، سيحدث ذات يوم.

أبداً، ولا كان يتصور أن أنامله هذه، ستكون قادرة يوماً، على أن تمسك مسدساً، وأن تضغط على الزناد، وهى تصوب المسدس نحو الهدف.

كذلك لم يكن يتصور أنه سيستطيع أبداً أن يصيب هدفاً من الأهداف.

لكنه فعل ذلك كله، وأثبت استعداداً فائقاً، ولما تمض عليه إلا بضعة أسابيع منذ بدأ التدريب.

وذهل "عباس"، وذهل الرجال الذين قدمه إليهم على أنه صهره المظلوم المضطهد الذى عاد من دمنهور ليثأر لأمه من الذين أغرقوها. ذهلوا جميعاً وهم يرونه يمسك المسدس فى ثقة، ويطلق طلقاته فى إصرار، ويصيب الأهداف التى يحددونها له فى براعة.

وكان يبتسم فى زهو وفخار.

وكان الرجال يتطلعون، كل منهم إلى صاحبه، وهم يرونه يدير المسدس ذات يمين وذات يسار، كأنه لعبة من لعب الأطفال يلهو بها، بلا خوف أو تردد.

وقال "عباس":

ـ لكنك بارع يا "جلال". لابد أنك دريت من قبل على إطلاق الرصاص.

وقال "جلال":

- والله ما كان لى يوماً، ولا مسدس أطفال ألعب به. ألا تعرف حالتى؟

هل كانت طفولتى كطفولة الآخرين؟ لا داعى لأن أحكى لك، فأنت تعرف كل شىء.

قال "عباس":

- إن لك مستقبلا عظيماً فى إصابة الهدف. إنك معجزة يا "جلال".

قال "جلال":

- تريد أن تطمئن على.انظر.

ومد "جلال" يده بالمسدس، وصوبه نحو رأس رجل من الرجال الذين عرفه بهم.

وصاح "عباس":

- جلال، إياك.

- لا تخف ...ألم تقل إننى معجزة؟

وأطلق رصاصة من مسدسه، فمرت مروراً سريعاً فوق رأس الرجال، وأطاحت باللبدة التى كان يضعها فوق رأسه فى عناية، وتعمد أن يميلها إلى اليمين، إسرافاً فى الأناقة وزيادة فى الإغراء.

فلما طارت اللبدة من فوق رأسه، وتناثرت قطعاً قطعاً، ضحك "جلال" ضحكة صاخبة وهو يقول:

- لم تعجبنى. لماذا يميلها على حاجبه هكذا؟ لا لا. إنه يبدو أفضل بدونها.

وفوجئ الرجل بالطلقة، وفوجئ كذلك بأن طارت لبدته من فوق رأسه، وفوجئ "بجلال" يسخر منه هذه السخرية، فارتج عليه، ولم يستطع أن يتحدث.

والرجال الآخرون صامتون مذهولون مما يرونه منه.

وقال "عباس":

ـ هكذا سريعاً لا تتعجل يا "جلال".

قال "جلال":

ـ ولم لا؟...الأن هل تطمئنون إلى؟

قالوا:

ـ كل الاطمئنان. إننا نخاف أن نفعل مثلما فعلت، وحرفتنا إطلاق الرصاص وإصابة الهدف، وأنت، بعد تدريب أسابيع تفعل ما لا نقوى نحن عليه؟

قال:

ـ لأنى مشتاق إلى هذا. لأن فى هذا حمايتى. لأن فيه كذلك ثأراً لشرفى. أفهمتم؟ ليس فيكم من يطلق الرصاص من أجل هذه الأغراض. كان يطلق الرصاص، لكن اختلاف الغرض هو الذى يحدد درجة كل منا.

وهز كتفيه، وأخذ يدور حول نفسه، كمن يحاول أن يرقص فرحاً بما بين يديه.

وبدأت خطة العمل.

قال "عباس":

ـ إن "أبو سريع" الآن فى أضعف حالاته. لقد فقد الرجل وعيه. أصبح شديد الثورة على كل شىء. على القرية، على العمدة، على أهله، على كل من يلقاه. إنه يسب ويلعن بلا سبب. إنه لم يكن يتصور أبداً أن تمتد يد إلى زراعته فتحرقها، ثم إذا انصرف إلى الحقول يحميها، امتدت النار إلى بيته لتأتى على ما فيه.

وصاح "جلال"

ـ لكن خبرنى. كيف حال زوجته وأولاده؟

قال "عباس":

- فى أسوأ حال. أنت تعرف ما أصابهم من ذعر. لقد فوجئوا ليلة الحريق بالنار تشتعل فى بيتهم، وخرجوا عرايا أو كالعرايا.

قال "جلال":

- وأختى "ست الناس"؟

قال "عباس":

- خرجت بملابس نومها حافية القدمين، تجر أطفالها فى يديها، وتولول كالثكلى.

وقال أحد الرجال:

- لقد هتكت المفاجأة سترها، فبدت عارية مكشوفة الصدر...

ولم يستطع أن يتم فقد بادره "جلال" صائحاً فيه فى غضب:

- اسكت قاتلك الله. اسكت وإلا أسكتك أنا بهذا.

وذهل الرجل، وبرقت عيناه بالشر، واصطكت أسنانه بالكراهية.

ثم صاح فى "جلال":

- إياك أن ترفع صوتك فى. أنت لا تزال غلاماً يافعاً، ضائعاً كذلك.

ولم يشعر الرجل إلا بالغلام اليافع الضائع يصفعه على وجهه، صفعة كأنها كرباج "أبو سريع". وكانت مفاجأة مذهلة له و لـ"عباس" وللرجال الآخرين.

وهب الرجل ليمسك "جلال" ويؤوبه على فعلته تلك.

لكن "عباس" والرجال الآخرون فضوا ما ثار بينهما من خلاف، فى حين ارتفعت صيحات "جلال":

- إنى لن أسمح لواحد أن يعرض بأختى. إنها أختى. أنت تعرف ذلك، فإن ظننت أن كراهيتى لـ"أبو سريع"، ستحملنى على أن أكره أختى فأنت واهم. إياكم أن تتطاولوا على

أخواتى. لا تظنوا أنى غلام صغير. أنا كبرت.

وأصبح واضحاً ان "جلال" ليس هو الشخص الذى يقاد. إن هذا الولد خلق ليتزعم وليقود وليس فى وسع أحد أن يتحكم فيه أو يوجهه الوجهة التى يريد.

●●●

وقبل أن ينصرف الرجال قال "عباس":

- نريد أن نرتب لك مكاناً تختفى فيه.

قال "جلال":

- أشكرك أترك هذا لى أنا.

قال "عباس":

- وطعامك وشرابك ومبيتك كيف تدبره، وأنت غريب عن هذه الناحية؟

- سأدبر أمرى بنفسى، طالما أن معى هذا المسدس وهذه الطلقات.

وانصرفوا على أن يكون لقاؤهم كل ليلة كما اعتادوا فى نفس المكان.

●●●

لكن الرجال بعد أن تركوه اجتمعوا عند الساقية ليدرسوا موقف هذا الغلام. وهل يتركونه يطغى أو يقفونه عند حده.

وحاول "عباس" أن يغرى الرجال بالتعاون معه حتى يتخلصوا من "أبو سريع" ، أو على الأقل يضعفوا شوكته، لكن الرجال رأوا فى هذا الغلام خطراً يهددهم جميعاً، فإما أن يسيروا وفقاً لإرادته، وإلا فإنه سيقضى عليهم جميعاً.

وذهبت محاولات "عباس" أدراج الرياح، وأصر الرجال على أن يرتبوا له كميناً، إذا ما كان لقاؤهم ليلة غد، ليؤدبوه، فإذا استقام وسمع كلامهم فإنهم سيقبلونه بينهم، وإلا فأنهم سيتخلصون منه على وجه السرعة.

وبينما أخذ الرجال ينصرفون، أطل وجه الرجل الأخرس من بين جذوع شجرة الجميز وأخذ يدور بعينيه ذات يمين وذات يسار. فلما أصبحوا بعيداً عنه، لا يسمعونه إذا صاح، ارتفعت صيحاته كأنما ينادى على شىء.

وأطل وجه "جلال" من وراء شجرة الجميز، وقد افتر ثغره عن ابتسامة ساخرة.

قال "جلال":

ـ يا عمى "أبو المكارم" لا تخف على. لقد كنت هنا وسمعت كل حرف قالوه. لقد تبينت نوايا الغدر فى عيونهم، بعد ما لقنتهم درساً لن ينسوه وتوقعت يا عمى أنهم لن يتركوا الموضوع يمر مرور الكرام. أبدا لن يتركوه. بل توقعت أكثر من هذا، وهو أن أكون هدفاً لمؤامرة خسيسة. أليست نفوسهم جميعاً خسيسة، هؤلاء المجرمون؟! إن حياتهم معلقة بهذه الفوهة الصغيرة. إنى أملك أرواحهم. هؤلاء الأشرار.

وأخذ "أبو المكارم" يصيح صيحات متتالية وقد عقد ما بين جفنيه، وقطب عن جبينه.

لقد كان يستنكر أن تكون هذه الأرواح ملكاً لشىء. إنها ملك لخالقها لا كما تفكر يا "جلال". إن هذا المسدس لا يقودك إلى الإيمان. إنه يغريك بالكفر. إياك يا ابنى إياك.

وفهم "جلال" فطأطأ رأسه فى خجل وهو يؤكد لعمه "أبو المكارم" أنه لا يقصد هذا تماماً. إنه مؤمن بالله لا يزال. وإنه سيمضى بقية حياته مؤمناً بالله.

ولما عاد إلى "أبو المكارم" هدوءه، عاد جلال يؤكد لعمه "أبو المكارم" أنه قد أعد لهؤلاء القتلة السفاحين سلسلة من المفاجآت، ستجعلهم يركعون عند قدميه.

لا تخف يا عمى. أتنسى أن لله حكمة فى وجودى وأنه يحرسنى. أنت نفسك قلت لى هذا. ألم تقل لى إن إفلاتى من الموت كان معجزة من المعجزات؟ ألم أكن طفلا رضيعاً؟ بل ألم أكن أنا هدف هذه المؤامرة؟ ألم أكن أنا السبب الذى قاد أمى إلى الموت؟ ولقد كنت رضيعاً لا أملك أن أقاوم. لماذا إذن أفلت منهم، إن لم يكن وراء هذا حكمة خفية تدخرها إرادة الله؟ وتنسى يا عمى كيف تركونى معك، وأنا ابن الحاج سلطان، لأحيا

معك بين فروع الصفصافة كالقرود؟ و "أبو سريع" أتنساه، وهو يحضر هنا بين الحين والحين ليضربنى فى قسوة بلا سبب؟ الحق أن أبى لم يكن يقسو على. هل يا ترى لأنه كان يحس أنى ابنه ومن ظهره، برغم الوشايات المسمومة؟ كذلك كان إخوتى. لم يكونوا قساة كـ "أبو سريع". آه مما نلته من الأذى على يديك يا شيخ الغفر ! إن صفحة كفك الغليظة الثقيلة منقوشة على خدى، وعلى ظهرى، وعلى أماكن متفرقة من جسمى ! كذلك كرباجك السودانى الذى كان ينزل على كغضب الله. أتذكر يا عمى كيف كنت تفر بعيداً ، لتخفى عن شيخ الغفر دموعك، وأنت تبكى من أجلى؟ والمرة التى كاد يقتلنى فيها؟ إنى لا أنسى تلك المرة أبداً لقد تقطعت أنفاسى حتى لقد ظننى الناس قدمت. وتجمعوا حول الرجل الجبار، فما لان، إلا أنه وافق عند ما قالوا له إنهم سيرسلوننى إلى جدتى فى دمنهور، لتستريح منه يا شيخ الخفر، ولتعنى يديك الطاهرتين من دمه !! وافق يا عمى. وكان كل شىء على غامضاً مبهماً، لكنى ارتحت مع هذا لأنى سأنجو من بين براثنه. وجرونى يا عمى، قبل أن أودعك، إلى محطة السكة الحديد. لا أدرى كيف وصلت، ولا من أخذنى إلى جدتى، فقد كنت برغم ما قاسيته من عذاب أفكر فيك، وفى دموعك التى لابد أنك أرسلتها من أجلى. ورحل جدى ورحلت جدتى، ورحلت خالتى، ورحل "رءوف" وبقيت انا مع هذا..أليس لذلك كله حكمة يعرفها الله؟ لا تخف يا عمى. إن الله منتقم جبار ، ولابد أنه ينتقم عن طريق عبيد من عبيده يعدهم للانتقام ويسخرهم للثأر. أمسك بهذه الذراع. إنها لم تعد الذراع الرقيقة اللينة التى كانت تتعلق برقبتك. إن العضلات المكتنزة فيها تطمئنك إلى أنى بإذنه تعالى قادر عليهم.

وضحك "أبو المكارم" فى صمت يتحسس عضلات "جلال". لكنه كان يضحك ودموعه تتحدر على خديه.

ومضى "جلال" بين الحقول، سراً غامضاً، وصيحات عمه "أبو المكارم" تلاحقه بالدعوات.

●●●

وفى مساء اليوم التالى، ذهب الأشقياء، إلى المكان الذى اتفقوا عليه، وهم يتوقعون أن يجدوا "جلال" فى انتظارهم، كما اعتاد أن يفعل طيلة الأسابيع الماضية.

لكنهم لم يجدوا له أثراً.

وتبادلوا نظرات العجب أول الأمر.

ثم نظرات القلق بعد ذلك.

ثم نظرات الخوف أخيراً.

أين هو؟ لماذا لم يحضر؟ أتراه قد أصيب بسوء؟ أتراه قد غادر هذه الناحية؟ أتراه خاف بعد تهوره ليلة أمس؟ أم أنه قد ذهب ليخوفنا؟

وصاح "عباس":

- كيف يخوفنا. وعند من سيشى بنا؟ عند "أبو سريع"، وهو يتمنى لو استطاع أن يقضمه بين أسنانه؟! لا تكونوا مغفلين إلى هذا الحد.

- إذن لماذا لم يحضر هذه الليلة؟

- الغائب حجته معه. سنرى ليلة غد.

- فإذا لم يحضر؟

- نبحث عنه. هل نعجز عن ذلك؟ عيب على شواربكم يا رجال. إذن لماذا تدعون أنكم تعرفون حتى مهب الرياح فى هذه الناحية؟

●●●

وفى الليلة التالية أقبل الرجال، لكنهم أقبلوا هذه المرة وفى نفس كل منهم شىء مكتوم، يحاول أن يخفيه عن صاحبه. حتى "عباس" كان ينكس رأسه، كأنما يريد أن يخفى عن الرجال سراً، يخاف أن تفضحه عيناه الزائغتان.

ودارت المناقشة بينهم خافتة أول الأمر :

- "جلال" لم يحضر الليلة أيضا. ماذا ترى وراء اختفائه؟

- الله وحده يعلم.

- ألم يصادفه أحد هنا وهناك.

- أبداً لقد أختفى بطريقة غريبة. هل تراه غاضباً من شىء؟

- إننا جميعاً أصدقاؤه، وهو ابننا على كل حال.

- إنه أخونا، فإن كبر ابنك، فعليك أن تؤاخيه.

- بل أخونا الصغير الحبيب. هل ترون أنه سيعود إلينا؟

على أن الرجال لم يستطيعوا المضى فى خداع أنفسهم. لقد انطلق من بينهم صوت غليظ يصيح:

- إن "جلال" ابننا أو أخونا، لكنه يريد أن يربينا. إننا فى آخر زمن. "جلال" يريد أن يفرض نفسه علينا. لا يضحكوا على أنفسكم. أنت يا "عباس" ألم تجد ليلة أمس رسالة فى انتظارك؟ وأنت؟ ..وأنت؟ ..وأنت؟ أنا أيضاً وجدت على عتبة الباب رسالة. تكلموا. قولوا لم نجد شيئاً عندما عدنا إلى بيوتنا ليلة أمس. سكتم، لأنكم وجدتم رسائل تنتظركم. من هذا الذى يدعو نفسه "شبل"؟ إنه "جلال". من غير "جلال" يا رجال؟ كم طلب منك يا "عباس"؟ عشرة جنيهات؟ أنا أيضاً طلب منى عشر جنيهات، وقد وضعتها فى المكان الذى حدده لى. لقد حدد لى جسر الرياح عند أول شجرة بحرى الساقية.

قال "عباس"، وهو لا يزال منكساً رأسه :

- لكنه حدد لى الناحية الغربية من سيدى الذكيرى.

وبدأ الرجال يتكلمون.

وبدأ الرجال يعترفون.

لقد دفع كل منهم المبلغ الذى طلبته منه الرسالة،وضعه حيث حدده "شبل" هذا، بلا كلام. هذه هى شروط "شبل"، الا يفتح واحد منهم فمه، وإلا ينبس ببنت شفة، وإلا فهو وحده المسئول عما يصيبه فى زرعه وبهائمه وأسرته فى نفسه.

ومرت لحظات صمت رهيبة.

لكن أحد الرجال صاح فجأة:

ـ وهل سنسكت؟ هل سنقبل؟

ـ إذا رفضنا فمن يدرى ماذا سيحدث لنا !

ـ نحن الذين نسرق الناس، ندفع طوعاً لشخص غامض لا نعرفه؟! هل هانت أمورنا إلى هذا الحد؟ هل أصبحنا ضعافاً إلى هذا الحد؟ هل نخاف نحن الذين نخيف الجن؟

ـ وماذا نعمل؟

ـ نرفض، لنرى ماذا سيحدث.

ـ وإن أصابنا سوء؟

ـ نقابل السوء بالسوء. ألسنا رجالا؟

ودوى صوت رهيب، أخرس الألسنة جميعاً، ومرقت من بين الرجال عدة رصاصات، لم تصيب أحداً. وإن أصابتهم جميعاً برعب لم يعرفوه من قبل، فتفرقوا صامتين، وهم لا يدرون هل يعودون فيتلاقون إذا ما كان مساء الغد، أو أن هذا النذير قد فرق شملهم إلى الأبد.

●●●

وفى اليوم التالى، أخذت القرية تردد روايات غريبة.

"أم الفرح"، هذه الأرملة التعسة التى لا تجد قوت يومها، والتى تربى بنتين وثلاثة أولاد، كلهم يتامى صغار، ومن أجلهم وفى سبيلهم، تستهين بكل شيء، وتتقبل الإهانة تلو الإهانة، ولا تشكو حالها لأحد. وهى تعمل فى منزل شيخ الغفر مقابل أن تملأ بطنها بما يفيض عن البيت من فتات، وتحمل معها آخر الليل بقايا ما فى الأوانى من هذا الفتات،

تضعه أمام أولادها ليسدوا به بعض الرمق. وأولادها جميعاً يتناثرون كالدود فى مزارع شيخ الخفر وخلف بهائمه، يعلمون طول اليوم، ويعودون آخر النهار بأكف خاوية، ويكفى أن يتصدق عليهم الرجل بملابس أولاده القديمة الممزقة فيسترون بها عوراتهم.

"وأم الفرح" برغم هذا الشقاء، لا تستطيع أن تخرج على طاعة شيخ الغفر، أو تبحث عن بيت آخر تعمل فيه. ومن ذا الذى يستطيع أن يقبلها عنده، بعد شيخ الخفر سواء تركت العمل طائعة أو طريدة؟! إنها كالوقف لا يمكن التصرف فيه، مهما تكن الأسباب.

"أم الفرح" هذه المسكينة التعسة، فتحت بابها هذا الصباح، فوجدت ورقة صغيرة مطوية، فلما فتحتها وجدت بداخلها عشرة جنيهات.

عشرة جنيهات، وهى التى لم تملك يوماً عشرة قروش كاملة إلا كل موسم !

والأغرب من هذا أن الورقة المطوية التى كانت تحوى هذه الثروة الهائلة كانت تحمل توقيع "شبل".

من "شبل"؟ أى "شبل"؟

هذا ما تلوكه القرية طول النهار، دون أن تستطيع أن تقف من كل ما تقوله على شىء.

والقرية تهز رأسها وهى تروى هذه الرواية، لأن "أم الفرح" عندما فوجئت بالورقة الكبيرة ذات المئذنة، ألقت بها بعيداً، كأنها أفعى.

لقد خافت أن تتهم بها. ثم ذهبت بها إلى شيخ الغفر، وهى تقسم من أعماق قلبها، أنها وجدتها تحت عقب الباب. والله إنها لا تعرف عنها شيئاً. ورحمة العزيز الغالى الذى مات وترك لها هؤلاء اليتامى، إنها وجدتها هكذا. وهى لا تعرف شيئاً اسمه "شبل" ولم تسمع به من قبل.

ويصاب شيخ الغفر بذهول.

على أن هذه الرواية لا تنتهى، إلا لتذيع القرية رواية جديدة.

تعرفون "عبد النبى الحاج خميس"؟ هذا الرجل المريض الأشول؟ إنه يستأجر فدانين من أرض الخواجة، منذ سنين طويلة. ومنذ سنين طويلة والقرية لا تعرف عنه إلا أنه

رجل طيب ومستور، لكنه فى السنوات الأخيرة واجه العلة والضعف، فعجز عن الوفاء بما عليه من الإيجار، وقد ذهب إلى الخواجة ورجاه أن يطاوله عاماً آخر، فقبل الخواجة بشرط أن يوقع له كمبيالات تحل محل الإيجار. أما العمدة فإن له عنده حقاً نظير مياه الساقية فلما عجز الرجل عن الدفع، استولوا على المحصول. وفشلت محاولات الرجل فى إقناع العمدة بأن يطاوله عاماً واحداً، بعد أن يسترد عافيته، ويعوض ما فاته. وبات الرجل لا يدرى كيف سيمر به عامه هذا، وهل أراد الله له الفضيحة والعار، وساءت صحته واشتدت به العلة، حتى لقد أخذت القرية ترثى له من قلبها. إنها تذكر أباه "الحاج خميس" فقد كان رجلا طيباً كريماً، وكان سريع النجدة للمحتاج، كثير المواساة للمصاب، شديد العطف على المنكوب. وقد درج ابنه "عبد النبى" على سنة أبيه، فأحبه الناس، وأنسوا إليه. لكنه اليوم فى موقف عصيب، لا يستطيع أن يجد لنفسه منه مخرجاً. إن عليه أن يدفع للعمدة أجرة الساقية، ليسترد المحصول، وإلا فمصيره ومصير عياله إلى حاجة لا ترحم طيلة عام، ولم يكن بين أهل القرية من لديه فائض يكفى لنجدة الرجل.

وقرر"عبد النبى الحاج خميس" أن يبيع الجاموسة التى يملكها.

وقال له الناس:

- لكن الجاموسة هى حياة البيت يا "عبد النبى".

قال "عبد النبى":

- لم يبق أمامى إلا هذا.

وأخذت القرية تتحدث عن مأساة الرجل فى حزن، وتتمنى ألا يأتى يوم الثلاثاء، حيث يقام السوق وتباع الجاموسة.

على أن "عبد النبى" يفاجأ هذا الصباح بأكثر من حاجته من المال ملفوفاً فى ورقة مطوية عقب الباب.

أما الورقة فعليها توقيع "شبل":

ويعجب "عبد النبى" لهذا، ويسأل جيرانه، ويسال أقرباءه، ويستحلف كل من يعرف إن كان قد ترك له هذا المبلغ، فلا يجد الجواب عند أحد.

وتعجب القرية لما تسمع.

وتصل الرواية إلى آذن العمدة، وإلى آذان شيخ الغفر، فيزداد شعورهما بأن شيئاً غامضاً قد حل بهذه القرية. شىء لا يستطيعان له تفسيراً.

ورواية ثالثة ترددها القرية، وهى عاجزة عن التفسير.

إن "للشيخ مختار" شيخ الجامع وصاحب الكتاب ولداً، أراد أن يربيه فى المدارس فأرسله إلى المدرسة الابتدائية فى كفر الزيات. والولد مطيع ومجتهد، لكن المدرسة طردته لأنه لم يدفع المصروفات. وقد عجز "الشيخ مختار" عن اقتراض المبلغ، إلا بالفايظ، وهو لا يقبل الفايظ لأنه حرام، إنه رباً فاحش، وقد حرم الله الربا. والولد يبكى لأبيه، لكن الدموع لا تستطيع أن تنقذه مما هو فيه.

على أن "الشيخ مختار" يفتح الباب فجر هذا اليوم، فيجد مصروفات المدرسة ملفوفة فى ورقة بيضاء تحمل أسم "شبل".

ويصاب الشيخ بالدهشة، ولكنه يحمد الله على كل حال، ويرسل ابنه على الفور بالمصروفات إلى المدرسة.

وتصل الرواية إلى "أبو سريع"، وإلى العمدة، وإلى الأعيان...فيصابون بذهول.

ورواية رابعة.

إن "سعد"، فارس أحلام العذارى، قد وقع فى الحب، لكنه يعجز عن دفع مهر العروس، فيكاد يصبح كالمجنون، هائماً على وجهه، يبحث عن طريق يوصله إلى ليلاه.

إن "سعد" فتى جميل، فارع العود، قوى البنية، يتقن الحداء، يجيد الغناء وله فى قلوب العذارى رنين السحر. وهو الخولى المجد الذى لا يتوانى عن ملاحظة الأنفار،

وملاحقتهم بعصاه فى بعض الأحيان. لكنه يعوضهم عن هذا بصوته الجميل وحدائه البديع فيرددون معه الأغانى والأناشيد.

وكم للفتى من الذكريات مع الإناث من الأنفار.

وكم حاولت كل منهن أن تقتنصه اقتناصاً، لكنه كان كالسبرتو يتبخر منهن فى الهواء.

لكنه أخيراً وقع. وقع فى غرام عنيف جداً، استبد به، حتى جعله لا ينام الليل ولا يرى نور النهار.

ولم يكن من الصعب عليه أن يخطب الحبيبة زوجة له.

ولم يكن من العجيب أن يوافق أهلها.

لكنه المهر، العقبة الكأداء، التى تحول بين العاشقين.

ويفاجأ "سعد" هذا الصباح بالمبلغ الكافى للمهر، وهو ما يكفى لشراء حصيرة ومرتبة وصندوق وملابس العروس وبعض الحلى البسيطة، لكنه كان كطاقة القدر أضاءت له طريق الحياة.

لقد كان المبلغ ملفوفاً فى ورقة تحمل أيضاً توقيع "شبل".

..."شبل"..."شبل" ..."شبل".

من "شبل" هذا " ما هو؟ إنس أم جان؟

..."شبل"..."شبل" ..."شبل".

سر غامض يثير خيال الفقراء والمحتاجين، لكنه أصاب الآخرين بذهول.

وبينما كانت القرية تردد هذه الروايات، كأنها أحلام، كان "أبو سريع" يضرب الأرض بقدميه وهو لا يدرى شيئاً عما يسمع، إلا أنه يحس أن وراء هذه الروايات خطراً يوشك أن يقع.

وفى الوقت نفسه كانت الساقية تدور، و"أبو المكارم" يدور خلفها كمقارب الساعة، وضحكة مرحة تملأ وجهه كله، وهو يذكر ما كان بينه وبين "جلال" من أحاديث عن "أم

الفرح"، و "عبد النبى الحاج خميس"، و"الشيخ مختار"، و"سعد".

ويهز الرجل وجهه، فى حركة لا تدرى أهى إعجاب "بجلال"، أم إشفاق عليه.

●●●

ويشهد مساء هذا اليوم "عباس" ورجاله، وقد التقوا فى مكانهم المعهود.

إن الروايات التى رددتها القرية، واسم "شبل"، قد أسرع بهم إلى هذا اللقاء.

إن "شبل" هو الذى كتب لهم يطلب أن يترك كل منهم مبلغاً من المال فى المكان الذى حدده هو.

و"شبل" هو نفسه الذى وزع هذا المال على أهل البلد.

وزادت دهشتهم. إنهم ما إن تلاقوا، وما إن اكتمل جمعهم، حتى وجدوا "جلال" يشق الحقول إليهم كالسهم، وعلى شفتيه ابتسامه راضية، وفى يده مسدسه.

قالوا جميعاً فى صوت يكاد يكون واحداً:

"شبل"... "جلال" ... "شبل"... "جلال" .... اين كنت أين كنت؟

وضحك ضحكة طويلة، وأصبعه على زناد مسدسه، ثم قال فى هدوء:

- اسمعوا ولا تعجبوا. إننى أنا الذى فعلت هذا. أنا صاحب التوقيع. أنا الذى أرسلت إليكم الرسائل أطلب المال، وأنا الذى وزعت المال. أنا "شبل" وسأستمر أحمل هذا الاسم حتى أحقق ما أريد.

قال أحد الرجال:

- لكنك يا "جلال" ...

وصاح فيه "جلال" صيحة صارمة:

- اسكت. أنا لست "جلال". إننى "شبل". "جلال" هذا اسمى الخاص، أما اسم العمل فهى "شبل". ولستم أصدقائى حتى تنادونى بأسمى. أنا رئيسكم.

قال "عباس":

- رئيسنا !!

وصاح فيه "جلال":

- نعم رئيسكم. هل تعترض؟

ووجه إليه فوهة مسدسه فى تحد صريح، فقال "عباس":

- لا. لا ... "جلال" ...

وعاد "جلال" يصيح فى حدة:

- قلت أنا "شبل".

وأخذ "عباس" يقول وهو يرتعد:

- نعم ...نعم..."شبل". أنا لا أعترض. إن رئاستك شرف لنا.

ونظر "جلال" إلى الرجال وهو يقول:

- وأنتم؟

وأكدوا له أنهم كذلك يتشرفون برياسته.

وعلى الفور طلب "جلال" منهم أن يلقوا ما معهم من سلاح فى الأرض. فتجمع أمامه ثلاثة مسدسات كالأسرى، فجمعها كلها، ثم جلس وهو يحس أنه يستطيع الآن أن يفعل ما يشاء.

قال لهم:

- اسمعوا. أنا لست لصاً، ولست سفاحاً. أنا إنسان بسيط لا أريد من هذه الدنيا إلا أن أعيش. لكنهم لا يريدوننى أن أعيش. سلبوا منى حتى نسبى. تبرأوا منى ! اعتبرونى سبة نجسة تجلب النحس على الأسرة الباغية ! لم يكفهم ما فعلوه بأمى، ولا بجدى، ولا بجدتى، ولا بخالتى. إنهم يريدون أن يقطعوا كل حبل يربطهم بالخص الحقير فى طرف

حديقة أبى. وعندما جئتهم طائعاً مستسلماً، أبحث عندهم عن المأوى، استكثروا على هذا المأوى. لهذا فقد صممت على أن أثأر منهم. على أنى لست وحدى الذى يقاسى ظلمهم. "أم الفرح" كذلك عاشت حياتها تقاسى معى. "عبد النبى الحاج خميس" و "الشيخ مختار" و"سعد". كل هؤلاء وسواهم مثلى. إنهم يعانون معى. بل أنتم كذلك، كلكم تعانون مثلما أعانى، حتى صهرى "عباس" يعانى معنا. إنه صهر مضطهد مظلوم . لهذا سأثأر منهم، ولكن بلا سرقات، ولا دماء، إلا إذا اضطرتنا إلى ذلك الظروف، ولم يكن هناك بد من أن نرتكب هذه الأعمال، قصاصاً عادلا من هؤلاء الوحوش. والذين يريدون أن يعملوا معى، يجب أن يعلموا أننا منذ اليوم، لن نؤجر على سرقة بقصد الانتقام أو الأذى. لن نؤجر كذلك على سفك دم برئ، مهما يكن الثمن. إننا سنحمى كل مظلوم. سنحرس حقول المحتاجين المضطهدين. سنحرس بهائمهم. سنحرس حتى حرماتهم. ولن يكون لنا هم إلا الثأر من هؤلاء المستبدين. لابد أن يعلموا أننا قادرون عليهم. ومنذ اليوم فإن اسمى "شبل". "شبل" هو الذى سيؤدبهم وإياكم أن تفتحوا أفواهكم حتى لزوجاتكم. تبرأوا منى أمام كل الناس. أكدوا أنكم لا تعرفون عنى شيئاً ولا تلتقون بى. أنكروا آية علاقة بينى وبينكم. ليكن كل عمل من أعمالنا سراً. كذلك فليكن كل عمل نقوم به جريئاً وقوياً، حتى يثق بنا الناس. إن الناس كلهم معناه. هذه القلة الضئيلة الباغية هى التى تستبد بهم فتبدد جموعهم، وتحطم قواهم. وهم محتاجون إلى الثقة بنا، فإن هذه الثقة ستقويهم أمام السادة المتغطرسين. إن شعورهم بأن لهم ظهراً يحميهم سيجعلهم يحطمون معنا شوكة هؤلاء الكلاب. هل سمعتم؟ هل فهمتم؟ أياكم والخيانة. إن الذى سيفكر فى خيانتى سيدفع حياته ثمناً لهذه الخيانة. إنى أحذركم وأنذركم. هيا انصرفوا حتى نلتقى مرة أخرى.

●●●

ولكنك يا عمى "أبوالمكارم" لم تقل لى كل التفصيلات عن هذه البهائم التى سيعرضها عمى "الحاج غضبان" فى سوق الثلاثاء. أنت فقط قلت لى إن "الشحات" لم يستطع أن يسدد له ما عليه، وإن ديونه قد تجاوزت حتى ثمن المحصولات التى زرعها. والتى آلت

إلى "الحاج غضبان" ليبيعها كما يشاء فى كفر الزيات، وإنه لهذا ذهب ذات صباح إلى بيت الشحات وأخذ البهائم عنوة، ليبيعها فى سوق الثلاثاء، لعلها تكمل بقية ما له عنده كما قال. لكنك لم تقل لى ماذا فعل "الشحات". هل تركه يأخذ البهائم هكذا. بلا أن يقاوم أو يعترض؟

وأخذ "أبو المكارم" يروى بقية القصة على طريقته، ويشرح "لجلال"، كيف وقف الشحات يحاول أن يمنع "الحاج غضبان"، ولكنه لم يستطع. لقد كان مع الرجل غفيران من رجال "أبو سريع" وفى يد كل منهما بندقيته، وفى رأس كل منهما عينان تطل منهما ألسنة الشر. فلما عجز عن منع الرجل، أخذ يصيح فيه: والله لو أن أبى حى ما استطعت أن تدخل هذا البيت. والله لو أنه حى لما جرأ واحد منكم على هذا. لكنى سأكبر فى يوم من الأيام وأصبح مثله، وسنرى. أما أمه، فقد أخذت تبكى بكاء مكتوماً حتى لا يرتفع نحيبها فيزداد "الحاج غضبان" فرحاً وشماتة. إن فراق هذه البهائم كان أليماً عليها، هى التى شهدتها وليدة وربتها بيديها، وأطعمتها ثم اعتادت أن تحلبها كل صباح، لتعيش هى و"الشحات" والبنات على خيراتها.

ويقطع "جلال" الرواية ليسأل "أبو المكارم" عما كان بين والد الشحات و"الحاج غضبان"، ويهز "أبو المكارم" رأسه وهو يروى أن "الحاج غضبان" أكثر فى وقت من الأوقات من زيارة والد الشحات وكان الرجل يكرمه ويرحب به. لكنه تجرأ يوماً فذهب لزيارته وهو يعلم أنه ليس فى الدار وحاول أن يفرض نفسه زائراً ثقيلا على والدة الشحات، لكنها صانت نفسها عنه وأخبرت زوجها عندما عاد، فلما حاول الحاج زيارته بعد ذلك، طرده شر طردة.

وهز "جلال" رأسه، وهو يسأل:

- وهل هى جميلة هذه السيدة، "أم الشحات"؟

- نعم يا ابنى جميلة.

ـ شئ غريب. ألا بد لهم من أن يحصلوا على كل شيء، وألا يكون لأحد سواهم شيء على الإطلاق؟ حتى حلال الناس، يجب ألا يكون حلال إلا لهم؟

ـ ألا تزال محتاجاً إلى أن تعرفهم يا ابنى؟

ـ وغداً سوق الثلاثاء.

ـ نعم ...لماذا؟

ـ لأنك ستسمع فى غد شيئاً تدهش له...لكن ستسر له يا عمى "أبو المكارم".

وأخذ "جلال" يضع لثاماً يخفى شخصيته، ولا يظهر من وجهه ما يدل عليه.

وضحك "أبو المكارم" ضحكاً متصلا، و "جلال" يسأله:

ـ هل تعرفنى الآن؟ لا شك أنك لا تستطيع أن تعرفنى.

وكف "أبو المكارم" عن الضحك فجأة، وهو يسأل "جلال":

ـ لكن لماذا تضع هذا اللثام؟ "جلال". إياك أن تكون قد نويت على ...

قال "جلال" وهو يضحك:

ـ نعم يا عمى، ولكن فى سبيل الثأر وحماية المظلوم.

●●●

وجاء الثلاثاء يوم غد، وأقيم السوق، وتجمع الأهالى من كل أنحاء الناحية، وتفرقت البضائع فى كل مكان من الساحة الكبيرة، وارتفعت الأصوات بالنداءات والمساويات والتحيات الطيبات.

وبلا ترتيب أو تخطيط انقسمت البضائع إلى أقسام.

الحبوب لها مكانها الخاص، حيث يعرض القمح والذرة والشعير. والبقول تعرض فى مكان آخر، فترى الفول واللوبية والفاصوليا والعدس والأرز. وللبقالة مكان، وللعطارة مكان، وللأقمشة مكان، إلى جوار الأماكن المتناثرة للبيض والدواجن والزبد والعجوة

والفسيخ والرنجة، وأنواع أخرى من المأكولات لا تعرفها الناحية إلا فى أيام الثلاثاء، حينما يقام السوق.

على أن أهم الأقسام وأكبرها فى السوق، هو قسم المواشى. حيث تعرض أنواع الجاموس والبقر والعجول، والخيول والحمير والبغال والجمال.

وفى هذا القسم يتجمع عادة صنفان من الناس ك المحتاجون والمتخمون.

المحتاجون تضطرهم الفاقة والحاجة إلى أن يبيعوا مواشيهم أو بهائمهم، وكأنما يبيعون أولادهم ! إن هذه المواشى والبهائم هى حياتهم، إن الجاموسة تقيم أود أسرة، فهى مصدر اللبن، والجبن والزبد، وكثيراً ما تكون هى غموس اللقمة الجافة فى الأفواه الجائعة، بل هى إلى جوار ذلك حارثة الحقل، وساقية الزرع. تجر المحراث، وتدور فى الساقية، أكثر تحملا وجلداً من أفراد الأسرة جميعاً، بل إنها عندما تلقى روثها، فإنها تحيل تراب الزريبة إلى سماد. كل حيوانات الفلاح هكذا حتى الحمار، عضد لحياته، ودعامة من دعامات عمله، إذا فقدها انهار ز هؤلاء يبيعون مواشيهم ودوابهم مع زفرات من قلوبهم.

أما المتخمون، فهم يمثلون طبقة التجار، وطبقة أخرى هى طبقة المترقبين للحاجات والهموم والدموع، يستغلونها ويتاجرون فيها.

هؤلاء يقفون يرصدون ما فى النفوس من حاجات، وبقدر ما تكون هذه الحاجات ملحة وضرورية، بقدر ما يعرضون من أسعار. وجيوبهم محشوة أبداً بأوراق البنكنوت، وعيونهم فارغة دائماً تطلب المزيد سن الفرص، وقلوبهم خاوية دائماً لا أثر فيها للرحمة أو الإنصاف.

هؤلاء يشترون بأبخس الأثمان كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ولقد أقبل رجلان من رجال "الحاج غضبان"، يجر أحدهما وراءه جاموسة وبقرة وعجلا صغيراً، لا يزال يجرى وعيناه بين أثداء أمه.

وصاح بعض الرجال: بهائم "الشحات".

وقال آخرون: ربنا يصبرك يا "شحات".

وهمس فريق: الله يرحمك يا أبو "الشحات". لو أنك حى لافتديت البهائم بكل ما تملكه يداك.

ومالت بعض الرقاب لتقول كلاماً عن "الحاج غضبان" تخشى أن يصل إلى آذان أحد فينقله إليه، فتكون الطامة وبيلة عليه.

وانضمت بهائم "الشحات" إلى أصناف البهائم التى امتلأ بها السوق.

وأقبل التجار والمترقبون.

وبدأت عمليات المساومة للحصول على الصفقة.

ولم يتنبه أحد إلى أن "الشحات" كان قد تسلل بين الزحام، ووقف من بعيد يرقب المنظر الأليم، وعيناه تسيل فوق خديه.

إنهم قد اغتصبوا البهائم نظير ديون لا يدرى عنها شيئاً.

لقد ولد، وهذه البهائم تروح وتجئ بين عينيه. لقد عاش على لبنها. لقد ذهب بها طيلة عمره إلى الحقل، وعاد بها إلى البيت مع كل غروب.

اليوم يبيعونها ! ومن يدرى، ربما اشتراها جزار سيبيعها لحماً يمضغه الآكلون.

وكان كلما تذكر أنها لن تعود إلى زريبة البيت مرة أخرى، يشعر أن فى حلقه غصة، لا تطفئها إلا أنهار من الدموع.

وأقبل تاجر وأعقبه تاجر آخر.

وجاء واحد من أعيان الناحية، ثم جاء واحد آخر.

وأخيراً استقر الثمن على واحد، دفع الثمن نقداً، وتلقى الدعوات بأن يبارك له الله فيها، وتهيأ للمضى بها إلى قريته.

●●●

وفجأة ظهر فتى ملثم يشق الزحام كأنه السهم.

وارتفعت صيحته كالنذير.

- إياك. دع هذه البهائم لصاحبها. إنها مسروقة.

ووقف الرجل فى ارتباك، وأخذ ينظر إلى الرجلين اللذين باعاها له. كذلك أخذ الرجلان يتبادلان نظرات غبية، وقد ألجمتهما المفاجأة، وقد أشهر فى يده مسدساً يبرق بإمارات الموت.

ووصل الرجل الملثم إلى مكان البهائم ثم تناول مقاود البهائم من يد الشارى وقال:

- هذه بهائم "الشحات" ستعود إليه. إن "الحاج غضبان" قد اغتصبها بحجة أن له عنده ديناً لم يدفعه. لا. هذا ادعاء. هذا كذب. تعال يا "شحات" خذ بهائمك وعد بها إلى بيتك، وسأحرسك حتى تعود، بل سأحرسك كل يوم. لا تخف من أحد. توكل على الله، واعلم إن لك صديقاً يدافع عنك اسمه "شبل". إن أباك لم يمت يا "شحات"، طالما أن "شبل" حى فى هذه الناحية.

ولم يصدق "الشحات" عينيه. لكنه قفز إلى مكان البهائم، وقد أشرقت أسارير وجهه بالأمل، وتسلم مقاود البهائم، وهو يطيل النظر إلى الفتى الملثم، فلا يعرف عنه شيئاً إلا أنه "شبل" كما قال:

ومضى الشحات بالبهائم، والناس ينظرون فى عجب.

هى صيحة واحدة أطلقها الفتى الملثم، ثم اختفى:

- إن الذى يقترب من "الشحات" بأذى، سيدفع ثمناً لهذا حياته.

●●●

ولما عادت الحالة إلى ما كانت عليه، صاح الرجل الذى اشترى البهائم:

- ونقودى. أعيدوا إلى نقودى.

وحاول الرجلان اللذان أرسلهما "الحاج غضبان" أن يدعيا أنهما سلماه البهائم وأنه هو الذى فقدها.

وكادت أن تنشب معركة دامية، لولا أن تدخل الجمع، فأعادوا النقود إلى صاحبها، وعاد الرجلان من حيث جاءا، بالفضحية والعار.

●●●

وانتشرت الرواية فى كل مكان من الناحية.

بهائم "الشحات" قد عادت إليه. أعادها إليه فتى شهم رضع من ثدى أمه حقيقة، برغم أنف "الحاج غضبان"، وبرغم أنف صهره "أبو سريع"، أو سبع الليل كما اعتاد البعض أن يطلقوا عليه.

ووصلت الروايات إلى "جلال"، وهو جالس فى جنح الظلام إلى جوار الساقية، "وأبوالمكارم" يدور خلف الساقية دوراته التى لاتمل.

وعندما دارت فى ذهنه أوصاف القرويين له بأنه رضع من ثدى أمه حقيقة، اكتفى بنظرة طويلة مريرة إلى ماء الرياح بجوار الصفصافة، ودمعت عيناه. ولم يسكت الناس بعد ذلك أبداً.

كان منظر "الشحات"، وهو يخرج بالبهائم كل صباح، يثير فى خيالات أهل القرية حكاية "شبل"، الفتى الملثم الذى انترع هذه البهائم من فم الأسد، فما خاف.

وكان "الشحات" نفسه، يمسك بمقاود بهائمه فى زهور وفخار، لا يبالى بما كانت أمه ترويه عن غدر هؤلاء الناس وقدرتهم له لا تخف.

وطالما سأله الناس عما إذا كان يعرف "شبل" هذا، ومن يكون.

وكان "الشحات" يتطاول على الذين يسألونه، ويكتفى بأن يبتسم، كأنما هو يعرف شبل معرفة وثيقة، وكان بينهما علاقة تصل فى قوتها إلى درجة القربى.

أما "جلال"، فقد أخذ يرقص من فرط فرحته، وهو يسمع ما يقوله عنه الناس من عمه "أبو المكارم".

وكثيراً ما تخفى وراء الشجر، ليسمع الناس يروون عنه القصص والأساطير.

مرة سمعهم يقولون عنه:

- إنه من الجان، يتخفى فى هيئة إنسان، وهو يظهر وقتما يريد، ويختفى وقتما يشاء. إن أحداً لا يراه، إلا عندما يأمره ملك الجان، فيظهر فى هذه الهيئة لينفذ ما أمر به، ويعود على الفور من حيث أتى.

ومرة أخرى سمعهم يقولون:

- إنه شقى من أولاد الأعيان، بينه وبين بيت "الحاج سلطان" عداوة قديمة، يعبر عنها بهذه الطريقة، ويخاف أن يظهر بلا لثام، حتى لا يعرف له شخصية.

وألطف ما سمعه، وطربت به أذناه، وحنق له فؤاده، عبارات رقيقة صدرت كأنها الأريج يتضوع بين الحنايا.

كان متخفياً بين الزراعات فى طريق الموردة، فمرت أمامه فتاتان.

قالت إحداهما عنه:

- لقد كنت هناك ورأيته وقت أن حضر. لقد هبط كالملاك. إنه حلو ولذيذ. إن له عينين تفتكان بالفؤاد. ولابد أن شفتيه وراء اللثام تقطران رحيق الشهيد. "شبل" اسمه "شبل".

قالت الأخرى:

- ما هذا؟ لقد أحببته يا "سالمة".

قالت "سالمة":

- بل عشقته. تعرفين؟ إننى لا أزال أحس أن زفراته الحامية تهب على خدى، وتشعل شفتى بالرغبة فيه. إننى أشتهيه. إننى...

قالت الأخرى:

ـ عرفت. تتمنين أن تجديه الآن أمامك، لتأكليه.

قالت "سالمة":

ـ لا ..بل ليأكلنى هو إذا شاء.

ولم يرتح "جلال" بعد ذلك، إلا بعد ما عرف من "أبو المكارم" تكون "سالمة" هذه وأين يقع بيتها. ولقد طريت نفسه عندما علم أنها من بيت فقير، على بعد خطوات من الخص الذى ولد فيه.

●●●

على أن "جلال" كان حريصاً أشد الحرص على أن يلتقى "عباس" وأصحابه الأشقياء.

وعندما قابلهم، وأخذوه بالأحضان وأغرقوه بالقبلات.

لقد فرحوا به، وخافوا منه فى آن.

رووا له أن هذه الحادثة حطمت العمدة وبيت "الحاج سلطان" وأدارت رأس "أبو سريع"، وأن الناحية كلها لم يعد لها حديث إلا هذا الحادث المفاجئ الجرىء.

قال "عباس":

ـ لكن حذار أن يغركم هذا الكلام.

قال "جلال":

ـ وماذا تراهم يدبرون؟

قال "عباس":

ـ لقد ذهبوا إلى نقطة البوليس، ورووا روايات مختلفة عن الحادث، وهم يصرون على أن يأخذوا البهائم من "الشحات" بأمر النقطة.

وسأل "جلال":

- وهل وافق ضابط النقطة؟

قال "عباس":

- لا... إنه يخاف، وقد قال لهم أمامكم المحكمة. إن كان لكم دين فخذوه عن طريق المحكمة.

قال "جلال":

- إذن فقد أنصف "الشحات".

قال "عباس":

- لكنهم وراء "شبل" هذا. لقد وعد ضابط النقطة أن يبذل كل جهد فى سبيل الحصول على "شبل".

قال "جلال":

- لكنه لن يستطيع. إن "شبل" يعرف أين تخطو قدماه.

قال "عباس":

- على كل حال إن عليك أن تحذر حذراً شديداً فإنهم وراءك.

●●●

وعندما اختلى "جلال" بـ"أبو المكارم"، أدرك منه أن أهل القرية لم يعد لهم حديث إلا "شبل". وأن الذى يحبب إليهم "شبل" هذا، أنهم أخذوا يعتبرونه حامى الضعفاء منهم. لقد صار هو ظهراً لمن لا ظهر له. لقد أضحى بين عشية وضحاها "شبل" كل مظلوم أو مضطهد، وكلهم مظلوم أو مضطهد.

وقال "أبو المكارم":

- على أن الشىء الغريب يا "جلال" هو حكاية المحكمة هذه. إن الناس يتحدثون عنها حديثاً غريباً عجيباً. إنهم لم يكونوا يعرفون أن الديون تؤدى فى المحكمة وأن على

صاحب الدين أن يذهب إلى المحكمة يطالب بدينه، وكم سمعتهم يتساءلون يا "جلال" عن شأن المحكمة بهذا؟

وهز جلال رأسه وهو يقول:

- شيء غريب ...

قال "أبو المكارم":

- إنهم معذورون يا "جلال" يا ابنى. لم يعرفوا عن المحكمة إلا أنها هى التى أدت بجدك "أبو عوف" إلى السجن. ومن يومها والمحكمة والسجن عندهم شيء واحد، المحكمة كلمة يهددون الناس بها، ويهزون أعصابهم بذكرها. المحكمة هى الطريق إلى السجن أو إلى المشنقة، والقاضى فى المحكمة جلاد أو سفاح. أما اليوم، فقد بدأوا يفكرون فى هذه المحكمة بعد الذى سمعوه عن ضابط النقطة. لكنهم لا يزالون يشكون فى الأمر ولا يصدقونه. هل صحيح ليس " للحاج غضبان" أن يأخذ بهائم الناس ومواشيهم، إذا كان له دين عند أحد؟ لا، لا. الأمر ليس بهذه السهولة على أى حال. هكذا يرددون.

قال "جلال":

- مساكين إنهم مغلوبون على أمرهم هؤلاء الطيبون.

قال "أبو المكارم":

- لكن الزمن سيعلمهم يا ابنى.

●●●

ومضت على "جلال" ليالى بطولها، وهو لا يعرف طعم النوم، لكنه كان مع ذلك سعيداً راضياً.

إن صوت "سالمة" لم يفارق أذنيه منذ سمعها تتحدث عنه. كذلك وجهها الأسمر الصبوح كان دائماً بين عينيه. إن لها ابتسامة رقيقة طيبة. إن وجهها يوحى بالثقة

والأمل. ثم إنها تحبه، بل تتمناه، والمثل يقول إن أحبتك حية، فتلفع بها، وهى ليست حية أبداً. إنها جميلة، وفى عينيها دفء حنون.

هل أحببتها يا "جلال"؟

ـ لكن هل أنت إنسان كسائر الناس، من حقك أن تحب، يا طريداً يا شريداً يا هائماً على وجهك بين الحقول، تثب من مكان إلى مكان كالقرود؟

وكيف تحب؟ وأين؟ ومتى؟

والخطر الذى يحدق بك، هل يدعك تحب؟

و "أبو سريع" الذى يتمنى أن يدق عنقك، هل يتركك تحب؟

والأسرة الكبيرة ذات النفوذ، هل تسمح لك بأن تحب؟

وضابط النقطة الذى يبحث عنك فى كل مكان، هل يأذن لك بأن تحب؟

لكن القلب لا يستأذن مع هذا، عندما تقع فى شرك هذا المارد الجبار: الحب. أنت تحب بلا شك. أنت تحب "سالمة" وهى تحبك، برغم كل هذه الظروف.

لكنه حب بلا معنى.

لكن لماذا يا "جلال"؟

هيا أحب. إنها تحبك. إن العمر واحد والرب واحد، فلتتمتع بحبها وليكن بعد هذا ما يكون.

وعندما تنفس الصبح، كان "جلال" متخفياً بين الحقول فى طريق الموردة، منتظراً مرورها مع أسراب الحسان، وعلى رأسها البلاص مائلا فى رشاقة إلى يمين.

وأقبلت "سالمة" مع بعض الفتيات، وكن يتهامسن بأحلام عذراء.

وكان "جلال" قد وضع خطة معينة للوصول إليها. لثامه محكم على وجهه، فلا تبين منه إلا عيناه، ومسدسه محشو بالطلقات، على أهبة الاستعداد، والهوى فى قلبه يكاد يفتك به من لوعة الشوق إليها.

وعندما وصل سرب الحسان إليه، أطلق عدة رصاصات، فدوت كأنها انفجار البركان وتحطمت البلاليص على الرءوس، بعدد ما أطلق من الرصاص، وتعالت الصيحات فى ذعر، وبدأت الفتيات يسرعن، عائدات إلى القرية.

وانتهز "جلال" فرصة هذا الذعر، فوثب إلى الطريق، وجذبها إلى داخل الزراعات.

وما هى إلا لحظات، حتى كان قد استقر بها بعيداً عن مكان إطلاق الرصاص وعندما تجمع الرجال والخفراء على أصوات الرصاص، كان هو جالساً معها غير بعيد من المكان، ولكن فى مأمن لا يفكر أحد فى أن يكون مصدراً لهذه الطلقات.

وكانت "سالمة" غائبة عن وعيها.

الطلقات التى انطلقت، والبلاص الذى سقط مهشماً فوق رأسها، واليد العاتية التى جذبتها وهى تعدو، لتدفعها إلى داخل الحقول، تجرى بغير أن تعرف لها هدفاً.

كل هذه المفاجآت غيبتها عن وعيها.

لكنها عندما استفاقت وجدت نفسها والفتى الملثم الجميل وجهاً لوجه، أنفاسه تلامس خديها هذه المرة.

وشهقت كالمحمومة وهى تصيح:

ـ لا لا. مستحيل. اللهم اجعله خيراً.

ثم أخذت تفرك عينيها كمن يستيقظ من نوم طويل. لكنها وجدته هو، هو نفسه أمامها.

وعادت تصيح:

وأخذت تتحسسه لترى إن كان هذا شبحاً أم إنسا بلحم ودم، فلما وجدته هو بلحمه ودمه، وعيناه معلقتان بها لا تتحركان، ولا تهتزان ولا تتحولان، عادت تصيح:

ـ من أنت؟ من تكون؟

وابتسم وهو يربت على كتفيها ثم قال :

- أنا "شبل". اسمى "شبل".

- هل أنت "شبل" الذى...

- نعم أنا. أنا الذى رأيته فى السوق.

- وما الذى جاء بك إلى هنا؟

- أنت يا "سالمة".

- أنا ...أنا التى جاءت بك إلى هنا؟

- نعم أنت. عيناك الجميلتان. وجهك السمح الطيب.

- مستحيل. هل تعرفنى؟

- نعم أعرفك. أعرفك وأحبك.

- متى أحببتنى؟ ومتى عرفتنى؟

- لا تسألينى يا "سالمة".

- وهل تعرف كذلك أننى...

- نعم أعرف. أعرف أنك تحبيننى كما أحبك.

- وتعرف أنى أحبك أكثر من عينى. لا، أكثر من الشهد. أكثر من أى شىء. أكثر من كل شئ.

- لكنى أحبك أكثر مما تحبيننى.

وصاحت فى سذاجة طيبة وصادقة:

- وحياة سيدى الذكيرى أبداً. أنا أحبك أكثر بكثير.

- صحيح يا "سالمة"؟

- أى والله صحيح.

- هل تحببننى حتى الموت؟ هل...هل يهون عليك أى شئ من أجلي، حتى لو كان هذا الشىء هو الموت نفسه؟

- نعم. والله لو كنت طيراً، لرميت نفسى من فوق النخلة، لأراك لو كنت سمكة، لألقيت بنفسى فى الماء لألقاك. لو كنت عزرائيل، لقدمت روحى لك لأحظى برضاك.

- وأنا كذلك يا "سالمة". أحبك يا "سالمة".

وبدأت قصته مع "سالمة".

●●●

أخذا يلتقيان بين الزراعات كل يوم، وكثيراً ما كانا يلتقيان فى الصباح وعند الظهر وفى المساء.

وأحس "جلال"، أنه محتاج إلى أن يروى لها كل شىء عن نفسه وعن آلامه، وعن حياته.

رفع لها اللثام عن وجهه، كما ترفع العذراء غلالة العرس عن وجهها، لتستقبل عريسها بوجهها السمح الصريح.

وقال لها إن اسمه "جلال". إن اسم "شبل" هذا لثام آخر، يخفى به حقيقته عن الناس.

وحدثها عن الخص الذى ولد فيه، وعن أمه "تفيدة"، وعن جده "أبو عوف"، وعن الساقية، وعن جدته "أم الهنا"، وعن خالته "مفيدة"، وعن "رءوف"، وعن "أبو المكارم".

وكان وهو يتحدث إليها، يشعر أنه يخفف ما فى نفسه من أثقال.

كان يبدو خفيفاً كالطير، شفاف كالهواء، مشرقاً كنور الصباح.

وكان تمتلئ نفسه بالثقة والأمل والاطمئنان، لا يشعر أن الخطر يحدق به من كل جانب. بل لا يشعر أن فى حياته خطراً على الإطلاق.

وكانت "سالمة" تهيم به حباً، حتى لتكاد تلتهمه التهاماً، بعينيها وكفيها وشفتيها وكل جارحة من جوارحها.

لقد أحبته عندما رأته فى السوق يقتحم الزحام كالسهم، وفى قبضة يده مسدسه، وفى عينيه بريق لذيذ. أحبته من بعيد. كما تحب فتيات القرى أبطال الأساطير، وكما يحب شبان القرى حوريات الماء التى تردد ذكرهن الحواديت. لكنها عندما رأته ولمسته وأسندت رأسها إلى صدره الدافئ، ذابت فيه حباً ووجداً وهياماً. إن لمساته الرقيقة تصيب جسمها بالخدر، ونظراته الصادقة الصافية تخترق شغاف قلبها بنوع من السحر شديد، وكلماته وحكاياته وضحكاته تلفها فى غيبوبة جميلة، تحملها إلى بعيد، فلا تعود تذكر إلا أنها ملكة يفعل بها ما يشاء، إذا شاء. وليته يشاء.

وتقيم "سالمة" من نفسها عبداً طيعاً لمولاها.

تعد له ما يريد من طعام، وترتب له ما يطلبه من حاجات، وتتسلل إليه فى أى مكان يطلبها فيه، لتلقى نفسها بين أحضانه، وتغمض عينيها على أروع حلم تتمناه عذراء.

وبين أعواد الذرة وسنابل القمح، وتحت ظلال الجميزة، وبين فروع الصفصاف، يتضوع شذى حب مكتوم، لا تعرف القرية عنه شيئاً.

شخص واحد كان يعرف كل شىء عن هذا الحب، ويكتمه بين صدره، كما يكتم كل سر. "أبو المكارم" الأخرس.

وقال "جلال" "لسالمة" ذات يوم:

- هل تتزوجيننى يا "سالمة"؟

وأشرقت عيناها ببريق لامع، حتى لقد أصبحتا كقطعتين من الماس. ولم ترد بكلام. لكنها ردت بأسلوب آخر. أمسكت بكفيه لتمرغ فيهما وجهها، ولتبللهما بالدموع.

ولم يكن سهلاً أو ممكناً أن يتم هذا الزواج فى هذه الناحية. لهذا صحبها إلى كفر الزيات، حيث عقد عليها عند مأذون لا يعرف عنهما شيئاً، وعاد بها زوجة حلال أمام الله، وإن تكن القرية تجهل كل شىء عنهما.

وكان "جلال" مشفقاً عليها كل الإشفاق. كان يقول لها:

ـ إنى أخاف عليك يا "سالمة" من الناس. إننا نلتقى كاللصوص، وأخشى أن ينكشف السر، فيكون فراق ما بينى وبينك.

وقالت فى صدق:

ـ لن يفرقنا شىء إلا الموت.

قال:

ـ فإذا ارتابوا فيك، وأنت تكثرين الغياب عن القرية وأهلها.

قالت:

ـ تراك تنسى يا "جلال". اذكر دائماً أننى أعمل عند "أبو سريع"، وهذا وحده ضمان كاف لسلامتى. أنا أعمل عند أختك يا "جلال". أعمل فى بيت "ست الناس"، ويسرها دائماً أن أختفى عن البيت ليخلو لها الجو.

قال "جلال":

ـ ليخلوا لها الجو. مع من؟

قالت "سالمة":

ـ ألا تعرف قصتها مع "مدبولى" الخفير؟ إنهما كالسمن على العسل، ويهمهما أن أغيب عن البيت ليتمتعا بعيداً عن العيون والأسماع.

وذهل "جلال". وثار فيها أول الأمر فى غضب، ثم عاد يقول لنفسه:

ـ لكن لماذا تثور؟ ناس ينكرون حتى نسبك، ويعلنون أنك نجس. يخافون على شرفهم منك، ومع هذا تحرص عليهم؟ ثم أى رابطة تربطك "بست الناس" هذه؟ إنها أختك. لكن هل يهمها أمرك؟ ألم تسمع حكاياتها مع أمك؟ ألم تسمع حكايات أمها عنك؟ لا يا "جلال". إن "سالمة" لم تخطئ وهى تقرر لك الحقيقة. لا داعى للثورة أو الغضب. إن هؤلاء الناس ليسوا منك ولست منهم.

وهدأت نفسه، وقد اطمأن إلى أن أحداً لن يرتاب فى علاقته "بسالمة"، فإن "ست الناس" يسرها أن تختفى "سالمة" عن البيت، وتحرص فى الوقت نفسه على أن يتصور "أبو سريع"، وتتصور القرية كلها أنها هناك فى البيت تخدمها، وتعاونها على أعباء الأسرة، فى حين تكون مشغولة بأعباء نفسها، مع خفير من خفراء زوجها.

لكنه عاد فأخذ يسأل عمه "أبو المكارم" عن قصة طست الناس" مع "مدبولى"، فروى له "أبو المكارم" قصصاً أخرى كثيرة عن علاقات من هذا النوع، وهز رأسه فى ألم وهو يستعيد ماضياً أليماً حينما قتلوا "تفيدة"، وأذاعوا عنها الأكاذيب لتصبح الشريفة الطاهرة متهمة وليصبح العابثون بكل شرف، الواغلون فى أنواع الدنايا جميعاً شرفاء ! بل يتبرأون من الشرفاء !

وعجب "جلال" مما سمع، وزاد سخطاً وحنقاً وغضباً.

وسأله "أبو المكارم" أن يهدأ، لكنه صاح فى عصبية:

- وكيف أهدأ يا عمى، وهذا أصلى، إنى ساخط حتى على نفسى. وعلى الدم الذى يجرى فى عروقى، وأتمنى لو استطعت أن أخرج من جلدى. أنا من عائلة "الحاج سلطان" ! ولقد غاظنى أن تبرأ منى أسرتى ! وأن تنكر نسبى ! تصور يا عمى "أبو المكارم". تصور أنى حريص على هذا النسب، ثائر على إنكارهم لى، وهم كما ترى قوم مجردون من كل الفضائل، بلا شرف، ولا ضمير !

وأجابه "أبو المكارم" بأن عليه أن يهدأ، ولا يثور على نفسه إلى هذا الحد، فإنه لا ذنب له فيما يفعله الآخرون.

قال "جلال":

- ويفتكون بأمى المسكينة، ويقضون على أسرتها باسم الشرف والدفاع عن الفضيلة ! والله لأثار لأمى ثأراً لم تعرفه هذه الناحية من قبل.

●●●

وبعث "جلال" برسالة قصيرة إلى العمدة يطلب إليه فيها أن يلف مائة من الجنيهات فى ورقة بيضاء، ويضعها بنفسه فى مكان من جسر الرياح، وألا يفتح فمه بحرف واحد، وإلا فهو يعرف أنها ستكون نهايته مهما كانت حراسته. ووقع التوقيع السحرى، الذى أصبح على كل لسان "شبل".

وفى الموعد الذى حدده كان المبلغ حيث طلب.

وضحك "جلال" من قلبه، وهو يروى القصة لـ"أبو المكارم"، ويعد أمامه المبلغ الكبير.

ولما قص القصة على "سالمة" لم تصدق، حتى رأت النقود بعينيها.

أما العمدة "غضبان" بن الحاج سلطان" فإنه لم يقل كلمة واحدة عما حدث.

لقد كتم السر حتى عن زوجته، ولم يغمض له جفن طيلة الليلة التى وصلته فيها الرسالة، خوفاً من أن يهبط عليه هذا "الشبل" بمسدس تفوح منه رائحة الموت.

ولقد رددت القرية بعد ذلك حكايات ما كانت لتصدقها لولا أن الواقع المادى يؤيدها.

لقد كان الموسم، هو موسم جمع القطن، حيث يلجأ الفلاحون إلى "الحاج غضبان"، و" العمدة غضبان"، وأفراد أسرة "الحاج سلطان" جميعاً يسألون عن قروض بالفايظ، فلا ينالونها إلا بالرجاء والاستجداء، وتسليم المحاصيل بعد ذلك "للحاج غضبان" يبيعها كما يشاء ويخصم من ثمنها ما يشاء، ثم يرد الباقى إلى أصحابه إن بقى بعد ذلك شىء.

لكن هؤلاء المحتاجين وجدوا تحت أعقاب الدور، ما يريدونه من مال لجمع القطن، هدية حلالا من "شبل". وبهذا أعفاهم "شبل" من بيع أنفسهم ومحصولاتهم لأسرة "الحاج سلطان".

وترددت الحكايات، وعلى الوجوه فرحة وفى العيون دعاء.

وذهب الناس إلى "الشيخ مختار" يسألونه إن كانت هذه الأموال حلالا أم حراماً، فقال لهم، إنهم لم يسرقوها ولم يخطفوها ولم يخدعوا أحداً فى سبيل الحصول عليها، فكيف تكون حراماً؟

ولما وصلت الفتوى إلى آذان "أبو سريع"، ثار ثورة جنونية، وأقسم ليؤدبن "الشيخ مختار".

وأرسل فى طلب "الشيخ مختار"، فلما جاء هب فيه يصيح:

- انت تحلل الحرام يا "شيخ مختار". أنت تضلل الناس عن الحق. ألا تعرف أن "شبل" هذا لص وأنه شقى سفاح، وأنه ينهب الناس ليوزع ما ينهب على الفلاحين يضللهم عن حقيقته؟ أتحلل مالا مصدره السرقة والنهب؟ أيرضى بذلك الله؟

قال "الشيخ مختار":

- أنا لا شأن لى بهذا كله. إن شخصاً يجد فى بيته مالا أو يجد فى الطريق هذا المال، ملقى، ولا يعرف ممن سقط، ولا من يكون قد تركه أو نسيه، ويأخذ هذا المال، فإن هذا المال لا يكون مالا حراماً.

قال شيخ الغفر فى حدة:

- لكن مصدر هذا المال معروف. إنه من "شبل".

قال"الشيخ مختار":

- لكن من يكون "شبل" هذا؟ ومن قال إنه لص أو سفاح؟

قال شيخ الغفر فى صوت كالرعد:

- وتناقشنى يا شيخ البلاء. اذهب عنى، وإياك أن تدخل الجامع أو تصلى بالناس.

وسكت "الشيخ مختار"، وهو يردد فيما بينه وبين نفسه:

- اللهم إن كان هذا يرضيك فزدنا منه.

ولما انصرف "الشيخ مختار"، كانت القرية كلها قد علمت بكل شىء وتقاربت رقاب الرجال ليسمع كل منهم من صاحبه، أن الشيخ مظلوم، ولكن ماذا تراه فاعلا بـ "أبو سريع".

وفى موعد الصلاة، كان "الشيخ مختار" فى المسجد كما اعتاد، ولما جاءه غفير من طرف "أبو سريع" يطلب منه ألا يؤم الناس قال الشيخ:

ـ دع هذا للناس. أنا لا أؤم "أبو سريع"، ولكنى أؤم المصلين.

وأذن الرجل للصلاة، ثم توجه نحو القبلة وكبر لله.

وارتفع تكبير المصلين فى حماسة، وذكروا فيما ذكروا سلفه "الشيخ مرزوق"، وكيف كانت له وقفات مع العمدة القديم، ومع أسرة "الحاج سلطان"، ومع زوجات "الحاج سلطان"، لا تزال ذكرى طيبة فى أفواه أهل القرية جميعاً.

لكن هاجساً خافتاً جعلهم يخافون عليه مما قدر على "الشيخ مرزوق".

وعندما سلم الشيخ عقب الصلاة، كان "أبو سريع" فى انتظاره بباب الجامع.

لقد حاول "أبو سريع" أن يقنع العمدة باستدعائه، ولكن العمدة رفض الفكرة من أساسها دون أن يبدى لذلك أسباباً، لأن الأسباب كانت سراً مكتوماً فى نفسه، يخاف أن يعلنه لأحد.

وخرج "الشيخ مختار" مهيباً وقوراً هادئاً، لا يعبأ بشىء، فلما وجد "أبو سريع" بالباب قرأه السلام فلم يرد السلام، وإنما قال:

ـ تعال معى يا "الشيخ مختار" إلى النقطة. والله لولا أنك من رائحة "الشيخ مرزوق" لربيتك أنا، ولكنى سأترك تأديبك للضابط. هيا بنا.

●●●

وكان "جلال" فى أثناء ذلك على صلة بكل ما يحدث.

كان "أبو المكارم" يقفه على ما يدور أولا بأول.

وكانت "سالمة" تروى له كل شىء بتفصيلاته مما يدور فى بيت "أبو سريع".

وضحك "جلال" من قلبه، وهو ينوى أن يحمى "الشيخ مختاراً" أيا كانت النتائج.

ولقد سر "جلال" أن "الشيخ مختار" لم يضعف، ولم يخف وإنما مضى شجاعاً يواجه "أبو سريع" بما فى قلبه من الثقة والإيمان.

وجمع "جلال" الأشقياء من الرجال وأمرهم بأن ينتظروا ما يشير به، وأن يكونوا على استعداد للقيام بمغامرة لم تعد تعرف هذه البلاد لها نظيراً.

ولما صحب "أبو سريع" والغفراء "الشيخ مختار" إلى النقطة، كان "جلال" يرقبهم من بعيد، كما كان الفلاحون من أهل القرية يتطلعون إليهم فلا يصاب الشيخ بمكروه.

وعند النقطة وثب "جلال" إلى مكان يصل إليه فيه ما تدور فى حجرة ضابط النقطة، فسمع كل شىء.

لقد روى "أبو سريع" ما حدث، وصور القصة على أنها تمرد على رجال الضبط والربط، وخروج على طاعة الحكومة ورجالها، وتعصب مع الفلاحين ضد أولياء الأمر فى القرية.

وطالب شيخ الغفر بأن يتخذ حضرة الضابط إجراء سريعاً وحازماً، حتى يحفظ هيبة الحكومة فى القرية، وإلا فإنه لن يكون مسئولا عن الأمن والنظام بعد ذلك.

قال الضابط:

- لماذا لم تنفذ الأمر يا "الشيخ مختار"؟

قال الشيخ:

- إنه يأمرنى ألا أصلى بالناس، والناس يريدوننى أن أصل بهم، وهذا دين الله فى عنقى لا أستطيع أن أحيد عنه، إلا إذا أقعدنى عنه مالا طاقة لى به.

قال الضابط:

- لكنك بهذا تهز النظام وتتحدى أولى الأمر.

قال الشيخ:

- يا سيدى أنا أصلى بالناس فى الجامع. ما علاقة هذا بالنظام؟

وصاح شيخ الغفر قائلا:

- يا حضرة الضابط. إنه يحلل لأهل القرية الأموال التى ينهبها الآفاق "شبل" ويوزعها على الفلاحين ليضلهم. هذا الشيخ يقول إن هذه الأموال حلال.

وصاح الضابط:

- "شبل". هذا المجرم صاحب حادثة السوق؟

قال شيخ الغفر:

- نعم يا حضرة الضابط.

قال الضابط:

- لا يزال هذا النجس حياً حتى الآن؟ والله لآتين به مكبلا فى الحديد.

ثم نظر إلى الشيخ وهو يقول:

- وأنت أيضاً من عصابته !! ما شاء الله. شيخ يصلى بالناس فى الجامع، ويتضح أنه أيضاً من عصابته !! اقبضوا عليه، ليقضى هذه الليلة فى التخشيبة.

وتقدم العساكر من "الشيخ مختار"، وسحبوه فى عنف إلى خارج الحجرة، ليودعوه التخشيبة وهى حجرة مظلمة يسجن فيها المتهمون والمشتبه فيهم حتى يحولوا إلى السجون.

ولم ينطق "الشيخ مختار" بحرف، ولكنه سلم أمره لله، ومضى مع الجنود.

●●●

ووثب "جلال" من المكان الذى كان قابعاً فيه، ليختفى فى الظلام يرقب شيخ الغفر ورجاله وهم عائدون إلى القرية.

وكانوا يرقصون من الفرح.

لقد تخلصوا من "الشيخ مختار"، وسيتخلصون من أى صعلوك يقف دون رغباتهم. لابد من تأديب هؤلاء المتمردين.

ـ طبعاً يا شيخ الغفر. والله أنت سرك باتع.

ـ من ذا الذى يعصى أمرك يا شيخ الغفر.

ـ إن فيك سراً يا شيخ الغفر. إنك تحبس شيخ الجامع. حتى شيخ الجامع !

ويضج شيخ الغفر والغفراء بضحك طويل.

على حين كان "جلال" يصحب الرجال فى طريقهم إلى نقطة البوليس، وفى يد كل منهم سلاح فتاك.

وهناك قريباً من النقطة تسلل هو حتى كاد يدخلها بقدميه.

ولم يجد هناك إلا اثنين من عساكر البوليس، يداعب النوم جفونهما، وثالث يجلس أمام التليفون.

وتطلع إلى حجرة السلاح فوجد بابها مفتوحاً يدعو من يشاء إلى الدخول.

وأعطى رجاله إشارة الهجوم فاقتربوا منه، فدخل هو مقتحماً الباب فى جرأة.

وفى ثانية كان قد كمم فم العسكرى الذى يجلس إلى جوار التليفون، ثم سحبه بعيداً وقيده من خلف.

وفى نفس الثانية كان رجلان آخران قد فعلا بالعسكريين الآخرين، مثلما فعل هو بالعسكرى الأول.

ولم تمض بعد هذا دقائق، حتى كان "جلال" والرجال قد جردوا نقطة البوليس من السلاح ومن الذخيرة.

ولم ينس "جلال" أن يدخل حجرة الضابط ليترك له كلمة واحدة على مكتبه.

"شبل". كانت هذه هى الكلمة الوحيدة التى تركها.

لكنه عاد ذكر "الشيخ مختار".

وقال لنفسه:

هل تعود لتطلق سراحه؟

لكنه عاد يذكر أن ضابط النقطة اتهمه بأنه من أفراد عصابة "شبل" ولو أنه أطلق سراحه لأيد بذلك هذا الاتهام.

إذن ليتركه فى التخشيبة حتى الصباح، ليقيم الدليل على أنه لا علاقة له "بشبل" ولا بعصابته كما قال ضابط النقطة.

●●●

وقضى "أبو سريع" ورجاله ليلة صاخبة مع كؤوس الخمر، يضحكون من كل شىء، ويسخرون من "الشيخ مختار" نزيل التخشيبة.

فى حين قضت القرية ليلتها هذه فى ظلمة وظلام، وطوت نفسها على يأس مرير.

وتجمع بعض النسوة حول "راضية" زوجة "الشيخ مختار"، يطيبن خاطرها، ويسألنها الصبر، حتى يعود الشيخ بسلامة الله.

ولم تكن أقل من الشيخ شجاعة وقوة وهى ترد على كل مواساة:

ـ إن الله معه. إنه دائماً معه. وأنا مطمئنة عليه. محنة وتزول.

●●●

وفى الصباح، حينما قصد ضابط النقطة إلى مكتبه كانت المفاجأة مذهلة.

لقد وجد العساكر مقيدين بالحبال.

ووجد النقطة خاوية من السلاح.

على حين كان "الشيخ مختار" كما تركوه محبوساً فى التخشيبة المظلمة.

وساد الذهول. اصفر وجه الضابط وهو يعرف أى مصير ينتظره، واصفرت وجوه العساكر جميعاً.

وعندما ذاع فى الناحية هذا النبأ، وأن "شبل" هو الذى فعلها ليؤدب الضابط ورجال النقطة على تهورهم، وأنه لم يكتف بالتهديد ولا بالوعيد، ولكنه اقتحم نقطة البوليس،

ولم يهمه ما للحكومة من سلطان، واستولى على السلاح والذخيرة، وعاد إلى مخبئه فى الحقول.

عندما ذاع هذا فى الناحية، رقص الفلاحون فى حقولهم، خاصة عندما علموا أن "الشيخ مختار" قد أطلق سراحه، وأنه فى المسجد يصلى بالناس.

أما شيخ الغفر والغفر، فقد اختفوا عن العيون طيلة اليوم، يتفادون نظرات الشماتة والفرح من عيون الصعاليك.

رجلان وامرأة كانوا يتسمعون فى ترقب، يرصدون نتائج هذه المغامرة.

"أبو المكارم" وهو يدور حول الساقية وعيناه مفتوحتان تلتقطان الصور فى دقة وانتباه. و"جلال" وهو قابع بين الزراعات يحتمى بها من عيون العساكر والخفراء.

و "سالمة" وهى تروح وتجىء، فى بيت "أبو سريع" الذى يحتمى من نفسه، ومن وهمه بجدران حجرته الكئيبة المظلمة.

ولما جاءتهم مع المساء أنباء وقف الضابط والعساكر، أطلق كل منهم حيث هو ضحكة طويلة.

ثم التقوا تحت جنح الظلام، ليقضوا ليلة لم يعرفوا لها من قبل مثيلا.

□□□

٩

يا حضرة الضابط:

أنت جديد فـى هذه النقطة. نقلوك إليها بعد ما شـاع وذاع عن حادثة اختفاء السلاح والذخيرة من النقطة. وطبيعى أنهم كلفوك بالعثور على السلاح المفقود والقبض على "شبل". أما السلاح فهو تحت أمرك، وأما "شبل" فلن تستطيع مهما أوتيت من قوة أن تصل إليه. هو يستطيع أن يصل إليك، أما أنت فلن تستطيع أن تصل إليه.

يا حضرة الضابط:

هل تعرف لماذا اختفى السلاح؟ طبعاً هم قالوا لك إنها فوضى. إنه خروج على الأمن وعلى النظام. لا يا حضرة الضابط. وليس "شبل" باللص أو السفاح، لو أردت الحق، فإنه يستطيع أن يساعدك فى مهمتك، بشرط أن تكون إلى جانب المظلوم، أما إذا أردت أن تقف إلى جانب السادة المستبدين، فستكون أنت الذى تخرج على النظام وعلى القانون، وحينئذ ستكون موضع سخط "شبل" واضطهاده.

يا حضرة الضابط:

إنى على استعداد لمساعدتك. السلاح والذخيرة تحت تصرفك. اذهب إلى جسر الرياح، وستجد كل ما تريد مدفوناً بعد خمسين خطوة من بداية التين الشوكى، تحت أشجار التين. وتستطيع يا حضرة الضابط أن تتظاهر بالبحث والتحرى، لمدة يوم أو يومين. تظاهر بتهديد المجرمين الذين استولوا على سلاح النقطة. اعمل كل ما تراه ضرورياً فى مثل هذه الأحوال، أتبدو المسألة طبيعية.

" ها أناذا قدمت لك عربون صداقتى وودى، ولن يعرف أحد إلا أنت وأنا والله بهذه الرسالة إليك، فليكن ما بيننا هو أنك مع الحق ضد الباطل، ومع المظلوم ضد الظالم، وسأكون بلا شك ذراعك اليمين فى هذا السبيل. وحاذر أن يضحكوا عليك أو يخدعوك. إنهم أقوياء وأغنياء، والذين سبقوك كانوا يعتمدون عليهم ضد البسطاء السذج الأبرياء، فإذا سرت فى هذا التيار، فستنال مثلما نال سلفك من عقوبة وجزاء، وإلا فأنت آمن، سأعمل على تقوية مركزك ما لدى من قوة.

يا حضرة الضابط:

" وفقك الله، والسلام عليك ورحمة الله " .

وعندما رأى الضابط التوقيع: "شبل" شرد بعيداً وهو يفكر.

لقد تلقى أمر النقل إلى هذه النقطة، بعد الملابسات التى ذاعت عن السلاح والذخيرة، فتصور أنه ذاهب إلى غابة من غابات الوحوش.

وعندما استدعاه الحكمدار ليبلغه الأمر، قال له فى خشونة وجفاف: "إننى اخترتك لأنك ضابط شهم وشجاع، وعليك أن تستعيد مركز الحكومة بين هؤلاء الأشرار. إن مستقبلك كله متوقف على قدرتك على السيطرة على الموقف. لابد من أن تعثر عل السلاح وعلى الذخيرة بأية وسيلة، ولا بد من أن تتعقب هذا المجرم "شبل" حتى تقضى عليه ".

ووجد الضابط الشاب أن الأمر ليس بالسهولة التى يتحدث بها الحكمدار.

إن الحكمدار يعرف فقط كيف يلقى الأوامر، من مكتبه بمبنى المديرية، وحوله عدد من الحرس المدججين بالسلاح. لكن هل يدرى طبيعة القرى، وما فيها من صعوبات.

ولقد ارتعدت مفاصله، وهو يرى دموع أمه تسيل على خديها وهى تودعه، وصوتها يتحشرج فى حلقها وهى توصيه أن يفتح عينيه جيداً، وألا يندفع وراء المجرمين، فهم أقوياء وقد يؤذونه، ولم يعد لها من يرعاها إلا هو بعد الله.

وعندما انتهى من تلاوة الرسالة، ذكر هذا كله، ورأى أن خير وسيلة، أن يتحقق أولا من صدق ما جاء فيها.

هل صحيح أن السلاح والذخيرة، حيث حدد "شبل" فى الخطاب؟

إن يكن هذا صحيحاً، فهو انتصار سريع، سيكون له أثره بلا شك على مستقبله.

لكن أى ثمن يريده "شبل" هذا؟

هل تراه يساوم على شىء؟

أو أنه حقيقة يدافع عن الحقوق، ويرد المظالم عن أصحابها؟

لكن من ذا الذى أقامه رسول عدل على هذه الأرض؟

شىء غريب!

ثم ما هذه القوة التى يتمتع بها هذا الشيطان؟

فى يوم وبعض يوم استطاع أن يقتحم هذه النقطة مرتين، الأولى ليكمم العساكر ويوثقهم بالحبال فلا يتحركون. ثم يجرد النقطة من السلاح ومن الذخيرة، والثانية ليضع هذه الرسالة على مكتب ضابط، فى حجرة مغلقة لم يفتحها إنسان!!

وبعد أن أخذ يدير المسألة فى ذهنه على هذا النحو، استقر رأيه على أن يجرب أسلوب المسالمة، فلعله أن يجدى فى السيطرة على الموقف.

هل يذهب الآن لاسترداد السلاح؟

لكن "شبل" ينصحه بألا يسترده إلا بحركة مسرحية، يمثل فيها دور البطل الذى حصل على السلاح بالتهديد والوعيد والعين الحمراء.

واستقر رأيه على عقد اجتماع لرجال الضبط والربط فى كل قرى الناحية.

●●●

وفى الاجتماع كان العمد ومشايخ البلاد ومشايخ الخفراء متراصين فى انتظار الضابط الجديد.

وكانت العيون كلها مسلطة على العمدة "غضبان"، وشيخ الغفر "أبو سريع"، فى حين كانا يهربان من النظرات، كأنما هى أصابع اتهام.

ألم يكونا هما السبب فى هذا الهلع كله؟

لماذا اضطهد الرجل البسيط المسكين، "الشيخ مختار"؟

لماذا يعاديان الجامع وشيخ الجامع؟ بل يستعديان عليه النقطة، وضابط النقطة والعساكر؟

ألا يعرفان أن للبيت رباً يحميه؟

أليس "الشيخ مختار" خادم بيت الله؟

هذه نتيجة أعمالكما، أن نحضر فى هذا الليل البهيم، لنسمع كلاماً كضرب الرصاص!

●●●

ويدخل الضابط الجديد، وعلى وجهه غضب، وفى عينيه نذير.

وإنه لا يصافح منهم أحداً، على خلاف ما اعتاد العمد من الضابط، وإنما يكتفى بسلام مقتضب سريع، ثم يبدأ على الفور يلقى تعليماته فى شدة وفى قسوة.

إن عليكم أن تعثروا على السلاح وعلى الذخيرة. أنتم جميعاً مسئولون، وسأحاسبكم أشد الحساب إذا لم تعثروا على السلاح المفقود. أين نحن؟ هل هذه غابة وحوش؟ هل أصبح الأمر فوضى فى هذه البلاد؟ لقد أرسلت أستدعى الهجانة، وسأفرض نظاماً خاصاً فى هذه الناحية، بعد أن فشلتم فى استتباب الأمن والنظام. سأمنع السهر بعد صلاة العشاء، وسأتولى بنفسى كل أمر، حتى تتعلموا كيف تؤدون واجباتكم. أما "شبل" هذا المجرم الأفاق، فإنى سأتعقبه حتى أعثر عليه، وخير له أن يعيد السلاح والذخيرة قبل أن أقضى عليه بنفسى. إنى سأضرب بيد من حديد على كل من تخول له نفسه أن يعيث فى هذه الناحية فساداً. هل سمعتم؟ هيا عودوا إلى بلادكم، وأذيعوا هذا بين الناس، وليبلغنى كل منكم بما عسى أن يقف عليه من معلومات.

وانصرف الضابط، وترك السادة المجتمعين، يتبادلون نظرات غبية بلهاء.

وقبل أن ينصرم الليل، كانت قرى الناحية كلها تردد ما كان فى اجتماع الضابط بالعمد والمشايخ ومشايخ الغفر، وأن الهجانة ستصل إلى هذه الناحية بالجمال والوجوه السمراء الصارمة، والكرابيج السودانى التى لا ترحم.

وجلس "جلال" و "أبو المكارم" يرددان هذه الروايات، بعد أن جاءتهما من "سالمة" والساقية تدور، لا تعبأ بشىء، ولا يهمها من ذلك كله شىء.

قال "جلال" وهو يضحك.

- يظهر أن الضابط الجديد رجل عاقل يا عمى "أبو المكارم". لقد سمع ما قلته له، وبدأ ينفذه بالطريقة التى رسمتها. إذا استمر على هذا فسأبر بوعدى له.

- وهز "أبو المكارم" رأسه وصيحاته التقليدية تؤكد "لجلال" انهم جميعاً يبدءون هكذا. ثم أخذ يتمنى ألا يلوثه اللئام الذين تخصصوا فى إفساد الذمم والضمائر.

قال "جلال":

- والله إن الطريق واضح أمامه، وله أن يختار، ونحن هنا على كل حال. وضحك ضحكة مدوية، وانصرف ليتابع ما يدور من "سالمة" حيث اعتادت أن تنتظره بين أعواد الزرع، بعيداً عن العيون والأسماع.

●●●

وفى اليوم التالى، فى منتصف النهار، والشمس تتوسط كبد السماء كالحقيقة الناصعة، وقطار الظهر قد أفرغ حمولته من الناس فى محطة السكة الحديد، والناس يروحون ويجيئون على جسر الرياح، تحرك حضرة الضابط بقواته، بعد أن أشيع أنه تلقى إشارة سرية تنبئ عن مكان السلاح والذخيرة.

وتطاولت الأعناق، وأخذت العيون تتابع الركب فى فضول أبله، وقد انعقدت الألسنة على سؤال: أين يا ترى تكون هذه الأسلحة والذخائر؟ أين وضعها "شبل" والرجال؟ وهل

أخفوها حتى تحين فرصة تهريبها إلى مكان آخر؟ أو أنهم تركوها تخلصاً منها، بعد أن ذاع الإنذار الذى أطلقه الضابط الجديد؟

ولم يجد أحد وسيلة إلى أن يجيب عن هذه الأسئلة المتعاقبة التى انعقدت عليها الألسنة واستقرت كالسر فى الحلوق وبين الشفاء.

لكن الإجابة عن بعضها جاءت تقنع كل صاحب سؤال. هذه هى الأسلحة. هذه هى الذخيرة.

إنها مدفونة تحت أشجار التين الشوكى.

وعجب الفلاحون، وهم يرون القوة تخرج الأسلحة، سلاحاً بعد سلاح، من هذا المكان، الذى يمر به كل يوم مئات الفلاحين، ولا يفكر واحد منهم أنه يمكن أن يكون مخبأ يختفى فيه سلاح. إن الزواحف وحدها هى التى تروح وتجىء بين هذه الجذوع الغليظة المتشابكة، وفى روايات كذلك أنها مسرح للجن والعفاريت، لكنها لا تصلح موطئاً لقدم، فكيف بها مخبأ للسلاح والذخيرة؟ على كل حال، لقد كان انتصاراً كبيراً للضابط الجديد، أبلغه على الفور للمركز وللمديرية.

وكان كذلك انتصاراً له على العمد ومشايخ البلاد ومشايخ الغفراء، الذين فشلوا فى العثور على السلاح، واهتدى إليه ضابط شاب غريب، لم يمض عليه فى هذه النقطة إلا يومان.

وأصبحت شخصية الضابط من البطولات على أفواه القرويين، يحيكون حوله القصص والروايات.

لكن هذه القصص والروايات، كان يكتنفها بين الفلاحين نوع من الخوف والقلق على مصير "شبل".

"شبل" أغاث "أم الفرح"، و "عبد النبى الحاج خميس"، و "سعد"، و" الشيخ مختار".

"شبل" أعاد بهائم "الشحات" إليه بعد أن انتزعها منه رجال "الحاج غضبان".

"شبل" وزع على كل المحتاجين أجور جمع القطن، وكانوا يأخذونه ديناً بالفايظ ويدفعونه للدائن من قوتهم وقوت عيالهم.

و"شبل" كذلك أطلق سراح "الشيخ مختار" وأعاده إلى الجامع يؤم الناس للصلاة ويدعوهم إلى طاعة الله.

هل يكون العثور على السلاح وعلى الذخيرة، بداية لنهاية "شبل" من هذه الناحية؟

إذن فهو النذير بأن يعود الأمر كما كان.

ولم يستطع الفلاحون أن يقولوا ماذا كان، حماية لأنفسهم مما قد يكون ! لكنهم همسوا به فى بعض الأحيان، وهم يدورون حول الساقية، فى ظلمات الليل البهيم، لا تسمعهم إلا الفروع الممتدة من شجرة الجميز، والفروع المتدلية من شجرة الصفصاف، وسعف النخيل والرجل الأخرس، الذى لا ينطق بما يسمع " "أبو المكارم".

- لقد ضبطوا السلاح والذخيرة. طبعاً علمت بهذا.

- يا سيدى ربنا يحميه للمحتاجين المساكين.

- من هو يا أخانا؟

- تتجاهل؟ إنهم يطلقون عليه المجرم السفاح والنجس، وهو والله سيدهم جميعاً.

- مجرم لأنه يغيث الملهوف. وسفاح لأنه يساعد المحتاج، ونجس لأنه يغنى الناس عن أموالهم التى يعطونها بالفايظ، ويأخذونها مضاعفة أو أكثر من المضاعفة.

- لكن هل تظن أنهم يجدونه.

- لا أظن. إنه شهم وجرىء. والله ليدوخنهم جميعاً.

- والضابط الجديد يقولون عنه إنه شجاع وقوى.

- أقوى ممن؟ من "شبل"؟ لا. إنه "شبل" على سن ورمح يا ولد.

- لا ترفع صوتك. إن للساقية أذاناً.

ـ وماذا يفعلون بنا؟ ماذا يستطيعون أن يفعلوا بنا. إن معنا رجلا من ظهر رجل.

ـ يا أخى أنت لا تعرفهم. إنهم لئام. إنهم أشداء أقوياء.

ـ الله أقوى منهم.

وبينما الحديث يدور هكذا بين الرجلين، إذا بالمارد الرهيب يهب عليهم فجأة وبلا سابق إنذار.

إنه "أبو سريع" وخلفه خفيران من خفرائه.

ويرن صوت الكرباج السودانى، وهو يضرب الرجلين من أمام ومن وراء، وهما لا يعرفان أين يكون المفر. إنهما يصرخان طالبين الرحمة من القلب الذى لا يعرف الرحمة، فى حين يصيح "أبو سريع" :

ـ تتحدثان عنه؟ ترويان عنه الروايات؟ لابد أنكما تعرفان أين يكون ! سآخذكما الآن إلى النقطة لتموتا فى التخشيبة، أو تقولا أين هو.

ويقسم الرجلان أنهما لا يعرفان عنه شيئاً، ولم يريا له وجهاً. لكن "أبو سريع" لا يصدق، ويأمر الخفيرين بجرهما أمامه.

وبينما كان "أبو المكارم" يتطلع إلى المنظر الذى أمامه فى عجب، إذا بصوت يشق سكون الليل، فيكون له وقع الصاعقة على شيخ الغفر والرجال جميعاً.

رصاصة انطلقت فوق الرءوس، حتى كادت أن تلامسها.

وما هى إلا ثانية، حتى كان "شبل" ملثماً لا تبين منه إلا عيناه، واقفاً إلى جوار شجرة صفصاف، وفى كل يد من يديه مسدس يتجه نحو شيخ الغفر والغفيرين اللذين معه.

ولم يستطع "أبو سريع" أن ينطق بحرف.

ولم يستطع الغفيران أن يتكلما.

وقال "شبل" فى صوت عميق كأنه خارج من بئر:

سمعت كل حرف قلتموه. إياكم أن تمسكوا بواحد منهما. إنى سأقتل أى واحد منكم تمتد يده إليهما. واعلموا أن هذا نذير لكم، ولسواكم من الخفراء. لو أصيب هذان الرجلان بأذى فالويل لكم جميعاً. هاأنذا "شبل" بلحمى وشحمى أمامكم، فمن يطلبنى منكم أو يبحث عنى، فعليه بالقبض على إذا استطاع، لكنكم لن تستطيعوا يا جبناء، فلماذا تتركونى وتبحثون عمن يتحدثون عنى؟ هيا عودوا إلى دوركم واتركوا الرجلين يرويان الأرض ويتحدثان فى حرية، وحذار أن تتردد كلمة عنى لأحد. لو علمت أن أحداً منكم تكلم عنى كلمة واحدة، فسيدفع ثمنها حياته. هيا أريد أن أرى أقفيتكم العريضة وأنتم تديرون عائدين. امش يا شيخ الغفر إياك أن تصطدم بركبتيك. هيا.

ولم يستطع المارد الجبار، إلا أن يدير وجهه إلى ناحية البلدة، ويمضى عائداً إلى القرية، وخلفه الغفيران.

وبقى الرجلان وحدهما، فاقترب منهما "شبل" وهو يقول:

- هؤلاء فجرة مستبدون. هذه هى الطريقة الوحيدة التى تصلح للتعامل معهم إنهم يخافون ولا يستحون.

وقال أحد الرجلين:

- ربنا يطيل عمرك يا "شبل" يا ابنى.

وقال الرجل الآخر:

- والله يا ابنى ما عرفنا الآمان إلا منذ طلعت علينا.

وقال "شبل":

- المهم هو ألا تضعفا لهم. إن هؤلاء جبناء، لا تجدى معهم إلا القوة.

ونظر إلى عمه "أبو المكارم"، بطرف من عينيه، فرأى ابتسامة سريعة ترتسم على وجهه، وعاد من حيث أتى.

●●●

وأراد "جلال" أن يؤكد انتصاره على "أبو سريع".

لقد كان انتصاره الأول، فاتحاً لشهية، فأحس أن نفسه مفتوحة إلى مزيد من الانتصار.

وأرسل إليه برسالة يطلب فيها أن يضع مائة من الجنيهات داخل ورقة بيضاء مطوية ويتركها حيث عثر البوليس على السلاح. وحدد "جلال" فى رسالته يوماً للتنفيذ. ووقع كما اعتاد أن يوقع: "شبل".

ولما تسلم "أبو سريع" الرسالة ثار ثورة جارفة، وأخذ يصيح:

- "شبل" ..."شبل" هل يذلنا "شبل" هذا؟ أدفع له مائة جنيه ! أنا "أبو سريع" الذى يأخذ الكحل من العين إذا أراد، أدفع لهذا الصعلوك مائة جنيه طائعاً مختاراً !! والله لأؤدبنه.

وذهب "أبو سريع" إلى العمدة، يخطره بالرسالة التى تلقاها، فهاله أن العمدة لم يفتح فمه بحرف ولم يبد عليه أنه يستنكر الرسالة وما تحويه، كأنما الأمر عادى يحدث كل يوم.

وصاح شيخ الغفر فى العمدة:

- ماذا جرى لك يا عمدة؟ ألم تسمع ما قلته لك؟

قال العمدة:

- سمعت يا شيخ الغفر، سمعت. لكن ماذا أفعل؟

- أنت العمدة تقول ماذا تفعل؟!

- نعم ماذا أفعل يا "أبو سريع"؟

- تبلغ النقطة يا عمدة.

- لا يا سيدى. هذا ليس حلا يا شيخ الغفر.

ـ الله. ما هذا؟ والله لولا أنى أعرفك لاتهمتك بأنك شريكه.

ـ بل أنا ضحيته كذلك يا شيخ الغفر.

ـ ضحيته !؟ أنت أيضاً!؟

ـ نعم أنا أيضاً يا شيخ الغفر. تعجب يا شيخ الغفر.

ـ ودفعت ما طلبه منك!؟

ـ نعم يا شيخ الغفر. دفعت ما طلبه، وفى الموعد الذى حدده، وفى المكان الذى قال عنه.

ـ إذا كان العمدة يعمل هذا، فماذا يعمل الناس؟ ماذا يعمل أهل البلد؟

ـ أردت أن أشترى الراحة والهدوء.

ـ إذن النقود التى وزعها كانت من مالك.

ـ وغيرى دفع يا شيخ الخفر.

ـ هذا نصب. هذا إرهاب. هذا تهديد. هذه بلطجة.

ـ اعتبرها ما تشاء. هذا هو ما حدث.

ـ لكنى لن أدفع.

ـ أنت حر. تصرف كما يحلو لك، وتحمل أنت المسئولية.

ـ تهددنى يا عمدة!؟

ـ أنا أهددك يا شيخ الخفر؟ انا فى وضعك يا شيخ الخفر. كلنا فى "الهوا سوا".

ـ إذن أتصرف أنا. أنا لن أدفع.

وذهب "أبو سريع" إلى النقطة. وقابل الضابط، وأطلعه على الرسالة. وكان طبيعياً أن يهتم الضابط بالرسالة، وأن يتفق مع "أبو سريع" على أن يضع المبلغ حيث طلب "شبل"، وسيتولى هو مراقبة المكان، للقبض على "شبل" أو أحد أفراد عصابته كما قال:

- وعندما خرج "أبو سريع" من النقطة، شعر أن "شبل" قد وقع، وأن نهايته قد دنت، وأنه سيثار منه ثأراً يعيد إليه قوته المفقودة.

ولم يكن يدرى أن "شبل" كان على علم بكل ما فعل، وأن له آذاناً سمعت كل شىء وأنه كان قد أعد للموقف عدته.

وما إن قطع شيخ الخفر جسر الرياح، وخلفه غفير كان يرافقه، وانحنى إلى اليمين فى الطريق إلى القرية، بين حقول الذرة، حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام فتى ملثم، يمسك بيده متأهباً للعمل، فى حين هجم رجلان ملثمان على الغفير الذى كان يرافقه وكمماه وجذباه إلى داخل الحقول.

قال شيخ الغفر فى هلع:

- من؟ لابد أنك "شبل" الذى يتحدثون عنه.

قال "شبل":

- نعم يا نذل. ماذا كنت تفعل فى النقطة يا جبان؟

وأشار إليه أن يتقدم داخل الحقل، ليصفى معه الحساب.

وعندما أصبح شيخ الغفر داخل الحقل، قال "شبل":

- ألق بسلاحك على الأرض.

وألقى شيخ الغفر بسلاحه على الأرض، وهو ينتفض من الانفعال.

قال "شبل":

- اسمع. أنا لست جباناً مثلك. أنا أستطيع الآن أن أذبحك، وأذبح معك هذا الذيل الذى تجره وراءك. لكننى لن أفعل هذا. إن إراقة دمك لا تهمنى. إن دمك نجس يا "أبو سريع" ولهذا فلن ألوث به يدى. ثم إنى لست لصاً ولا سفاحاً. أنا هنا لأحمى الناس منكم ومن ظلمكم. أنا أنصف منكم من لا يستطيع أن ينصف نفسه. هل تفهم هذا يا

شيخ الغفر. وعلى كل حال، فها أنت مجرد من السلاح، وسألقى أنا كذلك سلاحى من يدى، وليكن بيننا عراك بالأيدى، فمن غلب فينا، فله أن يملى على الآخر شروطه. هل توافق؟

ولم يستطع شيخ الغفر أن يقول لا، فهز رأسه موافقاً.

وألقى "شبل" بسلاحه أمام أحد رجاله، فى حين وقف الرجل الثانى مشهراً مسدسه احتياطاً لأى طارئ، وبدأ العراك بين الرجلين.

وما هى إلا جولة، حتى كان شيخ الغفر مطروحاً على الأرض، يلهث كالعجل.

قال "شبل":

- لا شك أنك تريد جولة أخرى. استرح قليلا يا شيخ الغفر، واسترد قواك.

وعندما بدأت الجولة الثانية، لم تمض دقائق، حتى كان شيخ الغفر طريح الأرض مرة ثانية.

وأعطاه "شبل" فرصة ثالثة، فما كان منه إلا مثلما كان فى الجولتين الأولى والثانية.

ووقف "شبل" ينفض يديه، كأنما يطرح عنهما التراب.

واستعاد سلاحه، ثم نظر إلى الرجل المغلوب وهو يقول:

- الآن يا شيخ الغفر عليك أن تسمع إلى شروطى، وأن تنفذها بالحرف الواحد. هذا سلاح الحكومة. إنه لى. أنت لست جديراً به لأنك ضعيف وجبان. ثم عليك أن تكفر عن نذالتك عندما ذهبت برسالتى إلى ضابط النقطة. هل تدرى كيف تكفر عن هذه النذالة؟ تضع المائة جنيه حيث طلبت منك أن تضعها تحت شجرة التين، فى الموعد السابق، ليذهب رجال الضابط فلا يجدون أحداً يفتش عنها أو يطلبها وبهذا يثبت له أنك كاذب، وأنك مضلل وإياك أن أروى له شيئاً مما حدث بيننا الآن، إذا كنت تريد أن تعيش. على أنى محتاج إلى مائة جنيه، لأوزعها على ناس ينتظرونها بفارغ الصبر. وسأنتظر هذا

المبلغ بعد ساعة واحدة فى هذا المكان. إياك أن تتجاوز ساعة واحدة، وإلا دفعت بدلا من المائة جنيه عمرك. هيا..هيا. انصرف يا شيخ الغفر لتنفذ ما قلته لك.

قال شيخ الغفر:

- لكن السلاح. السلاح الذى أخذته من الحكومة، وسلاح هذا الغفير. ألا تعرف أن ضياعه معناه المحاكمة والتأديب والسجن؟ حرام عليك يا "شبل".

- حرام على أنا يا شيخ الغفر؟!

قال شيخ الغفر لـه

- والله يا "شبل" إننا نستطيع أن نكون أصدقاء، وأن نعمل معاً، وسترى أننى قادر على تنفيذ كل طلباتك.

قال "شبل":

- أعمل معك أنت يا نجس؟ أنت يا سبع الليل! هذا مستحيل. إن مهمتى أن أؤدبك، وأن أؤدب أمثالك.

قال شيخ الغفر:

- والسلاح. السلاح يا "شبل"؟

قال "شبل":

- ليس من طبعى أن أغير كلمة قلتها، ولو دفعت حياتى ثمناً لها. هيا بينك وبين الموت ساعة. إن أردت أن تعيش فعد وفى جيبك المائة جنيه، وإلا فودع أولادك قبل أن تموت.

●●●

ومضى شيخ الغفر، وخلفه الغفير، لا يتكلم أحدهما إلى الآخر، بل لا يجرؤ أحدهما على أن ينظر إلى الآخر.

وأرسل "جلال" فى أثرهما ضحكة عالية، وصلت أصداؤها إلى آذان الرجل الأخرس، الذى يتابعه بنبضات قلبه، وخلجات ضميره.

وقال "أبو المكارم" فى نفسه، وهو يدور حول الساقية:

ـ الله يجازيك يا "جلال". لابد أنك قمت بعمل خطير، إنى أعرفك، فأنت تخفف أثر الحوادث على نفسك بالضحك. لكن ربنا يجعله خيراً.

أما "جلال" فقد نظر إلى الرجال ثم قال:

ـ تظنون أنه عرفنى؟

قالوا:

ـ واللثام المتقن الذى يخفى ملامح وجهك.

وقالوا:

ـ مستحيل. إن اللثام ممتد إلى فمك، وصوت الرجل الملثم يختلف تماماً عن صوته العادى بغير اللثام.

قال:

ـ لعلكم تطمئنوننى.

فأقسموا له أن أحداً لا يستطيع أن يتبين صوته على الإطلاق. إن التنكر يجعل صوته متهدجاً متقطعاً، حتى ليظن من يسمعه أنه صوت شيخ فى الستين.

لكن "جلال" صاح أخيراً:

ـ ولو أنه عرفنى، ماذا يهم؟ الأهم من كل شىء أننى علمته من يكون. شيخ الغفر، وسبع الليل وقع هنا، مترنحاً كالسكران. لم يسعفه شارب الصقر على وجهه، ولا نظرات الرعب فى عينيه. لقد وقع كالعجل، ولم يكن ينقصه إلا السكين.

وضحك وضحكوا، لكنه بعد قليل طلب إليهم أن ينصرفوا، وحدد لهم أماكن بعينها يقفون فيها، ويكونون على حذر من أى طارئ.

ومضى كل إلى مكانه، وسار هو فى خطوات وسيدة يفكر.

وأطلت عليه من خلال الزراعات قبة سيدى الذكيرى، فأحس أنه محتاج إلى بركته، فتحركت شفتاه بسورة فاتحة الكتاب الكريم، وهبها لكل الذين يتناثرون حول القبة الصغيرة البيضاء، سائلا لهم الرحمة والغفران.

وذكر أمه وذكر جده، وذكر خالته، وذكر "رءوف" مع فاتحة الكتاب التى وهبها على أرواح الموتى حول سيدى الذكيرى.

ومضى على جسر الرياح يتطلع إلى هذه الساحة الجميلة الفاتنة، ويستغرقه التفكير.

الساقية تدور، لا يهمها إلا أن تدور، أياً كانت الأحداث حولها.

لقد كانت تدور وأمه تغرق بين مياه الرياح، فما توقفت عن أن تدور.

وستظل تدور مهما يكن عدد الذين يذهبون شهداء.

وعمى "أبو المكارم" يدور حولها فى غير كلل، ولا ملل، ولا فتور. لسانه صامت لا ينطق بشئ، وضميره يتحرك بكل شئ.

لكن هل مضت الساعة التى حددها؟

لا يزال هناك وقت يملأ فيه رئتيه من هواء الساقية، والأشجار التى تلتف بها، والنخل الذى يقف حولها كالديدبان يحرسها فى يقظة وانتباه.

ولا يزال هناك وقت يرى فيه الطلعة السمحة للرجل الذى قضى عمره يدور حول هذه الساقية.

وكانت له مع "أبو المكارم" نظرات حزينة غامضة، وكلمات مقتضبة سريعة، ولمسات من الرجل الأخرس ليديه وشعره وخديه. إنه يكاد أن يلعقه كما تلعق القطة أولادها.

وداخله شعور غريب بأن شيئاً سيقع له بين لحظة وأخرى لكنه عاد فهز كتفيه فى سخرية، فإن شيئاً لم يعد يهمه، هو الضائع الشريد.

وبدأت عقارب الساعة تشير إلى الوقت الذى حدده، فعاد يرقب الطريق، ليرى شيخ الغفر، وهل يقبل فى موعده كما اتفقنا.

لكن شيخ الغفر لم يحضر.

وهز "جلال" رأسه، وهو يتطلع إلى الطريق وقال:

ـ والله مدهش يا شيخ الغفر. تعصى أوامرى أنا؟! أنتظرك بضع دقائق أخرى، فإن لم تحضر، فأنا وأنت وقرافة سيدى الذكيرى يا كلب.

لكن "جلال" رأى من بعيد شبحاً أسود، يعدو نحوه وهو يلهث.

وأطال النظر ليرى القادم فإذا هى "سالمة".

"سالمة" قادمة فى غير المواعيد التى تزوره فيها، وإنها لتعدو كأنما تسابق الزمن، تحاول أن تسبقه.

"سالمة" مرتبكة مضطربة الخطو، متقطعة الأنفاس، كأن حادثاً وقع لها.

وأسرع نحوها فإذا وجهها أصفر، وعرقها يقطر، وخطوها يتعثر، وحديثها متنافر لا يعبر.

قالت:

ـ أسرع بى يا "جلال" إلى أقرب مكان أطمئن إلى الحديث فيه.

أسرع. أسرع. إنهم قادمون إليك. إنهم يريدون أن يقبضوا عليك حياً أو ميتاً.

قال:

ـ من؟ من هؤلاء؟

قالت:

ـ شيخ الغفر، ورجال النقطة.

وعندما وصلا إلى مأمن، بدأت تروى له أن شيخ الغفر قلب الدنيا بعد أن وصل إلى البلد، وروى أنك قابلته بعصابة كبيرة ملثمة من الرجال، وخطفته وحاولت قتله، لكنه ساومك على حياته فقبلت أن يدفع لك مائة جنيه، وأن يترك لك السلاح الذى كان معه

ومع الغفير. وقد اتصل بالنقطة، وأخبر الضابط بكل شيء، وأرشد عن مكانك، واتفق على أن يحضر قوة من النقطة، وأن يأتى هو وكل الغفراء، للقبض عليك حياً أو ميتاً.

وقالت "سالمة":

- اهرب يا "جلال". اهرب حالا. لا تضيع ثانية واحدة. ربما كانوا يحاصرونك الآن. هيا يا "جلال" إن حياتك أغلى من كل شىء.

قال "جلال":

- وأنت ماذا تفعلين؟ فإذا طالت غيبتى ماذا يكون مصيرك عندما يكتشفون ما كان من أمرى وأمرك. ستعجزين عن إيضاح الأمر لهم، ويظل الاتهام عالقاً بك، وقد يكون مصيرك مثل المصير الذى لقيته أمى.

قالت وهى تدفعه:

- لا تفكر فى هذا. كله يهون إذا عشت أنت. المهم أن تعيش أنا فداؤك يا "جلال"، كل شىء يصيبنى من أجلك لا يساوى لحظة واحدة من لحظات حبنا. اذهب يا "جلال".

وبدأ "جلال" يتطلع حواليه، ليتخير الطريق الآمن.

استدار إلى الوراء، فما إن خطا بضع خطوات، حتى سمع طلقاً نارياً قادماً من هذا الوراء.

واتجه إلى اليمين يبحث عن طريق مأمون، فلم يخط بضع خطوات، إلا وطلق آخر يأتيه من يمين.

كذلك حدث له عندما اتجه إلى اليسار، وتأكد له حينئذ أنه محاصر.

وفكر فى أن يتخذ الطريق العام، فقد تكون هذه المخاطرة هى أسلم طرق الفرار. لكنه رأى عدداً من الرجال يروح ويجىء فى هذا الطريق، وسمع وقع أقدام الخيل، فأدرك أن قوة من الخيالة جاءت من النقطة، وأنها فى الطريق تنتظر أن تراه.

وأخرج مسدسه، وبدأ محاولة يائسة.

أطلق طلقات متفرقة من اتجاهات مختلفة، ليوهم القوة التى تحاصره أن معه عدداً كبيراً من الرحال، ثم أراد أن يخفف الضغط من جانب واحد من جوانب الحصار فما استطاع إلى ذلك سبيلا.

حينئذ قرر أن يهدأ حتى يلمح شيخ الغفر، فيقتله، ثم يكون بعد ذلك ما يكون.

لكن القوة كانت أسرع منه، فتجمعت حوله، وضيقت الحصار عليه.

ونظر إلى "سالمة" أمامه، فاستبد به الغيظ ولم يدر ماذا يفعل.

أما هو فلم يعد يهمه ماذا سيحدث له، لكن "سالمة" تهمه. إنه يحبها، ويتمنى لو استطاع أن يجد طريقه يخلصها بها من هذا الخطر.

وأطلق عدة أعيرة حواليه، فى غير وعى ولا هدف.

وردت عليه القوة بطلقات من كل جانب، فتفادى الطلقات منتظراً أن تخف. لكنه فجاة رأى "سالمة" تترنح غير بعيدة عنه.

"سالمة" أصيبت.

أصابوا "سالمة" ...المجرمون.

وأسرع نحوها ليرى ماذا بها، فوجد الدم يسيل من صدرها، ومن فمها، فى حين ارتسمت ابتسامة على شفتيها.

وصاح: "سالمة" !

وقالت: حاذر إياك أن تموت.

وصاح: ماذا جرى لك يا "سالمة"؟

قالت: ما كنت أتمناه يا "جلال" أن يكون آخر عمرى بين ذراعيك.

وصاح: لا. بل ستعيشين.

قالت: لماذا؟ اتركنى أموت، فإن السعادة التى رأيتها معك، لن تتكرر بعد ذلك أبداً. إنها فوق تصور الناس. إنها تكفى نساء البلد كلهن، لو وزعت عليهن، وقد نلتها وحدى. هل أطمع فى أكثر منها؟ لالا. إنى أموت مستريحة النفس يا "جلال". المهم الآن هو أنت. النبى تأخذ بالك من نفسك، من أجلى.

والقت برأسها على كتفيها، والبسمة الوسيمة الرحيمة، تضئ شفتيها.

وغاصت "سالمة" فى بحر الأبدية، فى رحيل بعيد، كالذين رحلوا قبلها.

وشعر "جلال" أنه عاد وحيداً شريداً، لا أهل له، وعزت عليه نفسه، فأطلق العنان لدموعه تتحدر على خديها، ثم تبلل الوجه الحبيب الملتقى على كتفه.

وبلغ به حزنه، حداً أفقده القدرة على أن يئن أو يتأوه.

وقبع الأسد الفاتك مستسلماً، حتى أطبق عليه رجال البوليس والخفر، وكان لثامه قد سقط عن وجهه، ومسدسه قد خوى من قذفات الموت، فتمدد إلى جواره مستسلماً معه.

وصاح شيخ الغفر فى رعب عندما رآه:

- إنه "جلال". الولد النجس، وغشاوة المحنة، أطل "جلال" كمن يستيقظ من كابوس ولم يقل شيئاً. ماذا يجديه الآن الكلام. لقد انتصروا عليه، وهو لا يدرى أى مصير ينتظره.

وأغرى صمته شيخ الغفر، أو لعله أراد أن يستعيد ثقة خفرائه به فعاد يصيح:

- والله وقعت يا كلب. هذه نهاية كل مجرم يخرج على "أبو سريع".

وانطلق صوت حزين، وصارم يقول:

- اسكت أنت يا شيخ الغفر. إياك أن تفتح فمك. لو أن الأمر لك، لما استطعت أن تصل إليه. نسيت السلاح الذى سلمته كالنعجة بلا مقاومة. اسكت.

وسكت شيخ الغفر ولم ينطق بحرف.

وأطل "جلال" ليرى لأول مرة من بين حبات الدموع، وجه ضابط النقطة.

ومضى الضابط يقول له:

ـ لقد كنت مشغوفاً بأن أراك. على أنى ألقاك لأول مرة فى ظروف لا يسر على كل حال. هيا معنا.

ونظر إليه "جلال" ثم نظر إلى الوجه الشاحب الملقى على كتفه، فأشار الضابط إلى رجاله ليتولوا أمر المسكينة الراحلة، ومضى "جلال" وخلفه العساكر، وهو بين الحين والحين يلتفت إلى وراء، يلقى آخر نظراته على "سالمة" الحبيبة الغالية.

وفى الطريق إلى النقطة لمح عمه "أبو المكارم" فتبادلا نظرة صامتة، لكنها مليئة بالتعبير عما فى قلب كل منهما للآخر.

ومشى إلى النقطة، وهو يدرك تماماً أن "أبو المكارم" ينتظر أن يسير الجمع، ليطلق دموعه فى وداعه.

وعندما أصبح عند أشجار التين الشوكى، نظر خلفه، ليتبادل مع الضابط الشاب نظرات لا يعرف سرها إلا هما.

●●●

وفى التحقيق، وفى المحاكمة، حاولت النيابة العامة أن تنسب إلى "جلال" كل الجرائم التى ارتكبت فى الناحية.

كل جريمة قتل. كل جريمة نهب. كل جريمة سرقة. بل كل اعتداء على شرف. وكل اغتصاب لعرض.

حاولت النيابة أن تلصق به كل هذه الجرائم.

لكنه أنكر كل شىء، ولم تستطع النيابة أن تثبت عليه حتى جريمة خطف السلاح والذخيرة.

وكان "جلال" يحسب ألف حساب للرسالة التى أرسلها إلى ضابط النقطة، لكن الضابط لم يقل شيئاً. لقد رد إليه الجميل الذى قدمه إليه.

كذلك كان "جلال" يخشى من الرسائل التى أرسلها إلى العمدة، وإلى شيخ الغفر لكن اتضح له أن هذه الرسائل كلها قد فقدت.

ولما أصر على الإنكار، وجد المحامى الذى انتدبته المحكمة للدفاع عنه فرصة واسعة لتبرئته من كل التهم التى نسبت إليه.

ولم يثبت على "جلال" إلا حيازة سلاح من غير ترخيص.

وحكمت المحكمة بحبسه سنة.

وعندما وصل نبأ الحكم إلى الناحية، ثار "أبو سريع" وأخذ يسب ويسخط، فى حين كان الأهالى جميعاً مرتاحين للحكم، راضين عنه، سعداء به، وإن كتموا ذلك كله حتى لا يثيروا عليهم المارد الفاجر "أبو سريع".

وأخذ "أبو المكارم" يدور حول الساقية كمن يثب. لقد فهم من مناقشات الرجال حول الساقية أنهم سيحكمون على "جلال" بالإعدام، فلما انتهى أمره إلى الحبس سنة، انتابته فرحة طاغية، أفقدته القدرة على أن يدور حول الساقية فى انتظام، فأخذ يثب كالمجنون.

●●●

"أبو سريع" هو الذى تحول إلى وحش ضار، ينشب أنيابه فى الناس، فمنذ اللحظة الأولى التى قبض فيها على "جلال". وهو يسوم الناس سوء العذاب. شعر أن الجو قد خلا له، وأنه أصبح كما كان: الحاكم المتصرف فى الناس، وأقدار الناس، وأرزاق الناس.

حتى العمدة أخذ يرتعد من قوته. ألم يخف العمدة من "جلال" أو من "شبل" كما اعتاد أن يوقع رسائله؟ ألم يدفع ما طلبه منه "شبل" فى جبن وخسة، كما يقول شيخ الغفر؟ وها هو ذا "جلال" فى السجن، يدفع ثمن الشهور الطوال التى عاش فيها مطلق السلطات فى هذه الناحية.

لقد عاد الكرباج السودانى، يلف أجسام الرجال، كلما جرؤ أحدهم على توجيه نظرة إلى شيخ الغفر. وعاد الصوت المجلجل يملأ طرقات القرية بالنذر التى لا تعرف الشفقة أو الرحمة. وعادت الرقبة المتعالية تطل على الناس، كالذى يطل على السفح، من أعالى الجبال. وعادت العروق الصارمة تنفض حول رقبة مصبوبة من صخر./

وأسوأ ما عاد فى جو القرية، حسابات أسرة "الحاج سلطان"، نظير رى الأراضى من الساقية، ودرس المحاصيل فى الجرن الجديد الذى أقامه "أبو سريع" لينافس به الجرن القديم بعد أن آل إلى "عباس"، وسدادا للديون التى يتقاضاها الفلاحون بالفايظ للتغلب على ما يفاجئهم من أعذار.

إن للحاج "غضبان"، العمدة وصهر شيخ الغفر، أن يحسب أى حسبة كما يشاء، وكثيراً ما تكون النتيجة مزيداً من الدين، يتكرم الحاج بتأجيله للأعوام القادمة.

وللحاج "غضبان" أن يبيع محصولات الفلاحين بالطريقة التى يراها. للخواجة أو لغير الخواجة كما يريد. هذا ليس أمر أحد فى القرية، وإلا كان مصيره الطرد من رحمة الله.

وما أتعس هؤلاء الذين ساعدهم "جلال" بالمال !

لقد اصبحوا خصوم "أبو سريع" الشخصين، ينكل بهم بسبب وبغير سبب.

"أم الفرح" هذه المرأة المسكينة الفقيرة، أصبحت تقاسى الويل. فإن شكت فإن عقابها أن تضرب حتى تكاد تفقد النطق.

"وعبد النبى الحاج خميس" و"سعد" انقلبت حياتهما إلى جحيم، لأن "جلال" ساعدهما ذات يوم، دون أن يطلبا منه هذه المساعدة.

والخصم الذى دفع أفدح الأثمان هو "الشحات" الذى استرد بهائمه ومواشيه بقوة السلاح والذى رفض الضابط أن يرغمه على بيع البهائم والمواشى.

لقد تعقبه "أبو سريع" بالأذى، حتى ركع على ركبتيه يطلب منه السماح والمغفرة، فلم يفتح له أذنيه، وإنما طلب منه أن يستسمح "الحاج غضبان"، وأن يرد إليه دينه.

وعندما ذهب إلى "الحاج غضبان" لم يستح هذا الرجل العجوز، من أن يطلب منه أن يحضر والدته لتتفاهم معه، فهو فتى صغير لا يزال.

وبرغم أن "الشحات" اعتبرها إهانة لرجولته، إلا أنه عاد ومعه والدته.

وقال "الحاج غضبان" فى شماتة:

- أهلا وسهلا. أجلسى يا ست "أم الشحات".

ورفضت أن تجلس، واكتفت بأن قالت له :

- اعمل فينا معروفاً، واعف عن ابنى. ما ذنبه هو فيما حدث؟

قال فى دناءة:

- وما ذنبى أنا فى الوقت الطويل الذى ضاع من عمرى؟

وتظاهرت بأنها لا تعرف وقالت:

- سندفع لك عندما نقدر على الدفع.

قال فى وقاحة:

- بل تدفعون الآن، قبل أن يذبل العمر. إن كل تأجيل فى الدفع معناه خسارة لا تعوضها الأيام.

وفهمت هى بطبيعة الحال. ولم يفهم "الشحات" شيئاً مما يسمع.

لكنها نظرت إليه فى سخرية وقالت:

- اسمع يا حاج. إننا سنترك لك البلد، سوف نذهب إلى بلد لنا فيها أقارب. نستأجر هناك أرضاً لنعيش، والله معنا.

قال فى قسوة:

- على أن تدفعى قبل أن تغادرى البلد.

قالت فى تحد:

- بل لن أدفع لك شيئاً يا سيدى الحاج، وافعل ما تشاء. والله لو فعلت بنا شيئاً، أمنعتنا عن ترك البلد ببهائمنا ومواشينا ومتاعنا، لأفضحك فى كل مكان. أنت تعرف يا حاج ماذا أستطيع أن أفعله.

ولم تمض على ذلك أيام، حتى كانت البلد كلها تتابع "الشحات" وأمه، وهما يتركان البلد، وليس معهما إلا ما خلف أبو الشحات من البهائم والمواشى وبعض المتاع.

"الشيخ مختار" وحده هو الذى نجا من التنكيل الذى أراد أن يلحقه به "أبو سريع" فقد اجتمعت كلمة أسرة الحاج سلطان كلها على ألا يصاب بسوء، لا من أجل عينيه، ولا إشفاقاً به، ولكن حتى لا يزداد استفزاز "أبو سريع" للناس، من الرجل الذى يؤم الناس فى الصلوات. لكن القرية مع هذا لم تنس "جلال" أو "شبل" كما كان يسمى نفسه.

لقد ذهب عنها فارس، لم تعرف قيمته إلا اليوم.

وعندما كان الأذى يلحق بأحد، كانت كل الشفاه، تردد فى همس: أين أيامك يا "جلال"؟

وفى السهرات الدافئة، بعيداً عن عيون "أبو سريع" وآذانه، كانت سيرة "جلال" هى سيرة السهرة المحببة، والدعوات له بأن يعود، هى ما يملكه الرجال والنساء من الآمال.

ولسيرة الشجعان فى القرى وقع خاص، وسحر خاص، يلهب الخيال ويستولى على العواطف، وسيرة "جلال" بالذات كانت سيرة شجاع، يدافع عن كل مظلوم، وينتزع الحق لصاحب الحق، ولو كان بين أنياب الأسد.

ولم يكن طبيعياً ولا منطقياً، أن تمر هذه السيرة دون أن يسجلها الفنانون السذج من الفلاحين بالأغانى والمواويل والحكاية الفنية الجميلة، وعلى آذان "أبو المكارم".

ومرت هذه الأغانى، فى همسات الليالى كأنها نجوى السرائر، حول الساقية:

ولكم استمع إليها الرجل الأخرس فى فرحة وأمل:

الاسم "شبل" واللقب "سلطان"

جدع حليوة بلا أهل ولا سلطان،

دارى اللثام بسمته لا تظهر ولا تبان.

لكنها نورت وهلت فى كل مكان.

إلا أنت يا سبع الليالى، ونسيبك الغضبان.

ينم يتامى حيارى كالنسوان.

●●●

وتسكت الأغنية ليبدأ غناء آخر جديد:

سالمة سلامة ـ سلامتك الغالية

ملت عليها تقول أنا أفديك يا غالية

قالت تعيش أنت وأروح أنا غالية

جم بالألوف يمسكون من إيدك الغالية

بصيت لهم بصة من عيونك الغالية

سلمت يا عايق بعد ما راحت الغالية.

●●●

وغناء آخر يتردد فى همس:

شحات ويغنيك الله لما بيريد

أخذوا بهايمك لا بتقول ولا بتعيد

سلمت أمرك لربك يعمل اللى يريد

جالك جلال ربنا جعل سوقك نهار العيد.

●●●

وهمس آخر يردده شباب القرية فى لوعة:

يا سعد نار الغرام عذبك ليل ونهار.

لا أكل ولا نوم، سهران ليل ونهار.

والمهر غالى يأكل حياتك ليل ونهار

جاه لا سبع الليالى، لكن سبع الرجال ليل ونهار.

●●●

وبينما كانت هذه الأغانى تتردد حول الساقية، كان "جلال" فى حجرة مظلمة، غليظة الجدران، يحرسها ديدبان لا ينام، فى سجن دمنهور، لا يشغل باله إلا ذكريات جده الذى سبقه إلى هذا السجن، وكانت فيه منيته، والرجل الطيب الأخرس الذى يدور حول الساقية، وراء ثورين معصوبى العينين، لا يريان مما حولهما شيئاً.

ولكم كانت ذكرياته هذه وأفكاره تلك، وسيلته إلى نسيان الدم البرىء الطاهر الذى سال على كتفه بين الحقول، وصوت كأنه وحى هبط عليه من السماء، يحذره من المصير المجهول.

إن "سالمة" تعيش معه هنا فى سجنه. إنها ماتت أمام عينيه. قتلها السفاحون المجرمون، فسقطت وهى معه، لكنها ظلت متعلقة به فى التحقيق، وفى المحاكمة وهنا أيضاً فى هذا السجن الغليظ.

ولكم دمعت عيناه وهو يذكرها. لقد كان حبه وبالا عليها، فأنهى حياتها، على هذه الصورة السريعة الحزينة الدامية، وهى بعد عروس فى ريعان الصبا وفتنة الشباب، تخطر كالغزال، وتضحك كوردة الصباح، وتعشق كالطبيعة، وتعيش فى المنى كبطلات الأساطير.

ولكم قال لنفسه،: ورحلت هى الأخرى مع الراحلين. لحقت بالذين ذهبوا قبل الأوان، وكانت آخر كلماتها ابتهالات إلى الله أن أعيش.

أعيش ! ولماذا أعيش؟! لأواجه هذه الدنيا، وما فيها من غدر وخيانة؟ إننى مهد الدم، مهدر النسب، لا أعرف من أنا، ولا لماذا أعيش؟

لكنه يتلفت حواليه، ليتبين مصدر هذه الأصوات المتداخلة، والقهقهة المتصلة، وهى تقترب من مكانه هذا الموحش، ويشعر أنه نداء خفى يتجه نحوه بأمل جديد.

ويدرك أنهم فريق من شباب الأحزاب، محبوسون على ذمة التحقيق. وتفتحت نفسه للزوار الجدد، كأنما سيرى فى وجهه كل منهم، وجه الصديق الذى رحل: "رءوف".

وطبيعة السجن أن يربط بين الذين يلتقون فيه بروابط تفوق فى كثير من الأحيان روابط الدم والقربى والنسب، لأنها روابط القلق المشترك، والعذاب المشترك، والحرمان المشترك، والأمل المشترك، وسرعان ما قامت هذه الروابط بينه وبين هؤلاء الزوار.

وروى لهم كل شىء عن نفسه.

وتحدث إليهم فى إفاضة وإسهاب.

وصرح لهم بما لم يصرح به فى التحقيق وفى المحاكمة.

إننى مذنب يا أصدقائى، لأن أبى أساء اختيار أمى. ولو أنى ابن لهذا الوالد من أم أخرى، لما كان مصيرى هذا السجن، أو هذا العذاب. على كل حال لقد كان يمكن أن يتغير مصيرى، فأصبح كبقية إخوتى، مستبداً من المستبدين، وجباراً من الجبابرة، يذل الرجال ويسخر النساء، فى سبيل الأطماع والشهوات. وأنا لست نادماً يا أصدقائى على هذا المصير. أبداً، ولن أندم على هذا السجن، فإنه فيما يخيل إلى المكان الوحيد الذى ينتهى إليه أمثالى من الضائعين المشردين. إن خطيئتى هى أن أبى طمع فى جمال أمى، فاغتصبها على يد المأذون، فلما أنجبتنى بدأ التفكير فى الثروة والميراث والاسم القديم العريق الذى سأرثه بلا مؤهلات. ودفعت أمى ثمن اغتصابها. أغرقوها فى الماء. ثم اتهموا أباها بقتلها، فقضى جدى بقيه عمره هنا، فى هذا السجن حتى مات، ثم لحقت به جدتى، ثم خالتى، ثم مضى أخيراً رجل كان يرعانى، كان اسمه "رءوف" كان محامياً

شاباً سبق زمانه، فعوقب هو الآخر على هذا السبق غير المقصود فمات، بعد حياة مضنية.

ووجدت نفسى يا أصدقاء السجن جائعاً بلا علم أو عمل، فلم يكن أمامى إلا أن أسرق لأعيش. ولم تكن الحياة التى عشتها تسمح لى بأن أسرق. وحاولت أن أطوى آلامى فى قلبى، وأن أعود إلى أهلى. كنت أعلم أن أبى مات، لكن إخوتى لم يموتوا، والرزق موفور، وحياة الأرض سمحة، ولم تكن مطالبى تتعدى لقمة العيش، وكساء، ومأوى. لكنهم أبوا على هذا.

وحملت عصا الكراهية والحقد على كتفى، واختفيت فى الحقول، أؤرق لياليهم وأهدد أرزاقهم، وأقلب حياتهم جحيماً.

وظهروا لى يا سادة أقزاماً. كنت أخاف منهم وأتصور كلا منهم مارداً جباراً يهز الرماح، ولا يخاف من شىء. لكن رايتهم يرتعدون من طلقة تهديد فى الهواء. رأيتهم يكتمون أنفاسهم، حتى لا أتبين سيرهم فى جناح الليل. وفتح جبنهم هذا شهيتى، فأسرفت فى لون من ألوان الفروسية، حتى أزيدهم جبناً على جبن.

لكن صدقونى. صدقونى أنى لم أظلم أحداً. على العكس، لقد أقمت من نفسى حائلا بينهم وبين المظالم. أنصفت كل مظلوم. وزعت الأموال على المحتاجين. الأموال التى سرقوها أعدتها إلى الذين يستحقونها.

وكم كنت أفرح عندما أشعر أنى اخفف عن جائع، وأسدد عن مدين، وأدفع المهر لعاشق محروم.

حتى نقطة البوليس. إنها خرافة. إن المظهر الذى يبدو عليها يخفى وراءه نفوساً تخاف. تصوروا أننى وبضعة رجال، خطفنا سلاح النقطة كله، وأخفينا كل الذخيرة؟!

إن الأمر فى منتهى البساطة. شىء بسيط من المغامرة، وينكشف لك كل هؤلاء الذين يبدون أشداء أقوياء. إنهم ليسوا أشداء من الداخل، ولا أقوياء فى الحقيقة. إن ذلك كله شكل يظهرون به، فإذا جسر واحد على تحديه، ظهرت حقائقهم فاضحة للأسف.

على كل حال لقد أديت خدمات هامة، وأنا الخارج على القانون. خدمات لا يؤديها الداخلون فى القانون. لا يؤديها القانون نفسه.

لكنهم تكاثروا، وقبضوا على، وأنا لا يهمنى هذا، فهنا آكل وأعيش ولكن الشىء الذى سلبوه منى هو الحب الطاهر العميق الذى تعلق بى، قتلوها ..قتلوها ..كما قتلوا أمى. قتلوا "سالمة" القلب الحنون الجسور الذى هفا نحوى، وعاش من أجلى.

وتحدرت الدموع من عينيه، فكانت هى الفاصل الطبيعى، الذى وضع نهاية لهذا الحديث الحزين.

وأحس أنه محتاج لهذه الدموع، يغسل بها أدران نفسه. إنه محتاج إلى أن يتطهر من كل ما مضى عليه، وتكاد تفتك به، وتبدو ما فى قلبه من شجاعة. ولقد حبس ذلك كله حتى لا يبدو ضعيفاً أمام حراسة ومحققية وقضاته. وفجأة أحس أن الحمل فوق طاقته. ولم يكن يملك من وسيلة يخفف بها هذا الحمل، إلا أن يدعه يتسرب من نفسه، وأن يدعه يتبدد من قلبه، فيبكيه.

وبكى كما لم يبك أبداً.

وصمت شباب الأحزاب ممن كانوا يلتفون حوله يتوقعون أن يسمعوا منه تفصيلات جريمة سرقة، أو هتك عرض، أو تجربة مثيرة عن عدوان على المال أو النفس.

لكنهم لم يتوقعوا أبدا أن يجدوه على هذا النحو من الرقة والرحمة

لم يكونوا يتوقعون أنه حمل سلاحه للثأر ممن أنكروه، والانتصاف لكل المحرومين من المساكين.

وعندما تبادلوا النظر، كل منهم إلى زميله، كانت هذه النظرات تنطوى على كثير من الإعجاب بالسجين الذى أقام من نفسه محكمة يحكم بها على الجناة، وحكومة تنفذ القضاء، فتوزع العدل على الذين حرموا من هذا العدل أجيالا.

وترددت بينهم مناقشات، أخذ جلال يلتقطها فى دقة:

ـ والله إنه بطل.

ـ إنه يحقق ما ننادى به، ونعجز عنه.

ـ وهو فرد، لا يستند إلى جماهير، أو تنظيم أو نفوذ سياسى.

ـ لكن ما هذا الإسراف فى تقييم الأعمال. إنه لا يعدو أنه شقى من الأشقياء، هدد الأمن والقانون والنظام. لا تخرجوا الأمر عن واقعه. إنكم سذج .

ـ نحن سذج يا جاهل. إذن الشجاعة الباسلة التى يتميز بها تنقصنا جميعاً.

ـ تنقصكم أنتم، لكن هناك شجعان آخرون، يؤدون أعمالا كبيرة.

ـ مثلك يا حضرة المحامى؟! تخطب الجماهير، فى اجتماعات منظمة، وأنت تعرف مقدماً أنها بعيدة عن أى خطر. وتقول يا فارس الفرسان كلاماً كطلقات الرصاص فإذا أقبل عسكرى واحد من رجال البوليس، أخذت تبحث عن مخبأ؟

ـ أنا؟...أنا الذى نظمت المظاهرات الضخمة فى الجامعة، متحدياً إرادة الحكومة وسلطانها . واقتحمت صفوف العساكر، ولم أعبأ بالقوة الغاشمة التى كانت تحيط بنا .

ـ كلام نسمعه، أما ما نراه فهو على العكس من هذا تماماً.

ـ لا داعى للخلاف. نحن هنا جميعاً مسجونون. على أن أشجعنا بلا شك هو هذا البطل. كم قلنا لكم إننا لن نحل قضية من القضايا الوطنية، إلا إذا تدربنا على حمل السلاح. لابد لنا من تدريب على حمل السلاح. لابد من قتال المحتل حتى يخرج.

ـ يا أخى كفى كلاماً . نقاتل من؟ نقاتل قوات مسلحة مدربة محترفة؟!

أنتم تقولون كلاماً لا تعرفون مدا. كونوا مسئولين. فكروا تفكير المسئولين عن كل قطرة دم تدفعونها دفعاً إلى التضحية، لتكسبوا من ورائها، بغير أن تقوموا أنتم بتضحية.

ـ إذن نفاوض المحتل. نتوسل إليه أن يخرج.

ـ بل نقنعه بالحجة والمنطق والبرهان. القضية قضية إقناع.

ـ وسيقنع اللص أنك مسكين، فيشفق عليك ولا يسرقك. سيقتنع القاتل أنك برىء فيحترمك ولا يقتلك !! يا رجل، عيب !

ـ بل يقتنع بأن مصالحنا المشتركة تحتم عليه أن يترك بلادنا، ليضمن صداقتنا.

ـ صداقة !! أية صداقة يا جبناء؟ صداقة الذئب والحمل؟! صداقة الغالب والمغلوب؟! لا تخدعوا أنفسكم. إن الاحتلال لا يدعى إلى الجلاء. والاستقلال التام لا يستجدى لكنه يفرض فرضاً، وبلا استئذان.

ـ وتعرفون ثمن هذا؟

ـ نعرفه. إن الحرية أغلى من هذا الثمن وأى ثمن نعرفه من أجلها رخيص.

ـ وتحطيم اقتصاد البلد؟!

ـ قل وقتل السذج الأبرياء ! قل واليتامى والأرامل والمشوهين ! إذا كانوا هم يا غبى يستهينون بهذه التضحيات ليحتلوك، أفلا نستهين نحن بأية تضحيات لنخرجهم من بلادنا، ولنعيش شرفاء كرماء أحراراً؟!

ـ هو ذاك. تدريب على استعمال السلاح. تدريب دءوب مستمر، حتى نستطيع أن نجعل أيامهم سوداء، فيفضلون أن يخرجوا سالمين، على أن يفقدوا فى كل يوم ضحايا. لابد من أن يصبح وجودهم هنا مستحيلا، وإلا فهم لن يخرجوا. إن الخطب والبيانات والتنظيمات الحزبية كلها وسائل، لكن الهدف يجب أن يكون هو الجهاد المسلح ضدهم حتى يخرجوا. لكنا للأسف.

ـ قلها يا أخى ولا تخف من هؤلاء. لكنا ماذا؟ لكنا نسعى للحكم ولتحقيق المصالح. لسنا جادين فيما نعمل أو نقول. لسنا حريصين على استقلال بلدنا. بقدر حرصنا على الكراسى الوفيرة فى دواوين الحكومة، وتحت القبة المغرية الجميلة.

ـ هذه خيانة لقضية الوطن.

ـ إننا محتاجون لشباب كـ"جلال" هذا.

- آه لو لدينا مائة كـ"جلال".

- والله لو أن عشرة منهم بهذه البسالة وهذه التضحية، انتشروا حول معسكراتهم فى كل مكان، وأخذوا يتصيدونهم بالليل والنهار، لاهتزت أعصاب الإمبراطورية العجوز.

- هذا صحيح.

- يا عالم اسمعوا لصوت العقل. لعل السجن كالمخدر قد أدار رءوسكم.

- بل السجن كالوضوء أعدنا للصلاة.

- أو كالطهارة، أزالت النجس من قلوبنا.

- أنتم مسرفون.

- بل منصفون واقعيون.

- لكم دينكم ولى دين.

- لنا ديننا ولك أنت وظيفة كبيرة عندما يصل حزبك إلى الحكم.

- هذه وقاحة.

- لكنها الحقيقة للأسف الشديد.

●●●

ومضت المناقشة بين هذا الفريق من شباب الأحزاب، حول "جلال" نفسه، وعاد "جلال" يلتقط كل حرف مما سمع:

- هذا الفتى المسكين، يعيش فى مأساة.

- نعم هذا حق. لكن لا تحاولوا أن تفسروا المأساة تفسيراً خاطئاً. إنها مأساة حياتنا فى هذا الجيل. إنها ليست مأساة خاصة به. لكنا مثله، ولكل منا مأساة يعيش فيها، وإن اختلفت هذه المآسى باختلاف الظروف التى تحيط بحياة كل منا.

- لا لا. لا تسرفوا هكذا فى التأويل والتخريج. أهى كذلك قضية وطنية؟

- نعم يا جهول قضية وطنية. إن جلال يتعرض لإنكار نسبه، لا لأن النسبة فى ذاته هو المقصود أبداً. ماذا يخسر الذين ينكرون عليه هذا النسب، لو أنه أطلق على نفسه اسم أسرتهم؟ بل إنه يفعل ذلك الآن، ففيم حاجته إلى هذا النسب. إن يكن الأمر أمر لقب يطلقه، فهو يحمل هذا اللقب. إنه مكتوب فى شهادة الميلاد، وهو قادر على أن يقول للناس إنه فلان ابن فلان. ومن أسرة فلان، دون أن يتدخل أحد لمنعه من هذا الكلام. إنما هو محتاج إلى هذا النسب ليعيش. إنه وسيلة إلى حمايته من التشرد والجوع. إنه ملجأ إليه ليحتمى به. والآخرون لا يرفضون هذا النسب عليه، ولا يسلبونه منه، لأن النسب فى ذاته شىء ضخم وكبير. أبداً. إنهم ينكرون ما يترتب على النسب من التزامات. "جلال" يريد النسب إذن ليتمكن من أن يعيش مستوراً. وهم يأبون عليه هذا النسب لأنه يسلبهم بعض ما غنموه بالسرقة والإكراه. هذه هى المأساة. هل هى مأساة خاصة؟ هل هى مأساة "جلال" وحده؟

- نعم. طمع شخصى. أو ضعف من نفوس الذين يحيطون به، لا يرتفع إلى المستوى العام، ولا يمتد لأكثر من الدائرة التى يعيش فيها.

- اسم الله عليك !! ولماذا يتبادل كل من الطرفين المتنازعين الحرص على هذا النسب؟ أو على المغنم الذى يغنمه كل منهما من طبيعة هذا النزاع؟

أليست المصلحة هى التى تحرك كلا منهما؟ النظام خطأ يا أستاذ. الحياة شاذة يا ابنى إن كنت لا تفهم. هذا الحرص من كل جانب، وهذا الطمع من كل طرف، وهذه اللهفة على تحقيق المنفعة، كل ذلك أساسه أن المجتمع الذى تحيا فيه، مجتمع يعيش على الوهم ولو أن هذا المجتمع يتمتع بضمانات عادلة تضمن حياة الناس، ما نشأ مثل هذا النزاع. أتعرف يا أستاذ أن كل احتلال ينمى فى البلد الذى يحتله عناصر القلق والطمع هذه. إنهم يفرقون الأمة، ويغرون بعضها بالبعض الآخر. إنهم يفرقون الأخ عن أخيه. إنهم يشجعون القوى على أن يزداد قوة، ويغرون صاحب الجاه على أن يستبد بمن ليس

له جاه. وكلهم فى هذا سواء. كل محتل يتخذ نفس الوسيلة لتحقيق أغراضه. فى المستوى العام يتلاعبون بالأحزاب، ليستمر الخلاف بينها قائماً، وليشتد نزاعها على السلطان. وفى المستوى الخاص يخلقون بما يتبعون من نظم، وما يصدرون من تشريعات، هذا النزاع بين الأسر والعائلات، بل بين أفراد العائلة الواحدة. لهذا تفرض طبيعة الحياة التى نحياها مأساة هذا الفتى المسكين.

- وبهذا تصبح مأساتنا جميعاً؟ والله خطيب بارع يا أستاذ ! جعلتها قضية وطنية.

- نعم هى ذاك. إنها قضية وطنية. أنت نفسك. ألا تعيش فى مأساة، أم أنك فى السجن نسيت؟ ألا تحبها وهى كذلك تحبك. لماذا إذن لا تستطيع أن تتزوجها؟ أليست ابنة عمك؟ لكن عمك يتخذ موقف أسرة "جلال" منك، فيرفض زواج حبيبين تعاهدا على الوفاء، لأنك أفقر منه. لأنك لا تستطيع أن توفر لها الحياة التى تحياها فى بيت أبيها. ولأنك...

- أرجوك لا تذكرنى بهذا الجرح الدامى.

- أترى أنها أصبحت مأساة عندما مست حياتك أنت. على أنها أيضاً ليست مأساة خاصة.

- قضية وطنية.

- نعم يا ساذج قضية عامة أساسها خطأ النظام الذى نعيش فيه.

- اترك حبى وقلبى، واقصر حديثك على "جلال".

- إن "جلال" يحارب عائلته، لكن تأملوا الأسلوب الذى اتخذه فى هذه الحرب. إنه ينصف كل الذين يتعرضون لاستبداد هذه العائلة. إنه بهذا يحس إحساساً خفياً بأنه ليس وحده الذى يتعرض لهذا الاستبداد. إن له شركاء، لكنهم ضعفاء، ومغلوبون على أمرهم. وعندما تهيأت له فرصة الحرب التى شنها، لم ينس أن ينتصف لنفسه عن طريق الانتصاف للآخرين المظلومين والمضطهدين. أليس هذا الإحساس الخفى دليلا

كافياً على طبيعة النزاع فى هذه المرحلة. إنه يحارب النظام. يحارب الذين أقام منهم هذا النظام كرابيج تضرب هذا الشعب لتذله، ويتخفون هم فى خسة ودناءة وراء هذه الكرابيج.

الكرابيج سعيدة بما أوتيت من نفوذ. هم سعداء لأنهم أقاموا هذه الكرابيج تتولى عنهم ضرب المساكين ليزدادوا مسكنة وذلا. النتيجة أنهم يطيلون مدة بقائهم سادة على هذه الأراضى، عن طريق تنمية العوامل الدنيئة فى النفوس الدنيئة، وتقوية الضعف فى قلوب الضعفاء. ارأيتم؟

- وهكذا نسير فى حلقة مفرغة لا تنتهى إلى غاية.

- نعم لأننا نحارب الفروع ونترك جذع الشجرة يزداد توغلا فى الأرض الطيبة .

- علينا إذن أن نجتث هذا الجذع من أعماق الطين.

- هذا هو الأسلوب السليم فى النضال. ويوم يتم اقتلاع الجذور السامة من هذه الأرض، سنجد حلا لكل مشكلة، وستختفى المآسى من حياة الأفراد.

- إنهم المحتلون. لابد من تنظيم حرب لا تخمد ولا تلين ضد المحتلين.

- وعملاء هؤلاء المحتلين لا يقلون خطراً عنهم.

- طبيعى أننا جيمعا نحارب المحتلين، فلابد لنا من حربهم وحرب عملائهم جميعاً.

- يا إخواننا. لكن هذا طريق شاق.

- لكنه الطريق الوحيد.

- والتضحيات الضخمة التى يجب علينا أن ندفعها.

- إننا ندفعها الآن. بالتقسيط.

- لكن دفعها مرة واحدة مسألة شاقة.

- كالعملية الجراحية، عندما تكون هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من الأوجاع.

- إنكم تؤثرون على.

- بل نصحح تفكيرك.

- والرأى.

- لا رأى إلا هذا. كفاح لا يلين ضد الجذع المسموم.

- آه لو أن أمثال "جلال" هذا من الأشقياء، اتجهوا هذا الاتجاه الوطنى !

- ولم لا؟ إنهم قابلون لهذا الاتجاه. إنهم فقط لا يعرفون.

- لأنهم جهلة وأميون.

- لا لا. إننا نحن الجهلة والأميون. أليس هذا واحداً منهم. لقد اتجه نحو الانتصاف لكل المضطهدين من تلقاء نفسه. أو تظن أنه فعل هذا لأنه أكبر منهم قدراً واعلى طبقة؟ أبداً. لكن إحساسه الصادق الأمين جره إلى هذا. كلهم مثله. والخطأ خطؤنا نحن، فإن همنا وشاغلنا هو الكلام لا العمل. إننا نخطب طويلا، لنظهر قدرتنا على التحكم فى السامعين. إننا نصدر الصحف والنشرات. إننا نحاول كسب كراسى البرلمان، وكل هذا جميل. إنه وسيلة لتكوين رأى عام قوى ومستنير، لكنا يوم نصل إلى الحكم نبدأ فى النسيان، ولا يصبح لنا هم إلا التغلب على المعارضين، وتثبيت دعامات ما نسميه الحكم الوطنى. أليس هذا تهريجاً وخداعاً؟! ماذا فعلناه لتكوين مجموعة من الشباب المقاتل من أجل حرية بلاده ؟! وهل نسمح لهذا الشباب بالعمل تحت أى ظرف؟ أو أن وصولنا إلى الحكم يصبح غاية المنى فنصادر كفاح المكافحين، ونعتبر المضى فى الكفاح، عملا ضد الحكومة الوطنية التى وصلنا إليها؟ فإذا خرج الحكم عن أيدينا أصبح الحكم حكم العملاء، وأصبح العمل الوطنى ضد الاحتلال عملا وطنياً بالمعنى الصحيح؟

- إذن ماذا يجب علينا أن نعمل؟

- الكفاح وتكوين جماعات الوطنيين من المكافحين المقاتلين، وتركهم يعملون تحت أى ظرف حتى لو كنا فى الحكم، حتى يتحقق الهدف الأصيل من وراء كفاحنا.

ـ وتظن هذا ممكناً؟

ـ طبيعى ممكن.

ـ والأحزاب ورجال الأحزاب وزعماء الأحزاب.

ـ هذه بلد لا تملكها الأحزاب، ولا رجال الأحزاب، ولا زعماء الأحزاب. إنها ملك كل من يعيش فيها، حتى البهائم والزواحف. فلماذا نتركها للأحزاب ورجال الأحزاب وزعماء الأحزاب. إن هؤلاء مثل عائلة "جلال". إنهم يريدون المناصب والمال والنفوذ. إنهم يسعون وراء مضاعفة ما فى أيديهم من قوة. وكل الفرق بين عائلة "جلال" وأحزابكم هذه، هو أن عائلة "جلال". تسعى للنفوذ والسلطة والمال فى دائرة محدودة، فى حين نجد دائرة العمل الحزبى هى الأمة كلها.

ـ لكن هذا اتهام عام.

ـ أفهم ما تريد، أنا لم أتهم كل القادة. إن بينهم ثواراً لا يلقون عنا حماسة، لكن حتى هؤلاء غلبوا على أمرهم، فألقوا سلاح المعركة، وقبع بعضهم فى بيوتهم حيارى وآثر البعض الآخر أن يعيش فسار فى الركب، بلا إيمان.

ـ والله إن الأمر يحتاج إلى تنظيم.

ـ اسمعوا. لماذا لا نستغل فرصة وجودنا هنا، لنكون أول تنظيم حقيقى لكفاح مسلح ضد الاحتلال وعملائه وأذنابه.

ـ بشرط أن يكون تنظيماً غير قابل لأن ينخدع.

ـ ولا أن يفتر.

ـ ولا أن يضلل.

ـ فإن أغرونا إغراءات يسيل لها اللعاب؟

ـ نرفض الإغراء.

ـ ونقف وقفة صلبة تؤكد لهم أن فى السويداء رجالا.

- إنى أول من يرحب.

- وأنا معك.

- وأنا كذلك.

- ليس فينا من يختلف معكم، فلماذا لا يضمنا كلنا؟

- عن البلد محتاج إلى كل المخلصين.

- والطريق طويل وشاق.

- إذن ليكن لنا تنظيماً الخاص.

- وهل نترك أحزابنا؟

- لا يهم هذا.

- بل لا بد من ترك الأحزاب، فإنها عندما تصل إلى الحكم تتغير الموازين الوطنية فى نظرها.

- ربما كان وجود بعضنا فى الأحزاب وسيلتنا إلى التخفى عن السلطات، فإنها لا تكره إلا مثل هذه التنظيمات الجادة.

- وربما كان وسيلة لكسب أنصار من داخل الأحزاب.

- إذن اتفقنا. هل فينا من يشذ علي هذا؟

- أبداً ولتكن هذه المدة التى نقضيها فى السجن هى مولد حركة جديدة.

- إنها لن تكون حركة جديدة، فإن الكفاح عريق فى هذه الأمة العريقة، لكنه بعث للحركات الوطنية الأصلية.

- ليكن.

- على بركة الله أيها الزملاء.

●●●

ليلتها لم ينم "جلال". لم يغمض له جفن وهو يستعيد ما التقطه من أفواه هذا الفريق من شباب الأحزاب. إن كل جملة سمعها تؤرق جفنيه، فلا يستطيع أن يطبقهما إلا على قطع من الحياة التى مرت به قاسية لا ترحم.

ولكم تحدث إلى نفسه بأحاديث لم يألفها من قبل؟

إنك ضحية يا "جلال" و "أبو سريع" كذلك ضحية معك. العمدة كذلك ضحية. كلهم ضحايا نظام فاسد عفن. كلهم مسيرون بقوى دخيلة يهمها إفساد الحياة فى هذه البلاد. ألم تسمعهم يقولون ذلك؟

لقد كنت مخطئاً يوم اعتبرتهم جميعاً خصومك، فى حين أنهم ضحايا. إن خصومك وخصوم بلدك قوم آخرون، يجب أن تحاربهم، بدلا من أن تبدد جهودك فى حرق زراعات "أبو سريع" أو حرق منزله، أو تهديد العمدة والأعيان بالموت، ما لم يدفعوا لك المال، لتوزعه على المحتاجين.

ما كان أصغرك !

لقد ضيعت حياتك وجهودك سدى.

لكن لا. ألا تذكر "أم الفرح" و "عبد النبى الحاج خميس" و "سعد"؟ و"الشحات" تنساه؟ و"الشيخ مختار" ألم تقف إلى جواره؟ ثم هؤلاء المسكين البسطاء المحرومون، الذين دفعت لهم أموالا، فأعفيتهم من ذل الدين بالفايظ، وضياع محصولاتهم بلا ثمرة؟ أليس هذا عدلا فرضته على الناحية كلها بقوة السلاح؟ أولا يرضى هذا الله؟ أولا يخدم الوطن؟

نعم، ولكن هل أنت قادر على إصلاح البلاد كلها؟

وماذا تكون النتيجة لو ظللت متخفياً كاللصوص بين الحقول تنتزع الحقوق لأصحاب الحقوق فى دائرة محدودة، وحقوق بلدك كلها ضائعة؟

ثم ما الضمان أن تستمر هذه العدالة فى مجرها، لا تلتوى ولا تريد؟

أتظن أن "أبو سريع" سيعفى "أم الفرح" و"عبد النبى الحاج خميس" و "سعد"؟ و"الشحات" و"الشيخ مختار" من العقاب؟ ومن يدرى، ربما فرض عليهم أن يردوا الأموال

التى أخذتها منهم أنت

مساكين يا أهل بلدى الصغير

إن الذى قاله هؤلاء الشبان حق. عندهم كل الحق. لابد من اقتلاع الجذور المسمومة من الطين. نعم لابد من فرض إرادة هذا الشعب على المحتلين.

لماذا لا تنضم إليهم يا ولد؟

لكن من تكون أنت حتى يقبلوك؟

هم محامون وأطباء ومهندسون ومدرسون...وأنت من تكون؟

لكن ألم تسمعهم يتمنون لو أن معهم مائة مثلك؟

بل لقد نزلوا بالتمنى إلى عشرة.

آه...أنت يا غبى نسيت أنهم يريدون هؤلاء أن يتفرقوا حول معسكرات الاحتلال ليحاربوه ويقتلوا كل يوم عدداً يؤرق جفون المحتلين ويجعلهم يفضلون الفرار من هذه البلاد، على البقاء بين قوم لا يطيقونهم.

نعم ..وهل تخاف؟

لا..أنا لا أخاف؟ أنا لا أخاف. وإنما المسألة تحتاج إلى استعداد.

إنك هذه المرة لن تحارب "أبو سريع" بين الزراعات المنثورة هنا وهناك. لن تحارب العمدة. لن تجد خصومة بين "أبو سريع" و "عباس" تستغلها لتحقيق ما تراه من أغراض. لن يكون هناك عمك "أبو المكارم" تلجأ إلى صدره الحنون تحتمى به من هواجسك. ستكون وحدك، بل ستكون وجهاً لوجه مع قوات ضخمة عاتية. يا نهار أسود. تحارب الجيوش يا "جلال"؟ أنت كالنملة الصغيرة تحت أقدام الفيل.

آه ...ألا ترى أنك خائف؟ اعترف بإنك جبان؟

أنا لست جباناً، ولكن يجب ان أستعد وان أحتاط، وإلا ذهبت جهودى كلها هباء وفقدت حياتى من أول جولة ضد هؤلاء الجبابرة.

حياتك..وما قيمة هذه الحياة يا صاحب الحياة؟ أنت ضائع شريد. أتنسى أنهم طردوك يوم ذهبت إليهم تلتمس المأكل والمأوى والأمان؟ قالوا إنك نجس الكلاب المسعورة التى اعتادت أن تنهش لحوم الأحياء.

"جلال" يا ابنى. إنك تنسى كل ما سمعته من أفواه الشبان الوطنيين، وزملاء السجن.

ألم تسمعهم يتكلمون عن فساد النظام؟ وأن هذا الفساد هو الذى أدى بك وبهم إلى هذا النزاع؟

ثم إنك أنت نفسك وصلت إلى الرحمة بهم؟ ألم تقل عنهم إنهم مثلك ضحايا؟

لا تظلمهم يا "جلال" إن "أبو سريع" باع صهره "عباس" نظير قطعة من الطين آلت إليه من وراء ظهره، وفى غفلة من الميراث. وقابل "عباس" ذلك بخصومة وصلت إلى حد تحريضك على قتله. ألا تذكر كيف كان "عباس" سعيداً بك، عندما حرقت حقله ومنزله؟ لماذا يفعلون هذا؟ والله إن كل ما قاله هؤلاء الأفندية صحيح. إن كلا منهم يطمع فى الآخر، ولا يهمه إلا نفسه. فإن يكن هذا شأنهم فيما بينهم وبين أنفسهم، فماذا يكون موقفهم منك، وأنت لا تزال فتى، وأنت لا تزال خارج دائرتهم؟ يا "جلال" إن هذا فساد يجب أن يقتلع من جذوره. إنك لن تصلح البلد، بالتخفى فى الزراعات المتناثرة حول الساقية. أبدا. إن خير الحلول أن تنضم إلى هؤلاء الفتيان الشجعان.

وماذا ستسخر يا حضرة الأستاذ؟

أنت شريد. أنت جائع. أنت ضائع.

مدة السجن ستنتهى، وستعود تبحث عن مكان تأوى إليه فيعز المكان، وتبحث عن لقمة تشد بها رمقك، فتعز عليك اللقمة. أين ستذهب بعد أن تنتهى مدة سجنك؟ ستعود إلى عمك "أبو المكارم" تختفى فى الحقول وتبيت فى الخص الذى ولدت فيه. ثم ماذا؟ لابد لك من شىء تعمله. لابد لك من كسب تكسبه. لابد لك من أن تأكل وتلبس وتنام. كيف سيتوفر لك هذا؟ تقتسم اللقمة مع عمك "أبو المكارم". صحيح أنه على استعداد لأن

يجوع هو لتأكل أنت. لكنك ستعيش حياتك خائفاً من الأشباح. من "أبو سريع". من ضابط النقطة. من أى عسكرى من عساكر البوليس. من أى غفير , هل سيحميك "عباس"؟ وإلى متى؟ ومن أجل ماذا؟

إن الانضمام إلى هؤلاء الناس، حماية لك. إنه خير حل لمشكلتك، الأعمار بيد الله يا "جلال". من يدرى، ربما استطعت أن تحقق انتصارات باهرة تجعلك فى يوم من الأيام بطلا يتحدث الوطنيون باسمه فى احترام.

هل يحتاج الأمر إلى تفكير؟

فيم التفكير يا غبى. على بركة الله.

وعندما انتهى "جلال" إلى هذه النتيجة، أحس أنه يتعجل طلوع النهار. إنه يريد أن يلقى الأفندية المحبوسين، ليبشرهم بهذا القرار. إنهم سيفرحون بانضمامه إليهم بلا شك. إنهم يعرفون أنه لا يخطئ تصويب الرصاص، وهم محتاجون إلى شبان مدربين من أمثاله .

ووصل الأذان بصلاة الفجر إلى مسامعه فتمتم بالدعوات الهامسة إلى الله أن يجعل فى هذه الحياة الجديدة ما يعوضه عن الحرمان الطويل الذى كان معه منذ مولده على ميعاد.

وقال فى نفسه:

ـ تغمض عينيك الآن بعد أن قررت مصيرك، حتى يوقظك الحراس.

لكنه رآها فى منامه: "سالمة" جاءته لتزوره فى الأحلام كما اعتادت أن تزوره كلما نام وإنه ليبتسم لها هذه المرة، وهو يحدثها حديث الواثق مما يقول:

ـ أتعرفين يا "سالمة" أننى سأثأر لك ولكل مظلوم؟ لقد ذهبت شهيدة غرام عزيز المنال. هو النظام الفاسد يا "سالمة" الذى قتلك كما قتل من قبلك كل مظلوم. لكن اطمئنى وقرى عيناً، سآخذ بثأرك من الذين ظلموك. إنه الاحتلال، وعملاء الاحتلال،

سأحارب الاحتلال ضريبة عادلة أدفعها من أجل دمك الذى سال. فإن مت يا "سالمة" فسأسرع إليك حيث أنت من جنات الله. سنعيش حياة بلا فراق. إن يكن الموت هو الذى فرق بيننا فسنجتاز هذا الجسر المريض إلى خلوده وإن عشت يا "سالمة" فلن ألقى السلاح حتى تتطهر هذه الأرض من المفسدين، ويومها لن يكون فيها بعد ذلك ظالم ولا مظلوم. وسترضين أنت فى جناتك عندما يسعد كل التعساء، ويستغنى كل المحتاجين، ويرتاح كل الأشقياء. الهوى العف سيجد فرصته ليستقر فى اللقاء الحلال. والقبلات المخطوفة سترتاح عندما يجلو العذول. سأحقق مجتمعاً بلا خصم ولا عذول . يا "سالمة" لن أكون وحدى. سيعمل معى آخرون، وستتوارث التضحية والفداء، حتى يتم تحقيق المجتمع الذى نطمع فيه.

وأحس "جلال" أن "سالمة" تبتسم له وتبارك موقفه ذاك، فنام نوماً لم يعرف له مثيلا له منذ دخل هذا السجن المظلم.

وعندما أصبح الصباح، لم يكن له شاغل إلا البحث عن الأفندية أصدقائه الجدد ليخطرهم بقراره الخطير.

- إننى قررت أن أعمل معكم.

- فيم يا "جلال"؟

- التنظيم الوطنى الذى قررتم أن تكونوه.

- لتحارب معنا الاحتلال وعملاء الاحتلال؟

- نعم أحاربهم حتى أنتصر عليهم أو أموت.

- وهل فكرت فى التضحيات التى قد تتعرض لها؟

- نعم وقررت أن أتحمل أى شىء.

- وإذا تراجعت أو ندمت؟

- أنا عيب يا رجال. أنا "جلال".

ـ الحقيقة أنت كسب كبير لنا بشرط ...

ـ أى شرط. أنا على استعداد لكل الشروط.

ـ أن تكون أبكم لا تتكلم بحرف مما تسمع.

ـ لقد ربانى رجل أخرس، ولن يكون هذا كثيراً علىّ.

ـ ستحارب جيوشاً مدربة يا "جلال".

ـ سأقتنص لكم منهم أكبر عدد تتصورون.

ـ فإن قبضوا عليك وعذبوك. تروى لهم كل شىء عنا؟

ـ لا أفتح فمى بحرف.

ـ لكن لهم وسائل قاسية فى التعذيب، وجر المتهم إلى الاعتراف.

ـ أنا قادر على أن أتحمل كل شىء.

ـ فكر مرة أخرى.

ـ فكرت، ومن فضلكم لا تضيعوا الوقت صدى.

ـ إذن اتفقنا ...على بركة الله.

ـ اتفقنا ...على بركة الله.

●●●

وقضى "جلال" بضعة أسابيع فى هذا السجن، وهو يشعر أن السجن لم يعد سجناً بقدر ما أصبح متنفساً جميلاً لآماله وأحلام غده.

ولكم مط رقبته فى بلاهة، وهو يسمع الأفندية يتناقشون فى مسائل بدت لأول وهلة غريبة، فلما أخذ يستعيدها فيما بينه وبين نفسه، ويقيسها على ظروف حياته، وجد أنها متصلة به أشد الاتصال، قريبة منه أشد القرب.

ولكم فتح فمه فى سذاجة، وهو يتابع خططهم فى تنظيم للكفاح متحرر سليم، لا تفسده الأطماع، ولا تتلوى به الرغبة فى كسب سريع. وكان يعجب لما يسمعه، فما إن يكرره على نفسه، حتى يدرك أن كل ما قيل شىء طبيعى، وقد كان يمكن أن يدركه بنفسه، لو أنه فكر فى الأمر كما فكروا هم فيه.

وعندما سألوه مرة عن استعداده للعثور على مكان يتخفى فيه عندما يكون هذا التخفى ضرورة للعمل الذى سيقوم به قال على الفور :

ـ عند الساقية، بجوار عمى "أبو المكارم".

ـ لكن لماذا اخترت الساقية بالذات؟..

ـ لأنها عزيزة على ..شهدت مصرع أمى، فما توقفت، ولا تراخت، ولكنها ظلت تدور، وإن صدر عنها لحظة ذاك صوت غريب، كأنه النواح. أحبها، وأحب شجرة الصفصاف التى تركونى إلى جوارها، ليقتلونى بعد أن ينتهوا منها، ولكن أداره الله شاءت لى أن أعيش. وأحب شجرة الجميز،حيث اعتدت أن أتخفى أحياناً بين جذوعها، فلا يرانى عمى "أبو المكارم". هذه البقعة من الدنيا هى حياتى.

ـ وعمك "أبو المكارم" هذا؟

ـ رجل كنبع الصفا، يحمل أكبر قلب عرفه الإنسان. وهو يرى ويسمع ولا يتكلم..ربنا خلقه هكذا. ربنا أراد أن يجعل منه حافظة تعى كل شىء؛ لكنها لا تفرط فى شىء.

ـ وهل هناك معسكرات للاحتلال. هل ساقيتك هذه قريبة من حيث يمكن أن تحاربهم؟

ـ هى قريبة من خط السكة الحديد حيث يلتقون، ثم إنى أريد أن أتخذها محطة لى لأثب منها إلى معسكراتهم فى دمنهور وكفر الزيات وكفر الدوار، فلا أكون مقيماً حيث هم، وبهذا يتعذر العثور على.

ـ يظهر أنك تنوى لهم بالفعل.

- هناك شيء آخر هام. شيء يتصل بعمى "أبو المكارم"، هذا الرجل الأخرس الذى سأتخفى إلى جواره. لقد علمت عنه أن أباه حارب الإنجليز، وأن المكان الذى اعتاد أن يتصيدهم فيه هو جسر السكة الحديد. كانوا يعيشون فى بلد تقع على خط السكة الحديد قريبة من بلدنا. ولما وقعت بالبطل الشهم خيانة دنيئة، قتلوه وقتلوا كل أسرته، ونجا هو لأنه كان طفلا صغيراً. ففقد بهذا النطق وأصبح هكذا أخرس. ولا شك أنى سأسعد عمى "أبو المكارم" عندما يعلم أنى سأقتفى أثر أبيه. على كل حال إن عمى "أبو المكارم" سيسعد بوجودى عنده أياً تكن الظروف.

- أنت تعرف الآن كيف تتصل بنا، لتحصل على المعلومات والأخبار والتوجيهات والمدد أيضاً. ستلزمك مصاريف بطبيعة الحال. ستلزمك ذخيرة.

- يا سيدى لا تخافوا على. سأدبر أمرى بنفسى.

- لا يا "جلال". وإلا عدت إلى السيرة الأولى، تهدد الناس، لتحصل على المال.

- لا لا. لقد فهمت كل شيء الآن، ولم يعد هؤلاء الناس خصومى. إنهم مثلى ضحايا.

●●●

ومرت الأسابيع التى قضاها الأفندية فى السجن تحت التحقيق كالبرق الخاطف. ثم تقرر أن يفرج عنهم.

وشعر "جلال" حينما أخذوا يستعدون لمغادرة السجن، أنه سيكون وحيداً بدونهم. لقد أصبحوا منه كالعادة، ولابد له من أن يغير هذه العادة الآن، حتى تمر المدة التى حكم عليه بها، ويلحق بركبهم فى الطريق الشاق الطويل.

ومرت اللحظات سريعة، وحمل كل متاعه، واستعد لمغادرة السجن.

وكانوا قد اتفقوا معه على أن يتم الفراق بلا سلام ولا وداع، فإن السلام أو الوداع قد يلقى حوله شبهات لا مبرر لها.

لكنه كان يتمنى لو استطاع أن يصافحهم، وأن يعانقهم، وأن يخفى وجهه فى صدورهم واحداً بعد واحد، مؤكداً إخلاصه للقضية التى اتفقوا على أن يحملوا أمانتها.

لكنهم مضوا ينفذون الاتفاق، فلم يصافحوه ولم يودعوه.

وتعمد بعضهم أن يتفادوا حتى مجرد النظر إليه.

أما هو فكان واقفاً في ممر ضيق، يطيل النظر إلى كل منهم، وهم يغادرون المكان.

فلما مروا جميعاً، سار خلفهم في خطوات وئيدة، يوجه إليهم نظراته الأخيرة.

ومن خلال باب بعيد أخذ يرقبهم، وهم يستكملون الإجراءات.

ثم تقدم إليهم بعض الضباط يصافحونهم ويسلمون عليهم مودعين.

وتعالت الضحكات ووصلت أذنيه أطراف أحاديث دارت بينهم وبين الضباط.

- من يدرى. قد نلتقى مرة أخرى.

- إن شاء الله لا تتعرضون لهذه المحنة مرة أخرى.

- الله أعلم. على كل حال ستوحشوننا.

- سنذكركم بكل خير.

- إياكم أن تدعو علينا بالعودة مرة أخرى.

- وتعالت الضحكات.

وأحس وهو واقف فى الخفاء، فى مكانه المظلم، لا يراه منهم أحد، فى حين يرى هو منهم خيالات، أن شفتيه تتحركان فى ابتسامة غامضة، كانت هى الشىء الوحيد الذى ربطه بهم فى لحظة الوداع.

□□□

١٠

إن "جلال" يذكر الآن، وهو جالس حول قبة سيدى الذكيرى التجارب العديدة التى مر بها منذ خرج من السجن، حتى انتهى به مصيره أخيراً، إلى هذه الساحة البديعة التى شهدت مراحل عمره جميعاً.

وعندما تتحرك الساقية فى دوراتها المنتظمة، يذكر يوم عاد إليها ذات مساء، وفى قلبه حنين للرجل الذى تدور حياته مع دوراتها "أبو المكارم" الأخرس.

لقد عاد إلى الساقية بنفسية جديدة وروح جديدة، تطهرت من كل رغبات الثأر وكل أسباب الحقد.

لم يعد يهمه أنه مشكوك النسب. ولم يعد يهمه الأوصاف التى كانت تخنقه وتغيظه، أنه ساقط، أو أنه كأمه نجس. إن الذين يقولون عنه هذا قوم معذورون، لأنهم ضحايا مجتمع خلا من العدل ومن الحرية.

إنه لم يأت هذه المرة ليثأر من أحد، لا ولا ليؤدب أحداً. إنه عاد ليتخذ من هذه الطبيعة الحنون مكاناً يتخفى فيه، وتختفى معه نواياه وأعماله، ولتكون هذه الساحة العزيزة عليه محطة يثب منها إلى كل مكان يقيم فيه خصومه وخصوم بلاده، فى دمنهور أو كفر الدوار أو كفر الزيات أو طنطا، وآه لو استطاع أن يكسب حتى "أبو سريع" فى صفه. إنه يحس أنه محتاج إلى كل قلب ليخفق مع قلبه. إن هذه يقويه.

وذكر "عباس" والأشقياء الذين علموه كيف يثأر وكيف يحقد، وكيف يترجم حقده ورغبته فى الثأر إلى طلقات مصوبة فى دقة وبراعة، تهز كيان الذين يوجه إليهم حقده ورغبته فى الثأر منهم.

ألا يزال "عباس" والرجال يفكرون كما كانوا يفكرون منذ أكثر من عام؟

ألا يزالون لا يطمعون فى شىء إلا سرقة البهائم ووضع السم للماشية، ونهب الحقول وسفك الدم نظير ما يتقاضون من أجر؟

ألا يمكن أن يصبحوا كما أصبح هو، يطمعون فى أشياء أخرى جميلة ورائعة؟

ألا يوجهون فوهات بنادقهم إلى هناك، حيث يقبع الذل والاستبداد، متخفياً وراء قناع ذكى، كاللثام الذى كان يضعه على وجهه، يخفى به ملامحه، ويضلل "أبو سريع" ورجاله عن شخصيته؟

أتراه يحاول؟ وهل ينجح؟ أم أنه سيكتشف نفسه بحسن نواياه؟

لقد حذره أصدقاؤه الجدد، من أن يتورط فى علاقات، قد تجر عليه المتاعب. قالوا له إن الذين يعملون فى هذه الأعمال محتاجون إلى وعى، وإلى بصيرة، وإلى استعداد، وهو يعرف "عباس" والأشقياء. إنهم مساكين لا يعرفون من دنياهم إلا أنها فرصة للحصول على أكبر كسب بأقل جهد، وقد غلظت قلوبهم، وخشنت طباعهم، وأصبحت حياة الناس عندهم لا تساوى أكثر من الأجر الذى ينالونه للتخلص منهم ! هل يستطيع هؤلاء أن يصبحوا حماة للذين يعتدون عليهم؟ هل يقاتلون خصومهم ليمدوا فى أعمارهم؟ هل يتخلصون من أعدائهم ليدعموا وجودهم ويحققوا لهم العدل والحرية؟ وما العدل، وما الحرية؟ العدل هو أن يستمتعوا بأكله شهية ولو مات الآخرون من الجوع، وأن يتوافر لهم المال الكافى لسد ثغرات نفوسهم، ولو جفت الحلوق جميعاً، وأن يعتدوا على حرمات الناس، دون أن يحتج عليهم الناس ! والحرية عندهم بندقية أو مسدس أو خنجر مسموم، يزيدهم شعوراً بالقوة والطمأنينة، ولو عاش كل الناس فى فزع، يتلفتون وراءهم يخافون حتى من ظلالهم ! هؤلاء يمكن أن يتغيروا؟ لكن الله لن يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وطالما أن هؤلاء جامدون على هذا الوضع، فإن تغيير حياتهم لن يكون سهلا ولا هيناً. هل يحاول ليكسبهم؟ إنه محتاج إليهم، لكن لا "يا جلال" أنت تعرفهم، وقد يشون بك، من أجل بضعة جنيهات يقبضونها، لتتبخر فى حلقات الحشيش.

إذن تبدأ وحدك...

ما أحلى صوت الساقية، وهو يؤنسك فى خلوتك، كأنما يروى لك أيام عمرك كلها ويحكى لك عن أمك، وعن جدك، وعن جدتك، وعن خالتك، بل عن الطاغية الذى أنجبك وأقاربه وأصهاره الذين استبدوا بهذه الناحية استبداداً كأنهم محتلون.

إن صوت الساقية يرق فى بعض دوراته، كأنما يحدثك عن "سالمة"، الحب الذى ومض فى حياتك ذات يوم، ليدخل السعادة إلى قلبك يا محروم، ويخفف عنك ما كنت تحمل من أثقال.

يا "سالمة"، لقد عدت إلى الأرض التى طالما كانت مرتعاً لأحلامنا ولطيش شبابنا. هاأنذا أتنسم الهواء الذى كنا نتنسمه معاً، وقد استغرقتنا لحظات حلوة، رقيقة رائعة. ولكم كنت أتمنى أن أعود لأراك، ولأجدك تنتظريننى فى حب وفى شغف. لكنك ذهبت يا ضحية مجتمع لا يرحم. ذهبت شهيدة تحملين اسمى، وبصمات أملى، وفى أحشائك مشروع غلام. آه يا "سالمة" لو أنك معى الآن، لأحسست أن الدنيا كلها معى وأن ساعدى أشد على الباغى من بغيه، وأقوى على الطاغية من طغيانه. أنت يا "سالمة" الوحيدة التى كان يمكن أن أطمئن إليها، فأودع سرى بين طيات قلبها، لأنك كنت تحبيننى، وتؤثرين أن تموتى عنى، إن كان فى الموت فداء. لكنك ذهبت يا "سالمة" ولست أدرى أين وضعوا جثمانك الطاهر. من يدرى، لعلهم أبوا عليك حتى شبراً من الأرض يودعون فيه جثمانك الطاهر. إن "سيدى الذكيرى" يعرف سرنا. يعرف أننا أزواج شرفاء، نمارس حقنا فى الحياة بصدق وأمانة. لكن "أبو سريع" لا يعرف. أن كل الذى يعرفه "أبو سريع" أنك عشيقة "شبل" الذى هدده ذات يوم، وأنهم ضبطوك معه متلبسة بعشقه. ضبطوك على كل حال. فهل يا ترى سمح "أبو سريع" بدفنك حول سيدى الذكيرى؟ فإن رفض "أبو سريع". لأنك قد تنجسين طهارة الموتى، فأين يكون مقرك؟ هل تكون أرض القرية قد ضاقت بك حية، وضاقت كذلك ميتة؟!

وعاد يكره "أبو سريع" كراهية شديدة.

وعاد يقول فى نفسه، لنفسه: أنت ساذج يا ولد. بل إنك مغفل. أتنسى "أبو سريع" فى لحظة صفاء عابرة، وتتمنى لو كسبته فى صفك ! وهل يمكن الاطمئنان إلى رجل قلبه من كل عناصر الإنسان؟ هل هو إنسان؟ أنت ساذج. أنت غبى. وأنت كذلك مغفل.

وبينما هو ماض فى هذا التفكير، إذا بصوت "أبو سريع" يصل إلى أذنيه مجلجلا كالرعد. كذلك يصل أذنيه صوت كرباجه السودانى فى حركته الشيطانية عندما يهدد به أو يضرب.

إنه هو ! لابد أنه عند الساقية يمارس اضطهاده لواحد من المساكين، قد يكون كل ذنبه أنه تجاوز وقته فى مياه الساقية، ليكمل رى أرضه !أو ربما يكون سبب أخر من يدرى؟

وقال فى نفسه:

أترى؟ هذا هو "أبو سريع" الذى تمنيت فى لحظة غفلة أن تكسبه، هذا الجلف الغليظ الفظ. لا. ليس هذا الشيطان من صنفك. إنه لن يتغير إلا إلى أسوأ.

مسكين يا عمى "أبو المكارم". ترى كم يمر بك كل يوم من هذه المتناقضات؟ ترى كم رأيت من صنوف المعاملات؟ وترى كم سمعت من أحاديث؟ النجوى الرقيقة مست شغاف قلبك، فما تحدثت بها لأحد.

والتهديد المر خرق طبلة أذنك، فما أعدته على مسامع أحد. وصوت الساقية يملأ حياتك أبداً بالحركة والأمل. ترقب الرى وترقب الجدب معاً وترى كيف تتراوح الحياة بين نبت يخضر فى رقة، وأعواد تجف تذروها الرياح. وأنت أنت يا عمى، لا تتغير ولا تتبدل. تدور حول الساقية لا يصرفك عن دوراتك هذه شىء.

وأحس أنه مشتاق إلى هذا النبع الصافى، يرتشف منه القوة. إن صدر الرجل الأخرس هو كل ما بقى له فى هذه الدنيا من حنان.

لكن كيف يراه، وهذا صوت "أبو سريع" لا يزال يحطم سكون الليل الهادئ الوديع؟

ومضى الفتى فى اتجاه السكة الحديد، مخترقاً ما بينه وبينها من الحقول.

ولم يكن يحمل إلا بندقية، وأمل أصدقائه الجدد فيه.

وعندما وصل إلى المحطة، وقف يرقب أول قطار قادم.

وأقبل قطار الليل. إنه يعلم من تجاربه السابقة أن الإنجليز يستعملون هذا القطار بالذات فى تنقلاتهم، أكثر مما يستعملون القطارات الأخرى. إن لهم فيه عربة على الأقل يستقلون بها، ويملأونها بالضباط والجنود والمعدات.

لكنهم دائماً مسلحون، ولهم دائماً حراس مستعدون.

واختفى بين أشجار البوص المقابلة للرصيف.

ووصل القطار، فوجه فوهة بندقيته إلى نافذة من نوافذه، كان يطل منها ضابط من ضباطهم لم يستطع أن يعرف له رتبة ولا قدراً. إن كل الذى يهمه أن يمارس مهمته على الفور.

وعندما أخذ القطار يتحرك، وفى اللحظة التى اطمأن فيها إلى أن حركته لم تعد تمكن القوة من الوثوب إليه، أطلق بندقيته، فأصابت الرجل، ورآه حيث كان مختفياً ينحنى على شباك القطار يتأوه من إصابته. واختلطت أصوات عجلات القطار، بصوت الطلق، فلم يتنبه إلى الضابط المصاب أحد.

واختفى كالسر، ليعود من حيث أتى، وهو يقول لنفسه: هذه واحدة.

وأدرك أنهم لابد سيتبينون الأمر بعد قليل، ولكن سيكون هذا بعد فوات الأوان وسيعجزون عن تحديد المكان الذى أطلق منه الرصاص. وعلى كل حال، فإنه سيرى ماذا سيكون.

وأخذ يغنى لنفسه فى سكون الليل، وقد امتلأ ثقة بنفسه، وقدرته على المغامرة الوطنية التى تحقق أمل أصدقائه فيه. واتخذ "جلال" هذه المرة طريق الرياح فى عودته، وعندما أصبح عند أشجار التين الشوكى تذكر قصة السلاح والذخيرة التى أخفاها هنا

منذ أكثر من عام، ورسالته إلى الضابط الشاب، وصمت هذا الضابط أثناء التحقيق وكيف لم يتحدث عن تلك الرسالة لأحد.

ومضى فى الطريق، يتذكر حبه وهواه، فى كل حقل يمر به، وبين الأعواد الخضراء التى تطل عليه وهو يسير، كأنما تشاركه الزفرات على "سالمة"، لقد كانت له هنا، فى كل حقل وكل زراعة، ذكرى من أعز الذكريات التى مرت به.

وعندما وصل إلى الساقية، ووجد "أبو المكارم" وحده، قابعاً فى جذع الصفصافة، قفز إليه يعانقه فى حرارة وشوق. وبكى "أبو المكارم" وهو يقبله، وأخذ يصدر أصواتاً كأنها مواء القطط وهو يتحسسه. هذا وجهه. وهاتان عيناه. وهذا شعره. وهاتان كتفاه. وهاتان ذراعاه.

وبدأ يتفاهمان.

الأخرس ينبئه بما كان. بالأغانى التى رددتها القرية عنه بعد أن قبض عليه. بالمآسى التى تعرض لها كل من امتدت يده إليه بمعروف . بالدموع التى سكبتها الأسر الفقيرة المحتاجة. "أم الشحات" وخروجها بابنها والبهائم والمواشى تحت جنح ليل بهيم. "الشيخ مختار" وتدخل العمدة والأعيان لحمايته من بطش سبع الليل. ما تردد عن "سالمة"، وكيف تعقب "أبو سريع" ذويها بالأذى حتى هاجروا، بينما ترددت فى أغانى القرية كالأساطير.

و "جلال" يروى أيام السجن، وكيف التقى بعدد من الأفندية، وكيف اتفقوا على كفاح طويل ضد الاحتلال وعملاء الاحتلال، وكيف اختار أن يتخذ من هذا المكان قاعدة لوثباته. ولم ينس أن يحكى أول مغامرة ارتكبها هذه الليلة ضد جنود الاحتلال. لقد قتل منهم ضابطاً كان يطل من نافذة، فخطفه إلى نهايته.

وضحك "أبو المكارم" من قلبه. كأنما عادت إليه فى لحظة ذكريات أبيه، وكيف يثأر "جلال" للرجل الطيب الذى رآه بعينه يسقط صريعاً تحت الطلقات المحمومة. ثم لا يكتفون بضحية واحدة، لكنهم كانوا قد قرروا إبادة كل العائلة لأن واحداً منها تجرأ يوماً على قتالهم.

كان "أبو المكارم" يضحك من أعماقه، عندما أخذ "جلال" يخرج له من جذع الصفصافة ألواناً من الملابس مختلفة الأشكال والألوان. هذه بدلة سمكرى زرقاء فى لون سماء الربيع. وهذه ملابس بدوى من صعاليك البادية، لا يدرك من دنياه إلا نخلة وجملا وبضعة أغنام. وهذه ملابس معاون محطة صفراء باهتة. هذا إلى جوار الشوارب ذات الأصناف والحلى والنظارات.

وأخذ "أبو المكارم" من بين الضحكات يرسل الصيحات. إنه يتعجل أن يعرف سر كل هذه الأشياء، ومن أين أتى بها، ومتى وضعها فى خزانته هذه التى وهبته إياها الطبيعة الرحيمة الحنون.

وقال "جلال":

إنها معدات المعركة التى أخوضها. ماذا إذن لو أرتيك السلاح. البنادق والمسدسات والخناجر والذخيرة؟ لا شك أنه سيغمى عليك يا عمى "أبو المكارم". لهذا دفنتها تحت الجميزة، لآخذ منها بقدر ما أحتاج. وعندما جئت وجدتك مشغولا عنى بساقيتك هذه. ثم جاء المجرم الكبير "أبو سريع" واعتدى مثلما اعتاد أن يفعل على اثنين من الرجال. ولم أشأ، بل لم اقدر كذلك على أن أظهر لهذا الرجل الجبان الغادر، فوضعت الملابس فى خزانتك هذه، ودفنت السلاح والذخيرة تحت الأرض هناك وذهبت لأداء الواجب من الليلة الأولى. أفهمت الآن يا عمى؟ لقد كدت أن أنخدع بالرجل الجبان الغادر، وكنت على وشك أن أسامحه، بل هممت بأن أتقرب إليه أطلب معونته، لولا ما سمعته بأذنى هنا فى أول هذه الليلة.

وفهم "جلال" عن "أبو المكارم" أن هذا الرجل قد عاد إلى استبداده بالقرية وبالناس، وأنه لا يمكن أن ينسى ما لحقه منه. آه لو أمسكه بيديه. إنه لن يتردد فى قتله وسفك دمه.

وتأكد "جلال" أنه من المستحيل أن يطمع فى أن يعتدل العود الأعوج إنه كذيل القط، لا يعرف غير الالتواء!

وأخذ يحدث نفسه، بأن "أبو سريع" هذا، هو والاحتلال واحد. إنه امتداد للاحتلال فى هذه القرية. إنه المقصود بعملاء الاحتلال. إنه يؤكد أغراض الاحتلال بما يفرضه من حياة الظلم والذل والظلام. إنه ينشر أهداف الاحتلال فى نفوس الناس، أكثر مما يطمع فيه الاحتلال.

وخاف "جلال" أن تكون هواجسه هذه صادرة عن كراهيته الشخصية للرجل، لأنه هو الذى قتل أمه، فقد سمع زملاءه الجدد يحذرون من التفكير فى الموضوعات الوطنية على أساس من الهوى الخاص، لكنه عاد يقول لنفسه:

لكنك تنسى أنهم كانوا فى مناقشاتهم يرجعون كل شىء إلى ظروف المجتمع حتى حرمان حبيبين من أن يتزوج كل منهما بالآخر، أرجعوه إلى هذه الظروف. أفيكون قتل أمه، أقل من هذا الحرمان؟ لابد أنه مسألة عامة، تحكمت فيه ظروف المجتمع كذلك. أمى قتلها مجتمع ظالم، وسلاح الظلم كان هذا الأفاق الذى عينته الحكومة ليصون الأمن ويحافظ على النظام. أفبعد ذلك تخاف أن تكون عواطفك الخاصة قد أقحمت تفكيرك العام وممارستك للعمل الوطنى؟ لا يا "جلال" هذا الرجل فساد يجب أن يزول. هذا الرجل شر يجب أن يجتث. هذا الرجل سلاح من أسلحة الاحتلال، يجب أن يفل.

وارتاحت نفسه على هذا، فمضى ليقضى ساعات فى الخص الحبيب، الذى ولد فيه، يتمتع بما فيه من دفء، ويستعيد فيه ذكرياته الغالية.

●●●

وفى غد عندما كانت الشمس تميل للمغيب، وهو يطيل النظر إليها فى شرود كان فى طريقه إلى محطة السكة الحديد، متخفياً فى زى صعلوك من أولاد البلد.

وركب قطار المغرب على دمنهور، وبعد قرابة ساعة كان هناك، لكنه لم يعبأ بالمدينة نفسها، فقد كان هدفه أن يصل إلى أطرافها، ليتخفى يرقب الطريق إلى المعسكر.

وقبع فى المكان الذى اختاره، يتسمع كل حركة على الطريق.

ومرت من أمامه سيارة لورى كبيرة، محشوة بالجنود، فقال " لا، اترك هذه إنها كبيرة عليك.

وسمع صوت سيارة صغيرة قادمة، ولما تأكد أنها من سياراتهم، أطلق الرصاص فتوقفت السيارة عن المسير.

وانتهز فرصة اختلاط الأصوات، صوت الطلقة، وأصوات الذعر التى أصابت السائق وضابطاً كان يجلس بجواره وحارساً فى المقعد الخلفى، فوثب كالنمر، ليصبح فى الجانب الآخر من الطريق.

وبينما هبط الضابط وحارسه والسائق، وفى يد كل منهم سلاحه، وأخذوا يتجهون نحو مصدر الطلقة، كان هو ببندقيته مطلا عليهم من الناحية الأخرى.

وكانت فرصته الذهبية، فأطلق الرصاص عليهم جميعاً، ليرديهم صرعى.

ولم يمض عليه وقت طويل حتى كان يتناول عشاءه فى مطعم من مطاعم دمنهور.

ثم لم ينس أن يشترى لعمه "أبو المكارم" بعض الطعام والحلوى، ثم ركب القطار ليعود من حيث أتى، فيسمع صوت الساقية، ويسمع مع دوراتها المتصلة، أنفاس الرجل الأخرس تنتظره فى لهفة وقلق.

وأخذ "جلال" يروى لـ"أبو المكارم" ما فعله، وهما يسيران على جسر الرياح، يضحكان من قلبيهما، وما من سميع إلا الليل، والماء، والساقية، وسيدى الذكيرى والشجر.

وكانت له بعد ذلك مغامرات، فى كفر الدوار، وفى طنطا، وفى كفر الزيات.

وعاد مرات إلى دمنهور يؤدى فيها مغامرات جريئة، أزعجت سلطات الاحتلال حتى لقد بدأت تتخذ احتياطات مضاعفة لتحمى جنودها ومعسكراتها من هذا الغزو الذى وصفته بأنه غزو منظم تقوم به أياد مدربة على حرب العصابات.

وفوجئ "جلال" ذات يوم، باستدعائه إلى مقر الجمعية فى دمنهور.

جاءه رسول متخف، فصحبه إلى المدينة، ودار به من شارع إلى شارع، ومن طريق إلى طريق، حتى وصل به إلى جراج مهجور. وهناك وجد أصدقاءه الأفندية الذين يعمل معهم.

وقابلوه بالترحاب الحار، وهنئوه واحداً بعد واحد.

ولم يعرف ماذا حدث. لقد كان يظن أن الذى قام به دون ما تصوره من أعمال. لكنهم قالوا له إنك أبدعت يا "جلال". أنت تهز أقدم إمبراطورية على الأرض.

- لقد ارتبكت خطواتهم، ولهثت أنفاسهم تحت الطلقات البارعة التى أطلقتها.

- وهاجوا "يا جلال" على الحكومة، وطالبوا بتشديد الحراسة فى كل مكان.

- والأدهى أن هذه الحوادث قد نشرت فى الصحف فطمأنت الوطنيين وقوت الأمل فى نفوس المجاهدين.

- وعندما نشرت أنباء هذه الحوادث فى صحفهم، طالبت هذه الصحف باتخاذ كل الوسائل لحماية أرواح الجنود الشجعان، الذين يعيشون فى مصر، بين شعب جحود، يرد لهم الجميل بطلقات الرصاص !

- الجميل !! يسمون احتلال بلادنا جميلا يجب أن تنحنى له الجباه.

- والرسائل التى تلقتها الصحف من الزوجات والأمهات وأسر الجنود.

كلها تحوى شتائم للحكومة وفشلها فى حماية أرواح أفراد هذه القوات.

- وتنسون الأسئلة التى وجهت فى مجلس العموم؟ والاستجوابات؟ وهياج أعضاء البرلمان.

- إنك رائع يا "جلال".

- إنك بطل يا "جلال".

- هل حققت هذا كله وحدك؟

- لا لا.لا بد أن لك شركاء !

وقال "جلال":

- والله يا إخوانى ما فعلت شيئاً كبيراً كما تقولون. إنها تسلية جميلة تتم تحت جنح الليل، فيسترها الظلام عن العيون. بركة من "سيدى الذكيرى"، ومن دعوات الرجل الطيب، عمى "أبو المكارم".

ـ اسمع يا "جلال" . عليك أن تحتاط. أن عيون الحكومة مفتوحة فى هذه الأيام، وكذلك سلطات الاحتلال، وما لها من عملاء. لهذا فعليك أن تفوت عليها الفرصة وتهدأ قليلا.

قال "جلال" فى حماسة:

ـ أبداً . إن السكوت الآن يحمل معنى الخوف من هذه التدابير التى يتخذونها. الحكمة هى أن نستمر، حتى لا يظن أحد أننا خفنا. ألسنا نحاربهم؟ إذن نحاربهم تحت أى ظروف. وسواء اتخذوا إجراءات أو لم يتخذوا، فإن ذلك يجب ألا يمنعنا من العمل، والمضى فى القتال.

وبدأت مناقشة طويلة، انقسم فيها أفراد الجمعية إلى فريقين، فريق يرى ضرورة تأجيل النشاط لفترة، حتى إذا ما خيل إلى الجنود وسلطات الاحتلال أن الهدوء قد عاد بدأت حركات الاعتداء عليهم من جديد، وفريق يرى ضرورة المضى فى حركات اقتناص الجنود والضباط، بلا تمهل أو تراخ، حتى تثمر الحركة ثمراتها المطلوبة، فى الداخل والخارج معاً. أما فى الداخل، فإن العناصر الوطنية ستتجمع وهى ترى أن الأمل يلوح للعيان فى حين تفقد العناصر التى احترفت الحكم، احترام الجماهير. وفى الخارج يزداد ضغط الرأى العام على حكومته، لتعمل على ترحيل جنودها من هذه البلاد، إن لم يكن تسليماً بالحق فحماية لأرواح أفراد القوات.

وطالت المناقشات، حتى لقد فشل أعضاء الجمعية فى الوصول إلى قرار. وأخيراً رأوا تأجيل المناقشة إلى فرصة جديدة.

وبينما هم خارجون، رأى "جلال" بعض السكارى من جنود الاحتلال يترنحون أمام هذا الجراج المهجور، فلم يتردد ثانية واحدة فى استئناف العمل الذى بدأ يؤمن به أشد الإيمان.

كانوا ثلاثة من ذوى الوجوه الحمر كالكبدة المحروقة. ضرب واحداً على أم رأسه فخر مغشياً عليه، وضرب الثانى فى بطنه فاختل توازنه ووقع، وكمم فم الآخر حتى لا ينطق

وسحبه إلى داخل الجراج، ثم عاد يحمل الاثنين الملقيين فى عرض الطريق إلى حيث يلحقان بزميلهما.

وألقى لأول مرة كلاماً كالأمر.

لقد اعتاد أن يتلقى من أصدقائه التوجيهات، لكنه هذه المرة أصدر لهم التعليمات.

قال فى حدة صارمة:

- تتناوبون حراستهم. لقد جردتهم من السلاح، وسأوثقهم بالجبال، وعليكم أن تحرسوهم، فإن اختفاءهم يزيد الاضطراب فى صفوف الأعداء. لقد اعتادوا أن يجدوا جثث قتلاهم، لكنهم هذه المرة سيجدون أن الجنود قد اختفوا. لابد من أن نؤرق لياليهم هؤلاء المغترين.

وأحس الأفندية أنهم مضطرين إلى أن يسمعون، وأن ينفذوا ما يسمعون.

إن لهجة "جلال" كانت قاطعة، مليئة بالثقة، مضيئة بالإيمان، فسرت فى قلوبهم كتيار الكهرباء.

وتركهم "جلال" وعاد فى أول قطار إلى مكانه الحبيب من الساقية.

●●●

لكنهم أخيراً عثروا على الجنود المختفين، فى الجراج المهجور.

لقد قلبوا الدنيا بحثاً عنهم، ودفعوا بكل ما لديهم من قوة، ومن مال، ومن نفوذ ليصلوا إلى الذين ابتلعهم هذا التيار الوطنى المتدفق.

ووجدوهم أخيراً.

كان الخوف من الموقف هو الذى أدى بهم إلى العثور على هذا المكان.

إن الذين تناوبوا حراسة الجنود، كانوا يدركون أن هذا الاختفاء قد أزعج السلطات إلى أبعد الحدود، ولهذا فقد كانوا يمارسون مهمتهم، وهم يحسبون لمضاعفات الموقف

الف حساب. وعندما وصل البحث إلى هذا الجراج، ارتبك الذين كانوا يقومون بالمهمة الشاقة، وكان هذا الارتباك كافياً لإثارة الشك، ثم لتفتيش المكان، ثم العثور على المختفين، ثم للقبض على صاحب الجراج، وهو أحد أفراد الجمعية.

على أنه كان شجاعاً صلباً، لم ينطق بحرف، أنكر أنه يعرف شيئاً عن هؤلاء الجنود أو أنه رآهم من قبل، وأن الجراج مهجور، وانه لم يدخله منذ شهور وفشل الجنود فى التعرف عليه، أو إثبات شىء ضده.

على أن السلطات عثرت عنده على أوراق تحمل أسماء، قال عنها إنهم من أصدقائه، وليس بينه وبينهم إلا علاقات عادية، لا علاقة لها بأى نشاط.

وفى خلال الأسابيع التى مضت فى التحقيق معه، وبعد أن علم "جلال" بالقبض عليه، وعلى عدد من أصحاب الأسماء التى وجدوها فى أوراقه، قرر أن ينشط فى عمل سريع ومتصل، ليخفف الضغط عن المقبوض عليهم، وليثبت للذين يحققون معهم أنهم أبرياء، ولو أنهم هم الذين يقومون بهذه الأعمال، لوقفت هذه الأعمال، بمجرد القبض عليهم.

وأخذ يثب كالنمر من مكان إلى مكان، يطلق الرصاص على السيارات فى الطرق المؤدية إلى المعسكرات، ويتصيد الذين تلقى بهم الظروف فى أماكن نائية، بالقتل أو الاعتداء. فإن فشل فى شىء من هذا، فلا بأس من أن يطلقها رصاصات طائشة على المعسكرات فيطير النوم من عيون آلاف الجنود والضباط.

ولم يكن "جلال" يعرف أنه أحد الذين عثروا على أسمائهم.

ولم يكن "جلال" يعرف أن أوراقه فى السجن تحمل صورته.

وعندما اشتد به يوماً الفضول، وأراد أن يقف على الأنباء، قصد إلى دمنهور ليتصل بواحد من أعضاء الجمعية.

لكنه ما كاد يخطو خطوات فى أحد الطرقات، حتى قبض عليه أحد رجال البوليس السرى، وساقه إلى التحقيق.

وأنكر بطبيعة الحال معرفته بشىء، كما أنكر علاقته بأحد ممن عرضوهم عليه.

وحاولوا بالتعذيب أن يحملوه على الاعتراف بشىء، لكن وسائلهم جميعاً لم تجد معه شيئاً.

وأخيراً أودعوه التخشيبة فى أحد أقسام البوليس، فأحس بفراغ شديد. ما هذا؟ لقد كانت حياته مليئة بالحركة والنشاط والأمل، فما هذا الركود المظلم الذى يبدد كل نشاط وكل حركة، وكل أمل؟

لكنه على كل حال، كان محتاجاً إلى هذه الفرصة، حتى يستعيد ذكرياته.

وشرد فى الأيام الأخيرة التى عاشها، وظهرت له من خلال الصور التى تحركت أمام عينيه صورة حبيبه، هى الصورة الوحيدة الباقية له فى الحياة: صورة عمه "أبو المكارم".

وأخذ يتحدث إليه، فيما بينه وبين نفسه.

اطمئن يا عمى "أبو المكارم". لا تخف على. الله معى. أنت دائماً تقول لى هذا.

إن الشىء الذى يؤلمنى الآن، هو أنى فارقتك دون وداع. هذه هى المرة الثانية يا عمى "أبو المكارم" التى أفارقك فيها بلا وداع. فى المرة الأولى كنت محاطاً بالضباط والعساكر والخفر، فلم يكن ممكناً، ولم يكن كذلك من صالحك أن أودعك. وفى هذه المرة تركتك على أن أعود إليك عندما يتوغل الليل فى المسير، ولم أكن أتصور أنى قادم إلى هذه التخشيبة بقدمى. ترى متى أراك مرة ثانية يا عمى "أبو المكارم"؟

●●●

ولقد رأيتنى يا عمى "أبو المكارم" شيخاً معمماً يحمل اسم "أبو عوف"، يصحب معه شيخة فاتنة تحمل اسم الشيخة "تفيدة"، الحب الوحيد الذى طرق شغاف قلبك ولا يزال يحيا فى ضميرك.

لكنك رأيتنى بعد أن مرت بى أهوال.

فإنهم عندما فشلوا منى على اعتراف، قرروا أن يتركونا ويراقبونا. هكذا سمعنا من الحراس.

وفجأة بدأت نذر الحرب الثانية.

ولم تكن سلطات الاحتلال قادرة على أن تتركنا وهى تستعد لخوض حرب تفرض عليها أن تتخذ كل إجراءات الأمن الضرورية لقواتها أينما تكن.

وكنا قد اعتبرنا فى نظر هذه السلطات أعداء، فإن لم نكن أعداء، فان الشبهات تحيط بنا من كل جانب.

وتقرر اعتقالنا.

وأخذونا أول الأمر إلى معتقل فى المنيا .

وهناك رأينا أشكالا وأصنافاً من المعتقلين، لم نكن ننتظر أن نراهم أبدا.

وفى هذا المعتقل اكتشفنا أنهم دسوا لنا معتقلين ليتجسسوا علينا.

لكنا لقناهم درساً قاسياً، بعد أن كشفنا أنهم خونة، وأنهم عملاء.

وبدأت بسلسة من التحقيقات داخل المعتقل.

لماذا تعتدون عليهم؟ ماذا فعلوا؟

وكانت تحقيقات مقصودة، للتأكد من ميول المعتقلين.

وبعد انتهاء التحقيقات بدأت حركة تنقلات، نعم تنقلات، فكأننا موظفون فى الحكومة، ينقلوننا من مكان إلى مكان.

وكان من نصيبى معتقل الطور، أو المنفى حتى للمعتقلين.

على أنى لم أهتم بشىء.

إن أحداً لا يزورنى، وليس لى أهل ولا صديق، فماذا يضيرنى أن أكون فى معتقل الطور أو معتقل المنيا، أو فى أى معتقل يريدون؟

وعكفت هناك على القراءة، أحاول أن أوفر لنفسى، ما لم توفره لى المدرسة، أو الأهل أو الأصدقاء.

ورضيت عن نفسى، فقد فهمت مما قرأت أشياء جديدة، وعشت حياة خصبة، ولم يعد اعتقالى يهمنى كثيراً.

بل ربما وجدت فى المعتقل، فى جبل الطور فرصتى، لأتعرف على عدد كبير من الوطنيين الشبان، وكان بينهم مثقفون ممتازون، أعارونى من كتبهم ما زودنى بزاد يتضاعف مع الأيام.

ولما زاد الإيراد كما يقولون هناك، وضاق المعتقل بمن فيه، قرروا إجراء حركة تنقلات أخرى، واستقر رأيهم على نقل الممتازين من المعتقلين، إلى معتقل الزيتون.

وكنت أحد الذين نقلوا إلى معتقل الزيتون، لأنى فى نظرهم معتقل ممتاز.

صحيح لقد كنت خلال فترة اعتقالى فى جبل الطور ممتازاً. لقد كان شاغلى الوحيد هو أن أقرأ، وأن أستفيد، وأن أزود نفسى بكل ألوان المعارف. لهذا عرف عنى الهدوء والصمت وطول البال وحسن معاملة زملائى وحراسى جميعاً.

وفى معتقل الزيتون استأنفت حياة القراءة والتحصيل. لكنى بدأت أفكر فيما يجب علينا أن نعمله فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة بلادنا. إن الحرب مهما طالت فسيخمد يوماً أوارها. ولا بد لنا منذ الآن أن ندرك مصير آمالنا. لا يجوز أبدا أن تتكرر مهزلة الحرب الأولى. لقد خدعونا بالوعود، فلما انتهت تنكروا لكل وعد قطعوه ولم تستطع الثورة التى أعقبت الرحب الأولى أن تحقق الأمل الكبير، لأنها كانت حقلا للتجربة، عقب الحرب. لا يجوز أن ننتظر نهاية الحرب لنقوم بتجربة جديدة مع منتصرين. إن المنتصر ينسى أيام الحاجة التى تعرض لها فى ماضية. إنه يعرف فقط أنه انتصر والعرق تصبب منه فى المعركة لا يترك رائحة تذكره بالأيام العصيبة التى مرت به.

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير. لقد كان المعتقل فرصة لتنظيم أفكارنا وتنسيق جهودنا، فانتظمنا فى أكثر من حلقه من حلقات الكفاح.

وبينما أنا أنتظر فرصة للحركة من جديد، جاءتنى هذه الفرصة بحادث "ممدوح" ثم هروبى من المعتقل، ثم اختفائى عن العيون فى زى الشيخ "أبو عوف" فى أقرب الأحياء

إلى قيادة الحلفاء، ثم فراري إلى هنا، عند هذه القبة المباركة. من ضريح "سيدى أحمد الذكيرى"، وعند هذه الساحة الحبيبة حول الساقية التى لا تكف عن أن تدور.

●●●

قالت "مديحة":

- وبعدين يا "جلال" معك؟ لا تكن كالجمل تجتر ماضيك.

قال "جلال":

- من ليس لهم أمس، فليس لهم غد.

قالت "مديحة":

- وماذا عن اليوم، بين أمس والغد؟ لابد لى من أن أحكى لك عما يجرى هنا اليوم.

قال:

- أعرف ماذا تنوين أن تقوليه.

قالت:

- مستحيل.

قال:

- أعرفه يا "مديحة" معرفتى بهذه الساقية، وبهذا الضريح، وبعمى "أبو المكارم".

- إذن دعنى أختبر ذكاءك.

قال:

- تقصدين ما يحدث من هذا النذل الجبان "أبو سريع".

وضربت صدرها بكفيها وهى تعجب مما تسمع.

- هل رأيت شيئاً؟ هل لاحظت شيئاً؟ أم أنه ذكاء؟

ـ لا ليس ذكاء، لكنه إحساس مرهف يبين ما خفى بإلهام من عند الله.

ـ هذا غريب. وكيف وصلت على هذا التحديد؟

ـ لقد أحسست من اللحظة الأولى التى رآك فيها هذا الوغد، أن سيكون له معك شأن. إنى أعرف تفاهة نفسه، وفراغ ضميره. إنى أعرف عنه كثيراً من الأسرار. إنه رجل لا يعيش إلا فى حرام. يسرق كل شىء، وينهب كل شىء، حتى أعراض الشرفاء. حياته هكذا، سرقة ونهب، ومحاولة لاحتكار أى شىء لنفسه دون سائر الناس. لكن قولى لى ماذا فعل معك؟

ـ لقد تردد هنا غير مرة منتهزاً فرصة تكون فيها عند الساقية، أو تتمشى على جسر الرياح، أو تزور "الشيخ مختار" فى الجامع، وتظاهر بأنه قادم لزيارة القبور، وعرج على "سيدى الذكيرى" لزيارته، ثم طالت هذه الزيارة. ثم أخذ يدير معى الحديث وعيناه مثبتتان فى عينى، فلما أرخيت طرفى، تعلقت عيناه بأجزاء جسمى. أخذ يفحصنى من أعلى رأسى إلى أخمص قدمى. وشعرت أنه ينتهك حرمتى بهذه النظرات، فحاولت أن أقوم من مكانى، وأتعلل بأى سبب، لأغادر المكان. لكنه كان أسرع منى فوقف قريباً منى وسألنى إن كانت بى حاجة إلى شىء. وتظاهرت بأننى قمت لأشرب من القلة، فمد يده إليها وناولنى إياها، فلم يكن بد من أن أدير له ضهرى أبل ريقى الجاف بالماء.

ـ وتكررت زيارته لك بعد هذا بطبيعة الحال.

ـ نعم تكررت يا "جلال"، وأنا أنوى أن أحكى لك فى كل مرة، لكنى أرجىء الحكاية منتظرة أن يستحى هذا الفاجر ويتركنى.

ـ هو !! "أبو سريع"؟!

ـ إننى شيخة، ألا يرى هذه الطرحة البيضاء والمسبحة الطويلة التى أداعب حباتها آناء الليل وأطراف النهار؟

ـ إن ذلك قد يزيدك عنده إغراء. إنه شخص جبان وفاجر.

ـ صحيح يا "جلال" هو ذاك. لقد ظن أنه يستطيع أن يغرينى بقوته ونفوذه وسلطانه وهو لا يدرى أننى هنا لأحاربه معك.

ـ وماذا فعل بعدها؟

ـ أقبل مرة يحمل إلى سلة من الفاكهة. انتقاها بعناية، ووضعها أمامى، وقال لى أن أطلب منه ما أشاء. إنه طوع أمرى.

ـ لكنك لم تعبئى به.

ـ لكنه لم ييأس، فعاد بعد ذلك بسلة مليئة بالجبن والزيد والفطير المشلتت وألوان أخرى من الطعام، وقال لى فى وقاحة: لكى تستعينى بالطعام على عبادة الله ولكى تدعى لنا الله أن ييسر لنا الأمور، وأن يعيننا على مخلوقات الله.

ـ ومع هذا لم تلينى له.

ـ ومع هذا فقد عاد بعد ذلك بقطعتين من القماش الحرير، وقال لى إنه يشعر أن هذا القماش لا تستحقه واحدة سواى.

ـ ما هذا الكرم؟

ـ وأكرم من ذلك أنه بعث إلى بالخياطة لتقوم بإعداد الثياب.

ـ شىء عظيم. ما هذه الشهامة؟

ـ اسمع ما هو أعظم. هل تذكر ليلة أن ذهبت إلى دمنهور لتقابل أصدقاءك. لا أدرى كيف عرف أنك سافرت، وتوقع أن أبيت هنا وحدى. لم يكن يعرف أننى اتفقت مع الست "راضية" زوجة "الشيخ مختار" على أن أبيت عندها. حضرته شرف مع الغروب ليصلى المغرب فى "سيدى الذكيرى".

ـ ما هذه التقوى والورع؟!

ـ ولقد مكث فى الضريح طويلا، وكنت أحزم ملابسى، لأذهب إلى البلد، حيث أقضى الليلة عند الست "راضية". يظهر أنه لم ينتبه لى عندما غادرت المكان.

- وهربت من "أبو سريع" ! إنك تكونين أدهى منه إذن !

- لقد جاءنى فى الصباح، وسألنى أين كنت. ولم أشأ أن أذكر له أول الأمر واكتفيت بأن قلت له إن الشيخ سافر لزيارة بعض مريديه، والمكان هنا موحش إذا أوغل الليل. قال فى شهامة: يا ستى كلنا هنا تحت أمرك. لماذا لم تطلبى غفيراً أو كل الغفراء إذا أردت ليكونوا تحت تصرفك، فلا تستوحشين المكان. اطلبينى أنا، وأنا على استعداد لأن أقضى الليل ساهراً أحرسك، أنت لا تعرفين قدرك يا ست الشيخة. إننا نعيش الآن من بركاتك.

- يا سيدى يا سيدى. يا سبع الليل يا شهم.

- وسألنى أين كنت، فأدرت الحديث وجهة أخرى لأعذبه، وعاد يسأل ويلح فى السؤال، فقلت له عند الست "راضية"، الأميرة الطيبة، قال يا ست أنت أميرة الأميرات من تكون هذه إلى جوارك؟ أنت "الشيخة مفيدة" صاحبة أجمل كرامة فى هذه الناحية.

- وماذا قلت له؟

- سكت يا "جلال". لم أرد. لكنه مضى يصف جمالى، ويتغزل فى سحرى ويكاد أن يهجم على كالكلب المسعور. وأنا يا "جلال" أبتعد عنه فيلتصق بى، فأعود أبتعد عنه، فيعود يزحف نحوى. رجل لا يستحى من شىء.

وضحك "جلال" ضحكة طويلة ساخرة.

وقطبت "مديحة"، حاجبيها وهى تصيح:

- "جلال" ! تضحك ! أراك لا تغار على، ولا تهتم بى.

- أنا يا "مديحة"؟!

- أى رجل يسمع كلاماً كهذا، ويعرف أن رجلا مسعوراً كهذا الكلب يطمع فى زوجته يهتز غضباً مما يسمع، فما بالك تضحك؟

- يا "مديحة" أنت لا تعرفين كيف أحبك، وكيف أغار عليك. أنت الزوجة والأهل والصديق. أنت أمى وأبى. أنت قطعة عزيزة من وجودى. أنت الماضى والحاضر

والمستقبل إن كان لى مستقبل. فهل تظنين أنى لا أهتم بك، ولا أغار عليك؟ إننى أغار عليك حتى من ضريح "سيدى الذكيرى". إنى أغار عليك من الطرحة التى ترتدينها فتحجب عنى بعض جمالك الأخاذ. لكنى أضحك لأنى قد نويت أمراً خطيراً، وأنت تعرفيننى قبل القيام بالخطير من الأمور. ألم تعرفيننى بعد؟ ألم تسمعى هذه الضحكات من قبل، عند ما أكون فى حالة استعداد للقيام بعمل ذى بال. إنى أهيئ، نفسى بالضحك. عن الذين كتب عليهم أن يواجهوا الخطر مثلما نواجهه، يتخذون من الضحك وسيلة على السيطرة على أنفسهم مما ينتابهم من خوف أو قلق. هل تظنين أننى وحش لا أخاف؟ لا يا "مديحة" إنى أخاف مثلما يخاف سائر الناس. وأنا ذاهب إلى عملية من العمليات التى أقوم بها فى جنح الليل البهيم، أشعر بالخوف، وبالقلق، وأقرأ الفاتحة أكثر من مرة، وأتلو الشهادتين فى تقوى، وأنا أحسب ألف حساب للنهاية. أليست معرضاً للموت فى كل مرة أقوم فيها بمثل ما أقوم به من أعمال؟ ألا يملك الآخرون أسلحة أقوى مما أملك؟ أليس لديهم رصاص؟ وما العمر؟ ما عمر الإنسان؟ إن رصاصة واحدة كافية للفصل بين الحياة والموت يا "مديحة" إننا مساكين. صحيح أن الإيمان يغمر قلوبنا وأن الهدف الكبير الذى ننشده. يقوى عزائمنا، لكنا مع هذا بشر، نحب الحياة، ونرجو أن يمتد بنا العمر حتى نستمتع بما يستمتع به الآخرون. إن الحياة فى ذاتها هدف جميل قد تكون قاسية. قد تكون أقرب إلى المأساة، لكنها مع هذا جميلة ومغرية. الله خلق الناس ليعيشوا لا ليموتوا، إلا يوم يحين حينهم ويأتى أجلهم. ثم لماذا نتعرض نحن لكل هذا الذى نتعرض له؟ لماذا نقاتل فى سبيل الحرية؟ ما هى الحرية؟ ولماذا نريد الحرية؟ إن الهدف هو تحقيق الحياة الكريمة، وكل ما نعمله وسيلة من الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق هذا الهدف الكبير. والذين يعلمون من أجل الحياة، لا يمكن أن يستهينوا بهذه الحياة، ولا يحرصون عليها إننا أشد حرصاً على الحياة، ولهذا فإننا عندما نواجه الموت، قد يكون شعورنا بالخوف أضعاف شعور الآخرين. وثقى أنه لولا الأمل، والإيمان، والثقة بالنصر، لما استطاع شعب أن يتحرر. إن الحرب والقتال وحياة القلق شىء لا تحتمله قوى الإنسان، لكنه يقتحمها مضطراً، من أجل تأكيد الحياة. اعذرينى يا "مديحة" إذا

ضحكت. أنا أحبك. أنا أغار عليك، لكنى أعد العدة لعمل هام وضرورى. لم يعد ممكناً أن نمضى فى حياتنا كالنعام، نخفى رءوسنا فى الرمال، ونظن أن أحداً لا يرانا. لا بد من التخلص من هذا الكابوس المزعج " "أبو سريع".

- لكن هذا عمل خطير يا "جلال".

- أنا أعرف أن "أبو سريع" قوى، وأنه يسيطر على كل شىء هنا، ولكنى مع هذا أعتقد أن الأسباب التى تجعلنا نخشاه، هى نفس الأسباب التى تجعلنا نعمل على التخلص منه.

- هل فكرت فى حاجتنا إلى الأمن؟ إننا هاربون يا "جلال" نتلمس الأمن فى هذا المكان.

- نعم فكرت، وحاولت أن أبعد عن نفسى الفكرة، ولكنى لم أستطع. إن نداء قوياً خفياً يلح أن أتخلص من هذا الشيطان.

- إنى أخاف يا "جلال" أن تسئ فهمى إذا قلت لك إن هذا النداء قد يكون تعبيراً عن ثأر قديم، وأنا لا ألومك على شىء من هذا. إنها أمك، والجريمة التى ارتكبوها ضدها كانت دنيئة وفاجرة. والقصاص حق وعدل. ألم يرد هذا فى القرآن؟ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب.

- وفضلا عن هذا، فإن القصاص هو تعبير عن رغبة المجتمع فى الكرامة والحرية والعدل. وعندما يتخلى المجتمع - أى مجتمع - عن هذه المسئولية، فإن الأفراد يجدون أنفسهم مضطرين إلى أن يقوموا هم بها. وعندئذ تصبح عادة قبيحة وخطيرة، وقائمة على التقدير الخاص.

- وأنت تريد أن تمارس هذه العادة؟

- إن الرغبة فى الثأر قد تكون دفينة فى طيات عمرى، لكنك لا تستطعين أن تتكرى أن وجود "أبو سريع" فى القرية، شر فى ذاته، بصرف النظر عما بينى وبينه من ثأر. لقد

عاش جلاداً للقرية، يجلدها بالسياط. إن أمثال هذا الشيطان الشرير، عامل من أهم عوامل هدم المجتمع الذى نعيش فيه.

ـ هذا صحيح. لكن الوقت قد لا يكون مناسباً يا "جلال".

ـ اسمعى. سأطلب منك أغرب طلب، يطلبه زوج من زوجته.

ـ خيراً. لعله خير يا "جلال". أنت تعلم أنى سأنفذ كل ما تطلبه منى.

ـ مهما كانت التضحية؟

ـ نعم مهما كانت التضحية.

ـ إذن شجعيه يا "مديحة". لا تحمليه على أن ييأس من حبك.

ـ أنا ...أنا يا "جلال" !!

ـ ألم أقل لك إنه أغرب ما يطلبه زوج من زوجته؟

ـ أنا الشيخة "تفيدة". أتنسى؟

ـ أعلم أنك شيخة كبيرة، وولية من وليات الله.

ـ إذن كيف يجوز

ـ بل يجب. على أنك لم تبدئى على كل حال. هو الذى بدأ. وكل ما عليك هو أن تشجعيه، وعند ما يحين الوقت المناسب، فسأحدد لك ما تفعلين.

ـ على أنى أحذرك من أنى سأطيعك، لكن إلى حد محدود.

ـ ولن أطلب منك أن تتجاوزى الحد المعقول. أظنك لا تعقلين أبداً أن ألقى بك، وأنت جزء من حياتى بين أنياب الغول. إنها مجرد خطة سترين أنها تؤدى إلى التخلص من هذا الأفاق المغرور.

وسكت "جلال" وفى حلقه غصة، وبين جفنيه دموع يحاول أن يخفيها عن الأنظار.

لقد كان الوقت بين المغرب والعشاء، والهواء رطب وعليل، والطبيعة ساحرة ورائعة وصوت الساقية يصدر متقطعاً، كأنه ضحكات.

لكنه مع هذا يشعر بالحزن والانقباض.

إن السر الذى عاد يحمله من دمنهور يجعل نفسه موزعة بين الحب والبغض، وبين الثورة والرضا، وبين الفرحة التى تغمر جوانحه، والغضبة التى تكاد تقتلع قوة.

ولقد حاول أن يحتفظ بهذا السر حتى يجد له مخرجاً، لكنه لم يستطع أحس أن السر يمزقه قطعاً. ماذا يكون مصيره والسر كالشوك يحك قلبه فيدميه؟!

ولم يكن أمامه إلا واحد. واحد فقط يستطيع أن يقدر سره، ويفهم عنه ما يريد.

وذهب إليه عند الساقية، فما إن رآه، حتى رمى نفسه فوق كتفيه، وأخذ يبكى كما اعتاد أن يبكى على كتفيه، وهو رضيع، وهو يحبو، وهو بعد طفل يجرى حول الساقية هنا وهناك.

●●●

لا أدرى يا عمى "أبو المكارم" ماذا أفعل.

إنى مرتبك وخائف.

لقد تعجلت يوم تزوجت "مديحة" يا عمى. خدعنى قلبى فتزوجتها.

وعندما ذهبت إلى إخوانى فى دمنهور، علمت أن "ممدوح" حى يا عمى. و"ممدوح" هو أحق الناس بها، وأولاهم بقلبها.

إنه قطعة من حياتها، لا تستطيع أن تنفصل عنه، ومن الظلم المبين أن أكون أنا سبب انفصالهما، وقد ارتبطت حياة كل منهما بالآخر، فصارا شخصاً واحداً فى جسدين.

ثم إنى هربت من المعتقل لأنقذ "ممدوح" ولأنتزعه من بين براثن الأسد الشرير فيكون فى إنقاذه درس للمحتل لا ينساه.

ومن أجل هذا، تعرضت للهول، ولم أبال...

فهل أكون أنا، من يخطف "مديحة" من "ممدوح"؟

إنى لا أنكر أنى أحبها، ولكنى لست حبها الأصيل يا عمى. أنا بديل عن "ممدوح" وعندما يحضر الأصيل، فعلى البديل أن يتنحى.

لكن كيف أتنحى يا عمى؟ كيف وحياتها هنا أصبحت مرتبطة بوجودى.

إن أى انفصام بيننا معناه الخطر على وعليها وعلى "ممدوح".

أتدرى يا عمى؟ لقد سقط المسكين على أرض شارع قصر العينى، وخيل إلينا أنه قتل، وكذلك خيل إلى العساكر الإنجليز. لكن الوطنيين جروه إلى أحد البيوت، ليكون فى اختفاء جثة من جثثهم نكاية بهم.

وإذا الجثة تتحرك بعد حين.

وإذا الميت ينطق بعربية فصيحة.

وإذا هو يروى قصته كاملة، ويروى كذلك قصتنا معه.

ويبحث الوطنيون عن طبيب لا يبوح بالسر، فيجدون واحداً من رجالنا، فيخطر جمعيتنا بكل شىء، ويخفون "ممدوح" فى مكان آمن حتى يشفى.

وعندما شفى "ممدوح" كان أول سؤال إلى الذين حوله:

- أين هى؟ أين "مديحة".

ماذا ترانى أفعل؟ كيف أتصرف، وقد أصبح لى ذرية تتكون فى أحشائها؟ يا عمى إنى مرتبك. إنى خائف. إنى مهموم.

لقد عدت من دمنهور، وأنا أعتبر "مديحة" حرماً مقدساً لا يجوز لى أن أمسه، إنها أمام الله وأمام الناس، لكنها حرام على بعد أن عاد "ممدوح".

يا عمى "أبو المكارم" كيف أتصرف. وأنا أواجه محنة عمرى؟

وبكى "أبو المكارم" وهو يسمع القصة، وأخذ يشير للسماء إشارات مبهمة وغامضة كأنما يقول:

ما ذنبه يا ربى حتى تقابله كل هذه العقبات؟

إنه ولد طيب وبرىء وطاهر، فلماذا لا تجزيه بقدر ما فى قلبه من صدق وشرف؟

لكنك أنت وحدك صاحب الحكم التى لا يدرك سرها إلا أنت، فتصرف فى عبادك كما يحلو لك.

لكن بحق رسلك وأنبيائك لا تتخل عن "جلال".

وهز "أبو المكارم" رأسه فى أسى ودموعه على خديه.

●●●

قال: "جلال":

- اسمع يا عمى لقد عشت عمرى شجاعاً لا أخاف. أواجه المكروه ولا أتخفى منه. أنا لست نعامة يا عمى. أبدا ولن أكون. سأذهب إلى "ممدوح" وأخطره بكل ما حدث. سألقاه رجلا لرجل يصارحه بكل شىء، ويرسم معه الوسيلة السليمة التى ترد أمانته إليه. لكنى لن أقبل على نفسى، أن أعيش على ميراث سواى. لا يا عمى. أنا ذاهب إلى القاهرة الآن لأقابله وأنهى معه هذا الموضوع، وأوصيه خيراً بالجنين المستكن فى أحشاء أمه. على أنى أفضل أن يأتى "ممدوح" ليعيش معها هنا آمنا مطمئناً بعيداً عن العيون والأنظار. لكن لابد لى من أن أمهد له الطريق. لن يرتاح و"أبو سريع" موجود. سأقضى أنا على "أبو سريع " أولا، فأصيب بذلك أكثر من هدف، أنقذ منه القرية المغلوبة، وأثأر لأمى وأمهد طريق الحياة الآمنة "لممدوح" و "مديحة" ومعهما وليد من صلبى، أما أنا فلا بد لى من أن أختفى. لابد لى من أن أترك لهما المجال ليعيشا حياتهما عن كل ما يعكر صفوهما.

ولم يستطع "أبو المكارم" أن ينطق بحرف.

لقد أخذ يسمع هذا الكلام، وهو ينتحب.

لكن "جلال" أخذ يقول له ليهدئه:

- لماذا تفعل هذا يا عمى؟ ألا تعرف أنى منذ ولدت وأنا والنحس على ميعاد؟ هكذا قدر على أن أعيش مشرداً، بلا أهل ولا ولد ولا صديق. هذا قدرى يا عمى، والإيمان بالقدر إيمان بالله سبحانه وتعالى. هل يجوز أن نكفر بالله، أو بقضائه وقدره؟ إنك مؤمن يا عمى "أبو المكارم" فاحفظ عليك هذا الإيمان الكبير، فوالله لو انهار هذا الإيمان، لانهارت هذه القرية كلها. إن كل ما أرجوه منك هو أن ترعى "مديحة" و "ممدوح"، والصغير الوليد. إنهم منى وأنا منهم، وإن بعدت بيننا الشقة، أو نأت بنا الديار. على أنى لن أودع "مديحة". لن أقوى على هذا. لن أخطرها بشىء. لن أقوى على هذا. سأتفق مع "ممدوح" على كل شىء، وسأتسلل فى طيات الليل كما جئت، سراً لا يعرف له أحد غوراً. ويا ليتنى قادر على أن أضع نهاية لحياتى. لولا أنه جبن وفرار، لأطلقت على نفسى الرصاص، لكن من يدرى، قد تلحقنى رحمة الله، فتضع لهذه الحياة القلقة التعسة النهاية التى أريد.

ولم يرد "أبو المكارم".

إن نحيبه كان هو الرد الذى لا رد سواه.

لكنه أخذ يتحسس "جلال" بكفيه، ويضمه إلى صدره، ويقبل وجنتيه ورأسه وكتفيه، وقد بلغ به الأسى مبلغاً شديداً.

●●●

وذهب "جلال" إلى القاهرة.

قال "لمديحة" إن عليه أن ينفذ عملية هامة وخطيرة؟

وأذاع بين أهل القرية، أنه ذاهب لزيارة بعض المريدين.

ولم ينس أن يوصى "مديحة" ألا ترد هذا الفاجر عن مغازلتها، وإلا فسدت خطته. إنه يريد أن يزداد فيها طمعاً، دون أن ينال منها شيئاً.

وفى القاهرة قابل "ممدوح" فى أحد أحواش القرافة قرب الإمام الشافعى.

وكانت مفاجأة أذهلت "ممدوح".

وبعد عناق دامع، صاح "ممدوح".

- أين "مديحة"؟ لقد علمت أنك هربت من المعتقل لتبحث عنى، ولتدبر أمر فرارى من بين أنياب الكلاب المسعورة. ولقد تعرضت للأهوال فى سبيلى، وهاأنذا سليم معافى بين يديك. لقد نجحت خطتك أيها البطل. لكن أين "مديحة"؟ لقد كانت تعمل معك طيلة هذا الوقت. فأين هى؟

قال "جلال":

- سامحنى "يا ممدوح" !

وصاح "ممدوح"؟

- أسامحك؟ ماذا حدث لها؟ قل كيف هى؟

قال "جلال" والدموع فى عينيه:

- إننا نعمل لقضية كبرى يا "ممدوح". وعلينا أن نكون صادقين وشرفاء، وألا تزوق المعانى مهما دقت. لهذا فإنى أختصر الطريق، وأقول لك فى وضوح إن "مديحة" عندى، تعيش معى، زوجة طاهرة شريفة.

وسكت "ممدوح". لم يستطع أن يتحمل الخبر. لكنه بعد فترة صمت طويلة قال:

- مبروك يا "جلال". إنك تستحقها يا صديقى. ولو طلب منى أن أختار زوجاً لها، ما وجدت سواك، أختاره. نعم الزوج، ونعم القرين.

- وصاح "جلال" فى غضب:

- لا...أنا تزوجتها ، لأننا رأيناك تسقط أمامنا فى شارع قصر العينى، فتأكدنا أنك قتلت. أما الآن، وقد عدت يا "ممدوح" فهى لك، لا لى، إنها حرام على منذ عرفت أنك حى.

وبعد جدل طويل لم يعد إصرار "ممدوح" على أن يستمر هذا الزواج، وإصرار "جلال" على تصحيح الموقف، بإعادة "مديحة" إليه. قال " :جلال":

ـ اسمع يا "ممدوح". لقد فكرت فى الأمر طويلا، ويظهر أن "مديحة" كانت أصدق منى شعوراً، يوم كانت تأبى أن يعقد قرانها على واحد سواك، لكنى كنت معذوراً يا "ممدوح". لقد طالت عشرتنا وظهرنا أمام الناس أزواجاً، وأصبح علينا أن نستعد لرحلة قد تطول. كان علينا أن نهرب حتى لا نقع فى شرك تنصبه لنا السلطات، ولم يكن جائزاً ولا ممكناً أن نمضى هكذا أزواجاً أمام الناس، غرباء فيما بيننا وبين أنفسنا. لهذا تزوجتها، بعد أن شاهدناك بأعيننا تصاب بالرصاص فى شارع قصر العينى. أما الآن، فقد رسمت الطريق لتعود إليها. على أنى سأدبر كل شىء، لتترك هذ الجحر وتعيش معها حيث هى بجوار "سيدى الذكيرى" لا تخف لأنى سأذيع فى القرية أنى ذاهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وبعد فترة سأكلف من يرسل إليك خطاباً يحمل وفاتى. فى الوقت نفسه سأطلقها يا "ممدوح" فتتزوجها كما كان يجب أن يكون. وبهذا أكون فى نظر أبناء القرية قد مت. أنت وحدك وعمى "أبو المكارم" اللذان سيعلمان أنى طلقتها. إياك أن تقول لها إنى حى. لا يجوز أن تعرف أنى حى. لا أريدها أن تشرد ثانية واحدة من حياتها معك تفكر فى. ولقد فكرت كذلك فيها هى. ماذا سأقول لها وأنا أغادر القرية إلى الحجاز؟ لكنى انتهيت إلى أن أقول لها إن المعلومات التى وصلتنى تؤكد أنهم على وشك الوقوف على مكانى، ولهذا فإنى سأسافر إلى الحجاز هارباً بحريتى، وسأبقى هناك حتى يقضى الله أمره، ثم أعود. أما حياتها فى القرية فإنى مطمئن إليها. لقد رتبت لها الأسر مسينية سنوية، فلم تعد محتاجة إلى أحد. لقد اعتبرتنا القرية من مرافقها العامة، فخصصت لنا معاشاً يكفينا. ألسنا نسهر على سيدى الذكيرى؟ ألسنا خدام ولى الله؟ ألسنا نقيم حضرة لذكر الله كل ليلة من ليالى الجمع؟ بقيت نقطة واحدة هى أنت. بأية صفة ستذهب إلى القرية؟ دع هذا لى، فعند ما أقرر الذهاب إلى الحجاز، فسأذيع بين أحبائى ومريدى أنى كلفت أحد خلفائى، أن يحضر ليتولى أمر الضريح

وأمر الحضرة حتى أعود. وعليك أن تعمل بكل طاقاتك على أن تبدو شيخاً مهيباً، وأن تنال ثقة الفلاحين، فإذا جاءك نعيى. عندئذ تكون قد كسبت قلوب الناس، فتتزوج "مديحة" على بركة الله، وستزداد مكانتك فى قلوب أبناء القرية يا "ممدوح"، لا تنس أن اسم "مديحة" قد تغير. إنها هناك "الشيخة تفيدة"، أما أنت فلى عندك رجاء يا "ممدوح"، وهو أن تغير اسمك أنت الآخر ليكن اسمك "الشيخ رءوف"، لا، إنه اسم قد يكون غريباً على القرويين. لكن أقرب الأسماء التى تقبلها القرية إلى اسم "رءوف"، ليكن اسمك الشيخ "عبد الرءوف". سترضينني بهذا الاسم رضاء لا أول له ولا آخر. أما الجنين الذى تحمله "مديحة"، فإن يكن ولداً فسموه "أبو عوف"، وإن تكن بنتاً "أم الهنا". إن "مديحة" ستروى لك سبب اختيار هذه الأسماء إنها تحبها. إنها تعيش معها.

وسكت "جلال" قليلا، ثم عاد يستأنف الحديث:

- هل أوصيك بالقرية خيراً يا "ممدوح"؟ إنها محتاجة إليك. إنك شاب وطنى وذكى، وستعرف من تلقاء نفسك، ماذا تحتاج إليه القرية منك. على أن هناك رجلا طيباً ومسكيناً يا "ممدوح". إنه قطعة من نفسى، إنه عبير حياتى. إنى أوصيك به خيراً يا "ممدوح". أوصيك بعمى "أبو المكارم"، وبالساقية التى قضى الرجل حياته يدور خلفها.

●●●

وبعد أن اختفى "جلال" من الحوش الذى قابله فيه، أخذ "ممدوح" يتذكر كل حرف قاله:

لقد كان آخر جملة قالها:

- اتفقنا. انتظر اليوم الذى أحدده لك لتحضر إلى القرية مرتدياً عمامة وجبة وقفطاناً وفى يدك مسبحة طويلة، تتدلى من وجهك لحية بيضاء مرسلة، تضىء بالورع والتقوى. سأرسل لك رسولا من قبلى بهذا اليوم. قد لا نلتقى بعد ذلك يا "ممدوح" فلا تنس أنى أودع عندك كل ما أملك، فلذة كبدى ولتكن مع "مديحة" أسعد حظاً منى. وفقك الله ورعاك لها.

ودمعت عين "ممدوح" وهو يذكر هذه التضحية الكبيرة التى يؤديها له "جلال".

إنه يعيد إليه "مديحة"، بعد أن أودعها قطعة من نفسه.

إنه يتركها له، ليمضى فى الحياة غريباً شريداً، بلا ولد ولا أهل ولا صديق.

ما هذا؟ ألا يزال فى الدنيا هذا الخير؟ ألا تزال هناك قلوب تنبض بكل هذا الحب؟

لكنه رأى من خلال غشاوة الدمع صورة "مديحة" فارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة، وأخذ يستعيد عمره معها.

الربع الكبير الذى نشأ فيه فى الدرب الأحمر.

حياته الأولى وعاهته التى أرقت لياليه.

أبوها الأسطى "عبد الغفار"، وبطولته الفريدة الصلبة، ثم مقاومته ومحاكمته وسجنه، وموته بعد ذلك فى ظروف غامضة.

"سالم" وما قدمه من نماذج رائعة، كانت تسلب لبها. ثم مصيره الحزين وكيف نفذ على أعمق أعماقها، فحمله هذا على أن يحذو حذوه حتى يفوز بإعجابها.

مصيره القاتم فى المعتقل، ثم فى المعسكر الإنجليزى، ثم المعركة الرهيبة التى راح فيها جريحاً لا يعبأ به أحد، حتى تهيأت له المصادفات، فعاد على حظيرة الوطنيين، ثم قدر له أخيراً أن يسمع أنباء "مديحة".

لكنه تصورها حاملا فى بطنها جنين رجل آخر، بذل المستحيل لإنقاذه، فكاد أن يصيح طالباً "جلال" ليقول له:

ـ لا يا "جلال". أنت أولى بالحياة معها. أنت صاحب الحق فيها. أنت الذى أنقذتها مما كانت تعانيه. إن يكن لابد من تضحية، فلتكن هذه التضحية من نصيبى. "جلال" أنا الذى سأختفى من حياتكما. لقد اختفيت كل هذا الوقت الطويل، وعلى أن أستمر مختفياً عنكما إلى الأبد. لماذا لم ألق مصرعى يوم أصابنى الرصاص؟ لماذا لم أمت يا

ربى لأرتاح ولأريح؟ لماذا كتبت لى الحياة مرة أخرى؟ ألكى أبدد سعادة اثنين تحابا وتزوجا وارتبطا بجنين يتحرك طالباً الحياة؟ ما أتعسنى ! ما أشقانى !

●●●

لكن "جلال" كان قد مضى، لينفذ ما اتفقا عليه، فاكتفى "ممدوح" بالدموع يرسلها فى أسى على الصديق الذى حفر نهايته بيديه، وكان فى استطاعته أن يستمتع بالحياة.

ولم يضع "جلال" وقتاً.

لقد عاد، وفى ذهنه، أن ينتهى من "أبو سريع" على الفور، حتى لا يستمر عقبة تهدد هناء الزوجين، وأحدهما أعرج لا يستطيع أن يجاريه فى أساليبه، والثانية غريبة وفاتنة، وستظل أبداً مطمع الرجل السفاح.

قال "جلال":

ـ "مديحة". إذا كان الغد، فاتفقى مع هذا المجرم، على أن تقابليه بعد المغرب عند الساقية، بشرط أن يدبر أمره، فيكون المكان خالياً حتى من "أبو المكارم".

قالت "مديحة":

ـ ألقاه عند الساقية؟! أذهب إليه هناك؟ وإن اغتصبنى يا "جلال"؟

قال "جلال":

ـ لن يستطيع، فسأكون قبلكما متخفياً هناك.

قالت مديحة:

ـ لكنه رجل مجرم.

قال "جلال":

ـ وأنا أكثر منه إجراماً عندما أريد. سأدعى أنى ذاهب إلى كفر الزيات،وأنى لا أدرى متى أعود. وأنت تبيتين عند "راضية". ستنتظريننى حتى الغروب، فإذا لم أعد

فستذهبين إلى "راضية" لتبيتى عندها. اذهبى عن طريق الساقية لتقابليه بعيداً عن العيون والآذان.

قالت "مديحة":

ـ لكن حذار أن تتركنى وحدى يا "جلال". إنه رجل وحش وشرير.

قال "جلال":

ـ ومن أجل هذا فقد أصبح ضرورياً أن أقضى عليه.

وغادر "جلال" القرية مع الضحى، فى طريقه إلى كفرالزيات، لبعض الأمور.

وما إن علم شيخ الخفر، حتى كان هناك عند سيدى الذكيرى، متظاهراً بأنه قادم للزيارة والصلاة.

وأخذ كعادته يتقرب من "مديحة"، ويلح عليها بالهوى الذى اشتعل حتى أخذ يهدد قلبه بحريق.

وابتسمت "مديحة" فى إغراء.

لم تصده، ولم تبعده، ولم تقابله بلفظ جاف.

وهاجت شجون شيخ الخفر، حتى لقد كاد يصيح من فرحته.

قال لها فى هيام:

ـ أتتركيننى هكذا يا مليحة الوجه والقوام. إنى سأموت بحبك.

قال "مديحة":

ـ وما ذنبى يا شيخ الخفر؟ أنا زوجة يا "أبو سريع". وزوجة من؟ شيخ الضريح الطاهر.

قال فى استجداء:

ـ لكن ما ذنبى أنا يا فاتنة؟ لماذا لم تكونى زوجة رجل آخر حتى يسهل علينا الأمر؟ لماذا لم تكونى من نصيبى أنا، حتى أضعك فى المكان الذى يتناسب مع جمالك وفتنتك؟ تتزوجين هذا الشيخ المتهالك، وتحملين منه كذلك !!

إنى أحترق من الغيرة يا ستى يا ملكة قلبى. هذا الجنين كان يجب أن يكون منى ولى.

قالت فى دلال:

- قسمة ونصيب يا شيخ الغفر.

قال "أبو سريع":

- قولى يا "أبو سريع". أنا خادمك "أبو سريع". لكن متى نلتقى؟

قالت فى حذر:

- نلتقى. وكلام الناس؟ وألسنة الناس؟ أنسيت من أكون؟

قال فى تهور:

- أقطعها. أقطع أى لسان يتكلم عنا. أخرس أى صوت يتناول حبنا.

قالت فى سخرية:

- لكنهم لن يستأذنوك قبل أن يقولوا عنا ما يشاءون. ألا تعرف الناس يا شيخ الغفر؟

قال فى تحد:

- لكن مع هذا لابد من أن نلتقى.

قالت بعد تردد:

- اسمع هناك فرصة واحدة. الشيخ اليوم فى كفر الزيات، فإن تأخر إلى ما بعد الغروب فسأذهب لأبيت فى بيت "الشيخ مختار". وبدلا من أن أذهب من هذا الطريق سأذهب إليهم من الطريق الآخر.

قال فى همس:

- طريق الساقية تقصدين؟

قالت فى طراوة:

- نعم طريق الساقية.

وصاح من فرحته:

ـ عظيم عظيم. أحسن مكان نلتقى فيه.

قالت فى خوف:

ـ و "أبو المكارم". والذين يروون حقولهم من الساقية.

قال فى ثقة:

ـ إجازة اليوم. لا رى، ولا "أبو المكارم" بأمر شيخ الغفر.

قالت فى تئن:

ـ وتضمن هذا؟ أتضمنه بغير أن يثير فضول الناس؟

قال فى قسوة:

ـ نعم أضمنه، وأفرضه كذلك. أنا "أبو سريع".

قالت له أخيراً:

ـ وهل ستحضر معك هذه البندقية وهذا الكرباج. أم تحضر الغفير الذى يتبعك كظلك؟

قال فى رجاء:

ـ قولى ماذا تريدين؟

قالت فى خبث:

ـ سآتى إليك أنت، لا للغفير الذى يتبعك. ثم إنى أفضلك بلا بندقية ولا كرباج.

وصاح كالطفل:

ـ لك ما تريدين. وإن طلبت أن آتى لك مجرداً من الثياب، لأتيتك كما ولدتنى أمى.

وخفضت عينيها فى خجل، ومضت بعيدة عنه لينصرف.

وما إن انصرف حتى أخذت تستعيد ما دار بينهما من حديث وهى تخاف أن يتأخر عنها "جلال" فيكون منه مالا تحمد عقباه.

ماذا سيحدث عندئذ.

إنها تعرفه. إنه رجل نذل جبان فاجر، وهى حامل لا تستطيع أن تقاومه إذا عنف أو اشتد.

لكن لا... هل تتركه يعتدى عليها؟ إنها تفضل أن تموت على أن تغتصب وبهذا الأسلوب القذر الجبان.

هل تراه يدفعها إلى الرياح كما فعل مع "تفيدة"، إنها أيضاً "تفيدة" كما سماها "جلال" . هل تتقطع أنفاسها تحت الماء، وهى تستغيث ولا مغيث؟

وأخذت "مديحة" تطرد هذه الأفكار السوداء عن رأسها، محاولة أن تتشاغل بشىء يصرفها عن التفكير.

●●●

وجاء المساء، ولم يعد الشيخ.

وخرجت هى تقدم رجلا وتؤخر أخرى.

هل تذهب أم تغير رأيها؟

لكن "جلال" قد وضع خطته على أساس أنها ذاهبة. هل تفسد "لجلال" خطته وهى تحبه، ولا تريد أن تعصاه.

ومضت وهى تفكر فى أمرها.

ومرت بذهنها فكرة التخلص من "أبو سريع"، فأخذت تلوم نفسها على أنها ستساهم فى قتله، لقد صعب عليها الموقف، وأحست أنها أغرته بنفسها لتجره إلى حتفه. وكادت تتعثر فى خجلها من موقفها.

لكنها عادت تذكر ما فعله الرجل بالآلاف المساكين من أبناء قريته، وكيف غرس فيهم الذل والهوان، حتى لقد اعتادوا أن يسيروا مطأطئى الرءوس، يخافون من ظلالهم، ويخشون أن يتخطفهم "أبو سريع".

واستعادت ما قاله "جلال" عنه، وكيف يعتبره امتداداً للاحتلال، حتى لو لم يدر هو حقيقة موقفه.

وهنا اطمأنت بالا فمضت فى طريق الساقية.

●●●

ووجدته هناك ينتظرها، فارتبكت خطواتها.

وعندما وصلت إليه قال لها فى مرح:

ـ هذا هو "أبو سريع" الذى تفضلينه وحده. بلا غفير، ولا بندقية، ولا كرباج. انظرى، ألم أقل لك إن الساقية لن تدور اليوم بالأمر، وإنك لن تجدى أحداً، ولا "أبو المكارم". تعالى يا حبيبتى إلى. ارفعى هذه الطرحة عن وجهك، لتظهر فتنتك.

قالت وهى ترتعد:

ـ لكن لماذا تتعجل هكذا؟ هناك وقت يا شيخ الغفر.

قال فى لهفة:

ـ وقت؟! الوقت عدونا يا مالكة قلبى. لقد انتظرتك هذه المدة، وأنا أتقلى على النار. تعالى إلى، فإن كل ثانية تمر، وأنت عنى بعيدة، ضائعة فى الهواء.

وهجم عليها كالوحش.

وحاولت أن تتخلص منه فما استطاعت.

وكاد يعتصرها بين ذراعيه، وشفتاه تبحثان عن شفتيها، لتنطبقا عليهما فى قبلة محمومة.

●●●

وفجأة ظهر "جلال" فى زى شيخ الضريح.

وصاح "أبو سريع" وهو يتلفت نحوه:

ـ شيخ "أبو عوف"؟

قال "جلال": .

ـ لا يا شيخ الغفر. أنا لست "الشيخ أبو عوف". انظر وسترى.

وخلع ملابس الشيخ، ثم نزع ذقنه المسبلة.

وبدا على حقيقته، فصاح "أبو سريع":

ـ أنت ...أنت "جلال".

قال وقد صوب نحوه مسدساً كان فى يده.

ـ نعم أنا "جلال". إياك أن تتحرك، وإلا قتلتك.

وقدم «جلال» إلى «مديحة» حبلا طويلا، وقال لها فى لهجة آمرة لا تعرف التردد:

– اسمعى أوثقيه بهذا الحبل على أن تكون ذراعاه خلف ظهره.

فلما انتهت من ذلك قال لها :

– وأوثقى كذلك قدميه.

وبدا شيخ الغفر قطعة مكومة لا تتحرك.

وقال «جلال» :

– هل تذكر يا شيخ الغفر ماذا فعلته بأمى؟ لقد أغرقتها فى هذا الرياح.

والآن جاء دورك ستموت مثلما ماتت تماماً.

وحاول شيخ الغفر أن يتكلم، فصوب نحوه المسدس فابتلع كلامه مع ريقه اللاهث.

ومد «جلال» يده إلى حجر ثقيل كان قد أعده فعلقه فى رقبته.

وفى لمح البصر رماه فى الرياح، فتاهت صيحاته بين الأمواج، فى حين أخذ «جلال» يبتسم فى شماتة، وهو يتابع آثاره على صفحة الماء.

ولم يضيع «جلال» ولا «مديحة» وقتاً، فقد عادا إلى مكانهما من ضريح الشيخ ومرت بهما ليلة صامتة لم يتبادلا خلالها الحديث.

•••

وفى اليوم الثانى ذهلت القرية وهى تسمع قصة «أبو سريع» وكيف وجدوا جثته فى الرياح، غريقاً مسلوب الحياة.

ولم تصدق القرية أول الأمر.

إن «أبو سريع» لا يموت !

إنه أكبر من الموت .

لكنه مع هذا مات.

وبعد أن خف أثر المفاجأة، بدأت القرية أحزانها على شيخ الغفر.

وكانت القرية صادقة فى حزنها عليه، فحتى الذين أذلهم هذا الزمن الطويل، حزنوا عليه، فإن للموت جلالاً تزول عنده رواسب النفوس.

ولم يسفر التحقيق عن إدانة، برغم ما حاوله العمدة ومشايخ البلد والغفر والأعيان من البحث والتحرى عمن يكون قد قتل «أبو سريع».

حامت بعض الشبهات حول «عباس»، لكن «عباس» أثبت بالدليل أنه برىء من دم «أبوسريع».

وقيدت الحادثة ضد مجهول، وإن أقسم العمدة والأعيان أنهم لابد واقفون على من قتل «أبو سريع» ليقضوا عليه بأيديهم.

وضحك «جلال» وهو يسمع أنباء هذا القسم الغليظ.

•••

وبدأ «جلال» يرتب لتنفيذ بقية الخطة، فأشاع أنه ذاهب إلى الحجاز ليحج ويزور قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بينما أكد لـ «مديحة» أن هذا هو الطريق الوحيد الذى ينجيه من الأخطار التى بدأت تحيط به من كل جانب.

وفى اليوم المحدد غادر الشيخ «أبو عوف» القرية، بعد أن ودع أهلها وقبل زوجته، ودمعت عيناه وهو يعانق عمه «أبو المكارم».

قال لـ «مديحة» :

- استودعك الله. إن الله لن ينساك أبداً.

وقال «لأبو عوف» :

- إياك أن تنسانى يا عمى «أبو المكارم»، فإنه لم يبق لى سواك.

وقال لأهل القرية

- سأقرأ لكم جميعاً الفاتحة فى قبر رسول الله، وسيحضر «الشيخ عبد الرءوف» أحد إخوانى ليقوم على أمور الضريح، والحضرة حتى أعود. وستعاونه زوجتى فيما تستطيعه من الأمور.

وتبادل نظرات غامضة مع الرجل الذى يعرف أسراره جميعاً. ولا يذيع منها سراً.

إن «أبو المكارم» كان يعرف كل شىء. كان يعرف أن «ممدوح» سيصل فى أى يوم ليأخذ مكان "جلال" من الضريح، ومن الحضرة، ومن زوجته كذلك.

لكن هكذا شاءت إرادة الله.

●●●

وبعد أيام وصل إلى القرية رجلان غريبان، أحدهما "ممدوح"، فى زى "الشيخ عبد الرءوف"، والآخر رسول يعرفه "أبو المكارم"، وقد اعتاد أن يحضر إلى "جلال" برسائل مختلفة من الجمعية التى يعمل معها.

واستقبلهما "أبو المكارم" بضحكة مهمومة قلقة. لقد كان ينتظر أن يسمع أنباء "جلال" الغالى، وأن يطمئن منهما عليه.

لكنه رآهما يتلقيان بسماته فى جمود، وفى صمت حزين.

ثم دمعت عيونهما، وهما يتبادلان النظر إليه.

وفتح "أبو المكارم" فمه فى دهشة، وأشار إليهما يستفسر عما وراءهما. وكان ما وراءهما هو نعى "جلال".

ولم يصدق "أبو المكارم". ظن أن ذلك جزء من الخطة التى دبرها.

لكنهما أكدا له أن جثته فى الطريق إلى "سيدى الذكيرى".

وسقط "أبو المكارم" مغشياً عليه، فلما أفاق سمع تفصيلات القصة وكيف أن "جلال" دخل فى معركة عند السويس مع قوات الاحتلال فقتل. ذهب إلى ساحة الشهداء ليحتل منها أعز مكان.

ولقد نجحت الجمعية فى تصوير نهايته على أنه قتل خطأ، لتتمكن بذلك من الحصول على جثته، على أنها جثة شيخ مظلوم أصيب وهو فى الطريق إلى بعض القرى لزيارة مريديه، وتدارى فى الوقت نفسه نشاط العناصر الأخرى التى اشتركت فى المعركة التى قادها "جلال" ببسالة وراح ضحيتها عدد كبير من قوات الاحتلال، غير الخسائر الفادحة فى الذخيرة والأسلحة والممتلكات.

وستدفن جثة "جلال" على أنها جثة الشيخ "أبو عوف"، فى أحب مكان إلى قلبه. عند "سيدى الذكيرى"، قريباً من الساقية وشجرة الصفصاف التى شهدت مصرع أمه، وبين عينى الرجل الذى كان منه أعز من أبيه :

أبو المكارم الأخرس.

إن "جلال" قال وهو يموت:

لقد أعفانى الله من التدبير فوضع هو نهايتى.

لم أعد محتاجاً إلى نهايات مصطنعة لقصتى. كل ما أريده، هو أن أدفن هناك عند "سيدى الذكيرى". ولبنولى "ممدوح" بعدى خدمة الضريح، يحتمى ببركته من عيون الرقباء.

ما أسعد هذه النهاية ! سأكون هناك أبارك الحب الطاهر الذى حقق هذه المعجزة، فأعاد "ممدوح" إلى "مديحة" برغم كل ما كان بينهما من عقبات.

وسترفرف روحى فى كل مكان هناك، حيث طبعت بصمات من عمرى لم تجف، وحيث سأطبع البصمة الأخيرة والوحيدة من حياتى : فلذة كبد محروم.

●●●

وعند ما فرغ الرجلان من هذه الرواية، كانت السيارة التى تحمل جثة "الشيخ أبو عوف" قد ظهرت على جسر الرياح، فى الطريق إلى "سيدى الذكيرى" وخلفها عدد من السيارات تحمل عدداً من المعزين، فى مقدمتهم مندوبون عن قيادة الحلفاء جاءوا ليتعذروا لزوجته عن القتل الخطأ، وكيف أدى إلى هذه الخسارة الفادحة، وموت الشيخ الطاهر، خادم الضريح الشريف.

بينما كانت "الشيخة تفيدة" قد فرغت من ملء القلل، وإشعال البخور، وأخذت تطل على القبور تقرأ الفاتحة للموتى حول "سيدى الذكيرى"، ولكل الذين أوصاها زوجها أن تقرأ الفاتحة من أجلهم: أمه "تفيدة"، وجده "أبو عوف"، وجدته "أم الهنا"، وخالته "مفيدة"، وصديقه وأستاذه "رءوف"، و "سالم" وكل الضحايا الشرفاء.

ولم تكن تدرى أنها تقرأ الفاتحة له أيضاً، بعد أن رحل مع الراحلين.

■■■

تمت بحمد الله

إمبابة ـ صباح ٣٠ يونيو ١٩٦٧